



29.1.2016

دوستويفسكي

الشياطان بين

المجلد الأول

الشوهر

ترجمة: د. سامي الدروجي

دوستويفسكي الشياطان

ترجمة: د. سامي الدروبي

المجلد الأول

الشوكر

دوستويفسكي
الشیاطین
المجلد الأول

الكتاب: الشياطين/ المجلد الأول

المؤلف: دوستوفسكي

ترجمة: د. سامي الدروبي

عدد الصفحات: 520 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-52-8

رقم الناشر: 14/439-61

الطبعة الأولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:



للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان:

بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم

ستتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com

مصر:

القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10

هاتف: 00201007332225 - 0020227738931

فاكس: 0020227738932

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس:

24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟
الشيطان يجرنا هنا وهناك
ويديرنا إلى كل الجهات

ما عددهم وإلى أين يسيرون مسرعين؟
ماذا تعني أغنيات الحداد هذه التي يرددونها؟
أهم يدفنون أحداً من أهلهم؟
أم أنهم يزوّجون ساحرة؟

أ . بوشكين

"وكان هناك قطيع من الخنازير يرعى في الجبل، فتضرعت الشياطين إلى يسوع أن تدخل في الخنازير. فأذن لها. فخرجت من ذلك الإنسان ودخلت في الخنازير. فاندفع القطيع من أعلى الجرف إلى البحيرة وغرق فيها. فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ في المدينة وفي القرى. فخرج الناس ليروا ما جرى، فلما وصلوا إلى قرب يسوع وجدوا الإنسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه، وجدوه لابساً ثيابه، مالكاً عقله، جالساً عند قدمي يسوع. وروى لهم شهود الحادث كيف خلّص المجنون."

(إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، 32)

الجزء الأول

الفصل الأول

بمثابة مدخل: بضعة تفاصيل عن حياة المحترم
المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

حين أشرع في سرد قصة الأحداث الأخيرة الغريبة التي وقعت في مدينتنا - في هذه المدينة التي لم تتميز بشيء يوماً - فإنني أجدني مضطراً أن أتقهقر قليلاً إلى الوراء، أي أن أبدأ بذكر بعض التفاصيل عن حياة ذلك الرجل الموهوب المحترم المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي⁽¹⁾. إن هذه التفاصيل لن تكون إلا مدخلاً إلى القصة التي نروي أن نرويها. أما القصة نفسها فتأتي بعد ذلك.

يجب أن أقول بصراحة أن ستيفان تروفيموفتش قد مثل بيننا على الدوام دوراً خاصاً، دوراً "مدنياً" بمعنى من المعاني، وكان مولعاً بهذا الدور أشد الولع، شغوفاً به أقوى الشغف، حتى ليخيل إليّ أنه ما كان يستطيع أن يعيش من دون أن يمثله. ليس معنى هذا أنني أشبهه بممثل على مسرح. معاذ الله! لا سيما وأنني أنا نفسي أحترمه. ولعل الأمر لا يعدو أن يكون عنده أمر عادة، أو قل أمر ميل ثابت نبيل، كان يحمله منذ الطفولة، بأن يحلم لنفسه - متلذذاً

(1) ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي: إن هذا الاسم العلم مشتق من الكلمة الروسية المجردة فرخوفنستفو، ومعناها التفوق. وهو يمكن أن يدل على أن هذه الشخصية، كأكثر الأساتذة الروس، تنحدر من أرومة من رجال الدين. غير أن له معنى أعمق كما تبين ذلك ملاحظة وردت في إحدى مسودات الرواية، حيث يقول دوستوفسكي: "إن فرخوفنسكي يظل طوال الرواية ينافس ابنه على التفوق" (فرخوفنستفو).

- بوضع مدني جميل. فهكذا كان يصبر أشد الإصرار على أن يحتفظ لنفسه بحالة إنسان "مضطهد" أو إنسان "منفي" بمعنى من المعاني. إن في هاتين الكلمتين الصغيرتين جمالاً كلاسيكياً قد فتن لبه مرة إلى الأبد، وكان يرفع قدره في نظر نفسه شيئاً بعد شيء، خلال سنين بلغت من الكثرة أنه نصبه أخيراً على نوع من قاعدة تمثال عالية ترضي غروره كثيراً.

في رواية إنكليزية ساخرة يرجع عهدها إلى القرن الماضي، أن رجلاً اسمه جوليفر عاد من بلاد الليلوبسيين التي لا يزيد طول البشر فيها على بوصتين، وكان قد بلغ من التعود على أن يعدّ نفسه بينهم عملاقاً ضخماً، حتى أنه أثناء سيره في شوارع لندن كان يصيح على غير إرادة منه، مهيباً بالمارة والعربات أن تزيع عن طريقه مخافة أن يدوسها، فهو ما يزال يتخيل نفسه عملاقاً وما يزال يتصور الناس أقزاماً. وكان الناس يضحكون منه ساخرين، وكانوا يشتمونه ويسبّونه، وكان الحوثيون الغلاظ يمضون إلى حد لسع العملاق بضربات من سياطهم. ولكن هل كان هذا عدلاً؟ الحق أن ستيفان تروفيموفيتش كان قد وصل إلى هذا الحد تقريباً، وإن يكن في صورة أكثر براءة وأقل ضرراً وأذى، إذا جاز استعمال هذا التعبير، لأنه كان رجلاً ممتازاً، والحق يقال.

أغلب ظني أنه كان في النهاية قد نُسي في مكان ما، وأنه غاب عن ذاكرة جميع الناس. ولكننا لا نستطيع أن نقول أنه كان رجلاً مجهولاً تماماً في جميع الأزمان. فما لا يمكن أن يجحده أحد أنه كان هو أيضاً في وقت من الأوقات أحد نجوم الحياة العامة من أبناء جيلنا الماضي، وأن عدداً من المسرفين في التعجل قد قرئوا اسمه خلال فترة من الوقت - وإن تكن فترة قصيرة جداً - بأسماء رجال مثل تشادييف⁽¹⁾ وبيلنسكي وخرانوفسكي وهرتسن الذي كان

(1) بطرس تشادييف (1857-1793): ضابط سابق من ضباط فرسان الحرس، وكاتب سياسي، وفيلسوف اعتنق الكاثوليكية. ألف باللغة الفرنسية أربع "رسائل فلسفية"، يظهر فيها تعصبه الشديد للغرب، ويحكم حكماً قاسياً على روسيا التي يرى أنها في أعقاب انقسام الكنيسة قد انشقت عن الغرب، ثم لم تحمل إلى التراث الإنساني

يخطو أولى خطواته في الخارج حينذاك. غير أن نشاط ستيفان تروفيموفيتش ما كاد يبدأ حتى انتهى، في أعقاب "إعصار من الظروف" إن صح التعبير. وقد تبين فيما بعد أنه لم يكن ثمة "إعصار" ولا كان ثمة "ظروف" في هذه الحالة التي تعيننا على الأقل. ولم أعلم إلا الآن، منذ بضعة أيام، أن ستيفان تروفيموفيتش لم يكن يعيش في مقاطعتنا منفياً، كما كان يظن الناس عندنا عامة، بل ولا كان مراقباً في يوم من الأيام. لقد دهشت أكبر الدهشة حين عرفت هذه الحقيقة، ولكنني عرفتُها من مصدر لا يتطرق الشك إلى صدقه. فانظر إذن إلى قوة الخيال ما أكبرها! لقد ظل هو نفسه، طوال حياته، يعتقد أن هناك أوساطاً لم تنقطع عن التخوف منه يوماً، وأن جميع خطاه كانت معروفة معدودة، وأن كل واحد من الحكام الثلاثة الذين تعاقبو على مقاطعتنا خلال السنوات العشرين الأخيرة كانوا يحملون عنه منذ وصولهم فكرة خاصة

المشترك أي فكرة. و الرسالة الأولى من تلك الرسائل الأربع قد ترجمت إلى اللغة الروسية ونشرت دون علمه. فعل ذلك الأستاذ نادجدين إذ نشر الرسالة في مجلته "التلسكوب" سنة 1836، فكانت فضيحة. وقد منعت مجلة التلسكوب ونفي محررها إلى برم، كما أعلن رسمياً أن كاتب الرسالة مجنون، وصار يزوره طبيب في كل أسبوع.. ولكن ذلك لم يمنعه من التآلق بأحاديثه الكاوية في صالونات موسكو، حيث كان أنصار الغرب يقدّسونه تقديساً.

أمّا بيلنسكي الذي يورد المؤلف اسمه بعده فهو فساريون بيلنسكي (1811-1848) الناقد الأدبي الشهير الذي كان في أول الأمر من أنصار النزعة الغربية اللبرالية، ثم صار في أواخر سني حياته إلى الاشتراكية.

وأمّا خرانوفسكي الذي يرد اسمه بعد ذلك فهو تيموتي خرانوفسكي (1855-1813) أستاذ التاريخ العام بجامعة موسكو. وقد حصل علومه في ألمانيا، وكان من أنصار النزعة الغربية المعتدلين. وكان لمحاضراته عن تاريخ أوروبا في القرون الوسطى دوي كبير في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.

وأمّا الكسندر هرتسن (1870-1812) فهو الابن الشرعي والوريث للمليونير اسمه إيفان باكوفليف، وهو كاتب لامع من دعاة النزعة الغربية. وقد بدأ بالفيلسوف الألماني هيغل، شأنه في ذلك شأن بيلنسكي، ثم صار إلى اشتراكية ثورية. وهاجر منذ سنة 1860، وأنشأ في لندن مجلة معارضة اسمها "الناقوس" نفذت إلى روسيا بل وصلت حتى إلى مكتب الكسندر الثاني، وكان لها في العقول تأثير كبير.

قلقة يوحى بها إليهم من أعلى، ويوحى بها إليهم منذ تعيينهم قبل كل شيء آخر. فلو حاول أحد حينذاك أن يقنع المحترم جداً، ستيفان تروفيموفيتش، بالأدلة القاطعة، أن له أن يطمئن وأن في وسعه ألا يخشى شيئاً، لكان يغضبه حتماً. على أن ستيفان تروفيموفيتش كان من خيرة الناس ذكاء وموهبة، حتى لنستطيع أن نعهده بمعنى من المعاني رجلاً من رجال العلم، وإن يكن، من ناحية العلم...، لم ينتج شيئاً ذا بال، أو لم ينتج شيئاً البتة. ولكن هذا أمر يقع كثيراً لرجال العلم عندنا في روسيا.

لقد عاد من الخارج ولمع نجمه مدرّساً بالجامعة حوالي سنة 1840، ولم يتسع وقته لأكثر من إلقاء بضع محاضرات. وكانت هذه المحاضرات عن العرب فيما يبدو. واستطاع أيضاً أن يناقش رسالة لامعة عن الأهمية الحضارية والتجارية التي بدأت تحظى بها بين عامي 1413 و 1428، مدينة هاناو الألمانية الصغيرة⁽¹⁾، وكذلك عن الأسباب الخاصة الغامضة التي منعت تلك المدينة من اكتساب تلك الأهمية بعد ذلك. وكان من شأن تلك الرسالة أن طعنت أنصار السلافية حينذاك ببراءة وحذق، فأوغرت صدورهم عليه، وأصبح له من بينهم أعداء كثيرون عتاة. وبعد ذلك - وكان قد فقد كرسيه في الجامعة - نشر (على سبيل الانتقام إن صح التعبير، ولكي يرى الناس فداحة الخسارة بفقده). نشر في مجلة جديدة تقديمية كانت تترجم ديكنز وتدعو إلى جورج صاند، بداية دراسة عميقة جداً، كان موضوعها فيما يبدو هو أسباب النبيل الخارق الذي يمتاز به فرسان لا أدري أي عصر من العصور، أو كان موضوعها شيئاً من هذا القبيل. لكنه على كل حال قد برهن في تلك الدراسة

(1) "مدينة هاناو الألمانية الصغيرة": تقع على نهر الماين، وهي مدينة ليس لها أي شأن. وهنا في الواقع إشارة إلى رسالة الدكتوراه التي كتبها خرانوفسكي عن مدن القرون الوسطى "قولن"، و"يومسبورج"، و"فينيتا" ((1840)، والتي جرح فيها شعور أنصار السلافية. ويحسن أن نشر هنا عابرين إلى أن الرسالة الأولى التي يقدمها صاحبها إلى الجامعة في روسيا لا تحوله إلا لقب "مرشح". ولكي يصبح أستاذاً فوق العادة يجب أن يقدم رسالة "أستاذية". ولكي يصبح أستاذاً عادياً يجب تقديم رسالة "دكتور". وكانت المناقشة العلنية لهذه الرسائل تعد في روسيا على الدوام حدثاً هاماً.

على فكرة رفيعة غاية الرفعة، نبيلة أقصى النبل. وقد قيل فيما بعد إن تنمة هذه الدراسة قد منع نشرها فوراً، بل وإن المجلة التقديمية قد لقيت متاعب كثيرة لأنها نشرت نصفها الأول. جائز جداً أن يقع هذا، بأي شيء كان يستحيل حدوثه في ذلك الزمان؟ ولكن الأرجح، في الحالة التي تعيننا الآن، أن هذا لم يحدث، وأن الكاتب نفسه قد تقاعس عن إتمام دراسته كسلاً. أما دروسه عن العرب فقد أوقفها لأن شخصاً لا ندري من هو (لا شك أنه أحد أعدائه الرجعيين)⁽¹⁾ قد قبض، لا ندري كيف، على رسالة كانت موجهة إلى واحد من الناس وفيها عرض لبعض "الظروف"، فكان من جراء ذلك أن أحد الأشخاص طلب منه بعض الإيضاحات. لا أدري إن كان هذا صحيحاً. ولكن قيل أيضاً إن جمعية كبيرة قد اكتشفت ببطرسبرج في ذلك الوقت نفسه، وهي جمعية تناهض الطبيعة وتناهض الدولة، بلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر عضواً، وأوشكت أن تززع البناء، حتى أنها كانت تنوي أن تترجم فورييه نفسه. وبمصادفة تشبه العمدة، ألقى القبض في موسكو، في ذلك الوقت نفسه، على قصيدة كان ستيفان تروفيموفيتش قد نظمها قبل ذلك بعشر سنين، في مدينة برلين، أيام شبابه الأول⁽²⁾ ألقى القبض عليها بينما كانت تنتقل منسوخة، من

(1) حين اعتقال أعضاء حلقة بتراشفسكي، في الثالث من شهر نيسان (أبريل) سنة 1849 عثروا لدى سرجي دوروف رسالة من الشاعر آ. بلشتايف يتكلم فيها عن خرانوفسكي ممجداً معظماً. وقد أمر الجنرال حاكم موسكو يومذاك بأن يُراقب مراقبة سرية.

(2) في كانون الأول (ديسمبر) 1849 اتهم خرانوفسكي بأنه يعادي الدين في محاضراته، واضطر أن يقدم إيضاحات للسلطات المختصة بموسكو.

والكلام على الجمعية التي يبلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر إنما هو إشارة دعاية إلى حلقة بتراشفسكي التي كانت تدين بالاشتراكية، والتي انتمى إليها دوستوفسكي من 1846 إلى 1849. أما ما يرد بعد ذلك من كلام عن قصيدة لستيفان تروفيموفيتش فإن دوستوفسكي حين يشرح هذه القصيدة يجعل منها محاكاة للقصيدة الرومانسية التي نظمها فلاديمير بيشيرين بعنوان "انتصار الموت"، سنة 1834، إن كاتب القصيدة هو أستاذ في فقه اللغة (1807-1885) غربي النزعة، درس برلين، وترك كرسية الجامعي بموسكو مهاجراً إلى إنجلترا حيث صار كاتباً كاثوليكياً. إننا نرى في هذه القصيدة أغاني رياح ونجوماً ولها. والموت يظهر فيها فتى جيلاً جالاً لا مثيل له، ممتطياً صهوة جواد أبيض، تهتف له الشعوب في مختلف الكواكب صائحة باللغة الفرنسية "عاش الموت"، "عاش الموت". وهذه القصيدة المحترمة الحارة قد ضمنها هرتسن سنة 1861 الديوان الذي أسماه "الأدب السري الروسي في القرن التاسع عشر". وإليك مقتطعا من تلك القصيدة:

يد إلى يد، بين اثنين من الهواة وأحد الطلاب. إنني أحتفظ بهذه القصيدة في درج منضدتي: أهدايتها ستيفان تروفيموفيتش بنفسه منذ سنة واحدة وقد نسخها بخط يده، وزينها بإهداء منه، وجلدّها بجلد أحمر جميل. إن هذه القصيدة لا تخلو من شعر، بل ولا تخلو من بعض الموهبة. هي غريبة، ولكن كثيراً ما كان الشعراء ينظمون على هذا النحو في ذلك الأوان (أو قل على وجه أدق بين سنة 1830 وسنة 1840). صعب عليّ أن أحدثكم عن موضوع القصيدة، لأنني في حقيقة الأمر لا أفهم منها شيئاً. إنها نوع من الرمز مصبوب في قالب غنائي درامي يذكر بالجزء الثاني من فاوست. يرفع الستار عن جوقة من النساء تعقبها جوقة من الرجال ثم جوقة من عناصر الطبيعة لا أدري ما هي، وتأتي أخيراً جوقة أرواح لم تعش بعد ولكنها تشعر برغبة قوية في أن تذوق الوجود. وهذه الجوقات كلها تغني شيئاً مبهماً شديد الإبهام هو في أكثر الأحيان نوع من اللعن لكنه لعن يُقال بلهجة لا سبيل إلى مغالبة ما تثيره من ضحك، وفجأة يتغير المشهد ليحل محله ما يسميه المؤلف "عيد الحياة"، وفيه تشترك الحشرات نفسها بأغنيات. وتظهر سلحفاة، فتتطرق بعبارة لاتينية من تراويل الصلاة، ويظهر كذلك، إذا صدقت ذاكرتي، معدن من المعادن، أي شيء لا حياة فيه، يأخذ ينشد هو أيضاً. وهؤلاء جميعاً لا يزيدون على أن يغنوا، فإذا اتفق لهم أحياناً أن يتكلموا، فإنما هم يتكلمون ليتشاجروا، دون أن يكون ثمة ما قد يبعث على المشاجرة، ولكن بلهجة من أكثر اللهجات أبهة وفخامة بطبيعة الحال. ثم يتغير الديكور مرة أخرى. فالمكان الآن متوحّش. وهذا شاب متحضر يسير وحيداً بين الصخور، يقطف الأعشاب وهذه جنية تسأله لماذا يأكل هذه الأعشاب، فيجيبها بقوله إنه لشعوره بفرط ما يتدفق فيه من قوى حيوية ينشد النسيان، وأنه يجد ضالته في مصّ هذه النباتات، لكن

ما أجمل أن يبغض المرء وطنه.

أن ينظر إلى دماره نها،

أن يتنبأ من خلال خراب بلده

بحلول يوم التغير الكوني الشامل.

رغبته الأساسية هي أن يفقد عقله بأقصى سرعة (رغبة نافلة). ويدخل بعد ذلك، على حصان أسود، فتى لا سبيل إلى وصف جماله، ووراء جمهور كبير من الناس ينتمون إلى جميع القوميات! إن هذا الفتى يجسد الموت الذي تنو إليه جميع الشعوب! ثم يظهر فجأة، في الفصل الأخير، برج بابل، وقد أخذ رجال أشداء يكملون بناءه وهم ينشدون نشيد الأمل الجديد. فإذا تم البناء حتى القمة رأينا المالك - ولنسمه صاحب الأولمب - يهرب هروباً مزرياً. فإذا بالإنسانية التي أصبحت منذئذ تعرف ما تريد، تحتل مكانها، ثم إذا بها تبدأ عصرأ جديداً وتكون لنفسها في الوقت ذاته نظرة جديدة إلى الكون. تلك هي القصيدة التي عُدّت حينئذٍ خطرة. وقد اقترحت على ستيفان تروفيموفيتش، في العام الماضي، أن ينشرها لأنها في أيامنا هذه خالية خلواً مطلقاً من كل خطر. فرفض اقتراحي باستياء واضح. ذلك أن القول بأن قصيدته لا تشتمل على أي خطر، لم يرضه، وهذا هو السبب الذي أعتقد أنه جفاني من أجله بعد ذلك طوال شهرين. ولكن حدث في نحو ذلك الوقت الذي اقترحت عليه فيه نشر قصيدته أن نُشرت القصيدة في ديوان شعر ثوري صدر "هناك"، أي في الخارج، وذلك على غير علم من ستيفان تروفيموفيتش طبعاً. فأفزع هذا النبأ في أول الأمر. فإذا هو يهرع إلى الحاكم، ثم إذا هو يكتب إلى بطرسبرج رسالة تبريرية رفيعة جداً، قرأها لي مرتين، لكنه لم يرسلها لأنه لم يعرف إلى من يرسلها. الخلاصة أنه عاش خلال شهر كامل في حالة من يتوجّس خيفة من شريهم أن يحقق به، لكنني واثق أنه كان يشعر في قرارة نفسه بكثير من الزهو. ولما حصل ستيفان تروفيموفيتش على نسخة من الديوان أصبح لا يفارقها إلا في الليل مكرهاً حين يريد أن ينام. وكان يخبئها في النهار تحت الفراش ولا يسمح لخدمة بأن ترتب سريره. وكان يصطنع هيئة التعالي والكبر، على توقعه في كل يوم أن تصل إليه برقية لا أدري ما هي. ولكن ما من برقية وصلت. وعندئذٍ صالحنى، وهذا دليل على طيب قلبه الحنون، وعلى أنه لا يحمل حقداً ولا يضر ضغينة.

لست أدعي أنه لم يلقَ أية متاعب، ولم تعترضه أية مصاعب. ولكنني اليوم مقتنع اقتناعاً تاماً بأنه كان في وسعه أن يثابر على إلقاء محاضراته عن العرب ما شاء أن يثابر، مكتفياً بتقديم الإيضاحات اللازمة. غير أنه تشدد وأسرف في التشدد، وتعجل تعجلاً كبيراً فعقد عزمه على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن حياته الجامعية قد حطّمتها "إعصار الظروف" إلى الأبد. وإذا كان علينا أن نذكر الحقيقة كلها فيجب أن نقول إن السبب الذي دفعه إلى تغيير مهنته فعلاً هو أن فرفاراً بتروفا ستافروجين، وهي زوجة جنرال وامرأة واسعة الثراء جداً، قد عرضت عليه في الماضي أن يتولى تثقيف ابنها الوحيد وأن يشرف على تنشئته الفكرية، بصفته عالم من علماء التربية وبصفته صديقاً، (ناهيك عن المكافأة المالية الكبيرة التي سينالها دون أن تجيء هي على ذكرها)، ثم عادت تجدد عرضها في ذلك الحين، لقد قدّمت إليه عرضها أول مرة وهو ما يزال في برلين، بعد فقده زوجته الأولى. كانت زوجته تلك فتاة طائشة اللب جامحة الطبع من مقاطعتنا، تزوجها في أيام شبابه الأول المندفع. ويظهر أنه لقي مع هذه الإنسانية، الفاتنة والحق يقال، كثيراً من الحزن والعذاب، لأنه لم يستطع أن يفى بحاجاتها من جهة، ولأسباب أخرى يتحرّج المرء من ذكرها من جهة أخرى. وقد توفيت في باريس بعد أن عاشت السنين الثلاثة الأخيرة منفصلة عنه، وتركت له طفلاً في الخامسة من عمره هو "ثمرة الحب الأول الفرح الذي لم تكن قد كدّرت سحابة"، على حد التعبير الذي أفلت يوماً أمامي من ستيفان تروفيموفيتش في لحظة حزن. وسرعان ما أرسل الطفل إلى روسيا، فكفلت تربيته نساء تمتّ إليه بقرابة بعيدة، فعاش الطفل في مكان ناء بأعماق الريف. وقد رفض ستيفان تروفيموفيتش العرض الذي قدمته فرفاراً بتروفا. وما هي سنة أو بعض سنة إذا بصاحبنا يتزوج مرة أخرى بألمانية من برلين، وهو زواج لم يكن يبدو أن ثمة ما يدعو إليه أو يقضي به.

وهناك أسباب أخرى دفعته إلى رفض وظيفة المربيّ: لقد كان يغريه الصيت الذي كان يحظى به أستاذ شهير من أساتذة العصر، وكان لا بد له أن يطير إلى ذلك الكرسي الذي طالما رنا إليه بصره، وأن يجرب هو أيضاً جناحي النسر اللذين يملكهما. أما الآن وقد احترق الجناحان، فإن من الطبيعي أن يتذكر صاحبنا ذلك العرض الذي تردد في قبوله من قبل. واختطف الموت زوجته الثانية فجأة - بعد زواج لم يدم أكثر من سنة واحدة - فترتب كل شيء على الوجه الأكمل. يجب أن أقول بصراحة أن هذا الحل إنما يرجع إلى ما كانت تحمله فر فاراً بتروفا لصاحبنا من مودة خالصة وصداقة ثمينة، صداقة كلاسيكية إن صح التعبير، فارتمى ستيفان تروفيموفيتش في أحضان هذه الصداقة، وتحدد بذلك وضعه مدة تزيد على عشرين عاماً. قلت "ارتمى في الأحضان" ولكن أرجو أن يحمي الله القارئ من سوء الظن فلا يحتمل قولِي ما لا يحتمل. إن كلمة الأحضان هذه يجب أن تُفهم بمعنى أخلاقي تماماً فالصلة التي ربطت بين هذين الشخصين الممتازين قد ظلت على أروع جانب من الرهافة والنعومة.

وهناك سبب آخر دعا ستيفان تروفيموفيتش إلى قبول منصب المربيّ. إن الميراث الصغير جداً الذي خلفته زوجته الأولى يقع على مقربة من الأطيان الواسعة المجاورة لمدينة سكفورشنكي، التي كانت أسرة ستافروجين تملكها في مقاطعتنا. هذا إلى أنه سيستطيع في خلوة مكتبه، حين لا يكون عليه أن ينهض بأعباء الجامعة الضخمة، أن ينقطع للعلم وأن يمهر الأدب القومي بدراسات عميقة. على أن هذه الدراسات لم تر النور يوماً، لكن صاحبنا استطاع في مقابل ذلك، خلال حياته كلها بعدئذ، أي خلال ما يزيد على عشرين عاماً أن ينتصب بقامته تجاه الوطن "لوماً مجسّداً" على حد تعبير ذلك الشاعر القومي الذي قال:

مثل لوم مجسّد

تنتصب قائمك تجاه الوطن

لبرالياً مثالياً

يجدر أن نقول إن الفرد الذي يتحدث عنه هذا الشاعر القومي ربما كان من حقه، إذا شاء، أن يقف تلك الوقفة خلال حياته كلها، رغم أنها وقفة مملة مضجرة. أما صاحبنا ستيفان تروفيموفيتش فإنه لا يعدو أن يكون بالقياس إلى أمثال أولئك الناس مقلداً ومحاكياً. لقد كانت الوقفة المنتصبة تتبعه. وما أكثر ما أثر عليها أن "يستلقي على جنبه". يجب أن نقول مع ذلك، إذا نحن شئنا الإنصاف، إن اللوم المجسد ظل موجوداً رغم الاستلقاء على الجنب، خاصة وأن مقاطعتنا كانت بحاجة إليه. ليتكم رأيتموه في النادي حين يلعب الورق! لقد كان وضعه كله يهتف: "هاتوا الورق!... صحيح أنني ألعب معكم... ولكن أية صلة تربطني بكم؟ من هو المذنب في هذا؟ من الذي هدم حياتي الجامعية، وردني إلى هذا الدرك حتى أصبحت لا أزيد على أن أكون واحداً من حلقة مقامرة؟ أهلك الله روسيا!". وفيما هو يشمخ بأنفه، تراه يقطع الورق في حماسة...

والحق أنه كان مفتوناً باللعب، وهذا هو السبب في كثير من المشاجرات المزعجة التي وقعت بينه وبين فرفارا بتروفنا، لا سيما في المدة الأخيرة. وكان مما يفاقم الأمر أن صاحبنا كان يخسر في اللعب دائماً. على أن لي عودة إلى هذا الموضوع. وحسبي الآن أن أذكر أن الرجل كان حساس الوجدان مرهف الضمير (أو قل على الأقل أنه كان يتفق له أن يكون كذلك في بعض الأحوال) ومن أجل هذا كان في كثير من الأحيان حزين النفس. وفي خلال الأعوام العشرين التي قضاها في صداقة فرفارا بتروفنا كان يتفق له دائماً، ثلاث مرات أو أربعة في العام، أن يصاب بنوبات من "الحزن الحضاري"، كما أسميناه فيما بيننا، أي بنوبات من الكآبة لا أكثر ولا أقل، غير أن المحترمة فرفارا بتروفنا كانت تحرص أشد الحرص على استعمال هذه اللفظة. وقد أصبح يصاب بعد ذلك بنوبات سببها "الشمبانيا"، غير أن فرفارا بتروفنا المرهفة الحس الرقيقة الشعور استطاعت دائماً أن تحميه من التردّي في حمأة الميول الخسيسة. والحق أن هذا الرجل كان بحاجة إلى مربية من مريبات الأطفال، إذ كان يتفق له أحياناً أن يكون غريب الأطوار: فبينما هو مثلاً في ذروة حزنه الرفيع إذا هو

يأخذ يضحك على حين غرة ضحكاً مبتدلاً. وكان في بعض الساعات يطفق يتحدث عن نفسه بلهجة ساخرة. وفرفارا بتروفا لا تفزع من شيء فزعها من السخر. إنها امرأة تعتق مبادئ كلاسيكية، امرأة تحمي العلماء وترعى الأدباء، ولا تستلهم في سلوكها غير البواعث العليا والدوافع السامية. ولقد كان تأثير هذه السيدة الكبيرة في صديقها المسكين خلال عشرين سنة تأثيراً قوياً. ويحسن أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً. وهذا ما أنا فاعله الآن.

3

ثمة صداقات غريبة: رب صديقين يوشك كل منهما أن يلتهم صاحبه في كل لحظة، ثم هما يقضيان حياتيهما كلها دون أن يطبقا الافتراق، حتى ليستحيل عليهما أن يهجر أحدهما الآخر. فإذا بدا لأحد منهما أن يقطع صلته بالآخر في ساعة نزوة، كان أول من يسقط مريضاً من شدة الحزن، حتى لقد يموت كمدأ ولوعة. أعرف أن ستيفان تروفيموفيتش قد حدث له غير مرة، بعد مكاشفات خلوية مع فرفارا بتروفا، أن وثب عن أريكته منذ أصبح وحيداً، وأخذ يضرب الجدار بقبضة يده.

لست أزخرف... حتى لقد بلغ من شدة الدق على هذا النحو في بعض الأحيان أن أسقط جير الجدار. رب سائل يسألني: كيف استطعت أن تعرف أمراً تفصيلياً كهذا الأمر، وهل شهدته بأم عينك؟ لقد طالما أخذ ستيفان تروفيموفيتش ينتحب فوق كتفي مرات كثيرة، حتى وهو يصوّر لي العواطف التي تضطرم في قرارة نفسه أقوى تصوير! وما أكثر الأمور التي كان يعترف لي بها في تلك اللحظات! إليكم ما كان يحدث دائماً على وجه التقريب بعد هذه النوبات من الانتحاب: كان لا يأتي الغد إلّا وستيفان تروفيموفيتش مستعد لأن ينتحر معاقبة لنفسه على عقوقه وإنكاره للجميل، كان يرسل في طلبني على عجل، أو يهرع إلى بيتي بنفسه، لا لشيء إلّا ليخبرني بأن فرفارا بتروفا "ملاك من ملائكة نبل الشرف ورهافة الشعور ورقة العاطفة، وأنه هو نقبض ذلك". وكان لا يكتفي بأن يسرّ إلي أنا بدخيلة نفسه، بل كان يبعث إليها

باعتراقاته في رسائل يودعها غاية ما يطيقه من بلاغة. كان يعترف لها مثلاً بأنه بالأمس قد قصّ على أحد الناس أنها لا تحتفظ به إلّا حباً بالظهور، وأنها تنفس عليه علمه ومواهبه وتغار منها، وأنها تكرهه، وأنها إن كانت لا تُظهر له هذا الكره، فما ذلك إلّا مخافة أن يتركها فيسيء بذلك إلى سمعتها كأديبة، ويضيف إلى ذلك أنه يحتقر نفسه، وأنه قرر أن ينتحر... وأنه ينتظر منها كلمة أخيرة تحدد مصيره، وهلمّ جرّاً!... تستطيعون أن تتخللوا بعد هذا مدى ما كانت تصل إليه الانفجارات العصبية لدى هذا الطفل الذي يفوق في براءته سائر من هم في الخمسين من العمر. لقد قرأت أنا نفسي، ذات يوم، رسالة من تلك الرسائل كتبها على إثر مشاجرة قامت بينه وبين صاحبة لسبب تافه، وتفاقت مع ذلك أشد التفاقم. لقد أرعبتني هذه الرسالة، فرجوته ألا يبعث بها إليها، فأجابني بما يشبه الهذيان قائلاً: "مستحيل... هذا أشرف... هذا واجبي... لسوف أموت إن لم أعترف لها بكل شيء، بكل شيء".

وبعث الرسالة.

إن الفرق بينه وبين فرفاراً بتروفا هو أنها لا يمكن أن تبعث رسالة كهذه الرسالة في يوم من الأيام. والحق أن صاحبنا كان يحب الكتابة كثيراً، ولقد كان يكتب إليها رسائل حتى حين كانا يقيمان في بيت واحد، وكان يكتب إليها رسالتين في اليوم الواحد حين تستبدّ به نوبات العصبية. وأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقرأ رسائله باهتمام كبير دائماً، حتى حين يصل إليها منه بريدان. فإذا انتهت من قراءة الرسائل نصّدتها في صندوق خاص بعد أن تذيّلها بالحواشي وتصنّفها. (كانت تنصّدها أيضاً في ذاكرتها)، ثم تدع صاحبها بلا جواب طوال يوم بكامله، ثم تلقاه بعد ذلك وكأن شيئاً لم يكن ولا حدث أمر من الأمور البتة. وشيئاً فشيئاً تكون قد بلغت من ترويضه أنه لا يجرؤ هو نفسه أن يذكر ما وقع بالأمس، ثم لا يزيد على أن يختلس النظر إلى عينيها. لكنها لا تكون قد نسيت شيئاً، بينما هو ينسى في بعض الأحيان كل شيء بسرعة كبيرة، يشجعه على ذلك ما يلاحظه فيها من فرط الهدوء، فإذا اتفق أن جاء بعض الأصدقاء في اليوم نفسه رأيته في كثير من الأحيان قد

أخذ يضحك ويمزح كتلميذ مرح وهو يفرغ أقذاح الشمبانيا في جوفه دفعة واحدة. وما أمر النظرات التي كانت ترشقه بها في مثل تلك اللحظات، دون أن يلقي إليها بالاً!

لكنه كان حين يتذكر فجأة على غير إرادة منه، بعد أسبوع، أو بعد شهر، أو حتى بعد ستة أشهر، هذه العبارات أو تلك من العبارات التي ضمتها رسالة من رسائله، أو حين كان يتذكر رسالة بكاملها من تلك الرسائل في أدق تفاصيلها، كان يحمرّ وجهه خجلاً، وسرعان ما يستحيل ألمه عندئذ إلى عذاب شديد، فإذا هو يصاب بنوبة إسهال حاد. لقد كانت هذه النوبات العجيبة التي تشبه مرض الكوليرين ترجع في بعض الأحوال إلى اضطراباته العصبية وتصور صفة غريبة من صفات بنيانه.

والحق أن فرفاراً بتروفا كانت تكرهه في كثير جداً من الأحيان، ما في ذلك من ريب. غير أن هناك شيئاً ظل إلى النهاية لا يستطيع أن يدركه فيها، وهو أنها كانت من طول صحبتها له قد انتهت إلى اعتباره ابناً لها هي خالقتها بل هي مبدعته إن صحّ التعبير. لقد أصبح جزءاً منها، فإذا احتفظت به وعالته، فليس يرجع ذلك إلى "غيرتها من مواهبه". وما كان أشدّ ألمها من مثل هذه الافتراضات! حتى لقد كانت تشعر نحوه بحب عنيف يمازجه كره في جميع اللحظات، كما تخالطه غيرة ويخالطه احتقار. لقد سهرت عليه ودلّته خلال عشرين عاماً كما تسهر الأم على طفلها وتدلّله. ولا شك أنها أرقت ليالي طويلة حين كانت تُمسّ سمعته كشاعر وعالم ومواطن. إنها هي التي خلّقتها، وهي أول من خلّقه. هذا ما كانت تعتقد به. لقد كان عندها بمثابة حلم لها. لكنها كانت في مقابل ذلك تطالبه بأمور كثيرة، حتى لقد كانت تقتضيه في بعض الأحيان أن يكون لها عبداً. وكانت حقودة إلى درجة لا نظير لها. وإنّي لأحرص في هذه المناسبة على أن أروي هاتين القصتين الصحيحتين:

أصبحت روسيا كلها في نشوة وفرح على حين فجأة، وبينما كانت تتهيا لأن تبثبعثاً جديداً، زار فرفاراً بتروفناً بارون من بطرسبرج، كان ماراً بمدينتنا، وهو رجل ذو علاقات رفيعة وله بالحكومة صلات وثيقة. لقد كانت فرفاراً بتروفناً تحرص على مثل هذه الزيارات أشد الحرص، لأن علاقاتها بالمجتمع الراقي كانت منذ وفاة زوجها تنهز من الوهن يوماً بعد يوم، إلى أن انقطعت في النهاية انقطاعاً تاماً.

قضى البارون عندها ساعة واحتسى الشاي. ولم يكن معهما أحد إلا ستيفان تروفيوفيتش الذي دعه فرفاراً بتروفناً لتعرضه. وكان البارون قد سمع عنه، لكنه لم يكذب يخاطبه أثناء تناول الشاي بكلمة. ولا شك أن ستيفان تروفيوفيتش كان يحسن التصرف أيما إحسان، ولقد كانت له آداب رفيعة. إنه على وضاعة محتده قد أتيح له أن ينشأ منذ طفولته في منزل أسرة نبيلة بموسكو، فهو إذن قد تربى تربية حسنة. وكان لذلك يتكلم اللغة الفرنسية كما يتكلمها باريصي. وكان على البارون إذن أن يدرك منذ النظرة الأولى نوع هؤلاء الناس الذين يحيطون بفرفاراً بتروفناً حتى في عزلتها بالريف. غير أن شيئاً من هذا لم يحدث. فحين أعلن البارون أن الشائعات التي أخذت تروج عن الإصلاح الكبير صحيحة كل الصحة، لم يستطع ستيفان تروفيوفيتش أن يسيطر على نفسه فصاح يقول فجأة: "مرحى!" وأرقف الصيحة بحركة تعبر عن حماسه. ولقد أطلق صيحته هذه بصوت معتدل، حتى ليتمكن أن نقول إنها لم تكن تخلو من رشاقة وأناقة، بل إن من الجائر أيضاً أن الحماسة كانت محسوبة وأن الحركة قد درست أمام المرأة قبل الشاي بنصف ساعة. ولكن أغلب الظن أن ستيفان تروفيوفيتش لم يوفق فيها. لذلك سمح البارون لنفسه بابتسامة خفيفة، وأسرع يدس مع ذلك جملة مهذبة مؤدبة يعبر فيها عن أن الانفعال القوي الذي تحسه القلوب الروسية إزاء الحدث الكبير أمر مفهوم جداً ومعقول جداً. ثم لم يلبث أن استأذن بالانصراف، ولم ينس حين ذهب أن يمد إلى ستيفان تروفيوفيتش إصبعين. فلما عادت فرفاراً بتروفناً إلى الصالون لزمت الصمت بضع دقائق متظاهرة بأنها تبحث عن شيء على

المنضدة، ثم التفتت نحو ستيفان تروفيموفيتش فجأة ودمدمت تقول له من بين أسنانها، شاحبة الوجه متقدة العينين:

- لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام!

ولقيته في الغداة فكأن شيئاً لم يحدث، ثم لم تشر إلى هذا الحادث أية إشارة. ولكنها تذكرته بعد ثلاثة عشر عاماً في لحظة الأيمة، وأخذته عليه، ممتقعة اللون كما في المرة الأولى تماماً. إن فرفارا بتروفا لم نقل لصديقها هذه الجملة "لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام" إلا مرتين في حياتها. فالحادث الذي وقع أثناء زيارة البارون كان هو المرة الثانية. أما المرة الأولى فقد وقعت قبل زيارة البارون بمدة طويلة. وهي تبلغ من التميز ومن خطورة الشأن في حياة ستيفان تروفيموفيتش أنني أعزم أمري على أن أرويها.

كان ذلك في ربيع سنة 1855، في شهر أيار (مايو)، بُعيد أن عُلِم في سكفورشنيكبي نبأ موت الليوثنان جنرال ستافروجين، العجوز المتحلل الطائش الذي توفي من آثار اضطراب في المعدة أثناء ذهابه إلى القرم التي عُيِّن في جيشها العامل. لقد لبست فرفارا بتروفا ملابس الحداد. ولكن حزنها لا يمكن أن يكون عميقاً جداً، لأنه بسبب فقدان التوافق في الزواج بينها وبين زوجها كانت تعيش منفصلة عنه انفصلاً تاماً منذ أربع سنين، وتقدم له ما هو في حاجة إليه من نفقة (كان الجنرال ينتمي إلى أعلى طبقة نبيلة)، وكانت له علاقات كبيرة، لكنه كان لا يملك إلا خمسمائة نفس ومرتب الوظيفة. أما الثروة كلها، وكذلك سكفورشنيكبي، فقد كانت لفرفارا بتروفا، وهي الابنة الوحيدة لتاجر غني من تجار الخمور). ومع ذلك فقد هزّها الحادث هزاً قوياً، فانزوت في عزلتها، ولم يتركها ستيفان تروفيموفيتش طبعاً.

كان شهر أيار (مايو) في تمام ازدهاره. الأماسي جميلة رائعة. أزهار الكرز البرّي قد بدأت تتفتح براعمها. والصديقان يمضيان إلى الحديقة كل مساء عند هبوط الليل، ويظلان جالسين تحت قبة من أغصان الشجر يفضي كل منهما إلى صاحبه بعواطفه وأفكاره. إنهما يعيشان لحظات شعرية

حقاً. وكانت فرفارا بتروفا، بسبب التغير الذي أصاب حياتها، تتكلم أكثر مما اعتادت أن تتكلم قبل ذلك. فهي تبدو منجذبة إلى قلب صاحبها انجذاباً قوياً. هكذا انقضت ليل كثيرة. وفجأة خطر ببال ستيفان تروفيموفيتش فكرة غريبة: تُرى أليست تطمع فيه هذه المرأة الحزينة التي لا يجد العزاء إلى نفسها سبيلاً؟ ألا تنتظر منه أن يخطبها متى انتهت سنة الحداد؟ فكرة عجيبة، لكن رهافة البنيان النفسي تشجّع في المرء أحياناً بعض الميل إلى مثل هذه الأفكار العجيبة، فعلى قدر نمو النفس يكون الاستسلام لجموح الخيال. وقد أخذ الرجل يتعمق في دراسة الأمر فوجد أن افتراضه جائز. فجعل يفكر: "صحيح أن الثروة طائلة، ولكن...!". الواقع أن فرفارا بتروفا لم تكن على أي حظ من جمال: امرأة طويلة القامة، صفراء الوجه، بارزة العظام، يشبه وجهها من فرط طوله أن يكون وجه حصان. وأصبح ستيفان تروفيموفيتش يزداد تردداً. وغزت رأسه الشكوك، حتى لقد هطلت دموعه مرتين من شدة حيرته (كانت دموعه سريعة الانسكاب). لكنه في المساء، أي تحت قبة الشجر، كان وجهه يعبر، رغم إرادته، عن النزوة إلى جانب شيء من الكبر والصلف. إن مثل هذا التعبير يظهر ظهوراً غير متوقع، وكلما كان المرء رفيعاً بدا هذا التعبير في وجهه واضحاً.

وإذا كنا لا نستطيع أن نقطع برأي في ما كان يعتلج في قلب فرفارا بتروفا فأغلب الظن أن قلبها لم ينبت فيه شيء مما يسوغ ظنون ستيفان تروفيموفيتش. ثم إنها ما كان لها أن ترضى أن تستبدل باسمها - ستافروجين - اسم ستيفان تروفيموفيتش مهما يكن هذا الاسم مجيداً. ولعل الأمر كله لا يعدو أن يكون عندها تسلية صغيرة من تسليات النساء، وثمرة حاجة لا شعورية، طبيعية في المرأة في بعض الظروف الخاصة. ومهما يكن من أمر فإنني لا أستطيع أن أقطع برأي حاسم. ولقد ظل قلب هذه المرأة مغلقاً حتى يومنا هذا. ولكن فلتتابع القصة.

أغلب الظن أن فرفارا بتروفا لم تلبث أن أدركت معنى هذا التعبير الغريب الذي يظهر في وجه صاحبنا. فلقد أوتيت موهبة الحدس وقوة الملاحظة،

في حين أن ستيفان تروفيموفتش كان في بعض الأحيان ساذجاً مسرفاً في السذاجة. ومع ذلك ظلت الأمسيات تنقضي على عاداتها وظلت الأحاديث بين الصديقين تجري شعيرة شائعة. وفي ذات مرة، عند هبوط الليل، بعد حديث من أكثر الأحاديث امتلاء بالحياة وتضمخاً بروح الشعر، افترق الصاحبان على مودة عند عتبة الجناح الذي يقيم فيه ستيفان تروفيموفتش، بعد أن تصافحا بحرارة. لقد كان ستيفان تروفيموفتش في مطلع كل صيف، يترك الدار الواسعة المريحة، ويستقر في هذا البيت الصغير الذي يكاد يثوي في قلب الحديقة.

دخل الرجل إلى بيته، وتناول سيجاراً في تردد مهموم واجم، ووقف أمام النافذة قبل أن يشعل السيجار. وقف متعباً ساكناً يحدق بنظره إلى الغمامات الصغيرة البيض، الخفيفة كندف الثلج، التي تحوم حول القمر الهادئ... وفيما هو كذلك إذا به يسمع على حين فجأة ضجة صغيرة، فيرتعش ويلتفت... كانت فرفاراً بتروفنا التي تركها منذ أربع دقائق، واقفة هنالك أمامه. إن وجهها الشاحب قد ضرب إلى زرقة، وإن شفيتها المنقبضتين ترتعشان عند الزاويتين. وظلت المرأة تنظر إليه خلال عشر ثوان نظرة قاسية، دون أن تنبس بكلمة، ثم دمدمت تقول على عجل: "لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام!".

حين قص علي ستيفان تروفيموفتش هذه القصة بعد عشر سنين، بصوت خافت، وقد أغلق الأبواب، حلف أنه بلغ من الانشداه في تلك اللحظة أنه لم يسمع ولا رأى كيف اختفت فرفاراً بتروفنا. ولأن فرفاراً بتروفنا لم تشر إلى هذا الحادث مرة واحدة بعد ذلك، ولأن كل شيء قد جرى بعدئذ في مجراه الطبيعي، فقد ظل صاحبنا طوال حياته يعتقد أنه كان فريسة وهم من الأوهام التي تسبق المرض عادة، لا سيما وأنه في تلك الليلة قد مرض فعلاً، وظل مريضاً طوال خمسة عشر يوماً، وهذا ما قطع لقاءهما كل يوم في المساء تحت قبة الأشجار. ومع ذلك رغم رغبته في الاعتقاد بأن الأمر لا يعدو أن يكون وهماً، فقد ظل خلال حياته كلها، وفي كل يوم من الأيام، ينتظر تنمة

هذا الحادث أو ينتظر خاتمة هذه المغامرة إن صح التعبير. كان لا يستطيع أن يصدق أن القصة قد انتهت! وإذا كان الأمر كذلك حقاً، فلك أن تتصور النظرات الخاصة التي كان يلقيها على صديقه من حين إلى حين.

5

كانت فر فارا بتروفنا قد بلغت من الاهتمام بأمره أنها تخيلت له ملابس ظل يرتديها طوال حياته، وهي ملابس أنيقة متميزة تشتمل على ما يلي: رذنجوت أسود طويل الجانبين، مزرر حتى العنق تقريباً ولكنه يناسبه إلى أبعد حد، وقبعة لينة واسعة الحافة (هي في الصيف قبعة من القش)، وربطة عنق من حرير أبيض، كبيرة العقدة متوجة الطرفين، وعصا ذات قبضة من فضة، هذا إلى شعر طويل متهدل حتى الكتفين. إن شعره الكستنائي لم يبيض قليلاً إلا في السنين الأخيرة. وكان يحلق شاربيه ولحيته. ويقال إنه كان في شبابه فتى وسيماً إلى أبعد حدود الوسامة. وفي رأي أنه ظل يحتفظ بمظهر مهيب حتى شيخوخته. وهل يعد المرء شيخاً وهو في الثالثة والخمسين من عمره؟ على أن صاحبنا كان، من قبيل التزيين البطولي، لا يحاول أن يظهر بمظهر الشباب، بل يستمد من تقدمه في السن زهواً أيّ زهو. وكان بملابسه الغريبة وقامته الطويلة النحيلة وشعره المتهدل على كتفيه أشبه ببطرك من البطاركة، أو قل كان أشبه بصورة الشاعر كوكولنيك⁽¹⁾ كما تراها منقوشة على طبعة مؤلفاته التي ظهرت بين عام 1830 وعام 1840.

وكان هذا الشبه يبرز بروزاً خاصاً حين كان صاحبنا يجلس في الصيف على مقعد بالحديقة، في ظل أشجار الليلك المزهرة، وقد أسند يديه على عصاه وإلى جانبه كتاب مفتوح، وغاب في أحلام شعرية يوحى بها منظر الشمس الغاربة. وعلى ذكر الكتب يجب أن ألفت النظر إلى أن صاحبنا

(1) نستور كوكولنيك (1809-1868): شاعر وكاتب خصب أصبح الآن منسياً، وقد ألف تراجيديات تاريخية تناصر الانحياز الملكي.

قد انتهى بمضي الزمن إلى النفور من القراءة. غير أن ذلك لم يحدث إلا في السنين الأخيرة من حياته. هذا إلى أنه كان يواظب على قراءة الصحف والمجلات التي كانت فرفارا بتروفا تكثر من استحضارها. وكذلك لم ينقطع عن الاهتمام بانتصارات الأدب الروسي، ولكن دون أن يفقد شيئاً من رصانته. وقد شغف بدراسة سياستنا المعاصرة، الداخلية والخارجية، في وقت من الأوقات. لكنه لم يلبث أن عدل عن مشروعه هذا. وكذلك كان يتفق له حين يمضي إلى الحديقة أن يحمل كتاباً من كتب توكفيل⁽¹⁾ وإن كان يضع في جيبه مؤلفاً من مؤلفات بول دو كوك. على أن هذه تفاصيل لا قيمة لها.

وعلى ذكر صورة كوكولنيك أحب أن أشير مستطرداً إلى أن هذه الصورة قد وقعت لأول مرة بين يدي فرفارا بتروفا حين كانت طالبة داخلية في "معهد البنات النبيلات بموسكو". فما إن رأتها حتى افتنت بها، على عادة جميع الفتيات في المدارس الثانوية، اللواتي يعشقن أي شيء، ويعشقن أساتذتهن في الوقت نفسه، وأساتذة الخط والرسم خاصة. على أن هذا ليس أهم ما في الحكاية، فهو شيء لا يكاد يلفت النظر في فتاة صغيرة، وإنما أهم ما في الحكاية أن فرفارا بتروفا ظلت وهي في الخمسين من عمرها تحتفظ بهذه الصورة بين أعز ما تحتفظ به من ذكرياتها الخاصة الحميمية. ولعل هذا هو السبب الوحيد في أنها فصلت لستيفان تروفيموفيتش رداء شبيهاً برداء الشاعر كما يرى في الصورة. على أن هذا أمر لا قيمة له أيضاً بطبيعة الحال. وفي إبان السنين الأولى، أو قل في خلال الشطر الأول من إقامة صاحبنا عند فرفارا بتروفا، كان ما يزال يفكر في تأليف كتاب لا أدري ما هو، فما من يوم إلا وهو يتهيأ لمباشرة عمله جاداً. ولكن في خلال الشطر الثاني من إقامته هذه، هجر المشروع فيما يظهر. وكثيراً ما كنا نفاجته يقول: "يلوح لي

(1) توكفيل (1805 - 1859) : الصحفي الشهير والسياسي الفرنسي، مؤلف كتاب "النظام القديم" وكتاب "الثورة"، وقد كان مقروءاً في روسيا.

أما روايات بول دو كوك فقد كانت رائجة في روسيا رواجاً كبيراً.

دائماً أنني سأشرع في الكتابة، بعد أن جمعت المواد اللازمة... ولكنني أنظر فأرى أن لا سبيل إلى ذلك، ولا شيء كما ينبغي".

وكان إذ يقول ذلك يخفض رأسه مرهقاً. ولا شك أن هذا الوضع كان ينبغي أن لا يزيده في نظرنا إلا عظمة ومهابة، فهو شهيد من شهداء العلم. أما هو فكان يرغب في شيء آخر. لقد أفلت منه غير مرة قوله: "لقد تُسيت، ولا حاجة لأحد بي بعد الآن." غير أن هذا الشعور بالأسى العميق القوي إنما استبد به استبداداً خاصاً حوالي عام 1860. وأدركت فرفاراً بتروفاً أخيراً أن الأمر في هذه المرة خطير. هذا إلى أنها كانت لا تستطيع أن تسلم بأن صاحبها قد نسيه الناس وأصبحت حياته غير ذات جدوى. فمن أجل أن تسلياً قليلاً، ومن أجل أن تعيد إلى شهرته شيئاً من النضارة في الوقت نفسه، ذهبت به إلى موسكو، المدينة التي لها فيها علاقات طيبة بعالم العلم والأدب. ولكن اتضح لها أن موسكو غير كافية البتة.

إنه لعصر عجيب ذلك العصر!... إن شيئاً جديداً يهم أن يولد، شيئاً لا شبه بينه وبين الهدوء القديم، شيئاً غريباً كل الغرابة، ولكن الناس يستشقونه في كل مكان، حتى في أراضي سكفورشنكي. إذ كانت أصدقاء منه قد وصلت إلينا. إننا نعرف الوقائع. لكن الوقائع تجر وراءها عدداً كبيراً من الأفكار الجديدة. كان هذا ينشر الحيرة والاضطراب في العقول. وكان يستحيل علينا أن ندرك المعنى الصحيح والدلالة الصادقة لهذه الأفكار. لذلك قامت في نفس فرفاراً بتروفاً، بحكم طبيعتها النسوية، رغبة قوية في إدراك السر. فأخذت تقرأ جميع ما يأتون به إليها من الجرائد والمجلات، والنشرات الأجنبية الممنوعة في روسيا، وحتى الدعوات الثورية التي أخذت تنتشر حينذاك (كان هذا كله يرسل إليها) لكن ذلك لم يزد رأسها إلا اضطراباً. وشرعت كذلك في كتابة رسائل. إلا أن الأشخاص الذين تكتب إليهم لا يجيبون إلا قليلاً، وكلما استمرت المراسلة أصبح فهمها أعسر. واتجهت إلى ستيفان تروفيوفيتش ترجوه أن "يعرض لها هذه الآراء عرضاً كاملاً" مرة واحدة. لكنها ظلت غير راضية عن شروحه صراحة. كان رأي ستيفان

تروفيموفيتش في الحركة العامة القائمة متعالياً أشد التعالي. كان كل شيء يرتد عنده إلى هذا: أنه قد نُسي، وأن أحداً لا يذكره الآن. وأخيراً ذكره الناس هو أيضاً. ذكروه أول الأمر في المجلات الأجنبية التي عدته شهيداً من شهداء المنفى. وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه في بطرسبرج أيضاً، كنجم كان في الماضي واحداً من طائفة من الكواكب الكبرى. حتى لقد شَبَّه بعضهم برادشتشيف⁽¹⁾ دون أن يدرك أحد لماذا. وبعد فترة وجيزة أشيع أنه مات، وأعلن أحدهم أنه سيكتب نبذة عن حياته وأعماله. فانتعش ستيفان تروفيموفيتش مرة واحدة، واكتسى وجهه على حين فجأة أرفع معاني العظمة التي يعبر عنها. واختفى من نفسه كل ما كان يعلن عنه من احتقار لمعاصريه، واشتعل في قلبه لهيب جديد: إنه يفكر الآن في الانضمام إلى الحركة وفي إظهار مدى ما يملكه من قوى. واستردت فرفارا بتروفنا ثقته وأصبحت غارقة في عالم من المشاغل. لقد قرر الصديقان أن يذهبا إلى بطرسبرج فوراً، ليستطلعا الأمور، وليقضيا كل شيء بنفسيهما، ولينخرطا في الحركة الجديدة انخراطاً كاملاً إذا أمكن ذلك. وأعلنت أرملة الجنرال، فيما أعلنته، أنها مستعدة لإنشاء مجلة، ولأن تندر لهذه المجلة ما تبقى من أيام حياتها. وحين لاحظ ستيفان تروفيموفيتش ما وصلت إليه الأمور أصبح يصطنع من مظاهر العلو والرفعة أكثر مما كان يصطنع منها قبل ذلك، حتى لقد أصبح يقف من فرفارا بتروفنا موقفاً يشبه أن يكون موقف من يحميها ويرعاها، وقد لاحظت هي ذلك وسجلته في ذاكرتها. ثم إن هناك باعثاً هاماً آخر أقد حثها على مباشرة مشروعها، هو أنها كانت تريد تجديد علاقتها بالدوائر العليا من أوساط المجتمع. كان لا بد لها، أن تذكر المجتمع الراقي بها ما وسعها ذلك، أو أن تحاول هذا في أقل تقدير.

أما الحجة الرسمية التي تذرعت بها للقيام بهذه الرحلة، فهي أنها تريد رؤية ابنها الوحيد الذي كان أيامئذ ينهي دراسته في ثانوية سان بطرسبرج.

(1) نيقولا رادشتشيف: مؤلف كتاب ثورتى عنوانه "رحلة من سان بطرسبرج إلى موسكو" ظهر الكتاب سنة 1790 .

قضى الصديقان في بطرسبرج فصل الشتاء كله تقريباً. وما أتى صوم الفصح في أثناء ذلك إلا وكان كل شيء قد تبدّد كفقاعة صابون. ذهبت الأحلام، وأصبح الوضع المبهم أشد إبهاماً بدلاً من أن يتضح. العلاقات بالطبقات العليا من المجتمع لم يمكن أن تنعقد، اللهم إلا في حدود ضيقة كل الضيق وبمساح ذليلة. وقد جرحت من ذلك كبرياء فرفاراً بترفنا فانخرطت انخراطاً قوياً في الدعوة إلى الأفكار الجديدة، وراحت تهيب في بيتها أمسيات دعت إليها عدداً من الأدباء الذين سرعان ما قدّمت إليها طائفة كبيرة منهم، وأصبحوا بعد ذلك يفدون من تلقاء أنفسهم بلا دعوة، ويصحب بعضهم بعضاً. إنها لم ترقبل الآن أدباء من هذا النوع. لقد كانوا جميعاً مغرورين إلى أبعد حدود الغرور، ولكن غرورهم كان يبلغ من الوضوح والظهور أنهم يوشكون أن يعدوه واجباً. وكان بعضهم (لا جميعهم) يمضون في هذا إلى حد لمجيء سكارى، وكأنهم يرون في ذلك فضيلة خاصة اكتشفوها في الوقت المحدد. إن لهم طريقة عجيبة في الاختيال كالطواويس حين يذكرون مواهبهم، حتى لتستطيع أن تقرأ في وجه كل واحد منهم أنه قد اكتشف سراً خطيراً إلى أبعد حدود الخطورة. وكانوا يختصمون ويناقشون ويتنافسون. ولئن كان يصعب على المرء أن يعرف ماذا أنتجوا في حياتهم الأدبية، لقد كان بينهم نقاد، وروائيون، ومؤلفو مسرحيات، وكتاب ساخرون، ومدبّجو مقالات. واستطاع ستيفان تروفيموفيتش أن ينفذ إلى القلب من هذه الحلقة، أي إلى النقطة التي تنطلق منها قيادة الحركة، ومن أجل أن يستطيع مقارنة القادة اضطر إلى أن يجتاز عدداً لا نهاية له من درجات السلم. على أن هؤلاء القادة قد استقبلوه في مودة وحرارة، رغم أن أحداً لم يسمع به من قبل، ولا عرف عنه إلا أنه "يجسّد الفكرة". وقد عرف ستيفان تروفيموفيتش كيف يداورهم في براعة، حتى استطاع أن يجتذبهم إلى بيت فرفاراً بترفنا مرتين، رغم عظمتهم الأولمبية. وكان هؤلاء الناس رجالاً جاديين إلى أبعد حدود

الجد، وكانوا على جانب عظيم من التهذيب وسلامة السلوك. وكان يبدو أن الآخرين يخشونهم. ولكن كان واضحاً أنهم أناس لا يملكون من الوقت ما يبدونه سدى. وقد وفد إلى بيت فرفاراً بتروفنا كذلك أدريان أو ثلاثة أدباء من ذوي الشهرة القديمة، وكانوا يومئذ في بطرسبرج، وكان لفرفاراً بتروفنا بهم صلة من أحلى الصلات يرجع عهدها إلى زمن قديم. ولكن ما كان أشد دهشتها حين لاحظت أن هؤلاء الأدباء المشهورين كانوا، رغم ما يتصفون به من أصالة ومن مواهب لا سبيل إلى إنكارها "أهدأ من الماء، وأكثر تواضعاً من أعشاب الأرض"، وكان بعضهم يجد أن خير ما يفعله هون أن يتشبث بهذه العصبة الجديدة طالباً جودها وكرمها. وقد أتى الحظ ستيفان تروفيموفيتش بعض المواتاة في أول الأمر، فقد تعلقوا به، وأخذوا يظهرونه في الاجتماعات الأدبية. وحين صعد المنبر أول مرة، في حفلة أدبية اشترك فيها، استقبله الجمهور بتصفيق جنوني استمر خمس دقائق طوال. إنه بعد عشر سنين، ظل يتذكر تلك اللحظة وعيناه مخضلتان بالدموع (لا عرفاناً بالجميل، بل من فرط حساسيته الفنية)، فقال لي (وحيدي سرّاً): "أقسم لك أن أحداً من الحضور لم يكن قد سمع بي في حياته قبل ذلك".

وهذا اعتراف جدير بأن يلاحظ. فإذا صح أن صاحبنا قد أدرك وضعه هذا الإدراك الواضح، في تلك اللحظة نفسها، رغم شدة الانفعال التي كان يعانيها من فوق المنبر، فلقد كان إذن إلى جانب من رهاقة الذكاء. لكن الواقع أنه لم يكن على قدر عظيم من الذكاء المرهف، فإنه بعد تسع سنين، كان لا يستطيع بعث تلك الذكرى إلّا ويشعر من ذلك بإهانة. لقد أجبروه على أن يوقع على اثنتين أو ثلاثاً من عرائض الاحتجاج الجماعية (على ماذا كان الاحتجاج؟ إنه هو نفسه لم يكن يدري)، فوقع كل ما شأوا له أن يوقعه. وقد حُملت فرفاراً بتروفنا أيضاً على توقيع عريضة من تلك العرائض احتجاجاً على "عمل من الأعمال الشائنة". ويجب أن نذكر من جهة أخرى أن أكثر هؤلاء "الناس الجدد" رغم ترددهم على فرفاراً بتروفنا، كانوا يشعرون أن من واجبهم (لا ندري لماذا) أن ينظروا إليها نظرة احتقار وأن لا يكلفوا أنفسهم

عناء إخفاء سخرهم منها. وقد ذكر لي ستيفان تروفيموفيتش بعد ذلك، في ساعات مرارته، أن فرفاراً بتروفناً إنما أخذت تغار منه ابتداءً من تلك اللحظة. لقد أدركت، ولا شك، أنها لا تستطيع أن تعقد صلات بهؤلاء الناس. لكنها كانت تستقبلهم في نهم وشراسة، يدفعها إلى ذلك ما يتصف به أفراد جنسها من فرط حب الاطلاع ونفاد الصبر، بالإضافة إلى أنها كانت ما تنفك تتوقع حدوث حدث ما. وكانت فرفاراً بتروفناً لا تتكلم في أثناء هذه الاجتماعات إلا قليلاً، رغم أنها كانت قادرة على أن تتكلم كثيراً لو أرادت. لقد كانت تؤثر أن تصغي إلى كلامهم. وكانت الأحاديث تدور على إلغاء الرقابة، وعلى قواعد الإملاء، وعلى إحلال الألفباء اللاتينية محل الأحرف الروسية⁽¹⁾ وعلى ترحيل فلان أو فلان من الناس، وعلى آخر فضيحة حدثت، وعلى فائدة تقسيم روسيا إلى قوميات يضمها اتحاد فدرالي حر⁽²⁾، وعلى إلغاء الجيش والبحرية، وعلى إعادة قيام بولونيا حتى نهر دنيبر، وعلى الإصلاح الزراعي والبيانات الثورية، وعلى إلغاء حق الإرث، وعلى الأسرة والأولاد والكهنة، وعلى حقوق المرأة، وعلى بيت كرايفسكي⁽³⁾ وما لم يغفره أحد لكرايفسكي، إلخ.. إلخ. ولئن ضم هذا الخليط من "الناس الجدد" أفراداً صالحين لقد ضم كذلك كثيراً من الرجال الصالحين، بل ومن الرجال اللطاف المحبين، على ما هناك من صفات خاصة تجعل الأمر مختلطاً مشتبهاً. أما "الصالحون" فقد كانوا أكثر استعصاء على الفهم من الطالحين الجفاة الغلاظ، ولكن المرء لا يعرف أي الفريقين كان يقود الآخر. وحين أعلن أن فرفاراً بتروفناً تفكر في إنشاء مجلة، هرع إليها عدد أكبر، لكنها لم

(1) في سنة 1862 كانت تُعقد في بطرسبرج اجتماعات تناقش مشكلات تربوية، منها تبسيط قواعد الإملاء. حتى لقد اقترح رجل يقال له كاوفسكي إحلال الألفباء اللاتينية محل الألفباء الروسية. وقد نشرت مجلة دوستوفسكي "الزمان". سنة 1862، مقالة عن هذه المشاجرة حول الإملاء.

(2) نشرت مجلة "روسيا الفتاة" سنة 1862 مقالة بقلم زاينتشفكي نداء تطالب فيه بتحويل روسيا إلى اتحاد جمهوري فدرالي لمقاطعات، وتطالب بإحلال ميليشيا وطنية محل الجيش، وباستقلال بولنده، وبإلغاء الخواجز وحق الإرث، وبالمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء، إلخ..

(3) أندره كرايفسكي (1889-1810). هو ناشر ورئيس تحرير مجلة "حوليات الوطن".

تلبث أن اتهمت بأنها رأسمالية، وبأنها مستغلة، وقد قُذف الاتهام في وجهها قذفاً. ولئن كانت هذه الاتهامات حادة عنيفة، لقد كانت كذلك مفاجئة. ففي أمسية من الأمسيات التي كانت تنعقد في بيت فرفارا بتروفنا، تناقش الجنرال العجوز إيفان إيفانوفتش دروزدوف مع شاب شهير من الشباب (والجنرال العجوز صديق قديم من أصدقاء المرحوم الجنرال ستافروجين وأحد رفاقه في الجيش، وهو شخصية من أكرم الشخصيات مقاماً - على طريقته الخاصة - يعرفه جميع الناس، ويتصف بالعناد والحنق، ويأكل كثيراً، ويخاف من الإلحاد خوفاً رهيباً). فما إن بدأت المناقشة بين الجنرال والشاب حتى قال له هذا: "لا بد أن تكون جنراً حتى تقول هذا الكلام" يريد بذلك أن يشير إلى أنه مامن شتيمة أقذع من وصف بأنه جنرال، فما كان من إيفان إيفانوفتش إلا أن قال وقد استشاط غيظاً: نعم، أنا جنرال، بل أنا ليو تنان جنرال، وقد خدمت قيصري، أما أنت أيها الشاب فلست إلا فتى غراً وملحداً" وتبعت ذلك جرسة كبيرة، وفي الغد أشارت الصحافة إلى الحادث، وشرع بعضهم في توقيع عريضة جماعية يحتجون فيها على "السلوك الشائن" الذي صدر عن فرفارا بتروفنا إذ رفضت أن تطرد الجنرال من بيتها فوراً. ونشرت إحدى المجلات المصورة صورة كاريكاتورية ساخرة تمثل فرفارا بتروفنا والجنرال وستيفان تروفيموفتش على أنهم ثلاثي رجعي. وقد نشرت الصورة الكاريكاتورية بضعة أبيات لشاعر شعبي نظمها خصيصاً لهذا الغرض. وأحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة إلى أن كثيراً من الذين وصلوا إلى رتبة جنرال قد درجوا على هذه العادة المضحكة، عادة قولهم "لقد خدمت قيصري"...

كأن قيصرهم ليس قيصرنا، نحن رعاياه البسطاء المخلصين، وكأنه قيصرهم الخاص الذي خُلِق لهم وحدهم من دون غيرهم.

وأصبح من المستحيل طبعاً أن يبقى الصديقان في بطرسبرج، لا سيما وأن ستيفان تروفيموفتش قد مني هو أيضاً بإخفاق حاسم، ذلك أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الكلام باسم الفن، فجلب له ذلك مزيداً من السخریات. وأراد في أثناء محاضرة أخيرة ألقاها أن يؤثر في مستمعيه بالضرب على وتر

الحقوق المدنية، أملاً بهز قلوبهم، معتمداً على ما يجب أن يوقظه "نفيه" في نفوسهم من احترام له، فأعلن صراحة أن كلمة "الوطن" كلمة باطلة سخيفة، وأيد الفكرة القائلة بأن للدين تأثيراً ضاراً، ولكنه قال بصوت عال ولهجة قاطعة إن حذائين أقل قيمة بوشكين، أقل كثيراً. فإذا بصيحات السخر تنهمر عليه من كل جانب في غير رحمة، حتى انفجر باكياً أمام الناس من قبل أن ينزل على المنبر.

وقد قادته فر فارا بتر وفنا يومئذ إلى البيت وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فكان يدمدم كالمجنون قائلاً "لقد عاملوني كما تعامل طاقية عتيقة من القطن". وسهرت عليه صديقه طوال الليل، وهي تسقيه قطرات من الآس، وتردد على مسامعه حتى مطلع الفجر قولها: "إنك ما تزال مفيداً. ستعود إلى الظهور من جديد، وسيعرف الناس قدرك وقيمتك... في مكان آخر."

وفي ساعة مبكرة من صباح الغد جاء إلى بيت فر فارا بتر وفنا خمسة أدباء، ثلاثة منهم غرباء لم يسبق لها أن رأتهم يوماً، فقالوا لها، وقد تجهمت وجوههم، إنهم قد درسوا مسألة المجلة وانتهوا إلى قرار في هذا الصدد. والحق أن فر فارا بتر وفنا لم تعهد إلى أحد البتة بدراسة مسألة المجلة المذكورة، ولا كلفت أحداً باتخاذ أي قرار بشأنها. وإليك قرارهم الذي انتهوا إليه:

إن عليها، وهي مؤسسة المجلة، أن تتنازل لزمريتهم عن المجلة وأموال المجلة حالاً، ثم أن تعود إلى سكفور شنيكي وأن لا تنسى أن تأخذ معها ستيفان ترو فيموفتش الذي أصبح الآن "عتيقاً بالياً". ومن قبيل اللطف في المعاملة وافقوا على الاعتراف لها بحقوقها في ملكية المجلة، وعلى أن يرسلوا إليها سدس الأرباح في كل عام. وأجمل ما في الأمر كله أن أربعة من هؤلاء الخمسة على الأقل كانوا لا يسعون إلى تحقيق غرض خاص أو منفعة معينة ولا يريدون إلى خدمة "القضية المشتركة".

قال ستيفان ترو فيموفتش، فيما بعد، وهو يروي القصة: "لقد سافرنا ونحن فيما يشبه الخبل... كنت لا أستطيع أن أربط بين فكرتين ولا أزيد على

أن أنتم مردداً مع ضجة القطار - ما زلت أذكر هذا:

ليف كامبيك وفيك وفيك⁽¹⁾

ليف كامبيك وفيك وفيك

وما لا أدري أيضاً، حتى وصلنا إلى موسكو. وهناك إنما ملكت أن أثوب إلى رشدي كأن في وسع المرء أن يجد في موسكو شيئاً آخر! وكان يقول لنا أحياناً بلهجة الملهم: آه يا أصدقائي! إنكم لا تستطيعون أن تتخيلوا مدى الألم والحق للذين يغزوان نفوسكم حين تعبرون عن فكرة عظيمة قدستموها طوال حياتكم، فإذا بأفراد جهلة يجرونها على أرض الشارع وسط أناس لا يقلون عنهم غباء وحماسة، ثم إذا أنتم ترونها فجأة في السوق وقد تغيرت ساحتها حتى لا تكاد تُعرف، وتمرغت في الوحل وتشوهت وتكسرت، وتغيرت أبعادها وفقدت انسجامها، كلعبة بين أيدي أطفال.... لا! لم يكن الأمر كذلك في عهدنا، ولا إلى هذا صبونا. لقد أصبحت أنكر كل شيء ولا أعرف شيئاً. يجب أن يعود زماننا فيرد إلى الطريق القويمه كل ما يترنح اليوم ويهتز. وإلا فما عسى يحدث؟

7

ما إن عادت فرارا بتروفنا إلى بطرسبرج حتى صرفت صاحبها إلى خارج روسيا "ليستجم"، ولشعورها كذلك بأنهما في حاجة إلى فترة من الانفصال. ولقد سافر ستيفان تروفيموفتش في حماسة، وصاح يقول: "لسوف أبعث هنالك بعثاً جديداً، لسوف أنقطع هنالك للعلم". لكنه استأنف شكاواه الأبدية منذ الرسائل الأولى التي أرسلها من هناك. كتب إلى فرارا بتروفنا يقول: "قلبي محطّم. أصبحت لا أستطيع أن أنسى شيئاً. كل ما أراه هنا في برلين يذكرني بماضي القديم، باندفاعاتي الأولى

(1) "ليف كامبيك" ناشر جريدة رسول بطرسبرج من 1861 إلى 1862 أمّا "فيك" (العصر) فهي جريدة يومية كانت تصدر في ذلك الأوان نفسه. وهنا يسخر دوستوفسكي سخراً قائماً على التقية كما كان ذلك رائجاً أيامذاك.

وآلامي الأولى. أين هي؟ أين هما الآن كلتاهما؟ أين أنتما يا ملاكيّ اللتين لم أكن جديراً بكما في يوم من الأيام؟ أين هو ابني، أين هو ابني الحبيب؟ وأين أنا، أين أنا نفسي، أين نفسي القديمة، الصلبة كالفلولاذ، الصلدة كالصخر، إذا كان يستطيع رجل اسمه أندرييف، إذا كان يستطيع مهرّج أرثوذكسي ذو لحية "أن يحطم وجودي نصفين"، إلخ إلخ. أما ابنه فقد رآه مرتين في حياته لا أكثر، الأولى حين ولد، والثانية في الآونة الأخيرة، بيطرسبرج، حيث كان الفتى يتهيأ لدخول الجامعة. ولقد سبق أن قلت إن الصبي قد نشأته خالات له طوال حياته، على نفقة فرفارا بتروفنا، في مقاطعة "أو..." التي تبعد حوالي سبعمائة فرسخ عن سكفورشنيك. وأما أندرييف فهو تاجر بسيط بمدينةتنا، غريب الأطوار، مولع بالآثار، علّم نفسه بنفسه، وكان يميل إلى جمع الآثار الروسية القديمة، ويحلّو له أحياناً أن يناقش ستيفان تروفيموفتش، في علم الآثار وخاصة في السياسة. إن هذا التاجر المحترم، ذا اللحية البيضاء، والنظارتين الكبيرتين اللتين لهما إطار من فضة، كان لا يزال مديناً لستيفان تروفيموفتش بمبلغ أربعمائة روبل، وذلك ثمن أشجار غابة قطعها من الأرض الصغيرة التي يملكها ستيفان. ورغم أن فرفارا بتروفنا قد زوّدت صديقها بمال كثير حين أرسلته إلى برلين، فقد كان ستيفان تروفيموفتش يأمل أن يسترد هذا الدين قبل سفره، ربما لنفقاته السرية، فلما استمهل أندرييف شهراً، كاد يبكي من فرط ألمه. ثم إنه كان من حق التاجر أن يطلب هذه المهلة، فإن الدفعات الأولى من المال، التي أخذها منه ستيفان تروفيموفتش قد سبقت الشراء ستة أشهر، وذلك في الأيام الأولى التي كان ستيفان تروفيموفتش يعاني فيها عسراً. قرأت فرفارا بتروفنا هذه الرسالة الأولى باهتمام واستطلاع، ووضعت خطأ أحمر تحت قول صاحبها: "أين هما الآن كلتاهما؟" ثم أرخت الرسالة وأودعتها الصندوق. لا شك أنه يشير إلى امرأتيه الراحلتين. أما الرسالة الثانية فقد كان فيها أغنية أخرى: "إنني أعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم (دمدمت فرفارا بتروفنا تقول: يكفي إحدى عشرة): أنبش المكتبات، أفتش في النصوص، أدوّن ملاحظات، أقوم

بجولات، أزور الأساتذة. جدّدت صلاتي بأسرة دونداسوف الرائعة. ما تزال إلى الآن فاتنة تلك الناديجدا - نيقولا يفنا! إنها تبّلّغك تحياتها. زوجها الشاب وأبناء أختها الثلاثة يقيمون في برلين. في المساء أتحدث مع هؤلاء الشباب حتى الفجر. سهرات أثينية⁽¹⁾ لكنها ليست أثينية إلّا من ناحية رهافة الذوق وجمال الحديث. كل شيء فيها رفيع الطراز نبيل الأسلوب: موسيقى كثيرة، ألحان إسبانية، أحلام في بعث الإنسانية كلها، فكرة الجمال الأبدي، صورة العذراء في كنيسة سكستين، الضوء المنساب من خلال الظلمات. لكن الشمس نفسها لا تخلو من بقع! أواه يا صديقتي، يا صديقتي النبيلة الوفية! إنني لك، وبقلبي معك، معك وحدك دائماً، في كل بلد من البلاد، وحتى في "بلاد ماكار وعجولها" التي طالما تحدثنا عنها في بطرسبرج ونحن نرتعش قبل رحيلنا عن تلك المدينة - تذكّرين ذلك - إن ذكرى هذا لتطوف الآن في خيالي فترسم على شفّتي ابتسامة. إنني ما كدت أجتاز الحدود حتى شعرت أنني بعدت عن الخطر... إحساس غريب جديد، شعرت به لأول مرة منذ سنين"، إلخ إلخ..

قالت فر فارا بتروفنا وهي تطوي الرسالة وتضعها في الصندوق مع الرسائل الأخرى:

- كلام فارغ... إذا كانت السهرات الأثينية تستمر حتى الفجر فإنه غير منقطع إلى كتبه اثنتي عشرة ساعة في اليوم. هل كان ثملاً حين كتب هذا الكلام؟ وهذه المرأة دونداسوف، كيف تجرؤ أن تبعث إليّ بتحياتها؟ على كل حال، فليسرّ عن نفسه!...

أما قوله "في بلاد ماكار وعجولها" فقد حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يترجم به إلى الفرنسية الأمثال والأقوال المأثورة الروسية مشوهة رغم أنه كان قادراً على أن يؤولها على نحو أحسن، لكنه يفعل ذلك نظراً، وكان يجد فيه فكاهة جميلة.

(1) "سهرات أثينية" إشارة إلى المناقشات الفلسفية في حدائق أثينا عند هبوط المساء، وهي السهرات التي تكلم عنها أفلاطون.

على أن سلوى ستيفان تروفيموفتش لم تدم طويلاً. فما هي إلا أربعة أشهر، حتى فقد صبره وعاد مسرعاً إلى سكفورشنيكي. إن رسائله الأخيرة التي لم تكن إلا ذوباناً عاطفياً تجاه صديقه الغائبة كانت مبللة بدموع حقة يذرفها حزناً على فراقها. إن هناك بشراً لا يقلون عن الكلاب الصغيرة تمسكاً بمساكنهم وحينئذٍ إليها. لقد التقى الصديقان في حماسة وحرارة. غير أن كل شيء عاد إلى مجراه الطبيعي بعد يومين، بل أصبح أشدّ إملالاً. قال لي ستيفان تروفيموفتش بعد خمسة عشر يوماً: "يا صديقي، لقد اكتشفت شيئاً... شيئاً رهيباً بالنسبة إلي... ما أنا إلا طفيلي... طفيلي.. لا.. أكثر.. من.. ذلك.."

8

بعد هذا دخلنا في مرحلة من الركود دامت تسع سنوات، ولم يحدث خلالها أي تبدل تقريباً. كانت الانفجارات العصبية والدموع السخية تُستأنف على كتفي من حين إلى حين، لكنها لا تُفسد سعادتنا البتة. إنه ليدهشني أن ستيفان تروفيموفتش لم يسمن في أثناء هذه الفترة. كل ما هنالك أن أنفه احمرّ، وأن حركاته اكتسبت مزيداً من اللطف والتحضر. وقد تكونت من حوله، شيئاً بعد شيء، حلقة من الأصدقاء، حلقة صغيرة والحق يقال. وكنا نعد فرفاراً بتروفا راعتينا الجليلة، رغم أنها كانت لا تتصل بهذه الحلقة إلا قليلاً. إنها بعد الدرس الذي تلقته في بترسبرج، قد استقرت في مدينتنا نهائياً، ففي الشتاء تسكن قصرها، وفي الصيف تمضي إلى منزلها الريفي. ولم تحظ طوال حياتها في مجتمعنا الريفي بما حظيت به من احترام ونفوذ في السنين السبع الأخيرة، إلى أن عُيّن الحاكم الحالي. إن حاكمنا القديم، اللطيف، الوديع، إيفان أوسيوفتش الذي لا يُنسى، كان يمت بقرابة قريبة إلى فرفاراً بتروفا التي أحاطته في الماضي بكثير من الرعاية وأغدقت عليه كثيراً من النعم. لقد كانت امرأة الحاكم ترتعد فرقاً متى تصورت أنها توشك أن تفقد رضا فرفاراً بتروفا عنها، وكان الاحترام الذي يشعر به الناس

في مجتمعنا الريفي نحو فرفارا بتروفنا يكاد يكون نوعاً من العبادة. وواضح أن ستيفان تروفيومفتش كان من ذلك في خير. لقد كان عضواً في النادي وكان يخسر في لعب الورق بوقار وجلال، واستطاع أن يحظى باعتبار الناس جميعاً، رغم أن كثيراً من الأفراد كانوا لا يعدّونه أكثر من "عالم" في أحسن تقدير. وحين سمحت له فرفارا بتروفنا فيما بعد، أن يقيم في منزل مستقل، تمتعنا بمزيد من الحرية، فكنا نجتمع عنده مرتين في الأسبوع، ونتسلى خاصة حين يغدق علينا الشمبانيا في غير قصد ولا اعتدال. وكان الخمر يأتي من دكان ذلك التاجر نفسه، أندرييف، وكان فرفارا بتروفنا هي التي تدفع فاتورة الحساب كل ستة أشهر، وكان يوم الدفع هو يوم المرض، دائماً على وجه التقريب.

إن أقدم أفراد حلقتنا الصغيرة رجل يقال له ليويتين⁽¹⁾، وهو موظف ريفي متقدم في السن قليلاً، يعتنق مبادئ الحرية، ويعدّه الناس في المدينة ملحداً. وكان قد تزوج للمرة الثانية من فتاة جميلة ذات بائنة كبيرة. وكان، إلى ذلك، أباً لثلاثة بنات بلغن سن الرشد، وكانت أسرته كلها تعيش سجيئة البيت حياة منعزلة، وتخشاه خشية كبيرة. وكان بخيلاً إلى أبعد حدود البخل، فاستطاع بالتوفير من رواتبه، أن يملك بيتاً صغيراً وأن يجمع قدراً من المال. ولأنه كان قليل الانصياع والطاعة، فقد ظل في الدرجات الدنيا من سلم الوظائف. وكان الناس في المدينة لا يحترمونه كثيراً وكانت أسر الطبقة الراقية لا تستقبله في بيوتها زد على ذلك أن ليويتين كان شديد الغيبة والنميمة، وقد عوقب على ذلك عقاباً قاسياً غير مرة، عاقبه أولاً ضابط من الضباط، وعاقبه بعد ذلك رجل من أصحاب الأملاك ورب أسرة شريف. لكننا كنا نحب فكاهته اللاذعة وشغفه بالمعرفة وتندرّه المر. أما فرفارا بتروفنا فكانت لا

(1) ليويتين: تدل مسودات رواية الشياطين على أن دوستوفسكي قد استخدم في تصوير هذه الشخصية شخصية صديقه ألكسندر ميليوكوف (1897-1817) وهو مؤرخ أدب وعالم تربية عرفه في حلقة بتراشفسكي. لقد كان ميليوكوف من المعجبين باشتراكية فورييه وكان في الوقت نفسه طاغية في منزله.

تجبه قط، ومع ذلك كان يستطيع دائماً أن يحصل منها على حسن المعاملة وكرم الوفادة.

وكانت زوجة الجنرال لا تحب كذلك شاتوف⁽¹⁾ الذي لم يصبح عضواً من أعضاء الحلقة إلا في السنة الأخيرة. إن شاتوف هذا طالب قديم طُرد من الجامعة على إثر إساءة مدرسية ارتكبها، وكان في طفولته تلميذ ستيفان تروفيموفتش. لقد ولد شاتوف قِثاً من أقنان فرفاراً بتروفنا، لأب كان خادماً من خدمها هو المرحوم بافل فيدوروفتش، وهو مدين لها بنعم كثيرة، لكنها كانت لا تجبه لصلفه وكبريائه وإنكاره المعروف، ولا تستطيع أن تغفر له بحال من الأحوال أنه لم يأت إليها فور طرده من الجامعة، وأنه لم يجب عن الرسالة التي بعثت بها إليه عندئذ من أجل أن يأتي إليها، وأثر على ذلك أن يزرع تحت عبء العمل في تعليم الأطفال عند أسرة نكرة من أسر التجار "المثقفين"، وسافر مع هذه الأسرة إلى الخارج أقرب إلى الخادم منه إلى المعلم. لقد كان شاتوف يحترق في ذلك الوقت شوقاً إلى زيارة البلاد الأجنبية. وقد صحبت الأطفال أيضاً مربية من المربيات هي آنسة روسية ذات طبع حاد، دخلت في خدمة تلك الأسرة قبل السفر بيوم واحد، ومما أغرى الأسرة في تشغيلها أن مطامعها متواضعة. وبعد شهرين طردها التاجر بسبب "أفكارها التحررية"، فتبعها شاتوف وتزوجها بعد قليل بجنيف. وعاش الزوجان معاً ثلاثة أسابيع ثم افترقا افتراق شخصين حرين لا يربطهما شيء، ولكن أغلب الظن أن الفقر كان أحد أسباب هذا الانفصال أيضاً. وبعد ذلك ظل شاتوف يطوف وحيداً خلال مدة طويلة في أوروبا، فلا يعلم إلا الله كيف كان يدبر رزقه. قيل إنه كان ينظف الأحذية في أركان الشوارع وقيل إنه عمل شيئاً في أحد المرافئ. وأخيراً، منذ سنة، عاد إلى المدينة التي ولد فيها معنا، وأقام عند عمته العجوز التي دفنها بعد ذلك بشهر واحد. وكانت أخته داشا، التي نشأتها فرفاراً بتروفنا أيضاً تعيش بالقرب منها، وتحظى بحبها، وتتمتع في بيتها باعتبار

(1) شاتوف: اسم لعل المؤلف اشتقه من كلمة شاتات بمعنى اهتزاز أو تأرجح. فربما كان في هذا إشارة إلى ما تتصف به آراء هذه الشخصية من عدم الاستقرار.

واحترام. ولم يكن لشاتوف بأخته إلا علاقات ضعيفة جداً. وكان شاتوف يبدو في حلقتنا متجهماً الوجه صموتاً. غير أنه، حين يمس أحد معتقداته، من حين إلى حين، يندفع في غضب جارف مرضي، فيفقد سيطرته على لسانه. كان ستيفان تروفيموفتش يقول في بعض الأحيان مازحاً: "من أراد أن يناقش شاتوف، فعليه أن يوثقه أولاً". وكان ستيفان تروفيموفتش يحبه مع ذلك. كان شاتوف قد غير بعض معتقداته الاشتراكية القديمة أثناء إقامته في الخارج تغييراً جذرياً، حتى انزلق إلى نقيضها في تطرف شديد. إن شاتوف واحد من أولئك الروس المثاليين الذين متى أشرقت في نفوسهم فكرة قوية كبيرة، بُهروا بها، وتسلطت عليهم تسلطاً تاماً قد يدوم في بعض الأحيان إلى الأبد، فلا يصلون يوماً إلى السيطرة على هذه الفكرة التي أصبحوا يعتنقونها اعتناقاً عنيفاً. فحياتهم كلها تنقضي بعد ذلك في ما يشبه التشنجات الكبرى تحت وطأة تلك الصخرة التي سقطت عليهم ذات يوم فحطمتهم نصف تحطيم. وكان مظهر شاتوف يناسب معتقداته تماماً: فهو أرق الحركات، صغير القد، كث الشعر، قصير القامة، عريض الكتفين، أشقر اللون، ذو حاجبين أبيضين ثخينين، وجبين مغضن، وعينين مطرقتين في عناد، يبدو أن نظرتيهما القلقة تخفي وراءها خجلاً مستتراً. وكان يبقى على رأسه دائماً خصلة عصية من شعر تنتصب قائمة. أما عمره فقد يكون سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاماً. وقد قالت فرفارا بتروفنا ذات يوم، بعد أن تفرّست فيه: "أصبحت لا أستغرب أن امرأته هجرته". وكان شاتوف رغم فقره المدقع، يحاول أن يكون حسن الهمام. وفي هذه المرة أيضاً لم يشأ أن يستعين بفرفارا بتروفنا، بل عاش مما كان يرزقه به الله.

لقد اتفق له أن عمل عند بعض التجار. وعُيّن بعض الوقت موظفاً في محل تجاري، وأوشك أن يسافر على إحدى البواخر التجارية مساعد ممثل لهذا المحل التجاري، لولا أنه مرض قبل السفر بيوم واحد. إنه ليصعب على المرء أن يتصور مقدار البؤس الذي يستطيع شاتوف أن يتحمّله حتى دون أن يفكر فيه. وحين أبلّ من مرضه أرسلت إليه فرفارا بتروفنا مائة

روبل دون ذكر اسم المرسل، لكنه عرف الحقيقة مع ذلك، حتى إذا فكر في الأمر قرر الاحتفاظ بالمال ومضى إلى فرفاراً بتروفا يشكر لها صنعها. وقد استقبلته استقبلاً حاراً، لكنه خيَّب ظنّها مرة أخرى. فإنه لم يمكث في بيتها إلا خمس دقائق ظل خلالها صامتاً مطرقاً إلى الأرض وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة بلهاء، وفجأة نهض عن مقعده قبل أن تتم حديثها، بل في أهم لحظة من لحظات هذا الحديث، فحيّاها بخراقة شديدة، حتى لقد صدم من فرط خراسته منضدة صغيرة ثمينة مرصعة فانقلبت المنضدة على الأرض وتهشمت محدثة ضجة قوية. وخرج من عندها وهو يوشك أن يكون ميتاً من شدة الخجل. وقد أخذ عليه ليبتوتين فيما بعد أنه لم يرفض المائة روبل في احتقار، وأنه رضي أن يأخذ هذا المبلغ من هذه الطاغية، سيدته القديمة. وأفدح من ذلك أنه ذهب إليها يشكرها.

كان شاتوف يقيم في ظاهر المدينة منعزلاً منزوياً، ويكره أن يزوره زائر ولو كان الزائر واحداً منا. وكان يحضر سهرات ستيفان تروفيموفتش باضطراب، ويستعير منه جرائد وكتباً.

وكان يشترك في هذه السهرات أيضاً شابٌّ من مدينتنا اسمه فرجنسكي⁽¹⁾ هو موظف في مؤسسة تجارية، يشبه شاتوف بعض الشبه وإن بدا نقيضه من جميع النواحي. ولكنه كان "رب أسرة". إنه شاب في الثلاثين من العمر، له وجه يثير في نفسك الشعور بالشفقة، وله طبع دمث إلى أبعد حدود الدماثة وهو على جانب كبير من الثقافة، لكنّها ثقافة من يعلّمون أنفسهم بأنفسهم. وكان فقيراً متزوجاً، وهو يزاول مهنته عائلاً خالته وأخت زوجته. كانت زوجته مأخوذة بالأفكار الحديثة كسائر هاته السيدات، لكن هذه الأفكار كانت تكتسي عندها طابعاً عاماً حتى ليصدق عليها ما قاله ستيفان تروفيموفتش ذات يوم: "فكرة أُلقيت في الشارع". إن الذخيرة الفكرية لدى هاته النساء مستعارة، فيكفي أن تروج في الأوساط التقدمية بالعاصمة

(1) فرجنسكي: اسم مشتق من الكلمة اللاتينية فيرجو/ فيرجينيس (العذراء)، ولا بد أن يدل على أن صاحب هذا الاسم ينتمي إلى فئة أبناء رجال الدين.

شائعة من الشائعات حتى تراهنّ مستعدات لطرح كل شيء من النافذة عند أول إحياء. وكانت السيدة فرجنسكي تزاوّل في مدينتنا مهنة القابلة. وقد أقامت قبل زواجها زمناً طويلاً ببطرسبرج. أما فرجنسكي نفسه فهو رجل يمتاز ببراعة نادرة ونقاء غير شائع، وقلما أتيح لي أن لقيت نفساً تفوق نفسه في الاندفاع النبيل. كان يقول لي وقد أشرق نظراته: "لن أتخلى يوماً، لن أتخلى يوماً عن هذه الآمال المضيئة". وكان يتكلم بصوت خافت وبرقة وعذوبة، حتى ليكاد يتمتم متممة، كأنه يفضي إليك بسرّ. وكان طويل القامة بعض الشيء، لكنه شديد النحول، ضيق المنكبين، قليل الشعر، يضرب لون شعره إلى حمرة. وكان يقبل في مذلة جميع السخريات التي يتفضل ستيفان تروفيموفتش فيوجهها إلى بعض آرائه. لكنه كان مع ذلك يعترض على ستيفان تروفيموفتش اعتراضات قوية جداً تفحمة وتسقط في يده. ومن الواجب أن نذكر مع ذلك أن ستيفان تروفيموفتش الذي يتصرف معنا جميعاً تصرف الأب مع أبنائه كان يعامله في مودة ولطف. كان يخاطب فرجنسكي بقوله:

- أنت وأمثالك "فقس سابق لأوانه"، رغم أنك شخصياً مبرراً من ذلك الضيق العقلي الذي رأيته ببطرسبرج لدى أولئك التلاميذ. لكن هذا لا ينفي أنك من ذلك "الفقس السابق لأوانه". إن شاتوف يتمنى لو يكون من الفقس الذي يتم في حينه، لكنه فقس سابقاً لأوانه هو أيضاً. فيقول له ليوتين:

- وأنا؟

- أنت الوسط تماماً، الوسط الذي يعرف كيف يدبر أموره في جميع الظروف... بطريقته الخاصة. فيغضب ليوتين.

وقد شاع في المدينة - ويظهر أن الشائعة قائمة على أساس صحيح للأسف - أن زوجة فرجنسكي قد أعلنت له "استقلالها" ولما يمضي على زواجهما حول كامل، قائلة إنها تؤثر عليه عليه لبيادكين. وليبادكين هذا ليس من

مدينتنا. وقد اتضح بعد ذلك أنه من الأشخاص المشبوهين جداً، حتى إنه لم يكن ضابطاً متقاعداً كما كان يلقب نفسه بهذا اللقب كاذباً. كل ما كان يجيده هو أن يعقف شاربيه ويشرب الخمرة ويروي أسخف المغامرات التي يمكن أن يتصورها الخيال. وكان يرضيه أن يعيش عائلة على الآخرين، فلم يتحرج من أن يقيم فور وصوله عند أسرة فرجنسكي، آكلًا شارباً ثائماً، ناظراً إلى رب الدار آخر الأمر نظرة احتقار. وقد ادّعى بعضهم أن فرجنسكي قال لامرأته حين أعلنت له "استقالته": "يا عزيزتي، كنت لا أشعر نحوك إلا بالحب، أما الآن فأنا أحترمك"⁽¹⁾ ولكن من المشكوك فيه أن يكون فرجنسكي قد نطق حقاً بهذه العبارة الرائعة التي تليق بأن تصدر عن روماني من الرومان القدماء. وقال آخرون: بل إنه حين "استقالت" امرأته أجهش باكياً متحجاً. وفي ذات مرة - حدث ذلك بعد "الاستقالة" بخمسة عشر يوماً - مضى الجميع في زيارة "عائلية" إلى منزل بعض الأصحاب في ضاحية من ضواحي المدينة لاحتساء الشاي، فكان فرجنسكي يُظهرُ نوعاً من المرح العنيف، ويشارك في الرقص، ثم إذا هو ينقض على العملاق لبيادكين فجأة، وبدون أي تشاجر سابق، بينما كان هذا يرقص رقصة الكانكان منفرداً، فيمسك شعره بكلتا يديه، ويثنيه نصفين، ويأخذ يهزه هزاً قوياً، وهو يبكي ويصرخ صرخات حادة، فبلغ العملاق من شدة الخوف أنه لم يدافع عن نفسه. لا، ولا نطق بكلمة واحدة طوال هذا الاشتباك. لكن لبيادكين أظهر عند انتهائه كل ما يمكن أن يظهره سيد مهذب من غضب واستياء.

وقضى فرجنسكي الليل كله راكعاً عند قَدَمَيِ امرأته يضرع إليها أن تصفح عنه، لكنها لم تصفح، لأنه لم يقبل، رغم كل شيء، أن يعتذر إلى لبيادكين. وقد أخذوا عليه فيما بعد أن عقيدته فاترة وأن ذكاه ضعيف، لأنه حين أراد أن يعتذر لامرأة ركع على ركبتيه. وقد اختفى ذلك "الضابط المتقاعد" بعد قليل، ولم يعد إلى مدينتنا إلا في المدة الأخيرة تصحبه أخته، ومضى يلاحق

(1) محاكاة لرأي من آراء تشيرنفسكي عن الحب الحر، وهي الآراء التي عرضها في كتابه "ما العمل؟".

عندئذ أهدافاً أخرى. وسأعود إلى الحديث عنه في فرصة ثانية. لا غرابة إذن في أن "رب الأسرة" المسكين قد احتاج إلى صحبتنا ينشد لقلبه عزاء. على أنه لم يحدثنا في يوم من الأيام عن شؤونه الخاصة. وفي مرة واحدة، بينما كنا عائدين معاً من بيت ستيفان تروفيموفتش، بدأ يتكلم عن حاله في غموض، لكنه لم يلبث أن صاح يقول في توهج وقد أمسك بيدي:

- ليس لهذا قيمة... هي حالة فردية لا أكثر... لن يضع هذا أي عقبة أمام "القضية المشتركة" لن يكون له أي قيمة؟

وكان نادينا الصغير يستقبل كذلك ضيوفاً طارئين، مثل اليهودي ليامشين والكابتن كارتوزوف. وفي وقت من الأوقات أخذ يجيء إلى نادينا رجل طيب عجوز يرغب في الثقف. وفي ذات يوم قاد إلينا ليوين كاهناً محكوماً عليه بالترحيل، اسمه سلوفزسكي، وقد استقبلناه بعض الوقت من قبيل التمسك بالمبدأ، ولهذا السبب نفسه كففنا عن استقباله فيما بعد...

9

سَرت في المدينة، في وقت من الأوقات، شائعة تقول إن حلقتنا بؤرة فساد أخلاقي وزندقة وإلحاد. ثم إن هذه الشائعة قد وجدت لدى سكان المدينة شيئاً من التصديق دائماً. والحق أن الأمر كله كان لا يتعدى حدود ثروة ليبرالية ظريفة، ولا يحمل في طياته أي أذى أو خطر، على الطريقة الروسية تماماً. إن "الليبرالية النبيلة الرفيعة"، أي الليبرالية التي لا ترمي إلى تحقيق أي هدف محدد أو غاية معينة شيء ليس ممكناً إلا في روسيا. كان ستيفان تروفيموفتش، ككل رجل من رجال الفكر، يحتاج إلى سامعين، وكان يشعر عدا ذلك بأنه يحقق بنشر أفكاره واجباً أسمى، كما أن الشمبانيا أخيراً يطيب للمرء أن يشربها مع صحبة طيبة وأن يبادل أفراد هذه الصحبة أثناء ذلك بعض الملاحظات اللاذعة المعروفة، عن روسيا وعن "الفكر الروسي" وعن "الإله" عامةً، وعن "الإله

الروسي "خاصة"⁽¹⁾، وأن يكرر للمرة المائة بعض الحكايات الفاضحة التي ذاع نبؤها وانتشر خبرها في كل مكان. وكنا كذلك لا نهمل الحكايات والأقاويل التي تجري في المدينة، وكنا في بعض الأحيان نصدر في حقها أحكاماً تتصف بأرفع الأخلاقية. وكان لكبريات المشكلات الإنسانية نصيب من اهتمامنا أيضاً: فكنا نتناقش عن مستقبل أوروبا والإنسانية، ونتنبأ بأن فرنسا ما إن يزول عهدها القيصري حتى تسقط إلى مستوى أمة من الدرجة الثانية. وكنا مقتنعين بأن ذلك سوف يحدث ببساطة، وفي أقصر مدة. أما البابا⁽²⁾ فكنا قد حددنا له منذ زمن طويل دور أسقف بسيط في إيطاليا الموحدة، مقتنعين بأن هذه المسألة التي عمرها أكثر من ألف عام لم يبق لها من قيمة في عصرنا هذا الذي نعيش فيه، عصر الصناعة والسكك الحديدية. ولكن ألم يكن هذا هو موقف "البرالية النبيلة الرفيعة" الروسية دائماً وكان ستيفان تروفيموفتش يتكلم أحياناً عن الفن، فيفيض في الكلام ويجيد الحديث، ولكن كلامه كان يتصف أحياناً بأنه مجرد بعض التجريد. وكان يستحضر في بعض الأحيان أيضاً، بحنان واحترام، ولكن مع شيء من الحسد، ذكرى أصدقاء شبابه الذين كان لهم جميعاً شأن في إنماء ثقافتنا. حتى إذا مللنا مللاً شديداً وسئمنا سأمًا مفراطاً قام ليامشين (وهو موظف بمصلحة البريد) الذي يجيد العزف على البيانو إجادة ممتازة، فأخذ يعزف مقلداً أصوات الخزير، وهمهمات العاصفة، وأثبات المرأة أثناء المخاض، وصرخات الطفل الوليد، إلخ. ومن أجل هذا الغرض وحده إنما كان يدعى إلى حلقتنا على كل حال. فإذا أسرفنا في الشراب - وكان ذلك يحدث أحياناً، ولكن نادراً - استسلمنا للفرح والعريضة، حتى لقد اتفق لنا في ذات مساء أن أنشدنا نشيد المارسييز معاً، بمصاحبة عزف ليامشين. ولست أدري على كل حال هل وُقِّعنا في الإنشاد كثيراً.

(1) "عن الإله الروسي خاصة": إشارة إلى قصيدة نقدية هجائية نظمها الأمير بطرس فيازمكي (1878-1792) وظهرت سنة 1828 بعنوان "الإله الروسي".

(2) بعد الحملة المهزومة التي قام بها غاريبالدي سنة 1862 كثر الكلام على تجريد البابا من سلطته الزمنية.

أما اليوم العظيم⁽¹⁾، يوم التاسع عشر من شباط (فبراير) فقد احتفلنا به في حماسة. ويا طالما سبق أن أفرغنا الكؤوس تكريماً لذلك اليوم على كل حال. ولكن هذا أمر قديم: ففي ذلك العهد لم يكن شاتوف ولا فرجنسكي قد أصبحا من حلقتنا، وكان ستيفان تروفيموفتش ما يزال يقيم في نفس المنزل الذي تقيم فيه فرفارا بتروفنا. وقبيل حلول ذلك اليوم العظيم كان ستيفان تروفيموفتش قد أخذ يدندن مغنياً، بصوت خافت، أبيات الشعر المعروفة جداً، ولكن على نحو غير صحيح، وهي أبيات لعل ناظمها سيد قديم لبرالي من مالكي الأطيان:

الفلاحون يتقدمون

حاملين فؤوسهم بأيديهم

إن أموراً هائلة تتهياً

أو شيء من هذا القبيل. فإنني لا أتذكر النص تذكراً دقيقاً. وحين سمعت فرفارا بتروفنا صديقها يدندن مغنياً هذا الغناء صاحت تقول: "سخافات، كل هذا سخافات!"، وانصرفت غاضبة. لكن ليبوتين الذي حضر المشهد، قال لستيفان تروفيموفتش بلهجة ساخرة:

- لسوف تكون خسارة حقاً أن يسبب الأفتان القدامى، أثناء فرحتهم بعض الإزعاج للسادة المالكين.

قال ليبوتين ذلك وهو يرسم بإبهامه خطأً حول عنقه.

فأجابه ستيفان تروفيموفتش يقول ببساطة وطيبة:

- يا صديقي، صدقني إذا قلت لك إن هذا (وكرر حركة ليبوتين) لن يكون له أي نفع لا للمالكين، ولا لنا جميعاً بشكل عام. فرغم أن رؤوسنا هي نفسها التي تمنعنا من فهم ما يجري، فإننا إذا قطعت رؤوسنا لن نزداد فهماً. أحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة إلى أن عدداً منا كانوا يتصورون أن أموراً ستحدث يوم نشر البيان، ولا سيما أموراً من نوع الأمور التي أشار إليها

(1) هو يوم إلغاء الرق أو القنانة (19 شباط فبراير 1861).

ليوتين في كلامه. فما أغرب أن يتصور هؤلاء الناس أنفسهم رجال سياسة، وأن يدّعوا أنهم يفهمون الشعب! وكان ستيفان تروفيموفتش يشارك في هذه المخاوف فيما يبدو. حتى إنه في عشية ذلك اليوم العظيم تقريباً طلب من فرفارا بتروفا فجأة أن ترحله إلى الخارج، وكان يشعر بقلق. ولكن اليوم العظيم حلّ ومضى، واسترد ستيفان تروفيموفتش ابتسامته المتعالية بعد فترة قصيرة من الوقت. وألقى علينا في ذات مرة بضع ملاحظات وتأملات عن طبع الروس عامة، وطبع الفلاحين خاصة. وختم كلامه بقوله:

- نحن أناس متعجلون، تسرّعنا كثيراً مع فلاحينا الطيبين، جعلناهم "موضة"، وانصبّ جزء كبير من أدبنا عليهم كانصبابه على كنز تم اكتشافه حديثاً، وظل متوفراً عليه خلال سنين. كنا نتوّج بأكاليل الغار رؤوساً مقلّمة. وماذا أعطانا الفلاح الروسي منذ وجد منذ قرابة ألف سنة؟ لقد أعطانا "الكامارنسكايا"⁽¹⁾ إن شاعراً روسياً مرموقاً لا يخلو من ذكاء وفكر قد هتف يقول متحمساً حين رأى راشيل⁽²⁾ العظيمة أول مرة: "إنني لا أشتري راشيل بفلاح". ولكنني أنا أذهب أبعد من ذلك فأقول: "إنني لا أبيع راشيل بجميع الفلاحين الروس!". لقد آن لنا أن نرى الأشياء كما هي، وأن لا نمزج قطراننا بعطر "أزهار الإمبراطورة"⁽³⁾.

فسرعان ما وافقه ليوتين على رأيه، ولكنه لاحظ أنه في ذلك الزمان، كان لا بد، باسم الفكرة، من التمثيل والتظاهر وتمجيد الموجيه. وأضاف أن سيدات من المجتمع الراقي قد سكين دموغاً غزاراً لدى قراءة "أنطون جوريميك"⁽⁴⁾ حتى أن بعضهن قد كتبن من باريس رسائل إلى وكلاء أملاكهن

(1) "الكامارنسكايا": رقصة روسية شعبية يصاحبها غناء فخر.

(2) راشيل العظيمة: إيليزا راشيل (1858-1821) الممثلة الدرامية الشهيرة المولودة بروسيا. ولقد قامت بجولة في روسيا 1853-1854 ولقيت نجاحاً كبيراً.

(3) "أزهار الإمبراطورة": عطر كان على الموضة، وقد سمي كذلك تكريماً للإمبراطورة أوجينيا.

(4) "أنطون جوريميك": قصة كتبها ديمتري جريجوروفتش (1899-1822)، صديق شباب دوستوفسكي كما نعلم. وقد نشرت القصة سنة 1847، وفيها يصف المؤلف بطريقة واقعية عاطفية في آن واحد آلام فقير.

طالبات منهن أن يُعامل الأقبان في المستقبل معاملة إنسانية إلى أبعد حد ممكن.

ومع ذلك حدث بمصادفة تشبه أن تكون عمداً أن أحداثاً مؤسفة لم تلبث أن وقعت في مقاطعتنا، على مسافة خمسة عشر فرسخاً من سكفورشنيكي، بعد الشائعات التي سرت عن أنطون بتروف⁽¹⁾ فأرسلت الحكومة إلى المكان في لحظة الانفعال الأول فصيلة مسلحة. وسرعان ما استبد الاضطراب بستيفان تروفيموفتش، وبلغ هذا الاضطراب من القوة أننا خفنا نحن أيضاً. فكان ستيفان تروفيموفتش يصرخ قائلاً في نادينا أنه كان من الواجب إرسال فصيلة أكبر وأضخم، واستقدام تعزيزات من المقاطعة المجاورة برقياً. وهرع إلى الحاكم يؤكد له أنه لا شأن له في الأمر، وأنه غير ضالع فيه، ويتوسل إليه ألا يقحمه في هذه القصة، كما قد يغريه أن يفعل ذلك بسبب ماضيه. حتى لقد اقترح على الحاكم أن ينقل تصريحه هذا إلى من يعينهم الأمر ببطرسبرج. ومن حسن الحظ أن الأحداث انتهت بسرعة ولم يكن لها عواقب. ولكن ستيفان تروفيموفتش قد أدهشني في تلك المناسبة أشد الدهشة.

بعد ذلك بنحو ثلاث سنين أخذ الناس يتحدثون في "الوعي القومي" وفي "الرأي العام"، فكان ستيفان تروفيموفتش يضحك كثيراً من هذا كله، ويقول لنا:

- يا أصدقائي لو أن وعينا القومي قد "نشأ" فعلاً، كما تؤكد الصحف في هذه الأيام، فإنه ما يزال على مقاعد المدرسة، على مقاعد مدرسة ألمانية⁽²⁾، يقرأ كتاباً ألمانياً ويلتغ في تعلم درسه الأبدي باللغة الألمانية أمام معلم ألماني يجعله يركع على ركبتيه عند الحاجة. وأنا من جهتي أؤيد هذا المعلم

(1) "أنطون بتروف": فلاح من قرية بزدا في إقليم قازان. زعيم عصيان قام به الفلاحون في تلك القرية. لقد كان الفلاحون مستائين من أن إصلاح 1861 لم يعطهم كل أراضي المالك. وقد أعدم بتروف رماً بالرصاص سنة 1861.

(2) هي المدرسة الألمانية التي تأسست ببطرسبرج في القرن الثامن عشر، وكانت ما تزال تقدر تقديراً عظيماً حتى سنة 1918، وهو العام الذي ألغيت فيه.

الألماني، ولكن الأرجح هو أن لا شيء قد حدث، وأن لا جديد، وأن كل شيء يسير كما كان يسير من قبل، أي بتفسير الله. وفي رأيي أن هذا يكفي كل الكفاية روسيا "بلادنا المقدسة روسيا"⁽¹⁾. ثم إن هذه الأقوال كلها عن الوحدة السلافية والوعي القومي⁽²⁾ أقدم من أن تُعدَّ جديدة. ونستطيع أن نقول على وجه الإجمال إن فكرة "القومية" لم توجد يوماً في بلادنا إلا اختراعاً من تليفق سادة عاطلين عن العمل، من سادة موسكو خاصة. ولست أتكلم طبعاً عن عهد الأمير إيجور⁽³⁾ الخلاصة أن مصدر هذا كله إنما هو فراغنا. وكذلك فإن كل ما هو لطيف ومحَبَّ عندنا إنما مرجعه إلى الفراغ، إلى ذلك الفراغ اللذيذ الذي نَعِمَ به المثقفون سادتنا أصحاب التزوات والبدوات! إنني ما برحت أكرر هذا منذ سنين. إننا لا نعرف أن نعيش من عملنا. ما بالهم يحدثون جميعاً كل هذه الجلبة الآن حول ما يسمونه "الرأي العام"، ومايزعمون أنه نشأ الآن وكأنه هبط علينا فجأة من السماء، هكذا، دفعة واحدة!... ألا تفهمون أن على المرء من أجل الحصول على رأي أن يعمل قبل كل شيء، أن يعمل هو نفسه، وأنه في حاجة إلى ممارسة، إلى تجربة؟ لا يستطيع أحد في يوم من الأيام أن يمتلك شيئاً دون أن يدفع شيئاً. ألا فلنشرع في العمل فيمكن أن يكون لنا رأي خاص بنا. ولكننا أناس لن نعمل أبداً، لذلك فإن الآخرين هم الذين سيكوّنون لنا رأياً، وهؤلاء الآخرون هم أوروبا أيضاً ودائماً، هم الألمان أيضاً ودائماً، الألمان الذين يعلموننا منذ قرنين. يُضاف إلى ذلك أن روسيا لغز يبلغ من الضخامة أننا لن نتوصل يوماً إلى أن نحله وحدنا، بدون مساعدة الألمان، وبدون عملهم الدائب. إنني ما برحت، منذ عشرين عاماً، أقرع الجرس لأوقظ الناس وأهيب بهم إلى

(1) "بلادنا المقدسة روسيا" إن هذا القول: "بلادنا المقدسة روسيا" نجده في الأغاني الملحمية الروسية منذ عام 1861. وكان رائجاً في الأوساط المنادية بالسلافية في ذلك الأوان.

(2) كان دعاة الوحدة السلافية والوعي القومي يتكلمون حينها كثيراً عن بقطة القوميات السلافية في امبراطورية النمسا-المجر وفي تركيا يحملون بوحدة سلافية بقيادة روسيا المقدسة.

(3) "عهد الأمير إيجور: إيجور، ابن روريك، الأمير الأكبر لروسيا من سنة 1912 إلى سنة 1945

العمل. لقد ضحّيت بحياتي كلها في سبيل هذا النداء، وكنت - لجنوني! ...
- أظن أنني سأفلح. أما الآن فقد فقدت الإيمان والثقة، ولكنني ما زلت أقرع
الجرس، وسأظل أفعل حتى النهاية إلى أن أوارى في التراب. سأظل أشد
الحبل إلى أن يدق ناقوس موتي أنا!

وا أسفاه! كنا لا نزيد على أن نرد على هذه الكلمات بغير الموافقة
والتأييد. كنا نصفّق لمعلّمنا، وكنا نصفّق له بحرارة شديدة! ومع ذلك، أيها
السادة، ألا ترون أن هذه الثروة الروسية القديمة، الذكية هذا الذكاء، الفتانة
هذه الفتنة، اللبرالية إلى هذه الدرجة ما تزال تترجّع في آذاننا إلى اليوم، وفي
كثير من الأحيان؟
وكان معلّمنا يؤمن بالله.

فكان يقول في بعض الأحيان:

- لست أدري حقاً لماذا اشتهرت هنا بأنني ملحد. إنني أوّمن بالله. ولكن
"يجب أن نفرّق": إنني أوّمن بالله إيماني بوجود لا يعي ذاته إلّا فيّ أنا. ليس
في وسعي طبعاً أن يكون إيماني كإيمان خادمتي ناستاسيا، أو كإيمان سيد
من السادة يؤمن كيفما اتفق له أن يؤمن، أو كإيمان صاحبنا اللطيف شاتوف.
على أن شاتوف يجب ألا يُحسب، لأن شاتوف يجبر نفسه على الإيمان
إجباراً، كما يفعل واحد من أنصار السلافية في موسكو. أما المسيحية، فإنني
رغم كل ما أحمله لها من احترام، أنتمي إليها، فأنا لست مسيحياً. إنني أقرب
إلى أن أكون وثنياً من الزمان القديم، على طراز جوته العظيم أو الإغريق
القدماء. على الأقل لأن المسيحية لم تفهم المرأة، كما بينت ذلك جورج
صاند⁽¹⁾ أروع بيان، في إحدى رواياتها العبقريّة. أما عن العبادات، كالصوم

(1) في سنة 1847 كان بيلنسكي في الخارج فكتب إلى جورجول رسالة حامية مضطربة سنة 1847
بمناسبة نشر جورجول لمراسلاته. وفي تلك الرسالة يهاجم الناقد مسيحية جورجول مؤكداً أن الشعب
الروسي هو بين الشعوب أكثرها إلحاداً.

أمّا الرواية التي بينت فيها جورج صاند أن المسيحية لم تفهم الدين فلعلها رواية
"ليلي" التي نشرت سنة 1839 وعالجت فيها قضية المرأة.

والصلاة وما إلى ذلك، فإنني لا أفهم لماذا يتدخل الناس في ما لا يعنهم؟ مهما يبذل الوشاة هنا من جهود، فلا أحب أن أصبح يسوعياً. في عام 1874، حين كان بيلنسكي في الخارج، كتب إلى جوجول رسالته الشهيرة التي يؤاخذها فيها على أنه يؤمن بذلك "الإله الذي لا أدري ما هو!". اسمعوا ما سأقوله لكم "سرّاً بيننا: إنني لا أستطيع أن أتخيل شيئاً أبعث على الضحك من تلك الدقيقة التي قرأ فيها جوجول "جوجول ذلك العهد" تلك العبارة، و... بقية الرسالة! ولكن كفانا مزاحاً. وما دمنّا رغم كل شيء متفقين على جوهر المسألة، فسأقول: أولئك الرجال! أولئك كانوا يعرفون كيف يحبون شعبهم، كانوا يعرفون كيف يتألمون من أجله، ويضحون بكل شيء في سبيله. ولكنهم كانوا في القوت نفسه، يعرفون كيف يقاومونه في بعض الشؤون إذا اقتضى الأمر ذلك، فلا يتملقونه ولا يخادعون. ما كان بيلنسكي ليستطيع أن يبحث عن السلامة في الصيام عن الطعام، وفي إشعال الشموع!...

ولكن هنا كان يتدخل شاتوف:

- إن أولئك الرجال لم يحبوا الشعب في يوم من الأيام، ولا تألموا من أجله ولا ضحوا بشيء في سبيله، وإنما كانوا يتسلون بأخيلتهم... بذلك كان يجمعهم شاتوف مكفهر الوجه، مطرقاً إلى الأرض، مضطرباً على كرسيه. فكان ستيفان ترفيموفتش يزأر سائلاً:

- كانوا لا يحبون شعبهم؟ هم؟ آه... لشدّ ما كانوا يحبون روسيا!

فيعول شاتوف قائلاً بدوره وقد سطعت نظراته وحميت عيناه:

- لا، لا الشعب ولا روسيا. إن المرء لا يستطيع أن يحب ما لا يعرف. وأولئك كانوا لا يعرفون عن الشعب الروسي شيئاً البتة، ولا يفهمونه إطلاقاً. إنهم جميعاً، وأنت معهم، قد مرّوا بالشعب مروراً دون أن ينظروا إليه، ولا سيما بيلنسكي. إن رسالته إلى جوجول تبرهن على ذلك برهاناً كافياً. إنه يشبه تماماً ذلك "المستطلع"⁽¹⁾ الذي تحدّثنا عنه حكاية كريلوف، ذلك

(1) "المستطلع" حكاية شهيرة من الحكايات التي كتبها كريلوف عن الحيوانات. فالمستطلع يتحدث عن زيارة قام بها لمتحف التاريخ الطبيعي فأعجب بحشرات كثيرة، لكنه لم يلتفت إلى الفيل.

"المستطلع" الذي لم يلاحظ الفيل الموجود في المتحف، لأن عينيه كانتا منصرتين انصرافاً تاماً إلى رؤية الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا. ولم يذهب إلى أبعد من ذلك. ومع هذا فلعله كان أذكاءم جميعاً. فأنتم لا تجهلون الشعب فحسب، بل لا تشعرون نحو الشعب إلا بأبشع الاحتقار والازدراء، لأن الشعب الوحيد في نظركم إنما كان هو الشعب الفرنسي، بل وشعب باريس وحدها، وكأنما يُخجلكم أن الشعب الروسي لا يشبه الباريسيين. تلك هي الحقيقة صافية خالصة. ومن لم يكن له شعب لم يكن له إله. فاعلموا أن جميع أولئك الذين أصبحوا لا يفهمون شعبهم، وأصبحوا على غير صلة به، يفقدون إيمان آبائهم بذلك المقدار نفسه، ويصبحون ملاحدة أو غير مكترئين بالدين. إن ما أقوله صحيح. إنه واقع سهل البرهان عليه. ذلك هو السبب في أنكم جميعاً، في أننا جميعاً الآن ملاحدة أشرار أو أشقياء غير مكترئين بالدين، ذلك هو السبب في أننا لسنا الآن شيئاً على الإطلاق. هذا يصدق عليك أنت أيضاً يا ستيفان تروفيموفتش. إنني لا أستنيك. بالعكس: لقد قصدتك أنت، فاعلم هذا.

كان من عادة شاتوف، حين يندفع في حديث طويل من هذا النوع، أن يتناول قبعته، وأن يهرع إلى الباب، مقتنعاً بأن كل شيء قد انتهى الآن، وأن علاقات الصداقة بستيغان تروفيموفتش قد انقطعت إلى الأبد. ولكن ستيفان تروفيموفتش عرف كيف يستوقفه في الوقت المناسب. فقال له بلهجة طيبة وهو يمد إليه يده:

- حسناً يا شاتوف! ما رأيك في أن نتصالح بعد أن تبادلنا هذه العبارات اللطيفة؟! ...

وكان شاتوف امرءاً أخرج التصرف شديد الحياء، لا يحب الاندفاعات العاطفية، وهو خشن المظهر لكن له نفساً رقيقة مرهفة فيما اعتقد. لقد كان يتفق له في كثير من الأحيان أن يفقد حس القصد والاعتدال، ولكنه كان أول

أنا قول دوستوفسكي "الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا". فلعله ينصرف إلى أنبياء الاشتراكية الطوباوية من أمثال فوربيه وكبيه وغيرهما.

من يتألم من ذلك ويندم عليه. فها هو ذا يرد على كلمات المصالحة التي وجهها إليه ستيفان تروفيموفتش ببضعة ألفاظ مبهمّة غير متميزة جمجم بها جمجمة، ثم أخذ يرقص في مكانه كما يرقص دب، ثم إذا هو يبتسم ابتسامة خرقاء على حين فجأة، ويعيد قبعته، ويرجع إلى كرسيه مطرقاً إلى الأرض. وجيء عندئذ بخمرة طبعاً، واقترح ستيفان تروفيموفتش أن يشربوا نخباً يناسب الظرف، كأن يكون نخب ذكرى واحد من أولئك الذين لمع نجمهم في الماضي.

الفصل الثاني

الأمير هاري. عرض زواج

1

ما يزال يوجد في العالم شخص ترتبط به فر فارا بتروفا ارتباطاً لا يقل عن ارتباطها بستيفان تروفيموفتش. ذلك هو ابنها الوحيد نيقولا فيسيفولودوفتش ستافروجين. ومن أجل ابنها هذا إنما كانت فر فارا بتروفا قد دعت ستيفان تروفيموفتش إلى الإقامة في سكفور شنيكي، ليشرف على تربيته. كان الولد يومئذ في نحو الثامنة من عمره. وكان أبوه الجنرال ستافروجين قد انفصل عن فر فارا بتروفا من قبل، فكانت فر فارا بتروفا وحدها تتولى أمر ابنها وتهتم بشؤونه. ويجب أن ننصف ستيفان تروفيموفتش فنقول أنه أفلح في اكتساب مودة تلميذه. وسرّه كله في هذا أنه كان هو نفسه طفلاً. لم أكن قد عرفت في ذلك الحين بعد. وكان في حاجة مطلقة إلى أن يكون له بقره صديق. لذلك لم يتردد في أن يتخذ الصبي نيقولا ستافروجين صديقاً له، منذ خرج الصبي من مرحلة طفولته الأولى. وكانا يحسان كلاهما أنهما متساويان تساويًا تاماً. وكثيراً ما اتفق لستيفان تروفيموفتش أن أيقظ في الليل صديقه الصغير، البالغ من عمره عشر سنين أو إحدى عشرة، لا شيء إلا أن يعبر له عما يجيش في نفسه من مشاعر المرارة والحسرة، أو أن يكشف له عن سر عائلي ما، دون أن يدرك أن مثل هذا البوح لا محلّ له. فكان الطفلان يتعانقان ويبكيان. كان الولد يعرف مدى ما تحمله له أمه من حب، ولكن الأرجح أنه كان لا يحمل لها هذه العواطف نفسها. كانت لا تكلمه إلا نادراً. ورغم أنها كانت

تدعه حراً، فلقد كان يؤلمه أن يشعر بنظراتها المنتبهة تلاحقه في كل مكان. ثم إنها في كل ما يتعلق بتعليم ابنها وتهذيب نفسه كانت تعتمد على ستيفان تروفيموفتش اعتماداً تاماً، لأنها كانت في ذلك الأوان تثق به ثقة مطلقة.

يجب أن نعتقد أن المربي قد شوّش أعصاب تلميذه في آخر الأمر فحين بلغ الولد السادسة عشرة وأدخل المدرسة الثانوية كان مرهقاً شاحب اللون ضعيف الجسم "لسوف يكتسب في المستقبل قوة جسمية خارقة". ويجب أن نعتقد أيضاً أن الصديقين كانا يتعانقان ويكيان في الليل لا بسبب حوادث عائلية فحسب. لقد استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يمسّ من نفس الصبي أوتاراً خفية، وأن يوقظ فيه الإحساس المتنبئ الغامض بذلك الحزن المقدس الذي متى ذاقته نفس من نفوس الصفوة أصبحت ترفض أن تستبدل به أية لذة من اللذات العادية (بل إن ثمة هواة يحبون هذا الحزن أكثر مما يحبون الرضا الكامل، إذا كان للرضا الكامل وجود). مهما يكن من أمر فقد أحسنوا حين فصلوا الريب عن مربيه، ولو في وقت متأخر قليلاً.

في السنتين الأوليين من دراسته بالمدرسة الثانوية، جاء الفتى يقضي عطلته بالمنزل. وفي أثناء إقامة فرفاراً بتروفنا وستيفان تروفيموفتش ببطرسبرج، شهد بعض السهرات الأدبية التي كانت تقيمها أمه فكان يقتصر على الإصغاء والملاحظة. كان قليل الكلام لطيفاً خجولاً على عهدنا به في الماضي. وكان ما يزال يلتزم تجاه ستيفان تروفيموفتش موقف الثقة والمحبة، ولكن على شيء من التحفظ مع ذلك. كان واضحاً أنه يتحاشى أن يخوض معه في الحديث عن أمور رفيعة، ويتجنب إثارة ذكرى الماضي. حتى إذا أنهى دراسته اختار المهنة العسكرية تلبية لرغبة أمه، وسرعان ما دخل ألمع كتيبة من كتائب فرسان الحرس. لكنه لم يأت لزيارة أمه في زيه العسكري، وأصبحت رسائله إليها قليلة نادرة. وكانت فرفاراً بتروفنا ترسل إليه المال بسخاء، ليعيش في بحبوحة، رغم أن عائدات أملاكها قد بلغت من الهبوط بعد إلغاء الرق أنها أصبحت لا تقبض حتى نصف المبالغ التي كانت تقبضها من قبل. وإنما ينبغي أن نذكر أنها بفضل اقتصادها وتوفيرها كانت

قد ادخرت رأس مال كبير. وكانت تتابع بكثير من الاهتمام والشغف ما كان يحققه ابنها في المجتمع الراقي ببطرسبرج من نجاح تلو نجاح. فالضابط الشاب، الغني، المليء بالآمال والوعود، استطاع أن ينجح نجاحاً باهراً حيث أخفقت هي. فعقد صلات كانت هي قد انقطعت حتى عن أن تحلم بمثلها، وأصبح يُستقبل بترحيب شديد حيثما يذهب. ومع ذلك، سرعان ما أخذت تصل إلى مسامع فرفاراً بتروفا شائعات غريبة كل الغرابة: لقد أخذ الشاب يلهو لهواً مسعوراً على حين فجأة. ليس معنى ذلك أنه يقامر ويسكر وإنما هو على ما يقال يقوم بأعمال عنيفة ويرتكب أفعالاً وحشية: فمرة يدوس أناساً بحصانه، ومرة يهين سيدة من المجتمع الراقي كانت له بها علاقة، يهينها على مرأى ومسمع من الناس. إن هذه الحادثة الأخيرة تتصف بخسة ودناءة خاصة. وقيل أيضاً إنه يسلك سلوك امرء يهوى مشاجرة الناس، ويسعى إلى الاقتتال معهم، ويتلذذ بإهانتهم. إن هذه الأنباء تغرق فرفاراً بتروفا في قلق شديد وغم بالغ. وقد أكد لها ستيفان تروفيموفتش مع ذلك أن هذه الأمور ليست إلا اندفاعات عارمة لطبيعة غنية المواهب جداً، وأن البحر سيهدأ حتماً وأن هذا كله، على وجه العموم، إنما يذكر بشباب الأمير هاري⁽¹⁾ الذي كان، كما يصوره لنا شكسبير، يندفع اندفاعات مفرطة شتى في صحبة فالستاف وبوانس ومسر كوكلي. ففي هذه المرة لم تصرخ فرفاراً بتروفا قائلة لصديقتها: "سخافات، هذه كلها سخافات!"، على عاداتها في الآونة الأخيرة، وإنما أخذت أقواله مأخذ الجد، وطلبت منه شروحاً فيها مزيد من التفاصيل، وتولت بنفسها قراءة القصة الخالدة بأكبر انتباه وأعظم اهتمام. ولكن شكسبير لم يدخل الهدوء والطمأنينة إلى قلبها، وكان من رأيها أن التشابه ليس قوياً إلى الحد الذي زعمه ستيفان تروفيموفتش. وانتظرت جواباً على الرسائل التي أرسلتها مستفسرة مستطلعة، انتظرت جواباً وهي على أحرّ من الجمر.

(1) يذكر بشباب الأمير هاري: في مسرحية شكسبير التاريخية "هنري الرابع"، نقرأ أن ابن الملك، الأمير هاري، عاش حياة ماجنة في صحبة فالستاف. لكنه حين أصبح ملكاً باسم هنري الخامس تكشف عن شخصية ملك عاقل حكيم نير.

ولم تتأخر الأجوبة كثيراً. وعُلم أن «الأمير هاري» قد أجرى مبارزتين كان فيهما كليهما هو المخطئ كل الخطأ. ففي الأولى قتل خصمه، وفي الثانية جرح خصمه جرحاً بليغاً. ومثّل الشاب ستافروجين في أعقاب ذلك أمام المحكمة العسكرية، فحُكم عليه بتجريدته من رتبته، وأرسل جندياً بسيطاً إلى كتيبة مدفعية بعد أن راف به القضاة رأفة كبيرة وتسامحوا معه تسامحاً خارقاً. واستطاع سنة 1863⁽¹⁾ أن يتميز وأن يلمع، فنال وساماً، ورُقي إلى رتبة صف ضابط، ثم لم تنقض إلا فترة قصيرة جداً، حتى رُدّت إليه رتبته وعاد ضابطاً. إن فر فارا بترفنا، في أثناء تلك المدة، كتبت ما يقرب من مائة رسالة تتوسل فيها لابنها وتتضرع من أجله. حتى أنها في تلك الظروف الاستثنائية قد عمدت إلى مساعٍ فيها مدّة.

ما إن رُدّت إلى الشاب رتبته فعاد ضابطاً حتى قدّم استقالته. ولكنه لم يرجع إلى سكفورشنيكي، حتى لقد انقطع عن الكتابة إلى أمه انقطاعاً تاماً. وعُلم أخيراً بطرق ملتوية أنه عاد إلى بطرسبرج، ولكنه أصبح لا يرتاد المجتمع الذي كان يختلف إليه من قبل. حتى لكأنه كان يختفي فيما يبدو. وسرعان ما اكتُشف أنه يعيش بين أناس عجيبية أنواعهم، أناس هم سقط الرعاع وحثالة البشر بمدينة بطرسبرج، أناس هم خليط من فقراء أشقياء، وموظفين بؤساء، وعسكريين محالين على التقاعد، يتعاطون الاستجداء ويدمنون الخمر. ويظهر أنه كان يتردد إلى أسرهم الشقية، ويقضي أيامه ولياليه في أكواخ مظلمة، وفي أماكن مشبوهة لا يدري إلا الله ماهي، ولا يعتني بنفسه أي اعتناء، وكأنه يجد لذة في هذا النوع من المعيشة. وكان لا يطلب من أمه مالا. إن له أرضاً صغيرة ورثها عن أبيه، فلا بد أن هذه الأرض كانت تدر عليه بعض المال مهما يكن ضئيلاً، فهي مؤجرة لألماني أصله من ساكس.

واستطاعت فر فارا بترفنا أخيراً، بالتوسلات والتضرعات، أن تحمله

(1) "واستطاع سنة 1863 أن يتميز وأن يلمع": (هو الأمير هاري أيضاً)، ولعل الإشارة هنا إلى فترة قمع الثورة في بولنده.

على العودة إليها، فظهر الأمير هاري في مدينتنا. وحينذاك إنما استطعت أن أراه أول مرة، لأنني لم أكن قد لقيته قبل ذلك قط.

إنه شاب في الخامسة والعشرين من عمره، جميل إلى أقصى حدود الجمال، قد خطف منظره بصري منذ اللحظة الأولى والحق يقال. لقد كنت أتوقع أن أرى فتى رثّ الأسمال، قذر الهيئة، تفوح منه رائحة الخمرة، ويعبر وجهه عن التبذل والفجور، فإذا أنا أرى سيداً من أرفع من لقيت في حياتي من السادة، حُسنُ هندام وأناقة ملبس ومهابة مظهر ولطافة وضع ورقة آداب، فهو بهذا كله ينتمي إلى أرقى بيئة. ولم أكن الشخص الوحيد الذي دهش من ذلك، وإنما كانت الدهشة عامة شاملة في مدينتنا التي كانت مطلعة على سيرة السيد ستافروجين كلها اطلاعاً يبلغ من كثرة التفاصيل أن المرء يتساءل عن مصدرها ولا يفهم من أين أتت. وأغرب ما في الأمر أن نصف هذه المعلومات على الأقل قد ثبتت صحته.

سرعان ما جُنّت سيداتنا جميعاً بضيفنا الجديد، وانقسمن طائفتين: فأما الطائفة الأولى فهي تعبد عبادته، وأما الطائفة الثانية فهي تكرهه كرهاً قاتلاً. ولكنهن جميعاً قد جُنّ جنونهن. إن عدداً منهن كن يشعرن بانجذاب خاص قوي نحوه، لأنهن يتصورن أن نفسه تنطوي حتماً على سر حاسم من الأسرار العجيبة. وكان يحلو لبعضهن أن يرين فيه قاتلاً وقد اتفق أنه كان مثقفاً، حتى أنه يملك معارف واسعة. صحيح أنه لم يكن بحاجة إلى أشياء كثيرة حتى يبهرنا. ولكنه كان في الواقع قادراً على أن يتحدث في أخطر القضايا وأهم المسائل التي كانت تلهب العقول والنفوس في ذلك الأوان، وأن يتحدث عنها في كثير من سداد الرأي وسلامة الحس، وذلك أمر يستحق أكبر التقدير. هناك أمر عجيب: إن جميع الناس، منذ اليوم الأول تقريباً، قد رأوا أنه شاب عاقل جداً. إنه لا يكتر من الكلام، وهو أنيق الهندام بغير تكلف، وهو متواضع تواضعاً مدهشاً وهو في الوقت نفسه أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسه من أي واحد بيننا. كان المتأنقون المتطفرون ينظرون إليه نظرة غيرة وحسد، ويمحون أمامه أمحاء كاملاً. وقد كان وجهه مما خطف

بصري أيضاً. إن شعره أسود، أسود سواداً يوشك أن يكون مفرطاً، وإن عينيه واضحتان مسرقتان في الوضوح والهدوء، وإن وجهه الناعم أبيض مسرف في النقاء والتورّد، أضف إلى ذلك أسناناً كأنها اللؤلؤ وشففتين كأنهما من مرجان. الخلاصة: رجل جميل جداً، لكن فيه مع ذلك شيئاً منفرأً. كان يُقال إن وجهه يشبه قناعاً. أما ما كان يذكر عن قوته الجسمية الخارقة، فهو من الأمور المذهلة! وكانت قامته أطول من قامة وسط.

إن فرفاراً بتروفاً تتأمله بزهو وفخر، ولكنهما زهو وفخر يخالطهما شيء من قلق. عاش بيننا قرابة ستة أشهر، حياة خالية، وادعة، أقرب إلى الجهامة، يرتاد المجتمع إذا اقتضى الأمر ذلك، ويراعي قواعد آدابنا الريفية مراعاة دقيقة صارمة. وكان الحاكم، وهو يمت إلى أبيه بقرابة بعيدة، يستقبله استقبال صديق حميم. ولكن ما إن انقضت بضعة أشهر حتى كشف الحيوان الكاسر عن مخالفته.

يجب أن أشير هنا، إلى أن حاكم مقاطعتنا، وهو ذلك الطيب العزيز، إيفان أوسيبوفتش، كان أشبه بامرأة عانس، ولكنه من أسرة ممتازة، وله علاقات رفيعة. وذلك ما يفسر بقاءه في منصبه تلك المدة الطويلة كلها رغم الإهمال الذي كان يعالج به شؤون الإدارة. إنه كريم مضياف، يصلح لأن يكون ماريشال الطبقة النبيلة في الزمان القديم أكثر مما يصلح لأن يكون حاكم مقاطعة في عهد يبلغ من الاضطراب ما بلغه ذلك العهد. كان يقال عندنا أن الذي يحكم المقاطعة ليس هو الحاكم، بل فرفاراً بتروفاً. تلكم مزحة شريرة، ولكنها في الوقت نفسه ظالمة غير عادلة. ألا ما كان أكثر التفاهات التي كان الناس يطلقونها عن هذا الموضوع متندرين!... والحق أن الواقع كان نقيض ذلك تماماً: إن فرفاراً بتروفاً، في خلال هذه السنين الأخيرة، قد انسحبت، عامدة، من جميع الشؤون التي تهم الناس (رغم الاحترام العظيم الذي لم ينقطع المجتمع كله عن محضها إياه)، وحسبت نفسها حبساً تاماً في الحدود التي رسمتها لنشاطها بإرادتها. لقد تنازلت عن الأهداف العليا والغايات السامية التي كانت ترمي إليها من قبل، وانصرفت إلى إدارة أملاكها

فجأة، فما انقضت سنتان أو ثلاث سنين حتى كانت أراضيها تغل لها نفس ما كانت تغله تقريباً في عهد القنائة. لقد تركت تطلعاتها القديمة (الأسفار إلى بترسبرج، إنشاء مجلة، إلخ)، وأخذت تجمع المال وتكثزه، وأصبحت بخيلة. حتى ستيفان تروفيموفتش، أبعد وأذن له بأن يشتري شقة في منزل آخر (وذلك أمر سعى إلى الحصول عليه منذراً بحجج شتى). وشيئاً فشيئاً، أخذ ستيفان تروفيموفتش يصفها بأنها امرأة عامية، أو يسميها مازحاً باسم "الصديقة العامة". ولكنه لم يسمح لنفسه طبعاً بمثل هذه الأمازيح إلا مع كثير من الاحترام، وبعد أن ارتقب اللحظة المناسبة زمناً طويلاً.

وكنا ندرك نحن أبناء بيئته التي تحيط به - وكان ستيفان تروفيموفتش أكثرنا إحساساً بهذا - أن نيقولا يفسيفولودوفتش تتركز فيه كل آمال أمه، وأنه أصبح محلّ جميع تطلعاتها. إن تعلقها الشديد به يرجع عهده إلى فترة النجاحات التي حققها في المجتمع البترسبرجي، فلما علمت بانحدار الفتى لم يزددها ذلك إلا تعلقاً به. ومع ذلك كان واضحاً أن فرفاراً بتروفنا تخاف ابنها وتتصرف أمامه تصرف عبد تقريباً. كان المرء يلاحظ أنها تخشى من جانبه شيئاً ما، شيئاً غامضاً غريباً سرّياً لا تدركه هي نفسها. وكثيراً ما كانت تلقي على نيقولايس نظرات خاطفة، لكنها نافذة، كأنها تحاول سبر غوره لتعرف كيف تتصرف... وها هو ذا الأيل الأشقر يظهر مخالبه.

2

فجأة، بدون سبب ظاهر، أباح أميرنا لنفسه أن يرتكب في حق عدة أشخاص وقاحات لا يصدقها العقل: إن الشيء الخاص الذي تتميز به هذه الوقاحات هي أنها وقاحات لا يتصورها الخيال حقاً، فهي لا تشبه الاستفزازات التي تجري عادة، ولا تمت إليها بصلة من الصلات. أصبح الشاب يرتكب في آن واحد أعمالاً صبيانية وأفعالاً دنيئة دون أي باعث أو دافع، لا يدري إلا الشيطان لماذا! من ذلك أن واحداً من عمداء نادينا اسمه بافل بافلوفتش جاجانوف، وهو رجل مسنّ يُجمَعُ الناس على تقديره، كان

قد اعتاد عادة بريئة وهي أن يقول في كل مناسبة بثقة واضحة: "لا، لن أسمح لأحد بأن يجرنني من طرف أنفي!" ففي ذات يوم، ما كاد يقول هذه الجملة في نادينا بعد مناقشة من المناقشات أمام جمع من الناس يكادون ينتمون كلهم إلى الأرستقراطية المحلية، حتى وقف نيقولا في سيفلودوفتش الذي كان منتحياً في ركن من الأركان، والذي لم يكن قد اشترك في المناقشة، فإذا هو يقترب فجأة من بافل بافلوفتش، فيمسك طرف أنفه بإصبعيه إمساكاً قوياً ويجره فيحمله على أن يمشي وراءه خطوتين أو ثلاث خطوات في الصالة. إن الشاب لا يمكن أن يكون حاملاً أية عداوة للسيد جاجانوف. وكان يمكن أن يُظن أن عمله هذا عمل صيباني لا أكثر، عمل لا يغتفر طبعاً، لولا أنهم أكدوا فيما بعد أن نيقولا في سيفلودوفتش، في لحظة قيامه بهذه "العملية" كان حالم الهيئة شارد الفكر "كأنما هو فقد عقله". ولكن هذا الأمر التفصيلي لم يتذكره أحد ولم يفكر فيه أحد إلا بعد ذلك بمدة طويلة. أما في تلك اللحظة نفسها فإن الحاضرين لم يحفظوا إلا وضع نيقولا في سيفلودوفتش بعد وقوع الحادث فوراً، حين أدرك ما فعله إدراكاً تاماً، فرأوا أنه لم يضطرب أي اضطراب، بل ابتسم مرحاً، في خبث، "دون أي ندم". وأحاط الناس به وأخذوا يصرخون جميعاً. فكان نيقولا في سيفلودوفتش يلتفت يمناً ويسرة دون أن يقول شيئاً، وكان يبدو عليه أنه يتأمل هؤلاء الناس الذين يصرخون مستغرباً. وأخيراً، شرد فكره من جديد (أو هذا ما حُكي فيما بعد، على الأقل)، وقطب حاجبيه، واتجه نحو بافل بافلوفتش بخطى ثابتة وتمتم يقول له وهو ظاهر التملل:

- سوف تعذرني حتماً... إنني لا أدري حقاً لماذا شبت في نفسي هذه الرغبة فجأة... لقد كان ذلك سخفاً مني...

قال ذلك بلهجة فيها إهمال واضح، فكان ذلك بمثابة إهانة جديدة، وازداد اللغظ. فهزّ نيقولا في سيفلودوفتش منكبيه وانصرف.

ذلك كله كان غباء تاماً، وكان خسة مقصودة متعمدة محسوبة (فيما بدا من أول نظرة) وكان إذن إهانة أراد الشاب أن يوجهها إلى مجتمعنا كله. على هذا

النحو إنما فهم جميع الناس الحادثة. فقرروا مجمعين أن يبدؤوا أولاً بشطب اسم السيد ستافروجين على الفور من قائمة أعضاء نادينا. ثم اتفقوا على أن يرفعوا شكوى باسم النادي إلى الحاكم راجين منه أن يستعمل سلطاته الإدارية (دون أن ينتظر مثل القضية أمام المحاكم) فيرد إلى الصواب هذا المجنون الخطر، هذا "المشاجر" الهائج، ويصون بذلك شرفاء الناس من أي "عدوان غاشم يفسد عليهم صفو حياتهم"، واتفقوا على أن يضيفوا إلى ذلك قولهم، بسذاجة زائفة، إنهم يأملون أن "يوجد قانونٌ ما يعاقب حتى السيد ستافروجين"، وإنما اختاروا هذه العبارة ليخزوا الحاكم بالإلماح إلى فرفارا بتروفنا. ولكن شاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون الحاكم غائباً عن المدينة في تلك الآونة: كان قد ذهب إلى قرية مجاورة ليمسك فوق جرن المعمودية ابن أرملة لطيفة كان زوجها قد مات عنها منذ مدة قصيرة وتركها في وضع شائن. وبانتظار عودته التي يعرفون أنها قريبة كرموا الضحية أكبر التكريم واحتفوا بها أشد الاحتفاء، فجاءت المدينة كلها تزور الرجل المحترم بافل بافلوفتش، وتشد على يديه، وتعانقه وتقبله. حتى لقد اقترح بعضهم أن تقام له مأدبة يشارك في دفع نفقاتها مكتبون، ثم لم يعدلوا عن هذه الفكرة إلا بالاحاح منه، ولعلمهم أدركوا أخيراً من جهة أخرى أن المسكين، مهما يكن من أمر، قد جُرَّ من أنفه، فلا محل لأن تقام له حفلة باهرة.

كيف حدث هذا مع ذلك؟ كيف أمكن أن يحدث أمر كهذا؟ إن أعجب ما في القضية أن أحداً من مدينتنا كلها لم ينسب هذا الفعل الهمجي إلى الجنون. فيجب أن نعتقد إذن أنهم كانوا ميالين إلى أن يعدّوا أمثال هذه الأفعال طبيعية من جانب نيقولا في سيفلودوفتش. أما أنا فإنني إلى هذا اليوم أشعر بعجز عن تفسير الواقعة رغم أن حادثة أخرى قد وقعت بعد قليل فبدا أنها توضح كل شيء، وهذأت جميع النفوس. وأضيف إلى هذا أنني حين اتفق لي بعد ذلك بأربع سنين أن أسأل نيقولا في سيفلودوفتش، محاذراً عن حادثة النادي، فقد سمعت منه هذا الجواب وهو يقطب حاجبيه: "نعم، لم تكن صحتي جيدة حينذاك". ولكن لا نستبقن الأمور.

ومما خطف انتباهي أيضاً أن كرهاً إجماعياً قد انصبّ فجأة على "المجنون"، على "المشاجر". لقد كانوا يصرون على أن يعدوا فعلته تحدياً مقصوداً متعمداً، وإهانة رشق بها المجتمع كله هادئاً من دون أن يتأثر. حقاً إن هذا الإنسان لم يظفر بأن يحمل أحداً على أن ينظر إليه نظرة حسنة. بالعكس: إن جميع الناس قاموا عليه وناصبوه العداء. وما هو السبب أخيراً؟ إنه قبل ذلك الحادث لم يكن قد شاجر أحداً قط، ولا كان أحد منا قد تلقى منه أية إهانة، وكان يبدو دائماً مهذباً تهذيب سيد من السادة الذين نرى صورهم في مجلات "الموضة" إذا أوتي أحد من هؤلاء السادة أن ينطق. إنني أفترض أنهم كانوا يكرهونه لزهوه وكبريائه. حتى سيدات من اللواتي عبدنه عبادة في البداية أصبحن الآن أكثر من الرجال سخطاً عليه وزعيقاً ضده.

وكانت فر فاراً بتروفا مضطربة أشد الاضطراب. وقد اعترفت لستيفان تروفيموفتش في ما بعد أنها قد أوجست ذلك كله منذ زمن طويل، وأنها خلال الأشهر الستة الأخيرة كانت في كل يوم تتوقع حدوث شيء ما، شيء "من هذا النوع" بعينه. هذا اعتراف له شأنه من جانب أم.

حدثت الأم نفسها قائلة وهي ترتعش: "لقد بدأ الأمر...". وفي غداة وقوع الحادث حاولت أن تناقش ابنها بلباقة ولكن بشبات. ورغم ما كانت تتصف به من عزيمة، فلقد كانت المرأة المسكينة ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. لم تكن قد نامت طوال الليل، ولما طلع الصباح جاءت تستشير ستيفان تروفيموفتش، حتى لقد بكت عنده، هي التي لم يسبق لها أن بكت أمام أحد في يوم من الأيام. تمنّت لو يقول لها نيقولا أي شيء، تمنّت لو يقدم لها أي شرح. ولكن نيقولا الذي ظل على عهدنا به أدباً وتهذيباً واحتراماً في معاملته، أخذ يصغي إليها في البداية جاذّ الهيئة عابس الوجه، ثم إذا هو ينهض على حين فجأة، فيقبل يدها، ويخرج دون أن يقول كلمة واحدة. وفي ذلك المساء نفسه انفجرت فضيحة جديدة بما يشبه العمد، وهي فضيحة إن تكن أقل خطورة من سالفتها، فإنها فضيحة خارقة كالأولى سواء بسواء، جعلت الاستياء العارم يبلغ ذروته ويصل إلى تمامه.

إن صديقنا ليبوتين هو الذي تناولته الفضيحة في هذه المرة. لقد جاء إلى نيقولا في سيفولودوفتش بعد الحديث الذي جرى بين الشاب وأمه فوراً، ورجاه ملحاً أن يشرفه بحضور السهرة التي يقيمها في ذلك المساء نفسه بمناسبة عيد ميلاد زوجته. إن فر فارا بتروفا كانت قد نظرت، مرتاعة مشمئزة، إلى العلاقات المبتذلة التي يعقدها ابنها مع بعض الناس، ولكنها كانت لا تجرؤ أن تفتاحه في هذا الأمر وأن تحدّثه فيه. كان الشاب قد تعرّف بأشخاص حقيرين من مجتمعنا، بل هبط إلى ما دون ذلك أيضاً... رغم أنه لقيه مراراً. وأدرك في سيفولودوفتش أن ليبوتين إنما يدعوه بسبب الفضيحة التي أثارها حادث النادي، وهي فضيحة لا بد أن ليبوتين قد سرّبها سروراً عظيماً وافتتن بها افتتاناً، من حيث هو رجل لبرالي، لا اعتقاده بأن هذه المعاملة هي التي يجب أن يُعامل بها عمداء النادي، وبأن الشاب قد أحسن التصرف. انفجر نيقولا في سيفولودوفتش ضاحكاً، ووعد بحضور الحفلة.

كان بيت ليبوتين يضم جمهوراً غفيراً، ولئن لم يكن الحضور من عليّة القوم، فقد كان جو الحفلة زاخراً بالحياة والنشاط. إن ليبوتين، المغرور الحسود، لا يستقبل إلا مرتين في السنة، ولكنه حين يستقبل يعرف كيف يرتب الأمور وكيف يجيد تدبيرها. إن ستيفان تروفيموفتش، وهو أعلى المدعويين مقاماً، لم يستطع أن يحضر الحفلة لأنه كان مريضاً. وقُدّم الشاي وكانت المقبّلات كثيرة، والخمرة وافرة. وكانت قد حُجزت ثلاث موائد للمقامرين. وبانتظار موعد العشاء أخذ الشباب يرقصون على أنغام البيانو. وجاء نيقولا في سيفولودوفتش إلى زوجة ليبوتين يدعوها إلى الرقص، وهي امرأة صغيرة بارعة الجمال شديدة الخوف من هذا الشاب، فبعد أن رقص معها رقصتين أو ثلاثاً على أنغام الفالس جلس إلى جانبها وأخذ يروي لها حكايات سلّتها كثيراً. وإذا لاحظ مدى جمالها أثناء ضحكها، أمسك بقامتها على حين فجأة، وأطبق بغمه كلّه على شفّيتها فقبلها قبلتين أو ثلاثاً على مرأى من جميع الناس. فما كان من المسكينة إلا أن أغمي عليها من شدّة ما أصابها من روع. فتناول نيقولا في سيفولودوفتش قبعته واقترب من الزوج

خجلاً أشد الخجل، وسط الانفعال العام الذي أثارته فعلته في الجمهور، فتأمل له لحظة، ثم فقد سيطرته على نفسه، فتمتم قائلاً له بسرعة: "لا تزعل!". وخرج.

أسرع ليويتين يجري وراءه إلى حجرة المدخل، وساعده في ارتداء معطفه، وصحبه إلى أسفل السلم وهو يشيِّعه بتحيات كثيرة. غير أن هذه الحكاية البريئة نسبياً قد كانت لها في الغداة تمة مسلية رفعت قدر ليويتين منذ ذلك الحين رفعاُ عرف كيف يستفيد منه.

ففي الساعة العاشرة من الصباح جاءت أجافيا خادمة ليويتين، وهي فتاة ليبية في نحو الثلاثين من العمر، حمراء الوجه، جاءت إلى عند السيدة ستافروجين موفدة من مولاها الذي حملها رسالة إلى نيقولاي فسيفولودوفيتش يجب أن "تبلغه إياها شخصياً" وكان الشاب يشعر بصداغ، لكنه استقبل الفتاة بحضور فر فارا بتروفا التي اتفق أن كانت هناك.

- لقد أمرني سرجي فاسيلفتش (هذا هو اسم ليويتين) أن أنقل إليك أولاً تحياته، وأن أستفسر بعد ذلك عن صحتك، وأن أسألك كيف نمت في الليلة البارحة وكيف حالك الآن بعد الذي جرى أمس.

كذلك قالت الفتاة. فابتسم نيقولاي فسيفولودوفتش، وأجابها قائلاً: - سلمني على مولاك واشكركه. وقولي له على لساني يا أجافيا إنه أذكى رجل في المدينة.

فاستأنفت أجافيا كلامها بمزيد من الانطلاق قائلة: - وقد أمرني مولاي أن أرد على كلامك هذا بأنه يعرف ذلك دون أن تقوله أنت، وأنه يتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء.

- هه! هه! ولكن كيف أمكنه أن يعرف ما قد أقوله لك؟

- لا أدري كيف، لكنني بعد أن خرجت وعبرت الشارع سمعته يركض ورائي دون قبة، ويصرخ قائلاً لي: "إذا اتفق أن أجابك يا أجافيا: "قولي لمولاك أنه ليس في المدينة كلها رجل أذكى منه"، فلا يفوتك أن تحببيه قائلة: "نحن نعرف هذا دون أن نقوله، ونتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء...".

وتمت مفاتحة الحاكم بالأمر أخيراً. فما إن عاد صاحبنا العزيز إيفان أوسيوفيتش، حتى أُطلع على شكوى أعضاء النادي. وكان بديهياً أن من الواجب فعل شيء ما، غير أن إيفان أوسيوفيتش الرقيق شعر بحرج كبير وارتباك شديد. إن هذا الشيخ المضيف، الرقيق الحديث، كان هو أيضاً يخاف من قريبه الشاب بعض الخوف، كما يبدو. ومع ذلك قرر أن يدفعه إلى الاعتذار للنادي وللمُهان، شريطة أن يكون شكل الاعتذار مناسباً، بل وأن يكون الاعتذار مكتوباً إذا اقتضى الأمر ذلك. ثم قد يحضه بعدئذ بلطف ورقة على السفر، والقيام برحلة، إلى إيطاليا مثلاً، لإغناء ثقافته، أو إلى أي بلد آخر في الخارج.

وفي الصالة التي استُقبل فيها نيقولا فيسيفولودوفتش (وكان نيقولا في العادة يتجول حراً طليقاً في المنزل كله بصفته من الأقرباء)، كان هناك موظف شاب مؤدب جداً هو محل ثقة الحاكم، اسمه أليوشا تلياتنيكوف، إنه جالس أمام منضدة في أحد الأركان يفحص رسائل. وفي الغرفة المجاورة، عند نافذة قريبة من الباب، كان كولونيل ضخم الجسم قوي البنية، هو صديق لإيفان أوسيوفيتش ورفيق قديم من رفاقه، يقرأ جريدة "الصوت"⁽¹⁾ دون أن يلتفت أي التفات طبعاً إلى ما كان يجري في الصالة، حتى أنه كان مديراً ظهره إلى الباب.

أخذ إيفان أوسيوفيتش يتكلم بصوت خافت. حتى إذا قارب الموضوع قليلاً ارتبك بعض الارتباك وأخذ يلف ويدور في كلامه. إن وجه نيقولا في خال من البشاشة، لا يرى فيه المرء أثراً لعاطفة عائلية. وكان نيقولا في جالساً، شاحب اللون، خافض العينين، يصغي ويقطب حاجبيه كأنه يقاوم ألماً حاداً. قال له الحاكم فيما قال:

(1) "الصوت": هي الجريدة اللبرالية التي كان يصدرها كرايفسكي في بطرسبرج من سنة 1863 إلى سنة 1883.

- إن قلبك طيب نبيل يا نيقولاى، وإنك رجل مثقف، وقد ترددت على أرقى البيئات الاجتماعية، وحتى هنا كان سلوكك إلى الآن سلوكاً يستحق أن يُضرب به المثل، فكنت فرحةً لأملك التي نقدّرها جميعاً ونحمل لها أكبر الإعزاز... ولكن ها أنت ذا الآن تطلع علينا بسلوك يحير العقل ويشكل خطراً على الناس كافة. إننى أكلّمك كصديق لأسرتكم، وكقريب يحبك حباً صادقاً خالصاً، فما ينبغي أن تسوءك أقوالى. قل لي: ما الذي دفعك إلى ارتكاب أفعال تبلغ هذا المبلغ من الهمجية، وتخالف الأصول والآداب الاجتماعية إلى هذا الحد؟ ما معنى هذا الشذوذ الذي يحمل المرء على أن يفترض أن بك هدياناً.

كان نيقولاى يصغى إلى كلام الحاكم وقد لاح في وجهه الضجر والتملل في آن واحد. ثم إذا بشيء فيه مكر وسخر يسطع في نظرتة على حين فجأة. قال للحاكم مظلّم الهيئة:

- طيب... سأقول لك ما الذي يدفّني...

ثم مال على إيفان أوسيبوفتش بعد أن ألقى نظرة حذر. فارتأى أليوشا تلياتنيكوف، الموظف المؤدّب، أن يتعد نحو النافذة بضع خطوات أخرى. وكان الكولونيل يتنحى من وراء جريدته. ووثق الحاكم المسكين واطمأن، فأسرع يقرب من فم نيقولاى أذنه. لقد كان على أحر من الجمر شوقاً إلى سماع كلام نيقولاى. وعندئذ إنما حدث شيء لا يصدقه خيال المرء، ولكنه ذو دلالة واضحة بليغة. لقد أحس الشيخ فجأة أن نيقولاى، بدلاً من أن يفضي إليه بسر هام، قد قبض بأسنانه على الجزء الأعلى من أذنه وأخذ يعضه عضاً قوياً. وارتجف إيفان أوسيبوفتش، وانقطع تنفسه، ثم قال في أنين بصوت مشوه:

- كفى مزاحاً يا نيقولاى!

إن أليوشا والكولونيل لا يفهمان حتى الآن ماذا يجري، كان يبدو لهما من المكان الذي هما فيه أن الرجلين يتحدثان بصوت خافت. غير أن ما كان يلوح في وجه الشيخ من ألم شديد قد أقلقهما. لذلك نظر كل منهما إلى

صاحبه محملاً، متسائلاً هل يجب أن يتدخل وفقاً لما تم الاتفاق عليه، أم يجب أن ينتظر قليلاً. ولعل نيقولاى قد لاحظ ترددهما فيها هو ذا يعرض بمزيد من القوة. وعاد الشيخ المسكين يثن قائلاً من جديد:

- نيقولاى.. نيقولاى.. كفى مزاحاً!

فلو انقضت دقيقة أخرى لمات الشيخ المسكين من الخوف حتماً. ولكن جلاله رَأف به وعفا عنه فأرخى أذنه. ولبت الحاكم تحت وطأة الذعر دقيقة كاملة لا يتحرك، ثم اعتراه ما يشبه أن يكون نوبة صرع. وبعد نصف ساعة كان نيقولاى قد اعتقل، واقتيد إلى هيئة الحرس، ووضع فى زنزانه تحت مراقبة حارس. إن هذا الإجراء قوي شديد، ولكن حاكمنا الرقيق كان قد بلغ من شدة الغضب أنه قرر أن يتحمل تبعه هذا الإجراء أمام فرفاراً بتروفاً. وما كان أشد دهشة الناس جميعاً حين أسرع فرفاراً غاضبة تطلب إيضاحات من إيفان أوسيوفتش، فما كان من الحاكم إلا أن رفض استقبالتها! وقد صُغقت فرفاراً بتروفاً من شدة الدهشة، ولم تصدّق عينها، لكنها اضطرت أن ترجع إلى البيت حتى دون أن تنزل من مركبتها.

واتضح أخيراً كل شيء. ففي الساعة الثانية من الصباح أخذ السجين الذى بدا إلى ذلك الحين هادئاً حتى لقد نام، أخذ يُجن جنونه على حين فجأة: فهو يضرب الباب بقبضة يده ضربات مسعورة، وهو يخلع قضبان الباب الحديدي بقوة فوق قوة البشر، ويحطم الزجاج فتصاب يده بجراح. فلما أسرع ضابط الحرس مع رجاله ففتحوا باب الزنزانه ليقبضوا على السجين ويوثقوه، وجدوه يعانى نوبة حُمى حارّة شديدة. فنقلوه إلى أمه. واتضح عندئذ كل شيء. إن الأطباء الثلاثة بمدىنتنا قد أجمع رأيهم على أن المريض ربما كان قبل انفجار النوبة بثلاثة أيام في حالة قريبة من الهذيان، فهو واع وقادر على أن يتصرف بحيلة ومكر، ولكنه كان منذ ذلك الوقت لا يسيطر على عقله ولا على إرادته، كما تدل على هذا الوقائع. وهكذا إذن يكون ليبوتين أول من أدرك الحقيقة. وقد ارتبك إيفان أوسيوفتش، الرقيق العاطفة، المرهف الشعور، فأصبح حائراً لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول.

إن من الأمور الغريبة أنه هو أيضاً كان يرى أن نيقولاى فسيفولودوفتش لا يتورّع عن ارتكاب أشد الأعمال طيشاً وجنوناً ولو ملك عقله كاملاً. وخجل أعضاء النادي أيضاً. وأظهروا دهشتهم من أنهم لم ينتبهوا إلى ما كان ينبغى لهم أن ينتبهوا إليه، وأنهم لم يفتنوا إلى ذلك التفسير الوحيد الذي يمكن أن يعلّل تلك الأفعال الشاذة. ولئن أظهر بعضهم شيئاً من شك وريب، فإنهم سرعان ما انقادوا للاقتناع بأن ذلك هو التفسير.

لزم نيقولاى سريره مدة شهرين. وقد جيء له من موسكو بطبيب شهير يشارك في فحصه. وتوافدت المدينة كلها على فرفاراً بتروفنا تقف إلى جانبها وتعرب لها عن احترامها، فغفرت للجميع وسامحتهم. حتى إذا جاء الربيع، وأبلّ نيقولاى إبلاً تاماً، ورضي دون أي اعتراض أن يسافر إلى إيطاليا كما طلبت منه أمه، اقترحت عليه أمه أيضاً بأن يقوم ببعض زيارات الوداع، وأن يتتهد فرصة هذه الزيارات فيعتذر لمن أساء إليهم. فوافق الشاب على ذلك راضياً. وعلم في النادي أن نيقولاى قد أجرى مع بافل بافلوفتش جاجانوف حديثاً لبقاً إلى أبعد حدود اللباقة أرضى جاجانوف إرضاء تاماً. وكان نيقولاى أثناء جولة الزيارات هذه، يبدو عليه كثير من الجدد، بل ويبدو عليه أيضاً شيء من الحزن. ويظهر أنه قد استقبل في كل مكان بأكبر المودة وأحرّ العاطفة. ومع ذلك كان الناس - لا يدري المرء لماذا - يلوح عليهم شيء من الضيق والانزعاج ويلوح عليهم أنهم سعداء برحيله. أما إيفان أوسيبوفتش فقد ذرف بعض العبرات أثناء وداعه، ولكنه لم يعزم أمره على أن يقبله. يجب أن نذكر أن عدداً منا قد ظلوا، رغم كل شيء، مقتنعين بأن هذا "الشقي" إنما ضحك على الناس، وأن حكاية المرض هذه ليست واضحة. وقد ذهب ستافروجين إلى ليوتين أيضاً. وسأله:

- قل لي: كيف استطعت أن تتبأ سلفاً بما سأقوله عن ذكائك فكلفت

أجافيا بأن تعجيني؟

فأجابه ليوتين ضاحكاً:

- الأمر بسيط جداً. أنا أيضاً أعدك رجلاً ذكياً، فكنت أعرف جوابك سلفاً.

- تلك مع ذلك مصادفة عجيبة. ولكن اسمح لي: أكنت إذن تعدني رجلاً ذكياً لا مجنوناً حين أرسلت إليّ آجافيا؟

- نعم، كنت أعدك من أذكى الناس وأعقلهم. ومع ذلك تظاهرتُ بالاعتقاد بأنك لم تكن تملك عقلاً كاملاً. وأنت نفسك، من جهة أخرى، قد فهمت فكرتي فوراً فبعثت إليّ مع آجافيا بشهادة ذكاء.

تمتم نيقولاي فسيفولودوفتش يقول مقطباً حاجبيه:

- مع ذلك أنت مخطئ، قليلاً في هذه النقطة... فلقد كنت مريضاً... حقاً!

ثم صاح يقول:

- أترأى تظن أنني يمكن أن أهجم على الناس هذا الهجوم وأنا في حالة

سليمة؟

فصغّر ليبوتين عينيه ولم يعرف بماذا يجيب. واصفرّ نيقولاي فسيفولودوفتش قليلاً. أو هذا على الأقل ما لاح لصاحبنا ليبوتين.

وأردف ستافروجين يقول:

- طريقة تفكيرك مضحكة على كل حال. أنا أدرك طبعاً أنك إنما أرسلت

إليّ آجافيا لتهينني.

- لم يكن في إمكاني أن أدعوك إلى مبارزة.

- آ... نعم... لقد سمعت عنك أن المبارزة ليست أقوى ما فيك!

قال ليبوتين وهو يصغّر جسمه كثيراً من جديد:

- ما حاجتنا إلى تقليد الفرنسيين؟

فسأله ستافروجين:

- أنت من أنصار العادات القومية؟

فغطس ليبوتين في مقعده مزيداً من الغطس.

ورأى نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين في مكان بارز على المائدة

كتاباً من تأليف كونسيدران⁽¹⁾ فجأة، فهتف يقول:

(1) "كونسيدران": هو فكتور كونسيدران (1808-1893)، أحد مريدي فورييه، فيلسوف واقتصادي فرنسي.

- هاه! ماذا أرى؟ أترك من أتباع مذهب فورييه؟ لم لا، على كل حال!

ثم أضاف يقول ضاحكاً وهو ينقر الكتاب بإصبعه:

- ولكن أليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية؟

فأجاب ليويتين محتجاً قائلاً بشيء من الغضب:

- لا، ليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية، بل هو ترجمة عن اللغة الشاملة،

المشتركة بين جميع البشر، هو ترجمة عن لغة الجمهورية الاجتماعية الشاملة

والانسجام الإنساني الكامل. ذلك هو هذا!

أجاب الشاب قائلاً وهو ما يزال يضحك:

- غريب! ولكن هذه اللغة لا وجود لها.

يتفق أحياناً أن يخطف انتباه المرء شيء تفصيلي تافه لا قيمة له يبقى في

الذاكرة بعد ذلك زمناً طويلاً. هناك أمور كثيرة أخرى يمكن أن أقولها عن

السيد ستافروجين. ولكنني أحرص الآن على أن أذكر، ولو لطرفة الواقعة،

أن بين جميع الانطباعات التي خلقتها في نفسه إقامته بمدينتنا كانت صورة

هذا الموظف الريفي الصغير هي التي انحرفت في فكره أعمق من أية صورة

أخرى. نعم صورة هذا الموظف الريفي الصغير، هذا الإنسان التافه، هذا

المخلوق الذي يكاد يكون دنيئاً، هذا الطاغية في بيته، هذا الغيور القاسي

البخيل، هذا المرابي الذي يقفل بالمفتاح على بقايا وجبات الطعام، وأعقاب

الشموع، والذي كان في الوقت نفسه رسولاً يدعو إلى ما لا أدري من

"انسجام اجتماعي شامل" ويتشهي جداً أمام اللوحة الرائعة التي ترسم

في خياله عن تعاونيات فورييه في المستقبل، مؤمناً بأنها ستتحقق قريباً في

روسيا، في مقاطعتنا، كإيمانه بوجوده، وذلك في هذه المدينة التي اشترى

لنفسه فيها بالتوفير والحرمان "متزلاً" وتزوج امرأة ثانية ذات بائنة كبيرة، هذه

المدينة التي ربما كان لا يوجد حولها ولو على مسافة مائة فرسخ فرد واحد

يشبه حتى من ناحية المظهر عضواً مقبولاً في تلك "الجمهورية الاجتماعية

الشاملة"، ولا ليويتين نفسه.

"لا يعلم إلا الله كيف خلق هؤلاء الناس!". كذلك كان يقول ستافروجين

لنفسه مدهوشاً إذ يتذكر أحياناً ذلك النصير الغريب من أنصار فوريه.

4

دامت رحلة أميرنا أكثر من ثلاث سنين، حتى لقد كاد الناس أن ينسوه تقريباً في مدينتنا. ومع ذلك كنا نعرف من ستيفان تروفيموفتش أنه طاف أوروبا كلها، بل وأنه زار مصر والقدس، وأنه بعد ذلك مضى حتى جزيرة ايسلندة في بعثة علمية ألحق نفسه بها. وقد قيل أيضاً أنه خلال فصل من فصول الشتاء تابع محاضرات جامعة ألمانية.

ولم يكتب لأمه إلا قليلاً، مرة كل ستة أشهر، أو أقل من ذلك أيضاً. لكن فرفارا بتروفسنا كان لا يبدو عليها أنها تضيق بذلك أو تتألم منه. لقد ارتضت هذا النوع من العلاقات التي قامت بينهما دون تذمر أو تملل. ولكن لا شك طبعاً في أنها خلال هذه السنين الثلاث لم تنقطع يوماً واحداً عن أن تفكر في ابنها نيقولا، وعن أن تحلم بعودته، حزينه قلقه. على أنها كانت لا تبوح لأحد بما يعتلج في نفسها من مخاوف وما يراود خيالها من أحلام، حتى لقد ابتعدت بعض الابتعاد عن ستيفان تروفيموفتش. ولا شك في أنها كانت تبني بعض المشاريع، وكان يبدو أنها تزداد بخلاً، ولذلك أصبحت تظهر مزيداً من التبرم بالخسارات التي كان يمني بها ستيفان تروفيموفتش في القمار.

وفي شهر نيسان من ذلك العام تلقت أخيراً رسالة من باريس بعثتها إليها صديقة طفولتها براسكوفيا إيفانوفنا دروزدوف، وهي أرملة جنرال. لقد كتبت هذه المرأة التي غابت عن عيني فرفارا بتروفسنا غيباً تاماً منذ نحو ثماني سنين، كتبت تقول لها إن نيقولا في سيفلودوفتش قد أصبح يتردد على منزلها كثيراً، وأن بينه وبين ليزا (ابنتها الوحيدة) صداقة كبيرة، حتى إنه ينتوي أن يصحبهم هذا الصيف إلى سويسرا، إلى فرنيه مونتر، مع أنه يستقبل استقبال الإبن في أسرة الكونت ك... (شخصية عظيمة الشأن جداً في بطرسبرج) الذي يقيم الآن بباريس.

إن الرسالة قصيرة تكشف عن غايتها كشفاً واضحاً، رغم اقتصارها على

الوقائع دون سواها. لم تفكر فرفارا بتروفا مدة طويلة، وسرعان ما اتخذت قرارها، فما كاد ينتصف شهر نيسان (ابريل) حتى سافرت إلى باريس فسويسرا مصطحبة ربيبته داشا (أخت شاتوف). ورجعت في شهر تموز (يوليه)، لكنها رجعت وحيدة، تاركة داشا عند آل دروزدوف. وقالت فرفارا بتروفا إن هاتين السيدتين ستأنيان إلينا في آخر شهر آب (أغسطس).

وكان لآل دروزدوف أرض في مقاطعتنا هم أيضاً. لكن ضرورات وظيفة الجنرال إيفان إيفانوفتش (الصديق القديم لفرفارا بتروفا، ورفيق زوجها في السلاح) كانت قد منعتة دائماً من أن يعيش في أرضه الرائعة. فلما مات الجنرال في السنة الماضية، سافرت أرملته الحزينة إلى الخارج مع ابنتها متوبة، فيما كانت تتويه من أمور أخرى أيضاً، أن تصيب حظاً من العلاج بالعنب في فرنه مونترو. وتعزم أن تقيم في مقاطعتنا إقامة نهائية متى عادت إلى روسيا. وكانت براسكوفيا إيفانوفنا تملك أيضاً في المدينة منزلاً كبيراً لم يسكن منذ زمن طويل فنوافذه ظلت مغلقة دائماً. إن آل دروزدوف أغنياء. إن براسكوفيا إيفانوفنا كرفيقتها في المدرسة فرفارا بتروفا، هي بنت تاجر كبير من تجار الخمور في النظام القديم. وقد حملت إلى زوجها مهراً كبيراً هي أيضاً. وضابط سلاح الفرسان توشين الذي تزوجته زوجاً أول كان يملك هو نفسه ثروة لا بأس بها. وكان لا يخلو كذلك من مواهب. وحين مات ترك لابنته الوحيدة ليزا، التي كان عمرها عندئذ سبع سنين، ثروة ضخمة. والآن وقد بلغت ليزا فتناً يقولوننا من العمر قرابة اثنين وعشرين عاماً، يمكن أن تُقدَّر ثروتها الشخصية بمائتي ألف روبل، ناهيك عن المال الذي سترثه من أمها، لأن أمها لم تنجب من زوجها الثاني.

إن فرفارا بتروفا تبدو راضية جداً عن رحلتها. ففي رأيها أنها، هي وبراسكوفيا إيفانوفنا، قد انتهتا إلى اتفاق. فما إن عادت، حتى قصّت كل شيء على ستيفان تروفيموفتش، وأفاضت في الكلام والبوح، وذلك أمر كانت قد كفت عنه منذ زمن طويل.

صاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو يصفق بأصابعه:

- مرحى! عظيم!

كان مسروراً أعظم السرور، مفتتناً أشد الافتتان، لا سيما وأنه أثناء غياب صديقه قد عاش حياة حزينة جداً.

وكانت فر فارا بتروفا، حين سافرت، قد ودعته وداعاً فاتراً، وحاذرت أن تخبر هذا "النَّمام" عن مشاريعها، خشية ثرثراته طبعاً. يُضاف إلى ذلك أنها كانت غاضبة منه حانقة عليه حين علمت أنه خسر في القمار مبلغاً ضخماً. ولكنها حتى قبل أن تغادر سويسرا أحسّت أن من واجبها أن تعوّض صديقها المهجور الذي كانت تعامله منذ مدة طويلة بكثير من الشدة والصرامة. وكان سفرها المفاجئ السري قد أثر تأثيراً عميقاً في قلب ستيفان تروفيموفتش الوجل، لا سيما وأنه اتفق أن كان في تلك الآونة يعاني من مصاعب أخرى كثيرة. لقد كان عليه أن يواجه التزاماً مالياً قديماً كبيراً ما كان له أن يستطيع سداه بدون مساعدة فر فارا بتروفا. زد على ذلك أن حاكمنا الطيب، إيفان أوسيوفتش، قد ترك منصبه في شهر أيار (مايو) من تلك السنة نفسها، إذ اضطر إلى الاستقالة في ظروف مؤسفة. وقد تم استقرار الحاكم الجديد، أندره أنطونوفتش فون لمبكه كمبله أثناء غياب فر فارا بتروفا. وكان من شأن هذا أن بدّل وضع فر فارا بتروفا في بيتنا الريفية تبديلاً محسوساً جداً، وسرعان ما بدّل وضع ستيفان تروفيموفتش تبعاً لذلك، وهذا ما استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يقتنع به من ملاحظة علامات مزعجة لكنها ذات بال. لذلك أخذ يراوده الخوف أثناء غياب فر فارا بتروفا. ثم إنه قد علم من مصدر مطلع أن عدداً من سيداتنا قد قررن أن لا يرين فر فارا بتروفا بعد الآن. وكان لا يُنتظر أن تصل امرأة الحاكم الجديد إلّا في مطلع الخريف، وكان يُقال إنها إن كانت متعجرفة جداً، فهي أرسقراطية حقيقية على الأقل، تختلف عن صاحبتنا "المسكينة فر فارا بتروفا" اختلافاً كبيراً. لا أدري كيف كان جميع الناس يعلمون، بكثير من التفصيل، أن السيدة فون لمبكه وفر فارا بتروفا كانتا قد التقتا في المجتمع سابقاً، وأنهما افرقتا متعاديتين، حتى إن ذكر اسم زوجة الحاكم كان يكفي وحده لأن يزعج فر فارا بتروفا. وها هي

ذي فر فارا بتروفنا تصل، فإذا بهيئتها المتصصرة، وإذا بالإهمال الذي أظهرته حين علمت بعداوة هاته السيدات، وإذا بالازدراء الذي بان عليها حين عرفت الشائعات التي هزت مجتمعنا، إذا بهذا كله ينشئ شجاعة ستيفان تروفيموفتش ويرد إليه صفاء مزاجه. وأراد أن يكسب حظوة صديقه فأخذ يصف لها وصول الحاكم الجديد وصفاً ساخراً.

قال وهو يمتط كلماته متغنجاً:

- لا شك أنك تعلمين، "يا صديقتي العظيمة" (قالها بالفرنسية)، كيف يكون حاكمٌ روسي على وجه العموم، وكيف يكون حاكمٌ روسي حديث التعيين على وجه الخصوص، ولكنني أشك في أن تكوني قد أتيحت لك أن تعرفي بالتجربة ما هي "نشوة الحكم"!

- نشوة الحكم؟ ما نشوة الحكم هذه؟

- اسمعي... "أنت تعلمين أن الناس في بلادنا... الخلاصة" (بالفرنسية).. إذا وُضع أحدهم وراء شباك قطع التذاكر في محطة من محطات القطار، وكُلّف بأن يبيع تذاكر، لا يلبث التافه أن يعتقد أن من حقه أن يصطنع وضع جوييتر "إظهاراً لسلطته" (بالفرنسية) إذا جئت تشتري منه تذكرة سفر، فكأنه يقول: "انتظري قليلاً.. سوف ترين ما لي عليك من سلطة". هذا نوع من نشوة الحكم... "الخلاصة" (بالفرنسية)... لقد قرأت أن خادم إحدى كنائسنا في الخارج... "ولكنه أمر عجيب جداً" (بالفرنسية) قد طرد... نعم طرد طرداً... من الكنيسة... أسرة مرموقة جداً... "سيدات فانتات" (بالفرنسية) قبل بدء صلاة العيد الكبير... تعرفين... تلك الأناشيد، وسفر أيوب... طردَ الأسرة بحجة وحيدة هي أن "الأجانب الذين يتسكعون في الكنائس الروسية يحدثون فيها فوضى، وما عليهم على كل حال إلا أن يأتوا في غير أوقات الصلاة..." ذلك ما قاله، حتى إن إحدى السيدات قد أغمي عليها. إن خادم الكنيسة هذا قد أصابته أيضاً "سكرة حكم"، وأظهر سلطته (بالفرنسية).

- أوجز إذا استطعت يا ستيفان تروفيموفتش.

- إن السيد فون لمبكه يزور الآن مقاطعته. بكلمة واحدة: إن هذا السيد أندره أنطونوفتش هو ألماني روسي، أرثوذكسي الديانة، لا أنكر أنه رجل جميل جداً، في نحو الأربعين من عمره...

- من قال لك إنه رجل جميل جداً؟ إن له عينين كعيني كبش.

- نعم، كعيني كبش، ولكنني أوافق سيداتنا على رأيهن...

- لننتقل إلى موضوع آخر يا ستيفان تروفيموفتش، أرجوك. بالمناسبة:

أأنت تضع ربطة عنق حمراء منذ مدة طويلة؟

- اليوم... فقط...

- هل تريض؟ هل تمشي كل يوم مسافة الفراسخ الستة التي أمرك بها

الطبيب؟

- ليس دائماً...

- قدّرتُ هذا. خَمّته وأنا بسويسرا.

قالت له ذلك صائحة غاضبة. وأردفت:

- طيب... لن تمشي بعد اليوم ستة فراسخ بل عشرة. إنك لم تشخّ فحسب،

بل هرمت هرماً شديداً. لقد دُهِشت حين رأيتك منذ قليل، رغم ربطة عنقك

الحمراء. ما هذه الفكرة السخيفة التي راودتك: ربطة عنق حمراء؟ طيب...

أكمل حديثك عن فون لمبكه إذا كان عندك شيء تقوله حقاً، ولكن اختتم

قصتك، أرجوك. إنني متعبة.

- "الخلاصة" (بالفرنسية) أنا إنما أردت أن أقول إنه واحد من حكامنا

أولئك الذين يبدوون في الأربعين من العمر. يعيشون قبل ذاك حياة بائسة

خاملة، ثم إذا هم يصبحون على حين فجأة شخصيات مرموقة، بفضل زواج

لم يكن في الحسبان، أو بأية وسيلة أخرى لم يكونوا يأملونها... لقد سافر

الآن... ولكن يجب أن أقول لك إنهم أسرعوا يدسون في أذنه أنني أفسد

الشبية وأنشر الإلحاد... لقد استطلع وسأل فوراً.

- ولكن هل هذا صحيح؟

- لقد اتخذت احتياطاتي. وحين نقلوا إليه أنك كنت أنت "تحكمين

المقاطعة"، أباح لنفسه أن يقول: "لن تجري الأمور على ذلك النحو بعد الآن".

- هل قال هذا حقاً؟

- نعم، قال "لن تجري الأمور على ذلك النحو بعد الآن"، وقد قال ذلك "بتلك العجرفة" (بالفرنسية)... أما زوجته جوليا ميخائيلوفنا فسوف نشرف برؤيتها هنا في آخر شهر آب (أغسطس). سوف تصل رأساً من بطرسبرج.
- خطأ. سوف تصل من الخارج. لقد التقينا هناك.
- "حقاً؟" (بالفرنسية).

- في باريس، وفي سويسرا. إنها قرية آل دروزدوف.
- يالها من مصادفة خارقة! ويقال إنها طموحة، وإن لها علاقات قادرة...
- سخافات! ليس لها إلا علاقات صغيرة لا تُذكر. لقد ظلت حتى الخامسة والأربعين من العمر عانساً لا تملك قرشاً. ثم اصطادت هذا السيد فون لمبكه، وهي تريد الآن أن تصنع منه شخصية مرموقة، طبعاً كلاهما دساس صاحب مكائد.

- ويظهر أنها أكبر منه بستين؟

- بل بخمس سنين. كانت أمها في موسكو تكنس عتبة منزلي بحافات ثوبها. كانت تستجدي أن أدعوها إلى حفلات الرقص التي كنت أقيمها في أيام فيسيفولود نيقولايفتش⁽¹⁾. وكانت ابنتها هذه تقضي ليالي بكاملها قابعة في ركن من الأركان لا تجد مَنْ يراقصها، مزدانة الجبين بقرص فيروزي اللون، حتى إذا دقت الساعة الثالثة من الصباح أخذتني بها شفقة فأرسلت إليها أول مَنْ يرقص معها. كان عمرها حينذاك خمسة وعشرين عاماً، ولكن أهلها كانوا ما يزالون يلبسونها فستاناً قصيراً كفتاة صغيرة، حتى أصبح المرء يستحي أن يستقبلهم.

- إنني لأكاد أراه، ذلك القرص الذي كانت تزيّن به جبينها.

(1) هو الجنرال المتوفي ستافروجين، والد نيقولا فيسيفولودوفتش ستافروجين.

- أقول لك إنني ما إن وصلت حتى وجدت نفسي في وسط مكيدة. لقد أطلعتك منذ لحظة على رسالة السيدة دروزدوف. هل يمكن أن يكون ثمة ما هو أوضح من هذا؟ ماذا اكتشفت؟ إن دروزدوف الحمقاء هذه - ولقد كانت حمقاء دائماً - قد نظرت إليّ كأنما لتسألني لماذا جئت. فتصور دهشتي! لقد نظرت فرأيت لمبكه تلك تدور حولنا، ومعها ذلك الشاب، ابن أخت الشيخ دروزدوف. لقد اتضح لي عندئذ كل شيء. أدركت الموقف في طرفة عين طبعاً، ولم تلبث براسكوفيا أن انحازت إلى جانبي من جديد. ولكن ما قولك في هذه المكيدة؟

- التي انتصرت عليها مع ذلك! أوه، إنك لبسمارك!⁽¹⁾
- دون أن أكون بسمارك، أستطيع أن أميز الزيف والحمافة اللذين أصادفهما في طريقي. إن لمبكه هي الزيف، وإن براسكوفيا هي الحمافة. قل أن رأيت في حياتي امرأة تفوقها رخاوة، وهي عدا ذلك متورمة الساقين، ولكنها فوق كل شيء طيبة. فهل ثمة أغبى من إنسان أحقق طيب؟
أجاب ستيفان تروفيموفتش:
- الأحق الشرير أغبى يا "صديقتي العزيزة" (بالفرنسية).
- قد تكون على حق. لا شك أنك تتذكر ليزا، هه؟
- "طفلة فاتنة" (بالفرنسية).

- ما هي الآن بطفلة، هي الآن امرأة، بل امرأة قوية الشخصية. إنها حارة الطبع كريمة النفس. إن ما يعجبني فيها هو أنها تقاوم أمها، تلك الحمقاء السرية التصديق. لقد قامت بينهما مشكلة كبيرة، بسبب ابن الأخت ذاك.
- ها... فعلاً... إنه لا يمت بأية قرابة إلى ليزافتا نيقولايفنا. أيكون طامعاً فيها؟

- اسمع! هو ضابط شاب، قليل الكلام، بل ومتواضع. إنني أحرص دائماً على أن أكون منصفة. أظن أنه هو نفسه ضد هذه المكيدة، وأنه لم

(1) كان أوتوفون بسمارك الذي سيصبح مستشار ألمانيا، سفيراً بيطرسبرج وباريس، وكان يعد دبلوماسياً بارعاً جداً.

يكن يطمع في شيء. إن السيدة لمبكة هي التي تدبر الحيلة كلها. لقد كان يحمل لنيقولاى تقديراً عظيماً. إن كل شيء متوقف على ليزا. وحين تركتهم كانت على صلات ممتازة بنيقولاى الذي وعدني بأن يجيء إليها حتماً في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وإذن فإن زوجة لمبكة وحدها تدبر الحيلة، أما براسكوفيا فهي عمياء لا أكثر. ألم تصرّح لي بأن الشبهات التي تراودني ليست إلّا هواجس خيالية؟ لقد أجبتهأ رأساً بأنها امرأة حمقاء. وأنا مستعدة لأن أكرر قولى هذا إلى أن ألفظ آخر أنفاسى. ولولا أن نيقولاى قد رجاني أن لا ألح الآن، لما كنت تركتهم قبل أن أزيح القناع عن وجه تلك المرأة المنافقة المرائية. إنها بواسطة نيقولاى تحاول أن تظهر بالخطوة لدى الكونت ك... إنها تريد استعداء الابن على أمه. ولكن ليزا إلى جانبنا. أما براسكوفيا فقد اتفقت معها أخيراً. أنت تعلم أن كارمازينوف قريبها، أليس كذلك؟

- كيف؟ قريب السيدة فون لمبكة؟

- نعم، قريبها، ولكنها قرابة بعيدة.

- كارمازينوف، الكاتب؟⁽¹⁾

- نعم، الكاتب. لماذا يدهشك هذا؟ إنه يعد نفسه رجلاً عظيماً. إنه منتفخ غروراً. سيصلان معاً. وهي تحدث الآن من أجله جلبة كبيرة في الخارج. إنها تنوي أن تنظّم هنا شيئاً ما، تنوي أن تنظّم اجتماعات أدبية لا أدري ما هي! سيجيء شهراً واحداً. إنه يريد أن يبيع آخر قطعة من الأرض يملكها هنا. أوشكت أن ألقاه فى سويسرا، ولم أكن أحرص على ذلك البتة. أمل على كل حال أن يتنازل فيتعرفنى أنا على الأقل. كان فى الماضى يكتب إليّ، وكان يزورنى فى البيت. أحب أن تعتنى بملابسك اعتناء أكبر باستيفان تروفيموفتش. إنك تزداد إهمالاً لمظهرك يوماً بعد يوم... آه... ما أشد ما تعذبني! ماذا تقرأ الآن؟

(1) "كارمازينوف الكاتب؟": هذه صورة كاريكاتورية للروائي الروسي الكبير تورجنيف. إن اسم كارمازينوف يذكر بالكاتب العاطفي كارامزين، ولكن من الجائز أن دوستوفسكي قد اشتقه من كلمة بولندية تعني الأرستقراطية. فيكون ذلك إشارة إلى العادات الأرستقراطية عند تورجنيف.

- أنا الآن... أنا الآن...

- أعرف. مازلتَ على عهدي بك: الأصدقاء، جلسات الشراب، النادي، اللعب بالورق، وتلك السمعة، سمعة الإلحاد! إن هذه التسمية لا تعجبني يا ستيفان تروفيموفتش. لا أحب أن تُعدّ ملحدًا. لا، لا أحب هذا، ولا سيما الآن. وفي الماضي أيضاً كان ذلك لا يعجبني، فما هو في آخر الأمر إلا ثرثرة. يجب عليّ أن أقول هذا أخيراً.

- "ولكن يا عزيزتي..." (بالفرنسية).

- اسمع يا ستيفان تروفيموفتش: في كل ما يتعلق بالمعارف العلمية، ما أنا إلا جاهلة بالقياس إليك. ومع ذلك، فإنني عند عودتي إلى هنا، فكرت فيك كثيراً وانتهيت إلى اقتناع.

- ما هو هذا الاقتناع؟

- هو أنا، أنت وأنا، لسنا أذكى الناس في هذا العالم. هناك من هم أذكى منا.

- هذا كلام صحيح. وهناك إذن من يرون رؤية أصدق، ويترتب على هذا أن من الممكن أن نخطئ. أهذا ما تريدين قوله؟ "ولكن يا صديقتي الطيبة" (بالفرنسية)، لنفترض أنني مخطئ. إنني مع ذلك أملك حرية الاعتقاد، وذلك حق عام مقدس. إن من حقّي أن لا أكون متعصباً للدين وأن لا أكون متظاهراً بالتقوى إذا كان هذا لا يرضيني. ولكنني أتعرض طبعاً في هذه الحالة للبغضاء يحملها لي عدد من الناس إلى الأبد. "ثم إن عدد الرهبان أكبر من عدد العقول" (بالفرنسية)... ولما كنت أوافق على هذا الرأي كل الموافقة... - ماذا؟ ماذا قلت؟

- قلت: "إن عدد الرهبان أكبر من عدد العقول"، ولما كنت...

- ليس هذا القول قولك أنت حتماً. لا شك أنك اقتبسته...

- هو قول للفيلسوف باسكال.

- قدّرت ذلك... أنه ليس قولك أنت. لماذا لا تعبر عن فكرك أبداً بهذه

الطريقة، بطريقة فيها هذه القوة وهذا الإيجاز، بدلاً من الإطالة دائماً؟ هذا أفضل كثيراً مما كنت تقوله منذ قليل عن نشوة الحكم.

- "والله... يا عزيزتي... (بالفرنسية)... لماذا؟ أولاً، ربما لأنني لست باسكال، على كل حال، "ثم" (بالفرنسية) ثانياً، لأننا معشر الروس لا نجيد التعبير عن شيء بلغتنا... أو أننا لم نصل إلى هذا حتى الآن على الأقل... هم... قد لا يكون هذا صحيحاً كل الصحة. مهما يكن من أمر، فإنه ينبغي لك أن تدوّن هذه التعابير على الأقل، وأن تحفظها لتستعملها في المناسبات. آه... ستيفان تروفيموفتش، كنت أنهياً لأن أكلّمك بجد، بجد كبير...

- "صديقتي العزيزة، صديقتي العزيزة!" (بالفرنسية).
- الآن وأنا أرى جميع هؤلاء الذين أسماؤهم لمبكه، وكارمازينوف... آه! يا إلهي! ما أشد إهمالك لنفسك! إنك لتعذبني تعذيباً كبيراً يا ستيفان تروفيموفتش!... أود أن يحترمك هؤلاء الناس، لأنهم جميعاً لا يساوون خنصرك. فانظر إلى سلوكك أنت! ما الذي سوف يرونه؟ ما عساني أريهم فيك؟ إنك بدلاً من أن تكون قدوة للآخرين، وبدلاً من أن تلتزم وضعاً نبيلًا، تحيط نفسك بجمع غفير من أوغاد، وتكتسب عادات سيئة، وتهمل نفسك، وتصبح مدمناً على الخمرة والقمار، ولا تقرأ إلا بول دو كوك، وتضيع وقتك في ثمرات. هل يجوز أن تعقد صلة صداقة برجل وبش كصاحبك لبيوتين الذي لا تفارقه ولا يفارقك؟

- لماذا تقولين إنني لا أفارقه ولا يفارقني؟
كذلك قال ستيفان تروفيموفتش محتجاً في خجل ووجل.
وتابعت فرفارا بتروفاً كلامها بلهجة قاسية قاطعة، فسألته:
- أين هو الآن؟
- إنه... إنه يحترمك إلى أبعد حدود الاحترام، وقد سافر إلى س...ك، لاستلام الميراث الذي آل إليه من أمه.
- يخيّل إليّ أنه لا يفعل شيئاً غير أن يرث. وشاتوف؟ أما يزال على حاله؟

- "سريع الالتهياج، لكنه طيب القلب" (بالفرنسية).
- إنني لا أطيع احتمال صاحبك شاتوف هذا. إنه شرير، وإنه ممتلىء
غروراً بنفسه.

- كيف حال داريا بافلوفنا؟

- تقصد داشا؟ ما هذه الفكرة الغريبة التي واثت؟
كذلك سألته فرفارا بتروفنا، وهى تنظر إليه متعجبة مستطلعة. وتابعت
كلامها فقالت:

- هي بخير. لقد تركتها عند آل دروزدوف... سمعتُ حديثاً عن ابنك حين
كنت فى سويسرا، بشرٌ لا بخير.
- "أوه، هذه حكاية سخيفة جداً. كنت أنتظر وصولك يا صديقتي الطيبة
لأقص عليك..." (بالفرنسية).

- كفى يا ستيفان تروفيموفتش، دعنى وشأنى هادئة البال. إنني متعبة
مرهقة. سوف يتسع وقتنا للكلام على مهل كما نشاء، ولا سيما عن أمور
مزعجة. إنك حين تضحك ترشق من فمك رذاذاً غزيراً من اللعاب. هذا
وحده دليل شيخوخة وهرم. ثم إنك الآن تضحك ضحكاً غريباً جداً. ما
أسوأ هذه العادات التى تأصلت فيك! إن كارمازينوف لن يأتى إليك! والناس
يعبثون الآن بكل شىء ويستهجون لكل شىء... لقد كشفت الآن عن نفسك
كلها. هيا، كفى كفى! أنا متعبة. هلاً أشفقت على كائن إنساني آخر الأمر!
"أشفق ستيفان تروفيموفتش على كائن إنساني" آخر الأمر. ولكنه
انصرف مضطرباً أشد الاضطراب.

5

كان صاحبنا قد اعتاد كثيراً من العادات السيئة فعلاً، ولا سيما فى هذه
الآونة الأخيرة. واضح أنه أصبح قليل الاكتراث، وأنه أخذ يهمل مظهره
مزيداً من الإهمال يوماً بعد يوم. وهو الآن يشرب أكثر مما كان يشرب، وقد
صار سخّي الدموع يذرفها بسهولة، وصارت أعصابه تثور فى كل مناسبة.

واكتسب وجهه سرعة في الحركة غريبة، حتى إنه ينتقل فوراً من التعبير عن أعظم الأبهة والفخامة إلى التعبير عن أنفه الهزل المسفّ المضحك، بل وإلى التعبير عن أبلغ الحماسة البلهاء. وقد غدا عاجزاً عن احتمال العزلة والوحدة، فلا بد له دائماً من أحد يجيء إليه فيسألّه. وكان ينبغي أن تنتقل إليه النائم والأقويل، وأن تروى له الحكايات التي تشيع في المدينة، وكان يطالب دائماً بجديد. فإذا لم يأت إليه أحد، طفق يطوف من غرفة إلى غرفة حزناً، واقترب من النافذة في كل لحظة، وتنهد وزفر، وحرك شفتيه حالم الهيئة شارد اللب، ثم إذا هو يكاد يبكي. وأصبحت تساوره هواجس ومخاوف مستمرة، فهو في كل وقت يخشى وقوع حادث غير منتظر، وهو دائم الجفول والتخوف كثير الاهتمام بما يراه في النوم من أحلام.

قضى ستيفان تروفيموفتش النهار والليل حزناً مكتئباً، ثم بعث يستدعيني. فلما جئت إليه وجدته مضطرباً أشد الاضطراب، وأخذ يتحدث طويلاً، ولكن حديثه مشوش مبهم. إن فر فارا بتروفا تعرف منذ مدة طويلة أنه لا يخفي عني شيئاً. وبدأ لي في النهاية أن ثمة شيئاً يقلقه ويبت في نفسه الاضطراب، وأنه ربما كان هو نفسه لا يدرك هذا الشيء إدراكاً واضحاً، ولا يعيه وعياً كاملاً. وقد جرت العادة، حين نكون وحيدين فيفرغ من الإفضاء إليّ بهومومه وآلامه، أن نؤتي على الفور بزجاجة خمرة تسري عنا قليلاً. ولكن الخمرة في هذه المرة لم تكن موجودة، وكان واضحاً أنه يكبح رغبته في طلب شيء منها.

إنه لا يفتأ يكرر شاكياً كطفل:

- ما الذي يغضبها دائماً؟ إن رجال العبقرية والتقدم في روسيا كانوا وما يزالون وسيظلون إلى الأبد" (بالفرنسية) مقامرين وسكّيرين... وأنا لست مقامراً ولا سكّيراً إلى هذا الحد... إنها تأخذ عليّ أنني لا أكتب شيئاً... يالها من فكرة غريبة!... لماذا أظل مضطجعاً؟ هي تقول لي: "عليك أن تكون قدوة، وأن تقف أمام الجميع صورة مجسدة للوم والرفض". فقل لي - وليكن

الكلام سرّاً بيننا - ما عسى يفعل رجل يجب أن يكون صورة مجسّدة للوم والرفض، إلّا أن يبقى مضطجعاً؟ كيف لا نفهم هي هذا؟ وأدركت أخيراً سبب هذا القلق الخاص الذي كان يعذبه في ذلك اليوم. إنه في أثناء تلك السهرة قد اقترب من المرأة مراراً ليتأمل وجهه طويلاً. وفي النهاية التفت نحوي وقال في كرب شديد:

- "يا عزيزي" (بالفرنسية) لقد سقطت...

الواقع أنه كان حتى ذلك الحين، حتى ذلك اليوم، محتفظاً باعتقاد جازم لا يتزعزع، رغم "وجهات النظر الجديدة" ورغم "الأفكار الجديدة" التي انتهت إليها فرفاراً بتروفاً، بأنه ما يزال يحظى من صديقتيه باعتبار عظيم من حيث هو رجل وسيم جميل، لا من حيث هو رجل منفيّ أو عالم شهير فحسب. إن هذا الاعتقاد المبهج المطمئن كان قد تأصل فيه وترسخ منذ عشرين عاماً، ولعله كان هو الاعتقاد الذي يصعب عليه أن يتنازل عنه أكثر مما يصعب عليه أن يتنازل عن أى اعتقاد آخر. ترى، هل وافاه في ذلك المساء إحساس يتنبأ بالمحنة الرهيبة التي كان يهيئها له مستقبل قريب؟

6

الآن أصل من قصتي إلى الجزء الذي هو بدايتها حقاً، وهو جزء مضحك بعض الشيء.

في آخر شهر آب (أغسطس)، وصلت السيدتان دروزدوف أخيراً إلى مدينتنا. فكان لوصولهما الذي أعقبه بعد برهة وجيزة وصول قريتهما امرأة الحاكم التي طالما انتظر وصولها، كان له دوي كبير. سأعود فيما بعد إلى هذه الأحداث الطريفة جداً. أما الآن فأذكر فقط أن براسكوفيا إيفانوفنا التي انتظرتها فرفاراً بتروفاً بصبر فارغ قد حملت إلى فرفاراً نبأ غريباً مشوشاً: هو أن نيقولاى ترك آل دروزدوف منذ شهر تموز (يوليه) وأنه وقد التقى على نهر الراين بالكونت ك وأسرته قد تبعهم إلى بطرسبرج (ملاحظة: إن للكونت ك ثلاث بنات للزواج).

قالت براسكوفيا إيفانوفيا:

- ولم أستطع أن أستخرج من ليزافتا شيئاً بسبب كبريائها وسوء مزاجها، لكنني رأيت بعيني أن شيئاً ما قد جرى بينها وبين نيقولا في سيفولودوفتش. لا أدري ما هو هذا الشيء، ولكن يخيّل إليّ يا صديقتي العزيزة أن عليك أن تسألي عن هذا الأمر صاحبك داريا بافلوفنا. في رأيي أن ليزا قد أحست بأنها أهينت. إنني ليسرني أعظم السرور أن أرد إليك أثرتك أخيراً، وأن أضعها بين يديك: فهأنذا أتخلص منها.

هذه الكلمات المليئة بالمرارة والضغن قد نطقتها براسكوفيا إيفانوفيا بكثير من الغيظ والحنق. كان واضحاً أن "المرأة الرخوة" قد حُضرت هذه الكلمات منذ مدة طويلة متلذذة بتأثيرها سلفاً. لكن فرفاراً بتروفا ليست امرأة يمكن التأثير فيها بجمل عاطفية والغاز. فلم تلبث أن تكلمت بلهجة قاسية تطلب إيضاحات دقيقة كاملة، فخفضت براسكوفيا إيفانوفنا نبرة صوتها، وانتهت أخيراً إلى الإفضاء بمشاعرها والبوح بعواطفها بوحاً حميماً، حتى لقد بكت أثناء ذلك. إن هذه السيدة تشبه ستيفان تروفيموفتش، فهي سريعة الاحتياج لكنها عاطفية تشعر دائماً بالحاجة إلى "صداقة صادقة مخلصّة"، وكان كل تأذيتها من ابنتها ليزافتا نيقولايفنا أنها "لم تشأ أن تكون صديقة" لأُمها.

لم يخرج من جميع إفضاءاتها وإيضاحاتها إلا شيء واحد جلي، هو أنه قد حدث خلاف فعلاً بين ليزا ونيقولاى. أما ما هو هذا الخلاف، فإن براسكوفيا إيفانوفنا لم تستطع أن تدركه حق إدراكه وأن تفهمه حق فهمه. وأما الاتهامات التي ألقتها على داريا بافلوفنا فإنها انتهت لا إلى العدول عنها فحسب، بل ألحت كذلك على فرفاراً بتروفا أن لا تكثر أي اكتراث بتلك الأقول التي خرجت من فمها في لحظة "غيظ". الخلاصة أن كلامها كله كان قليل الوضوح، بل كان فيه ما يشوش ويحير. هى ترى أن الخلاف ناشئ عن أن ليزا لها "طبع ساخر نزق شرس". ومن جهة أخرى فإن نيقولاى في سيفولودوفتش، لم يستطع لشدة كبريائه أن يحتمل تلك السخريات، فاصطنع لهجة ساخرة هو أيضاً، رغم الحب الشديد الذى يحمله لها. وأضافت براسكوفيا إيفانوفيا

تقول: "وبعد قليل، تعرفنا بشاب هو ابن أخ صاحبك "الأستاذ" فيما أظن وهو يحمل نفس اسمه على كل حال..."

صححت فر فارا بتروفا كلام صديقتها قائلة:

- بل هو ابنه لا ابن أخيه.

إن براسكوفيا إيفانوفنا لم تستطع في يوم من الأيام أن تحفظ اسم ستيفان تروفيموفتش، فكانت تسميه دائماً باسم "الأستاذ". قالت تسأل:

- هو ابنه؟ طيب. لا فرق. هو شاب كسائر الناس، شديد الحيوية منطلق

السلوك، ولكن ليس له شيء يميزه عن غيره على وجه الإجمال. إن ليزا

هى المذنبه في هذه المرة: فمن أجل أن تثير غيرة نيقولا في سيفولودوفتش

لاطفت هذا الشاب. إنني لا ألومها كثيراً، فهذا شيء طبيعي في فتاة، بل هو

شيء محبب. ولكن نيقولا في سيفولودوفتش، بدلاً من أن يغار، عقد بينه

وبين الشاب صداقة، ظاهراً بمظهر من لا يكثرث أو من لا يلاحظ شيئاً.

فاستمر حتى ليزا من ذلك طبعاً. وما لبث الشاب أن سافر (كان على عجلة،

لا أدري لماذا)، وأخذت ليزا تناكد نيقولا في سيفولودوفتش في كل مناسبة.

حتى إذا لاحظت أن نيقولا يتحدث مع داشا أحياناً ازداد أوار غيظها. يا

لها من حياة! إن الأطباء يحذرون علي أن تثور أعصابي. ثم إن تلك البحيرة

التي طالما كالوا لها المديح قد أخذت تزعجني أخيراً: أوجاع أسنان، وآلام

روماتيزم، ذلك كل ما جنّيته منها. يظهر أن هذا من خصائص بحيرة جنيف.

إنها تهيء لأوجاع الأسنان. وها هو ذا نيقولا في سيفولودوفتش يتلقى رسالة

من الكونتيسة. فسرعان ما أعد عدته للسفر، ثم بارحنا في ذلك اليوم نفسه.

على أنهما افترقا صديقين. حتى أن ليزا أظهرت، وهى تصحبه إلى المحطة،

كثيراً من المرح فكانت تضحك طول الوقت. لكن ذلك لم يكن إلا تمثيلاً.

فما إن سافر حتى أصبحت حالمة شاردة الفكر، وكفت عن الإتيان على

ذكره تماماً، بل لقد منعني من أن أمس هذا الموضوع. وإنني لأنصحك، أنت

أيضاً، يا عزيزتي فر فارا بتروفا، بأن لا تتعرضي لهذه المسألة مع ليزا، وإلا

فيمكن أن تفسدي كل شيء. أما إذا التزمت الصمت فإنها ستكون البادئة

بالحديث معك في الأمر، فتستطيعين عندئذ أن تعلمي ما لا تعلمين. في رأيي أنهما سوف يتصالحان، على شرط أن يصل نيقولا في سيفولودوفتش بأقصى سرعة، كما وعد.

- سأكتب إليه فوراً. إذا كان كل شيء قد جرى كما تصفين، فعلاً يعدو الأمر أن يكون شقاقاً طارئاً ليس بذئ بال. تلك كلها سخافات! ثم إنني أعرف داريا جيداً. سخافات!

- فيما يتعلق بداشا أعترف أنني أخطأت. لم تجر بينهما إلا أحاديث تافهة مبتذلة، وكانا يتكلمان دائماً بصوت مرتفع. ولكن تلك المشكلات كلها كانت قد أثارت أعصابي. ثم إنني قد رأيت أن ليزا عادت تعاملها بمودة وصداقة، كما كانت تفعل من قبل.

في ذلك اليوم نفسه كتبت فرفارا بتروفنا إلى نيقولا في سيفولودوفتش ضارعة إليه أن يرجع قبل الموعد الذي حدّده لرجوعه ولو بشهر واحد. وكان هناك شيء ما يزال مع ذلك غير واضح لها في تلك الحكاية. فكّرت في الأمر طول السهرة والليل. إن رأي راسكوفيا إيفانوفنا يبدو لها بسيطاً مسرفاً في البساطة، عاطفياً مسرفاً في العاطفية. قالت تحدّث نفسها: "إن براسكوفيا تميل دائماً إلى العاطفيات، حتى منذ كانت في المدرسة الداخلية. ليس نيقولا بالرجل الذي تهزّمه سخريات طفلة. فإذا كان قد حدث شقاق بينهما فعلاً، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر غير هذا تماماً. ومهما يكن من أمر، فإن ذلك الضابط هو هنا، اصطحبته معهن وأقام في منزلهن بصفته قريباً. ثم إن براسكوفيا قد كفت عن مهاجمة داريا بسرعة: لا شك أنها كتمت في نفسها أشياء لم ترد أن تقولها لي..".

ما إن طلع الصباح حتى كانت فرفارا بتروفنا قد وضعت خطة يجب أن تتيح لها أن تحلّ واحدة، على الأقل، من المسائل التي أوقعتها في تلك الحيرة كلها وتلك البلبلة كلها، وهي خطة غريبة، غير منتظرة ولا متوقعة. ترة ما الذي كان في قرارة قلبها حين تصورت هذه الخطة؟ ذلك امر يصعب على المرء أن يعرفه، ولست أتحمّل عبء توضيح التناقضات التي تشتمل عليها

تلك الخطة. إنني، بصفتي قاصاً، أقتصر على عرض الوقائع كما حدثت، بأكبر صدق ممكن وأكبر دقة ممكنة، فإذا لاح إنها غير معقولة فليس الذنب في ذلك ذنبي. يجب أن اشهد مرة أخرى مع ذلك أن شكوك فر فارا بتروفا فيما يتعلق باداشا كانت قد تبددت تبديداً تاماً في الصباح. والحق أنها لم تأخذها مأخذ الجد في وقت من الأوقات، لأنها كانت عظيمة الثقة برببيتها. ثم إنها كان يستحيل عليها أن تصدق أن ابنها نيقولا يمكن أن يعشق... داريا. وفي الصباح، بينما كانت داريا تسكب الشاي، تأملت فر فارا بتروفا طويلاً بانتباه شديد، فقالت لنفسها ربما للمرة العشرين منذ البارحة، قالت لنفسها بثقة واطمئنان: "تلك كلها سخافات!".

كل ما هناك أنها لاحظت أن داشا تبدو متعبة قليلاً وأنها تبدو كذلك أكثر صمتاً وأكثر برودة مما كانت من قبل. وبعد الشاي جلستا تطرزان، على عادتهما. فطلبت فر فارا بتروفا من داريا أن تحدثها عن رحلتها في الخارج، عن الطبيعة، والمدن، والسكان وعاداتهم، والفنون، والصناعة، وعن كل ما لاحظته. ولم تلق عليها سؤالاً واحداً عن آل دروزدوف وعن الحياة التي عاشتها مع هاته السيدات. وكانت داشا جالسة أمام منضدة صغيرة للشغل تتحدث بصوتها المتساوي، الرتيب، الضعيف، الذي يجري على وتيرة واحدة، فإذا بالسيدة تقاطعها فجأة بعد نصف ساعة من كلامها سائلة إياها:

- داريا، أليس لديك أي شيء خاص تريد أن تفضي به إليّ؟

فأجابت الفتاة بعد لحظة تفكير وهي ترفع نحو فر فارا بتروفا عينيها الواضحتين:

- لا، لا شيء البتة!

- لا في فكرك، ولا في قلبك، ولا في ضميرك؟

فكررت داشا تقول بصوت أجش، ولكن بنوع من تصميم متجهّم:

- لا شيء.

كنت أقدر هذا. اعلمي يا داريا أنني لن يراودني أي شك فيك أبداً. والآن، كوني هادئة وأصغي إليّ. اجلسي على هذا الكرسي أمامي. أريد أن

أراك كلك. نعم... هكذا... اسمعي. هل تريد أن تتزوجي؟
فألقت عليها داشا نظرة طويلة مستفهمة، ولكنها نظرة ليس فيها استغراب كبير. قالت فر فارا بتروفا:

- انتظري. اسكتي. هناك فرق في السن، بل فرق كبير جداً. لكنك أعلم الناس بأن هذا أمر لا قيمة له. أنت عاقلة. وما ينبغي أن يكون في حياتك خطأ. ثم إنه رجل جميل على كل حال. الخلاصة أنه ستيفان تروفيموفتش الذي كنت دائماً تقدرينه حق قدره. ما رأيك؟

ألقت داشا نظرة فيها مزيد من الاستفهام. وبدت عليها الدهشة في هذه المرة، حتى لقد احمر وجهها.
قالت فر فارا بتروفا:

- انتظري. اسكتي. لا تستعجلي. رغم أنك تملكين بعض المال - لأنني خصصتك في وصيتي بمبلغ - فما عسى تصيرين إليه بعد موتي، ولو ملكت ذلك المال؟ سوف تُخدعين فيُسرق مالك، فإذا أنت تضيعين. أما إذا تزوجت فإنك تصبحين زوجة رجل معروف. وانظري إلى الجانب الآخر من الموقف: لقد كفلت له حياته، ولكن ما الذي سيحدث له إذا أنا توفيت؟ أما إذا كنت أنت معه، فإنني أكون واثقة مطمئنة. انتظري. لم انت من كلامي: إنه خفيف، متقلب، أناني، ولعله قاسٍ، وإن له عادات عامية مبتذلة، ولكن يجب عليك أن تقدره، ولكن هناك من أهم أسوأ منه. إنك لا تتصورين طبعاً أنني أريد التخلص منك وتسليمك لوغد من الأوغاد، هه؟ لكنك ستقدرينه خاصة لأنني أطلب منك ذلك هل تسمعينني؟ ما بالك تعندين؟
كذلك قالت بلهجة حانقة.

وكانت داشا صامته تصغي إلى كلامها. وأردفت فر فارا بتروفا تقول:
- انتظري أيضاً. إنه يشبه امرأة عجوزاً. ولكن هذا أفضل لك. إنه يثير الشفقة في النفس. إنه غير جدير حتى بأن تحبه امرأة. لكنه يستحق أن يُحب لأنه أعزل من كل سلاح، ويجب عليك أن تحبيه لانه أعزل من كل سلاح.
هل تفهميني؟ أليس ما أقوله صحيحاً؟ هل تفهميني؟

هزت داشا رأسها بحركة تعني الموافقة على كلام محدّثها. فقالت فر فارا بتروفنا تصيح بصوت حاد حدة غريبة:

- كنت واثقة بهذا. لم اكن أتوقع منك شيئاً آخر. سوف يحبك، لأنه يجب عليه أن يحبك، يجب عليه أن يحبك. سيكون عليه أن يعبدك عبادة، بل إنه سيهيم بحبك دون ان تتدخل فكرة الواجب. إنني اعرفه حق معرفته. ثم إنني سأكون موجودة. لا تقلقي. سأكون موجودة دائماً. سوف يتشكى منك، وسوف يغتابك ويشي بك، وسوف يبوح بأسراره لأول قادم، سوف يئن ويتوجع بغير انقطاع، وسوف يبعث إليك برسائل من غرفة إلى أخرى، رسالتين في يوم واحد، ولكنه لن يستطيع أن يعيش بدونك، وذلك هو الشيء الأساسي. توصلي إلى جعله طبعاً. فإذا لم توصلي إلى ذلك كنتِ حمقاء لا أكثر: سوف يزعم لك أنه سيشنق نفسه، سوف يهددك، ولكن لا تصدقي شيئاً من ذلك. ما هذا كله إلّا هذر وثرثرة! لا تصدقي ما يقول. ومع ذلك عليك أن تكوني مفتّحة العينين دائماً: فقد يشنق نفسه. يمكن أن يتوقع المرء كل شيء من أمثال هذا الإنسان. إنهم يشنقون أنفسهم لا لأنهم أقوياء، بل لأنهم ضعفاء مسرفون في الضعف. لذلك ينبغي لك أن لا تستفزيه إلى آخر الحدود أبداً. تلك أولى القواعد التي يجب على المرأة أن تراعيها في معاملتها زوجها. تذكرني أيضاً أنه شاعر. اسمعي يا داشا! ما من سعادة أعظم من السعادة التي يشعر بها الإنسان حين يضحّي بنفسه. ثم إنك ستسعديني سعادة كبيرة، وهذا هو الشيء الأساسي. لا تتخيلي أن حماقة قد أفلتت من لساني الآن: إنني أعني ما أقول، وأدركه حق إدراكه. أنا أنانية، فكوني أنت أيضاً أنانية. لكنني لا أجبرك البتة. كل شيء رهن بإرادتك. افعلي ما يستقر عليه رأيك. فماذا؟ ما بالك تصمتين؟ تكلمي!

قالت داشا بصوت ثابت:

- إذا كان لا بد حتماً من أن أتزوج، فأنا موافقة يا فر فارا بتروفنا. يستوي عندي...

سالتها فر فارا بتروفنا بلهجة قاسية وهي تلقي عليها نظرة فاحصة:

- إذا كان لا بد حتماً؟ إلى ماذا تلمحين؟
صمتت داريا وهي تغرز إبرتها في نسيجها الذي تطرزه.
قالت فر فارا بتروفنا:

أنت ذكية، ولكن أفلتت منك الآن جملة سخيفة. صحيح أنني أحرص حرصاً مطلقاً على تزويجك. ولكن هذا لا يرجح إلى ضرورة، وإنما هو فكرة وافنتي. ولن أزوّجك إلا ستيفان تروفيموفتش. فلو لا أن هناك ستيفان تروفيموفتش لما خطر ببالي أن أزوّجك أحداً، رغم أنك بلغت العشرين من العمر. هيه، ما رأيك؟

- سأفعل ما تشائين يا فر فارا بتروفنا.

- إذن توافقين. انتظري. اسكتي. لا تستعجلي. لم أنه بعد: لقد خصصتك في وصيتي بخمسة عشر ألف روبل، لكنني سأعطيك المبلغ منذ الآن، بعد الزفاف فوراً. سوف تعطينه من هذا المبلغ ثمانية آلاف روبل. لا، لن تعطيه هو، بل تعطيني أنا. إنه مدين بثمانية آلاف روبل سوف أتولى سدّادها عنه. ولكن يجب أن يعلم أنني أسدّدها من أموالك أنت. واحتفظي بالآلاف السبعة التي ستبقى لك. لا تعطه منها شيئاً البتة. ولا يخطر ببالك يوماً أن تسدّدي عنه ديناً. فلو فعلت ذلك ولو مرة واحدة لتقاطرت عليك المضايقات من كل جهة. على كل حال، سوف أكون موجودة. وسوف أكفل نفقات معيشتك، ألفاً ومائتي روبل في السنة، بل ألفاً وخمسمائة روبل، عدا النفقات الطارئة، وسأكفل المسكن والطعام، كما أفعل له الآن. ولكن ستدفعين أنت أجر الخادمة. سأدفع المعاش السنوي مرة واحدة، أضعه بين يديك أنت. ولكن كوني طيبة: أعطه شيئاً من حين إلى حين، واسمحي له أن يستقبل أصدقاءه مرة في الأسبوع. فإذا جاؤوا أكثر من ذلك، اطرديهم. سأكون موجودة على كل حال. وإذا مت فإن المعاش السنوي سيظل يُدفع لك إلى أن يموت، هل تفهمين؟ إلى أن يموت "هو". ذلك إن هذا المعاش ليس لك، بل له. أما أنت فبالإضافة إلى السبعة آلاف روبل التي ستأخذينها الآن والتي ستحافظين عليها إذا لم تكوني حمقاء، سوف أخصّك في وصيتي بثمانية آلاف روبل.

ولكن لا تنتظري مني شيئاً آخر. اعلمي هذا. هل توافقين؟ هلاً أجبتني أخيراً؟
 - لقد أجبتك يا فرفارا بتروفنا.
 - تذكرني أنك حرة تماماً، تفعلين ما تشائين.
 - ولكن اسمحي لي يا فرفارا بتروفنا: هل سبق أن كلمك ستيفان تروفيموفتش في هذا الموضوع؟
 - لا، لم يقل لي شيئاً، حتى أنه لا يعلم شيئاً، ولكن انتظري قليلاً. سوف يتكلم.

ونهضت فرفارا بتروفنا فجأة، ووضعت على كتفها شالها الأسود. فاحمرّ وجه داشا من جديد وهي تتابعها بنظرة مستفهمة. والتفتت فرفارا بتروفنا نحو ربيبتها فجأة، وقد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط الغضب، وانقضت عليها انقضاض الصقر تقول صائحة:

- أنت حمقاء! حمقاء وعقواق! ما هي الفكرة التي خطرت ببالك؟ أتصورين أنني يمكن أن أعرضك لمهانة مهما تصغر؟ إلا أنه هو الذي سيزحف على ركبتيه زحفاً طالباً يدك. يجب أن تعلمي أنني لا أرضى قط أن تُهانِي. أم تراك تتخيلين أنه سيتزوجك من أجل الثمانية آلاف روبل، وأني سأركض إليه الآن لأبيعه إياك؟ حمقاء! حمقاء! أنتن جميعاً حمقاوات عاقات! ناوليني مظلتي!

وأسرعت إلى عند ستيفان تروفيموفتش سيراً على قدميها، سالكة الأرصفة الرطبة والجسور الخشبية المبتلة.

7

صدقت فرفارا بتروفنا: ما كان لها أن تطيق أن تُهان داريا أية إهانة، وهي في هذه اللحظة خاصة تعد نفسها المحسنة إليها المنعمة عليها. لذلك ثار في نفسها أنقى استياء وأنبل استياء حين لاحظت أثناء وضعها شالها على كتفها نظرة قلق وزيبة لدى الفتاة. إن فرفارا بتروفنا قد أحبت داشا دائماً أصدق الحب، ومن أجل هذا إنما وصفتها لها براسكوفيا إيفانوفنا حين

حدّثها عنها بأنك "أثيرتها". كانت فر فارا بتروفنا قد استقر رأيها استقراً حاسماً على أن طبع داريا لا يشبه في شيء طبع أخيها (إيفان شاتوف)، وعلى "أنها فتاة هادئة رقيقة عذبة قادرة على التضحية مخلصاً، متواضعة إلى أقصى حدود التواضع، عاقلة حصيفة الرأي، زاخرة النفس بالشكر والامتنان خاصة". وقد جاء سلوك داشا حتى الآن مصداقاً لما استقر عليه رأي فر فارا بتروفنا. لقد قالت فر فارا بتروفنا مرة حين كانت الفتاة في الثانية عشرة من عمرها: "لن يكون في حياة هذه الفتاة أخطاء". وإذا كانت هذه السيدة تتشبث تشبثاً عنيداً جارفاً بكل مشروع أو كل حلم أو كل رأي يفتنها فقد قرّرت على الفور أن تربي داشا كأنها ابنتها. فسرعان ما خصّتها برأس مال، واستقدمت لها مربية هي مس كريبز التي ظلت في البيت إلى أن بلغت الفتاة السنة السادسة عشرة من عمرها، ثم صُرفت الانكليزية مشكورة في ذات يوم على حين فجأة، لا يدري أحد لماذا! وأخذت فر فارا بتروفنا تكلف بإعطاء دروس لربيّتها أساتذة من أساتذة المدارس الثانوية كان بينهم فرنسي أصيل. وهذا أيضاً صُرف بغتة بما يشبه الطرد. وقامت بإعطاء دروس للفتاة في العزف على البيانو أرملة فقيرة تنتمي إلى أسرة نبيلة، وتقيم بمدينتنا إقامة عابرة. غير أن الأستاذ الرئيسي الذي علّم الفتاة إنما هو ستيفان تروفيموفتش. والحق أنه هو أول من اكتشف داشا. فكان يُعنى بتعليم الفتاة حتى قبل أن تنتبه إليها فر فارا بتروفنا أي انتباه. أعود فأقول: إن الأطفال كانوا يحبون ستيفان تروفيموفتش حباً خاصاً. وقد عملت معه ليزافتا نيقولايفنا توشين منذ سنتها الثانية حتى سنتها الحادية عشرة (وكانت الدروس بالمجان طبعاً، فما كان له بحال من الأحوال أن يقبل أن يتقاضى من السيدة دروزدوف أي مكافأة). كان هو نفسه يعبد تلك الطفلة الفاتنة ويروي لها تاريخ الإنسانية في صورة قصص، ويحكى لها كيف نشأ الكون وتطوّرت الأرض. وكانت دروسه عن الإنسان البدائي والشعوب المتوحشة تخلق الألباب أكثر من الحكايات العربية نفسها. فكانت ليزا تفرح بأقاصيصه أشد الفرح. ولكنها متى خلت إلى نفسها في البيت شرعت تقلده تقليداً مضحكاً إلى أبعد حدود

الإضحاك. وقد فاجأها ستيفان تروفيموفتش على هذه الحال في ذات مرة على حين بغته، فما كان منها إلا أن ارتمت بين ذراعيه باكية. وقد أخذ يبكي هو أيضاً، ولكنه بكى حناناً وحباً. فلما سافرت ليزا لم يبق له من تلميذ إلا داشا، حتى إذا عُهد بتعليمها إلى أساتذة من المدارس الثانوية قطع هو دروسه، ثم انتهى اهتمامه بعد ذلك بالفتاة انتهاء تاماً. وانقضت السنون فإذا هو يلاحظ فجأة في ذات يوم - بينما كان على المائدة عند فرفارا بتروفنا - ما تتمتع به الصبية من فتنة وقد بلغت السابعة عشرة. فأخذ يكلمها، ورضي كل الرضا عن أجوبتها، واقترح عليها أخيراً أن يعطيها دروساً مفصلة في تاريخ الأدب الروسي، فشكرت له فرفارا بتروفنا هذه الفكرة. أما داشا فقد سُرّت أعظم السرور وافتتنت افتتاحاً وأعدّ ستيفان تروفيموفتش دروسه بعناية خاصة جداً، وكان درسه الذي وقفه على أقدم عهد من العهود شائقاً إلى أبعد الحدود. ولكن حين أبلغ ستيفان تلميذته في نهاية الدرس انه سيتناول في المرة القادمة "حملة إيجور"⁽¹⁾، نهضت فرفارا بتروفنا فجأة وأعلنت أن هذا الدرس هو الأخير. فصعّر ستيفان تروفيموفتش وجهه، لكنه لزم الصمت. واحمّرت داشا احمراراً شديداً. وقفت الأمور عند ذلك الحد. لقد حدثت هذه القصة منذ ثلاث سنين تماماً.

كان ستيفان تروفيموفتش المسكين وحيداً، وكان لا يتوقع شيئاً. إنه كان غارقاً في أحلام كئيبة، ينظر من النافذة بين الفينة والفينة عسى أن يجيئه زائر. ولكن ما من أحد يأتي. وكان يتساقط على الأرض في الخارج رذاذ مطر، وكان البرد في بدايته، فكان ينبغي إشعال المدفأة. تنهد ستيفان تروفيموفتش. وإنه لكذلك إذا هو يرى أمامه ما بثّ الرعب في نفسه: إنها فرفارا بتروفنا قد جاءت في مثل هذا الجو الماطر البارد، سائرة على القدمين أيضاً!... بلغ

(1) "حملة إيجور": إن القصيدة الروسية التي يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر والتي تصور حملة الأمير إيجور دي سيفيريا على القومانيين سنة 1185 هي من أجل القصائد الغنائية الوطنية الملحمية الروسية. وقد استخرج منها المؤلف الموسيقي بورودين موضوعاً للأوبرا التي وضعها بعنوان "الأمير إيجور". أمّا الجترالة ستافروجين فكانت تعد هذا الأثر من آثار القرون الوسطى باعثاً على الملل والضجر.

ستيفان تروفيموفتش من الدهشة أنه نسي أن يبادر إلى تغيير ملبسه، فاستقبلها كما هو، بصديرتة المعتادة، الوردية اللون، المبطنة بالقطن.

هتف يقول بصوت ضعيف وهو يتقدم للقائها:

- "صديقتي الطيبة!..." (بالفرنسية).

- أنت وحيد، يسعدني هذا. إنني أكره أصدقاءك. ما أكثر ما تدخن!

رباه! ما أفسد هذا الهواء! لم تشرب الشاي حتى الآن والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. إنك تسعد بالفوضى ولا تجد لذة إلا في القذارة. ما قطع الأوراق الممزقة هذه التي تتناثر على أرض الغرفة؟ ناستاسيا، ناستاسيا! ماذا تفعل خادمك ناستاسيا؟ افتحي النوافذ، يا عزيزتي، والأبواب والطاقات، افتحي كل شيء إلى آخر مداه! وبانتظار أن تفعل ذلك سنتقل إلى الصالون. لقد جئت لعمل. هلاً كنست قليلاً ولو مرة واحدة في حياتك يا عزيزي!

صرخت ناستاسيا تقول بصوت شاك غاضب في آن واحد:

- سيدي يوسخ طوال الوقت!

- وظيفتك أن تكنسي، ولو خمس عشرة في اليوم إذا لزم الأمر.

ثم أضافت تخاطب ستيفان تروفيموفتش وهي تدخل إلى الصالون:

ما أبشع صالونك. أغلق الباب جيداً فقد تجسّس ناستاسيا علينا. يجب تغيير ورق الجدران هذا حتماً. لقد بعثت إليك بعامل مختص مع عيّنات، فلماذا لم تختبر شيئاً؟ اجلس، وأصنع إلى كلامي. اجلس، أرجوك! إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين أنت تمضي؟

فصاح ستيفان تروفيموفتش يجيها من الغرفة المجاورة:

- سوف... سوف أرجع حالاً.

وسرعان ما عاد بعد أن غير ملبسه وقال:

- ها أنذا رجعت.

قالت وهي تفحصه ساخرة:

- آ... غيرت ملبسك! حقاً إن هذا الرداء يناسب طبيعة حديثنا أكثر.

اجلس، تفضل اجلس.

وكان ستيفان تروفيموفتش قد ارتدى فوق صدرته رندجوتاً.

شرحت له فر فارا بتروفنا القضية كلها دفعة واحدة، بلهجة قاطعة مقنعة. فأشارت إلى الثمانية آلاف روبل التي كان في حاجة مستعجلة إليها، وفصلت القول في مسألة المهر أيضاً. فكان ستيفان تروفيموفتش يحملق بعينه ويرتعش في داخله. كان يسمع ما تقوله سمعاً جيداً، ولكنه لا يفهمه فهماً واضحاً. وأراد أن يتكلم لكن صوته اختنق في حلقه. إنه لا يعرف إلا شيئاً واحداً هو أن كل شيء سوف يتم على نحو ما تقول فر فارا بتروفنا، وأن الجدل والرفض جهد ضائع، وأنه سيتزوج لا محالة.

قال أخيراً: "ولكن يا صديقتي الطيبة" (بالفرنسية) للمرة الثالثة وفي سني... ثم مع طفلة كهذه الطفلة؟ "إنها طفلة" (بالفرنسية).

- طفلة في العشرين من عمرها ولله الحمد. لا تجل بنظرك على هذا النحو. ما أنت فوق مسرح. أنت ذكي جداً وأنت عالم، لكنك لا تفهم من شؤون الحياة شيئاً. إنك في حاجة إلى خادمة تكون بقربك على الدوام. ما عسى تصير إليه بعد موتي؟ إنها هي التي ستكون خادمتك، وإنها لخادمة ممتازة. هي فتاة متواضعة، ثابتة، عاقلة. ثم إنني سوف أكون موجودة. لن أموت فوراً. إنها تحب أن تعيش حياة اسرة، وإنها في رقتها كملاك. لقد وافقتني هذه الفكرة الموفقة وأنا في سويسرا! هل تفهم حين أقول لك أنها في رقتها كملاك؟

بهذا صاحت فر فارا بتروفنا غاضبة على حين فجأة. وتابعت كلامها تقول:
- إن بيتك تسوده القذارة والوساخة، فستأتيك هي بالترتيب والنظافة فإذا بمنزلك يلمع كمرآة... هيه! أترك تخيل أنني سأضرع إليك أن تقبل كنزاً كهذا وأنا أنحني لك إجلالاً، وأعدّد لك جميع المزايا والفوائد، وأفعل كما تفعل خاطبة؟ ألا إنك أنت الذي يجب أن تتوسل إليّ راکعاً على ركبتك! بالك من رجل طائش جبان!

- لكنني عجوز...

- إن سنك ثلاثة وخمسون عاماً. ما ثلاثة وخمسون عاماً؟ ليست

الخمسون نهاية الحياة بل وسطها. وإنك رجل جميل. أنت نفسك تعرف هذا. وتعرف أيضاً أنها تقدّر حق قدرك. ما عسى تصير هي إليه بعد موتي؟ لعلها تكون معك هادئة البال، وسوف أكون أنا هادئة البال قريرة العين. إن لك مركزاً، وإسماً، وقلباً محبباً. سوف تستمر على قبض المعاش الذي أرى أن من واجبي أن أقدمه إليك. قد تكون أنت منقذها، نعم، سوف تكون منقذها. وعلى كل حال، سوف يكون هذا شرفاً لها. سوف تتولى تهذيب طبعها، وإغناء قلبها، وتوجيه عقلها وفكرها. ما أكثر الذين يهلكون في هذا الزمان لأن أحداً لم يحسن توجيههم! وإلى ذلك الحين تكون قد فرغت من تأليف كتابك، وتذيع شهرتك ويتحدث عنك الناس من جديد.

تمتم ستيفان تروفيموفتش وقد أثر فيه هذا المديح الذي ترجمه له فرفارا بتروفا:

- نعم، لقد فكرت فعلاً في الشروع في تأليف كتابي "أقاصيص من تاريخ إسبانيا"⁽¹⁾.

- أرايت؟ لقد جاء الأمر في حينه.

- ولكن... ما قولها هي؟ هل كلمتها؟

- لا يقلقنك هذا الأمر. ولا تسرف في الفضول. سوف يكون عليك طبعاً

أن تطلب منها وأن تضرع إليها أن توليك هذا الشرف. هل فهمت؟ ولكن لا تقلق. سأكون موجودة. ثم إنك تحبها...

شعر ستيفان تروفيموفتش بدوار. أخذت الجدران تهتز حوله. إن خاطرة رهيبة قد ساورت فكره واستولت عليه فهو لا يستطيع السيطرة عليها والتحكم فيها.

قال بصوت مرتجف: "صديقتي العظيمة" (بالفرنسية)... إنني... إنني... ما كنت لأتخيل أن تقرري أن تزوجيني أخرى... أن تزوجيني امرأة أخرى... فأجابته فرفارا بتروفا قائلة بصوت مسموع:

(1) هذه نقطة تقوي التشابه أو التوازي بين فرخونسكي وبين الأستاذ خرانوفسكي الذي نشر سنة 1854 بحثاً بعنوان: "الملحمة الإسبانية".

- ما أنت بفتاة يا ستيفان تروفيموفتش. الناس لا يزوّجون إلا الفتيات. أما أنت فإنك تزوّج نفسك بنفسك.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يثبت عليها نظرة زائغة: "نعم، استعملت كلمة بدلاً من كلمة أخرى... ولكن... سيان عندي..." (بالفرنسية).

قالت له باحتقار:

- أرى فعلاً أن الأمرين عندك سيّان.

ثم صاحت تقول مستنجدة على حين فجأة:

- رباه! لقد أغمي عليه! ناستاسيا، ناستاسيا! هاتي ماء!

لكنه لم يكن بحاجة إلى ماء. فقد عاد إليه وعيه. وتناولت فراراً بتروفا مظلتها وقالت:

- أرى أن ليس هذا أوان التحدّث إليك في كل هذا...

- نعم، نعم، إنني عاجز عن...

- لكنك ستكون في الغد قد ارتحت وفكرت. ابقَ في البيت. وإذا حدث شيء فابلغني ولو في الليل. ولكن لا تبعث إليّ برسائل، فالرسائل لن أقرأها. غداً، في مثل هذه الساعة تماماً سأجيء لأحصل على جوابك النهائي الذي أرجو أن يكون مرضياً. وافعل ما يجب حتى نكون وحيدين، وليكن البيت نظيفاً. انظر، انظر إلى هذه الوسادة كلها! ناستاسيا، ناستاسيا!

وجاءته في الغد، فوافق طبعاً. كان يستحيل عليه ألا يوافق. لقد كان ثمة ظرف خاص جداً.

8

إن الأرض التي كانت تسمى عندنا أملاك ستيفان تروفيموفتش (وهي تجاور سكفورشنكي وتقدّر بنحو خمسين، "نفساً" كما كان يقال في الماضي) كانت في الواقع ملكاً لزوجته الأولى، وصارت إذن ملكاً لابنها بطرس ستيفانوفيتش فرخوفنسكي. أما ستيفان تروفيموفتش فقد أدارها كوصي على الابن، حتى إذا بلغ الابن رشده أناب عنه أباه في إدارتها بتوكيل

رسمي. وكان هذا الإجراء مفيداً للشباب فهو يتلقى من أبيه ألف روبل في السنة عن أرض أصبحت منذ تحرير الفلاحين لا تغل إلا خمسمائة روبل (وربما أقل من ذلك أيضاً). أما كيف تم اتفاق كهذا، فذلك أمر لا يعلمه إلا الله! على أن الألف من الروبلات إنما كانت ترسلها فرفاراً بتروفنا كل سنة، دون أن يشارك ستيفان تروفيموفتش في دفع كوبك واحد. لقد كان يحتفظ بإيرادات الأرض، حتى لقد انتهى به الأمر إلى تخريبها تماماً: فقد أكرأها لرجل من رجال الصناعة وباع أخشاب غابتها جزءاً بعد جزء، دون أن تعلم بذلك فرفاراً بتروفنا، وكانت أخشابها هذه هي التي تشكل قيمتها الأساسية. وكان في وسعه أن يجني ثمن هذه الأخشاب ثمانية آلاف روبل، ولكنه لم يحصل في الواقع إلا على خمسة آلاف. غير أنه كان يتفق له أن يخسر في النادي مبالغ تبلغ من الضخامة أنه يخشى أن يستعين في سدادها بفرفاراً بتروفنا. فلما علمت فرفاراً بتروفنا بالأمر أخيراً، صرّت بأسنانها من شدة الغضب. وهذا هو بطرس ستيفانوفتش يبلغ أباه أنه سيصل إلى مدينتنا ليتولى بنفسه بيع أرضه، ويكلف أباه بأن يجد له مشترياً في أقرب وقت ممكن. وإذا إن ستيفان تروفيموفتش رجل نبيل كريم منزّه عن المنفعة فقد شعر طبعاً بحرج كبير وارتباك شديد تجاه "هذا الابن الغالي" (بالفرنسية) (لقد رآه آخر مرة قبل تسع سنوات في بطرسبرج، حين كان الشاب ما يزال طالباً. كانت الأرض في البداية يمكن أن يقدّر ثمنها بثلاثة عشر ألف روبل أو بأربعة عشر ألف. أما الآن فيصعب إيجاد مشتري لها بخمسة آلاف. صحيح أن ستيفان تروفيموفتش كان يملك كل الحق في بيع الغابة بحكم التوكيل الرسمي. كما أنه إذا أدخل في حسابه أن مبلغ الألف روبل الذي كان يُدفع لابنه كل سنة في موعده كان مبلغاً ضخماً يفوق ما يستحقه الابن، فإن في إمكانه أن يعدّ نفسه بريء الذمة تجاه ابنه. ولكن ستيفان تروفيموفتش رجل نبيل الطبع عالي النفس. لذلك خطرت بباله فكرة بدت له جميلة جداً، وهي أن يضع على المائدة أمام ابنه أكبر مبلغ يمكن أن يأمل المرء أن تباع به الأرض، أي خمسة عشر ألف روبل، ثم دون أن يشير أية إشارة إلى المبالغ المرسلة حتى ذلك

الحين، يضم "هذا الابن الغالي" (بالفرنسية) إلى صدره ضمّاً قوياً، دافع العينين، وينهي بذلك كل حساب. حتى لقد شرع في وصف المشهد لفر فارا بترونا، ولكن بشيء من الحذر وبعبارات فيها تلميح جعلها تستشف منها أن عملاً كهذا العمل سوف يضيف طابعاً خاصاً على الصداقة التي تربطهما و"الفكرة" التي تجمع بينهما، وسوف يظهر الترفع عن المنفعة وعظمة النفس لدى "الآباء"، ولدى الجيل القديم عامة بالقياس إلى ما تتصف به الشيبية المولعة بالاشتراكية من خفة وطيش. وقد قال لها أشياء أخرى كثيرة أيضاً، ولكن فر فارا بترونا أهملت الحديث وأشاحت عنه، ومع ذلك أعلنت له أخيراً بخشونة أنها مستعدة لأن تشتري الأرض وأنها ستدفع ثمنها الحد الأقصى الذي تستحقه، أي سبعة آلاف روبل أو ثمانية آلاف (والواقع أن من الممكن شراؤها بأربعة آلاف)، أما عن الثمانية آلاف التي أضاعها بيع الأخشاب فإنها لم تنبس بكلمة واحدة.

حدث ذلك قبل مشروع الزواج بشهر. وقد ذهل ستيفان تروفيموفتش من جواب صديقه وبقى مضطرباً اضطراباً شديداً. لقد كان من الممكن في الماضي أن يأمل أن لا يجيء الفتى (حين أقول "يؤمل" فإنني أستعمل كلمة يمكن أن يستعملها غريب، لأن ستيفان تروفيموفتش من حيث هو أب، ما كان له إلا أن يرفض تصور مثل هذا الأمل مستاءً). ولقد كانت الشائعات التي تصل إلينا عن بتروشكا⁽¹⁾ عجيبة. فقليل إنه بعد أن أنهى دراسته (منذ ست سنين)، عاش ببطرسبرج حياة فراغ. ثم علمنا فجأة أنه شارك في نشر نداء ثوري، وأن القضاء أخذ يلاحقه فوراً. ثم عرفنا أنه قد أقام في الخارج، في سويسرا، بعجيف، فأدركنا أنه هرب.

كان ستيفان تروفيموفتش يقول لنا في ذلك الوقت متحيراً أشد التحير: - إنني لمستغرب حقاً. إن بتروشكا "دماغ فقير" (بالفرنسية). صحيح أنه طيب، وشهم، وحساس جداً. وما كان أسعدني في بطرسبرج حين كنت

(1) "بتروشكا": تصغير اسم بطرس تحبباً وتديلاً.

أقارنه بغيره من الشباب. ولكنه "دماغ فقير جداً مع ذلك!" (بالفرنسية). الحق أن مرد هذا كله إلى ذلك النقص في النضج، إلى تلك العاطفية نفسها. إن الشيء الذي يخلب ألبابهم في الاشتراكية إنما هو جانبها العاطفي، المثالي، وليس واقعيتها. إن الشيء الذي يغتنم فيها هو نوع من الروح الشعرية، نوع من الروح الدينية إن صح التعبير، وهم لا يعرفونها إلا سماعاً. ولكن انظروا إلى المأزق الذي يضعني فيه. إن لي هنا أعداء، و"هناك" لي أعداء أكثر. ولسوف ينسبون أخطاءه إلى التأثير السيء الذي يحدثه أبوه فيه. رباه! أبتروشا يصبح زعيماً؟ في أي زمان نعيش؟

ولكن بتروشا لم يلبث أن أرسل عنوانه بسويسرا، حتى لا ينقطع إرسال معاشه إليه: إنه لم يهاجر تماماً. وهاهو ذا الآن يعود إلى بلاده، بعد إقامة أربع سنين في الخارج، ويبلغنا أنه واصل قريباً. إذن ليس هناك أي اتهام موجه إليه. حتى لكأن ثمة أحداً يهتم به ويحميه. إنه يكتب الآن من جنوب روسيا، حيث ذهب لشأن هام جداً لكنه خاص. هذا كله حسن. ولكن من أين يؤتى بالسبعة آلاف أو الثمانية آلاف روبل لإكمال المبلغ الذي كان ستيفان تروفيموفتش يريد أن يقدمه لابنه؟ إن شيئاً ما يلقي في نفس ستيفان تروفيموفتش أن بتروشا الحساس سوف يدافع عن مصالحه دفاعاً قوياً وسوف يطالب بالمبلغ مطالبةً عنيفة. قال لي ستيفان تروفيموفتش يوماً: "لقد لاحظت أن جميع هؤلاء الاشتراكيين المسعورين وهؤلاء الشيوعيين هم في الوقت نفسه أناس بخلاء، وأن نفوسهم نفوس رجال يحبون الكسب والربح، نفوس مالكيين، فعلى قدر ما يُظهرون من التمسك بالاشتراكية يكونون نهمين شرهين. ما مصدر هذا؟ أياكون نتيجةً لعاطفيّتهم أيضاً؟". لا أدري هذه الملاحظة صادقة أم هي غير صادقة لكنني أعرف أن بتروشكا كان قد علم ببيع أخشاب الغابة وعلى علم بأشياء أخرى أيضاً. وكان ستيفان تروفيموفتش يعلم أن ابنه عالم بالحال. ولقد اتفق لي أن قرأت رسائل بتروشا إلى أبيه. كان لا يكتب إليه إلا نادراً، مرة في السنة، أو أقل من ذلك أيضاً. ولكنه في الآونة الأخيرة، بعد أن أبلغ عن وصوله، بعث رسالتين متتاليتين، كانتا قصيرتين جافتين على عهدنا

به، وكاننا لا تشتملان إلا على تعليمات. وكان الأب والابن يتخاطبان بصيغة المفرد دون كلفة، منذ أن كانا بيطرسبرج، وذلك جرياً على "الموضة"، فكانت رسائل بتروشا أشبه بالمكاتيب التي كان السادة في الزمان القديم يبعثونها إلى أقنانهم المكلفين بإدارة أموالهم.

ها هي ذي الثمانية آلاف روبل التي يجب أن تذلل كل مصاعب ستيفان تروفيموفتش وأن تحل كل مشكلاته، ها هي تهبط عليه من السماء فجأة بفضل العرض الذي قدمته فرفارا بتروفنا، حتى أن فرفارا بتروفنا قد أفهمته بوضوح أن المبلغ لن يهبط من السماء إلا على هذا الشرط. وقد قبل ستيفان تروفيموفتش عرضها طبعاً.

وقد أرسل يستدعيني بعد انصراف صديقه فوراً، وحرص على إيصاء بابه دون سائر أصدقائه طوال النهار. وبكى أمامي قليلاً بطبيعة الحال، وأفاض في الكلام وأجاد، مرتبكاً مع ذلك من حين الي حين، وألقى نكتة قائمة على الجناس مصادفة، فسرَّ بها سروراً عظيماً، ثم وافته نوبة مغص خفيفة. الخلاصة أن كل شيء جرى وفقاً للقواعد والأصول. وفي النهاية، استل من أحد الأدراج صورة زوجته الألمانية الحبيبة التي توفيت منذ عشرين عاماً، وأخذ يخاطبها بلهجة شاكية: "هل ستغفرين لي؟". كان يبدو على وجه العموم ضائعاً كل الضياع. ومن أجل أن نسرِّي عن نفسيينا شربنا زجاجة خمرة، ثم لم يلبث أن نام نوماً عميقاً. وفي صباح الغد، عقد ربطة عنقه عقداً فنياً، وعني بهندامه عناية كبيرة، متوقفاً أمام المرأة مراراً ومراراً. وقد عطَّر منديله، عطَّره خفيةً، ولكنه ما إن رأى فرفارا بتروفنا من النافذة حتى أسرع يأخذ منديلاً آخر، وأخفى المنديل الأول تحت الوسادة.

قالت فرفارا بتروفنا مجبذة حين أعلن لها موافقته:

- عظيم. إنك بهذا تتخذ قراراً نبيلاً. ذلك من جهة أولى. ومن جهة ثانية تسمع صوت العقل الذي قلماً تكثرث به حين يتصل الأمر بشؤونك الشخصية.

ثم أضافت تقول وهي تنظر إلى عقدة ربطة عنقه البيضاء:

- على كل حال، لا داعي إلى السرعة. احفظ السر الآن، وسوف أصمت أنا أيضاً فلا أقول شيئاً. في القريب يحين عيد ميلادك، فأصطحبها معي. سوف تقيم حفلة شاي في المساء. ولكن أرجوك. لا خمر ولا مقبّلات. على أنني سأتولى تدبير هذا كله بنفسي. ادعُ أصدقاءك. سنشترك أنا وأنت في اختيار من سندعوهم. وقبل الحفلة بيوم تُجري حديثاً بينك وبينها إذا لزم الأمر. وفي أثناء السهرة نلمح أنا وأنت إلى الزواج تلميحاً دون أن نعلنه إعلاناً رسمياً. وبعد ذلك، بعد خمسة عشر يوماً، نحتفل بالزفاف احتفالاً متواضعاً إلى أبعد حد ممكن... فإذا انتهى الاحتفال كان في إمكانكما أن تسافرا معاً إلى مكان ما، إلى موسكو مثلاً. وقد أصبحكما... وإنما الشيء الأساسي الآن هو أن لا تقول لأحد شيئاً.

دهشس ستيفان تروفيموفتش. وحاول أن يبين لصديقه أنه لا يمكنه أن يتصرف على هذا النحو، فلا بد له من حديث مع خطيبته، ولكن فرفارا بتروفا غضبت فجأة وقاطعته غاضبة تقول:

- ما حاجتك إلى التحدث معها؟ أولاً، من الممكن أن لا يتم الأمر... فدمدم الخطيب يقول مذهولاً:
- كيف هذا؟

- نعم، سوف أرى. على أن كل شيء سيتم على نحو ما قلت لك. لا تقلق. سوف أهيء داشا. لا حاجة بك إلى التدخل في هذا. سيُقال وسيُفعل كل ما يجب أن يُقال وأن يُفعل. ليس هذا شأنك. لماذا تهتم بهذا الأمر؟ ما عسى يكون دورك فيه؟ لا تجيء إليّ ولا تكتب. تظاهر بأنك لا تعرف شيئاً، أرجوك. وسأصمت أنا أيضاً.

هكذا رفضت فرفارا بتروفا أن تفصح عما بنفسها، وخرجت مضطربة اضطراباً واضحاً. لكن موافقة ستيفان تروفيموفتش بهذه السرعة الكبيرة قد شدهتها. وأسفاه! لقد كان ستيفان تروفيموفتش لا يعرف الوضع الذي هو فيه، وما يزال لا يميز بعض جوانب المسألة. بالعكس: لقد لاحظتُ لديه نبرة جديدة فيها استعلاء واستخفاف. إنه يصطنع التكبر. لقد هتف يقول لي ذات مرة وقد وقف أمامي رافعاً ذراعيه إلى السماء:

- يعجبني هذا. هل سمعت؟ سوف تفعل ما من شأنه أن يجعلني أرفض في آخر الأمر. إن من الممكن أن ينفد صبري أنا أيضاً... فأقول لا. "ابق في بيتك، ليس هذا شأنك". ولكن لماذا يجب أن أتزوج حتماً؟ لأن هواها شاء ذلك لا أكثر؟ ولكنني رجل جاد، ويمكنني أن أرفض الخضوع لنزوات سخيفة تقوم في نفس امرأة شاذة! إن عليّ واجبات نحو ابني... نحو نفسي. إنني أضحي. ألا تفهم هي هذا؟ لعلمي إنما وافقت لضجري من الحياة ولأن الأمور عندي سواء. لكنها ستثير حنقي في النهاية إلى حيث لا تستوي عندي الأمور، فأغضب وأرفض. "ثم إن المسألة مضحكة... (بالفرنسية) ما عسى يقولون في النادي؟ ما عسى يقول... لبيوتين؟" من الممكن أن لا يتم الأمر.. ما رأيك. هذا ما ينقص.. ذلك.. ذلك.. أراني عاجزاً عن العثور عن الكلمة المناسبة.. "إنني كرجل محكوم عليه بالأشغال الشاقة، إنني أشبه برجل مثل بانديجيه⁽¹⁾ (بالفرنسية)... إنني رجل حُصر عند حائط!...

وفي الوقت نفسه، من خلال جميع هذه الشكاوي، كان يلوح نوع من غرور يتصف بالتزوة وقلة الاكتراث. وشربنا في المساء زجاجة خمرة أخرى

(1) "بانديجيه": هو رجل حرفته النساء، أعار ملابسه للأمير لويس نابليون ليُسَهِّلَ له الهرب من سجنه سنة 1846، يريد فرخوفنسكي أن يقول إذ يشبه نفسه ببانديجيه إنه ليس إلا شخصاً لا قيمة له.

الفصل الثالث

خطايا الغير

1

انقضت ثمانية أيام، واتسعت القضية مزيداً من الاتساع. يجب أن أذكر عابراً أنني عرفت في أثناء هذا الأسبوع التعس لحظات أليمة جداً. لقد كان عليّ، بصفتي نجياً حميماً لستيفان تروفيموفتش، أن أقضي كل وقتي تقريباً بقرب هذا الخطيب الشقيّ الحزين. ورغم أننا لم نر أحداً طوال ذلك الأسبوع الذي قضيناه في وحدة تامة وعزلة كاملة، فإن الشيء الذي يعذّبه أكثر من أي شيء آخر هو الشعور بالخزي والعار حتى تجاهي أنا، حتى أنه كلما صار حني مزيداً من المصارحة أصبح يحقد عليّ بسبب ذلك مزيداً من الحقد. وكان من فرط وجله يتخيل أن المدينة كلها على علم بالموقف، فكان يخشى أن يظهر لا لأعضاء النادي فحسب، بل لأصدقائه الحميمين أيضاً. لذلك كان لا يخرج ليقوم بنزهته الصحية إلا في المساء حين يخيم الظلام حالاً.

انقضت ثمانية أيام وهو ما يزال يجهل أهو خطيب أم لا. لقد ظل الموقف غامضاً رغم كل ما فعل. لم يستطع أن يرى خطيبته، حتى لقد كان يتساءل: هل يجب عليه أن يعدها خطيبته فعلاً؟ هل يجب أن يأخذ أقوال فرفاراً بتروفنا مأخذ الجد؟ إن فرفاراً بتروفنا مصرة على أن لا تستقبله، لا يدري أحد لماذا! وقد أجابت على إحدى الرسائل الأولى التي بعثها إليها (وقد كتب إليها عدداً كبيراً من الرسائل) أجابت ترجوه أن يجنبها زياراته ورسائله إلى حين، لأنها

مشغولة جداً، وتقول له إن هنالك أشياء هامة كثيرة تريد أن تنقلها إليه، لكنها تنتظر للقيام بهذا دقيقة من فراغ، وإنها متى "حان الحين" (بالفرنسية) ستبلغه الموعد الذي تستطيع أن تستقبله فيه، أما الرسائل فإنها تنبه إلى أنها سوف تردّها إليه دون أن تفضّها، لأنها تعدّها "عبثاً صبيانياً محضاً". لقد قرأت أنا هذه البطاقة: فهو الذي أطلعني عليها.

ومع ذلك، كانت هذه الفظاعات كلها وكانت حالة الشك والبلبلّة التي هو فيها، كان ذلك كله لا يُعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الهم الأكبر الذي كان يعذّبه عذاباً رهيباً بلا رحمة ولا هواة. فبسبب ذلك الهم الفظيع إنما نحل جسمه وتشبّطت عزيمته وخارت قواه، ومع ذلك الهم إنما كان يأتي شعوره بالخزي والعار. لكنه كان لا يريد أن يبوح لي به مهما يكن من أمر، ويؤثر أن يكذب وأن يراوغ كصبي صغير إذا دعا الداعي. ومع ذلك كان يستدعيني كل يوم، عاجزاً عن البقاء ساعتين دون أن يراني، محتاجاً إلى حضوري كاحتياجه إلى الهواء أو الماء.

وكان هذا التصرف يؤذي شعوري بعض الإيذاء. وكنت قد اكتشفت سره الكبير منذ مدة طويلة طبعاً، ونفذت إلى دخيلة نفس ستيفان تروفيموفتش. كنت مقتنعاً أعمق الاقتناع حينذاك أن إزاحة النقاب عن ذلك السر، عن ذلك الهم الرئيسي الذي يعذّب صاحبنا، ليس يشرفه، وكنت، وأنا في عنفوان شبابي في ذلك الوقت، أستاذ من عامية عواطفه وبشاعة شكوكه وشبهاته. ولعلني كنت لحماستي، وربما لتعبي من دور النجي ذاك الذي كنت أقوم به، أبالغ في اتهامه وأغلو في إدانته. حتى لقد قسوت فدفعته إلى أن يعترف لي بكل شيء، وأدركت مع ذلك أن هناك أشياء يصعب الاعتراف بها. وكان هو أيضاً قد نفذ إلى دخيلتي، أي أنه أدرك أنني نفذت إلى دخيلته وأنني مستاء منه ناظم عليه، وكان حانقاً من أنني ناظم عليه وأنني نفذت إلى دخيلته. لعل غيظي كان أحمقاً مسكيناً، ولكن خلوة شخصين تسيء إلى الصداقة الحقيقية أحياناً وتنالها بأذى. ولقد كان يدرك بعض جوانب وضعه إدراكاً واضحاً، وكان يحكم عليها بكثير من رهافة الفكر حتى لا يكون الأمر أمر النقطة التي يرى

أنه مضطر أن يبقيا سرّاً لا يبوح به.

كان يقول لي في بعض الاحيان متكلماً عن فرفاراً بتروفنا:

- آه... لشدّ ما تغيرت! لقد كانت تبدو في محادثاتها شخصاً آخر تماماً!... تصور أنها كانت تجيد الحديث حينذاك! هل يمكن أن يصدق أحد أنها كانت لها أفكار، أفكار شخصية؟ لقد تغير الآن كل شيء. إنها تقول إن ذلك كله لم يكن إلّا ثروة أصبحت اليوم بالية. إنها تحتقر الماضي. ما هي الآن إلّا تاجرة، إلّا مديرة أعمال. لقد قست نفسها... وهي لا تنفك تغضب وتسخط بغير انقطاع...
سألته:

- ولكن ما الذي يغضبها ويسخطها الآن ما دمت قد قبلت مطالبها؟
فألقي علي نظرة مأكرة وقال:

- "يا صديقي العزيز" (بالفرنسية)، لو لم أقبل مطالبها لزعلت زعلاً شديداً، شد...يداً! أقل شدة مع ذلك منه الآن وقد قبلت.
وارتاح ستيفان تروفيموفتش لهذه الكلمة الموفقة التي اهتدى إليها، وشعر بتحسّن في حالته النفسية، وأفرغنا في المساء زجاجة خمر أخرى. لكن مزاجه الحسن لم يدم طويلاً، فما جاء الغد حتى كان صاحبنا أشدّ تهجماً وانهيأراً مما كان في أي وقت مضى.

والشيء الذي كان يضايقني أكثر مما يضايقني أي شيء آخر مع ذلك هو أنه لم يعزم على ما كان يجب أن يعزم أمره عليه، وهو أن يمضي يزور السيدة دروزدوف وابنتها اللتين وصلتا منذ مدة قصيرة وكانتا ترغبان من تلقاء نفسيهما، كما قيل لنا، في رؤية ستيفان تروفيموفتش. إنهما لا تبرحان تسألان عن أخباره، فكان هذا يفاقم عذابه. إنه يتكلم دائماً عن ليزافتا نيقولايفنا بحماسة تدهشني وتثير في نفسي الاستغراب. صحيح أنه كان لا يزال يرى فيها الطفلة التي طالما أحبها كل الحب. ولكنه كان يتصور أيضاً - لا أدري لماذا - أنه سيجد بقربها سكينه لنفسه وراحة من تباريح عذابه، بل وأنها سوف تساعد في تبديد شكوكه وحل مشكلاته. كان يتوقع أن يجد

في ليزافتا نيقولايفنا إنسانة خارقة. ورغم ذلك لم يستطع أن يعزم أمره على زيارتها، مع أنه كان ينتوي أن يفعل ذلك كل يوم. وكنت من جهتي أرغب أشد الرغبة في أن أقدم إليها وأن أركب عندها، وكنت لا أستطيع أن أعول في ذلك إلا على ستيفان تروفيموفتش. كنت أراها أحياناً كثيرة، في الشارع طبعاً، حين كانت تنتزه على الحصان مرتدية ملابس الفرسان (كانت تمتطي صهوة جواد رائع)، في صحبة ضابط شاب جميل يقال أنه قريبها، فهو ابن أخت الجنرال دروزدوف. كانت هذه اللقاءات تملأ نفسي بإحساس خارق، ولكن عماوتي لم تدم زمناً طويلاً، فسرعان ما أدركت بنفسي مدى ما يشتمل عليه حلمي من خيال. على أن هذا الحلم قد هزني هزاً عميقاً مهما تكن مدته قصيرة. فمن الممكن أن يدرك القارئ مدى ما كنت أشعر به من حنق على صديقي حين أراه يصبر على حبس نفسه في البيت لا يخرج منه أبداً.

إن جميع أعضاء حلقتنا الصغيرة قد أبلغوا منذ البداية أن ستيفان تروفيموفتش لن يستطيع أن يستقبل احداً، وأنه يرجوهم أن لا يزعموه. وقد أصرّ رغم نصائحي على أن يضيفي على هذا الإبلاغ شكلاً رسمياً. فطُفْتُ على جميع الأصدقاء تنفيذاً لطلبه، شارحاً لكل واحد منهم أن فرفاراً بتروفا قد كلفت شيخنا (فكذلك كنا نلقب ستيفان تروفيموفتش فيما بينا) بعمل مستعجل جداً هو أن يرتب مراسلات لها قديمة تمتد على عدة سنين. لذلك أوصد باب بيته دون جميع الناس إلا أنا الذي أقوم بمساعدته في هذا العمل. وكان ليبوتين هو الشخص الوحيد الذي لم يتسع وقتي للإبلاغه. فكنت أرجئ زيارتي له من يوم إلى يوم، لأنني كنت أخشى أن أذهب إليه في حقيقة الأمر. كنت أعرف سلفاً أنه لن يصدق كلمة واحدة مما سوف أذكره له من إيضاحات وشروح، وأنه لن يلبث أن يتصور أن هذه الإيضاحات والشروح تخفي سرّاً من الأسرار. فما إن أخرج من عنده حتى يمضي يستطلع ويستعلم ويملاً المدينة بالنمائم والأقاويل والشائعات. وفيما كنت أحدث نفسي بهذا الكلام ذات مرة، إذا أنا ألقاه في الشارع مصادفة. فادركت أن أصدقاءنا الذين أبلغتهم الأمر كانوا قد أطلعوه عليه. شيء غريب: إنه لم يظهر أي رغبة في

الاطلاع، بل ولا سألني على ستيفان تروفيموفتش، ولكن حين أخذت أعتذر له عن تأخري في إبلاغه، قاطعني وغير مجرى الحديث فوراً. الحق أن هناك أشياء كثيرة كان يريد أن يقصها علي، كان يبدو مهتماً جداً شديداً، وقد سرّه أعظم السرور أن أعرّ على مستمع. أطلعني في البداية على أخبار المدينة فحدّثني عن وصول امرأة الحاكم، وعن "مشاريعه الجديدة" ثم قال لي إنه تشكّل في النادي حزب معارضة، وأن الناس في كل مكان أصبحوا لا يتحدثون إلا عن الأفكار الجديدة التي تسوء بعض الفئات كثيراً من جهة أخرى، وهلم جرّاً... ظل يتحدث طوال ربع ساعة، وبلغ من الإجادة والبراعة في الحديث أنني لم أستطع أن أعزم أمري على مقاطعته. لقد كنت أكرهه. ولكن يجب أن أعترف أنه يملك موهبة حمل الآخرين على الإصغاء إليه، ولا سيما حين يطلق العنان لغضبه. في رأيي هذا الرجل جاسوس بطبيعته، بفطرته. إنه مطلع دائماً على آخر الأنباء، وعلى جميع أسرار مدينتنا، وعلى الحكايات الفاضحة خاصة. وكان الناس يدهشون حين يرون مدى اهتمامه بأمور لا تعنيه في شيء. لقد خيل إليّ دائماً أن السمة الأساسية في طبعه هي الحسد. فلما رويت لستيفان تروفيموفتش في المساء أنني لقين لبيوتين، وقصصت عليه الحديث الذي جرى بيننا اضطرب اضطراباً شديداً دُهِشت له، وألقى عليّ سؤالاً غريباً. قال: "يعلم لبيوتين أم لا؟" فحاولت أن أبيّن له أن من المستحيل أن يعلم لبيوتين بالأمر، وأن أحداً لا يمكن أن يكون قد حدّثه عن مشروع فرفار ابتروفنا. ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يصدّق. وختم كلامه قائلاً على نحو غير متوقع:

- قد لا تصدّقني، ولكنني مقتنع بأنه ليس مطلعاً على "وضعنا" بجميع تفاصيله فحسب، بل هو يعرف أكثر من ذلك أيضاً، يعرف أشياء لا نعرفها نحن بعد، لا أنا ولا أنت، وربما لن نعرفها في يوم من الأيام، أو نعلم بها حين يكون الأوان قد فات، وحين تكون الجسور قد قُطعت.

لم أقل كلمة واحدة. رغم أن هذه الكلمات كانت زاخرة بالدلالة. وخلال الأيام الخمسة التي أعقبت ذلك لم يشر أيّ إشارة إلى لوشين. وكنت أرى

رؤية واضحة أن ستيفان تروفيموفتش نادم كل الندم على أنه انجرف في الكلام فكشف لي عن شكوكه وشبهاته.

2

في ذات صباح، حوالي الساعة الحادية عشرة (كان ذلك بعد قبول ستيفان تروفيموفتش عرض فر فارا بتروفا بسبعة أيام أو ثمانية)، بينما كنت على عادتي مسرعاً إلى بيت صديقي المسكين، وقعت لي حادثة صغيرة. لقد لقيت كارمازينوف، "الكاتب الكبير"، كما كان يلقبه ليوتين. كنت قد قرأت كارمازينوف منذ طفولتي. إن الجيل الماضي، وحتى الجيل الحاضر يعرفان رواياته وقصصه معرفة جيدة. أما أنا فكنت أجد فيها لذتي. لقد كانت فرحة طفولتي ومراهقتي. ثم فترت حماستي بعض الفتور بعد ذلك. إن الرواية المشتعلة على رأي، التي أخذ ينشرها، تعجبنى أقل مما كانت تعجبنى كتبه الأولى الزاخرة بالصدق والشعر. أما كتبه الأخيرة فقد أصبحت لا تهز في نفسي شيئاً البتة.

أستطيع أن أقول بوجه عام - مع أنني لا أجرؤ أن أفصح عن رأيي في موضوع حرج إلى هذه الدرجة - إن جميع هؤلاء الكتاب الذين هم من كتاب الطبقة الثانية والذين يُعدّون أثناء حياتهم عباقرة تقريباً، يغيبون فجأة دون أن يتركوا أثراً في الذاكرة حين يموتون. لا هذا فحسب، بل إنهم كثيراً ما يرون أنفسهم مهجورين منسيين حتى أثناء حياتهم، متى جاء جيل جديد فحل محل الجيل الذي صنع نجاحه. وهذا يحدث في بلادنا على نحو مفاجئ عجيب: فكان الأمر أمر تغير في ديكور المسرح. لكن الأمور لا تجري هذا المجرى بالنسبة إلى كتاب مثل بوشكين أو جوجول أو موليير أو فولتر، أو سائر أولئك الرجال العظماء الذين قالوا أقوالاً جديدة أصيلة. ويجب أن نقول من جهة أخرى إن كتاب الطبقة الثانية يسفون في أواخر أيامهم المجيدة إسفافاً يدعو إلى الرثاء لهم والإشفاق عليهم، ويموتون وهم ما زالوا أحياء. وكثيراً ما يحدث لكاتب ظل الناس ينسبون إليه أفكاراً عميقة منذ مدة طويلة،

وظلوا يعتقدون أنه سيؤثر في المجتمع تأثيراً قوياً، أقول: كثيراً ما يتفق لمثل هذا الكاتب أن ينكشف أمره عن فقر وفراغ يبلغان من القوة أن أحداً لا يأسف بعد ذلك على أنه نضب بتلك السرعة الكبيرة. غير أن هؤلاء الشيوخ الشائين لا يلاحظون ذلك، ويغضبون. إن غرورهم، ولا سيما في أواخر أيام حياتهم الأدبية يبلغ في بعض الأحيان أبعاداً تدعو إلى أشد الدهشة والاستغراب. فهم يعدّون أنفسهم آلهة على الأقل!

كان يروى عن كارمازينوف أنه يحرص على علاقاته بأصحاب المراكز العالية وبالمجتمع الأرستقراطي حرصاً أشد من حرصه على سلامة روحه. يقال إنه يستقبلك فاتحاً ذراعيه ويمدحك ويتملقك ويفتنك بلطفه وطيبته إذا كان بحاجة إليك أو إذا كان أحد قد أوصاه بك أخيراً. ولكنه ما إن يلتقي أول أمير أو أول كونتيسة أو أول شخص يخشى رأيه فيه، حتى يرى أن من أقدس واجباته أن يظهر لك أعظم احتقار وأن يبعذك على الفور كإبعاد قشة أو ذبابة قبل أن يتسع وقتك للابتعاد من تلقاء نفسك. إنه يتصور جاذباً كل الجد أن ذلك برهان على أعظم الامتياز والرقى. وهو رغم قوة إرادته ورغم قدرته على السيطرة على نفسه ورغم اختلاطه بالناس ومعرفته بالبشر، يبلغ من الغرور وحب الظهور في نفسه أنه يستحيل عليه أن يخفي سرعة تأذيه ككاتب، حتى في البيئات التي لا تهتم بالأدب، فإذا اتفق مصادفة أن أظهر له أحد شيئاً من قلة الاكتراث، فإن غيظه يبلغ من الشدة أن يحتفظ بذكرى ذلك إلى الأبد ويبحث عن فرصة للانتقام.

كنت قد قرأت له، منذ عام، مقالة في إحدى المجلات، إنها مقالة تشتمل على ادعاء وسذاجة في آن واحد، فهو يصطنع فيها مظهر الشاعر ومظهر عالم النفس معاً. كان يصف في هذه المقالة غرق باخرة قرب الساحل الإنكليزي. لقد شهد بنفسه جهود رجال الإنقاذ وموت عدد كبير من ركاب الباخرة غرقاً في الأمواج. ولكن تلك المقالة، وهي مقالة طويلة فيها كثير من الإسهاب والإفاضة، لم يكن لكتابتها من هدف إلا حمل الناس على الإعجاب بكتابتها، فكان كل سطر من سطورها يقول لهم: "انظروا إليّ. إليكم ما شعرت به في

تلك اللحظات. ما لكم ولذلك البحر الهائج وتلك الصخور وذلك المركب المحطّم؟ ألم ترسم لكم ريشتي لوحة رائعة؟ ما بالكم تنظرون إلى تلك المرأة الغريق التي تضم بذراعيها طفلاً ميتاً؟ أحرى بكم أن تعجبوا بي أنا، أنا الذي لم أستطع احتمال رؤية ذلك المشهد فأشحت عنه. ها أنذا أدير له ظهري وقد استبد الرعب والهول بنفسي، فلا أقوى على إلقاء نظرة إلى وراء، وأغمض عيني... أليس هذا كله شائعاً؟"⁽¹⁾. حين عبّرت عن انطباعي هذا لستيفان تروفيموفتش وافقني على رأيي.

لما انتشرت في المدينة شائعة وصول كارمازينوف قريباً، شعرت طبعاً بأقوى الرغبة في أن ألقاه وأن أتعرف إليه إذا أمكن ذلك. وكنت أعلم أنني أستطيع التوصل إلى ذلك بفضل ستيفان تروفيموفتش، لأنهما كانا في الماضي صديقين. وها أنذا أراني أمامه فجأة في مفرق طرق، فسرعان ما أتعرفه: كانوا قد دلوني عليه قبل ثلاثة أيام بينما كان ماراً في عربة مع زوجة حاكمنا.

إنه شيخ يتكلف العظمة (على أن عمره لا يزيد على خمسين سنة)، زاهي المحيّا، تحفّ بوجهه عقفات شعر شائبة تخرج من تحت قبعة عالية وتلفّف حول أذنيه الصغيرتين المتوردتين. إن هذا الوجه الذي عني صاحبه بحلافته لم يكن على جانب كبير من الجمال بشفتيه الطويلتين الرقيقتين اللتين تنمان عن الحيلة والمكر، وبأنفه البدين وعينه الصغيرتين النافذتين الذكيّتين. وكانت ملابسه تبدو مهترئة. إنه يرتدي نوعاً من معطف خاص ربما كان يرتديه الناس في هذا الفصل بسويسرا بشمال إيطاليا. ولكن جميع ملحقات زيتته الصغيرة، كأزرار الأكمام، أو الياقة المضافة، أو النظارة المعلقة بشريط أسود، كل ذلك كان كما يكون لدى أناس يعنون بحسن هندامهم أشدّ العناية. إنني لعلّى يقين من أنه يتتعل في الصيف جزمتين رقيقتين زاه لونهما مع أزرار

(1) بين يوري نيكولسكي في كتيب أصدره بعنوان "تورجنيف ودوستوفسكي" في صوفيا سنة 1921، أن دوستوفسكي يحاكي في هذه الصفحة تورجنيف الذي يلح خاصة على مشاعره الخاصة، والذي أشاح وجهه أثناء "تعذيب ترويهان"، توبة لأعضابه.

من عروق الؤلؤ على جانبيهما.

حين صادفته كان واقفاً في ركن شارع ينظر في ما حوله بانتباه. فلما لاحظ أنني أتأمله بكثير من الاهتمام، سألني بصوت مترقق متكلف لكنه مع ذلك حاد كالصراخ:

- من فضلك، ما أقصر طريق للذهاب إلى "شارع الأبقار"؟

فهتفت أجيبه فجأة وقد انفعلت انفعالاً قوياً:

- "شارع الأبقار"؟ إنه قريب جداً من هنا. اسلك هذا الشارع مستقيماً

حتى الشارع الثاني على اليسار.

- أشكرك كثيراً.

لعن الله تلك الدقيقة! أعتقد حقاً أنني كنت وجلاً، وأنني كنت أتأمله كالمتعبد. وسرعان ما لاحظ هو ذلك، وأدرك طبعاً أنني عرفته، وأنني أعلم من هو، وأنني قرأت كتبه، وأنني أحترمه منذ طفولتي، وأنني أشعر أمامه بوجل شديد، وأنني أتأمله بحب يبلغ العبادة. فابتسم، وحياتي بحركة من رأسه، وسلك الشارع الذي دللته عليه.

لا أدري لماذا عدت أدراجي لأتبعه. لا أدري لماذا سرت إلى جانبه قرابة عشر خطوات. وها هو ذا يسألني بصوت حاد:

- هل في وسعك أن تدلني على أقرب محطة للعربات؟

ياله من صوت مزعج!

- محطة عربات؟ إن أقرب محطة للعربات توجد... قرب الكاتدرائية...

والعربات موفورة دائماً في الميدان.

قلت له ذلك وأوشكت أن اسرع لآتيه بعربة. أظن أن هذا ما كان ينتظره مني. ولكنني ثبت إلى صوابي في تلك اللحظة نفسها فلم أتحرك. لكنه لاحظ حركتي التي لم أكد أهم بها، وظل ينظر إليّ مبتسماً ابتسامته السيئة تلك. وعندئذ إنما حدث شيء لن أنساه ما حييت.

لقد سقطت منه، على حين فجأة، حقيبة صغيرة كان يحملها بيده اليسرى. والحق أنها لم تكن حقيبة بمعنى الكلمة، فهي أقرب إلى أن تكون علبة أو قل

محفوظة من نوع المحافظ التي كانت تحملها السيدات في الزمان القديم. على أنني لا أدري ماذا كانت تلك الحقيقة على وجه الدقة. ولكنني أعرف أنني أسرعت أهم أن أرفعها له عن الأرض فيما يبدو.

إنني على ثقة تامة بأنني لم أرفعها، ولكن لا يمكن للمرء أن لا يدرك معنى الحركة التي قمت بها، لقد استحال علي أن أخفي معنى هذه الحركة. فاحمّر وجهي كأبله. وسرعان ما استمد ذلك الرجل الماكر من هذه الظروف كل ما كان يمكن أن يستمده منها. قال لي برقة حين رأى أنني لن أنحني على الأرض لأرفع الحقيقة بنفسني: - لا تزعج نفسك. سأرفعها أنا.

ولكنه رفع الحقيقة كما لو أنه يسبقني إلى ذلك سبقاً، وحياتي مرة أخرى بإشارة من رأسه، وتابع طريقه وقد تركني مسحوقاً. الخلاصة: لكانني رفعت له حقيته فعلاً. ولبثت خمس دقائق أعد نفسي مجللاً بالخزي والعار إلى الأبد. لكنني حين وصلت إلى قرب بيت ستيفان تروفيموفتش انفجرت ضاحكاً. لقد بدا لي هذا اللقاء، على حين فجأة، باعثاً على أكبر الضحك، فسرعان ما قررت أن آتخذ منه موضوع تسلية لصاحبنا، فأقص عليه المشهد كله مقلداً تفاصيله، مسرياً به عنه.

3

ما كان أشد دهشتي حين رأيت ستيفان تروفيموفتش في هذه المرة متغيراً كل التغير. صحيح أنه ما إن رأيته حتى أسرع إليّ بنوع من النهم، وأخذ يصغي إليّ. ولكنه كان زائغ النظر شارداً الفكر بحيث كان واضحاً أنه لم يفهم ما كنت أقوله له. ومع ذلك فما كدت انطق باسم كارمازينوف حتى غضب فجأة، وصرخ يقول حانقاً:

- لا تكلمني عنه، لا تنطق اسمه. خذ. انظر. اقرأ هذا.

قال ذلك وهو يفتح درجاً ويلقي على المائدة ثلاث قطع من ورق هي ثلاث رسائل من فرفاراً بتروفا كتبها على عجل بالقلم الرصاص كيفما

اتفق. فأما الأولى فهي من أمس الأول، وأما الثانية فقد وصلت أمس، وأما الثالثة فقد جيء بها قبل وصولي بساعة. والرسائل الثلاث كلها تتكلم عن كارمازينوف. إنها خالية من أي قيمة وشأن، وهي تكشف عن القلق السخيف الطموح الذي تعانيه فرفاراً بتروفا خائفة أن لا يزورها كارمازينوف. وإليكم نص الرسالة الأولى (ولعل رسائل أخرى كانت قد سبقتها).

"إذا تنازل أخيراً فزارك اليوم فلا تقل عني كلمة واحدة، أرجوك. لا تُشر إليّ أية إشارة. لا تأتِ على ذكرى. لا تذكره بوجودي."

"فرفاراً ستفروجين"

وتقول رسالة أمس ما يلي:

"إذا صح عزمه أخيراً على أن يزورك هذا الصباح، فالأكرم في رأيي أن لا تستقبله. تلك هي وجهة نظري. لا أدري ما رأيك أنت."

"فرفاراً ستفروجين"

وهذا نص الرسالة الأخيرة:

"أنا واثقة بأن بيتك مليء بالغبار والتراب الآن، وأن دخان التبغ يجعل الهواء فاسداً يستحيل استنشاقه. سوف أرسل إليك ماريًا وفوماً. فيُرتَّب كل شيء بعد نصف ساعة. لا تزعجهما، اذهب إلى المطبخ إلى أن تنهيا عملهما. أبعث إليك بسجادة من بخاري، وبإناءين من الخزف الصيني. كنت أنتوي إهداء هذه الأشياء إليك منذ مدة طويلة. وأبعث إليك عدا لوحة تينيه⁽¹⁾ (إلى وقت محدود). أما الإناءان ففي وسعك أن تضعهما على النافذة، وأما لوحة تينيه فعلقها على يمين صورة جوته. فهناك تبرز، لأن الضوء في هذا المكان يكون ساطعاً على الدوام في الصباح. فإذا جاءك أخيراً فأحسن استقباله وأكرم وفادته وعامله بهذيب مرهف، ولكن حاول أن لا تتكلم إلا في أمور تافهة، في موضوع علمي مثلاً، وتصرف تصرفاً عادياً فكأنكما

(1) "لوحة تينيه": كانت لوحات دانييل تينيه (1690-1610) مقدرة تقديراً عظيماً في ذلك في الأوان بروسيا، كسائر آثار المدرسة الفلمنيكية على كل حال.

لم تفترقا إلّا أمس. لا تقل كلمة واحدة عني. قد أجيء إليك لحظة في هذا المساء"

"فرارا ستفروجين"

"حاشية: إذا لم يجيئ اليوم، فلن يجيئ أبداً"

أذهلني قراءة هذه الرسائل: لم أستطع أن أفهم كيف يصير في حالة كهذه الحالة لأمر تافهة هذه التفاهة كلها. ولكن حين رفعت إليه نظرة مستفهمة، لاحظت أنه انتهاز فرصة انشغالي بالقراءة فأبدل ربطة عنقه العادية البيضاء بربطة حمراء. وكانت قبعته وعصاه موضوعتين على المائدة. وكانت يداه ترتجفان، وكان وجهه شديد الشحوب والاصفرار.

صاح يقول خارجاً عن طوره، ردّاً على نظرة الدهشة التي رآها في عيني: - لا يهمني قلقها هذا كله البتة! "إنني لا أعبأ به إطلاقاً" (بالفرنسية). تتجاسر أن تضطرب من أجل كارمازينوف بينما لا ترد على رسائلي أنا. هذه رسالة أعادتها إلي دون أن تفضها. إليك الرسالة. هي على المائدة تحت هذا الكتاب، تحت كتاب "الرجل الذي يضحك".⁽¹⁾ ليس يعني أن تتعذب من أجل نيقو... لنكا. "أنا لا أبالي بهذا كله، وأطالب بحريتي! ليذهب كارمازينوف إلى الشيطان! لتذهب لمبكه إلى الشيطان!" (بالفرنسية). لقد خبأت إنائها في حجرة المدخل، ودسّست لوحة تينيه في الصندوق، وطالبت بأن تستقبلني فوراً. هل سمعت؟ طالبت باستقبالي مطالبة. أرسلت إليها مع ناستاسيا ورقة صغيرة على عاداتها هي، وكتبت بالقلم الرصاص، ولم أضع الورقة في ظرف. وأنا الآن أنتظر. أريد أن تعلن داريا بافلوفا رغبتها بلسانها هي، أمام السماء، أو بحضورك على الأقل. "سوف تدعمني أنت، صديقاً وشاهداً، أليس كذلك؟" (بالفرنسية). لا أريد أن أشعر بخجل، لا أريد أكاذيب، لا أريد أسراراً. لن أقبل أسراراً في هذه القضية! يجب أن

(1) "الرجل الذي يضحك": رواية فكتور هوجو التي ظهرت سنة 1869. وكان دوستوفسكي يحب روايات فكتور هوجو كثيراً.

يُعرف لي بكل شيء، بصراحة، ببساطة، بنبل... وعندئذ... عندئذ قد أدهش الجيل كله بشهامتي، بعظمة نفسي!... أنا جرو يا سيد؟
بهذا السؤال ختم كلامه وهو يرشقني بنظرة تهديد، كأنني أنا الذي أعدّه جرواً.

ألححت عليه أن يشرب قليلاً من الماء. إنني لم أراه في مثل هذه الحالة قبل ذلك قط. كان وهو يتكلم يركض من طرف من الغرفة إلى طرفها الآخر. ولكنه تستمر أمامي فجأة على وضع فيه غطرسة، وقال وهو يشملني من القدمين إلى الرأس:

- هل تظن حقاً، هل تستطيع أن تفترض أنني، أنا ستيفان تروفيموفتش، لن أملك من القوة النفسية ما يمكنني من أن أحمل كيس، كيس التسول، وأن أضعه على كتفي، وأن أعبّر الباب، منصرفاً إلى الأبد، إذا كان الشرف ومبدأ الحرية العظيم هما اللذان يقتضيان ضلك؟ ليست هذه أول مرة يحدث فيها لستيفان فرخوفنسكي أن يقاوم الطغيان بعزة النفس، ولو كان هذا الطغيان طغيان امرأة لا إحساس لها، أي أشد أنواع الطغيان والاستبداد إهانة وقسوة على وجه هذه الأرض. أظن أيها السيد أنك سمحت لنفسك منذ برهة أن تبتسم! آه... إنك لا تصدّق أنني قادر على أن أجد في نفسي قدراً كافياً من القوة الروحية لأمضي أيامي لدى تاجر من التجار معلماً لأولاده، أو أهلك جوعاً تحت سياج من الأسيرة. أجبني، أجبني فوراً: أأنت تصدّق هذا أم لا تصدّقه؟

لزمت الصمت. حتى لقد تظاهرت بالتردد كأنني أخشى أن أجرح شعوره بجواب بالنفي مع عجزني عن أن أعزم أمري على أن أجيبه بنعم. لقد كان في وضعه الحائق الساخط شيء يؤذي كرامتي، لا من الناحية الشخصية، لا، لا... لكنني سأشرح شعوري فيما بعد.

اصفرّ وجهه. ثم قال بلهجة الصقيع تلك التي تسبق في العادة انفجاراً رهيباً:

- لعلك تعبت مني يا "ج... ف" (ذلك هو اسمي)، فأصبحت تريد أن لا تأتي إليّ.

فنهضت فجأة وقد انتابني ذعر شديد. ولكن في تلك اللحظة نفسها دخلت ناستاسيا، ومدّت إلى ستيفان تروفيموفتش، دون أن تقول كلمة واحدة، مدّت إليه ورقة هي رسالة مكتوبة بالقلم الرصاص. فألقى على الرسالة نظرة. ورشقها إلي من فوق المائدة: كانت الورقة لا تضم إلا هذه الكلمات بخط فر فارا بتروفا: "أبق في البيت".

تناول ستيفان تروفيموفتش عصاه وقبعته دون أن ينطق بحرف. وخرج من الغرفة مسرعاً، فتبعته آلياً. ودوت في الدهليز على حين فجأة اصوات وضجات. فتوقف ستيفان تروفيموفتش كأن صاعقة قد نزلت عليه. وقال هامساً وهو يمسك ذراعي: - هذا ليو تين. لقد هلك.

وفي تلك اللحظة نفسها دخل ليو تين الغرفة.

4

أما كيف يمكن أن "تهلكه" زيارة ليو تين، فهذا ما أجهله. والحق أنني لم أقم وزناً كبيراً لهذه العبارة التي نسبتها إلى اضطراب أعصابه. غير أن رعبه كان غريباً، فأليت على نفسي أن ألاحظه عن كثب.

إن مجرد مظهر ليو تين، حين دخل، كان يدل دلالة واضحة على أن من حقه في هذه المرة أن يلج المنزل رغم جميع الأوامر. وكان في صحبته سيد لا أعرفه، لعله وصل إلى مدينتنا منذ مدة قصيرة.

رد ليو تين على النظرة المبهوثة التي رآها في ستيفان تروفيموفتش بأن صاح على الفور قائلاً:

- جئت بك بزائر، زائر فذ. أبحث لتنفسي أن أعثر عليك صفو عزلتك. السيد كيريلوف، مهندس مدني مرموق. وهو يعرف ابنك خاصة، ابنك المحترم جداً بطرس ستيفانوفتش. إنه يعرفه معرفة حميمة وهو مكلف بإبلاغك رسالة منه. لقد وصل منذ قليل.

قال الزائر يخاطب ليو تين بلهجة جافة:

- أما فيما يتعلق بالرسالة فأنت الذي أضفت هذا. ليس هناك أية رسالة. لكنني أعرف فرخوفنسكي فعلاً. لقد تركته في مقاطعة س... منذ عشرة أيام. مد إليه ستيفان تروفيموفتش يده ألياً، وأوماً إلى مقعد يسأله أن يجلس عليه. ثم نظر إليّ، ونظر إلى ليوتين، وكأنما تاب إلى رشده فجأة، فإذا هو يسارع إلى الجلوس هو أيضاً، دون أن يلاحظ أنه ما يزال حاملاً عصاه وقبعته بيده.

- ها... كنت تتأهب للخروج! ولكن قيل لي أن صحتك متوقعة من فرط العمل.

- نعم، إنني مريض قليلاً. وكنت أريد أن أخرج للنزهة... إنني... وانقطع ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة، وأسرع يرمي عصاه وقبعته، واحمرّ وجهه.

وكنّت أراقب الزائر في أثناء ذلك. إنه شاب في نحو السابعة والعشرين من العمر، حسن الهندام، أسمر، نحيل، ممشوق. وجهه شاحب أغبر، وعينه سوداوان كابتان، وهو حالم الهيئة ذاهل، كلامه موجز مقطّع، لا يهمه كثيراً أن يلتزم قواعد النحو، فهو يبدل ترتيب الكلمات في الجملة ترتيباً غريباً. ومتى كان عليه أن ينطق جملة طويلة بعض الطول، رأيته يرتبك.

لاحظ ليوتين، بوضوح كامل، الاضطراب الشديد الذي اعترى ستيفان تروفيموفتش، وكان واضحاً أنه سُرب به سروراً عظيماً، واغتبط له اغتباطاً كبيراً. وقد جلس على كرسي من قش جرّه إلى وسط الغرفة تقريباً ليكون على مسافة واحدة من صاحب البين والزائر. وكان هذان قد جلسا على ديوانين يقابل أحدهما الآخر. إن عينيّ النافذتين الثابقتين تتحركان إلى جميع الجهات تفتشان كل ركن من الأركان بفضول شديد.

قال ستيفان تروفيموفتش بجهد شاق:

- منذ زمن طويل... لم أرتوشا... هل لقيته في الخارج؟

- هنا وفي الخارج.

تدخل ليوتين في الكلام فقال:

- إن أليكس نيلتش يعود الآن من الخارج بعد غياب دام أربع سنين. لقد سافر من أجل أن يعمّق اختصاصه الهندسي، وهو يعود آملاً - وهذا أمل في محله - أن يشارك في بناء الجسر الذي ننوي بناءه لسكتنا الحديدية. وقد عرف آل دروزدوف، ولا سيما ليزافتا نيقولايفنا، بواسطة بطرس ستيفانوفتش.

كان المهندس جالساً، متجهماً الهيئة، يصغي بنوع من الضيق والتبرم والتملل. كان يبدو عليه أنه غاضب من شيء ما.

- وهو يعرف أيضاً نيقولايف فيسفلودوفتش.

قال ستيفان تروفيموفتش سائلاً:

- حقاً؟

- نعم أعرفه أيضاً.

- منذ زمن طويل... طويل جداً... لم أرتوشا... وفي اعتقادي أنني لا أستحق كثيراً اسم الأب... "وهذه هي الكلمة" (بالفرنسية)... على أي حال تركته؟

أجاب كيريلوف متمللاً وهو يرغب رغبة واضحة في إنهاء الحديث:

- سوف يجيء بنفسه قريباً.

إن كيريلوف زعلان حتماً.

- ... سيجيء قريباً آه... أخيراً... إنني منذ مدة طويلة جداً لم أرتوشا.

كذلك كرر ستيفان تروفيموفتش عاجزاً عن الخروج من هذه الجملة. ثم أضاف يقول:

- إنني أنتظر ابني المسكين.. الذي أشعر نحوه.. نعم... أشعر نحوه بأنني أثم في حقه كثيراً. أقصد... حين تركته ببطرسبرج، كنت... الخلاصة: كنت أعدّه تافهاً لا قيمة له البتة... "شيء من هذا القبيل" (بالفرنسية). كان طفلاً عصبياً جداً، حساساً، خوفاً. كان قبل أن ينام يصلي ساجداً أمام الأيقونة، ويرسم إشارة الصليب على وسادته، مخافة أن يموت في الليل. "أذكر هذا" (بالفرنسية). لم يكن يملك أي إحساس بالجمال، بالروعة، لم تكن نفسه تضم أية بذرة لفكرة عظيمة ما... "كان كأبله صغير" (بالفرنسية). ولكن يخیل

إليّ أنني أرتبك وأخلط... معذرة... لقد فاجأتموني في اللحظة التي...

سأله المهندس مهتماً على حين فجأة:

- كان يرسم إشارة الصليب على وسادته حقاً؟

- نعم.

- أردت أن أتعلم أكمل.

نظر ستيفان تروفيوفتش إلى ليوتين سائلاً. ثم قال:

- أشكر لك زيارتك كثيراً، ولكنني في هذه اللحظة لست في حالة يمكنني

فيها أن... ولكن هل تأذن لي بمعرفة عنوانك؟

- شارع أيفانيا، عمارة فيليوف.

قلت على غير إرادة مني:

- آ... وهناك أيضاً يسكن شاتوف.

فهتف ليوتين يقول:

- تماماً. في العمارة نفسها. شاتوف يشغل الطابق الصغير الأوسط. أما

السيد كيريلوف فقد أقام تحت، عند الكابتن لبيادكين. إنه يعرف شاتوف

أيضاً، ويعرف زوجته. عرفها في الخارج عن كثب.

صاح ستيفان تروفيوفتش يسأل منقاداً لعاطفته:

- كيف! (بالفرنسية)... إذن أنت تعرف شيئاً عن ذلك الزواج التعيس

الذي وقع فيه "هذا الصديق المسكين" (بالفرنسية)! إنك أول واحد بين

أصحابنا يعرف هذه المرأة شخصياً، فلو...

فقال المهندس جازماً قاطعاً وقد احمرّ احمراراً شديداً:

- ما هذه السخافة يا ليوتين؟ لماذا تضخم دائماً ما يقال لك؟ أنا لا أعرف

زوجة شاتوف أبداً، لم أرها إلا مرة واحدة، وقد رأيتهما من بُعد لا من قرب.

أما شاتوف فأعرفه. لماذا توشّي الكلام دائماً؟

واضطرب على ديوانه، وتناول قبعته، ثم ردها إلى مكانها، حتى إذا عاد

يجلس أخذ يحدّق إلى ستيفان تروفيوفتش بنوع من التحدي يسطع في عينيه

السوداوين اللتين اشتعلتا فجأة. لم أستطع أن أفهم سبب حققه.

أجاب ستيفان تروفيموفتش يقول بلهجة ذات دلالة:

- معذرة. لعل الأمر حساس جداً...

- بتاتاً. ولكن هذا مخجل حقاً! إنني لم أتجه بكلامي إليك حين قلت "ما هذه السخافة؟" وإنما توجهت بكلامي إلى ليوتين. لماذا يبالغ دائماً؟ إذا كنت ظننت أنك كنت المقصود بصيحتي، فمعذرة! إنني أعرف شاتوف، ولكنني لا أعرف زوجته البتة... البتة!...

- فهمت، فهمت. ولئن ألححت، فلأنني أحب كثيراً صديقنا، "صديقنا النزق" (بالفرنسية)، وقد اهتمت دائماً ب... في رأيي أن هذا الرجل قد غير، بشيء من المباغثة والمفاجأة، أفكاره السابقة التي قد تكون فنية كثيراً ولكنها مع ذلك صادقة صحيحة. وهو ينطق الآن بأقوال شاذة عن "روسيا المقدسة" (بالفرنسية)... أقوال تبلغ من الغرابة أنني أصبحت منذ مدة طويلة لا أعزو هذا التغير في بنية جسمه - هذا هو التعبير الذي لا تعبير سواه - إلى الأزمة التي طرأت على حياته العائلية، أو قل الأزمة التي أصابت زواجه التعيس. أنا الذي أعرف بلدي روسيا كما أعرف أصابع يدي، والذي وهبت للشعب الروسي حياتي كلها، أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يعرف الشعب الروسي، وأنه عدا ذلك...

قال المهندس مقاطعاً وهو يتحرك على ديوانه من جديد:

- أنا أيضاً لا أعرف الشعب الروسي... ليس في وقتي متسع لدراسته...

فلم يحر ستيفان تروفيموفتش جواباً، وانقطعت سلسلة حديثه.

قال ليوتين مقاطعاً:

- بلى! إنه يدرسه، أؤكد لك أنه يدرس الشعب الروسي. حتى إنه يهيء مقالة شائقة جداً عن تزايد عدد الانتحارات في روسيا، وبوجه عام، عن الأسباب التي تسهل أو تقلل عدد الانتحارات. وقد وصل إلى نتائج باهرة.

احتد كيريلوف، وهمهم يقول غاضباً:

- ليس من حقك أن تقول هذا. أنا لا أهين مقالة، ولا تخطر ببالي سخافة من هذه السخافات. وإنما أنا حدثك في هذا الموضوع عرضاً. ليس الأمر

أمر مقالة... أنا لا أنشر شيئاً... ليس من حقك أن تقول هذا الكلام.

سرّ ليوتين سروراً كبيراً واضحاً كل الوضوح. وقال:

- معذرة. لعلني أخطأت حين أسميت عملك الأدبي مقالة. إنه يكفي

بجمع ملاحظات، ولا يمس جوهر المسألة، أعني جانبها الأخلاقي إن صح التعبير. حتى إنه ينكر الأخلاق إنكاراً تاماً، وهو من أنصار المبدأ الجديد القائل بالتدمير الشامل في سبيل تحقيق الانتصار الكامل للأفكار السليمة.

إنه يطالب بقطع أكثر من مائة مليون رأس لإقامة النظام الصحيح في أوروبا، وهو في هذا يتجاوز ما طُلب في مؤتمر السلام الذي عُقد أخيراً⁽¹⁾. إن ألكسي نيلتش قد مضى في هذا المضمار إلى أبعد مما مضى إليه أي إنسان آخر.

كان المهندس يصغي وهو يتسم ابتسامة صفراء فيها احتقار. ولزمتنا الصمت جميعاً خلال لحظات.

واستأنف كيريلوف كلامه أخيراً، فقال بشيء من الرصانة:

- هذا كله غباء يا ليوتين. إذا كنت قد رويت لك بعض الأمور عرضاً فاستوليت عليها، فأنت حر في ما تفعل. ولكن ليس من حقك أن... لأنني لا أقول لأحد شيئاً في يوم من الأيام. إنني أحقر الكلام... إذا كان للمرء اقتناعات، فالأمر يكون واضحاً. حماقة ما فعلت... أنا لا أناقش في مسائل هي عندي محلولة. إنني أكره المناقشة، ولا أجادل أبداً.

لم يستطع ستيفان تروفيموفتش إلا أن يقول له:

- ولعلك تحسن بهذا صنعاً.

تابع المهندس كلامه يقول بنوع من الإصرار:

- إنني أعتذر أمامك، ولكنني لا أحقد على أحد هنا. أنا لم ألق إلا قليلاً من الناس. خلال أربع سنين لم أتكلم، لم أتكلم إلا قليلاً جداً. كنت أحاول

(1) "مؤتمر السلام..." هو مؤتمر "عصبة السلام والحرية" الذي عقد في جنيف سنة 1867 وحضره دوستوفسكي، فسمع خطب غاريبالدي وفكتور هوجو وهرتسن وياكونين. وإن أفكار باكونين الفوضوية هي التي يقصدها المؤلف هنا حين يذكر أن المؤتمر قد غيب آماله. لقد كتب دوستوفسكي إلى س. إيفانوفنا يقول لها في 11 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1867: "بدؤوا بأن قالوا أنه لا بد من استئصال المسيحية للحصول على السلام في العالم. وفي رأيهم أنه متى انعدم كل شيء فإن السلام يولد".

أن لا أقابل أحداً... نعم... خلال أربع سنين. لست سريع التأذي، لكن عدم تحرّجه يزعجني.

وختم كلامه فجأة وهو يلقي علينا جميعاً نظرة واثقة، قائلاً:
- إذا كنت لا أعرض عليكم أفكارى وآرائى، فليس ذلك خوفاً من أن تشوا
بى إلى الحكومة، أبداً. لا يذهبن بكم الظن إلى شيء من هذا، أرجوكم.
لم يجبه أحد منا عن هذه الكلمات. واكتفينا بأن تبادلنا نظرة سريعة.
ليبوتين نفسه نسي أن يضحك ساخراً.

قال ستيفان تروفيموفتش بلهجة ثابتة وهو ينهض عن ديوانه:
- أنا آسف جداً أيها السادة، ولكننى أشعر بأننى مريض. معذرة. فهتف
السيد كيريلوف يقول وهو يتناول قبعته:
- آ... معنى هذا أن علينا أن نصرف. أحسنت إذ قلت لى هذا. فأنا كثير
النسيان.

قال ذلك ونهض فاقترب من ستيفان تروفيموفتش ومدّ إليه يده بحركة
طلقة. وأضاف يقول:

- يؤسفنى أنك مريض، وأننى جئتك وأنت على هذه الحال...
قال ستيفان تروفيموفتش وهو يصافحه هاشأً باشأً، على مهل بدون
تعجل:

- أتمنى لك كل النجاح عندنا. إننى أفهم أن تنظر إلينا، نحن الروس
الحقيقيين، بشيء من الدهشة، بعد أن عشت فى الخارج مدة طويلة كما
تقول، معترلاً الناس، دون أن تفكر فى روسيا. ومن الطبيعى جداً أن نحس
نحن تجاهك هذا الإحساس نفسه. "ولكن ذلك سينقضى" (بالفرنسية). ليس
هناك إلا شيء واحد يضايقنى: إنك تريد أن تساهم فى بناء جسرنا، وتعلن فى
الوقت نفسه أنك من أنصار التدمير الشامل. فلن يعهدوا إليك ببناء جسرنا.
صاح كيريلوف يقول مشدوهاً:

- ماذا؟ ماذا قلت؟
وانفجر يطلق ضحكة مرحة صريحة على حين فجأة. لقد اتخذ وجهه

تعبيراً طفولياً رأيته مناسباً له أروع مناسبة. وكان لبيوتين يفرك يديه مفتتاً بمزحة ستيفان تروفيموفتش. أما انا فلم أنقطع عن التساؤل لماذا خاف ستيفان تروفيموفتش من لبيوتين ذلك الخوف كله، ولماذا صاح يقول حين رآه: "لقد هلكت".

5

كنا واقفين جميعاً على عتبة الباب. إنها اللحظة التي يتبادل فيها الزائرون والمودّعون كلمات سريعة فيها كل الملاطفة والتودّد قبل أن يفترقوا مسرورين.

وفجأة قال لبيوتين، بإهمال، وهو يهم أن يخرج:

- إذا كان اليوم متجهماً فلأنه تشاجر مع الكابتن لبيادكين بسبب أخت الكابتن. إن الكابتن لبيادكين يجلد بالسوط كل يوم، مساءً وصباحاً، أخته الفاتنة المجنونة (ناجا يكا). حتى لقد قرر ألكسي نيلتش أن ينتقل إلى جناح بقرب المنزل كي لا يشهد مناظر التعذيب هذه. هيا! إلى اللقاء!

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل كأنما تلقى هو نفسه جلدة سوط.

- أخته؟ مجنونة؟ يجلدّها بسوط؟ أي أخت؟ أي لبيادكين؟

وعاد الرّعب يستولي عليه من جديد.

قال لبيوتين:

- لبيادكين؟ لبيادكين؟ كابتن محال على التقاعد. وكان في الماضي يقول

إنه كابتن مساعد...

- ما شأنني وربّته؟ من هي أخته هذه؟ يا إلهي!... أتقول لبيادكين؟ ولكن

لقد كان عندنا هنا في الماضي رجل يقال له لبيادكين، أليس كذلك؟

- هو ذاته. هو "صاحبنا" لبيادكين نفسه. هل تذكر، عند فرجنسكي؟

- ولكن لبيادكين ذاك قد سرّب أوراقاً نقدية مزوّرة، أليس كذلك؟

- رجع. رجع منذ ثلاثة أسابيع، في ظروف خاصة جداً.

- ولكنه وغد حقير.

- وهل من المستحيل أن يوجد في مدينتنا وغد؟

قال ليوتيس ذلك مبتسماً، وكانت عيناه الصغيرتان الماكرتان كأنما تجسّان ستيفان تروفيموفتش.

- ليس هذا ما أردت أن أقوله، يارب! فيما يتعلق بالأوغاد أنا متفق معك كل الاتفاق، متفق معك أنت. ولكن ماذا بعد؟ ماذا بعد؟ ماذا تريد أن تقول؟ لأن من المحقق أنك لم تتكلم عن لبيادكين بدون نية مبيتة؟

- أوه! ذلك كله لا قيمة له!... أغلب الظن أن هذا الكابتن لم يتركنا بسبب الأوراق النقدية المزورة، وإنما ليقبض على أخته التي يقال إنها كانت مختبئة في مكان ما. وقد اقتادها الآن إلى هنا. هذه هي القصة كلها. مالي أراك مرتاعاً هذا الارتياح كله يا ستيفان تروفيموفتش؟ على كل حال، انا لا أزيد الآن على أن أكرر ثرائته وهو سكران. إنه يحفظ لسانه حين لا يشرب. هو إنسان شرس، وفاسد الذوق جداً، رغم أنه يصطنع مظهر عسكري راقٍ. أما أخته فهي مجنونة، وهي فوق هذا عرجاء. يظهر أن أحداً قد أغواها، وأن السيد لبيادكين يتقاضى من الرجل الذي أغواها مبلغاً من المال بانتظام منذ عدة سنين، تعويضاً عن الإساءة التي ألحقت بشرفه العائلي. ذلك هو، على كل حال، ما يستخرجه المرء من ثرائته. ولكنني أعتقد أن هذا الكلام كله ليس إلّا أقاويل سكير. فهو لا يزيد على أن يتباهى. إن الشؤون التي من هذا النوع لا تكلف مبالغ باهظة إلى هذا الحد. ولكن لا شك في أن معه مالا؛ فمنذ ستة أسابيع كان حافي القدمين، والآن أرى بعيني في يديه أوراقاً نقدية من فئة المائة روبل. إن الأخت تصاب كل يوم تقريباً بنوبات لا ادري ما هي. فهي تطلق صرخات حادة، فيجلدها بالسوط تأديباً، وهو يقول: يجب أن تُعلّم النساء الاحترام. إنني لا أفهم حقاً كيف يحتمل شاتوف هذا الأمر، فيبقى مقيماً في هذا المنزل. لقد ضاق ألكسي نيلتش ذرعاً بعد إقامته ثلاثة أيام فحسب، فانتقل إلى الجناح المجاور هرباً من الضجة. هو يعرفهم منذ كان بيطرسبرج.

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل المهندس:

- هل صحيح هذا كله؟

فجمعهم كيريلوف يقول غاضباً غاضباً شديداً:

- أنت تثرثر كثيراً جداً يا ليوتين.

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أصبح عاجزاً عن السيطرة على

نفسه:

- دائماً أسرار وألغاز! ما هذه الأسرار والألغاز كلها التي تنبجس من

حولنا!

قطب المهندس حاجبيه، واحمرّ وجهه، ورفع منكبيه، واتجه نحو الباب.

قال ليوتين مضيفاً:

- حتى إن ليوتين انتزع من بين يديه السوط، ثم حطّمه ورماه من النافذة.

لقد تشاجرا تشاجراً قوياً لهذا السبب.

قال ليوتين وهو يستدير فجأة:

- لماذا تروي هذه الأمور كلها يا ليوتين؟ ما حاجتك إلى ذلك؟ لماذا؟

- ولماذا أكتّم بالتواضع الهزات النبيلة التي قامت في نفسه؟ أقصد

تواضعك أنت، لا تواضعي أنا.

- ما أغبى هذا كله! وما أقل جدواه وفائدته! إن ليادكين غبي وحقير، ولا

حيلة لنا في الأمر... بل إنه ضار! لماذا تهذر هذا الهذر كله؟ أنا ذاهب.

هتف ليوتين يقول وهو يبتسم ابتسامة ساذجة:

- آه... خسارة! كنت أريد أن أسليّك يا ستيفان تروفيموفتش، بأن أقصّ

عليك حكاية أخرى صغيرة. حتى لقد كان هذا هدف زيارتي. ولكن أغلب

الظن أنك سمعتها. فالمرّة القادمة: إن ألكسي نيلتش مستعجل جداً. إلى

اللقاء. تلك القصة الصغيرة تتعلق بفرفارا بتروفنا. لقد سلّطني كثيراً أمس.

استدعنتني خصيصاً. شيء يفتّس من الضحك! إلى اللقاء.

ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يشأ عندئذ أن يدعه. فأمسك بكتفيه،

وأداره، وأعادته إلى الغرفة، وأجلسه على كرسي. حتى لقد خاف ليوتين

قليلاً.

بدأ ليبوتين يتكلم فقال وهو يلقي على ستيفان تروفيموفتش نظرة محاذرة:
- لقد استدعنتي ذات يوم، وسألتني أن "أسرَّ إليها" برأيي في نيقولا في
فسيفولودوفتش: أهو سليم العقل أم لا؟ أليس هذا مثيراً للدهشة؟
دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول:

- أنت مجنون!

ثم إذا هو ينفجر قائلاً:

- أنت تعلم جيداً يا ليبوتين أنك لم تجئ إلا لتقصّ عليّ قصة دنيئة من هذا
النوع... أو أسوأ من ذلك...

سرعان ما تذكرت الشبهات القائمة في ذهن ستيفان تروفيموفتش، وهي
أن ليبوتين يعرف من أمرنا أكثر مما نعرف، بل ويعرف أموراً لن نعرفها نحن
في يوم من الأيام.

جمجم ليبوتين يقول مصطنعاً الرعب:

- رحماك يا ستيفان تروفيموفتش. ما هذا الذي تقول؟

- كفى! قل كل شيء. أرجوك ملحاً يا كيريلوف أن تعود فتشهد حديثنا.

ارجوك! اجلس. والآن ابدأ يا ليبوتين، هيا، وبلا تمهيد!

- لو كنت أعلم أن الأمر سيفجؤك إلى هذا الحد، لما قلت شيئاً. لكنني

كنت أتخيل أن فرفارا بتروفا لا بد أن تكون قد أطلعتك على كل شيء.

- أنت تعلم تماماً أن لا شيء من هذا البتة. هيا ابدأ!

- ولكن اجلس أنت أيضاً، أرجوك. لو بقيت أنا جالساً وبقيت أنت تجري

في الغرفة ثائر الأعصاب فسوف أرتبك...

سيطر ستيفان تروفيموفتش على نفسه وجلس برصانة على مقعد. وأطرق

المهندس إلى الأرض عابس الوجه. وكان ليبوتين ينظر إليهما بتلذذ كبير.

- كيف أتكلم الآن؟ إنني أشعر باضطراب شديد...

6

أمس الأول زارني خادم من عند فرفارا بتروفا وقال لي: "مولاتي تطلب

منك أن تجيء إليها غداً في الظهر" تخيل هذا! تركت جميع مشاغلي، وفي الظهر كنت أقرع بابها، أدخلت إلى الصالون. وظهرت هي بعد دقيقة. فأجلستني، وجلست قبالي. لم أصدق عيني. أنت تعلم كيف كانت تعاملني دائماً. قالت لي: "إنك تذكر أن نيقولا في سيفولودوفتش قد ارتكب، منذ أربع سنين، بضعة أعمال غريبة أدهشت جميع الناس، إلى اليوم الذي اتضح فيه كل شيء. إن أحد تلك الأعمال قد تناولك أنت شخصياً. وما إن أبل نيقولا في سيفولودوفتش من مرضه حتى ذهب ليزورك تلبية لرغبتني. وإني لأعلم من جهة أخرى أن أحاديث كثيرة كانت قد جرت بينكما من قبل. فقل لي إذن بصراحة، بصدق كامل، ماذا كان... (هنا اضطربت قليلاً)... ماذا كان رأيك عندئذ في نيقولا في سيفولودوفتش؟... ماذا قام في ذهنك عندئذ عنه؟... وما رأيك فيه الآن؟..."

هنا اضطربت اضطراباً كاملاً، حتى لقد بلغت من الاضطراب أنها صمتت دقيقة كاملة واحمرت، وانتابني أنا من ذلك رعب. ثم استأنفت كلامها فقالت بلهجة لا أصفها بأنها مؤثرة (فهذا الوصف لا يناسبها) وإنما أصفها بأنها ذات دلالة. قالت:

"أريد أن تفهمني جيداً، وألا يقوم بيننا أي سوء تفاهم. لقد استدعيتك لأنني أعدك رجلاً حصيف الرأي ذكياً قادراً على أن ترى الأمور كما هي. وإنك لتدرك أيضاً أن أمأ هي التي تتوجه إليك وتعتمد عليك (انظر إلى هذه الملاحظات والمجاملات!). إن نيقولا في سيفولودوفتش قد قاسى أثناء حياته من بعض المصائب، وعرفت حياته أنواعاً من الاضطرابات. فمن الجائز أن يكون هذا قد أثر في حالته النفسية. أنا لا أتحدث عن الجنون طبعاً. فالأمر لا يمكن أن يكون جنوناً (قالت ذلك بقوة وكبرياء). ولكن لعل فيه شيئاً من الشذوذ في الآراء والتفرد في الأفكار، لعل له ميلاً غريباً إلى مواجهة الأمور من زاوية خاصة وإلى رؤية الأشياء رؤية فريدة. (هذه هي أقوال فرارا بتروفاً بالفاظها، ولم يسعني إلا أن أدهش يا ستيفان تروفيموفتش من وضوح شروحا!).

وقد لاحظت فيه أنا نفسي اضطراباً مستمراً وميولاً غريبةً. ولكنني أمه، أما أنت فغريب عنه. لذلك أتوسل إليك (نعم، هذا بعينه هو ما قالته: "أتوسل إليك") أن تقول لي الحقيقة كلها دون أي تكلف. وإذا وعدتني عدا ذلك بأن لا تنسى بأن حديثي إليك سر ما ينبغي أن تبوح به لأحد، كان في وسعك أن تكون على يقين من أنني سأكون مستعدة لأن أبرهن لك على امتناني وشكري متى سنحت المناسبة". فما رأيك؟

قال ستيفان تروفيموفتش مدمداً:

- إنني قد بلغت من الاندهاش أنني لا أصدقك.

قال ليويتين وكأنه لم يسمع جملة ستيفان تروفيموفتش:

- لا، ولكن لاحظ مدى الانفعال الذي لا بد أنه كان يهز نفسها ومدى التعلق الذي لا بد أنه كان يعذبها حتى تتنازل فترضى أن توجه سؤالاً كهذا السؤال إلى رجل مثلي، وتتواضع فتقبل أن تطلب السرّ مني أنا. ما معنى هذا؟ أتراها تلقت أنباء جديدة عن نيقولا فيسيفولودوفتش؟
- لا أدري... لا أنباء... إنني لم أرها منذ بضعة أيام.

نطق ستيفان تروفيموفتش بذلك ثم جمجم يقول، وكان واضحاً أنه أصبح في تلك اللحظة عاجزاً عن ترتيب أفكاره:

- ولكنني ألقت نظرك يا ليويتين... نعم... ألقت نظرك إلى أنها أفضت إليك بهذا سرّاً من الأسرار، ثم ها أنت ذا تقصّه علينا جميعاً...

- نعم، أفضت إليّ سرّاً من الأسرار! ولكن ألا فلينزل عليّ الله صاعقة في هذه اللحظة نفسها إذا كنت قد... أما ما قلته الآن هنا فلا قيمة له. لقد قلته بيننا، وليس ألكسي نيلتش غريباً.

- لا أشاركك رأيك. إن بيننا ثلاثة سيحفظون السرّ حتماً، لكنني أخشى الرابع وهو أنت. إنني لا أثق بك أية ثقة.

قال ليويتين:

- ما هذا الذي تقوله؟ إنني أحرص من أي واحد آخر على كتمان السرّ، لأنني وعدت بأن أكافأ إلى الأبد. ولكنني في هذه المناسبة أريد أن أشير

لك إلى واقعة شائقة إلى أبعد حد، شائقة من الناحية السيكلوجية. في مساء أمس، وأنا تحت تأثير الحديث الذي جرى بيني وبين فرفارا بتروفنا (تستطيع بسهولة أن تتصور الانطباع الذي خلّقه ذلك الحديث في نفسي)، سبرت غور ألكسي نيلتش على نحو خفي قائلاً له: إنك قد عرفت نيقولا في سيفولودوفتش في الخارج وفي بطرسبرج، فما رايبك في ذكائه وفي قدراته؟ فأجابني ألكسي نيلتش بإيجاز: هو رجل مرهف الذكاء سديد الرأي. فسألته: ألم تلاحظ فيه مع ذلك شيئاً من ميل غريب شاذ في أفكاره، ألم تلاحظ فيه نوعاً من تفكير خاص، أو قل على الجملة ضرباً من جنون؟ لقد كررت السؤال التي كانت فرفارا بتروفنا قد ألقتة عليّ. فتصوّراً! لقد شرد ذهن ألكسي نيلتش لحظة وقطّب حاجبيه كما يقطّبهما الآن تماماً، ثم قال: نعم، لقد بدا لي غريب الأطوار أحياناً. فكّر في نفسه: إذا بدت بعض الأشياء غريبة عجيبة حتى لألكسي نيلتش، فما عسى أن يكون الأمر في الواقع؟ قال ستيفان تروفيموفتش يسأل كيريلوف:

- أهذا صحيح؟

فأجاب ألكسي نيلتش فجأة رافعاً رأسه وقد سطعت عيناه:
- أفضل أن لا أتكلّم في هذا. ليس لك حق يا ليبوتين. لا يجوز لك أن تذكر هذه الحادثة. إنني لم أعبر عن رأيي كلّ أبداً. لقد عرفت نيقولا في سيفولودوفتش في بطرسبرج، ولكن منذ زمن بعيد، ورغم أنني التقيت به الآن من جديد، فإنني لا أعرفه إلا قليلاً جداً. وإن كلامك كله يشبه أن يكون نائم.

رفع ليبوتين ذراعيه إلى السماء كأنما يستشهدها على براءته التي طعن فيها صاحبه وقال:

- أنا نّام؟ ولماذا لا أكون جاسوساً كذلك؟ سهل عليك أن تنتقد الآخرين يا ألكسي نيلتش بعد أن سحبت يدك من الأمر، وتصلّلت! لعلك لن تصدّق ما سأقوله لك الآن يا ستيفان تروفيموفتش، ولكن اسمعه: إن الكابتن لبيادكين - وأنت تعلم أنه غبي مثل... لا أجرؤ أن أنطق بالكلمة

ولكنك تعرف المثل الروسي^(١) - اقول إن الكابتن لبيادكين، رغم أنه يجلّ ذكاء نيقولا في سيفولودوفتش، يرى أن هذا الشاب قد اعتدى عليه وأساء إليه. وهو يقول: "هذا الرجل يذهلني: إنه أفعوان بارع كل البراعة" (هذه ألفاظه نفسها). وها أنا ذا أسأله (وكنت ما أزال تحت تأثير لقائي مع فرفارا بتروفنا، بعد حديثي مع نيقولا في نيلتش): "ما رأيك في صاحبك الذي تصفه بأنه أفعوان بارع كل البراعة، أليس مجنوناً؟"، فكأنني بهذا السؤال قد لسعته بسوط، فإذا هو يشب قائلاً "نعم، نعم، ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر..". يؤثر في ماذا؟ هو لم يكمل جملته. ثم غرق في نوع من أحلام كئيبة مظلمة حتى أن سكره تبدّد أخيراً. كنا في الحانة عند فيليوف. وبعد نصف ساعة، ضرب المائدة بقبضة يده فجأة وهتف يقول: "نعم، جائر جداً أنه مجنون. ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر...". وصمت مرة أخرى فلم يكمل جملته. لست أنقل إليك طبعاً إلا الشيء الأساسي من الحديث الذي جرى بيننا. ولكن الأمر واضح وضوحاً تاماً: اسأل مَنْ شئت من الناس يجيبوك هذا الجواب نفسه، حتى أولئك الذين لم يسبق أن خطررت لهم هذه الفكرة على بال: "نعم، هو مجنون. إنه ذكي جداً، ولكن من الجائر أيضاً أن يكون مجنوناً".

كان ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن يفكر في شيء ما تفكيراً عميقاً.

- وكيف علم لبيادكين؟

- عن هذا اسأل أليكسي نيلتش الذي وصفني منذ هنيهة بأنني جاسوس. أنا جاسوس، ولكنني لا أعرف شيئاً، أما ألكسي نيلتش فإنه يعرف كل شيء ويسكت.

أجاب المهندس قائلاً بتلك اللهجة الغاضبة نفسها:

- لا أعرف شيئاً، أو لا أعرف شيئاً ذا بال. إن تسكر لبيادكين لتحمله على أن يثرثر. وقد جئت بي إلى هنا لأتكلم فانت إذن جاسوس.
- أنا لم أسقه بعد، ثم إنه هو وأسراره كلها لا يساويان في رأيي ثمن

(١) يظهر أن الإشارة هنا إلى مثل روسي ترد فيه ألفاظ قاسية..

الشراب. لا أدري ما قيمة هذه الأسرار عندك، أما عندي أنا فليس لها أية قيمة. بالعكس: إنه هو الذي يبذّر المال الآن، بعد أن كان منذ اثني عشر يوماً يتضرّع إليّ أن أعطيه خمسين كوبكاً. إنه هو الذي يسقيني الآن شمبانيا. ولكنك تلهمني فكرة طيبة: سوف أسكره إذا احتاج الأمر، من أجل أن أعرف الحقيقة. ومن الجائز جداً أن أكتشف حينذاك... جميع أسرارك الصغيرة. كذلك أجب ليويتين فجأة بلهجة شرسة.

كان ستيفان تروفيموفتش يتأمل الخصمين متحيراً كل التحير. إنهما يفضحان نفسيهما، وأكثر من ذلك أنهما لا يحاولان حتى إخفاء ذلك. وسرعان ما خطر ببالي أن ليويتين إنما جاء بكيريلوف هذا لا لشيء إلا أن يستدرجه إلى حديث مع شخص ثالث فيحمله بذلك على الكلام، وتلك كانت طريقته المفضّلة.

وتابع ليويتين كلامه في حنق:

- إن ألكسي نيلتش يعرف نيقولا في سيفولودوفتش كل المعرفة، لكنه يخفي ذلك. أما الكابتن ليادكين فإنني أجيب عن سؤالك بأنه عرف نيقولا في سيفولودوفتش بيطرسبرج، قبلنا جميعاً بمدة طويلة، منذ خمس سنين أو ست، أثناء تلك الفترة الغامضة من حياة نيقولا، إن جاز هذا التعبير، أي حين كان نيقولا لا يخطر ببالي أن يشرفنا بزيارته. يجب أن نعتقد أن أميرنا كان في ذلك الحين يحيط نفسه بأناس عجبيين. وفي ذلك الحين، فيما أظن، إنما انعقدت الصلة بينه وبين ألكسي نيلتش.

- حذار يا ليويتين. إنني أنبهك إلى أن نيقولا في سيفولودوفتش قادم إلى هنا قريباً، وهو رجل يعرف كيف يدافع عن نفسه.

- وما شأنني أنا؟ إنني أول من يصيح قائلاً في كل مكان إنه من أرهف الناس ذكاء وأكثرهم ثقافة، حتى لقد طمأنت فرفاراً بتروفا تماماً من هذه الناحية، وأضفت أقول لها: "لكنني لا أستطيع أن أجيب بشيء عن طبعه"، وليادكين يرى هذا الرأي نفسه. لقد قال لي: "إن طبعه هو ما عانيت منه وكنت ضحيته". آه يا ستيفان تروفيموفتش! سهل عليك أن تتهمني بأنني نمام وجاسوس بعد

أن استخرجت مني كل شيء بكثير من الاستطلاع والفضول. لقد استطاعت فرفارا بتروفا أن تضع إصبعها على النقطة الحساسة فقالت: "إنني أتوجه إليك لأن الأمر يهكم شخصياً". نعم، أعتقد أن الأمر يهمني! لا داعي إلى البحث عن بواعث أخرى، ما دام قد أهانني إهانة شخصية اضطرت أن أبلغها أمام المجتمع كله. يبدو لي إذن أنني كنت أهتم لأسباب هامة جداً لا حباً بالنميمة والتقوّل. هو اليوم يصفحك، ثم إذا به في الغد، إذا استبدت به النزوة، يشكر لك حسن ضيافتك وكرمك بأن يصفعك على وجهك أمام مجتمع محترم. وما ذلك كله إلا لأنه يشعر بسأم وضجر ولا يعرف ماذا يفعل بقواه. على أن الأمر الأساسي عند أمثال هؤلاء الناس إنما هو النساء. إنهم ديكّة، يطير أحدهم من واحدة إلى أخرى بأجنحة صغيرة كأجنحة عشاق الأساطير القديمة. سهل عليك يا ستيفان تروفيومفتش، وأنت عازب قاسي القلب، أن تدافع عن "معاليه" وان تصفني بأنني نّمام. ولكن إذا تزوجت امرأة شابة وجميلة - وذلك أمر قد يحدث طبعاً، لأنك ما تزال رجلاً - فمن الجائر أن توصل بابك بمزلاج في وجه أميرنا، وأن تقيم حول بيتك أسواراً. سأقول لك بصراحة: إن هذه الأنسة لبيادكين التي تُجلد بالسوط، لو لم تكن مجنونة وعرجاء لاعتقدت أنها كانت ضحية أهواء أميرنا وأن هذه هي الإهانة التي ألحقت "بالشرف العائلي" للبيادكين، على حد تعبير الكابتن نفسه. صحيح أن الذوق المرهف لدى "معاليه" يتعارض مع هذا الافتراض ولكن... هه.. ما أظن أن هذا أمر يمكن أن يصده! إن جميع الثمار تطيب له متى كان مهياً النفس لا قنطافها. أنت تقول إنني أذيع نمام كاذبة. فاعلم إذن أن المدينة كلها لا حديث لها الآن إلا في هذا الموضوع. وأنا أكتفي بأن أسمع وأؤيد. أظن أن التأييد غير محظور!

- المدينة كلها تتحدّث في الموضوع؟ في أي موضوع؟

- الأصح أن الكابتن لبيادكين هو الذي يعلن ذلك جهاراً نهاراً حين يسكر.

ولكن الأمرين واحد. فأني ذنب أرتكب أنا؟ أنا لا أتكلّم في الموضوع إلا بين أصدقاء. ألسنا هنا أصدقاء على كل حال؟

قال لبيوتين ذلك وهو ينظر إلينا ببراءة. وتابع كلامه يقول:

- إليك الأمر: يظهر أن "معاليه" قد استودع بسويسرا آنسة محترمة هي يتيمة يشترني أنني أعرفها، استودعها ثلاثمائة روبل طالباً منها أن توصلها إلى الكابتن لبيادكين. ثم عرف لبيادكين بعد فترة من الوقت، عرف من شخص محترم هو أيضاً، جدير بالثقة إذن (ولن أسمي هذا الشخص) أن المبلغ الذي أرسل إليه ليس ثلاثمائة روبل بل ألف روبل. وما هو ذا لبيادكين يمضي يصرخ في كل مكان أن الفتاة التي أوتمنت على المال لتوصله إليه قد سرقت منه سبعمائة روبل، بل ما هو ذا يريد أن يشكو الفتاة إلى الشرطة. وقد هدّدها بذلك على كل حال، واثار فضيحة في المدينة كلها.

صاح المهندس قائلاً وهو ينهض على حين فجأة:

- هذه دناءة منك، هذه دناءة!

- ولكنك أنت ذلك الشخص المحترم الجدير بالثقة الذي أبلغ لبيادكين، نقلاً عن نيقولا في سيفولودوفتش أن المبلغ ألف روبل لا ثلاثمائة. إن الكابتن هو الذي قال ذلك في حالة سكر.

- هذا خطأ في الفهم... خطأ مؤسف محزن.. لقد وقع خطأ، فنشأ عن ذلك الخطأ أن... على كل حال، لا قيمة لهذا كله. وتلك دناءة منك!...

- هذا كله لا قيمة له فعلاً، وأنا حزين لتلك الشائعات كلها ولك أن تقول عن كلامي ما تشاء، أولاً أن فتاة محترمة قد أقحمت في هذه القضية، وثانياً لأن هذه الفتاة مقتنعة بأن بينها وبين نيقولا في سيفولودوفتش صلة حميمة. إن "معاليه" لن يتورّع طبعاً عن الإساءة إلى سمعة فتاة نبيلة، أو عن تلطيخ شرف زوجة رجل آخر، كما حدث لي أنا؟ وإذا وقع على رجل ذي نفس سمحة كريمة، فسيرتب أمره بحيث يجعل هذا الرجل يغطي باسمه المحترم خطايا غيره. ذلك بعينه هو ما حدث لي إنني أتكلم عن نفسي...

قال ستيفان تروفيموافتش وهو ينهض عن مقعده شاحباً كل الشحوب:

- حذار يا لبيوتين!

وصرخ المهندس يقول مضطرباً:

- لا تصدّقه، لا تصدّقه! إن أحداً قد أخطأ، وليس لبيادكين إلا سكيراً!
 سوف يتضح كل شيء... ولكنني لا أقدر الآن... هذه دناءة... كفى! كفى!...
 وأسرع يخرج من الغرفة. فهتف ليو تين يقول مدهوشاً:
 - هيه! ماذا تفعل؟ انتظرنني! سأصطحبك!
 واندفع يركض وراء ألكسي نيلتش.

7

لبث ستيفان ترو فيموفتش شارد الذهن لحظة، ثم نظر إليّ، ولكن دون أن يراني إن صح التعبير، ثم تناول قبعته وعصاه وخرج من الغرفة صامتاً. فتبعته كما تبعته منذ برهة. حتى إذا صار عند باب المدخل لاحظ وجودي فقال:
 - آ.. نعم.. تستطيع أن تكون شاهداً... على "ما حدث" ستصحبني، أليس كذلك؟ (بالفرنسية).

- كيف يا ستيفان ترو فيموفتش؟ أتذهب إلى هناك؟ هلاً فكرت فيما قد
 ينجم عن ذلك؟

فتوقف عندئذ، وجمجم مبتسماً ابتسامة زائغة تشير الشفقة، ابتسامة خزي وعار، وكمد ويأس، ولكن فيها مع ذلك نوعاً من حماسة غريبة فيما تراءى لي. قال:

- لا أستطيع أن أتزوج لأغطي "خطايا الغير"...

كنت أتوقع هذه الكلمات. ها هو ذا يفصح لي أخيراً، بعد أسبوع من التلميحات، ها هو ذا يكشف لي عن فكرته الخفية التي أخرجتني عن طوري، فهتفت أقول له:

- كيف يمكن أن تراودك فكرة تبلغ هذا المبلغ من القذارة... وتبلغ هذا المبلغ من الخسة، أن تراودك أنت يا ستيفان فرخوفنسكي، أنت الذي تملك كل ما تملكه من ذكاء واضح وقلب طيب! ولقد راودتك هذه الفكرة حتى قبل زيارة ليو تين! فكيف يحدث هذا؟ كيف؟

نظر إليّ دون أن ينطق بكلمة وتابع سيره. ولكنني لم اشأ أن أتركه. كنت

أريد أن أشهد أمام فرارا بتروفنا بما جرى. وقد كان يمكن أن أغفر له، بسبب ضعفه الذي يشبه ضعف النساء، لو أن الفكرة التي ساورته قد جاءت من كلام ليبوتين، ولكن كان واضحاً الآن أنه فكر في الأمر قبل زيارة ليبوتين بكثير، فليبوتين لم يزد على أن ثبت شكوكه وصبّ على النار زيتاً، إنه لم يتردد عن الاشتباه في الفتاة منذ اليوم الأول، ولم ينسب القرارات المستبدة التي اتخذتها فرارا بتروفنا إلا إلى رغبتها في أن تغطي خطايا ابنها الحبيب. نيقولا يزوج محترم يتم بأقصى سرعة. وتمنيت لو يعاقب على هذه الفكرة. بعد نحو مائة خطوة هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وهو يتوقف على حين فجأة:

- اللهم يا كريم يا رحيم! أين لي من يهدئ قلبي ويدخل السكينة إلى نفسي؟

قلت له وأنا أديره إلى الوراء:

- لنرجع إلى البيت وسأشرح لك كل شيء.

وهنا رن في مسمعنا صوت كال موسيقا، صوت فتى مرح ندي طري يقول:

- إنه هو! ستيفان تروفيموفتش؟ ألسنت هو؟

- لم تكن قد لاحظنا فتاة على صهوة جواد قد توقفت بالقرب منا. إنها

ليزافتا نيقولايفنا مع صاحبها الوفي.

ونادت تقول بفرح:

- تعال، تعال، أسرع! عرفته رغم أنني لم أره منذ اثنتي عشرة سنة، وهو...

ألم تعرفني حقاً؟

تناول ستيفان تروفيموفتش اليد التي مدتها إليه الفتاة، وقبلها باحترام.

ونظر إلى الفتاة كالمتعبّد، عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة.

قالت:

- نعم، عرفني، وهو سعيد. إنه مسرور برؤيتي أعظم السرور يا مافريك

نيقولايفتش. أأكون هنا منذ خمسة عشر يوماً ولا تزورنا؟ كيف هذا؟ كانت

عمتي تؤكد لي أنك مريض، وأنه ما يجب إزعاجك. لكنني كنت أعلم أنها

تكذب. وكنت أتميز غيظاً، وأستمك، ولكنني كنت أحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون أنت البادئ، على أن تخطو أنت الخطوة الأولى. لذلك لم أرسل أحداً في طلبك.

ثم قالت وهي تنحني من على سرجها وتأمل متفرسة:
- رباه! إنه لم يتغير البتة. حتى ليكاد يكون ذلك مضحكاً. ولكن غضونا كثيرة توجد مع ذلك حول عينيهِ وعلى خديهِ، كم أن شعره قد ابيضّ، غير أن عينيهِ ما تزالان على عهدي بهما. وأنا، هل تغيّرت؟ قل لي.. هل تغيّرت؟ ما لي أراك صامتاً لا تتكلم؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت كسّره الفرح:
- أنت... لقد هفت منذ لحظة قائلاً: "أين لي من يهدئ قلبي ويدخل السكينة إلى نفسي؟..." ثم إذا أنا أسمع صوتك... إنني أعدّ هذا معجزة، وبدأت أوّمن" (بالفرنسية).

- "بالله؟ بالله العليّ القدير الرحيم؟" (بالفرنسية). أرايت كيف أنني ما زلت أحفظ دروسك عن ظهر قلب. ليتك تعلم يا مافريكي نيقولا يفتش كم كان يغرس في نفسي الإيمان "بالله العليّ القدير الرحيم!" (بالفرنسية) هل تتذكر أقاصيصك عن كريستوف كولومبس واكتشاف أمريكا، وكيف صرخوا جميعاً يقولون: "أرض! أرض!"؟ تقول خادمتي أليونا فرولوفنا إنني حلمت في الليلة التالية، فكنت أتكلّم أثناء النوم بصوت عال صارخة "أرض! أرض!". وهل تذكر كيف كنت تقصّ عليّ قصة هاملت؟ ثم كنت تشرح لي أيضاً كيف كانوا ينقلون المهاجرين التعساء من أوروبا إلى أمريكا. وكان كلامك غير صحيح. عرفت ذلك فيما بعد. ما كان أحلى كذبه يا مافريكي نيقولا يفتش! كان كذبه أحسن من الحقيقة! ما بالك تتأمل في مافريكي نيقولا يفتش هذا التأمل؟ هذا أحسن إنسان وأوفى إنسان على وجه الأرض، ويجب عليك حتماً أن تحبه بقدر ما تحبني. "إنه يفعل كل ما أريد" (بالفرنسية). ولكن ها أنت إذن شقي من جديد يا ستيفان تروفيموفتش ما دمت قد سمعتك تصيح في الشارع: من لي بمن يهدئ قلبي ويدخل السكينة إلى نفسي؟ أنت شقي؟ قل!

- أنا الآن سعيد...

- عمتي هي التي تعذبك... هذه العمة السيئة، الظالمة، العزيزة مع ذلك! هل تذكر كيف ارتميت بين ذراعي في الحديقة، وكيف واسيتك فيما كنت تبكي؟ لا تتحرّج أمام مافريكي نيقولا يفتش! إنه يعرف كل شيء عنك، كل شيء تماماً، منذ مدة طويلة. في وسعك أن تبكي على كتفه ما اشتهى قلبك البكاء، فيبقى واقفاً في مكانه لا يتحرك... ارفع قبعتك قليلاً، بل وانزعها تماماً لحظة وقرب رأسك، وتناول على رؤوس الأصابع، لا قبل جبينك كما قبلتك في آخر مرة يوم افترقنا. انظر إلى هذه الأنسة التي تنظر إلينا معجبة من النافذة! هيا! اقترّب! أيضاً! ربا! ما أكثر ما ابيض شعره!

ومالت من على سرجه فقبلت جبينه.

- والآن، عد إلى البيت! أنا اعرف أين تقيم، وسأتي إليك فوراً، بعد دقيقة. سأكون البادئة بزيارتك أيها العنيد، ثم يكون عليك بعد ذلك أن تأتي إلينا فتقضي عندنا نهاراً بكامله. هيا! استعد لاستقبالي!

ومضت تجري بحصانها بصحبة فارسها جرياً سريعاً. وعدنا إلى البيت.

جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان، وطفق ييكي وهتف يقول:

- "يارب! يارب! هذه أخيراً دقيقة من سعادة!" (بالفرنسية).

وبعد دقيقتين وصلت بازة بوعدها، يصحبها مافريكي نيقولا يفتش أيضاً.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض لاستقبالها:

- "أنت والسعادة تصلان في آن واحد" (بالفرنسية).

قالت:

- هذه باقة أزهار لك، أتيتك بها من عند مدام شوفالييه. إن عندها أزهاراً طرية طوال الشتاء لأيام الأعياد وحفلات الميلاد. وهذا مافريكي نيقولا يفتش. تعارفا، ارجوكما! خطر بيالي أن أتيك بقرص جاتوه بدلاً من باقة الأزهار، ولكن مافريكي نيقولا يفتش يؤكد أن هذا ليس من "الموضة" في روسيا.

إن مافريكي نيقولا يفتش، وهو كابتن في المدفعية، يجب أن يكون

في نحو الثالثة والثلاثين من العمر. رجل فارغ القامة وسيم مهيب يوحى بالاحترام، في وجهه رصانة تكاد تبدو في النظرة الأولى قسوة. غير أن المرء سرعان ما يلاحظ، حين يعرفه، أنه طيب القلب إلى أقصى حد، وأنه رقيق الشعور كل الرقة. فهو قليل الكلام، يبدو مسيطراً على نفسه، ولا يحاول أن يلتمس صداقة أحد. وقد قيل عنه فيما بعد أنه ليس على جانب كبير من الذكاء، ولكن هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة.

لن أحاول أن أصف جمال ليزافتا نيقولايفنا التي كانت المدينة كلها تتكلم عن جمالها، رغم احتجاج بعض سيداتنا وبعض أنساتنا. إن بعضهن يكرهن ليزافتا نيقولايفنا منذ الآن، ويأخذن عليها كبرياءها قبل كل شيء: آل دروزدوف لما يزوروا أحداً بعد، تقريباً، فكان الناس في المدينة مستائين من ذلك، رغم أن هذا التأخر ليس له من سبب غير سوء صحة براسكوفيا إيفانوفنا. وكن يكرهنها أيضاً لأنها قريبة زوجة الحاكم، وكن يكرهنها أخيراً لأنها تقوم بنزهة على الحصان في كل يوم. لم يكن أحد عندنا يرتدي لباس الأمازون بعد، فكان طبعياً أن يغتاظ مجتمعنا حين يرى ليزافتا نيقولايفنا تتنزه على الحصان، رغم أنها لم تقم بزيارات بعد. وكان معروفاً مع ذلك أن هذه النزاهات إنما نصحبها بها الأطباء، ولكن الناس كانوا يستغلون هذا لإبداء ملاحظات لاذعة حول صحتها. والحق أن صحتها لم تكن جيدة، حتى إن المرء يرى فيها منذ أول نظرة نوعاً من الاضطراب المَرَضي المستمر المتصل. واهزنه! لقد كانت الصغيرة المسكينة تقاسي كثيراً، وقد اتضح كل شيء فيما بعد. الآن، حين أستحضر ذكريات الماضي، لن أقول إنها جميلة جمالاً رائعاً كما بدت لي حينذاك. ولعلها لم تكن جميلة البتة. إنها طويلة، نحيلة، ولكنها مرنة قوية، وهي تخطف البصر بما في خطوط وجهها من قلة الاتساق. عيناها تعلوان نحو الصدغين مواربتيين. وهي إلى ذلك هزيلة الجسم ناتئة الوجنتين، شاحبة اللون. غير أن في هذا الوجه كذلك شيئاً يخلب اللب ويأسر القلب، وثمة قوة عجيبة تنبع من عينيها الكحلاوين، الحارّتين. إذا رآها المرء قال لنفسه إنها قد اعتادت الفوز حتماً. فهي متكبرة، حتى إنها في

بعض الأحيان متغطسة. لا أدري هل كان في وسعها أن تكون طيبة، لكنني أعلم أنها كانت تريد ذلك كثيراً، وكانت تبذل جهوداً هائلة للتوصل إليه. لا شك أنها زاهرة بتطلعات كريمة وإرادات نبيلة، لكنها تحاول أن تهتدي إلى توازنها دون أن تغفر بذلك، وكان كل شيء فيها مضطرباً مشوشاً. لعلها كانت تسرف في القسوة على نفسها، ولكنها لا تجد القوة التي تمكنها من تحقيق هذه المطالب.

جلست على الديوان، وأجالت بصرها في الغرفة. ثم قالت:
- لماذا أحس دائماً بالحزن في مثل هذه اللحظات؟ اشرح لي هذا وأنت العالم! لقد تخيلت دائماً أنني سأسعد سعادة جنونية حين أراك ثانية فأذكر كل شيء، ثم ها أنذا أحس أنني لست سعيدة البتة. وإني مع ذلك لأحبك. رباه! لقد علّق صورتني على الحائط. أعطني هذه الصورة! إنني أتذكر! كيف لا؟
إنها صورة ليزا وهي في الثانية عشرة من عمرها، هي صورة رائعة صغيرة مرسومة بالألوان المائية، أرسلها آل دروزدوف إلى ستيفان تروفيموفتش من بطرسبرج. ومنذ ذلك الحين لم تبارح الصورة حائط غرفته.
- هل ممكن أنني كنت جميلة هذا الجمال كله في طفولتي؟ أهذا وجهي حقاً؟

قالت ذلك ونهضت حاملة الصورة بيدها، ونظرت إلى نفسها في مرآة. ثم هتفت تقول وهي تمد الصورة إلى ستيفان تروفيموفتش:
- خذها. أسرع. ولا تعلقها الآن. علقها فيما بعد. لا أريد أن أراها.
وعادت تجلس على الديوان. ثم تابعت كلامها تقول:
- حياة تمضي، وأخرى تبدأ، ثم تمضي الثانية لتحل محلها الثالثة... وهكذا دواليك إلى غير نهاية. النهايات كلها تشبه أن تكون مقطوعة بمقص. هذا كلام معاد مكرر أقوله لك. ولكن ما أصدق ما يعبر عنه!
ونظرت إلي مبتسمة. وكانت قد رشقتني قبل ذلك بنظرات خاطفة مراراً. ولكن ستيفان تروفيموفتش كان قد نسي، من شدة انفعاله، وعده بأن يقدمني إليها.

قالت:

- ولماذا تعلق صورتني تحت هذه الخناجر؟ ولماذا عندك هذه الخناجر والسيوف كلها؟

لا أدري لماذا كان ستيفان تروفيموفتش قد علّق على الحائط خنجرين متصلبين عليهما سيف شرکسي، فعلاً. وحين أُلقت الفتاة هذا السؤال اتجهت إلي بنظرة مباشرة حتى كدت أجيبها، ولكنني أمسكت. وانتبه ستيفان تروفيموفتش إلى الموقف أخيراً، فقد مني إليها.

قالت:

- أعرف، أعرف.. أنا سعيدة بمعرفتك. ماما أيضاً سمعت كثيراً عنك. تعرّف إلى مافريكي نيقولايفتش. إنه رجل ممتاز. لقد قامت في ذهني فكرة مضحكة عنك: أنت نجّي ستيفان تروفيموفتش ومستودع أسرارهِ، أليس كذلك؟

احمرّ وجهي. فاستدركت تقول:

- أوه! سامحني، أرجوك. ليست هذه الكلمة هي التي كنت أريد أن أستعملها. لا أقصد: مضحكة، بل... (واحمرّت واضطربت).. على كل حال، هل يضيرك أن تكون رجلاً شهماً؟ هيّا يا مافريكي نيقولايفتش! لقد آن لنا أن ننصرف. بعد نصف ساعة يا ستيفان تروفيموفتش يجب أن تكون عندنا. يا إلهي! ما أكثر الأشياء التي ستحدث فيها! سأكون أنا نجيتك ومستودع أسراركَ الآن، وستحكّي لي كل شيء. هل فهمت؟ كل شيء (بالفرنسية). فما إن سمع ستيفان تروفيموفتش هذا الكلام حتى قام بحركة تقهقر على الفور. قالت:

- أوه! إن مافريكي نيقولايفتش يعلم كل شيء، فلا تتحرّج أمامه!
- ماذا يعلم؟

فصاحت تقول مذهولة:

- ولكن ماذا بك؟ آ... حقاً إذن إنهم يجعلون من الأمر سرّاً! كنت لا أريد أن أصدق. وهم يخفون داشا أيضاً. لقد منعني عمتي من الدخول على داشا

منذ قليل، بحجة أن داشا تعاني من صداع.

- ولكن... ولكن كيف عرفت؟

- كما عرف جميع الناس!... ليس هذا بالأمر الصعب!

- ولكن هل جميع الناس...؟

- كيف لا؟ ماما عرفته من أليونا فرولوفنا، خادمتي. لقد هرعت خادمتك

ناستاسيا تحكي لها كل شيء. أنت الذي حكيت لناستاسيا، أليس كذلك؟ إن

ناستاسيا تؤكد أنك أنت الذي قلت لها...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

- أنا... أنا... قلت لها ذات يوم.. ولكنني لمحت تلميحاً لا أكثر... كنت

تأثر الأعصاب جداً وكنت مريضاً، ثم...

أخذت الفتاة تضحك.

- ثم إن نجيّك لم يكن عندك، فوجدت أمامك ناستاسيا، فحكيت لها،

وهي تعرف جميع نّمات المدينة. ولكن أي ضير في أن يعلم الناس؟ بل

إن من الأفضل أن يعلموا. لا تتأخر عن الحضور إلينا. إننا نتعشى في ساعة

مبكرة.

ثم أضافت تسأله وهي تعود إلى الجلوس:

- ها.. نعم.. نسيت. قل لي: مَنْ هو شاتوف؟

- شاتوف؟ هو أخو داريا بافلوفنا...

فقاطعته تقول:

- أعرف أنه أخوها. حقاً إنك تفقد الإنسان صبره! أنا أريد أن أعرف أي

رجل هو؟

- "رجل سريع الغضب هو أحسن شرسٍ في الناس كافة" (بالفرنسية).

- نعم سمعت أنه غريب الأطوار قليلاً. يظهر أنه يعرف ثلاث لغات منها

الانجليزية، ويستطيع أن يتولى القيام بأعمال أدبية. وأنا عندي عمل كثير أريد

أن أعهد إليه به: إنني في حاجة إلى معاونٍ بمعنى من المعاني، في حاجة إليه

بأقصى سرعة ممكنة. هل تقدّر أنه يقبل؟ لقد نُصحتُ به...

- آ... طبعاً... حتماً! "وأنت بذلك تسدين صنيعاً حسناً" (بالفرنسية).

- ليس الأمر أمر "صنيع حسن" إنني أبحث عن أحد يعاونني.

قلت:

- إنني أعرف شاتوف معرفة جيدة، فإن شئت ذهبت إليه في هذا اليوم

نفسه.

- قل له أن يجيئني غداً، في الظهر. عظيم! أشكرك. مافريكي نيقولا يفتش،

أأنت مستعد؟

وانصرفا. وأسرعت أمضي إلى شاتوف على الفور طبعاً.

قال لي ستيفان تروفيموفتش وهو يدركني على درجات المدخل:

- يا صديقي، (بالفرنسية)... تعال إليّ حتماً في نحو الساعة العاشرة أو

الحادية عشرة، حين أرجع. آه... أنا مذهب كثيراً في حقك!... وفي حق

جميع الناس، نعم، في حق الناس كافة.

8

لم يكن شاتوف في البيت. وحين رجعت بعد ساعتين، لم يكن قد عاد.

ورجعت مرةً ثالثة في نحو الساعة الثامنة آملاً أن أترك له رسالة إذا وجدت

أنه ما يزال غائباً. وفي هذه المرة لم أجده أيضاً. وكان مسكنه مقفلاً بالمفتاح.

إن شاتوف يعيش وحيداً، بلا خادم. خطر ببالي أن أقرع باب بيت الكابتن

لبيادكين، لأسأل عن شاتوف. ولكن كل شيء في الطابق السفلي كان مغلقاً

كذلك. وما من ضجة تُسمع من خلال الباب ولا من ضوء يتسرب من أي

مكان. لكن المنزل خال. وإذ تذكرت ما رواه لنا لبيوتين، شعرت بشيء من

حب الاستطلاع والفضول. وقررت أخيراً أن أعود غداً في ساعة مبكرة. ولم

تكن تراودني أوهام عن الأثر الذي يمكن أن تحدثه رسالتي: إن شاتوف،

العنيد الخجول، قادر على أن لا يوليها أي انتباه، وأن لا يكثر بها البتة.

وفيما كنت أجتاز بوابة العمارة لأعناً إخفاقي، إذا بي أرى نفسي أمام

كريلوف. كان عائداً إلى بيته، وقد عرفني قبل أن أعرفه. وجواباً عن أسئلته،

ذكرت له سبب مجيئي، وقلت إنني أود لو أترك لشاتوف رسالة. فقال لي:
- تعال معي. سأدبر الأمر كله.

تذكرت أن كيريلوف، كما قال ليوتين، كان قد انتقل من مسكنه في هذا الصباح إلى جناح من خشب يقع في فناء المنزل. لقد كانت تسكن في هذا الجناح، وهو أوسع مما يحتاج إليه، امرأة عجوز صماء تقوم على خدمة البيت. أظن أن هذه العجوز قريبة للمالك، قد عهد إليها بحراسة العمارة ومضى يقيم بمنزل جديد ليفتح فيه مطعماً. إن غرف الجناح نظيفة، ولكن ورق جدرانها بدا لي وسخاً. وكانت الغرفة التي دخلناها تضم أثاثاً متنوعاً يحس من يراه أنه اشترى من دكان لبيع الأثاث العتيق: فهناك مائدتان من موائد اللعب، ومنضدة من خشب الحور، ومائدة كبيرة من خشب أبيض لو وضعت في كوخ أو في مطبخ لكانت في مكانها، وكراسي وكنبة ذات مسند من قش وعليها وسائد من جلد. ولمحت في ركن من الأركان أيقونة قديمة كانت المرأة العجوز قد أشعلت أمامها قبل دخولنا سراجاً صغيراً. وعلى جدارين من الغرفة علقت صورتان كبيرتان مرسومتان بالزيت، لكن ألوانها قد بهتت على مرّ السنين: فأما الأولى فهي صورة للامبراطور نيقولا الأول، يدل مظهرها على أن تاريخها يرجع إلى بداية حكمه، وأما الثانية فهي تمثل لا أدري أي أسقف.

أشعل كيريلوف شمعة، وأخرج من حقيبته التي لم يكن قد فضّها بعد، ظرفاً وعوداً من شمع الأختام وختماً من كريستال. وقال لي:
- اختم رسالتك بالشمع، واكتب عليها الاسم.

فاعترضت قائلاً إن ذلك لا داعي له، ولكنه أصرّ. فلما انتهيت من عملي، تناولت قبعتي لأخرج، فقال لي:

- كنت أظن أنك قد تحتسي شيئاً من الشاي. فهل تريد؟ لقد اشتريت شايًا.

فلم أرفض. ولم تلبث العجوز أن جاءت بالشاي، أي بإبريق ضخم ممتلئ ماء بغلي، وإبريق صغير فيه شاي قوي جداً، وفنجانين كبيرين من

خزف مطلي عليه رسوم غليظة، وخبز أبيض قُطِع قطعاً ووضع في صحن عميق.

قال:

- أحب الشاي ليلاً. كثيراً. أمشي وأشرب شايًا. حتى الفجر. في الخارج، ليس مناسباً أن يشرب المرء شايًا في الليل.

- ألا تنام إلا في الفجر؟

- دائماً. منذ زمن طويل. أكل قليلاً. لا شيء إلا الشاي. ليوتين ماكر، لكنه نافذ الصبر.

أدهشني أنه يريد الكلام. وقررت أن أستغل الفرصة.

قلت:

- في هذا الصباح، حدث سوء تفاهم مؤلم.

فقطب حاجبيه. ثم قال:

- سخافات. سفاسف. ما هذا كله إلا سفاسف، لأن ليوتين سكير. أنا

لم أقل شيئاً لليوتين. أوضحت له أن ذلك كله ليس له أية قيمة. لكنه اخترع لا يدري إلا الله ماذا... إن ليوتين ذو خيال واسع، فهو ييني من الحبة قبة.

أمس، كنت أثق به...

قلت ضاحكاً:

- واليوم تثق بي أنا.

- ولكنك مطلع على كل شيء منذ هذا الصباح. إن ليوتين ضعيف، أو هو

نافذ الصبر... أو خطر... أو حسود...

فجأتنى هذه الكلمة الأخيرة. قلت:

- لقد ذكرت من العيوب عدداً كبيراً بحيث لا بد أن يصدق أحدها عليه.

- أو تصدق كلها دفعة واحدة.

- نعم، ربما كان هذا صحيحاً كذلك. إن ليوتين خليط مشوش. هل كذب

اليوم حين أكد أنك تؤلف كتاباً؟

- لماذا يكون هذا كذباً؟

بذلك أجنبي وهو يعيس من جديد ويخفض عينيه.
فاعذرت له مؤكداً أنني لم أشأ أن أستدرجه إلى الكلام. فاحمرّ وجهه.
وقال:

- لقد صدق. إنني أكذب. ولكن ليس لهذا من قيمة.
وصمتنا دقيقة. ثم إذا هو يتسم تلك الابتسامة الطفولية نفسها التي سبق
أن لاحظتها فيه.

- فيما يتعلق بالروس، تلك حكاية أخذها من الكتب. إنه هو الذي حدّثني
في هذا الموضوع. ولكنه قد أساء الفهم على كل حال. أما أنا فإنني أبحث
فقط في الأسباب التي تجعل الناس لا يجرؤون أن يقتلوا أنفسهم. وليس
لهذا قيمة.

- لا يجرؤون؟ ما هذا الذي تقول؟ هل الانتحارات قليلة إلى هذا الحد
من القلّة؟

- نعم، قليلة جداً.

- أهذا رأيك؟

لم يجب، بل نهض وأخذ يمشي في الغرفة طويلاً وعرضاً، شارد الذهن.
سأله:

- وما الذي يمنع الناس من قتل أنفسهم في رأيك؟

- فنظر إليّ ذاهلاً، كأنه يحاول أن يتذكر ما كنا نتكلم فيه. ثم أجاب بقوله:

- لا أدري بعدُ على وجه اليقين. غير أن هناك وهمين شائعين يمنعاننا من

ذلك.. شيئين لا ثالث لهما، أحدهما صغير جداً، والثاني كبير جداً. ولكن
الصغير كبير أيضاً.

- فما هو الصغير؟

- الألم.

- الألم؟ أهو هام إلى هذا الحد... في مثل هذه الحالة؟

- نعم، هام جداً. هناك فئتان من الناس: الذين يتحرون بسبب عذاب

كبير، أو يتحرون غضباً، أو يكونون مجانين، أو يتحرون لأي سبب آخر..

وهؤلاء ينتحرون فجأة. وهم لا يخطر الألم ببالهم كثيراً. ففي دقيقة واحدة ينتهي كل شيء. أما الذين يفكرون، فهؤلاء يحسبون حساب الألم كثيراً.

- هل هناك أناس ينتحرون وهم يفكرون؟

- كثيرون. ولولا الأوهام الشائعة، لكانوا أكثر، ولكن عددهم كبيراً جداً، ولكانوا كل الناس.

- كل الناس؟ حقاً؟

لم يجب بكلمة.

- ولكن أليس هناك وسيلة للانتحار بدون ألم؟

قال وهو يقف أمامي:

- تخيل صخرة في حجم عمارة كبيرة. وتخيل أنها بارزة فوق الطريق وأنت تحتها. هل تحس بالألم إذا هي سقطت على رأسك؟

- صخرة في حجم عمارة؟ سوف أخاف طبعاً.

- لا أتكلم عن خوفك، ولكن هل يمكن أن تشعر بالألم إذا هي سقطت على رأسك؟

- صخرة كالجبل، وزنها مليون طن؟ لن أحس بشيء طبعاً.

- ومع ذلك فإنك إذا وجدت في هذا الموقف ستظل تخاف من أن يصيبك ألم، ما بقيت تحت الصخرة. وأكبر العلماء، وأعظم دهاقنة العلم، سيخافون جميعاً، جميعاً، سيخافون خوفاً كبيراً من أن يتألموا. هم يعلمون أنهم لن يتألموا، ولكنهم سيخافون من أن يتألموا.

- وما هو السبب الثاني؟ السبب الأكبر؟

- الحياة الآخرة؟

- أي العقاب؟

- العقاب ليس له شأن كبير. بل الحياة الآخرة. الحياة الآخرة فقط.

- أليس هناك ملحدون لا يؤمنون بالحياة الآخرة؟

لزم الصمت. قلت:

- لعلك تقضي في الأمر على أساس شعورك أنت؟

أجاب وقد احمرّ وجهه:

- كل إنسان لا يستطيع أن يحكم في الأمر إلا على أساس شعوره. سوف تكون الحرية كاملة متى استوى عند الإنسان أن يعيش وأن يموت. تلك غاية كل شيء.

- هدف؟ ولكن من الممكن إذن أن أحداً لا يرغب في أن يعيش؟
- نعم.

كذلك أجاب بلهجة قاطعة. قلت:

- إن الإنسان يخاف الموت لأنه يحب الحياة. هكذا أفهم أنا الأمور. ذلك ما أرادته الطبيعة.

صاح يقول وقد التمعت عيناه:

- هذا جبن. وتلك هي الخدعة. الحياة ألم. الحياة رعب. الإنسان شقي. كل شيء الآن ليس إلا عذاباً ورعباً. الإنسان يحب الآن الحياة لأنه يحب العذاب والرعب. ذلك ما حصل. الحياة ثمنها العذاب والرعب. تلك هي الخدعة. اليوم ليس الإنسان إنساناً بعد. سيجيء إنسان جديد، سعيد فخور. الإنسان الذي سيستوي عنده أن يعيش وأن يموت، سيكون هو الإنسان الجديد. الإنسان الذي سيتنصر على الألم والرعب، سيكون هو نفسه الإله. أما الإله الآخر فلن يكون له وجود بعد ذلك.

- فهذا الإله موجود إذن في رأيك؟

- ليس موجوداً، ولكنه موجود. إن الصخرة ليس فيها ألم، ولكن الألم هو في الخوف من الصخرة. الإله هو عذاب الخوف من الموت. فالإنسان الذي سيتنصر على الألم والخوف، سيكون هو نفسه الله. وسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة. عندئذ سوف يظهر الإنسان الجديد. سيكون كل شيء جديداً... وسوف يقسمون التاريخ عندئذ إلى عهدين: عهد يمتد من الغوريللا إلى انعدام الإله، وعهد يمتد من انعدام الله...

- إلى الغوريللا؟

- إلى التحول الجسمي الذي يطرأ على الإنسان والأرض. سيصبح

الإنسان إلهاً، وسيُبدل جسمه. والكون سيتحول، والأعمال ستتحول،
والعواطف والأفكار. ألا تعتقد أن الإنسان يتبدل عندئذ جسمه؟
- إذا استوى عند الإنسان أن يحيا وأن يموت، فسوف يتحرر جميع الناس،
وربما كان هذا هو التبدل...

- ما لهذا من قيمة. سوف يُنحر الكذب. إن الذي يريد الوصول إلى الحرية
القصوى، عليه أن يملك الشجاعة اللازمة للانتحار، والذي يملك الشجاعة
اللازمة للانتحار، فسوف ينفذ إلى سر الخدعة. ليس ثمة حرية أعلى. كل
شيء يثوي هنا، وليس وراء هذا شيء. من يجرؤ أن يتحرر فهو الله. كل إنسان
يستطيع الآن أن يفكر أن ثمة إله، ولكن أحداً لم يفصل ذلك في يوم من الأيام
حتى الآن.

- غير أن ملايين الناس قد انتحروا مع ذلك.
- ولكن لأسباب أخرى دائماً. انتحروا دائماً برعب. لم يتحروا أبداً لهذا
السبب. لم يتحروا أبداً لينحروا الرعب. إن الذي سيقتل نفسه من أجل أن
يقتل الرعب فقط، سيكون في تلك اللحظة نفسها إلهاً.
قلت:

- ولكن قد لا يملك الوقت اللازم لهذا.
فأجاب برفق وكبرياء هادئة، وبما يشبه أن يكون احتقاراً:
- لا ضير!
وأضاف بعد لحظة:
- يؤسفني أن يبدو عليك أنك تضحك.
- وأنا يدهشني أن أراك الآن هادئاً هذا الهدوء، بينما كنت في الصباح
غاضباً حانقاً.

قال وهو يتسّم:
- هذا الصباح؟ كان هذا الصباح مضحكاً جداً. أنا لا أحب أن أتساجر.
ثم أضاف بأسى وكآبة:
- ولا أضحك أبداً.

- نعم، ليست لياليك مرحلة.

ونهضت وتناولت قبعتي لأنصرف.

فسألني وهو يتسم ابتسامة فيها شيء من دهشة:

- أهذا ماتراه؟ لماذا ذلك؟ ... لا ... لا أدري..

وأمسك عن الكلام مضطرباً متحيراً على حين فجأة. ثم أضاف:

- لا أدري كيف تجري أحوال الآخرين، وأشعر أنني لا أستطيع أن أكون

كسائر الناس. جميع الناس يفكرون في شيء، ثم ينتقلون فوراً إلى التفكير

في شيء آخر. أما أنا فلا أستطيع أن أفكر في غير هذا. أنا أفكر في شيء واحد

طوال حياتي. طوال حياتي عذبتني فكرة الله.

بهذا ختم كلامه فجأة باندفاع صدق غريب.

- اسمح لي أن أسألك: لماذا لا تتكلم اللغة الروسية على نحو صحيح؟

أترك نسيتهما أثناء غيابك في الخارج خمس سنين؟

- هل لغتي غير سليمة؟ لا أدري! لا، لم أنس أثناء غيابي في الخارج!

هكذا كنت أتكلم طول حياتي!...

- سؤال آخر قد يكون أكثر إحراجاً: إنني أصدقك حين تقول إنك لا تحب

أن ترى الناس، وإنك لا تكلمهم إلا قليلاً. فلماذا كلمتني أنا في هذا المساء

مختاراً راضياً؟

- أنت؟ في هذا الصباح، كان وضعك حسناً جسداً، وإنك... ما لهذا من

قيمة على كل حال. إنك تشبه أخي كثيراً، كثيراً جداً، تشبهه شبهاً خارقاً. لقد

مات منذ سبع سنين. هو أخي الأكبر. تشبهه كثيراً.

- لا بد أن تأثيره في تفكيرك كان كبيراً.

- لا، كان يتكلم قليلاً. كان لا يقول شيئاً. سأوصل رسالتك إلى شاتوف.

وشيعني حتى الباب الكبير، وهو يحمل فانوساً، وذلك ليغلق الباب.

قلت لنفسني جازماً "إنه مجنون. هذا واضح لا ريب فيه".

وهذا لقاء آخر يفاجئني لحظة خروجي.

ما إن اجتزت الباب حتى أمسكتني يدٌ قوية من صدري. وزأر صوت يسأل:

- من هنا؟ أصدق أم عدو! هيا اعترف!

خرج صوت حاد عرفت فيه صوت لبيوتين، صرخ يقول:

- هو من أصحابنا. إنه السيد "ج...ف"، شاب تثقف ثقافة كلاسيكية، واستقبل في أرقى مجتمع.

- آ... هذا ما يعجبني... إذن تثقف ثقافة كلاسيكية.. أنا الكابتن المتقاعد إجناس لبيادكين، في خدمة الناس جميعاً والأصدقاء... إذا كانوا أوفياء... إذا كانوا أوفياء، هؤلاء الأوغاد!

إنه الكابتن لبيادكين، وهو رجل طويل القامة بدين الجسم سمين، أجمع الشعر، أحمر الوجه، كان قد بلغ غاية السكر، حتى إنه لا يكاد يستطيع الوقوف، ولا يكاد يستطيع النطق إلّا في كثير من الغباء. وقد سبق أن أُتيحت لي فرصة رؤيته من بعيد.

وحين التفت الكابتن فلمح كيريلوف الذي كان لا يزال واقفاً هناك وبيده الفانوس، أعول يقول من جديد:

- آ... وهذا هو الآخر...

ورفع قبضة يده على المهندس، لكنه لم يلبث أن أنزلها قائلاً:

- إنني أعفو عنك، لأنك عالم. إجناس لبيادكين، أثقف رجل بين...

في صدر إجناس

توقد الحب، تحطم القلب

وكان يتطوع الذراع، من حرب سياستبول

فعاد يبكي ذراعه

ودمدم يقول لي وهو يقرب مني وجهه المتورد من السكر: "أنا لم أكن في

سياستوبول⁽¹⁾، ولا قُطعت ذراعي. ولكن ما أجملها أشعاراً!

وتدخل ليوتين يقول له:

- لا يتسع وقته، لا يتسع وقته. إنه عائد إلى بيته. سيقص غداً كل شيء على

ليزافتا نيقولايفنا:

فصاح السكران من جديد قائلاً:

- ليزافتا...

ثم قال لي:

- اسمع. لا تتحرك. هذه أبيات أخرى من الشعر:

تعدو على حصانها كنجمة

بين صويحباتها الفارسات

ومن على فرسها الجميل

تبعث لي البسمة تلو البسمة

فتاتي الفاتنة النبيلة

وتابع كلامه:

- عنوان القصيدة "إلى الفارسة النجمة!". أليس هذا نشيداً جميلاً؟ هو

نشيد جميل، إلا أن تكون أنت حماراً. إن هؤلاء الأغبياء لا يفهمون شيئاً.

ثم صاح يقول وهو يتمسك بمعطفي رغم جميع ما أبذله من جهود لأفقت

منه:

- قف! قل لها إنني فارس الشرف، أما داشا... أما تلك "الداشا" فسوف

أمسكها بين إصبعين... ما هذه إلا عبدة، وما ينبغي أن تسمح لنفسها بأن...

قال هذه الكلمات وسقط، لأنني استطعت أن أنتزع نفسي من بين يديه.

وهربت يتبعني ليوتين.

- سوف يُنهضه ألكسي نيلتش. هل تدري ماذا علمت منه الآن؟

كذاك قال بصوت لاهث. وتابع كلامه:

(1) الإشارة هنا إلى حصار سياستوبول سنة 1854 وسنة 1855 من قبل الجيش الإنجليزي - الفرنسي

- التركي.

- هل سمعت تلك الأبيات من الشعر؟ فاعلم أنه قد وضعها في ظرف وأنه سيرسلها غداً موقعة باسمه إلى ليزافتا نيقولايفنا؟ ما رأيك؟
- أراهن أنك أنت الذي دفعته إلى هذا.

- سوف تخسر الرهان. إنه موله حياً بها. وهل تعلم؟ لقد بدأ حبه هذا بكره. كان في البداية يكرهها كرهاً شديداً بسبب نزعاتها على الحصان، حتى لقد أوشك أن يشتمها في الشارع. بل إنه قد أهانها أمس الأول بينما كانت مارة. من حسن الحظ أنها لم تسمعه. وها هو ذا اليوم يرسل إليها أشعاراً. هل تعلم أنه يريد أن يجازف بنفسه فيعرض عليها قلبه ويده؟ فعلاً! فعلاً!
صرخت أقول غاضباً:

- عجيب أمرك يا لبيوتين! إنك تدور دائماً حول أوباش من هذا النوع، فتحرّضهم وتوجّههم.

- إنك تبالغ يا سيد "ج...ف"، أليس قلبك هو الذي يرجف خوفاً من تصور وجود منافس لك؟ هه؟
هتفت أقول وأنا أتوقف فجأة:
- ماذا؟

- طيب. مادام الأمر كذلك، فإنني سأعاقبك فلا أحكي لك بعد اليوم شيئاً. ومع ذلك، لو عرفت ما قد أقصه عليك، لاحترقت شوقاً إلى سماعه! أعلم مؤقتاً أن هذا الغبي ليس الآن مجرد كابتن محال على التقاعد بل قد أصبح من مالكي الأطيان، بل ومن كبارهم، لأن نيقولايفسي فولودوفتش باعه أرضه منذ قليل، وهي تقدّر في الحساب القديم بمائتي نفس. لست أكذب. ليشهد الله أنني صادق. لقد عرفت هذه الحقيقة من مصدر موثوق تماماً. والآن حاول أن تدبّر أمرك بنفسك:
لن أقول بعد اليوم شيئاً. إلى اللقاء.

هستيرياً. كان قد رجع إلى البيت منذ ساعة. فوجدته في حالة غريبة حتى إنني ظلمت، مدة خمس دقائق على الأقل، أظن أنه سكران. مسكين! إن زيارته لآل دروزدوف قد أجهزت عليه.

- "يا صديقي" (بالفرنسية)... ماذا أقول لك؟ لقد فقدت ترابط أفكارني تماماً... ليزا... ما زلت أحب وأقدر هذه الملاك كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي، نعم، كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي. ولكن يخيل إلي أنهم كانوا لا ينتظروني إلا ليعلموا مني شيئاً ما، أي ببساطة - ليستدرجونني إلى الكلام، ثم... بارك الله فيك!... مع السلامة! نعم، هذه حقيقة الأمر! صحت أقول نافذ الصبر:

- كيف! ألا تستحي؟

- يا صديقي، أنا الآن وحيد تماماً. "الخلاصة.. أمر مضحك" (بالفرنسية). تصوّر: هناك أيضاً كل شيء محشو أسراراً! سرعان ما أخذني يمطرني بوابل من الأسئلة عن حكايات الأنوف والأذان تلك، وكذلك عن أحداث سرية وقعت في بترسبرج. ذلك أنهم في الواقع، لم يسمعن إلا الآن عن الحوادث التي أثارها هنا نيقولا ي منذ أربع سنين. قلن يسألنني: "كنت أنت حاضراً، فرأيت كل شيء، فهل صحيح أنه مجنون؟". من أين جاءتهن هذه الفكرة؟ حقاً إنني لا أفهم. لماذا تصرّ براسكوفيا هذه، لماذا تصر هذا الإصرار كله على أن يكون نيقولا ي مجنوناً؟ إنها تحرص على ذلك، تحرص عليه حرصاً مطلقاً. وهذا المافريكي... ما اسمه؟... نعم... مافريكي نيقولا يفتش... إنه رجل شهم على كل حال" (بالفرنسية). أياكون هذا من مصلحته؟... ولكنها هي التي كانت البادئة في الكتابة من باريس إلى "هذه الصديقة المسكينة" (بالفرنسية). الخلاصة: إن براسكوفيا، كما تسميها "الصديقة المسكينة"، هي نموذج غريب من البشر، إنها كوروبوتشكا⁽¹⁾ الخالدة التي صوّرها

(1) "كوروبوتشكا" شخصية من شخصيات كتاب "النفوس الميتة" لجوجول، ومعنى الاسم "العبة الصغيرة"، والشخصية هي شخصية مالكة بخيلة محدودة تؤمن بالخرافات وتسلط عليها الأوهام.

جوجل، ولكنها كوروبوتشكا شريرة، كوروبوتشكا مشاجرة مقاتلة قد تضخمت تضخماً كبيراً.

- هي إذن برمبل حقيقي؟ أهي مضخمة إلى هذا الحد فعلاً؟

- طيب... لنسلم بأنها أصغر من كوروبوتشكا أيضاً. ما قيمة هذا! ولكن لا تقاطعني. إن رأسي يدور. الصلات بينهن سيئة جداً، باستثناء ليزا: فهذه ما تزال تكرر: "عمتي، عمتي..." . ولكن ليزا مأكرة، وإن وراء ذلك لسراً خفياً. أسرار! أما مع العجوز فالشقاق قائم. هذه "العمة" المسكينة تسوم الجميع سوء العذاب حقاً... ثم هناك امرأة الحاكم أيضاً، والمجتمع المحلي الذي لا يبدي قدراً كبيراً من الاحترام، وهناك "قلة أدب" كارمازينوف، وهناك عدا ذلك أيضاً، تلك الآراء عن جنون نيقولا، وهناك هذا الـ "ليوتين"... أمر لا أفهمه" (بالفرنسية)... و... ويقال إنها تضع كمادات خل على رأسها. ثم هناك نحن، أنا وأنت، وشكاياتنا ورسائلنا. أواه! ما أكثر ما عذبتها! وفي فترة كهذه الفترة! "إنني عقوق" (بالفرنسية). تصور: لقد عدت إلى البيت فوجدت رسالةً منها، اقرأها، اقرأ! آه... ما كان أقل سماحتي وكرمي تجاهها! مدّ إليّ الرسالة التي وصلته من فرفارا بتروفنا. يظهر أن فرفارا بتروفنا قد أحزنها أن قالت له: "ابق في بيتك" فهذا هي ذي تبعث إليه برسالة مهذبة رقيقة، وإن تكن موجزة وقاطعة: إنها تطلب من ستيفان تروفيموفتش أن يجيئها غداً غد، يوم الأحد، ظهراً، وتنصحه بأن يصطحب أحد أصدقائه (وقد ذكرت اسمي بين قوسين)، وتعد بأن تدعو من جهتها شاتوف بصفته أخ داريا بافلوفنا. "سوف يمكنك أن تحصل منها على جواب قطعي. هل يكفيك هذا؟ أهذا هو الإجراء الشكلي الذي كنت تحرص عليه ذلك الحرص كله؟". - لاحظ هذه الجملة الغاضبة التي ترد في نهاية رسالتها عن "الإجراء الشكلي". مسكينة، مسكينة، صديقة عمري كله! إنني أعترف بأن القرار المباغت الذي يحدد مصيري قد سحقتني سحقتاً إن صح التعبير... كنت ما أزال أحتفظ ببعض الأمل. أعترف لك بذلك. أما الآن فقد انتهى كل شيء. أنا أعلم أنه قد انتهى كل شيء. "شيء فظيع!" (بالفرنسية). آه... ليت يوم

الأحد هذا لا يحين أبداً، ليت بالإمكان أن تجري الأمور كما كانت تجري في الماضي: تظل أنت تجيء إلى هنا، وأظل أنا...
- إن الدنءات التي يرويها ليويتين والنمائم الكاذبة التي يلفقها هي ما أدخل الاضطراب والبلبل في نفسك.

- يا صديقي، لقد وضعت إصبعك الآن، إصبعك الصديقة، على نقطة أخرى موجعة أليمة. إن الأصابع الصديقة على وجه العموم قاسية لا ترحم، بل قد تنقصها اللباقة والكياسة في بعض الأحيان. سامحني. ولكن تصور أنني كنت قد نسيت هذا كله تقريباً، كنت قد نسيت كل هذه الدنءات. أو قل إنني لم أنسها، ولكنني لغباوتي كنت أحاول طوال مدة بقائي عند ليزا أن أكون سعيداً، وكنت أقنع نفسي بأنني سعيد. والآن... آه... الآن أفكر في تلك المرأة التي بلغت ذلك المبلغ كله من الكرم والتسامح والصبر تجاه عيوبي الكريهة! الحق أنها ليست على قدر كبير من الصبر. ولكن هل يجوز لي أن أتشكى من ذلك أنا السيء الطبع؟ أنا الذي أشبه الطفل بكثرة النزوات وشدة الأنانية ولكن دون أن أملك ما يملك الطفل من براءة! إنها تُعنى بأمري وتسهر على شؤوني منذ عشرين عاماً كخادمة، هذه "العمة المسكينة" (بالفرنسية) كما تطلق عليها ليزا هذا اللقب بكثير من الخفة والرشاقة... وها هو ذا الطفل، بعد عشرين عاماً، يريد أن يتزوج. إنه يطالب بتزويجه. إنه يكتب الرسالة تلو الرسالة، بينما هي ترش رأسها بالخل... وها هو ذا يبلغ هدفه: ففي يوم الأحد سأكون رجلاً متزوجاً. ما كان أغناني عن الإلحاح؟ لماذا كتبت تلك الرسائل كلها؟ نعم، نسيت أن أقول لك: إن ليزا تحب داريا إيفانوفنا حب العادة. أو هذا ما تقوله على الأقل. هي تقول عنها: "هذه ملاك" (بالفرنسية) ولكنها ملاك منطوي على نفسه". لقد نصحتاني كلتاها، حتى براسكوفيا نصحتني... لا، لم تنصحنني براسكوفيا.. آه! ما أكثر ما في نفس الـ "كوروبوتشكا" من سم! على كل حال، إذا شئت الدقة، وجب أن نقول إن ليزا لم تنصحنني أيضاً، وإنما قالت لي: "ما حاجتك إلى الزواج؟ إن لديك متعاً عقلية كافية!"، وضحكت. لقد غفرتُ لها هذا الضحك، لأن قلبها

هي ليس هادئاً كذلك. قالتا لي: ليس في وسعك مع ذلك أن تستغني عن امرأة. إن سن الأمراض والعجز قد اقتربت، فسوف تُعنى بأمرك وتسهر على علاجك. لم أنقطع عن أن أحدث نفسي بأن العناية الإلهية هي التي ترسلها إليّ في مغرب حياتي العاصفة، وأنها ستسهر على العناية بي كما يقال... وسوف تنفعني في مسكني على كل حال. انظر إلى هذه الفوضى! ما من شيء في مكانه! لقد أمرت في هذا الصباح بترتيب الغرفة. فانظر إلى هذا الكتاب الملقى على الأرض! لطالما استاءت صديقتي المسكينة، (بالفرنسية) من الوساخة في بيتي... وأأسفاه! بعد الآن لن يدوي صوتها هنا! "عشرون عاماً" (بالفرنسية). ... هنّ أيضاً قد تلقين، فيما أعتقد، رسائل لم يوقعها مرسلوها. تخيل هذا! يؤكد الناس أن نيقولا ي قد باع لبيادكين أرضه. "هذا إنسان شاذ عجيب!" (بالفرنسية). ثم ما لبيادكين؟ إن ليزا تصغي، وتصغي! آه... ما أكثر ما تصغي! لقد غفرت لها ضحكها. رأيت بأي وجه كانت تصغي. وما فريكي ذاك... لست أتمنى الآن أن أكون في مكانه.. "هو رجل طيب على كل حال" (بالفرنسية)، لكنه خجول قليلاً. مهما يكن من أمر، فليباركه الله...

وصمت. إنه الآن متعب مرهق حائر، وظل جالساً في مكانه خافض الرأس مطرقاً بعينه إلى الأرض. فانتهزت فرصة صمته لأقص عليه زيارتي لعمارة فيليبوف على نحو موزج، وعبرت له باقتضاب وبخشونة عن رأيي في أن أخت لبيادكين (التي لم أرها على كل حال) من الجائز أن تكون سقطت ضحية بين يدي نيقولا ي على نحو من الأنحاء في فترة عجيبة خفية من فترات حياته، كما قال لبيوتين، وأن من الممكن جداً أن يكون لبيادكين يتلقى مالا من نيقولا ي لهذا السبب. ولا شيء غير هذا. أما الشائعات المنتشرة عن داريا بافلوفنا، فما هي إلا أقاويل كاذبة، ونمائم لفقها هذا الوغد الدنيء لبيوتين، فذلك ما يؤكده ألكسي نيلتش بحماسة وحرارة، ولا داعي إلى تكذيبه البتة.

كان ستيفان تروفيموفتش يصغي إليّ ذاهل الهيئة، كأن أقوالي لا تمت إليه بصلة من الصلات، وليس له بها علاقة. وذكرت أيضاً حديثي. مع كيريلوف،

واضفت قائلاً إن كيريلوف ربما كان مجنوناً. فقال ستيفان تروفيموفتش برخاوة، كأنما على مضض:

- ليس مجنوناً، ولكنه من أولئك الناس الذين لهم آراء محدودة. "يتصورون الطبيعة والمجتمع الإنساني على غير ما خلقهما الله، وعلى غير ما هما في الواقع" (بالفرنسية). إن بعض الناس يمدحونهم ويتملقونهم. ولكن ستيفان فرخوفنسكي لن يفعل ذلك! لقد رأيتهم بيطرسبرج في الماضي مع هذه "الصديقة العزيزة" (بالفرنسية) (آه... لشد ما كنت جارحاً في معاملتها!)، فلم تخفني شتائمهم، لا ولا مدائحهم. وسيبقى الأمر على هذا النحو دائماً. ولكن دعنا من هذا ولنتكلم في شيء آخر... أظن أنني ارتكبت حماقات فظيعة: تصور أنني بعثت أمس رسالة إلى داريا بافلوفنا. إنني لألعن نفسي الآن لأنني بعثت إليها تلك الرسالة.

- ماذا قلت في تلك الرسالة؟

- صدق يا عزيزي أن نيتي كانت من أكرم النيات. أبلغتها أنني كتبت رسالة إلى نيقولا ي قبل خمسة أيام، بنية نبيله كل النبل كذلك. صحت قائلاً في غضب:

- الآن فهمت. كيف يجوز لك أن تقرن بين اسميهما هكذا؟

- لا تحطمني تحطيماً يا عزيزي، لا تصرخ في وجهي هذا الصراخ. إنني بدون ذلك مهشّم منذ الآن كما يهشّم صرصور! ثم إنني أعتقد أن تصوري كان نبيلاً كل النبل. لتصور أن شيئاً ما قد حدث فعلاً في سويسرا... بل وأنه لم يكن ثمة إلا بداية.. أفلا يكون من واجبي أن أسأل قليهما قبل كل شيء.. وذلك حتى لا أتعرض لسد الطريق أمامهما إذا.. لقد كانت نيتي نبيلة.

- يا إلهي! ما أغبى هذا التصرف!

أسرع ستيفان تروفيموفتش يوافقني قائلاً:

- نعم، هو تصرف غبي. لم تقل كلمة أصدق من هذه الكلمة. "كان تصرفي غيباً، ولكن ما العمل؟ لقد فعلت وانتهى الأمر!" (بالفرنسية). سأتزوج رغم كل شيء، ولو كان عليّ أن أغطي "خطايا الغير". ما كانت حاجتي إلى

الكتابة؟ أليس كذلك؟

- أعود أيضاً إلى هذه الفكرة؟

- أوه! لن يخيفني صراخك. إن أمامك الآن ستيفان فرخوفنسكي آخر. إن ستيفان فرخوفنسكي الذي كنت تعرفه قد دُفن. "انتهى الأمر" (بالفرنسية). ولماذا تصرخ؟ لا لسبب سوى أن الذي سيتزوج وسيزدان رأسه بقرنين ليس أنت. هل ساءك هذا الكلام من جديد؟ يا صديقي المسكين، إنك لا تعرف المرأة. أما أنا فلم أفعل شيئاً غير دراسة المرأة. "إذا أردت أن تنتصر على العالم بكامله، فانتصر على نفسك". ذلك هو الشيء الوحيد الذي أحسن قوله شاتوف "أخو زوجتي، وهورومانسي آخر من نوعك". يسرني أن أستمع منه هذه القاعدة الحكيمة. فها أنذا مستعد لأن أنتصر على نفسي فأتزوج. فما الذي سأصل إليه بدلاً من أن أغزو العالم؟ يا عزيزي، إن الزواج موت روحي لكل نفس مستقلة ذات كبرياء. الزواج سوف يحلطني ويفسدني، سوف يحرمني من القدرة والطاقة، سوف يحرمني من المهمة اللازمة لتحقيق مهمتي. سيكون لنا أولاد. وأكثر من ذلك أن هؤلاء الأولاد قد لا يكونون مني أنا. ماذا أقول؟ بل إنهم لن يكونوا مني حتماً. إن الرجل الحكيم لا يخشى أن ينظر إلى الحقيقة مواجهةً. لقد نصحتني ليويتين بأن أبني سدوداً لأحمي نفسي من نيقولا. إن ليويتين رجل أحمق. فالمرأة قادرة على أن تخادع حتى عين الله التي ترى كل شيء. حين خلق الله المرأة فقد كان يعرف حتماً ما ينبغي له أن يتوقعه. ولكنني على يقين من أن المرأة قد تدخلت هي نفسها في خلقها، فأجبرت الله على أن يخلقها كما هي الآن... بكل صفاتها وخصائصها. وإلا فمن ذا الذي يقبل أن يهيئ لنفسه متاعب كهذه المتاعب بغير ضرورة؟ أنا أعلم أن ناستاسيا ستغضبها مني هذه الآراء الجريئة... ولكن "انتهى الأمر" (بالفرنسية).

ما كان لستيفان تروفيموفتش أن يكون ستيفان تروفيموفتش نفسه لو أنه استطاع أن يقاوم إغراء هذا النوع من الأمازيح والأعيب اللفظية التي كانت شائعة شيوعاً كبيراً بين أحرار التفكير في زمانه. غير أن ذلك لم يدم

مدة طويلة. فقد اكتفى من تلك الأمازيج والألايب اللفظية بما قال، ثم إذا هو يصرخ قائلاً وقد بلغ ذروة الكرب في هذه المرة:

- آه... ليت يوم الأحد لا يحين أبداً. لماذا يستحيل أن يوجد أسبوعٌ بغير يوم أحد، ولو مرة واحدة، "إذا كان ثمة معجزة"؟ (بالفرنسية). لن يصعب على العناية الإلهية مع ذلك أن تلغي من التقويم يوم أحدٍ لتبرهن على قوتها للملاحدة، و"لينتهي الأمر"! آه... لكم أحببتها! عشرون عاماً! خلال عشرين عاماً! ولم تفهمني في يوم من الأيام!

- سألته مدهوشاً:

- ولكن عمّن تتكلم الآن؟ أنا أيضاً أصبحت لا أفهمك.

- "عشرون عاماً" (بالفرنسية). ولم تفهمني مرةً واحدة! آه... ذلك قاس. أهى تتصور حقاً أنني أتزوج عن خوف، حتى لا أكون في عوز وفاقة؟ آه... هذا عار! عمتاه! عمتاه! أنا من أجلك إنما... ألا فلتعلم هذه العمة أنها المرأة الوحيدة التي أحببتها حب العباداة طوال حياتي! عشرون عاماً! يجب أن تعلم ذلك، وإلا فلن يتم شيء، وسوف يكون عليهم أن يستعملوا القوة ليجروني فيضعوا رأسي تحت "مايسمونه" (بالفرنسية) إكليل الزواج.

تلك أول مرة أسمع فيها هذا الاعتراف، وأسمعه بألفاظ فيها كل هذه القسوة القاطعة. لا أكتمكم أنني قد استبدت بي رغبة في الضحك لا تقاوم ولا تغالب. لكنني أخطأت.

هتف يقول فجأة وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى كمن فجأته فكرة جديدة:

- لم يبق لي الآن أحد غيره! هو أُملي الوحيد. وحده يستطيع بعد اليوم أن ينقذني، ابني الصغير المسكين! ولكن... آه... لماذا تأخر؟ آه، يابني! حبيبتى بتروشكا!... رغم أنني لا أستحق أن أسمى أباً بل نمراً، فإنني... "أتركني يا صديقي" (بالفرنسية). سوف أضطجع قليلاً لأستجمع أفكاري. أنا مكدود جداً، جداً!... ومن جهة أخرى يُخيل إليّ أنه قد آن لك أنت أيضاً أن تمضي إلى النوم. أترى؟ لقد انتصف الليل...

الفصل الرابع

العرجاء

1

لم يكن شاتوف عنيداً في هذه المرة: لقد لبى الرجاء الذي أعربت له عنه في رسالتي، فجاء في ظهر الغد إلى عند ليزافتا نيقولايفنا. وصلنا في وقت واحد تقريباً. هذه زيارتي الأولى للسيدة دروزدوف وابنتها. كانت ليزافتا نيقولايفنا وابنتها ومافريكي نيقولايفتش جالسين في الصالون الكبير يتناقشون. كانت السيدة دروزدوف قد طلبت من ابنتها أن تعزف لها على البيانو لا أدري أي لحن من ألحان الفالس. ولكن حين أخذت ليزايفنا تعزف أعلنت الأم أن هذا اللحن ليس هو اللحن المطلوب. ولبساطته وسذاجته، تحيز مافريكي نيقولايفتش للفتاة، فأكد أن اللحن الذي عزفته هو بعينه الفالس الذي طلبته الأم. فاغتاظت براسكوفيا إيفانوفنا، وأخذت تبكي من شدة الغضب: كانت ساقاها متورمتين، وهي منذ بضعة أيام كثيرة النزوات والأخيلة، سريعة إلى المشاجرة، تختصم مع الجميع وإن تكن ليزا تخيفها دائماً.

سُروا برؤيتنا سروراً عظيماً. واحمرّت ليزا غبطة وابتهاجاً، وقالت لي "شكراً" (من أجل شاتوف طبعاً) ومضت نحوه تنظر إليه مستطلعة.

وقف شاتوف على العتبة وقد بدا عليه الارتباك، وظهرت في هيئته الخرافة. وشكرت له ليزا مجيئه، وقادته إلى قرب أمها.

- هو السيد شاتوف الذي حدثتك عنه. وهذا هو السيد (ج. ف.) الصديق الحميم لستيفان تروفيموفتش، وصديقي أنا أيضاً. لقد تعرف مافريكي

نيقولا يفتش إليه أمس.

- أيهما أستاذ؟

- ما من أحد منهما أستاذ يا ماما.

- بلى. أنت نفسك قلت لي إن أستاذاً سيأتي إلينا اليوم.

ثم أضافت تقول وهي تشير إلى شاتوف مشمزة الهيئة:

- لا شك أن الأستاذ هو هذا.

- لم أقل لك أبداً أن أستاذاً سيأتي إلينا اليوم. إن السيد (جـ..ف) موظف،

والسيد شاتوف طالب سابق.

- طالب أو أستاذ... المهم أنه من الجامعة. إنك لا تسعين إلا للمجادلة

والمناقشة. إن الذي رأيناه في سويسرا كان له شارب ولحية صغيرة.

قالت ليزا:

- إن ابن ستيفان تروفيموفتش هو الذي تسميه ماما دائماً باسم الأستاذ.

ثم اقتادت شاتوف إلى الطرف الآخر من الصالون حيث جلسا على كنية.

ودمدت تقول لشاتوف وهي ما تزال تتفرس فيه مستطلعةً، وتنظر خاصة

إلى شعره المتناثر خصلاً:

- حين تتورم ساقها تصبح دائماً على هذه الحال. إنها مريضة.

سألتنى العجوز التي تركتني لها ليزا بغير رحمة أو رأفة:

- أنت عسكري؟

- لا إنني أعمل في..

فتدخلت ليزا على الفور قائلة:

- إن السيد (جـ..ف) صديق حميم لستيفان تروفيموفتش.

- أنت تعمل في خدمة ستيفان تروفيموفتش. هو أيضاً أستاذ. أليس كذلك؟

صاحت ليزا تقول غاضبة:

- أوه! ماما! إنك لا تحلمين ليلاً ولا نهاراً إلا بأستاذة!

- يكفيني الذين أراهم وأنا يقظ في النهار. إنك لا تفكرين إلا في معارضة

أمك. هل كنتَ هنا، منذ أربع سنين، أثناء إقامة نيقولا في سيفولودوفتش؟

فأجبت بأنني كنت هنا فعلاً.

- هل كان معك رجل إنجليزي.

- لا، لم يكن ثمة رجل إنجليزي.

أخذت ليزا تضحك. فقالت الأم:

- هيه! أرايت أنه لم يكن ثمة رجل إنجليزي. لم يكن ذلك إذن إلا كذباً.

إن فرارا بتروفا وستيفان تروفيموفتش يكذبان. هم جميعاً يكذبون على كل حال.

- إن عمتي وستيفان تروفيموفتش قد وجدا شيئاً من التشابه بين نيقولا

فسيفلودوفتش والأمير هاري في مسرحية هنري الرابع التي ألفها شكسبير.

وها هي ذي ماما تقول الآن إن حكاية وجود ذلك الانجليزي كذب.

إذا لم يوجد هاري هنا، فمعنى ذلك أنه لم يكن ثمة رجل إنجليزي، وأن

نيقولا فيسيفلودوفتش كان وحده يؤلف مهازل.

وجدت ليزا أن من الضروري أن تشرح لشاتوف فقالت له:

- أؤكد لك أن ماما تفعل هذا عامدة. إنها تعرف من هو شكسبير. وقد

قرأت لها بنفسها الفصل الأول من مسرحية عطيل. ولكنها الآن مريضة جداً.

ماما! اسمعي. دقت الساعة الثانية عشرة. هذا وقت تجرعك الدواء.

ودخلت الخادمة تعلن:

- وصل الطبيب.

فنهضت السيدة العجوز، ونادت كلبها: "زيميركا، زيميركا، أنت على

الأقل ستأتي معي!".

ولكن زيميركا، وهو كلب هرم خبيث، رفض أن يطيع، واندرس تحت

الكنبة حيث كانت ليزا جالسة.

قالت السيدة تخاطب الكلب:

- ألا تريد أن تأتي؟ طيب! لست في حاجة إليك.

ثم التفتت إليّ وقالت:

- إلى اللقاء أيها السيد. إنني لا أعرف اسمك ولا اسم أهلك.

- أنظون لافرنيفتش...

- لا قيمة لهذا عندي. إن ما يدخل من إحدى الأذنين يخرج من الأخرى.
لا ترافقني يا مافريكى نيقولايفتش. أنا لم أناد إلا زيميركا. الحمد لله على
أنني ما زلت أستطيع أن أمشي وحيدة، وغداً سوف أمضي أنتزه.
وخرجت ساخطة أشد السخط.

قالت ليزا وهي تبسم لمافريكى نيقولايفتش ابتسامة فيها كثير من
الصدقة، حتى لقد أشرق وجه الشاب سروراً بنظرة الفتاة إليه:

- يا أنطون لافرنيتفتش، تحدث قليلاً مع مافريكى نيقولايفتش، بانتظار أن
نفرغ نحن من حديثنا. أوكد لكما أنكما كلاكما ستجنيان خيراً من مزيد من
التعارف بينكما.

لم يبق لي من حيلة: بقيت أتحدث مع الضابط.

2

ما كان أشدّ دهشتي حين تأكدت من أن الغرض الذي استدعت الفتاة من
أجله شاتوف إنما يتعلق بالأدب فعلاً! كنت قد تخيلت، لا أدري لماذا، أنها
كانت تهدف إلى غاية أخرى حين استدعته. فحين لاحظنا أننا ومافريكى
نيقولايفتش أنهما يتكلمان بصوت عال، ولا يخطر ببالهما أن يتخاطبا في
السري، أخذنا نصغي إليهما، وسرعان ما اتجها هما إلينا يسألاننا النصيح في أمر
المشروع الذي تعرضه ليزافتا نيقولايفنا: كانت ليزافتا نيقولايفنا قد تخيلت
إصدار كتاب ترى أنه مفيد جداً، لكنها في حاجة إلى معاون لاقتقارها إلى
الخبرة. وقد أدهشتني اللهجة الجادة التي أخذت تشرح بها خطتها لشاتوف.
فقلت لنفسي: "هذه فتاة متطورة. لم تذهب إقامتها بسويسرا هدرًا". وكان
شاتوف يصغي إليها بانتباه، مطرقاً إلى الأرض، ليس يدهشه في ما يبدو أن
يرى فتاة من المجتمع الراقي، فتاة لاهية غير مكترثة، تهتم بأمر يلوح للمرء
في الوهلة الأولى أنها لا تناسبها كثيراً.

وإليك المشروع الأدبي⁽¹⁾ الذي تفكر فيه ليزا: إن عدداً كبيراً من المجلات والجرائد يُطبع في روسيا، سواء في الأقاليم أو في العواصم، وهذه المجلات والجرائد تطلع قراءها على جميع الأحداث بانتظام، وتمضي السنة وتنكوم الجرائد في الخزائن، أو تُرمى، أو تُمزق، أو تصنع منها أكياس، أو تستخدم في تغليف أشياء شتى. إن بعض الأحداث التي روتها المجلات والجرائد يكون قد أثار اهتمام الناس إثارة شديدة، فاحتفظ الناس بذكراه، لكن السنين تمر فينسونه. وإن كثيراً من الأفراد يحبون بعد ذلك أن يتذكروا تلك الأحداث، ولكن ما أصعب البحث بين تلك الأكوام من الأوراق عن أمر معين في موضوع حادثة خاصة وقعت لا ندري أين ولا متى!... فإذا استطعنا أن نكتف في كتاب واحد جميع الوقائع التي حدثت خلال سنة كاملة، مرتبين إياها على الأيام والأشهر وفقاً لخطة موضوعة وفكرة موجهة، مضيفين إليها فهرساً ودليلاً أبجدياً، فإن كتاباً من هذا النوع سوف يصوّر السمات الأساسية للحياة الروسية خلال السنة المنصرمة، ومع ذلك لا تكون هذه المعلومات قد اشتملت إلا على جزء يسير من الوقائع.

- بهذا تُحلّين محل الجرائد والمجلات الكثيرة عدداً من الكتب الضخمة! ذلك كل شيء.

لكن ليزا فتنا نقول لا يفنا، رغم أنها لا تجيد التعبير عن أفكارها، دافعت عن مشروعاتها بحرارة مؤكدة على علمها بالمصاعب التي ستعرض تنفيذ هذا المشروع. قالت: ليس الأمر إلا أمر كتاب واحد في مجلد واحد، ولن يكون ضخماً ضخامة كبيرة. وهبنا اضطررنا أن نجعله أسماك، فإن من الواجب أن يكون واضحاً على كل حال: إن كل شيء متوقف على الخطة المرسومة، وعلى طريقة عرض الوقائع. لن نستطيع طبعاً أن نجمع وننشر كل الوقائع. فالقرارات والمراسيم التي تصدرها الحكومة، والقوانين والأنظمة المتعلقة

(1) كان دوستوفسكي قد خطر بباله يوماً أن يجمع في كتاب طائفة من الوقائع المختلفة تصور الحياة الروسية وتستمد من الجرائد.

بالإدارات المحلية، هذه كلها هامة جداً، ولكن لا يمكن أن يكون لها مكان في الكتاب الذي أريد إصداره. يجب علينا أن نقصر اختيارنا على أحداث تميز الحياة الروحية للشعب الروسي وتميّز شخصيته، في هذه المرحلة بعينها خاصة. لا شيء يجب إهماله: الطرائف، الحرائق، التبرعات العامة، الأعمال البطولية والإجرامية، الخطب، الفيضانات، إلخ، وربما بعض قرارات الحكومة، على شرط أن لا نختار إلا الأحداث التي تصوّر العصر، نجتمعها على نية محددة، ونخضعها لفكرة موجّهة. فهذا الفكرة الموجهة ستلقي نوراً على المجموع، وتجعل منها كلاً مترابطاً. ثم إن هذا الكتاب عدا قيمته الوثائقية، يجب أن يستهوي محبي القراءات الخفيفة أيضاً. سوف يكون نوعاً من لوحة كاملة تصوّر الحياة الروحية والأخلاقية في داخل روسيا خلال عام. "يجب أن يشتريه جميع الناس. يجب أن يوجد هذا الكتاب على كل مائدة. إنني أدرك أن كل شيء متوقف على المخطط، ومن أجل ذلك إنما أتوجه إليك وأستعين بك". كذلك قالت ليزا بحرارة. ورغم أن شروحها كانت غامضة وناقصة فقد بدأ شاتوف يفهم. فقال مدمماً وهو ما يزال خافض الرأس:

- سيكون للكتاب إذن اتجاه وميل. سيتم اختيار الوقائع والأحداث على أساس ميل معين.

- لا، أبداً. يجب أن لا ننظر إلى الأمور من خلال رأي معين. لا داعي إلى اتباع اتجاه محدّد. سيكون اتجاهنا الوحيد هو عدم التحيز. قال شاتوف وهو يطمّ جسمه قليلاً:

- ولكن اتباع اتجاه معين ليس بالأمر السيء إلى هذا الحد. وإنه لمن المستحيل على كل حال أن يستغني المرء عن ميل معين استغناء تاماً ما دام يختار. إن اختيار الوقائع نفسه سيشير للقراء إلى الطريقة التي يجب عليهم أن يفهموها بها. ليست فكرتك رديئة.

قالت ليزا سعيدة كل السعادة:

- أعتقد إذن أن مثل هذا الكتاب ممكن؟

- يجب أن أدرس المسألة وأن أفكر فيها. هذا عمل ضخم. يستحيل على المرء أن يرى جميع جوانبه فوراً. إننا تعوزنا الخبرة. وحتى بعد إصدار المجلد الأول، لن نكون قد علمنا أشياء كثيرة ولن تكون خبرتنا قد اكتملت. ربما بعد عدة تجارب من هذا النوع.. ولكن الفكرة شائقة هامة، وهي نافعة مفيدة.

ورفع عينيه أخيراً، كانتا تلمعان، وكان مفتوناً.
وسألها أخيراً بلهجة فيها خجل وحنان معاً:
- أنت ابتكرت هذه الفكرة وحدك من تلقاء نفسك؟
أجابت ليزا مبتسمة تقول:

ليس ابتكار الفكرة أمراً صعباً. وإنما الصعب وضع المخطط. إن أموراً كثيرة تفوتني. أنا لست ذكية جداً، ولكنني لا ألاحق إلا ما أراه رؤية واضحة.
- تقولين "لا ألاحق"؟

- لا شك أنني استعملت كلمة بدلاً من كلمة؟ أليس كذلك؟
هكذا أسرعت تسأله ليزا بحرارة. فأجابها بقوله:
- لا. الكلمة مناسبة. لم أشأ أن أقول شيئاً.

- حين كنت ما أزال في الخارج، أقنعت نفسي بأنني أستطيع أنا أيضاً أن أكون نافعة. إنني أملك مالا، ولا أصنع به شيئاً. فلماذا لا أكون قادرة على أن أساهم أنا أيضاً في العمل العام؟ على أن الفكرة قد جائتني من تلقاء نفسها. لم أبحث عنها، لم أسع إليها. لكنني سعدت باكتشافها. ومع ذلك سرعان ما رأيت أنني لا أستطيع الاستغناء عن معاون لأنني لا أجد القيام بعمل وحدي. طبعاً سيكون هذا المعاون شريكاً في إصدار الكتاب. إننا نقسم إصدار الكتاب: فمناك المخطط والعمل، ومني الفكرة الأولى والمال. ألا تعتقد أن ريع الكتاب سيغطي نفقاته؟

- إذا أحسنّا الاهتداء إلى مخطط جيد فسوف يباع الكتاب.
- لاحظ أنني لا أفعل هذا بغية الحصول على فوائد. ولكنني أتمنى أن يروج الكتاب رواجاً كبيراً، وأن يعود علينا ببعض الربح.

- وأنا ما شأني في الأمر؟

- أنت المعاون الذي أدعوه إلى مشاركتي في إصدار الكتاب مناصفةً.
أنت تضع المخطط.

- كيف عرفت أنني قادر على تخيل هذا المخطط؟

- حَدَّثْتُ عَنْكَ. وهنا سمعت... إنني أعرف أنك ذكي جداً، و... أنك
تعمل، وأنت تفكر كثيراً. كلمني عنك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي في
سويسرا...

كذلك أسرع تضيف هذه الجملة الأخيرة. وتابعت كلامها تقول:

- إنه رجل ذكي جداً أليس كذلك؟

- شملها شاتوف بنظرة عجلى، وسرعان ما عاد يخفض عينيه.

قالت ليزا:

- نيقولا فيسيفولودوفتش، هو أيضاً، حَدَّثَنِي عَنْكَ كثيراً.

فاحمرّ وجه شاتوف فجأة.

قالت ليزا وهي تتناول عن الكرسي حزمة من الجرائد كانت قد أعدتها
ووضعتها هناك:

- إليك الجرائد على كل حال. لقد حاولت أن أتخير من بين الوقائع

بعضها، فأشرت إليه ووضعت له أرقاماً... سوف ترى.

تناول شاتوف حزمة الجرائد.

- خذها معك، وادرسها في بيتك. أين تسكن؟

- عمارة فيليوف، شارع إيبفانيا.

- أعرف. وهناك أيضاً إنما يسكن، فيما أظن، رجل يُدعى لبيادكين.

لبث شاتوف جالساً، خافض العينين، ممسكاً حزمة الجرائد بيده، صامتاً

لا يجيب خلال دقيقة كاملة. ثم قال بصوت منخفض انخفاضاً غريباً حتى

ليكاد يكون متممة:

- الأفضل أن تختاري لمثل هذه الأمور شخصاً آخر. أنا لن أنفعك.

فاحمرت ليزا احمراراً شديداً، ثم هفتت تقول:
- أي أمور تقصد؟ ثم نظرت إلى الضابط: يا مافريكي نيقولايفتش، جثني
من فضلك بالرسالة التي وصلت منذ مدة قصيرة.
وتبعت الضابط إلى المائدة.

قالت مضطربة أشد الاضطراب وهي تلتفت نحوي فجأة وتفصّ الرسالة:
- انظر! هل رأيت في حياتك شيئاً كهذا؟ اقرأ الرسالة بصوت عال،
أرجوك. إنني في حاجة إلى أن يسمعها السيد شاتوف أيضاً.
فقرأت الرسالة التالية مندهشاً أشد الاندهاش:

إلى الأنسة توشين الكاملة أعظم الكمال

إلى المحترمة جداً ليزافتا نيقولايفنا!

آه ما أروعها

ليزافتا توشين،

حين تعدو مع قريبها

على صهوة جوادها الكريم

فتلاعب الريح صفائر شعرها.

أو حين تسجد في الكنيسة

فيتخضب وجهها بجمرة حلوة.

عندئذ أتطلع إلى أفراس الزواج المشروعة

وأتابع آثارها بآليا...

"نظمها جاهل أثناء مناقشة"

"سيدتي.."

"أكثر من أي إنسان آخر، يؤسفني ويحزنني أنني لم أفقد ذراعاً في
سياستوبول، لأنني لم أكن في سياستوبول في يوم من الأيام، وإنما
قضيت مدة الحرب أعمل في مصلحة التموين الخسيسة، وذلك ما أعده
صغاراً. أنت إلهة من آلهة الأساطير القديمة، أما أنا فلست شيئاً، ولكنني
أحس سلفاً باللانهاية. اعتبرني هذا قصيدة، فهو ليس أكثر من ذلك. وما

الشعر في النهاية إلا حماقة، لكنه يسوغ ما لو قيل نثرًا لُعدّ وقاحة. هل يمكن أن تغضب الشمس من دوية الماء إذا خاطبتها الدوية بقصيدة من قرارة قطرة الماء التي يكتشف فيها المِجهر عددًا كبيراً من هذه الدويبات؟ حتى نادي حماية الحيوانات⁽¹⁾ الكبيرة الذي أنشئ ببترسبرج، في المجتمع الراقى، رغم ما يشعر به من عطف على كلب أو حصان، وهو عطف في محله، إنما يحتقر دوية الماء الرقيقة ولا يشير إليها أي إشارة، لأنها غاية في الصغر. أنا أيضاً في غاية الصغر. وفكرة الزواج يمكن أن تبدو سخيفة مضحكة. لكنني سأملك بعد قليل أرضاً تُقدّر في الحساب القديم بمائتي نفس⁽²⁾، وذلك بواسطة رجل كاره للبشر لا بد أنك تحتقرينه. إن في إمكاني أن أطلعك على أشياء كثيرة، بل إنني مستعد لأن أواجه احتمال النفي إلى سيبيريا، لأنني أستند إلى وثائق. لا تحتقري ما أعرضه عليك. اعتبري رسالة دوية الماء شعراً".

هفتت أقول مستاءً:

- هذه الرسالة قد كتبها وغد حقير سكير. إنني أعرفه.

قالت ليزا متدفقة في كلامها وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة:

- تلقيتها أمس. فسرعان ما أدركت أنها صادرة عن معتوه! لم أظهر عليها ماما حتى الآن، حتى لا تضطرب مزيداً من الاضطراب. ولكن إذا تمادى، فإنني لا أدري ماذا أفعل. إن ما فريكي نيقولا يفتش يريد أن يمضي إليه فيؤدبه ويرده إلى الصواب.

ثم قالت لشاتوف:

- لما كنت أعدك معاوئي، وما دمت تقطن في نفس العمارة، فقد أردت أن أسألك عما ينبغي أن أتوقع منه.

فدمدم شاتوف يقول كمن يتكلم على مضض:

- سكير ودنيء!

(1) تأسست جمعية لحماية الحيوانات سنة 1875 ببترسبرج.

(2) قبل إصلاح 1861 كانت قيمة الأرض تقدر بعدد "النفس" الأتقان.

- أهو غبي إلى هذا الحد؟

- لا يكون غيباً إذا لم يشرب فيسكر.

قلت ضاحكاً:

- أعرف جنراً لا كان ينظم أشعاراً كهذه تماماً.

وانبرى مافريكي نيقولا يفتش الصموت دائماً فقال على حين فجأة:

- هذه الرسالة وحدها تدل على أنه يبيت أمراً.

سألت ليزا:

- سمعت أنه يعيش مع أخته، أهذا صحيح؟

- نعم.

- يظهر أنه يضطهدا ويسومها سوء العذاب. أهذا صحيح؟

مرة أخرى رفع شاتوف عينيه نحو ليزا، وقطب حاجبيه، وتقدم خطوة

نحو الباب وهو يدمدم قائلاً:

- ذلك لا يعني!

صاحت ليزا تقول مضطربة كل الاضطراب:

- انتظر! إلى أين تذهب؟ ما يزال علينا أن نتفق على أمور كثيرة!

- على ماذا يجب أن نتفق؟ سأبلغك غداً بردي...

- لم نتحدث حتى الآن عن الشيء الأساسي، عن المطبعة. صدق أن

مشروعي ليس مزاحاً. إنني أريد أن أعمل فيه جادة.

كذلك ألحت ليزا وهي تضطرب مزيداً من الاضطراب. وتابعت كلامها

تقول:

- إذا قررنا إصدار هذا الكتاب، فأين سنطبعة؟ ذلك أهم شيء. لن نمضي

نقيم بموسكو خصيصاً لهذا الغرض. ومن جهة أخرى لا نستطيع أن نعتمد

على المطبعة الموجودة هنا لإنجاز عمل من هذا النوع. لذلك قررت منذ مدة

طويلة أن تكون لي مطبعة خاصة بي، تُسجّل باسمك طبعاً. أنا أعلم أن ماما

لن تسمح لي بامتلاك المطبعة إلا على شرط أن تُسجّل باسمك...

سألها شاتوف مرّبداً الوجه:

- كيف عرفت أن في وسعي أن أتولى أمر مطبعة؟

- إن بطرس ستيفانوفتش هو الذي حدثني عنك في سويسرا، فأكد لي أنك قادر على إدارة مطبعة، لمعرفتك بالمهنة. حتى لقد أراد أن يحملني رسالة إليك، لكنني نسيت.

تغير وجه شاتوف لدى سماع هذه الكلمات (أتذكر هذا الآن). ولبث صامتاً لحظة، ثم فتح الباب فجأة وخرج. زعلت ليزا.

وسألني: - هل يتصرف دائماً على هذا النحو؟

وبينما كنت أرفع كتفيّ جواباً على سؤالها، إذا هو يعود بغتة، فيتوجه نحو المائدة رأساً، فيضع عليها حزمة الجرائد التي كان قد حملها. وقال: - لن أتعاون معك. لا يتسع وقتي...

فهمت ليزا تقول بصوت متألم متضرع:

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ يبدو عليك أنك زعلان!

فظهر عليه أن نبرة صوتها قد فاجأته، فتأملها ملياً بضع لحظات، كأنه يريد أن ينفذ إلى قرارة نفسها. ثم قال بصوت خافت: - ليس هذا مهماً. لا أريد.

وخرج جازماً في هذه المرة.

بدالي في تلك اللحظة أن ليزا قد تشوشت تشوشاً كبيراً تجاوز الحدود المعقولة.

وقال مافريكي نيقولايفتش: - إنه غريب الأطوار حقاً.

3

"غريب الأطوار" فعلاً. ولكن الأمر كله ليس واضحاً، ولا بد أن له أسباباً خبيثة. رفضت، بيني وبين نفسي، أن آخذ مشروع نشر الكتاب مأخذ الجد. ثم إن هناك تلك الرسالة الحمقاء التي يعرض فيها كاتبها، وذلك أمر واضح كل الوضوح، أن يشي بشخص ما بالاستناد إلى وثائق. ولم ينطق

أحد بكلمة حول هذا الموضوع، وجعلوا يتكلمون في شيء آخر. وهناك أخيراً حكاية المطبعة، وانصرف شاتوف على حين فجأة مدفوعاً إلى ذلك بكلمات معينة قالتها ليزا بهذا الصدد. ذلك كله حملني على التفكير في أن أمراً أجهله كان قد حدث قبل وصولي، وأن وجودي إذن كان زائداً، وأن ذلك كله لا يعني علي كل حال. ثم لقد آن أوان الانصراف. وما يجوز أن تمتد زيارة أولى وقتاً أطول. فاقتربت من ليزا نيقولايفنا لأودعها.

كانت كأنها نسيت وجودي، وهي ما تزال واقفة أمام المائدة، غارقة في أفكارها، خافضة الرأس، محدقة بعينها إلى السجادة. دمدمت تقول بصوتها الذي ما يزال ودوداً:

- آ... أنتصرف أيضاً. انقل تحيتي إلى ستيفان تروفيموفتش وقل له أن يجيئني في أقرب وقت ممكن. يا مافريكي نيقولايفتش، إن أنطون لافرونيتفتش ذاهب. اعذر ماما، فإنها لا تستطيع أن تجيء لتودعك. وخرجت. فلما وصلت إلى أدنى السلم أدركني خادم وقال لي:

- السيدة ترجوك أن تعود.

- أهي السيدة أم ليزافتا نيقولايفنا؟
- ليزافتا نيقولايفنا.

فلما رجعت وجدت ليزا انتقلت من الصالون الكبير إلى صالة الاستقبال المجاورة. وكان الباب الذي يفصل هذه الصالة عن الصالون الذي بقي فيه مافريكي نيقولايفتش مغلقاً.

ابتسمت لي ليزا وهي مصطبغة الوجه بصفرة شديدة. كانت واقفة في وسط الغرفة على وضع متردد، وكان واضحاً أنها تعاني صراعاً داخلياً عنيفاً. وفجأة تناولت يدي دون أن تقول كلمة واحدة، وقادتني نحو النافذة. ودمدمت تقول لي وهي تصوّب إليّ نظرة حارة امرأة نافذة الصبر، لا تقبل أي اعتراض:

- أريد أن أراها حالاً. أريد أن أراها بعيني، وأرجوك أن تساعدني في هذا. سألتها مرتاعاً:

- مَنْ التي تريدن أن ترينها يا ليزافنا نيقولايفنا؟
- أخت لبيادكين، تلك العرجاء... أضحك أنها تعرج؟
ذهلت وشدهت، وأسرعت أجيبها بصوت خافت أيضاً:
- لم أرها في حياتي، ولكن قيل لي إنها عرجاء، قيل لي هذا أمس.
- يجب أن أراها حتماً. هل يمكن أن يتم هذا اللقاء اليوم؟ هل تستطيع أن تدبر ذلك؟

وشعرت نحوها بشفقة على حين فجأة. قلت:
- مستحيل. حتى إنني لا أعرف كيف أحتال على الأمر. سأرى شاتوف...
- إذا لم تتوصل إلى تدبير هذا اللقاء حتى الغد، فسأذهب أنا إلى عندها،
سأذهب وحدي، لأن مافريكى نيقولايفتش يرفض أن يصحبني. أملي الوحيد
فيك أنت. لا أستطيع أن أعتد على أحد غيرك. لقد كلمت شاتوف بكثير من
الحماقة والغباوة منذ قليل. إنني على يقين من أنك رجل شريف كل الشرف،
وأنتك ربما كنت مخلصاً لي. دبر لي هذا اللقاء، أرجوك!
أحسست فجأة برغبة قوية كل القوة في مساعدتها. فقلت لها بعد لحظة
من تأمل:

- إليك ما سوف أفعله: سأذهب بنفسى، وسأظفر برؤيتها حتماً، حتماً،
لك علي عهد الشرف لأظفرن بذلك. ولكن اسمحي لي بأن أكاشف في
شاتوف بالأمر.

- قل له إن هذه رغبتى، وإنني أصبحت لا أطيق الانتظار ولكن قل له أيضاً
أنني لم أخدعه منذ قليل. فلعله انصرف لأنه صريح جداً، ولأنه تخيل أنني
أردت أن أخدعه. لا، لم أكذب. إنني عازمة فعلاً على إصدار ذلك الكتاب
وعلى إنشاء مطبعة.

قلت ملحاً بحرارة:

- نعم، إنه صريح وشريف.
- ولكن إذا لم يتم الأمر غداً فسوف أذهب إليها بنفسى مهما يحدث من
أمر، سوف أذهب إليها ولو عرف بذلك جميع الناس.

قلت وقد استرديت هدوئي:

- لن أستطيع أن أجيئك غداً قبل الساعة الثالثة.

قالت وهي تبتسم:

- طيب. أنتظرِكَ في الساعة الثالثة. لم يخطئ ظني إذن بالأمس حين

قدّرت أنك مخلص لي.

وشدت على يدي بسرعة، وجرت تدرك ما فريقي يقول لا يفتش.

خرجت مرهقاً بثقل الوعد الذي قطعته على نفسي. لم أفهم ما حدث.

رأيت امرأة قد بلغت ذروة الكمد والحزن، ولا تخشى أن تعرّض نفسها لسوء

باعتمادها على رجل لا تكاد تعرفه. إن ابتسامتها الملائكة، في لحظة تبلغ

هذا المبلغ من الخطورة، واعترافها هي ذاتها بأنها لاحظت عواطفها، ذلك

كله قد هز قلبي هزة قوية. ولكنني لم أشعر نحوها إلا بالشفقة. وأصبحت

أسرارها في نظري مقدسة إن صح التعبير، فلو أراد أحد أن يفضي بها إليّ

الآن لسدت أذنيّ رافضاً سماعها وكنت مع ذلك لا أدري حقاً كيف عسى

أتصرف لأنني بوعدتي. بل هناك ما هو أكثر من ذلك: كنت لا أعرف على

وجه الدقة ما المطلوب مني. إن عليّ أن أهيب لقاءً، ولكن أي لقاء؟ وكيف

أتصرّف من أجل أن أجمعهما؟ كان أمني كلّه في شاتوف. ولكنني كنت على

ثقة بأنه لن يساعطني البتة. ومع ذلك هرعت إليه.

4

لم يعد إلى البيت إلا في نحو الساعة الثامنة مساءً. وما كان أشد دهشتي

حين رأيت عنده زوراً، هم ألكسي نيلتش وسيد لا أكاد أعرفه، رجل يقال له

شيجالوف، هو أخو زوجة فرجنسكي.

إن شيجالوف هذا قد وفد إلى مدينتنا منذ قرابة شهرين، إذا لم يخطئ

تقديري. لا أدري من أي بلد جاء. كان يقال إنه نشر مقالات في مجلة تقدمية

بيطرسبرج. وقد قام فرجنسكي بتعريف أحدنا بالآخر في الشارع ذات يوم.

لم أر في حياتي وجهاً كوجه هذا الرجل عبوساً وتجهماً بل وحداداً. لكأنه

يتوقع دمار العالم وخراب الكون لا في وقت قريب أو بعيد، وفقاً لنبوءات
 يمكن أن تتحقق ويمكن أن لا تتحقق، بل في وقت محدد معين، بعد غد مثلاً،
 في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من المساء. لم نكد نتبادل
 كلمتين في ذلك اللقاء الأول، وإنما اكتفينا بأن نتصافح كما يتصافح شريكان
 في مؤامرة. وقد لفتت نظري فيه خاصةً أذناه الضخمتان ضخامة غير عادية،
 الطويلتان العريضتان السميكتان، المتباعدتان عن رأسه تباعداً غريباً. وكانت
 حركاته بطيئة خرقاء. إذا كان ليبوتين يتخيل أننا قد نتوصل يوماً إلى إنشاء
 تعاونية على طريقة فورييه في مقاطعتنا، فإن شيجالوف كان يحدد لك اليوم
 والساعة اللذين سيتحقق فيهما قيام هذه التعاونية. لقد أحدث شيجالوف في
 نفسي إحساساً يشتمل على شؤم. وفاجأني أن ألقاه عند شاتوف، لاسيما وأن
 شاتوف كان لا يحبّ الزيارات كثيراً.

لقد سمعته يتناقشون هم الثلاثة مناقشة حامية جداً منذ أن كنت أصعد
 السلم. كان يبدو أنهم يتشاجرون. ولكن ما إن دخلت حتى صمتوا. كانوا
 يتشاجرون وهم واقفون، ولكنهم حين رأوني عادوا يجلسون، فكان عليّ
 أن أجلس أنا أيضاً. وران على الغرفة صمت أبله امتد ثلاث دقائق كاملة.
 وتظاهر شيجالوف بأنه لا يعرفني رغم أنه قد تعرّفني فعلاً، تظاهر بذلك لا
 بدافع عداوة، بل بدون أي سبب حتماً. أما ألكسي نيلتش فقد حياني وحييته
 من بعيد صامتتين، دون أن نتصافح، لا أدري لماذا! أخذ شيجالوف يرمقني
 بنظرة قاسية، مستاءة، مقتنعاً بأنني سأنهض وأنصرف. وقام شاتوف أخيراً،
 وقام بعده الآخران. وخرجوا دون أن يودّعا. ولكن شيجالوف قال عند العتبة
 لشاتوف الذي كان يشيعهما إلى الباب:

- تذكر أن عليك حساباً لنا ستؤديه.

- أنا لا أبالي بهذا كله، وليس عليّ حساب أؤديه لأحد.

قال شاتوف ذلك وأغلق الباب وراءهما، وأحكم شدّ مزلاجيه. ثم قال
 وهو ينظر إليّ ويتسم ابتسامة تشبه أن تكون تكشيرة:
 - يا للمعتوهين!...

كان يبدو غاضباً، وأدهشني منه أن يكون هو البادئ بالكلام. لقد عودني، حين كنت أجيء إليه (وذلك نادر جداً) أن أراه يجلس في ركن من الأركان عابساً، وأن يجيب عن أسئلتني على مضض، ثم لا ينتعش ويتحمس إلا بعد وقت، فإذا هو يتحدث عندئذ راضياً مسروراً. ولكنه حين يشيئك مودعاً ويفتح الباب، يسترد هيئة من ظفر أخيراً بالتخلص من عدو شخصي.

قلت: - لقد تناولت الشاي عند ألكسي نيلتش. أعتقد أن الإلحاد قد جعله مجنوناً.

فدمدم شاتوف يقول وهو يضع شمعة جديدة محل شمعة ذائبة:

- إن الإلحاد الروسي لم يتجاوز في يوم من الأيام حدود التلاعب اللفظي.

- لا، لا يبدو لي أن كيريلوف واحد من الذين يتلاعبون بالألفاظ. إنه عاجز حتى عن التعبير البسيط. فأني له أن يقدر على أمازيح قوامها التلاعب بالألفاظ.

قال بهدوء:

- هؤلاء رجال من كرتون. تفكيرهم مستعبد. ذلك مصدر كل شيء.

وجلس على كرسي في ركن، باسطاً يديه فوق ركبتيه.

ثم قال بعد لحظة صمت:

- ثم إن في ذلك كله كرهاً وبغضاً. ألا إنهم ليصبحون تعساء تعاسة رهيبة لو قُيِّض لروسيا أن تبدل فجأة وفقاً لما تقتضيه آراؤهم، فإذا هي تصبح بلداً غنياً مزدهراً يرفرف عليه الرخاء دفعةً واحدة. ذلك أنهم، إذا تحقق ذلك، لا يبقى ثمة من يكرهونه ويبغضونه، لا يبقى ثمة من يبصقون عليه، لا يبقى ثمة من يسخرون منه ويستهزئون به. إن مرد ذلك كله إلى كرهه وبغضه يشعرون بهما نحو روسيا، كرهه وبغضه حيوانيين إن صح التعبير، يملآن شعاب نفوسهم ويشيعان في خلايا أجسامهم... ليس الأمر عندهم أمر إخفاء دموعهم وراء ابتسامة⁽¹⁾.

(1) الإشارة إلى جملة لجوجول يقول فيها إنه في نقده يضحك من خلال الدموع.

وختم كلامه بقوله صائحاً بحق شديد:

- ما من جملة أكذب من هذه الجملة قيلت في يوم من الأيام!

قلت: - الله يعلم ما هذا الذي تقول!

وأخذت أضحك.

قال شاتوف مبتسماً هو أيضاً:

- أما أنت فلست إلا "البراليّ معتدلاً".

ثم استأنف كلامه:

- أظن أنني قد أفلتت مني كلمة سخيفة حين تكلمت عن "تفكيرهم

المستعبد" لعلك ستقول: "أنت ابن عبد خادم، أما أنا فلم أكن خادماً في يوم من الأيام".

- ما خطر ببالي أن أقول كلاماً كهذا الكلام في لحظة من اللحظات ... ما

هذا الذي تقول؟! ...

- لا تعتذر. لست خائفاً منك. أنا لم أكن في الماضي إلا ابن خادم ولكنني

اليوم خادم أنا أيضاً، مثلك تماماً. إن البرالي الروسي خادم قبل كل شيء، خادم يبحث عن أحذية يلمعها.

- أية أحذية؟ ما معنى هذا المجاز؟

- مجاز؟ ... أرى أنك تضحك ... لقد صدق ستيفان تروفيموفتش حين

قال إنني مهشّم تحت صخرة، ولكن ليس إلى حد الموت، وإنني أحاول عبثاً أن أنهض. إن تشبيهه هذا صحيح.

قلت ضاحكاً:

- ستيفان تروفيموفتش يقول إنك لا همّ لك إلا الألمان. لقد أخذنا منهم

شيئاً على كل حال.

- نعم، أخذنا خمسين كوبكا، ولكننا أعطيناهم مائة روبل من أموالنا.

ولبنا صامتين دقيقة كاملة.

- في أمريكا إنما نشأ عنده هذا.

- من هو؟ ماذا نشأ عنده؟

- كيريلوف. لقد قضينا معاً في أمريكا أربعة أشهر، راقدين جنباً إلى جنب في كوخ حقير.

- ماذا؟ كنتما في أمريكا؟ لم تذكر لي ذلك في يوم من الأيام.

- ما الداعي إلى ذكره؟ منذ سنتين، جازفنا بآخر ما نملك من قروش، فسافرنا ثلاثة أشخاص إلى الولايات المتحدة على سفينة مهاجرين⁽¹⁾ "للتذوق حياة العامل الأمريكي، ولندرك بتجربة شخصية خاصة بنا حالة إنسان يوجد في ظروف اجتماعية شاقة قاسية". تلك كانت الغاية من رحلتنا. صحت أقول وأنا أضحك:

- يا سلام! علام السفر إلى أمريكا لمعاناة تلك التجربة الشخصية؟ كان الأفضل لكم أن تذهبوا إلى ريفنا في فترة الحصاد.

- دخلنا هنالك عمالاً لدى مستثمر. كان مجموع عدد الروس عنده ستة، منهم الطالب، ومنهم مالِك الأتيان جاء من أراضي، بل ومنهم الضابط، وكانت غاية الجميع هي تلك الغاية السامية نفسها. عملنا، وعرقنا، وتعبنا حتى كدنا نموت، وأخيراً انصرفنا أنا وكيريلوف مكدودين متعبين وقد عيل صبرنا وأصبحنا لا نستطيع احتمال المزيد. وقد خدعنا صاحب العمل حين دفع لنا أجرنا: فبدلاً من أن ينقدا الثلاثين دولاراً المتفق عليها، أعطاني أنا ثمانية، وأعطى كيريلوف خمسة عشر. وقد حدث أن ضُربنا غير مرة. هكذا أصبحنا بدون عمل، فلبثنا راقدين في كوخ حقير جنباً إلى جنب. كان هو يجتر أفكاره، وكنت أنا أجتر أفكارِي.

- هل يعقل أن يكون صاحب العمل قد ضربكما؟ وفي أمريكا؟ إنني أتخيل الحق الذي كان يستعر عندئذ في قلوبكما، وأتخيل كيف كنتما تلعنانه. - لا، أبداً! بالعكس: لقد اتفق رأينا أنا وكيريلوف فوراً على أننا "معشر الروس لسنا إلا أطفالاً صغاراً بالقياس إلى الأمريكان، وإن على المرء

(1) بين آ. دولينين في تعليقه على رسالتين من دوستوفسكي أن قصة شاتوف عن سفره إلى أمريكا تستمد بعض عناصرها من مقالة كتبها آ. أوجورودنيكوف وظهرت في مجلة الفجر سنة 1870، وفيها يتحدث الكاتب عن انطباعات رحلته إلى أمريكا.

أن يكون قد ولد بأمريكا أو عاش فيها زمناً طويلاً حتى يرقى إلى مستوى الأمريكان". بل أقول لك أكثر من ذلك: حين كان يؤخذ منا دولار كامل ثمناً لشيء لا يساوي قرشاً، كنا ندفع الدولار راضين، بل وكنا ندفعه مسرورين مفتونين. كان كل شيء يفتننا: تحضير الأرواح، قانون لتتش⁽¹⁾، المسدسات، المشردون. وفي ذات يوم، أثناء سفر، دس أحدهم يده في جيبي، فاستل منه فرشاة شعري، وأخذ يصفف شعره. فلم نزد أنا وكيريلوف على أن تبادلنا نظرة: واستقر رأينا على أن الرجل قد أحسن صنعاً، وأن هذا قد أعجبنا كثيراً. قلت: - الشيء الغريب أن مثل هذه الأفكار تنتقل عندنا من نطاق النظرية إلى حيز العمل.

عاد شاتوف يكرر: - قلت لك: أناس من كرتون!

- ومع ذلك... أن يقطع المرء المحيط على سفينة مهاجرين، مسافراً إلى بلد مجهول لا لشيء إلا أن "يعاني تجربة شخصية"، إلخ، فإن في ذلك لشيئاً عظيماً بالفعل!... وكيف خرجتم بعد ذلك من المأزق؟

- كتبت إلى صديق لي بأوروبا فأرسل إليّ مائة روبل.

كان شاتوف، وهو يتكلم، محدقاً إلى الأرض في عناد، على عادته حتى حين يتحمس. ومع ذلك رفع رأسه في تلك اللحظة قائلاً:

- هل تريد أن تعرف اسم ذلك الصديق؟

- ما اسمه؟

- نيقولاي ستافروجين.

ونهض بغتة، واتجه نحو منضدة الكتابة المصنوعة من خشب الزيزفون، وبدأ عليه أنه يبحث عن شيء ما. كان يُقال في المدينة - دون الدخول في تفاصيل واسعة - أن امرأة شاتوف قد كانت لها قبل سنتين علاقة بنيقولاي ستافروجين في باريس. فهذه العلاقة إنما قامت إذن أثناء فترة إقامة شاتوف بأمريكا، وبعد أن تركت المرأة زوجها بجنيف.

(1) "قانون لتتش": من الإجراءات التي كانت معروفة في أمريكا، فالجمهور حين يقبض على مجرم يستطيع أن يحكم عليه بالإعدام وأن ينفذ الحكم فوراً.

قلت لنفسي: "إذا كان الأمر صحيحاً، فما الذي دفعه إلى ذكر اسم ستافروجين، وإلى الإفاضة في سرد هذه القصة؟".

قال وهو يلتف نحوي من جديد: - وحتى الآن لم أرد إليه دينه. ونظر إليّ محدقاً، ثم مضى يجلس ثانية في ركنه، وسألني على حين بغتة بصوت قد تغير تغيراً كاملاً:

- أنت إنما جئت لأمر من الأمور حتماً، فما الذي تريده؟ فشرعت أقصّ عليه القصة كلها فوراً، على حسب تسلسل الوقائع في الزمان، وأضفت إلى ذلك قولي إنني وقد هذأ الانفعال الأول قد أصبحت أشد ارتباكاً وحيرة: فأنا أدرك أن الأمر يهم ليزافتا نيقولا يفنا كثيراً، وأنا عازم على مساعدتها عزماً أكيداً، ولكن البلية هي أنني لا أعرف كيف أتدبر المسألة، بل ولا أعني ما وعدتها به وعياً تاماً. وأكدت له أخيراً أن ليزافتا نيقولا يفنا لم تشأ أن تخدعه، بل وأن فكرة الخديعة لم تخطر لها ببال قط، وأن كل ما في الأمر أنه قد وقع سوء تفاهم، وأنها آسفة أشدّ الأسف لانصرافك المبالغت.

كان يصغي إليّ بانتباه. وقال:

- ربما كنت قد ارتكبت غلطة بالفعل، على عادتي... وإذا كانت لم تفهم سبب انصرافي فلعل في هذا خيراً لها...

ونهض، واقترب من الباب، وفتحته، وأخذ يصغي إلى ما قد يسمعه من أصوات في السلم. ثم سألني:

- أنت حريص على رؤية تلك الإنسانية بنفسك؟

- فهتفت أجييه مسروراً مفتوناً:

- نعم، ولكن كيف يمكن تدبير الأمر؟

- مسألة بسيطة. فلنذهب إليها معاً مادامت وحيدة. حين يعود، فسيضربها إذا علم أننا جئنا إليها. إنني كثيراً ما ألقاها خفية. وفي هذا الصباح كلمت لبيادكين لأنه عاد يضربها.

- ماهذا الذي تقول؟

- وشددته من شعره. وقد أراد أن يتعارك معي، لكنه تراجع. ووقفنا عند

ذلك الحد. لذلك أخشى إذا رجع ثملاً، أن يتذكر ما وقع فيأخذ يضربها انتقاماً.

5

كان باب بيت لبيادكين مغلقاً ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح، فدخلنا. إن المسكن يتألف من غرفتين صغيرتين حقيرتين قد اسودّت حيطانهما بالدخان، وبليت أوراق جدرانهما حتى لترى الورق المتسخ البالي يتدلى مزقاً بالفعل. في هذا المكان إنما كان فيليوف قد أقام حانته خلال سنين قبل أن ينقلها إلى منزله الجديد. فلما انتقل أقفل جميع الغرف إلا غرفتين اثنتين هما اللتان يسكنهما الآن لبيادكين وأخته. إن الأثاث يتألف من مقعد عتيق فقد مسنديه، ودكك وموائد من خشب أبيض، وفي الغرفة الثانية مع ذلك سرير يغطيه غطاء من قطن، فعلى ذلك السرير إنما تنام الأنسة لبيادكين. أما الكابتن فإنه حين يرجع إلى البيت في المساء يسقط على الأرض كتلة واحدة دون أن يخلع ثيابه في أكثر الأحيان.

كل شيء هنا قذر رطب. في وسط الغرفة ترقد خرقة كبيرة مبللة، وإلى جانبها فردة حذاء مهترئة مثنية تسبح في تلك البركة نفسها من الماء. واضح أنه ما من أحد يعنى هنا بنظافة المسكن، والمدفأة لا تشعل في يوم من الأيام، وطبخ الطعام غير معروف البتة، حتى إن بيت لبيادكين - فيما قال شاتوف - ليس فيه سماوراً للشاي.

حين وصل الكابتن إلى مدينتنا كان في حالة عوز شديد وبؤس رهيب، فكان يقرع الأبواب مستجدياً هنا وهناك. ولكنه ما إن أخذ يتلقى مالاً حتى أخذ يشرب، وفقد صوابه تماماً، ولم يفكر في مسكنه طبعاً.

إن الأنسة لبيادكين التي حرصت على رؤيتها كل ذلك الحرص، هي الآن جالسة على دكة أمام مائدة في ركن من الغرفة الثانية. هادئة ساكنة صامتة. لم توجه إلينا الكلام حين دخلنا، بل إنها لم تقم بحركة واحدة. قال لي شاتوف إن باب المسكن لا يقفل بالمفتاح في يوم من الأيام، حتى إنه ظل في إحدى

الليالي مفتوحاً على وسعه كلها طول الوقت.

استطعت بفضل نور كابٍ تنشره شمعةٌ نحيلةٌ مغروسةٌ في شمعدانٍ من حديد، أن أرى الأنسة لبيادكين. إنها نحيلةٌ نحولاً مَرَضِيّاً، ولعلها في الثلاثين من عمرها. وهي ترتدي فستاناً عتيقاً من نسيجٍ قطنيٍ قاتم اللون، يكشف عن رقبتها الطويلة. شعرها الأسمر القليل مفتول عند قفا الرأس كبةً لا يزيد حجمها على حجم قبضة يد طفل في السنة الثانية من عمره.

نظرت إلينا مرحة الهیئة. وكان أمامها على المائدة، إلى جانب الشمعدان، مرآة صغيرة من المرايا التي يرى المرء مثيلاتها عند القرويين، ومجموعة قديمة من ورق اللعب، وكراسة أغاني مهترئة، ورغيف صغير من خبز أبيض كانت قد عضت منه لقمةً أو لقميتين.

كان واضحاً أن الأنسة لبيادكين تستعمل المساحيق وتصبغ شفيتها وتكحل حاجبيها الدقيقين الطويلين القاتمين. وكانت ثلاثة أخايد طويلة تغضن جبينها الضيق العالي تغضيناً واضحاً رغم طلائه بالبياض. وكنت أعلم أنها تعرج، لكنها لم تنهض أثناء وجودنا. ولعل هذا الوجه الذي أصبح الآن ناحلاً هزيبلاً قد كان في أيام صباه الأول حلواً جميلاً. وما تزال عيناها الشهباء والعذبتان اللطيفتان محتفظتين بجمالهما. إن نظرتهما الوادعة، التي تكاد تكون فرحة، تشتمل على تعبير صادق حالم. وقد فاجأني هذا الفرح الهادئ الذي يشع أيضاً من ابتسامتها، بعد كل ما عرفته عن قسوة أخيها في معاملتها وعن ضربات السوط التي كان يهوي بها عليها. ولم أشعر تجاهها بما يشعر به المرء حين يلقي أمثال هذه المخلوقات التعيسة من اشمئزاز أليم وجل، وإنما شعرت في الوهلة الأولى بإحساس غريب، يكاد يكون سروراً بالنظر إليها، وهذا الإحساس قد حلت محله الشفقة بعد ذلك، ولم يحل محله الاشمئزاز قط.

قال لي شاتوف وهو يومي إليها من الباب:

- أترى؟ إنها تظل جالسةً هذه الجلسة أياماً بكاملها، وحيدة لا تتحرك، فإما أن تسحب ورقاً من مجموعة أوراق اللعب التي أمامها، وإما أن تنظر

إلى وجهها في المرأة. إن أخاها لا يأتيها حتى بطعام. والمرأة العجوز التي تخدم كيريلوف هي التي تحمل إليها بعض الغذاء بين الحين والحين من باب الشفقة والرحمة والإحسان. إنني لا أفهم كيف يتركها هكذا وحيدة مع شمعة.

قالت الأنسة لبيادكين بصوت ودود:

- يومك سعيد يا شاتوشكا⁽¹⁾.

- فقال لها شاتوف:

- لقد جئت بزائر يا ماريا تيموففنا!

- مرحباً بالزائر. بمن جئتني؟ يخيل إلي أنني لا أعرفه.

ونظرت إلي طويلاً في ضوء الشمعة، ثم التفتت نحو شاتوف، ولم تنظر إلي بعد ذلك البتة، ولا اكرثت بي أي اكرث، فكأنني غير موجود. سألت شاتوف ضاحكة، كاشفة عن صفين من الأسنان كأنها حبات اللؤلؤ جمالاً:

- لا شك أنك سئمت التجول وحيداً في غرفتك طويلاً وعرضاً، أليس

كذلك؟

- نعم، ولقد أردت كذلك أن أسلم عليك.

قال شاتوف ذلك وقرب دكة من المائدة وأجلسني إلى جانبه.

قالت الأنسة لبيادكين:

- إنني ليسرني الحديث كثيراً في جميع الأحيان. ولكنك تضحكني يا شاتوشكا. لكأنك راهب حقاً. منذ متى لم تصفف شعرك؟ اقترب مني، سأصفف لك شعرك.

قالت ذلك وهي تستل من جيبتها مشطاً صغيراً. وأضافت:

- أنا واثقة بأنك لم تمشط شعرك منذ أن مشطته لك آخر مرة.

أجابها شاتوف ضاحكاً:

- ليس عندي مشط.

(1) "شاتوشكا" تصغير لاسم شاتوف من باب التودد والتدليل.

- حقاً؟ إذن سأعطيك مشطي. ليس هذا، بل مشطاً آخر. ذكرني.
وأخذت تصفّف شعره وقد لاح في وجهها كل الجد والاهتمام، حتى لقد فرقت من جانب، وتقهقرت قليلاً إلى وراء لتمعن النظر إليه وتحسن الحكم عليه. ثم أعادت المشط إلى جيبيها. وقالت لشاتوف:
- هل تعرف ماذا أريد أن أقول لك يا شاتوشكا؟ إنك قد تكون رجلاً عاقلاً ولكنك تشعر بضجر. إنني أنظر إليكم جميعاً فلا يسعني إلا أن أدهش: كيف يمكن أن يشعر الناس بالضجر. وليس الحزن هو الضجر. أما أنا فإنني مرحة.
- حتى حين يكون أخوك هنا؟

- أتقصد لبيادكين؟ إنه خادمي. ويستوي عندي وجوده وغيابه. إنني أصرخ قائلة له: "لبيادكين، جثني بماء!" - "لبيادكين، اثنني بحذائي!" فيأثني بهما. ولا أملك في بعض الأحيان أن أنهى نفسي عن الضحك، رغم أن ذلك من جانبي شر.

قال لي شاتوف، بصوت عالٍ أيضاً وبدون تحرّج:
- هذا ما يحدث فعلاً. إنها تعامله كما يعامل خادم، ولقد سمعتها بأذنيّ تصرخ قائلة له: "لبيادكين، جثني بماء!". وكانت تضحك.

الفرق الوحيد هو أنه لا يجيئها بماء بل يضربها، ومع ذلك فهي لا تخاف منه البتة. وهي تصاب بنوبات عصبية، كل يوم تقريباً، نوبات تشوّش ذاكرتها، فإذا هي تنسى ما حدث منذ قليل، وتخلط بين الأيام وتخلط بين الساعات. هل تظن أنها تتذكر الآن كيف دخلنا عليها؟ لعلها تتذكر، ولكنها منذ الآن قد رتبت جميع الأمور على طريقتها الخاصة، ولا شك في أنها تحسبنا أشخاصاً آخرين، رغم أنها تذكر أنني "شاتوشكا". ولا يدهشني أنني أكلّمك بصوت عالٍ: إنها تنقطع فوراً عن الإصغاء إلى من لا يخاطبونها مباشرة، وتندفع عندئذ في أحلامها اندفاعاً مستميتاً. نعم، تندفع. هذه هي الكلمة. وتظل في مكانها مسترسلة في أحلامها ثماني ساعات كاملة دون أن تتحرك. هل ترى هذا الرغيف الصغير من الخبز الأبيض: لعلها لم تأكل منه إلا لقمة واحدة منذ الصباح، ولعلها لن تنهيه إلا في الغد. ها هي ذي الآن قد أخذت تسحب

من أوراق اللعب...

- نعم يا شاتوشكا، إنني أسحب من أوراق اللعب طوال الوقت، ولكن أوراق اللعب لا تنبئني بأي خير..

كذلك تدخلت فجأةً ماريّا تيموفتشنا التي التقطت كلمتي "أوراق اللعب" عرضاً. ولعلها أيضاً قد سمعت كلاماً عن الخبز، فها هي ذي تمد يدها إلى الرغيف، فتناوله دون أن تنظر فيه، وظلت ممسكة به في يدها بضع لحظات، ثم انصرفت بانتهاءها إلى الحديث فأعادته إلى مكانه على المائدة بحركة آلية دون أن تذوقه. قالت:

- أوراق اللعب تقول لي شيئاً واحداً على الدوام: سفرة، رجل شرير، خيانة، مرض مميت، رسالة لا أدري ممن، نبأ غير متوقع. تلك كلها أكاذيب فيما أظن. ما رأيك أنت يا شاتوشكا؟ إذا كان البشر يكذبون فلماذا لا تكذب أوراق اللعب أيضاً؟

قالت ذلك، وخلطت أوراق اللعب. ثم تابعت كلامها:

- ذلك ما كنت أقوله للأم براسكوفيا، وهي امرأة محترمة كانت تأتيني للسحب من أوراق اللعب في حجرتي مختبة عن الأم الرئيسة. على أنها لم تكن الوحيدة في هذا. فهنّ هناك جميعاً يتنهذن، ويهززن رؤوسهن، ويناقشن. وكنت أنا أضحك وأقول لها: "من أين تريدن أن تصلك رسالة أيتها الأم براسكوفيا، أنت التي لم تتلقي رسالة واحدة منذ اثنتي عشرة سنة؟". كان صهرها وابنتها قد سافرا إلى تركيا، ولم يصل عنهما أي نبأ منذ اثني عشر عاماً. وفي مساء الغد، كنت أنا أتناول الشاي عند الأم الرئيسة (وهي من أسرة أمراء)، وكان هناك سيدة أخرى، سيدة مفرطة في الخيال كثيراً، وكان هناك راهب صغير من جبل آتوس، وهو في رأيي رجل طيب عييط. فهل تتصور يا شاتوشكا، أن ذلك الراهب الصغير كان قد حمل من تركيا، في ذلك الصباح نفسه، إلى الأم براسكوفيا، رسالة من ابنتها؟ نعم، هذا ما حدث! صدّق إذن ورق اللعب: لقد تنبأ بنبأ غير متوقع. كنا هنالك نشرب الشاي حين قال راهب جبل آتوس للأم الرئيسة: "لا شك أن ديرك مبارك أيتها الأم الرئيسة

المقدسة، لأنه يضم بين جدرانه كنزاً ثميناً جداً. سألته الرئيسة: "أي كنز؟" فأجابها الراهب: "الأم ليزافتا المباركة". والأم ليزافتا هذه كانت تعيش في قفص بالجدار طوله سبع أقدام وعلوه خمس... وهي هناك وراء القضبان الحديدية منذ ستة عشر عاماً، لا ترتدي في الشتاء ولا في الصيف إلا قميصاً من القنب كانت تخزه أحياناً بإبر من القش. وهي صامته دائماً. وهي لم تمشط شعرها ولا غسلت نفسها مرة واحدة منذ ستة عشر عاماً. كانوا في الشتاء يعطونها جلد خروف. وفي كل يوم يمدّون إليها من خلال القضبان كسرة خبز وجرة ماء. وكان الحجاج يتأملونها متنهدين متعجبين، ويضعون لها قرشاً في طاسة. أجابت الأم الرئيسة: "ياله من كنز!" (لقد غضبت الأم الرئيسة، لأنها كانت تكره ليزافتا). وأضافت قولها: "إن ليزافتا لم تحبس نفسها إلا بدافع الشر. ما ذلك منها إلا عناد وتظاهر!". لم يعجبني هذا الكلام، لأنني كنت أفكر في أن أحبس نفسي أنا أيضاً. قلت: "في رأيي أن الله والطبيعة واحد...". فصاحوا جميعاً يقولون: "اسمعوا إلى هذا الكلام العجيب!...". وأخذت الرئيسة تضحك، وقالت للسيدة ما لا أدري بصوتٍ خافت، ثم نادتن إليها وكلمتني بلطف. أما السيدة فقد أعطتني شريطاً وردي اللون. هل تريد أن أريك الشريط؟ وطفق الراهب يعظني بخطبة طويلة، فكان رقيقاً كل الرقة، متواضعاً كل التواضع، ولا شك أنه كان ذكياً جداً، فلبثت أصغي إليه طول الوقت. وسألني: "هل فهمت؟" فأجبته قائلة: "لم أفهم شيئاً. ودعني وشأني". ومنذ ذلك الحين تركوني وشأني يا شاتوشكا. وفي ذلك الأوان تقريباً كانت هناك امرأة عجوز قد اعتكفت في ديرنا مكفرة عن نبوءات زعمتها، فهمست تسألني وهي تخرج من الكنيسة: "وأم الرب، ما هي في رأيك؟". فأجبته: إن أم الرب هي أمل النوع الإنساني. فقالت: "نعم، هذه هي الحقيقة. إن أم الرب هي أمنا جميعاً، هي الأرض المخضلة، وهذه الحقيقة تشتمل على فرح عظيم للنوع الإنساني. وكل عذاب أرضي، كل دمعة أرضية هي لنا فرح. وحين تبلل الأرض بدموعك إلى مسافة قدم في التراب، فلن يكون شيء بعدئذ إلا فرحاً لك، ولن تعرف الألم بعدئذ في يوم من الأيام. كذلك قالت النبوءة".

حفظ قلبي هذا الكلام. ومنذ ذلك الحين، أصبحت إذا صليت وسجدت أقبل الأرض، أقبلها وأبكي. وإليك ما سأقوله لك يا شاتوشكا: ليس في هذه الدموع أي بأس، حتى إذا كنت لا تتألم فإنها تتساقط من عينيك فرحاً، فرحاً فقط. تتساقط من تلقاء نفسها. الحق أقول لك. كنت أذهب أحياناً إلى ضفاف البحيرة: كان ديرنا في جهة، وفي الجهة الأخرى كان ينتصب جبلنا المدبب. كذلك كانوا يصفونه. كنت أصعد ذلك الجبل، وأتوجه نحو المشرق وأنكب على الأرض، فأظل أبكي وأبكي وأبكي، فإذا أنا لا أتذكر بعد ذلك شيئاً البتة، ولا أعرف شيئاً البتة. ثم أنهض، وألتفت إلى وراء، فأرى الشمس وهي تغرب كبيرة رائعة مجيدة. هل تحب أن تنظر إلى الشمس يا شاتوشكا؟ إنه لمنظر جميل جداً، وحزين جداً!... ثم ألتفت مرة أخرى نحو المشرق، فأرى ظل جبلنا يركض على البحيرة سريعاً كسهم، ضيقاً طويلاً، إلى أن يبلغ الجزيرة التي توجد في البحيرة، فتشطره هذه الجزيرة الحجرية شطرين اثنين. فما إن تشطره الجزيرة شطرين حتى تغيب الشمس وينطفئ كل شيء. فأشعر عندئذ بأنني حزينة كل الحزن، وإذا بالذاكرة تعود إليّ فجأة، فأخاف من الظلمة يا شاتوشكا. غير أن ما كنت أبكيه خاصة، إنما هو ابني...

سألها شاتوف وهو يلكنزني بكوعه قليلاً بعد أن لم ينقطع عن الإصغاء إليها بانتباه:

- ولكن هل كان لك ولد حقاً؟

- كيف لا؟ لقد كان صغيراً جداً، وكان بلون الورد، وكانت له أصابع صغيرة. وحسرتي كلها ناشئة عن أنني لا أستطيع أن أتذكر أكان صبيّاً أم كان بنتاً. فتارة يبدو لي أنه كان صبيّاً، وتارة يبدو لي أنه كان بنتاً. وأنا ما إن ولدته حتى لففته بالدانتيللا والباتيستة التي عقدتها بأشرطة وردية اللون، وغطيته بالأزهار. ثم صليت لله وحملته وسرت به في الغابة دون تعמיד. وكنت خائفة من الغابة، وكنت أرتعش رعباً. وكنت أبكي خاصة لأنني ولدته دون أن أعرف زوجي.

سألها شاتوف محاذراً:

- ربما كان لك زوج، أليس كذلك؟

- إنك تضحكني بتفكيرك يا شاتوشكا. جائز أنه كان لي زوج. ولكن ما فائدتي من هذا إذا كنت كمن لم يكن لها زوج في يوم من الأيام؟

ثم أردفت تقول وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

- هذه أحجية. هلاً حزرت!

- إلى أين أخذت ابنك؟

- إلى الغدير.

لكزني شاتوف بكوعه من جديد. ثم سألتها:

- فماذا إذا لم يولد لك ولد يوماً، وكان هذا كله هدياناً لا أكثر، هه؟

قالت بلهجة تنم عن ذهول وتفكير، ولكن ليس فيها دهشة واستغراب:

- إنك تلقي عليّ سؤالاً صعباً. حقاً إن من الجائز أن لا أكون قد ولدت

ولداً في يوم من الأيام. وأظن على كل حال أنك لا تلقي هذا السؤال إلا من

باب حب الاطلاع. مهما يكن من أمر، فلن أكف عن البكاء عليه. أتراني

رأيت حلماً؟

والتمعت دموع سخية في عينيها. ثم هتفت تسأل شاتوف فجأة وهي

تضع يديها على كتفيه وتتأمل مشفقة عليه رحمة به:

- شاتوشكا، شاتوشكا؟ هل صحيح أن زوجتك تركتك؟ لا تزعل! أنا

أيضاً أحمل في قلبي حملاً ثقيلاً. هل تعلم يا شاتوشكا أنني رأيت في منامي

حلماً؟ رأيته يعود إليّ، ويومئ لي، ويناديني بقوله: "قطتي الصغيرة، قطتي

الصغيرة، تعالي بسرعة!". وقد فتنني قوله "قطتي الصغيرة" أكثر من أي شيء

آخر. قلت في نفسي: إنه يحبني.

دمدم شاتوف يقول:

- قد يرجع في يوم من الأيام.

- لا يا شاتوشكا، لم يكن ذلك إلا حلماً. إنه لن يأتي أبداً. أنت تعرف

الأغنية:

ما بي حاجة إلى قصر⁽¹⁾.

حسبي هذه الحجرة

لأحيا وأنقذ روحي،

وأدعو الله لك.

آه ياشاتوشكا، يا عزيزي شاتوشكا، لماذا لا تسألني أبداً؟

- أعرف أنك لن تقولي شيئاً. لذلك لا أسألك.

قالت بحماسة وقوة:

- نعم، لن أقول شيئاً. لن أقول شيئاً ولو هددوني بقطع عنقي، لن أقول

شيئاً ولو هددوني بإحراق جسمي. ومهما أذق من ألوان العذاب والألم،

فسأظل صامتة، فما يعرفون من الأمر شيئاً!

قال شاتوف وهو يخفض صوته، ويخني رأسه:

- أرايت؟ إن لكل امرئ أسرار.

- ولكن لو ألححت في السؤال، فقد أقول لك.

وكررت تقول بحمياً:

- نعم، قد أقول لك. لماذا لا تسألني أن أقول لك؟ ألحّ ياشاتوشكا،

اضرع إليّ، فقد أقول لك. اعمل ما من شأنه أن يجعلني أوافق على الكلام...

شاتوشكا... شاتوشكا!

لكن شاتوشكا ظل صامتاً. ومضت دقيقة دون أن ينطق أحد بكلمة.

وكانت دموع بطيئة تجري على خدّي العرجاء المبرّجين بالمساحيق

والأصباغ. وكانت يداها ما تزالان متكئتين على كتفي شاتوف، غير أنها قد

انقطعت عن النظر إليه.

قال شاتوف:

- فيم يهمني هذا كله على كل حال. ثم إن الإلحاح قد يكون أثماً.

وقام فجأة. وقال لي:

- هيا انهض.

(1) هذه أغنية دينية شعبية.

وردة الدكة التي كنا جالسين عليها إلى حيث كانت، قائلاً:
- حين يعود، يجب أن لا تراوده شبهة فيعتقد أننا كنا هنا. وقد آن لنا نحن
أن ننصرف.

هتفت ماريّا تيموفتفنا تقول وهي تنفجر ضاحكة:
- آ... تقصد خادمي. أنت خائف منه؟ طيب... وداعاً يا صديقيّ الطيبين.
ولكن اسمع ما سأقوله لكما. منذ قليل، حضر الرجل الذي يقال له نيلتش،
حضر مع فيليوف، مالك البيت، الذي له لحيّة كبيرة حمراء، وذلك في
اللحظة التي هجم فيها عليّ خادمي. فما كان من مالك البيت إلّا أن قبض
عليه وأخذ يجره في الغرفة، فكان الآخر يصرخ قائلاً: "أنا لا ذنب لي. أنا
أتألم من ذنب غيري". فهل تصدق؟ لقد طفقنا جميعاً نضحك حتى لنكاد
نتدحرج على الأرض من شدة الضحك.

- ماريّا تيموفتفنا! ليس الأحمر الملتحي هو الذي انتزعه وأبعده عنك
وجره من شعره منذ قليل. إنما أنا الذي فعلت ذلك. أما مالك البيت، فقد جاء
إلى هنا أمس الأول ليلغظ ويصخب. أرى أنك تخلطين بين الأمور.
- انتظر قليلاً. نعم. لقد خلطت بين الأمور... ربما كنت أنت، فعلاً... فيم
المناقشة على كل حال؟

ثم قالت ضاحكة:

- ما الفرق عنده بين أن تجره أنت من شعره وبين أن يجره الآخر؟
قال شاتوف فجأة وهو يدفني:
- لننصرف. لقد صرّ باب مدخل العمارة. سوف يضربها إذا وجدنا هنا.
وفعلاً، ما إن صرنا في أعلى السلم حتى سمعنا صراخ سكران، وعاصفة
من الشتائم.

أدخلني شاتوف غرفته، وأقفل بابها بالمفتاح.
- يجب أن تلبث هنا قليلاً، إذا أردت أن تتحاشى جرسه. هل تسمعه
يصرخ كصراخ خنزير يُذبح. لعله تعثر بالعتبة. هذه القصة تتكرر كل مرة.
ولكن الجرس حدث رغم احتياطاتنا.

وقف شاتوف قرب الباب يصغي إلى ما يجري في السلم. وإنه كذلك إذا هو يقفز متراجعاً إلى وراء، ويدمدم قائلاً في حق:

- ها هو ذا يصل. قد لا نتخلص منه الآن إلا في منتصف الليل. وأخذت طرقات قوية تهوي بها على الباب قبضة شديدة. وزأر الكابتن يقول:

- شاتوف! شاتوف! افتح الباب! شاتوف، صديقي!

إنما جئت لأتمنى لك يوماً سعيداً⁽¹⁾

ولأقول لك إن الشمس قد طلعت

وإن الغابات ترتعش ملتبهة

تحت أشعتها الحارة

وأريد أن أقول لك أيضاً إنني يقظان...

وإنني أتمنى أن يأخذك الشيطان...

نعم يقظان، يقظان يقظان

تحت الأغصان...

كما لو كنت تحت السياط، ها ها...

كل طائر ظمآن

ظمآن!... وأنا حيران

لا أدري أي شراب أحسني...

على كل حال، لعن الله هذا الفضولي الغبي! يا شاتوف، هل تعرف كم

في الحياة من جمال؟

قال لي شاتوف هامساً:

- لا تجب!

- أقول لك افتح! هل تدرك أن في العالم شيئاً أسمى من ضربات قبضة

اليد؟ إن في حياة الإنسانية لحظات نبيلة. شاتوف، أنا أغفر لك!... شاتوف،

(1) هنا ينشد لبيادكن قصيدة جميلة (لكنه يشوهها) الشاعر الغنائي آتانازي شنشين، نشرت سنة 1843.

لتذهب المنشورات إلى الجحيم!... هه!

وساد صمت سُمع صوت لبيادكين بعده يُعول فجأة وقد عاد يخطط الباب
بقبضة يده:

- هل تدري، يا حمار، أنني مولّه حباً؟ لقد اشتريت رداء فراك. انظر إليه.
فراك الحب. خمسة عشر روبلاً. إن غرام كابتن يكلف غالباً.
قال شاتوف:

- اذهب إلى الجحيم.

- عبد! عبد ذليل! وأختك أيضاً ما هي إلا جارية... ما هي إلا لص...
لصة!...

- وأنت، أنت قد بعت أختك!

- أنت كاذب. أنا أتألم ظلماً، أنا أتألم نيابة عن غيري، ويكفي أن أقول
كلمة واحدة حتى... هل تدرك من هي؟

- هيه، من هي؟

كذلك سأله شاتوف وهو يقترب من الباب.

- أأنت قادر على أن تفهم هذا؟

- قل أولاً، ثم أفهم أنا بعد ذلك.

- لا أخاف أن أقول. أنا لا أخاف أبداً أن أتكلّم أمام الناس...

قال شاتوف ساخراً ضاحكاً وهو يشير لي أن أصغي:

- لا بل إنك لن تجرؤ حتماً.

- أتقول إنني لا أجرؤ؟

وساد صمت دام نصف دقيقة في أقل تقدير.

وأخيراً صاح الكابتن يقول وهو يتراجع نافخاً كفوهة سماور، متعثراً على
كل درجة من درجات السلم:

- سافل!

قال شاتوف:

- إنه ماكر جداً، ولن يفضح نفسه رغم أنه سكران.

سألته:

- ما معنى هذا كله؟

فهزّ شاتوف منكبيه، وفتح الباب، وأخذ يصيح بسمعه إلى جهة السلم.
ولبت يصغي مدة طويلة، حتى لقد هبط بضع درجات. وأخيراً عاد.
- لا يُسمع شيء. إنه لم يضر بها. لا بد أنه نام كتلةً واحدة. آن لك أن
تنصرف.

- اسمع يا شاتوف! ما الذي يجب أن أستخلصه من هذا كله؟

فأجاب شاتوف بلهجة مكدودة مشمئة:

- استخلص ما شئت.

وجلس إلى مكتبه.

انصرفت. إن فكرة غير معقولة تستولي على فكري مزيداً من الاستيلاء
شيئاً بعد شيء. وفكرت في الغد قلقاً خائفاً.

7

ذلك "الغد"، أعني يوم الأحد الذي سيتقرر فيه مصير ستيفان تروفيموفتش
قراراً محتوماً لا رادّ له، هو من أهم الأيام التي يجب أن تسجلها قصتي. إنه
يوم مفاجآت أتاح لنا أن نحل بعض الألغاز، ولكنه ألقى علينا ألغازاً جديدة،
إنه يوم قدّم لنا إيضاحات تثير الدهشة والاستغراب، ولكنه زاد البلبلة العامة
وفاقم الاضطراب الشامل...

يذكر القارئ أنه كان يجب عليّ في الصباح، تلبية لطلب فرفاراً بتروفا،
أن أصحب ستيفان تروفيموفتش في زيارته لصديقه، وأن أكون في الساعة
الثالثة بعد الظهر عند ليزا نيقولايفنا لأقول لها... لا أدري ماذا، ولأساعد
لا أدري كيف!

ولكن الأمور جرت مجرى ما كان لأحد أن يتنبأ به. الخلاصة أن ذلك
اليوم كان حافلاً بالمصادفات الخارقة والأحداث العجيبة.
ولأبدأ من البداية: حين ذهبنا أنا وستيفان تروفيموفتش إلى فرفاراً

بتروفتنا في الظهر تماماً، كما طلبت منا ذلك، لم نجد لها في بيتها: لم تكن قد رجعت من الصلاة بعد. كان صديقي المسكين في حالة نفسية خاصة من شأنها أن تجعل غيابها هذا ينزل عليه نزول الصاعقة، فإذا هو يضطرب أشد الاضطراب، ويتهاوى على مقعد في الصالون.. وقد جثته بكأس من الماء، ولكنه رفض تناول الكأس بإباء، رغم أنه كان شديد شحوب الوجه، وكانت يدها ترتعشان. يجب أن أشير، عابراً، إلى أن ثيابه كانت في هذه المرة أنيقة إلى أبعد حدود الأناقة: قميص من الباتيسه البيضاء المطرزة (يكاد يكون قميص حفلة رقص)، ورباط عنق أبيض، وقبعة جديدة من الكستور، وقفازان جديدان بلون العاج، وشيء من العطر إلى ذلك كله.

وما كدنا نستقر في مكاننا حتى جاء الخادم يُدخل علينا شاتوف. كان واضحاً أنه هو أيضاً قد تلقى دعوة رسمية. وقد همّ ستيفان تروفيموفتش أن ينهض ليصافحه، ولكن شاتوف بعد أن تفرس فينا ملياً، مضى يجلس في أحد الأركان حتى دون أن يحيينا بانحناءة من رأسه. فرشطني ستيفان تروفيموفتش مرة أخرى بنظرة مروعة.

انقضت بضع دقائق على هذه الحال في صمت كامل. وأخذ ستيفان تروفيموفتش يكلمني بصوت خافت، لكنني لم أستطع أن أفهم من كلامه شيئاً... وكان على كل حال قد بلغ من الاضطراب أنه لم يتمكن من إتمام الكلام فصمت. وعاد الخادم كأنما ليرتب المائدة، لكنني أظن أنه إنما عاد ليري ماذا كنا نفعل.

سأله شاتوف بصوت قوي:

- ألكسي إيجورتش، هل خرجت داريا بافلوفنا معها؟

فأجاب الخادم يقول بلهجة فخمة وهو يشد على كل كلمة من كلماته:

- إن فرفارا بتروفتنا قد مضت بالعربة إلى الكاتدرائية وحدها. أما داريا بافلوفنا فقد بقيت في غرفتها، لأنها مريضة قليلاً.

رشطني صاحبي المسكين مرة أخرى بنظرة قلقلة، حتى اضطرت أن أشيح وجهي عنه. وفجأة سمعنا أصوات جري عربة قرب بوابة المدخل، ثم

قامت في المنزل ضجة أدر كنا منها أن فرفارا بتروفا قد عادت. فنهضنا نحن الثلاثة بسرعة، غير أن مفاجأة جديدة كانت تنتظرنا: إن ربة الدار لم تكن عائدة وحدها، وإنما كان يرافقها عدد من الأشخاص كما تدل على ذلك أصوات وقع الأقدام على الأرض. ذلك كله كان أمراً عجيباً، لأنها التي حددت بنفسها ساعة لقائنا. وكانت الخطوات مسرعة، فكأن القادمين يركضون ركضاً. لا يمكن أن تكون فرفارا بتروفا هي القادمة... وفجأة رأينا فرفارا بتروفا تقتحم الصالون اقتحاماً إن صح التعبير، وهي تلهث لهاثاً شديداً، وقد استبد بها انفعال خارق. وكانت تتبعها، على مسافة منها، ليزافنا نيقولايفنا التي تتقدم في سيرها هادئة، وتمسك بيدها ماريّا تيموففنا لبيادكيس. لو قد رأيت هذا المشهد في حلم أثناء النوم، لما صدّفته لحظة واحدة.

ومن أجل أن أوضح هذا الظهور المثير للدهشة يجب أن أعود قليلاً إلى وراء، وأن أروي المغامرة الخارقة التي وقعت لفرفارا بتروفا عند خروجها من الكنيسة.

في ذلك اليوم، كانت المدينة كلها تقريباً - أعني المجتمع الراقي - قد ذهبت إلى الكاتدرائية. فقد علم أن امرأة الحاكم ستحضر الصلاة في ذلك اليوم، لأول مرة منذ وصولها إلى مدينتنا. وينبغي أن أذكر في هذه المناسبة أن الشائعات التي سرت في المدينة كانت تنسب إلى امرأة الحاكم أنها لا تؤمن بالدين، وأنها تتبنى الآراء الجديدة. وكانت سيداتنا جميعاً من جهة أخرى تعلم أن امرأة الحاكم سترتدي أجمل ملابسها وأنها ستظهر في أبهى حلة وأعظم أناقة. لذلك لبسن جميعاً في هذه المرة أفخر الثياب، وغُنين بهندامهن وزينتتهن أشد العناية. فرفارا بتروفا وحدها كانت ترتدي ملابس سوداء، على عهدنا بها منذ أربع سنين. وقد مضت تحتل مكانها المألوف المعتاد في الصف الأول، على اليسار، وجاء خادِم مرافق حسن الهندام فوضع أمامها وسادة من المخمل للسجود. الخلاصة أن كل الأمور جرت كما تجري في العادة. ومع ذلك لوحظ أنها كانت طوال القداس تصلي بحرارة خارقة. وقد أكَّد فيما بعد، حين تم تذكُّر جميع التفاصيل، أن عينيها

كانت ملأى بالدموع. حتى إذا انتهت الصلاة أخذ أسقفنا، الأب بولس، يلقي موعظة فخمة. ودامت خطبته في هذه المرة مدة طويلة.

ولم يكن قد أنهى خطبته حين نزلت سيدةٌ من عربية قرب الكاتدرائية. إنها عربية من عربات الأجرة القديمة التي يقال لها درويكي، والتي لا تستطيع النساء أن يجلسن فيها إلّا على جانب، متشبّثات بحزام الحوذي، مهتزات في كل لحظة اهتزاز عشة في مهب الريح. إن المرء ما يزال يرى عدداً من عربات الدرويكي هذه في مدينتنا. وإذا كانت مركبات كثيرة وأعداد من الدرك مرابطة أمام الباب، فقد وقفت العربية في ركن من الميدان. وحين نزلت السيدة من العربية ووضعت قدميها على الأرض مدّت إلى الحوذي أربعة كوبكات من فضة. فلما رآته يصمّر وجهه قالت له:

- المبلغ قليل يا فانيا⁽¹⁾، أليس كذلك؟

ثم أضافت تقول شاكية:

- هذا كل ما أملك.

فقال لها الحوذي وهو يرفع منكبيه ويتأملها تأمل من يقول لها:

"إنه لإثم أن يؤلمك الإنسان":

- طيب.. طيب.. عليك بركة الله!..

ثم دس كيسه الجلدي تحت ثوبه، وانصرف تشييعه مزحات الحوذيين الذين كانوا هناك. وشقت المرأة طريقاً لها نحو أبواب الكنيسة بين العربات والخدم المرافقين الذين ينتظرون خروج أسيادهم، شقت طريقها مشيعة هي أيضاً بالتعليقات، مثيرةٌ بمرورها فضول الجميع. والحق أن الظهور المفاجئ لامرأة من هذا النوع في الشارع وسط الجمهور كان فيه غرابة تثير الدهشة. كانت نحيلة نحولاً مرّضياً، وكانت تعرج. وكانت مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ، وعارية العنق، لا ترتدي خماراً ولا معطفاً، ولا يسترها من الملابس إلّا ثوب عتيق قاتم اللون، مع أن ذلك اليوم من شهر أيلول

(1) "فانيا" تصغير اسم إيفان. وهو لقب يلقب به الحوذيون. وكانوا يلقبون أيضاً بلقب فانكا.

(سبتمبر) كان بارداً رغم الشمس، وكانت رياحه شديدة. ولم يكن على رأسها قبعة. وفي شعرها المعقوف عند القفا كبة صغيرة، قد غُرست وردة من ورق، كالتّي تزيّن بها تماثيل الشمع التي تمثّل الكرويين في عيد الشعانين. وكنت قد لاحظت بالأمس عند ماريا تيموفيئنا، تحت الأيقونات، واحداً من تلك التماثيل المتوّجة بالورود. وأغرب ما في الأمر أن السيدة رغم أنها كانت خافضة العينين تواضعاً، فإنها لم تنقطع عن التّبسم تبسماً مرحاً مأكراً. ولو أنها تأخرت قليلاً لكان من الجائر أن لا يُسمح لها بالدخول، ولكنها استطاعت أن تلج الكاتدرائية وأفلحت في أن تتسلل إلى الأمام شيئاً بعد شيء دون أن يشعر بها أحد.

ورغم أن الأب بولس واصل إلقاء خطبته، وأن الجمهور الذي كان يملأ الكنيسة كان يصغي إليه بانتباه وتركيز وصمت، فإن عدداً من الأشخاص قد ألقوا على المرأة المجهولة نظرات استطلاع مختلصة مدهوشة. وجثت المرأة على ركبتها وسجدت حتى لامس وجهها المخضّب الأرض. ولبثت على هذا الوضع مدة طويلة تبكي بكاءً غزيراً فيما يظهر. ولكنها حين نهضت، عادت إلى حالها الأولى بسرعة، واستردت مرحها. وجالت ببصرها على وجوه المحيطين بها وعلى جدران الكاتدرائية، مسرورة سروراً واضحاً، متفرّسةً بانتباه خاص في بعض تلك السيدات، رافعةً جسمها على رؤوس أصابع قدميها في بعض الأحيان لترى رؤية أوضح، وفي مرة أو مرتين انطلقت منها ضحكة صغيرة غريبة حادة. وانتهت الخطبة في أثناء ذلك، وقدم الأسقف الصليب للمصلين فتقدمت منه زوجة الحاكم أول المتقدمين، لكنها توقفت حين أصبحت على مسافة خطوتين، مُظهرةً بذلك أنها تريد أن تنازل عن المكانة الأولى لفرافارا بترفونا التي كانت من جهتها قد مشت نحو الصليب قُدماً لا تلوي على شيء، كأن ليس أمامها أحد. وكان واضحاً أن هذا الاحترام الشديد من جانب زوجة الحاكم كان يخفي وراءه نية السخرية. فهذا ما فهمه الجميع، وهذا ما فهمته فرافارا بترفونا مثل سائر الناس حتماً، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ أحداً، فقَبِلَت الصليب بوقار ثابت ومهابة

رصينة، ثم اتجهت بعد ذلك رأساً نحو باب الكنيسة لتخرج. وكان خادمها المرافق يفسح لها ممراً أمامها، رغم أن جميع الناس كانوا يتقهقرون سلفاً من أجل أن تستطيع المرور في سهولة ويسر. ولكن جمعاً من الناس قد سدّوا طريقها لحظةً عند باب الخروج، تحت سقيفة المدخل. فتوقفت فإذا بإنسانة عجيبة هي المرأة المزدانة بوردة الورق تشق طريقاً بين الجمهور على حين فجأة، وتجتو على ركبتها أمام فرفارا بترفنا. فنظرت إليها فرفارا بترفنا التي يصعب أن تضطرب، ولا سيما على مرأى من الناس، نظرت إليها بهيئة وقورة رصينة مهيبة.

أسارع فأذكر هنا، بأكبر إيجاز ممكن، أن فرفارا بترفنا إن تكن قد أصبحت في هذه السنين الأخيرة حريصة بل وبخيلة قليلاً، فلقد كان يتفق لها في بعض الأحيان أن تكون مبسوطة الكف، ولا سيما في أعمال البر والإحسان. لقد كانت عضوةً في جمعية للبر والإحسان بالعاصمة. وفي إبان المجاعة الكبرى الأخيرة⁽¹⁾. أرسلت إلى اللجنة المركزية لإغاثة الجياع خمسمائة روبل، وذلك أمر تحدّث عنه الناس كثيراً في مدينتنا. كما إنها في الآونة الأخيرة، حتى قبل تعيين الحاكم الجديد، قد فكرت في مشروع تأسيس لجنة من السيدات تتولى مساعدة الحوامل الفقيرات بالمدينة والأقاليم. ولقد كان يؤخذ عليها كثيراً أنها شديدة الطموح، ولكن الحماسة التي اشتهرت بها فرفارا بترفنا، وكذلك دأبها وصبرها ومثابرتها قد أوشتت أن تذلل جميع المصاعب وأن تتغلب على جميع العوائق. وكادت اللجنة أن تتشكل، حتى أن المشروع قد اتسع مزيداً من الاتساع في نفس صاحبته الزاخرة بالحماسة، فكانت تحلم بأن يشمل روسيا كلها. ولكن تغير الحاكم أنهى جميع هذه المشروعات: فزوجة الحاكم الجديد، قد أبدت في أوساط المجتمع الراقي ملاحظات لاذعة فيما يظهر، والأنكى من ذلك أن تلك الملاحظات كانت صائبة سديدة، إذ وضعت تشكيل لجنة من هذا النوع بآته مشروع غير عملي، وسرعان ما نقل الناس هذه الملاحظات لفرفارا بترفنا موسعة مضخمة. إن

(1) عرفت بعض مناطق روسيا بعض المجاعات أثناء 1867

الله وحده يعرف قرارة القلوب، ولكنني أظن أن فر فارا بترو فنا قد سرّها أن تقف تحت سقيفة مدخل الكاتدرائية، فهي تعلم أن امرأة الحاكم التي تتبعها جميع السيدات ستمر فوراً فقالت لنفسها: "ألا فلتَر بعينها أنني لا أعبأ بما قد تقوله عن برّي وإحساني اللذين تزعم أنهما لا غناء فيهما وأنهما يشتملان على طموح كبير. وهذا درس لكم جميعاً!".

نظرت فر فارا بترو فنا بانتباه إلى المرأة الراكعة أمامها وسألتها:
- ماذا يا عزيزتي؟ ماذا تريدين؟

فتأملت المرأة الراكعة بنظرة فيها اضطراب وخشية وعبادة في آن واحد، ثم أخذت تضحك فجأة ضحكاتها الصغيرة الحادة تلك نفسها.

ألحت فر فارا بترو فنا سائلةً وهي تجيل من حولها نظرة صارمة مستفهمة:
- ماذا تريد؟ من هي؟

فلم يجبها أحد.

- أأنت بائسة؟ هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟

- بحاجة... لقد جئت...

كذلك دمدمت "المسكينة" بصوت يقطّعه الانفعال. وتابعت تقول:
- لقد جئت لأقبل يدك.

وأخذت تضحك. وبنظرة ساذجة بريئة، بنظرة من نظرات الأطفال الذين يلاطفونك لينالوا حظوتك، همّت أن تتناول يد فر فارا بترو فنا، لكنها وقد اعترأها ما يشبه الخوف تقهقرت فجأة إلى وراء.

قالت فر فارا بترو فنا وهي تبسم ابتسامة شفقة:

- ألم تجيئي إلّا من أجل هذا؟

ولكنها سرعان ما استلت من محفظة نقودها ورقة بعشرة روبلات ومدّتها إلى المرأة المجهولة. فتناولت المرأة المجهولة الورقة. كان يبدو على فر فارا بترو فنا اهتمام شديد بالمرأة الشابة، وكان واضحاً أنها لا تعدّها متسولة عادية.

قال صوت في الجمهور:

- هل رأيت؟ لقد أعطتها عشرة روبلات!
تمتت "المسكينة" تقول وهي تشد بأصابع يدها اليسرى على طرف
ورقة العشرة روبلات التي كانت تهزّها الريح:
- يدك، أرجوك!

فقطبت فرفارا بتروفا حاجبيها قليلاً، ومدت يدها بوقار ورصانة بل
وبما يشبه القسوة في قسّات وجهها. فقَبِلَت المرأة المجهولة اليد باحترام
وإجلال. وسطع في نظرتها المלאى بالعرفان نوعٌ من نشوة.
وفي تلك اللحظة نفسها إنما ظهرت زوجة الحاكم تحت باب الكاتدرائية،
تتبعها جمهرة من السيدات وكبار الموظفين. فاضطرت أن تتوقف. وفعل
الآخرون مثلما فعلت.

- أترتجين؟ هل تشعرين ببرد؟
كذلك سألت فرفارا بتروفا فجأة، ثم نضت عنها معطفها الذي تناوله
الخادم المرافق طائراً، ونزعت عن كتفيها شالاً أسوداً غالي الثمن، وتولت
بنفسها خلعه على العنق العاري، عنق المرأة المجهولة التي ما تزال راكعة.
- انهضي، انهضي، أرجوك!
نهضت المرأة الشابة.

- أين تعيشين؟ هل يعقل أن لا يعرف أحد أين تعيش؟
وأجالت فرفارا بتروفا بصرها على من حولها مرة أخرى نافذة الصبر.
ولكن الوجوه التي رأتها الآن غير الوجوه التي رأتها منذ قليل: إنها محاطة
الآن بأشخاص تعرفهم، وأناس من المجتمع الراقي كانوا يرقبون المشهد،
فبعضهم يرقبه باستغراب قاس، وبعضهم يرقبه باستطلاع خبيث وفضول
ماكر، ويأمل أن تقع فضيحة، حتى أن بعضهم قد أخذ يضحك ساخراً منذ
ذلك الحين.

وأخيراً وُجد رجل شهم يجيب عن سؤال فرفارا بتروفا، قال واحد من
تجارنا المعتبرين، واسمه أندرييف:
- أظن أن اسمها لبيادكين.

كان الرجل ذا نظارتين، وكان أبيض اللحية، وكان يرتدي ثياباً على الطراز الروسي، وله قبعة أسطوانية كان يمسكها في تلك اللحظة بيده. وأضاف يقول:

- إنها تسكن في عمارة فيليوف، شارع إيبفانيا.

- لبيادكين؟ في عمارة فيليوف... سمعت عن شيء من هذا فعلاً...
شكراً يا نيكون سيمونتش. ولكن من هو لبيادكين هذا!

- رجل يسمي نفسه كابتن. هو امرؤ مريب! أظن أن هذه المرأة أخته.
وأضاف أندرييف يقول خافضاً صوته، ناظراً إلى فرفارا بتروفنا بهيئة ذات دلالة:

- لعلها خادعت رقابته وخرجت.

قالت فرفارا بتروفنا:

- فهمت. شكراً يا نيكون سيمونتش.

ثم قالت تسأل المرأة المسكينة:

- أنت السيدة لبيادكين يا عزيزتي؟

- لا، لست السيدة لبيادكين.

- إذن أخوك هو لبيادكين؟

- نعم، أخي هو لبيادكين.

- إليك ما سأفعله يا عزيزتي: سوف آخذك إلى بيتي، ومن هناك يوصلونك

إلى مسكنك. هل تريد أن تجيئي معي؟

- نعم نعم، أريد أريد!

كذلك هتفت الآنسة لبيادكين وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى ضارعة.

وفجأة دوى صوت ليزافتا نيقولايفنا يقول:

- عمتي، عمتي، خذيني معك!

كانت ليزافتا نيقولايفنا قد جاءت إلى القديس مع زوجة الحاكم، بينما

كانت براسكوفيا إيفانوفنا تقوم، تنفيذاً لأمر الطبيب، بنزهة في العربة

مصطحبة مافريكى نيقولايفتش لتسلى. تركت ليزا امرأة الحاكم بغتة
وهرعت نحو فرفاراً بتروفنا.

بدأت فرفاراً بتروفنا تكلمها فقالت وهي تصطنع غاية الأبهة والجلال:
- إنك لتعلمين يا عزيزتي إنني يسعدني دائماً أن أراك... ولكن ما عسى
أمك قائلة...

ولكن فرفاراً بتروفنا توقفت عن الكلام مضطربة أشد الاضطراب حين
لاحظت ما تعانيه ليزا من بلبلة وتشوش وقلق. قالت ليزا ملحّة وهي تقبل
فرفاراً بتروفنا:

- عمتي، عمتي، يجب أن أذهب معك.
وهنا تدخلت امرأة الحاكم فقالت باللغة الفرنسية في دهشة ملحوظة:
- ولكن ماذا دهالك يا ليزا؟ (بالفرنسية).
- معذرة يا ابنة العم العزيزة، إنني ذاهبة مع عمتي.
كذلك قالت ليزا لابنة العم العزيزة المندهشة اندهاشاً أليماً، وهي تقبلها
على عجل. وأضافت:

- وقولي لماما أيضاً أن تدركني فوراً في بيت عمتي. وهي عازمة على
ذلك عزماً أكيداً على كل حال. ذكرت لي هذا هي نفسها، لكنني نسيت أن
أبلغك. سامحيني. لا تزعلي "يا جوليا، يا ابنة العم العزيزة" (بالفرنسية)...
عمتي أنا مستعدة!

كذلك قالت ليزا متدفقة في كلامها. ثم دمدمت تقول هامسة في أذن
فرفاراً بتروفنا وقد استبد بها حزن شديد:

- إذا لم تأخذيني معك، فلأركضن وراء عربتك صائحة!
من حسن الحظ أيضاً أن أحداً لم يسمع ما قالت. وقد تهقرت فرفاراً
بتروفنا خطوة إلى وراء، وألقت نظرة ثابتة نافذة قوية على الفتاة التي طاش
صوابها. وكان من شأن هذه النظرة أن قررت كل شيء: لقد عزمت فرفاراً
بتروفنا على أن تصطحب ليزا.
وأفلت من لسانها قولها:

- يجب أن نضع حداً لهذا كله. طيب. سأخذك معي راضيةً مسرورة يا ليزا، على شرط أن توافق جوليا ميخائيلوفنا طبعاً.
وقد أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الأخيرة وهي تلتفت نحو امرأة الحاكم بهيئة صريحة وقورة.

فتمتت جوليا ميخائيلوفنا وقد أصبحت متوددة لطيفة على حين فجأة:
- ... طبعاً، حتماً، لا أريد أن أحرّمها من هذه المسرة، لا سيما وأنني أنا نفسي أعرف الرأس الصغير الخيالي المستبد الذي تحمله فوق كتفها.
قالت امرأة الحاكم ذلك وابتسمت ابتسامة عذبة.
فأجابت فرفارا بتروفنا وهي تحييها تحيةً فيها تودد وإجلال:
- أشكرك كثيراً.

وتابعت جوليا ميخائيلوفنا كلامها تقول مفتتنة حتى لقد احمرّ وجهها سروراً وانفعالاً:

- ومما يزيد مسرتي أن ما يحض ليزا على مصاحبتك هو أنها أولاً تريد أن تسعد بلقائك وأنها ثانياً مدفوعة بعاطفة رائعة كل الروعة، سامية كل السمو إن صح التعبير، وهي عاطفة الشفقة... و... عند مدخل الكنيسة...
قالت جوليا ميخائيلوفنا ذلك ونظرت إلى "المرأة المسكينة".
فأجابت فرفارا بتروفنا مؤيدةً كلام جوليا ميخائيلوفنا بكرم وسخاء:
- هذه أقوال تشرف قائلها...

فانبرت جوليا ميخائيلوفنا تمد إليها يدها بحماسة، فسرّ فرفارا بتروفنا أن تمس تلك اليد بأصابعها. وكان الأثر العام رائعاً، فالوجه تشرق بهجةً، وكان بعضهم يتسمون، لكن ابتسامتهم كاذبة تصطنع الرقة والعذوبة اصطناعاً.
الخلاصة أن المدينة كلها قد أدركت إدراكاً واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا ليست هي التي ازدرت فرفارا بتروفنا حتى الآن، مهملةً زيارتها، وأن الحقيقة هي نقيض ذلك، فرفارا بتروفنا هي التي "جفت جوليا ميخائيلوفنا، فلولا ذلك لهرعت جوليا ميخائيلوفنا إلى السيدة ستافروجين سيراً على الأقدام إذا وثقت فقط بأنها ستستقبلها". وسرعان ما علت مكانة فرفارا بتروفنا علواً

كبيراً، وازدادت مهابتها وسطوتها.

قالت فر فاراً بتروفا وهي تشير للآنسة لبيادكين إلى العربة التي وقفت في تلك اللحظة أمام الكاتدرائية:

- اركبي يا عزيزتي.

فهرعت المسكينة نحو المركبة فرحةً، وبينما ساعدها الخادم المرافق على الركوب. هتفت فر فاراً بتروفا تقول وقد بدا عليها الذعر واصفر وجهها اصفراراً شديداً:

- ماذا؟ أتعرجين؟ (وقد لوحظ ارتياحها، غير أن أحداً له يفهم سببه).

وانطلقت المركبة. إن منزل فر فاراً بتروفا قريب جداً من الكاتدرائية. وقد روت لي ليزا فيما بعد أن الآنسة لبيادكين، خلال الدقائق الثلاث التي استغرقتها قطع الطريق، كانت تضحك ضحكها الهستيري بغير توقف، بينما لبثت فر فاراً بتروفا ساكنة جامدة "كالغارقة في نوم مغناطيسي" على حد تعبير ليزا.

الفصل الخامس

الأفعوان البار

1

شدّت فر فارا بتر وفنا حبل جرس صغير وتهافت على كرسي قرب النافذة. وقالت لماريا تيموفيئنا وهي تشير إلى كرسي في وسط الغرفة بقرب مائدة كبيرة مستديرة:

- اجلسي هنا يا عزيزتي. ياستيفان تروفيموفتش، ما معنى هذا؟ انظر إلى هذه المرأة! نعم، انظر إليها، ما معنى هذا؟
دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول متلعثماً:
- أنا... أنا...

ولكن خادماً دخل في تلك اللحظة.

- هات فنجان قهوة، فوراً، بأقصى سرعة، ولا تفكوا الخيل.

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية بصوت محتضر:

- ولكن، يا صديقتي العظيمة العزيزة، ما أشد هذا القلق! (بالفرنسية).

فصاحت ماريا تيموفيئنا تقول وهي تصفق يديها وتتهياً مفتونة لشهود

حديث باللغة الفرنسية:

- آ... تتكلمون بالفرنسية! تتكلمون بالفرنسية!

فتأملتها فر فارا بتر وفنا بما يشبه الرعب.

ولزمنا الصمت ننتظر ما سيحدث. لم يرفع شاتوف رأسه. أما ستيفان

تروفيموفتش فكان يبدو منقلب النفس رأساً على عقب كأنه يشعر أنه هو

المذنب في هذا كله. وكانت قطرات من عرق تتلألأ على صدغيه.
ألقيت نظرة على ليزا. كانت جالسة في ركن إلى جانب شاتوف تقريباً.
وكانت تنقل نظرتها الفاحصة المتفرسة من فرفارا بتروفنا إلى العرجاء، ومن
العرجاء إلى فرفارا بتروفنا. وكانت ابتسامة تقلص شفيتها، لكنها ابتسامة
خيثة. لاحظت ذلك فرفارا بتروفنا. وكانت ماريما تيموفيتشنا أثناء ذلك تبدو
مفتونة: إنها تنظر بمسرة واضحة ودون أي ارتباك إلى صالون فرفارا بتروفنا
الجميل، وأثاثه الفاخر، وسجاده النفيس، ولوحاته المعلقة بالجدران،
ونقوشه التي تزين السقف، والتمثال البرونزي الذي يمثل المصلوب
منتصباً في ركن من الأركان، والمصباح الخزفي، ودفاتر الصور، والتحف
الموضوعة على المائدة.

وهتفت تقول فجأة:

- كيف؟ أنت أيضاً هنا يا شاتوشكا! تصور أنني رأيتك منذ مدة ولكنني
قلت لنفسني: لا، ليس هو، أتى له أن يكون هنا؟

وضحكتا في فرح.

قالت فرفارا بتروفنا تسأل شاتوف وهي تلتفت إليه بقوة:

- أتعرف هذه المرأة؟

فجمجم شاتوف يقول وهو يتحرك مضطرباً على مقعده:

- نعم، أعرفها.

- ماذا تعرف عنها؟ أسرع في الإجابة قليلاً، أرجوك.

- ماذا أقول لك؟

قال شاتوف ذلك وابتسم ابتسامة غامضة لا تتناسب كثيراً مع الموقف.

وتابع كلامه فقال:

- إنك لترين بنفسك...

- ماذا أرى؟ ولكن هلاً قلت شيئاً...

- إنها تقيم في نفس العمارة التي أقيم فيها... مع أخيها... الضابط...

- وماذا أيضاً؟

تردد شاتوف. ثم دمدم يقول متلعثماً:

- لا حاجة إلى الكلام.

وعاد إلى صمته الكامل وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً من الجهد الذي بذله. قالت فرفارا بتروفا مستاءة:

- طبعاً لا يمكن أن يتوقع المرء منك غير هذا.

لقد كانت ترى رؤية واضحة أننا جميعاً نعلم شيئاً ما، لكننا نوجس خوفاً ونحاول أن نتحاشى أسئلتها، أي أن ثمة سرّاً...

ودخل الخادم وقدم إليها، على صينية صغيرة من فضة، فنجان القهوة الذي كانت قد أمرت به، ولكنها أومأت إليه فاتجه نحو ماريا تيموفيئنا. قالت فرفارا بتروفا لماريا تيموفيئنا:

- منذ قليل كنت تشعرين ببرديا عزيزتي، فاشربي هذه القهوة بسرعة، فتدفي.

فقال ماريا تيموفيئنا وهي تتناول القهوة:

- "شكراً" (بالفرنسية).

وانفجرت تضحك فجأة، إذ تصورت أنها قالت للخادم "شكراً" بالفرنسية. لكنها، وقد التقت نظرتها بنظرة قاسية تسطع في عيني فرفارا بتروفا، خافت ووضعت الفنجان على المائدة.

ثم تمتمت تقول بشيء من المرح:

- أتراك زعلت يا عمتي؟

فإذا بفرفارا بتروفا تصبح مستهجنة:

- ماذا؟

وإذا هي ترتعش وتقوم عن كرسيها متابعة كلامها فتقول:

- أنا لست عمك؟ ماذا تعنين بهذا الكلام؟

ودُهشت ماريا تيموفيئنا من هذا الغضب المفاجئ، فتقهقرت إلى وراء، وأخذت ترتعش كأن بها حمى. وقالت متلعثمة وهي تنظر إلى فرفارا بتروفا محملقة:

- كنت ... كنت أظن أن عليّ أن أناديك هكذا. فهكذا تناديك ليزا.
 - ما هذا الذي تقولينه أيضاً؟ من هي ليزا هذه التي تتحدثين عنها؟
 فأشارت ماريا تيموفيثنا إلى ليزا بإصبعها قائلة:
 - هي هذه الآنسة؟
 - كيف؟ أتسمينها ليزا أيضاً؟
 - أنت نفسك سميتها هكذا منذ قليل.
 كذلك قالت ماريا تيموفيثنا متجربة قليلاً، وتابعت كلامها تقول ضاحكة
 كأنها تفكر في شيء آخر:
 - رأيت في منامي آنسة جميلة شبيهة بها كل الشبه.
 فكّرت فراراً بتروفا لحظة، وهدأت قليلاً، حتى لقد تبسمت تبسماً
 خفيفاً حين سمعت كلمات ماريا تيموفيثنا الأخيرة. وحين لاحظت ماريا
 هذه الابتسامة، اقتربت منها خجلة وخجلة وهي تعرج. وقالت وهي تنزع عن
 كتفها الشال الأسود الذي كانت فراراً بتروفا قد لفعتها به:
 - خذيه، نسيت أن أردّه إليك، اغفري لي قلة أدبي.
 - بل ردّه إلى كتفك فوراً، واحتفظي به لنفسك. هيّا اجلسي، واشربي
 قهوتك، ورجائي إليك يا عزيزتي أن لا تخافي مني. هدئي روعك. لقد بدأت
 أفهمك.
 سمح ستيفان تروفيموفش لنفسه أن يتدخل فقال يخاطب فراراً بتروفا
 بالفرنسية:
 - "صديقتي العزيزة" ...
 فما كان من فراراً بتروفا إلّا أن قالت متململة:
 - آه ... ستيفان تروفيموفش، إن الموقف معقد تعقيداً كافياً دون أن تزيده
 بكلامك أنت تعقيداً... شدّ حبل هذا الجرس الموجود بقربك، أرجوك.
 وساد صمت.
 كانت تجيل غلينا جميعاً نظرة حانقة مرتابة. ودخلت آجاشا، خادمتها
 الأثيرة. فقالت لها فراراً بتروفا:

- هاتي لي الشال ذا المربعات، الذي اشتريته من جنيف. ماذا تعمل داريا بافلوفنا؟

- إنها متوعكة الصحة يا سيدت.

- اصعدي إليها واطلبي منها أن تجيء. وأضيفي إلى ذلك أنني أرجوها ملحة أن تجيء ولو كانت مريضة.

وفي تلك اللحظة نفسها سمعنا أصوات وقع أقدام غير مألوفة، فما هي إلا هنيهة حتى ظهرت في عتبة الباب، على حين فجأة، براسكوفيا إيفانوفنا لاهثة الأنفاس زائغة الهيئة، يسندها مافريكي نيقولا يفتش.

صرخت براسكوفيا إيفانوفنا تقول بصوت حاد، معبرة بهذا الصراخ، على عادة الأشخاص الضعاف المهتاجين، عن كل الغضب الذي كان قد تراكم فيها:

- آه... رباه! لقد نفذ صبري! ليزا، أنت مجنونة! انظري كيف تعاملين أملك! يا فرفاراً بتروفنا، لقد جئت لأخذ ابنتي.

فألقت عليها فرفاراً بتروفنا نظرة من تحت، وأنهضت جسمها قليلاً، وقالت وهي تحاول بجهد كبير أن تخفي امتعاضها:

- نهارك سعيد يا براسكوفيا إيفانوفنا. اجلسي، أرجوك. كنت أعلم أنك لا بد آتية.

2

ليس في هذا الاستقبال شيء كان يمكن أن لا تتوقعه براسكوفيا إيفانوفنا. إن فرفاراً بتروفنا تعامل رفيقة مدرستها هذه معاملته تشتمل دائماً على استبداد وطغيان يختفيان تحت ستارة الصداقة، بل لقد كانت تعاملها بما يشبه أن يكون ازدراء. غير أن ذلك اليوم كان يبدو استثناءً من القاعدة مع ذلك.

لقد سبق أن ذكرت عرضاً أن القطيعة بين السيدتين أصبحت شبه تامة منذ بضعة أيام. ومع ذلك فإن أسباب هذه القطيعة كانت ما تزال سرّاً خفياً في نظر فرفاراً بتروفا، فكان ذلك يؤلم فرفاراً بتروفنا إيلاماً خاصاً. غير أن

براسكوفيا إيفانوفنا تتخذ الآن إزاءها وضعاً فيه تعال عجيب و غطرسة. وكان طبيعياً أن يصيب هذا فرارا بترفنا بجراح بليغة عميقة. زد على ذلك أن شائعات غريبة كانت قد أخذت تصل إلى مسامعها، وهي شائعات غامضة جداً، كانت تحنقها لهذا السبب إلى أبعد حدود الحق. إن من طبيعة فرارا بترفنا أنها مستقيمة ذات كبرياء، بل وأنها تميل إلى النزال والقتال. وهي لا تكره شيئاً كما تكره الاتهامات الملتوية والغمزات الخفية، وتفضل أن تكون الحرب سافرة صريحة. إن هاتين السيدتين لم تلتقيا منذ خمسة أيام، أي منذ آخر زيارة قامت بها فرارا بترفنا لهذه "السيدة دروزدوف"، وهي زيارة عادت منها فرارا بترفنا مضطربة أشد الاضطراب، حانقة أكبر الحق. وفي وسعي أن أقول غير خائف من الخطأ أن براسكوفيا إيفانوفنا حين دخلت الآن كانت مقتنعة بأن فرارا بترفنا لا بد أن تخاف منها. كان ذلك واضحاً في تعبير وجهها. ولكن فرارا بترفنا ما إن يحملها باعث من البواعث على افتراض أن من الممكن أن تُظنّ مُدلةً حتى يركبها عفريت العجب ويستولي عليها شيطان العجرفة.

وكانت براسكوفيا إيفانوفنا، ككثير من الأشخاص الضعاف الذين يتحملون سوء المعاملة مدة طويلة دون أي احتجاج، تعتمد إلى الهجوم العنيف متى أتاحت لها فرصة الهجوم العنيف. هذا إلى أنها مريضة، وقد جعلها المرض أكثر احتياجاً وأشد تاذياً بطبيعة الحال. ويجب أن أضيف إلى ذلك أخيراً أن وجودنا نحن في الصالون لا يمكن أن يخرج هاتين الصديقتين إذا وجب أن تنشأ بينهما مشاجرة: فهما تعدّاننا جزءاً من الأسرة، وتعدّانا كذلك أدنى مستوى وأهون شأن. وقد خطرت ببالي هذه الفكرة وأنا أشعر بغير قليل من القلق. وحين سمع ستيفان تروفيموفتش صوت براسكوفيا إيفانوفنا الحاد الصارخ، ولم يكن قد جلس منذ وصول فرارا بترفنا، تهاوى على كرسيه خائر القوى، وحاول أن يقع بصره على نظرتي وقد بدا في وجهه كمد شديد. وتحرك شاتوف مضطرباً على كرسيه، وجمجم ينطق بضع كلمات من بين أسنانه. فخيّل إليّ أنه يهمّ أن ينهض وينصرف. وهمت

ليزا أيضاً أن تنهض، ولكنها سرعان ما عادت تجلس حتى دون أن تولي صرخات أمها ما توجهه الظروف من انتباه واهتمام. ولم يكن ذلك ثمرة من ثمرات "عناد رأسها" قط، وإنما كان نتيجة فكرة استولت على نفسها استيلاء كاملاً، واستغرقت نفسها استغراقاً واضحاً. إنها تنظر إلى أمام كالذاهلة، حتى لقد انقطعت عن الاهتمام بماريا تيموفيثنا.

3

هتفت براسكوفيا إيفانوفنا تقول وهي تستقر بمعاونة مافريكي نيقولا يفتش على مقعد قرب المائدة:

- آه... أخيراً أجلس!

ثم أضافت تقول بصوت محطم:

- لولا آلام شديدة في ساقِي لما جلست عندك يا عزيزتي.

فرفعت فر فاراً بتروفا رأسها قليلاً، وضغطت بأصابع يدها اليمنى على صدغها الذي كان واضحاً أنها تحس بأوجاع فيه، وقالت:

- لماذا يا براسكوفيا إيفانوفنا؟ لماذا ترفضين الجلوس عندي؟ لقد كان المرحوم زوجك يحمل لي دائماً أكبر الصداقة، وطالما لعبنا معاً، أنا وأنت، لعبة العروسة، أيام كنا صبيتين صغيرتين في المدرسة الداخلية!

حركت براسكوفيا إيفانوفنا يدها بإشارة تملل وقالت:

- هذا ما كنت أتوقعه. كلما انتويت أن تأخذي عليّ المآخذ، استحضرت ذكرياتنا في المدرسة الداخلية. هذا أسلوبك وهذه خطتك. في رأيي أن ما تقولينه هنا ليس إلا جملاً منمّقة. اعلمي أنني أكرهها وأحقرها، هذه المدرسة الداخلية التي تجيئين على ذكرها!

- يبدو لي أنك معتكرة المزاج. كيف حال ساقيك؟ ها... إليك القهوة..

اشربها.. أرجوك.. وكفّي عن الغضب!

- إنك تعامليني كما يُعامل طفل صغير. لا أريد قهوتك.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا ذلك، وأبعدت بإشارة حانقة ساخطة الخادم

الذي جاء يقدم لها فنجاناً من القهوة. وما من أحد شرب قهوة إلا أنا ومافريكسي نيقولا يفتش. وقد أخذ ستيفان تروفيموفتش فنجاناً، ولكنه تركه على المائدة دون أن يرشف منه رشفة واحدة. أما ماريّا تيموفيئنا فقد ودّت لو تأخذ فنجاناً ثانياً حتى لقد مدّت يدها إلى الصينية، لكنها فكرت في الأمر فأسرعت ترفض بوقار، راضيةً عن حركتها هذه رضىً واضحاً.

ابتسمت فرفارا بتروفا ابتسامة مقهورة، وقالت:

- لا بد أنك تخيلت شيئاً من الأشياء يا عزيزتي براسكوفيا إيفانوفنا، وأنتك إنما دخلت إلى هنا ممتلئة بما ذهب إليه خيالك. لقد عشت دائماً في وسط أخيلتك وأوهامك. إنك تغضبين إذا أنا جئت على ذكر مدرستنا الداخلية، ولكن هل تتذكرين أنك حين عدت من إجازة الصيف زعمت لتلميذات الصف كله أن الضابط في سلاح الفرسان، شابكيلين، قد خطبك من أهلك؟ إن السيدة ليفيور قد أقنعتك فوراً بأنك تكذبين، والحق أنك لم تكذبي، إنما أنت تخيلت هذه القصة تخيلاً من باب التسلية. فقوليني لنا: ماذا هناك الآن؟ ماذا تخيلت أيضاً؟ ممّ أنت مستاءة!

- وأنت أيضاً وقعت في غرام القس الذي كان يعلمنا الدين. ذلك أنت، ما دمت حقودة إلى هذا الحد. هاهاها!...

وانطلقت تضحك ضحكة مُرّة تحولت إلى نوبة سعال شديد.

قالت فرفارا بتروفا وهي تلقي عليها نظرة زاخرة بالبغض:

- آ... إذن لم تنسي حكاية القس...

وانكفأ لون وجهها حتى صار ضارباً إلى خضرة. فإذا ببراسكوفيا إيفانوفنا تنهض فجأة متجهمة الوجه وتقول:

- لست الآن في حالة نفسية تساعدني على الضحك يا عزيزتي. لماذا أقحمت ابنتي في فضائحك على مرأى ومسمع من المدينة كلها؟ من أجل أن أعرف هذا إنما جئت.

فما إن سمعت فرفارا بتروفا هذا الكلام حتى صاحت تقول بلهجة التهديد: - فضائحي؟

فإذا بليزافتا نيقولا يفنا تتدخل فتقول مخاطبةً أمها:
- أنا أيضاً أطلب منك أن تلتزمي الاعتدال والحق يا أمه.
- ماذا تقولين؟

كذلك سألت الأم وهي تستعد لأن تنفجر صائحة منتحبة، لكنها وقد رأت
ما يسطع في عيني ابنتها من نظرات ملتبهة مستعرة، أمسكت على حين فجأة.
فقالت ليزا وقد احمرت احمراراً شديداً:

- كيف يمكنك أن تتحدثي عن فضائح يا ماما؟ لقد جئت بمحض إرادتي،
واستأذنت جوليا ميخائيلوفنا، لأنني أردت أن أعرف قصة هذه المسكينة وأن
أساعدها.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا تكرر جملة ابنتها وهي تضحك ضحكة خبيثة:
- "قصة هذه المسكينة!" ما شأنك أنت وهذه القصص يا عزيزتي؟
والتفتت نحو فرفارا بتروفا ساخطة سخطاً شديداً، وقالت لها:

- يا عزيزتي! لقد ضيقنا ذرعاً بطغيانك واستبدادك! يقال هنا، خطأ أو
صواباً، أنك تسيرين المدينة كلها بإشارة من إصبعك أو غمزة من عينك،
ولكن آن الأوان لأن ينتهي هذا كله. لن يحدث شيء من هذا بعد اليوم!
كانت فرفارا بتروفا منتصبه الجذع كسهم يهيم أن ينطلق من القوس.
وألقت على براسكوفيا إيفانوفنا نظرة ثابتة طويلة قاسية، ثم قالت لها أخيراً
بهدهوء مخيف:

- احمدي الله يا براسكوفيا على أنه ليس هنا إلا أصدقاء. لقد نطقت
بأقوال كثيرة لا داعي إليها.

- أنا لا أخشى رأي الناس. ولكنك أنت التي ترتعشين خوفاً من الناس،
تحت ستار من الكبرياء الباطلة والزهو الكاذب. فإذا كان هؤلاء أصدقاء،
فذلك من حسن حظك.

- أترأك أصبحت أكثر ذكاء في خلال هذه الأيام الثمانية؟

- لا، ليس الأمر هذا. كل ما هنالك أن الحقيقة قد تكشفت ساطعة باهرة
في هذا الأسبوع.

- آية حقيقة؟ اسمعي يا براسكوفيا إيفانوفنا، لا تحنقيني، اشرحي ما بنفسك فوراً. ما هي تلك الحقيقة؟ ماذا قصدت من ذلك الكلام؟
- الحقيقة هي هذه! إنها موجودة أمامك!

كذلك هتفت براسكوفيا إيفانوفنا، مشيرةً بإصبعها إلى ماريّا تيموفيتشنا عازمةً ذلك العزم المستमित الذي لا يحفل بالعواقب، راغبة في أمر واحد لا ثاني له، هو أن تضرب ضربة قوية. وكانت ماريّا تيموفيتشنا تنفرس فيها باهتمام يسليها، فلما رأت إصبع الزائرة تمتد نحوها مشيرةً إليها، انطلقت ضحكة فرحة، وطفقت تتقلقل على كرسيها مرحة.
هتفت فرفارا بتروفنا تقول:

- يا يسوع المسيح، لقد أصبحوا جميعاً مجانين!
واصفراً وجهها اصفراراً شديداً، وتهاكت في مقعدها. حتى لقد بلغت من الاصفرار أننا خفنا خوفاً كبيراً، وكان ستيفان تروفيوموفتش أول من هرع نحوها. واقتربت أنا منها. ونهضت ليزاً أيضاً، ولكنها سرعان ما توقفت. على أن براسكوفيا إيفانوفنا كانت أشد ارتياحاً على الإطلاق، فقد انطلقت من صدرها صرخة، ونهضت من مكانها في مشقة وعناء، وقالت بصوت داعم له أنين:

- فرفارا بتروفنا، عزيزتي الغالية، اغفري لي حماقتي وشرّي. ولكن هاتوا لها قليلاً من الماء.

- لا تثني يا براسكوفيا إيفانوفنا، أرجوك! وابتعدوا أيها السادة، رحماك!
لست في حاجة إلى ماء يا براسكوفيا إيفانوفنا!
أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الأخيرة بصوت ثابت وإن يكن أجش. وكانت شفتها قد ذهب عنهما لونهما تماماً.

استأنفت براسكوفيا إيفانوفنا كلامها فقالت وقد هدأت قليلاً:
- فرفارا بتروفنا، صديقتي. لقد أفلتت مني كلمات حمقاء حقاً، لكنني قد أخرجتني عن طوري رسائل غير مذيلة بأسماء مرسلتها، قصفتني بها أوغاد لا أدري من هم. كان عليهم أن يرسلوها إليك أنت، فهي تتناولك، أما أن

يرسلوها إليّ فهذا ما أحقني، إن لي بتاً يا فر فارا بتروفا، وأنا مسؤولة عنها. كانت فر فارا بتروفا تصغي إليها بانتباه محمقة. وفي تلك اللحظة فُتح باب صغير بغير ضجة، ودخلت داريا بافلوفنا الغرفة. ولكنها سرعان ما توقفت ونظرت إلينا جميعاً وقد فجأها مارأت في وجوهنا من اضطراب. جائز أنها لم تلاحظ في الوهلة الأولى ماريا تيموفيئنا التي لم ينبهها أحد إلى حضورها. وكان ستيفان تروفيوفتش أول من رأى دخول داريا الصامت. فقام بحركة من يده، واحمرّ وجهه، وقال معلناً لا يدري أحد لماذا: "داريا بافلوفنا"، فإذا بالأنظار جميعها تتجه إلى الفتاة دفعةً واحدة. هتفت ماريا تيموفيئنا تقول:

- ماذا؟ أهذه هي داريا بافلوفنا؟ إن أختك لا تشبهك يا شاتوشكا. كيف يجوز لخادمي أن يصف فتاة جميلة هذا الجمال بأنها عبدة، وأن يلقبها داشكا؟

وفي أثناء ذلك كانت داريا بافلوفنا قد اقتربت من فر فارا بتروفا. لكنها وقد أدھشتها صيحة ماريا تيموفيئنا التفتت فجأة، وتوقفت، وألقت على العرجاء نظرة ثابتة طويلة.

قالت فر فارا بتروفا بهدوء فيه تهديد:

- اجلسي. اقتربي مزيداً من الاقتراب. نعم هكذا. تستطيعين أن تري هذه المرأة وأنت جالسة. هل تعرفينها؟

أجابت داشا بصوت رقيق عذب:

- لم أرها قبل اليوم.

ثم أضافت بعد لحظة صمت:

- لا بد أنها الأخت العرجاء لرجل يسمى لبيادكين.

هتفت ماريا تيموفيئنا تقول وهي في ذروة الافتتان:

- أنا أيضاً يا عزيزتي أراك اليوم أول مرة، رغم شوقي إلى معرفتك منذ مدة طويلة، لأن كل حركة من حركاتك تدل على تربية ممتازة. أما عن خادمي وشئائمه، فهل يُعقل أن تسرق منه مالا فتاة لها مالك من روعة الفتنة وحسن النشأة والتربية؟ ذلك أنك فاتنة، نعم فاتنة. أنا أقول لك ذلك.

بهذا ختمت العرجاء كلامها بحماسة وهي تحرك يديها أمام داريا بافلوفنا.
قالت فر فارا بتروفنا لداريا تسألها بوقار وكبرياء:
- هل تفهمين شيئاً من هذا الكلام كله؟
- نعم، أفهم كل شيء.

- فما حكاية المال المسروق؟
- لعلها تقصد المال الذي تكفلت في سويسرا، تلبيةً لطلب نيقولاي
فسيفولودوفتش، أن أحمله إلى السيد لبيادكين، أخيها.
ساد صمت.

- هل نيقولاي فسيفولودوفتش هو الذي كلفك بحمل ذلك المال؟
- كان يرغب كثيراً في إيصال مبلغ ثلاثمائة روبل إلى السيد لبيادكين. وإذا
كان لا يعرف عنوانه، وكان كل ما يعرفه أنه سيجيء إلى هنا، فقد عهد إليّ
بالمبلغ لأسلمه للبيادكين عند وصوله إلى مدينتنا.
- وما ذلك المال المفقود؟ ماذا تعني تلك الكلمات التي قالتها هذه المرأة
منذ برهة؟

- لا أدري. ولكن بلغتني شائعة تقول إن السيد لبيادكين أخذ يزعم في كل
مكان أنني لم أوصول إليه المبلغ كاملاً، ولم أفهم معنى أقواله. لقد أعطيت
ثلاثمائة روبل، فأرسلتها إليه.

كانت داريا بافلوفنا قد استردت هدوءها كاملاً. ويجب أن أقول من جهة
أخرى أنه كان صعباً على وجه العموم أن تُباغت هذه الفتاة وأن تُحمل على
الاضطراب مهما تكن العاطفة التي تعتمل في قرارة نفسها. لقد أجابت عن
جميع الأسئلة بدقة ووضوح، دون تعجل، بصوت رقيق متساوٍ، من غير أن
يبقى أي أثر من انفعالها الأول، وبدون أي ارتباك يمكن أن يحمل أحداً على
أن يظن فيها الإحساس بارتكاب ذنب.

ولم تحوّل فر فارا بتروفنا بصرها لحظة واحدة عنها أثناء هذا الاستجواب.
وها هي ذي تفكر لحظة ثم تعلن بلهجة جازمة، موجهة كلامها إلينا جميعاً
رغم أنها لم تنظر إلّا إلى داشا:

- ما دام نيقولا يفسيفولودوفتش لم يستعن بي أنا، وإنما رأى من الخير أن يعهد إليك أنت بهذه المهمة، فلا شك أن هناك أسباباً تدعوه إلى ذلك. وعندي أنني لا يجوز لي أن أبحث عن هذه الأسباب ما دامت تُخفى عني. ولكن ثقي أن مجرد اشتراكك في هذه المسألة يطمئني عن تلك الأسباب، يا داريا. ولكنك يا بنيّتي، لجهلك بالناس، ورغم كل طهارة نيّاتك، يمكن أن تقومي بعمل يعوزه التبصر بالعواقب، ولقد قمت بهذا العمل فعلاً إذ اتصلت بوغد دنيء. والشائعات التي أذاعها في الناس تبرهن لك على ذلك برهاناً واضحاً. لكنني سأسأل عنه، وما دام واجب الدفاع عنك يقع على عاتقي أنا، فسوف أعرف كيف أحملك. والآن يجب أن نضع حداً لهذا كله.

تدخلت ماريا تيموفيتشنا فقالت بحماسة وحرارة وهي تتحرك على كرسيها:

- أفضل شيء نفعله حين يأتي هو أن نرسله إلى المطبخ، فيلعب هناك بالورق مع الخدم بينما نشرب نحن هنا قهوتنا. في وسعنا على كل حال أن نرسل إليه فنجاناً، ولكنني أكرهه كرهاً عميقاً.

بهذا ختمت ماريا تيموفيتشنا كلامها وهي تهز رأسها بحركة ذات دلالة. ردّدت فر فاراً بتروفا بعد أن أصغت إلى ماريا تيموفيتشنا بانتباه:

- نعم، يجب أن ننتهي من هذا كله! ستيفان تروفيموفتش، إقرع الجرس، من فضلك.

قرع ستيفان تروفيموفتش الجرس، ثم إذا هو يتقدم فجأة وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً، ودمدم يقول متلعثماً متأتناً، بنوع من الحمى:

- لو أنني... لو كنت... لو قد سمعت هذه القصة الدنيئة، بل هذه الوشاية الكاذبة... لاستأت استياء شديداً ف... "الخلاصة هي أنه رجل ضائع يشبه أن يكون سجيناً هارباً..." (بالفرنسية).

وأمسك ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة. لقد نظرت إليه فر فاراً بتروفا مغضّنة جفنيها. ودخل الكسي إيجورتش، بأبهة على عادته. فقالت فر فاراً بتروفا:

- فلتُهيأُ العربية. وأنت يا ألكسي إيجورتش استعدّ لإيصال الأنسة لبيادكين إلى بيتها. ستدلك هي على المكان الذي تسكنه.

- إن السيد لبيادكين ينتظرها منذ بعض الوقت تحت. وقد ألحّ عليّ كثيراً أن أبلغ عن حضوره.

فتدخل مافريكي نيقولا يفتش الذي كان حتى ذلك الحين يلتزم صمتاً كاملاً لا يتزعزع، تدخل يقول منتبهاً إلى سوء دخول لبيادكين:

- مستحيل. اسمحي لي أن أقول لك إن هذا الشخص لا يمكن استقباله في مجتمع. هذا... هذا إنسان غير معقول يا فر فارا بتروفا.

قالت فر فارا بتروفا تأمر ألكسي إيجورتش:
- فلينتظر.

وسرعان ما خرج ألكسي إيجورتش.

تمتم ستيفان تروفيموفش يقول بالفرنسية:

- "هذا رجل منحط. حتى إنني أعتقد أنه سجين هارب أو رجل من هذا القبيل" (بالفرنسية).

ولكنه احمرّ وأمسك عن الكلام من جديد.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا بلهجة مشمئزة وهي تنهض عن مقعدها:
- ليزا، آن لنا أن ننصرف.

كان يبدو عليها أنها نادمة على أن وصفت نفسها بالحماقة أثناء انفعالها منذ برهة. لقد استردت هيئة التعالي والاحتقار أثناء استجواب داريا. غير أن الشيء الذي خطف انتباهي أكثر من كل ما عداه هو ما كان يعبر عنه وجه ليزافتا نيقولايفنا: إنها منذ دخول داريا بافلوفنا سطع في عينيها لهيب كره واضح وازدراء صارخ يعلن عن نفسه سافراً.

قالت فر فارا بتروفا بذلك الهدوء الشديد نفسه:

- انتظري دقيقة، من فضلك يا براسكوفيا إيفانوفنا. اجلسي. إنني أريد أن أقول كل شيء، وأنت تشعرين بالآلام في ساقيك، فاجلسي، أرجوك. نعم، هكذا، شكراً. منذ قليل، استبد بي الانفعال فاندفعت فأفلتت من لساني

كلمات حاتقة. فمعذرة. لقد تصرفت تصرفاً أحمقاً، وأنا أول من يعترف بذلك، لأنني أحب العدل والإنصاف في كل شيء. ولا بد أنك كنت أنت خارجة عن طورك حتماً، منذ برهة، حين ألمحت إلى رسائل بعثها مرسلوها دون أن يذكروا أسماءهم. إن كل رسالة من هذا النوع لا تستحق إلا الاحتقار، لمجرد أنها غير مذيلة بتوقيع صاحبها. فإذا كنت لا ترين هذا الرأي، فهذا من سوء حظك، ومهما يكن من أمر فإنني لو كنت في مكانك لما التفت إلى هذه الدنئات، ولأبئت أن أوسخ بها نفسي. ولكن ما دمت قد بدأت، فإنني مضطرة أن أذكر لك أنني أنا أيضاً قد تلقيت منذ ستة أيام رسالة فظة مضحكة لا تحمل اسم مرسلها. لا أدري من هو ذلك الوغد الحقير الذي ينبئني في تلك الرسالة أن نيقولا في سيفولودوفتش قد أصبح مجنوناً، وأن عليّ أن أحذر امرأة عرجاء "ستلعب في حياتي دوراً خطيراً" هذا هو التعبير الذي استعمله كاتب الرسالة أتذكره الآن كلمة كلمة. فلما فكرت، وكنت أعرف أن نيقولا في سيفولودوفتش له أعداء كثيرون، استدعيت شخصاً من هنا هو واحد من أعدائه المتسترين المتخفين الحاقدين الحقيرين، فلم تنقض على حديثي معه لحظة حتى أدركت من هو كاتب تلك الرسالة. فإذا كنت "بسبيي أنا" تطاردين أو تُقصفين، على حد تعبيرك، برسائل غفل من أسماء مرسلها، فإنني لئوسفني طبعاً أن أكون أنا سبب ذلك، رغم براءتي. ذلك كل ما أردت أن أقوله لك شارحة معذرة. إنني أرى أنك متعبة مرهقة وأنت مضطربة أشد الاضطراب. ولكنني من جهة أخرى عازمة عزمياً قاطعاً على "إدخال" ذلك الرجل المشبوه المريب الذي استعمل مافريكي نيقولايفتش في حقه ألفاظاً غير مناسبة، إذ قال إنه لا يمكن استقباله. إن ليزا خاصة لن يكون لها شأن هنا. تعالي إليّ يا ليزا، يا بنيّتي، لأقبلك مرة أخرى.

اجتازت ليزا الغرفة، ووقفت أمام فرفاراً بتروفا صامتة. فقبلتها هذه، وأمسكت يديها، وردّتها قليلاً إلى وراء لترأها رؤية أكمل، وتأمّلتها بعاطفة وانفعال. ثم رسمت على الفتاة إشارة الصليب، وقبلتها من جديد.

- هيا، مع السلامة يا ليزا (وأوشكت أن تخالط صوتها دموع). اعلمي

أنني لن أكف عن حبك يوماً، مهما يخيب لك القدر. كان الله معك. إنني أبارك إرادته دائماً...

وأرادت فر فاراً بتروفاً أن تضيف شيئاً آخر، لكنها ثابت إلى نفسها وأمسكت عن الكلام. وسارت ليزا راجعة إلى مكانها وهي ما تزال صامتة وكأنها في حلم، فلما وصلت إلى أمام أمها توقفت فجأة وقالت لها بصوت رقيق لكنه يشف عن إرادة صلبة وعزم من حديد:
- لن أنصرف يا ماما، سأبقى الآن عند عمتي.

فقال براسكوفيا إيفانوفنا في أنين وهي تضم يديها إحداها إلى الأخرى بحركة خوف وقلق:
- ما هذا أيضاً يا رب؟

لكن ليزا لم تجبها. حتى لقد بدا عليها أنها لم تسمعها. وعادت تجلس في ركنها وهي ما تزال تائهة النظرة في الفراغ. وأشرق في وجه فر فاراً بتروفاً تعبير عن العجب والانتصار. وقالت تخاطب مافريكي نيقولا يفتش:

- مافريكي نيقولا يفتش، أريد أن أسألك خدمة هامة: أرجوك أن تذهب إلى تحت فتلقي نظرة على ذلك الرجل، فإن رأيت أن هناك أي إمكان "لإدخاله"، فجيء به إلى هنا.

فأطاع مافريكي نيقولا يفتش وخرج. وما هي إلا دقيقة حتى رجع مع السيد لبيادكين.

4

سبق أن تكلمت عن مظهر هذا الشخص: رجل طويل القامة ضخيم الجسم، في نحو الأربعين من العمر، مجعد الشعر، أحمر الوجه متورّمه، ترتجف خداه الرخوتان عند كل حركة من رأسه، وعيناه الصغيرتان المحترقتان لا تخلوان من معنى الدهاء والمكر. وله شاربان ولحيتان في العارضين. وتبرز تفاحة آدم في عنقه سمينة بشعة المنظر. والشيء الذي

خطف انتباهي فيه أكثر من كل ما عداه هو أنه كان في هذه المرة يرتدي رداء "فراك"، وقميصاً نظيفاً. "إن هناك أناساً يكاد يكون القميص النظيف في نظرهم خروجاً على اللياقة والحشمة"، كذلك أجاب ليوتين ذات مرة، حين لأمه ستيفان تروفيومفتش على إهماله هندامه. وكان للكابتن كذلك قفازان أسودان، يحمل أحدهما بيده اليمنى، بينما الثاني الذي لم يفلح في أن يعقد زره، يشد يسراه الضخمة شداً قوياً دون أن يغطيها تغطية كاملة مع ذلك، وبهذه اليد اليسرى كان يمسك قبعة مدوّرة جديدة كل الجدة، لأمعة. إذن فلقد كان "فراك الحب" الذي تحدث عنه الكابتن إلى شاتوف أمس موجوداً بالفعل. وهذا اللباس كله، أي الفراك والقميص النظيف، إنما حصل عليهما الكابتن تنفيذاً لنصيحة ليوتين (كما عرفت ذلك فيما بعد) لأغراض خفية. ومما لا شك فيه أيضاً أنه جاء إلى منزل فرفاراً بتروفا (راكباً عربة أجرة) بتحريض ومساعدة أحد الناس. فهذه الفكرة ما كان لها أن تخطر بباله قط، وما كان له بمفرده أن يعزم أمره وأن ينفق ثلاثة أرباع الساعة في العناية بزيئته وهندامه، حتى ولو افترضنا أنه علم فوراً بالمشهد الذي حدث تحت مدخل الكاتدرائية. ولم يكن الكابتن سكراناً، لكنه كان متبلداً متبلهاً، كما يحدث ذلك لأناس صحوا فجأة من سكر دام عدة أيام دون انقطاع. فلو هزته من كتفيه هزاً خفيفاً، مرةً أو مرتين، لعاد يهوي إلى حالة السكر فوراً.

دخل الكابتن إلى الصالون شبه راكض، لكنه تعثر بالسجادة منذ صار في العتبة. فأخذت ماريّا تيموفيتشنا تتلوى ضحكاً. فألقى عليها نظرة وحشية كاسرة، واتجه نحو فرفاراً بتروفا بخطى سريعة.

قال بصوت رنان:

- جئت يا سيدتي!

فقالت فرفاراً بتروفا وهي تنتصب بجذعها في مقعدها:

- يا سيد، تفضل فاجلس هناك على ذلك الكرسي. إن في وسعك أن

تسمعنا صوتك من هناك، وأنا يناسبني أن أنظر إليك من هنا.

فتوقف الكابتن فوراً وهو ينظر إلى أمام، أبلّة الهيئة. ولكنه استدار مع

ذلك، وجلس على الكرسي الذي حدّته له فر فاراً بتروفا قرب الباب تماماً. إن تعبير وجهه يكشف عن فقدان الثقة بنفسه فقداناً كاملاً، ولكنه يكشف في الوقت نفسه عن نوع من الوقاحة ونوع من الغيظ المكظوم. كان خائفاً خوفاً رهيباً. ذلك واضح كل الوضوح. ولكنه كان يعاني من جرح في كرامته، فمن السهل على المرء أن يتنبأ أن كرامته الجريحة يمكن عند الاقتضاء أن تدفعه إلى الإقدام على إهانة أحد الناس رغم جبنه. كان واضحاً أنه يخشى أن يتحرك، لشعوره بخراقة. إنكم تعلمون أن أكبر عذاب يشعر به أشخاص من هذا النوع حين يدخلون إلى المجتمع الراقي بمصادفة تشبه أن تكون معجزة، إنما مصدره أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأيديهم، وأنهم لا ينفكون يفكرون في هذا الأمر. لبث الكابتن جالساً على كرسيه كالمجمد، حاملاً قبعته وقفازيه بيده، مثبتاً نظرتيه البلهاء على وجه فر فاراً بتروفا القاسي. لعله كان يود أن يرى ماذا يجري حوله، ولكنه لم يجزؤ أن يعزم أمره على ذلك. ولعل ماريّا تيموفيئنا قد رأت أن وضع الكابتن مضحك جداً، فإذا هي تطفق ضاحكة من جديد. ولكن الكابتن لم يتحرك. وتركته فر فاراً بتروفا التي لا ترحم، تركته على هذه الحال برهة طويلة، دقيقة كاملة، تحت نظرتها الفاحصة، وقالت له أخيراً بلهجة وقورة ذات دلالة:

- قبل كل شيء، أريد أن أعرف اسمك منك أنت.

فصاح الكابتن يقول:

- الكابتن لبيادكين، لقد جئت يا سيدتي...

وتحرك على كرسيه مضطرباً.

قاطعت فر فاراً بتروفا تقول:

- اسمح لي. هذه الإنسانية المسكينة التي همّني أمرها كثيراً، أهّي أختك

حقاً؟

- نعم يا سيدتي، هي أختي، وقد هربت من حراستي، فهي في حالة...

وأمسك عن إتمام جملة، واحمرّ وجهه احمراراً شديداً.

ثم جمجم يقول متلعثماً:

- لا تسيئي فهمي ياسيديتي، فأنا لا يخطر ببالي أن ألطخ سمعة أختي...
فحين أقول إنها في حالة... لا أقصد أنها في حالة.. أقصد في حالة تسيء إلى
السمعة... إنها في هذه الآونة الأخيرة...

وانقطع عن الكلام فجأة.

قالت فر فاراً بتروفا وهي ترفع رأسها مزيداً من الرفع:

- يا سيد...

- إليك ما أريد أن أقوله...

ولطم جبينه بإصبعه. وساد صمت.

- سألته فر فاراً بتروفا بصوت بطيء:

- أهي مصابة بهذا منذ مدة طويلة؟

- سيدتي، لقد جئت لأشكر لك ما أظهرته نحوها تحت مدخل الكنيسة،

من كرم، من كرم روسي، أخوي...

- أخوي؟

- لا، لا أقصد ذلك... وإنما أقصد أنني أنا أخوها يا سيدتي.

ثم استأنف كلامه يقول متعجلاً وقد احمرّ احمراراً شديداً من جديد:

- صدقي يا سيدتي أنني لست قليل الأدب إلى الحد الذي يمكن أن

يظهر عليّ من الوهلة الأولى في صالونك. إننا، أنا وأختي، لا نُعدّ شيئاً

يا سيدتي بالقياس إلى ما نرى هنا من صنوف الروعة. يضاف إلى ذلك أن

لنا أعداء، أن هناك وشاة يتقولون علينا كاذبين. أما عن السمعة يا سيدتي فإن

ليبادكين يمكنه أن يعتز... وإن له كبرياءه... و... و... ولقد جئت لأزجي لك

الشكر... إليك المال يا سيدتي!

وفيما كان يقول هذا الكلام أخرج محفظة نقوده واستل منها حزمة

أوراق مالية وأخذ يعدها بأصابعه المرتجفة نافذ الصبر حانقاً. كان واضحاً

أنه يريد أن يشرح شيئاً ما بأقصى سرعة ممكنة، والحق أن الناظر إليه كان

يشعر بضرورة ذلك. لكن ليبادكين، وقد أدرك في أغلب الظن أن وضعه في

تلك اللحظة جعله مضحكاً، أضاع صوابه تماماً، فكانت الأوراق ترفض أن

تُعد، وكانت أصابعه لا تطاوعه، وزاده خزيّاً أن ورقة بثلاثة روبلات انسلت

من محفظته وسقطت على السجادة.

- إليك عشرين روبلاً يا سيدتي!

كذلك هتف وهو ينهض على حين فجأة، حاملاً حزمة الأوراق بيده، والعرق يتصبب منه خجلاً واضطراباً. وفي تلك اللحظة لمح الورقة التي كانت قد سقطت على الأرض، فطأطأ ليتناولها، لكنه شعر بخزي من هذه الحركة لا أدري لماذا، فقال وهو يُجرى يده بإشارة ازدراء:

- بل أتركها لخدمك يا سيدتي، للخادم الذي سيرفعها عن الأرض حتى يتذكر أختي.

فسرعان ما قالت فر فاراً بتروفاً محتجّةً وهي تشعر في الوقت نفسه بشيء من الرعب:

- لا يمكنني أن أَرْضَى بهذا.

عندئذ طأطأ الكابتن من جديد، فتناول الورقة النقدية، واحمرّ وجهه احمراراً شديداً جداً، وسار بضع خطوات نحو فر فاراً بتروفاً ومدّ إليها المال الذي عدّه قائلاً:

- ففي هذه الحالة إذن...

صرخت فر فاراً بتروفاً تقول مرتاعة في هذه المرة:

- ما هذا؟

حتى لقد تقهقرت قليلاً في كرسيها. وهرعنا نتقدم إليها أنا ومافريكي نيقولا يفتش وستيفان تروفيموفتش.

صات الكابتن يقول وهو يلتفت يمنة ويسرة:

- هدثوارو عكم، هدثوارو عكم، ما أنا بمجنون، أقسم لكم إنني لست مجنوناً.

- بلى يا سيد. أنت قد فقدت عقلك.

- سيدتي، ليس الأمر ما تفترضين. ما أنا طبعاً إلا حلقة تافهة لا قيمة لها. آه... سيدتي!... غنيّ مسكنك، وفقير مسكن "ماريا المجهولة"، أختي التي وُلدت باسم لينادكين، ولكننا سنسميها مؤقتاً باسم "ماريا المجهولة"، مؤقتاً يا سيدتي، مؤقتاً فقط، لأن الله نفسه لا يرضى أن يستمر الأمر على هذه

الحال. سيدتي، لقد أعطيتها عشرة روبلات، فقبلتها، ولكنها لم تقبلها إلا لأنك "أنت" التي أعطيتها إياها. هل تسمعين يا سيدتي؟ إن "ماريا المجهولة" ما كان لها أن تقبل مالا من أحد في هذا العالم، ولو فعلت ذلك لاهتز من العار في قبره جدها، الضابط أركان حرب، الذي قُتل في القوقاز على مرأى من بارمولوف. إيرمولوف⁽¹⁾. أما منك أنت يا سيدتي، منك أنت، فإنها تقبل كل شيء. لكنها بيد تقبل، وبيد أخرى تقدّم هذه العشرين روبلاً تبرعاً لإحدى لجان البر والإحسان التي تشرّفينها بعضويتك في العاصمة... لقد أعلنت أنت نفسك في "جريدة موسكو" أن عندك هنا سجلاً للتبرعات، وأن أي إنسان يستطيع أن يتبرع.

وتوقف الكابتن عن الكلام. كان يزفر زفيراً مسموعاً كأنه قام بعمل مجهد. لعل هذا الحديث الطويل كله عن لجنة البر والإحسان إنما كان مهياً من قبل. حتى إن من الممكن أن يكون قد كتبه ليبوتين. وكان الكابتن يتصبب عرقه بمزيد من الغزارة: إن قطرات العرق تسيل على صدغيه سيلاناً بالفعل. وكانت فرفاراً بتروفا تتأمل به بانتباه.

قالت بلهجة جافة:

- ما يزال السجل موجوداً تحت، عند بواب منزلي. فهناك إنما تستطيع أن تسجل تبرعك إذا شئت. أرجوك إذن أن ترتب أوراقك النقدية وأن لا تلوح بها أمامي. يؤسفني كثيراً يا سيد أنني أخطأت الظن في أختك فأعطيتها صدقة، بينما هي غنية هذا الغنى كله. ليس هناك إلا شيء واحد لا أفهمه: لماذا لن تقبل في يوم من الأيام أن تأخذ شيئاً من أحد غيري. لقد بلغت من الإلحاح على هذه النقطة أنني أريد أن تشرح لي ما بنفسك.

أجاب الكابتن يقول:

- سيدتي، هذا سر سأحمله معي إلى القبر.

فسألته فرفاراً بتروفا بصوت أقل ثقة في هذه المرة:

(1) ألكسي إيرمولوف (1861-1772): جنرال شهير برز أثناء حملة 1812، ثم أصبح بعد ذلك قائداً للجيش الروسي بالقوقاز.

- لماذا؟

- سيدتي! سيدتي!

وصمتَ مظلّم الوجه، وخفض عينيه، ووضع يده اليمنى على قلبه.
فكانت فراراً بتروفاً تنتظر دون أن تحوّل عنه نظرها.

صاح يقول:

- سيدتي، هل تسمحين لي بأن ألقى عليك سؤالاً، سؤالاً لا أكثر، ولكن

بصراحة، بصراحة تامة، صراحة روسية، من أعماق القلب؟

- قل ما تريد.

- هل تألمت في هذه الحياة يا سيدتي؟

- هذا يعني أنك تألمت أو ما تزال تتألم بسبب ذنب اقترفه غيرك.

- سيدتي، سيدتي!

ونفض مرة أخرى بحركة مباغته، ربما دون أن يشعر بذلك، ولطم صدره.

وأضاف يقول:

- هنا، في هذا القلب، تراكمت أشياء كثيرة سيُدهش منها الإله نفسه حين

سينكشف كل شيء في يوم الحساب.

- هم... إنك تستعمل تعابير قوية.

- سيدتي، ربما كنت أتكلم بلهجة تشتمل على إسراف في الغضب

والحق.

- لا تهتم، سأعرف كيف أوقفك عن الكلام حين يجب أن أوقفك عنه.

- هل يمكنني أن ألقى عليك سؤالاً آخر يا سيدتي؟

- افعل!

- هل يمكن أن يتعذب المرء لا لسبب غير نبل نفسه؟

- لا أدري. لم ألقِ على نفسي هذا السؤال يوماً!

فهتف الكابتن يقول بلهجة فيها سخرية وتأثر:

- لا تدرين! ولم تلقِ على نفسك هذا السؤال يوماً! طيب، فإذا كان الأمر

كذلك، فاصمت يا قلبي اليأس⁽¹⁾

قال ذلك ولطم صدره بقوة وعنف.

كان يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً. إن السمة المميزة لهؤلاء الناس هي أنهم عاجزون عاجزاً مطلقاً عن إخفاء رغباتهم، وإن بهم حاجة لا تقاوم إلى التعبير عنها فوراً بكل ما فيها من بشاعة. فإذا وجدوا في مجتمع غير مجتمعهم شعروا في أول الأمر بضيق وحرَج، ولكنهم ما إن يُسمح لهم بتثبيت أقدامهم حتى يصبحوا وقحين.

كان الكابتن قد أخذ يندفع. إنه يسير بخطى كبيرة، محرّكاً ذراعيه، وقد أصبح لا يصغي إلى الأسئلة التي تلقى عليه، ويتكلم من تلقاء نفسه بتدفق يبلغ من القوة في بعض الأحيان أن لسانه يعصيه، فإذا هو يترك الجملة قبل أن ينهيها ويشرع في جملة أخرى. يجب أن نذكر أيضاً أنه ربما كان قد شرب كأساً في ذلك الصباح. أضف إلى ذلك وجود ليزافتا نيقولايفنا. إنه لم ينظر إلى جهتها مرة واحدة، ولكن لا شك أن وجود الفتاة كان قد أدار رأسه. على أن هذا ليس إلا افتراضاً مني. ومهما يكن من أمر، فلا شك أن فر فارا بتروفنا كانت تملك من الأسباب ما يجعلها تتغلب على تقززها، وتصغي إلى إنسان كهذا الإنسان. وكانت براسكوفيا إيفانوفنا، من جهتها، ترتعش خوفاً، رغم أنها كانت لا تفهم كثيراً ما هو الأمر الذي يدور عليه الكلام، فيما يبدو لي. أما ستيفان تروفيموفتش فكان يرتجف هو أيضاً، ولكن لأنه، على عكسها، كان مؤهلاً لأن يدرك أشياء كثيرة مسرفة في الكثرة. وكان مافريكي نيقولايفتش يلتزم وضع امرئ مستعد لأن يتدخل من أجل أن يحمي الجميع. وكانت ليزا شاحبة الوجه جداً، لا تحول عينيها المحملقتين عن الكابتن لحظة واحدة. وظل شاتوف جالساً على وضعه نفسه لم يغيره. وأغرب ما في الأمر أن ماريا تيموفيتفنا لم تنقطع عن الضحك فحسب، بل أصبحت كذلك حزينه حزناً

(1) بيت من الشعر مستمد عن قصيدة كوكولنيك "الشك"، وقد وضع ميشيل جلنكا موسيقى لهذه القصيدة، فاشتهرت كثيراً.

رهيباً. كانت واضحة كوعياها على المائدة تتابع بنظرها الحالمة الأسيانة أخاها الذي كان يتدفق في الكلام. وكانت داريا بافلوفنا الشخص الوحيد الذي بدا لي هادئاً كل الهدوء.

قالت فرارا بتروفا وقد أخذ صبرها ينفد:

- ما هذه الرموز كلها إلا سخافات! إنك لم تجب عن سؤالتي، "لماذا؟". وأنا أصرّ على أن أنال جواباً.

- لم أجب عن سؤالك "لماذا؟" تنتظرين جواباً عن سؤالك "لماذا؟"

كذلك ردّد الكابتن كلامها غامزاً بطرفه. وتابع كلامه يقول:

- إن هذه الكلمة الصغيرة "لماذا"، منتشرة في الكون كله منذ أول يوم وُجدت فيه الخليقة يا سيدتي، والطبيعة كلها تصيح في كل لحظة سائلة خالقها "لماذا؟". والناس ينتظرون الجواب منذ سبعة آلاف سنة. فهل على الكابتن لبيادكين وحده أن يتحمل التبعة نيابةً عن جميع البشر. أهذا عدل وإنصاف يا سيدتي؟

هتفت فرارا بتروفا تقول وقد أخذ غضبها يزداد:

- هذه كلها سخافات لا شأن لها بالسؤال. هذه كلها رموز. ثم إنك تسمح لنفسك بأن تتكلم لغةً متنفخةً كثيراً، وذلك أمرٌ أعدّه أنا وقاحة.

استأنف الكابتن كلامه دون أن يصغي إليها فقال:

- سيدتي، وددت لو يكون اسمي "آرنست"، ولكن ها أنذا أُسمّى بهذا الاسم الغليظ، اسم "أجناس". فلماذا في رأيك؟ وددت لو أكون الأمير مونتبارد، ولكنني لست إلا لبيادكين، المشتق اسمه من كلمة "البجعة"، فلماذا؟ أنا شاعر يا سيدتي، شاعر في أعماق روحي، وكان يمكن أن أقبض مالا من ناشر شعري، ومع ذلك فإنني مضطر أن أعيش في إسطنبول، فلماذا؟ لماذا يا سيدتي؟ سيدتي، ليست روسيا في رأيي إلا ألعوبة في يد الطبيعة، لا أكثر!

- ألا تستطيع حقاً أن تعبّر عما في نفسك تعبيراً أدق وأوضح؟

- أستطيع أن أنشدك مقطوعة شعرية عنوانها "الخنفسة"، يا سيدتي.

- هيه! ...

- سيدتي، لم أصبح مجنوناً بعد، سأصبح مجنوناً في المستقبل، سأصبح مجنوناً ليس في ذلك ريب، لكنني لم أصبح كذلك حتى الآن. سيدتي، إن واحداً من أصدقائي، وهو رجل محب... ر...م جداً، قد كتب حكاية من حكايات كري洛夫، عنوانها "الخنفسة"، فهل تسمحين لي بأن أتلوها عليك؟
- تريد أن تنشدا قصيدة من قصائد كري洛夫 عن الحيوانات؟

- لا، ليست هي حكاية من حكايات كري洛夫 يا سيدتي، بل هي حكاية من نظمي، من نظمي أنا. صدقي يا سيدتي - ولا يسوءك هذا - إنني لست عديم الثقافة ولا منحط العقل إلى الحد الذي يجعلني أجهل أن روسيا تملك شاعراً كبيراً نظم حكايات عن الحيوانات هو كري洛夫 الذي شاد له وزير التعليم العام نصباً تذكاريّاً في حديقة الصيف حتى يلعب الأطفال حولهُ⁽¹⁾.
إنك يا سيدتي تسأليني "لماذا". والجواب عن هذا السؤال مدوّن في هذه القصيدة بأحرف من نار.

- اقرأ القصيدة!

أخذ الكاتبن يتلو القصيدة:

كانت خنفسة تعيش وادعة في هذا العالم،
هي خنفسة منذ ولدت.
فيوماً سقطت في كأس
مليء بذباب يموت

قالت فر فاراً بتروفنا:

- ما هذا الكلام يا رب!

فأسرع الكاتبن يشرح لها محرراً ذراعيه، حانقاً متململاً كأبي مؤلف قوطع في الموضوع المؤثر من كلامه:

(1) "... إن كري洛夫 الشاعر الكبير الذي نظم حكايات عن حديقة الحيوانات، قد أقام له وزير العام نصباً تذكاريّاً في "حديقة الصيف": إن هذا النصب الذي شاده المثال البارون كلودت قد أقيم سنة

- معنى هذا أن الذباب حين يسقط صيفاً في كأس فإنه يهلك. إن أغبى الأغبياء يدرك ذلك. لا تقاطعيني، لا تقاطعيني، سترين...

قال ذلك وهو ما يزال يحرك ذراعيه. وتابع ينشد القصيدة:

احتلت الخنفسة مكاناً صغيراً

لكن الذباب ثار منادياً جويتر:

كأسنا ملأى كثيراً.

ولكن بينما كان الذباب يحتج

مرّ هناك نيكيفور

الشيخ المحترم جداً...

هنا اضطررت أن أتوقف عن النظم، ولكن لا ضير، فسوف أقص عليك القصة نثراً.

كذلك قال الكاتبن متوففاً، وتابع يسرد القصة فقال:

- تناول نيكيفور الكأس، ورغم احتجاجات الذبابات، رمى الجمع كله في سلة الزباله، الذبابات والخنفسة على حد سواء، وذلك أمر كان ينبغي أن يُفعل منذ مدة طويلة. ولكن لاحظني يا سيدتي، لاحظني أن الخنفسة لا تتشكى ولا تتذمر. هذا هو جوابي عن سؤالك "لماذا؟": الخنفسة لا تتشكى ولا تتذمر.

بهذا صاح الكاتبن منتصراً. ثم أسرع يضيف قوله:

- وإن نيكيفور يمثل الطبيعة.

وعاد يسير في الغرفة راضياً مسروراً.

اغتاظت فر فاراً بتروفا واستبد بها حنق شديد. وقالت تسأله:

- اسمح لي أن أسألك: ما قصة ذلك المال الذي كان يجب أن تتلقاه من ابني نيقولا في سيفولودوفتش، ثم لم يصلك كاملاً؟ لقد تجرأت، فاتهمت شخصاً ينتمي إلى أسرتي.

فزأر الكاتبن يقول وهو يرفع يده بحركة من يمثل دوراً في مأساة:

- وشاية!

- لا ليس هذا وشاية!

- سيدتي، ربّ ظروف تجبر المرء على أن يتحمل تلطخ سمعة أسرته بالعار، مفضلاً ذلك على أن يجهر بالحقيقة. إن لبيادكين لن يقول كلمة واحدة، زيادةً على ما قال، يا سيدتي.

كان لبيادكين كمن عمي بصره من النشوة. كان يحس بخطورة شأنه. كان واضحاً أنه يحسب كل شيء مباحاً له. إنه يريد أن يهين أحداً ما، إنه يريد أن يرتكب سفالة ما، ليظهر للجميع قوته وسطوته.

قالت فر فارا بتروفتا تخاطب ستيفان تروفيموفتش:

- اقرع الجرس، من فضلك يا ستيفان تروفيموفتش، أرجوك.

قال لبيادكين وهو يتسم ابتسامة خبيثة ويغمز بعينه:

- إن لبيادكين ماكر يا سيدتي. إنه ماكر. لكنه هو أيضاً فيه ضعف. إنه هو أيضاً له هوى. وهذا الهوى هو... هو الزجاجة المعتقة التي يشربها الفرسان والتي تغنى بها دافيدوف⁽¹⁾. فحين تكون هذه الزجاجة في يده ياسيدتي، يمكنه أن يبعث رسالة من شعر، رسالة رائعة، لكنه سرعان ما يتمنى أن يدفع جميع دموع مآقيه ثمناً لاسترداد هذه الرسالة، لأنها تدمر شعوره بالجمال. لكن العصفور يكون قد طار فلا سبيل إلى اللحاق به. فمن الممكن ياسيدتي أن يكون لبيادكين، في هذه الحالة، قد تكلم عن فتاة محترمة، منقاداً لاستياء نبيل نشب في نفسه ثورةً على الظلم، فاستفاد الوشاة النمامون من ذلك. لكن لبيادكين ماكر ياسيدتي. عبثاً يتربص به ذئب كاسر لا ينفك يصب له شرباً، متوقفاً أن يكشف عن نفسه أخيراً. إن لبيادكين لن يتكلم. وفي قرارة الزجاجة لن يجد إلا مكر لبيادكين بدلاً من أن يعثر على السر الذي ينتظر أن يعثر عليه. ولكن كفى! أوه! كفى يا سيدتي! إن منزلك الرائع كان يمكن أن يكون ملكاً لأنبل الكائنات، ولكن الخنفسة لا تتذمر ولا تحتج. لاحظي هذا، لاحظيه جيداً! إن الخنفسة لا تتشكى! فاعترفي بعظمة نفسها!

(1) دينيس فاسيليفتش دافيدوف (1839-1781): ضابط من سلاح الفرسان، قاد حرب أنصار سنة 1812، ونظم شعراً في الحرب والحمة.

في تلك اللحظة سُمع صوت جرس تحت، ثم لم نلبث أن رأينا دخول
الْكسي إيجورتش الذي كان قد تأخر عن الظهور استجابة لنداء ستيفان
تروفيموفتش. وكان الخادم العجوز المهيب يبدو منفِعلاً انفعالاً غريباً.
وإذ ألقت عليه فراراً بتروفا نظرة سائلة مستفهمة، قال:

- وصل نيقولاي فسيفولودوفتش.

إنني ما أزال أتذكر حالة فراراً بتروفا في تلك اللحظة: لقد شحِبَ لونها
شحباً شديداً، والتمعت عيناها، ثم انتصبت في مقعدها وقد بانت في هيئتها
قوة العزيمة. أما نحن فقد ذهَلنا جميعاً. إن وصول نيقولاي فسيفولودوفتش
على حين بغتة، بينما كان لا يُنتظر وصوله قبل شهر آخر، قد فجأنا لا بمباغتته
فحسب، بل أيضاً بكونه قد تمَّ في هذه الدقيقة. وظل الكابتن نفسه متجمداً في
وسط الغرفة، فاغر الفم، مثبتاً نظره البلهاء على الباب.

وهذه أصوات خطى صغيرة متعجلة تدوي في الغرفة المجاورة: إن
شخصاً يصل راكضاً. وداهم هذا الشخص الصالون، ولكنه لم يكن نيقولاي
فسيفولودوفتش، بل كان شاباً لا نعرفه.

5

أتوقف هنا لحظة لأرسم بعض ملامح هذه الشخصية التي ظهرت على
حين فجأة.

إنه شاب في نحو السابعة والعشرين من عمره، أطول قليلاً من متوسط
طول الرجال، شعره أشقر قليل لكنه طويل، له شاربان مشعثان ولحية
ضئيلة، لائق الهدام، حتى إنه يرتدي ثياباً على الموضة، ولكن بغير أناقة.
يبدو من النظرة الأولى أخرقاً، محدَّب الظهر قليلاً، غير أنه في حقيقة الأمر
ليس محدَّب الظهر، وإنما هو يقف منطلقاً بغير تكلف. يمكن أن يعد شاذاً
بعض الشذوذ، لكن جميع الناس قد وجدوا بعد ذلك أنه حسن الآداب عاقل
اللسان.

لا يمكن أن يقال إنه دميم، ومع ذلك لا يرضي وجهه أحداً. إن رأسه

المسطح في الجانبين، المتطاول إلى خلف، يُظهر وجهه مستدقاً كثيراً. وجبينه عالٍ ضيق. وقسماته صغيرة. وعيناه حادثان. وأنفه صغير مدبب. وشفاه طويلتان رقيقتان.

إذا رأيت تعبير وجهه حسبه ضعيفاً مريضاً. وليس الأمر كذلك بتاتاً. إن خديه تغضنهما تحت الوجنتين غضون جافة تضفي عليه مظهر رجل خرج من مرض خطير، ومع ذلك كان صحيح البنية قوي الجسم، حتى إنه لم يمرض في يوم من الأيام.

خطواته وحركاته سريعة دائماً، ومع ذلك فهو لا يتعجل شيئاً. لا شيء فيما يبدو يمكن أن يربكه ويشوشه. فمهما تكن الظروف ومهما يكن المكان، يظل هو نفسه على الدوام. وهو راضٍ عن ذاته، لكنه لا يشعر بذلك.

إنه يتكلم متدفقاً بغزارة، ولكنه يتكلم بثقة كبيرة، دون أن يبحث عن الألفاظ. أفكاره واضحة رغم سرعته، واضحة دقيقة محدّدة، وقد خطفت هذه الصفة انتباه مستمعيه. نطقه بَيِّن جليّ، كلماته تتساقط كحبات كبيرة متساوية، قد أحسن اختيارها دائماً وهياها سلفاً لجميع المناسبات.

ذلك يعجبك في البداية، لكنك تشعر بعدئذ بانزعاج، ولا سيما من ذلك النطق المسرف في الوضوح، ومن ذلك التدفق الغزير السريع المطرد على وتيرة واحدة. حتى ليخيّل إليك في النهاية أن هذا الرجل لا بد أن لسانه له شكل خاص جداً، فهو طويل طويلاً خارقاً، نحيل نحولاً هائلاً، مزوّد برأس ذي أهداب، أحمرّ قاني الحمرة، متحركٌ أبداً.

ذلكم هو الشاب الذي سقط في وسط الصالون سقوط الصاعقة. ويخيّل إليّ الآن أنه كان قد بدأ الكلام وهو في الحجرة المجاورة، فلمّا دخل علينا كان في منتصف جملة يقولها. وسرعان ما انغرس أمام فر فارا بتروفا، وقال لها مسرعاً:

- تخيلي يا فر فارا بتروفا: لقد دخلت وأنا أتصور أن أجده. كان ينبغي أن يكون هنا منذ ربع ساعة. لقد وصل منذ ساعة ونصف. كنا معاً عند كيريلوف. وانصرف منذ نصف ساعة ليأتي إلى هنا رأساً، وطلب مني أن أجيء أيضاً بعد ربع ساعة.

سألته فرفارا بتروفنا:

- ولكن من هو؟ من هو الذي طلب لك أن تجيء إلى هنا؟

- نيقولا فيسبولودوفتش! كيف؟ ألا تعرفين، بعد، أنه وصل؟

لا بد أن حقايبه قد أصبحت هنا مع ذلك منذ مدة! لماذا لم ينبشك؟ أنا الذي أحمل إليك هذا الخبر؟ من الممكن أن يرسل أحد ليجيء به. على كل حال، سيصل بين لحظة وأخرى، وأظن أنه سيُسَرُّ كثيراً بهذا الاجتماع الذي يطابق رغباته، كما يطابق... فيما أعلم - بعض مشاريعه. (قال ذلك ونظر حوالبه وتفرس في الكابتن لبيادكين بانتباه خاص). ... ليزافتا نيقولايفنا! ما أسعدني بأن ألقاك منذ وصولي! إنني مسرور حقاً بمصافحة يدك (قال ذلك راكضاً نحو ليزا ليتناول يدها التي مدتْها إليه ليزا مبتسمة في فرح). وها أنذا أرى أن المحترمة جداً، براسكوفيا إيفانوفنا، لم تنس، هي أيضاً، صاحبها "الأستاذ"، ولا هي غاضبة منه الآن كما كانت غاضبة منه في سويسرا! كيف حال ساقيك يا براسكوفيا إيفانوفنا؟ هل كان الأطباء السويسريون على حق حين وصفوا لك هواء بلادك؟ ... كيف؟ تقولين إنك تستعملين كمادات؟ لا بد أن هذا يفيدك كثيراً. ولكن لشد ما أسفت يا فرفارا بتروفنا (هنا التفت نحو ربة المنزل من جديد) لشد ما أسفت لأنني لم أستطع أن أراك في الخارج وأن أقدم إليك احتراماتي بنفسي! لا سيما وأن هناك أشياء كثيرة كان ينبغي أن أنقلها إليك... صحيح أنني أبلغت أبي العجوز، ولكنني أعتقد أنه، على عادته...

وهتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد عاد من ذهوله وشدهه فجأة:

- بتروشا!

وضمَّ يديه ووثب نحو ابنه. وتابع يقول:

- "بطرس، ابني" (بالفرنسية)! هل تصدق أنني لم أتعرفك؟

واحتضنه بذراعيه، وسالت على خديه دموع.

جمجم بتروشا يقول وهو يحاول أن يتخلص من عناق أبيه:

- هياً! لا تضطرب! لا تضطرب! كفى! أرجوك!

- أنا أذنبت دائماً في حقك، دائماً، دائماً!

- كفى! ستتكلم عن هذا فيما بعد. كنت أعلم أنك ستردد هذه الحكاية...
كفى! عليك بمزيد من الوقار، أرجوك!
- ولكنني لم أرك منذ عشر سنين.
- هذا أدعى إلى أن لا تسترسل في الكلام...
- ابني!

- نعم، أنت تحبني، صدقتك... ولكن انزع يديك. ألا ترى أنك تزعج الآخرين؟ آ... هذا يقولاي فيقولودوفتش! هيّا... هدىء نفسك، أرجوك!...

كان يقولاي فيقولودوفتش قد وصل فعلاً بصمت، فتلبث على عتبة الصالون لحظةً، وراح يتأملنا جميعاً بنظرة هادئة.

وكما حدث لي قبل ذلك بأربع سنين، حين رأيته أول مرة، خطف منظره اهتمامي فوراً. لم أكن قد نسيت محياه. غير أن هنالك وجوهاً لا تراها مرةً أخرى إلا وتكشف لك فيها سمة جديدة لم تكن قد لاحظتها قبل ذلك، رغم أنك تعرف هذه الوجوه منذ زمن طويل. لم تكن يبدو عليه أنه تغير خلال تلك السنين الأربع: ما يزال أنيقاً كما كان، رصيناً كما كان، ما تزال مشيته وحركاته موسومة بالوقار، وما يزال على غضارة شبابه نفسها تقريباً، ما تزال ابتسامته الخفيفة ودوداً فاترة على عهدك بها، وما تزال تنم عن تلك الثقة ذاتها التي كانت تنم عنها. ما تزال نظرتة على ما عرفت فيها من قسوة، وتفكير، وشيء من ذهول. الخلاصة: كان في إمكانني أن أعتقد أننا لم نفترق إلا بالأمس. غير أن هناك أمراً فجأني مع ذلك: كان المرء يراه في الماضي جميلاً، ولكن وجهه كان في تلك الأيام "أشبه بقناع" في الواقع، على حد تعبير بعض سيداتنا. أمّا الآن فهو جميل جمالاً كاملاً، جمالاً لا سبيل إلى الجدل فيه. لا شك أن أحداً لا يستطيع أن يقول الآن إن وجهه يشبه قناعاً. أيكون مرد ذلك إلى أنه شحب قليلاً ونحل قليلاً؟ أم أن فكراً جديداً قد أصبح يضيء نظرتة؟ صاحت فر فاراً بتروفا تقول وقد انتصبت في مقعدها دون أن تبارحه، وأوقفت ابنها بإشارة آمرة صارمة:

- نيقولا ي فسي فولودوفتش! نيقولا ي فسي فولودوفتش! قف!

ولكن لكي تفسر السؤال الرهيب الذي أعقب هذه الإشارة وهذه الصيحة، وهو سؤال ما كان لي أن أتخيل أن تلقيه فرفارا بتروفنا، أرجو من القارئ أن يتذكر طبع هذه السيدة، وأن يتذكر مدى ما تتصف به من اندفاع في بعض الظروف. إنها رغم قوة نفسها ورغم ما تملكه من حس عملي واضح، قد اتفق لها في بعض لحظات حياتها أن انقادت لعنف مزاجها انقياداً تاماً، ولم تعرف كيف تكبح جماح نفسها وكيف تقف عند حد. ويجب أن تُدخل في حسابنا أيضاً أن هذه الدقيقة التي كنا فيها يمكن أن تكون واحدة من تلك اللحظات الحرجة الدقيقة التي يتركز فيها، كتركز الأشعة بواسطة عدسة، كل الماضي وكل الحاضر وربما كل المستقبل من حياة بكاملها. وينبغي أن أشير عابراً كذلك إلى تلك الرسالة الخالية من اسم كاتبها، التي تحدثت عنها فرفارا بتروفنا منذ برهة إلى براسكوفيا إيفانوفنا، كاتمة العنصر الأساسي من مضمونها فيما يبدو لي. فلعل تلك الرسالة أن تكون هي السبب الحقيقي الذي دفع فرفارا بتروفنا إلى إلقاء ذلك السؤال بغتة على ابنها.

قالت تسأله مفصلة كل كلمة من كلماتها بصوت قوي مثقل بالتهديدات: - نيقولا ي فسي فولودوفتش، أرجوك أن تقول لي فوراً، دون أن تترك مكانك، هل صحيح أن هذه العرجاء - انظر إليها، هذه هي... هل صحيح أن هذه العرجاء هي زوجتك الشرعية؟

إنني أتذكر تلك اللحظة تذكراً واضحاً مسرفاً في الوضوح. إن نيقولا ي فسي فولودوفتش لم ترف عيناه، وحدق إلى أمه بنظرة ثابتة. لم يظهر على وجهه شيء. وأخيراً ابتسم ابتسامة متسامحة، واتجه نحو أمه بخطى هادئة دون أن يقول كلمة واحدة، فتناول يدها وحملها إلى شفتيه باحترام، ولثمها. ولقد كانت سيطرته على أمه ما تزال تبلغ من القوة أنها في هذه المرة أيضاً لم تجرؤ أن تسحب يدها، واكتفت بأن راحت تنظر إليه سائلة مستفهمة، ولكن وضعها كله كان يقول إن هذا الشك إذا لم يقطعه اليقين في لحظة، فلن تستطيع له احتمالاً.

ولكن ابنها صمت. وبعد أن لثم يد أمه أجال بصره علينا مرة أخرى، وتقدم نحو ماريّا تيموفيثنا بتلك الخطى الهادئة نفسها. إنه لمن الصعب جداً وصف وجه الناس في بعض اللحظات. فمما أتذكره مثلاً أن ماريّا تيموفيثنا قد نهضت تستقبله وهي ترتعش خوفاً، وضمت يديها إحداهما إلى الأخرى كأنما لتضرع إليه. وأتذكر في الوقت نفسه الافتتان الذي سطع في نظرتها، وهو افتتان مجنون شوّها تشويهاً بمعنى من المعاني، افتتان ربما كان أقوى من أن يحتمله كائن إنساني. لعل صراعاً قد نشب في نفسها بين عاطفتين، الخوف والافتتان. لكنني أذكر أنني أسرعت أقترّب منها (ولم أكن بعيداً عنها): إذ تراءى لي أنها ستسقط مغشياً عليها.

قال لها بصوت مؤثر رخيم، وكان في عينيه التماع حنان رائع:
- يجب أن لا تبقي هنا.

كان واقفاً أمامها على وضع يفيض احتراماً، وكانت كل حركة من حركاته تنم عمّا يحمل لها من اعتبار صادق.

قالت المسكينة ماثئةً بصوت متقطع:

- هل يمكنني.. هنا.. الآن.. أن أركع أمامك؟
فأجابها يقول:

- لا... مستحيل.

وابتسم ابتسامة بلغت من الروعة أن انطلقت من صدر العرجاء ضحكة صغيرة فرحة.

وأضاف يقول بذلك الصوت المؤثر الرخيم المقنع نفسه، وأضاف يقول بجديّ كمن يخاطب طفلاً:

- تذكرني أنك فتاة، وأنني مهما أكن لك صديقاً مخلصاً، فلست بالنسبة إليك إلّا رجلاً أجنبياً، فما أنا زوجك، ولا أبوك، ولا خطيبك. هاتي يدك ولنصرف. سأشيعك إلى العربة، وإن شئت أوصلتك إلى بيتك.

أصغت إليه بانتباه، وأحنت رأسها شاردة الفكر حالمة الهيئة.
وقالت أخيراً وهي تتنهد وتمد إليه يدها:

- لننصرف!

غير أن مصيبة صغيرة قد وقعت في تلك اللحظة، لعل الفتاة قد قامت بحركة خطأ، فاستندت إلى ساقها المريضة. المهم أنها سقطت إلى جانب على مقعد. فلولا أن كان ذلك المقعد هناك، لتدحرجت على الأرض. وقد سندها نيقولا في سيفولودوفتش، ووضع ذراعه تحت ذراعها، ثم أمسكها بقوة، وقادها نحو الباب بكثير من العناية والاحتياط.

كان واضحاً أنها خجلت من سقوطها، لأن وجهها احمرّ، وظهر عليها الاضطراب. مهما يكن من أمر فقد تبعته خافضة عينيها، صامتة لا تقول شيئاً، عارجة عرجاً قوياً حتى لكأنها معلقة بذراعه. وهكذا غابا عن أعيننا. وقد رأيت ليزا التي نهضت عن كرسيها فجأة لحظة سارا ليخرجا، رأيتها تتابعهما بنظرة ثابتة إلى أن اجتازا عتبة الباب. حتى إذا غابا عادت تجلس صامتة، غير أن وجهها كان قد تقبّض تقبّض الاشمئزاز، كأنما هي قد لمست حية أو ما أشبه الحية من الزواحف.

ولقد لبشنا جميعاً، طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد كالخرس صمتاً من فرط الذهول. فلو طارت في الغرفة ذبابة لسمع صوت طيرانها. ولكن ما إن خرجت ماريا تيموفيتشنا مع نيقولا في سيفولودوفتش حتى أخذ الجميع يتكلمون معاً في آن واحد.

6

والحق أن الكلام لم يكن كلاماً بقدر ما كان صيحات تعجب. لقد نسيت قليلاً كيف تسلسلت الأحداث، لأن ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً. صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية لا أدري ماذا، ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى. ولكن فرفارا بتروفنا كانت تملأ رأسها هموم أخرى. حتى مافريكي نيقولا يفتش نطق بضع كلمات بصوت لاهث. ولكن أكثر الحضور اضطراباً وتحركاً إنما كان بطرس ستيفانوفتش. كان يحرك يديه بإشارات عريضة محاولاً أن يقنع فرفارا بتروفنا. ولم أستطع أن أدرك مدار حديثه إلّا بعد

برهة طويلة. وكان يلتفت أيضاً نحو براسكوفيا إيفانوفنا ونحو ليزا، حتى لقد خاطب والده أثناء حركته واضطرابه ببضع كلمات. الخلاصة: كان يسعى هنا وهناك متخبطاً أكبر التخط. وها هي ذي فر فارا بتروفنا تنهض من مقعدها وقد احمرت احمراراً شديداً، وتصرخ سائلةً براسكوفيا إيفانوفنا: "هل سمعت؟ هل سمعت ماذا قال لك؟". لكن براسكوفيا إيفانوفنا كانت قد نفذ صبرها وخارت عزيمتها فلم تزد على أن دمدمت ببضع كلمات وهي تحرك يدها بإشارة تملل. لقد كان للمسكينة هموم خاصة بها: فهي تلتفت نحو ابتها في كل لحظة، وتنظر إليها مرتاعة. ومع ذلك لا يخطر ببالها أن تنهض وتنصرف قبل أن تومئ لها ابتها بإشارة الانصراف. أمّا الكابتن فكان يتمنى لو يفر دون أن يراه أحد، لاحظت ذلك واضحاً. إنه منذ وصول نيقولاي فسي فولودوفتش يبدو فريسة رعب شديد وذعر هائل. لكن بطرس ستيفانوفتش قد أمسكه من ذراعه ومنعه من الهروب.

كان بطرس ستيفانوفتش ما ينفك يكرر على مسامع فر فارا بتروفنا محاولاً إقناعها:

- لا بد من هذا، لا غنى عن هذا.

كان واقفاً أمامها، وكانت هي قد عادت فجلست في مقعدها، وراحت تصغي إليه في شراهة ونهم. أتذكر هذا. لقد بلغ غاياته وتمكن من جذب انتباهها.

- هذا لا بد منه، هذا لا غنى له. إنك لترين بنفسك يا فر فارا بتروفنا أن في الأمر سوء فهم. إن الموقف يبدو غريباً، لكنه في الواقع واضح وضوح ماء الصخر، بسيط بساطة تحية الصباح. إنني أعلم حق العلم أن أحداً لم يكلفني بأن أقصّ هذه القصة، وأني قد أبدو مضحكاً حين أقوم بهذه المبادرة من تلقاء نفسي. ولكن نيقولاي فسي فولودوفتش لا يولي هذه القضية أي اهتمام، ذلك من جهة أولى، ومن جهة أخرى هناك حالات يصعب فيها على صاحب الشأن نفسه أن يشرح سلوكه. فلا بد أن يتولى شخص ثالث يستطيع أن يعرض بعض الوقائع الحرجة بسهولة أكبر. صدّقي يا فر فارا بتروفنا أننا لا نستطيع أن

نأخذ على نيقولا في سيفولودوفتش أنه لم يجب عن سؤالك بشروح وافية. ومع ذلك فإن هذه القضية لا تكاد تستحق أن يتكلم المرء عنها. إنني أعرفها منذ كنت ببترسبرج. وهي تشرف نيقولا في سيفولودوفتش إذا كان لا بد من استعمال هذه الكلمة الغامضة: "الشرف..."

سألته فر فاراً بتروفا:

- هل تقصد أنك كنت شاهداً على حادث هو السبب في سوء الفهم ذاك؟
- بل كنت شاهداً وفاعلاً في آن واحد.

بهذا أسرع بطرس ستيفانوفتش يصحح سؤال فر فاراً بتروفا.

- إذا كنت تعاهدني على أن قصتك لن تخدش عواطف نيقولا في سيفولودوفتش الذي لم يكتف عني شيئاً في يوم من الأيام... وإذا كنت على يقين من أنك إذ تفعل ذلك تسره...

- لاشك عندي في هذا، وذلك بعينه هو السبب في أنني يسعدني أن أقدم لك هذه الشروح. إنني مقتنع بأنه يمكن أن يصبر هو نفسه على أن أتكلم.

إن إلحاح هذا السيد الذي هبط من السماء على أن يروي لنا شؤون غيره كان أمراً غريباً لا يطابق العادات المألوفة. ولكنه قد اصطاد فر فاراً بتروفا بصنارته إذ لمس منها موضعاً حساساً على نحو خاص. ولقد كنت في ذلك الحين، أجهل طبع هذا الشخص، وأجهل مراميه.

قالت فر فاراً بتروفا بلهجة رصينة متحفظة، وقد ضايقها تسامحها قليلاً:
- إنني أصغي إليك.

- ليست القصة طويلة. حتى أنها ليست حكاية. ولكن ربّ كاتب من كتاب الروايات لا يجد شيئاً يفعله خيراً من أن يلفق منها رواية، فهي حالة شائعة. إنني على ثقة بأن براسكوفيا إيفانوفنا وليزافنا نيقولايفنا ستصغيان إليّ باهتمام، لأن في هذه القضية أشياء كثيرة إن لم تكن خارقة فهي على الأقل عجيبة. منذ خمس سنين عرف نيقولا في سيفولودوفتش هذا السيد ببترسبرج، نعم هذا السيد لبيادكين الذي يقف فاغر الفم، والذي يتمنى في هذه اللحظة أن يكون بعيداً إذا لم يخطيء ظني معذرة يا فر فاراً بتروفا. على

أنني لا أنصحك بالهروب يا عزيزي السيد الموظف المحال على التقاعد من مصلحة التموين (ها أنت ذا ترى أنني أعرفك جيداً). إننا، أنا ونيقولاي فسيفولودوفتش، على علم كامل بجميع أفعالك هنا، وهي أفعال ستُحاسَب عليها حساباً عسيراً، لا تنسَ هذا. مرةً أخرى أستغفرك يا فرفارا بتروفنا. في ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يطلق على هذا الشخص اسم فالستاف، أي يعدُّه إنساناً مضحكاً جداً يسخر منه جميع الناس ويستهزئون به ولا يحتاج هو على ذلك شريطة أن يجني منه بعض المال (كذلك اعتقد بطرس ستيفانوفتش أن من واجبه أن يشرح). وفي ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يعيش في بطرسبرج حياة "ساخرة" إن صح التعبير. إنني لا أجد كلمةً غير هذه الكلمة لوصف الحياة التي كان يعيشها في ذلك الأوان، فهو إنسان لا يستسلم لليأس وهو من جهة أخرى يحتقر أن يشغل نفسه بأي شيء. إنني لا أتكلم عن ذلك العهد فقط يا فرفارا بتروفنا. وكان للبيادكين هذا أخت، هي تلك نفسها التي كانت هنا منذ هنيهة. والأخ والأخت لم يكن لهما ركن يأويان إليه، فكانا يسكنان تارةً عند هؤلاء وتارةً عند أولئك. كان، هو، يظل يطوّف بيزته الرسمية تحت أروقة الدكاكين ويستوقف المارة، أحسن المارة طبعاً، ثم يمضي بكل ما يتصدقون به عليه إلى الخمارة. أمّا الأخت فكانت تعيش كما تعيش عصافير السماء. كانت تساعد الفقراء فيطعمونها. اغفروا لي أنني أصف لكم هذه الحياة التي جذبت نيقولاي فسيفولودوفتش من باب "التفرد والشذوذ". إنني لا أتكلم إلا عن تلك الفترة يا فرفارا بتروفنا. أمّا تعبير "الشذوذ والتفرد" هذا فهو من عنده: إنه تعبيره هو. لقد كان لا يخفي عني أشياء كثيرة. والآنسة لبيادكين التي أتيح لها كثيراً أن تراه في ذلك الأوان قد خطف بصرها وفتن لبّها مظهره. لقد كان بمثابة قطعة من الماس تتلألأ على صفحة حياتها الوسخة المقرزة. ولكن وصف العواطف ليس هو ما أبرع فيه، لذلك أصرف النظر عن هذا الأمر. ومع ذلك فقد وُجد أناس خبثاء أشرار أخذوا يسخرون منها، فجعلها ذلك حزينة كل الحزن. كانوا يستهزئون بها ويضحكون عليها بغير انقطاع، ولكنها كانت في أول الأمر لا

تلاحظ ذلك ولا تدركه. إنها منذ ذلك الحين لم تكن مالكة عقلها كاملاً، ولكن اختلال عقلها لم يكن قد بلغ الحد الذي بلغه الآن. وعلينا أن نفترض أنها، بفضل عناية ورعاية محسنة ما، قد نُشئت في طفولتها تنشئة مكنتها من الإلمام بشيء من ثقافة. كان نيقولاي فسيفلودوفتش لا يوليها أي اهتمام في يوم من الأيام، وكان يقضي وقته في لعب "الويست" بورق عتيق متسخ على ربع كوبك للنقطة الواحدة مع أشخاص من صغار الموظفين. لكنه، في ذات مرة، وقد سخر أحدهم من المسكينة، أمسك الرجل من تلايبه دون أي شرح ورماه من النافذة من الطابق الأول. ولم يكن ذلك منه تعبيراً عن غضب فروسي أثارته فيه رؤية الفتاة البريئة مهانة. فقد جرى المشهد كله بين ضحكات الحضور وصيحاتهم، حتى إن نيقولاي فسيفلودوفتش ضحك أكثر مما ضحك الآخرون. وحين تبين أن الحادث لم يسفر عن عواقب أليمة، تَمت المصالحة حول زجاجة من الخمرة. ولكن "البريئة المهانة" لم تنس ما فعله الفارس من أجلها. وكان طبيعياً أن ينتهي هذا بتشويش ملكاتها العقلية تشويشاً حاسماً. أكرر أنني لا أجيد وصف العواطف. ولكن كل شيء هنا كان يتم في نطاق خيالها. وكان نيقولاي فسيفلودوفتش ما ينفك يزيد هذا الخيال اضطراباً بما يشبه التعمد. فبدلاً من أن يضحك على الأنسة لبيادكين كما يفعل الآخرون، أخذ يعاملها باحترام، مثيراً بذلك دهشة الجميع. حتى أن كيريلوف الذي شهد ذلك (وهو شخص على جانب كبير من الأصالة والصراحة الخارقة يا فرفارا بتروفنا، وقد ترينه لأنه الآن هنا) أقول أن كيريلوف هذا، الذي لا يتكلم أبداً، قد غضب مرة وقال لنيقولاي فسيفلودوفتش - أتذكر هذا جيداً - إنه يرتكب خطأ كبيراً إذ يعامل الأنسة لبيادكين كما تعامل مركيزة، لأن ذلك يفقدها عقلها تماماً. يجب أن أقول لك إن نيقولاي فسيفلودوفتش كان يقدر كيريلوف. فهل تعرفين بماذا أجابه؟ لقد أجابه بقوله: "أتظن يا سيد كيريلوف أنني أسخر منها؟ إنك إذن لواهم: إنني أحترمها فعلاً، لأنها خير منا جميعاً". وقد قال ذلك بلهجة جادة. ومع ذلك فإنه خلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة التي عرفها خلالها لم يقل لها

كلمة واحدة عدا "يومك سعيد" و "إلى اللقاء". وإنني لأذكر بوضوح كامل أنها انتهت من ذلك إلى أن عدته خطيبها تقريباً، ولكنه خطيب لا يجرؤ أن يختطفها لأن له أعداء كثيرين، ولأنه يخشى أن تجيئه متاعب من جهة أسرته، أو شيء من هذا القبيل. ما أكثر ما كنا نضحك من ذلك! وفي النهاية حين غادر نيقولا في سيفولودوفتش مدينة بطرسبرج ليجيء إلى هنا، اتخذ تدابير من أجل أن يكفل للفتاة المسكينة معاشاً سنوياً، معاشاً كبيراً فيما اعتقد، يساوي نحو ثلاثمائة روبل إن لم يكن أكثر. لنفرض أن ذلك لم يكن منه إلا نزوة عارضة، إلا نزوة جامحة، كما يمكن أن يحدث هذا لرجل سئم الحياة قبل الأوان. بل فلنفترض أن كيريلوف كان على حق، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تجربة يقوم بها امرؤ قليل المروءة يريد أن يرى إلى أين يمكن المضي بامرأة شوهاء نصف مجنونة. لقد قال له كيريلوف: "إنك تعمدت أن تختار أبشع مخلوقة، أن تختار امرأة عرجاء يسخر منها الناس ويسئون معاملتها، وهي إلى ذلك تموت بك حباً مضحكاً، وأخذت تدبر لها رأسها عامداً قاصداً لا لشيء إلا أن ترى ما عسى ينتج عن ذلك.". ولكن هل ينبغي أن نعد رجلاً من الرجال مسؤولاً عن جميع الأفكار المجنونة التي يمكن أن تساور ذهن امرأة لم يبادلها هذا الرجل جملتين. لاحظوا أنه لم يبادلها جملتين حقاً. هناك يا فرفارا بتروفا أشياء لا يعجز المرء عن أن يقول فيها كلاماً معقولاً فحسب، بل يعجز كذلك حتى عن محاولة معالجتها معالجة جادة. لنفترض أن ذلك كان "تفرداً وشذوذاً" من جانب نيقولا في سيفولودوفتش. إن هذا كل ما يمكن أن يقال عن هذه القصة. فانظري ماذا جعلوا منها! إنني على علم، إلى حد ما، بما يجري هنا يا فرفارا بتروفا.

هنا قطع القاص حديثه فجأة، وهم أن يلتفت نحو لبيادكين، لكن فرفارا بتروفا أوقفته. لقد كانت فرفارا بتروفا تعاني انفعالات قوية شديدة. سألته:

- هل أنهيت كلامك؟

- لا، فلكي أخرج القضية إلى النور يجب عليّ أيضاً أن ألقى عدداً من

الأسئلة على هذا السيد، إذا أذنت لي بذلك. فلسوف ترين حقيقة الأمر يا فرارا بتروفا.

- كفى. أرجىء هذا إلى ما بعد. توقف عن الكلام لحظة، أرجوك. آه... لكم أحسنت صنعاً إذ تركت لك أن تتكلم!

أستأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه يقول بحرارة:

- ولا حظي يا فرارا بتروفا أنه كان يستحيل استحالة مطلقة على نيقولا فيسيفولودوفتش أن يذكر لك جميع هذه الإيضاحات جواباً عن سؤالك الذي لعله كان يشتمل على إسراف في الجزم والقطع.

- آ... نعم ... كان يشتمل على إسراف كثير في الجزم والقطع.

- أفلم يكن من حقي أن أقول أن ثمة ظروفًا يكون فيها تقديم الإيضاحات اللازمة أسهل على شخص آخر منه على صاحب الشأن نفسه؟

- نعم، نعم... ولكن هناك نقطة أخطأت فيها وما ترال تخطئ. إنني ألاحظ ذلك آسفة.

- حقاً؟ ما هو الخطأ الذي وقعت فيه؟

- اسمع... ولكن اجلس أولاً يا بطرس ستيفانوفتش.

- لك ما تشائين... أعترف بأنني منهوك القوى. شكرًا.

وسرعان ما قرّب مقعداً فجلس عليه بحيث يكون بين فرارا بتروفا من جهة وبراسكوفيا إيفانوفنا من جهة أخرى، مع بقائه قبالة الكابتن ليبادكين حتى لا يحوّل عنه بصره.

قالت فرارا بتروفا:

- لقد أخطأت حين عددت ذلك "تفرداً وشذوذاً".

- أوه... إذا لم يكن خطئي إلا هذا...

فقاطعت فرارا بتروفا تقول:

- لا، لا، لا، انتظر قليلاً...

وكان واضحاً أنها تتأهب للاسترسال في حديث طويل جداً، مؤثر جداً.

فما إن لاحظ بطرس ستيفانوفتش ذلك حتى أصبح كله آذاناً مصغية.

قالت فر فارا بتر وفنا:

- لا، لم يكن ذلك تفرداً وشذوذاً، بل كان شيئاً أرفع كثيراً من ذلك، كان شيئاً مقدساً إن صح التعبير، أؤكد لك. إن نيقولا ي فسي فولودوفتش رجل ذو كبرياء، جرحته الحياة في سن مبكرة، فانتهى من ذلك إلى أن ينظر إليها نظرة "سخرية"، على حد تعبيرك الموفق في شرحك الممتاز. إنه الأمير هاري كم أحسن ستيفان ترو فيموفتش خلع هذا اللقب الرائع عليه، وكان يمكن أن يكون هذا اللقب صادقاً لولا أن هذا الرجل يشبه هاملت أكثر مما يشبه الأمير هاري، في رأيي أنا على الأقل.

تدخل ستيفان ترو فيموفتش قائلاً بلهجة نافذة :
- "وإنك لعلی حق" (بالفرنسية).

- أشكرك يا ستيفان ترو فيموفتش، أشكرك شكراً خاصاً على هذه الثقة التي لا تتزعزع، هذه الثقة بنيقولا، وبعظمة نفسه، وعظمة قدره. لقد أحييت في نفسي هذه الثقة حين فقدت أنا الشجاعة.
- "عزيزتي، عزيزتي..."

كذلك قال ستيفان ترو فيموفتش وهو يتقدم نحو فر فارا بتر وفنا، ولكنه سرعان ما توقف إذ قدّر أن مقاطعتها ربما كانت خطرة.
وتابعت فر فارا بتر وفنا كلامها فقالت بصوت كأنه الغناء:

- لو وُجد بقرب نيقولا ي إنسان عطوف مثل هوراسيو⁽¹⁾، العظيم جداً في تواضعه ومذله - وهذا تعبير آخر من تعابيرك الجميلة يا ستيفان ترو فيموفتش - فلربما كان منذ زمن طويل قد أنقذ "من شيطان السخرية الحزين المشؤوم" الذي لم ينقطع عن تعذيبه (وتعبير "شيطان السخرية" هو من اكتشافاتك أيضاً يا ستيفان ترو فيموفتش). ولكن نيقولا ي لم يوجد إلى جانبه شخص مثل هوراسيو في يوم من الأيام، ولا إنسانة مثل أوفيليا. إنه لم يكن له أحد إلا أمه. ولكن ما عسى تستطيع أن تفعله أم وحدها، وفي ظروف كتلك الظروف؟ الآن

(1) "هوراسيو" هو الصديق المخلص لهاملت في مسرحية شكسبير.

بدأت أفهم يا بطرس ستيغانوفتش كيف أمكن شخصاً مثل نيقولاي أن يعيش في مثل تلك الأماكن التي وصفتها لنا منذ برهة. إنني أتصور بوضوح كامل باهر "سخرية" تلك الحياة (ما كان أصدق تعبيرك هذا!!)، وأتصور الظمأ المحرق، الناشئ عما يحمله في نفسه من تناقضات، وأتصور الصفحة الكالحة الحزينة من تلك اللوحة التي يبرز عليها نيقولاي بروز قطعة من الماس على حد تشبيهك يا بطرس ستيغانوفتش، وأتصوره يلقي في هذه البيئة تلك المخلوقة المثقلة بالإهانات، تلك الشوهاء نصف المجنونة، التي لعلها تزخر مع ذلك بأنبال العواطف!...

- هم... لنسلم بهذا...

- أفتستغرب بعد هذا أن لا يسخر منها كما يسخر سائر الناس؟... آه من الرجال! إنكم لا تفهمون لماذا يدافع عنها ويحيطها باحترام "كما لو كانت مركيزة" (إن كيريلوف هذا لا بد أنه يعرف البشر معرفة رائعة، رغم أنه لم يفهم نيقولاي!). إن الشر كله قد نشأ عن هذا التضاد، إن شئت. فلو أن المسكينة قد وجدت في بيئة مختلفة، فلعلمها ما كانت لتسترسل في أحلام مجنونة إلى ذلك الحد! لا يستطيع أحد أن يفهم هذه الأمور، إلا امرأة. نعم المرأة وحدها قادرة على أن تفهم هذه الأمور يا بطرس ستيغانوفتش! ومما يؤسف له كثيراً أنك لست امرأة، وأنت لا تستطيع أن تصبح امرأة خلال لحظة من الزمان، من أجل أن تفهم...

- تريد أن تقول لي على وجه الإجمال إن المرء كلما ساءت حاله كان أشد توقاً إلى شيء آخر. إنني أفهم يا فرفارا بتروفنا، أفهم. مثل ذلك كمثل الدين: فكلما كانت حياة الإنسان شاقة أليمة، وكلما كان الشعب مضطهداً يائساً، كان أكثر استرسالاً في أحلام المكافآت التي سيلقاها في الجنة. فإذا جاء بالإضافة إلى هذا مائة ألف كاهن يتدخلون في الأمر ويضرمون نار هذه الأحلام مزيداً من الإضرار، ويزيدون عليها أفكاراً وتأملات، فعندئذ... إنني أفهمك يا فرفارا بتروفنا، اطمئني...

- ليس هذا هو الأمر تماماً. ولكن قل لي يا بطرس ستيغانوفتش: هل كان

يجب على نيقولاى، من أجل أن يهدئ نار الأحلام التي استرسلت فيها تلك العضوية المسكينة (لم أستطع أن أفهم لماذا استعملت فر فارا بتروفا كلمة "العضوية") هل كان يجب عليه أن يسخر منها أيضاً، وأن يعاملها كما كان يعاملها أولئك الموظفون الصغار؟ هل يُعقل حقاً أن ترفض أنت قبول ذلك العطف العميق وتلك الرحمة البالغة وذلك الارتعاش النبيل في جسم نيقولاى كله، حين أجاب كيريلوف بقسوة: "إنني لا أسخر منها"؟ ألا ما كان أعظمه وأقدس من جواب!...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية:

- "رائع" (بالفرنسية).

- ولأحظ أنه ليس غنياً إلى الحد الذي تفترضه. ليس هو الغني بل أنا الغنية. ولقد كان في ذلك الأوان لا يطلب مني شيئاً.

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من نفاذ الصبر:

- أفهم، أفهم هذا كله يا فر فارا بتروفا.

- إنه أنا تماماً. إنني أتعرف نفسي في نيقولاى. أتعرف عهد الصبا، وتلك الاندفاعات العنيفة، وتلك الانفجارات... وإذا أتيت لنا أن نتعارف مزيداً من التعارف يا بطرس ستيفانوفتش - وذلك ما أتمناه من جهتي صادقة، لا سيما وإنني مدينة لك بأشياء كثيرة - فلعلك ستفهم عندئذ...

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة مقطّعة:

- ثقي أنني أنا أيضاً من جهتي...

- ستفهم عندئذ تلك الاندفاعات التي تجرك بعمائك السمحة الكريمة نحو إنسان لا يستحقك، إنسان غير جدير بك من أية ناحية، إنسان لا يفهمك ولا يني يسومك سوء العذاب، والتي تجعل من هذا الإنسان في نظرك، بالقياس إلى جميع الناس وعلى خلاف رأي جميع الناس، تجسداً للمثل الأعلى الذي تصبو إليه نفسك، وتهفو إليه أحلامك، ففيه تتركز جميع آمالك، فإذا أنت تحبه وتعبده دون أن تدري لماذا، وربما كنت لا تحبه ولا تعبده إلا لأنه غير جدير بذلك... ليتك تعلم كم تألمت أنا يا بطرس ستيفانوفتش!

حاول ستيفان تروفيموفتش، وكان قلق الهيئة، أن يقع بصره على بصري، ولكنني أشحت وجهي في الوقت المناسب.

- وحتى في الآونة الأخيرة، نعم، في الآونة الأخيرة الأخيرة... آه... ما أكبر ذنبي في حق نيقولا...! إنك لا تستطيع أن تتصور كم عذبوني جميعاً، جميعاً... الأعداء والأوغاد والأصدقاء. حتى إن الأصدقاء عذبوني أكثر من الأعداء. حين تلقيت آخر رسالة خالية من اسم كاتبها، لعلك لا تصدقني يا بطرس ستيفانوفتش، ولكن الحقيقة هي أنني لم أجروء أن أعامل بالاحتقار جميع تلك الدناءات... آه... لن أغفر لنفسي هذا الضعف ما حييت، لن أغفره ما حييت...

قال بطرس ستيفانوفتش وقد انتعش فجأة:

- سمعت عن تلك الرسائل الخالية من أسماء كاتبها. ولسوف أكشفهم...

اطمئني...

- لا تستطيع أن تتخيل المكائد التي حاكوها حولنا هنا. حتى صاحبتنا المسكينة براسكوفيا إيفانوفنا قد عانت منها أيضاً. وماذا كان هدفهم من تعذيبها؟

وأضافت فرفارا بتروفا تقول مخاطبةً براسكوفيا إيفانوفنا منفعةً انفعالاً لا يخلو مع ذلك من بعض الارتياح الساخر:

- لعلني أذنب اليوم في حقك يا عزيزتي براسكوفيا إيفانوفنا.

فجمجمت براسكوفيا إيفانوفنا تقول كأنما على أسف:

- لندع هذا الآن. في رأيي أن الأفضل أن تنتهي من هذه المسألة كلها. لقد أسرفنا في الحديث عنها.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا ذلك وعادت ترشق ليزافتا نيقولايفنا بنظرة وجلى. ولكن ليزافتا نيقولايفنا كانت تنظر إلى بطرس ستيفانوفتش.

وهفت فرفارا بتروفا تقول:

- أما تلك المخلوثة المسكينة، تلك المجنونة التي فقدت كل شيء ولم تحتفظ إلا بقلبها، فإنني أنتوي الآن أن أحتضنها. ذلك واجبي وسأقوم به.

هي منذ الآن في حمايتي.

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول من جديد:

- وسيكون هذا من جهتك خيراً عظيماً بمعنى من المعاني. معذرة، إنني لم أنته من كلامي منذ قليل، وعن هذه "الحماية" إنما كنت أنتوي أن أحدثك. تصوّرني أن هذا السيد، هذا السيد لبيادكين الذي ترينه، ما إن سافر نيقوي فسيقولودوفتش (إنني أستأنف سرد القصة من حيث وقفت) حتى تصور أن من حقه أن يتصرف في معاش أخته كاملاً. وقد تصرف فيه فعلاً بحيث لم تر منه قرشاً. لا أدري على وجه الدقة. كيف رتب نيقولاي فسيقولودوفتش الأمور في البداية، ولكنه بعد ذلك بسنة، وقد عرف بما حدث، اضطر أن يتخذ إجراءات أخرى. أعود فأقول إنني غير مطلع على التفاصيل، وسيروي لك هو هذه التفاصيل. كل ما أعلمه هو أن الإنسانة التي همّه أمرها قد وُضعت في دير بعيد، مريح جداً على كل حال، ولكن تحت رقابة حنون. هل تفهمين عني؟ فهل تتصورين ما تخيله السيد لبيادكين؟ لقد جهد بجميع الوسائل أن يكتشف أين خُبيّ مصدر وارداته، أعني أين خُبيّت أخته. حتى إذا توصل إلى معرفة ذلك - منذ مدة غير طويلة - استردها من الدير، مستنداً إلى حقوق له عليها، وجاء بها إلى هنا رأساً. وهو هنا لا يطعمها، وهو هنا يضربها، ويضربها بجميع الأساليب. فلما تلقى مبلغاً كبيراً من المال من نيقولاي فسيقولودوفتش أخذ يدمن على الشراب، وأخذ يسيء إلى المحسن إليه، وأخذ يطارده بمطالب جنونية، ويهدده بمقاضاته أمام المحاكم إذا لم يوضع المعاش بين يديه رأساً. فهو يرى إذن أن الهبة التي وهبها له نيقولاي فسيقولودوفتش بمحض إرادته، إنما هي ضريبة واجبة الدفع. هل تتخيلين هذا؟ يا سيد لبيادكين، هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح؟

ما إن سمع الكابتن هذا السؤال، وكان حتى ذلك الحين يقف صامتاً خافض العينين، حتى تقدم خطوتين إلى أمام، واصطبغ وجهه بحمرة شديدة، وقال بصوت متقطع:

- لقد عاملتني بقسوة يا بطرس ستيفانوفتش!

- بقسوة؟ ما معنى هذا؟ ولكن اسمح لي. لنرجى مسألة القسوة هذه إلى بعد. أمّا الآن فإنني لا أطلب منك إلّا أن تجيبني عن سؤالي الأول: هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح، أم هو غير صحيح؟ إذا كنت ترى أنه كذب فلا شيء يمنعك من أن تعلن ذلك في هذه اللحظة نفسها.

بدأ الكابتن يغمغم متلعثماً فيقول:

- أنا... إنك تعلم أنت نفسك... يا بطرس ستيفانوفتش... ولكنه أمسك عن الكلام فجأة..

يجب أن نقول أن بطرس ستيفانوفتش كان جالساً في مقعد، واضعاً ساقاً على ساق، بينما كان الكابتن لبيادكين واقفاً أمامه، على وضع الاحترام والتعظيم.

وكان يبدو أن ترددات الكابتن تزعج بطرس ستيفانوفتش كثيراً، فإذا بالغضب يقبّض قسّات وجهه فجأة. وها هو ذا يسأله قائلاً وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة:

- هل تريد أن تصرّح بشيء حقاً؟ إذا كنت تريد، فهلمّ افعل. إننا ننتظر.

- إنك تعلم أنت نفسك يا بطرس ستيفانوفتش إنني لا أستطيع أن أقول شيئاً.

- لا، لا أعلم. حتى أن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلاماً عن مانع من هذا النوع. لماذا لا تستطيع أن تقول شيئاً؟

ظل الكابتن صامتاً خافض العينين. قال أخيراً بلهجة جازمة:

- اسمح لي أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش.

- لا أسمع لك بالانصراف قبل أن تجيب عن سؤالي الأول: هل "كل" ما

قلته أنا الآن صحيح؟

أجاب الكابتن بصوت أجش، وهو يرفع عينيه نحو جَلّاده:

- نعم.

وكان جبينه مغطى بالعرق.

- "كل" شيء صحيح؟

- نعم، كل شيء.

- أليس لديك أي شيء تضيفه؟ أليس هناك أي شيء لتصحيحه؟ إذا كنت ترى أننا نظلمك فقل ذلك. احتج. عبّر جهاراً عن كل استيائك.

- لا، ليس عندي شيء أضيفه.

- هل هدّدت نيقولا في سيفولودوفتش في الآونة الأخيرة؟

- كان ذلك... كان ذلك من تأثير الخمرة يا بطرس ستيفانوفتش.

ورفع الكابتن رأسه، وأضاف يقول ناسياً نفسه من جديد:

- بطرس ستيفانوفتش، إذا أخذ شرف الأسرة والعار الذي يجلل المرء

ظلماً، إذا أخذاً يصرخان بين الناس، فهل يكون المرء أثماً مذنباً؟

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يرشقه بنظرة حادة:

- أأنت الآن سكران يا سيد لبيادكين؟

- أنا.. لا.. لست سكراناً.. لم أشرب شيئاً.

- إذاً فما معنى هذه العبارات التي تتكلم عن شرف الأسرة والعار الذي

يجلل المرء ظلماً؟

- أنا لا ألمح إلى أي إنسان. أنا لم أشأ أن أسيء إلى أحد. أنا لم أقصد إلا

نفسي...

كذلك تتمم الكابتن وهو ينهار من جديد.

- يخيّل إليّ أنك تضايقت من التعابير التي استعملتها في الكلام عنك

وعن سلوكك. إنك سريع التأذي شديد الحساسية يا سيد لبيادكين. ولكن

انتظر قليلاً. إنني لم أبدأ الكلام عن سلوكك بالمعنى الحق للكلمة. سأتكلم

عنه بعد قليل. نعم، من الجائر أن أبدأ الكلام عن سلوكك، ولكنني لم أقل

شيئاً على وجه الإجمال حتى الآن.

ارتعش لبيادكين، ونظر إلى بطرس ستيفانوفتش منقلب الهيئة.

- بطرس ستيفانوفتش، الآن فقط إنما أستيظ!

- هم... وهل أنا الذي أيقظتك؟

- نعم يا بطرس ستيفانوفتش... ولقد نمت خلال أربع سنين تحت سماء

مشحونة بالصاعقة. هل يمكن أخيراً أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش؟
- نعم، اللهم إلا أن يكون رأي فرفارا بتروفنا أن...

لكن فرفارا بتروفنا أسرع تحرك يدها بإشارة النفي.
فسلّم الكابتن، وخطا خطوتين، وتوقف، ووضع يده على قلبه، وأراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقله، وهُرع نحو الباب، فإذا هو يجد نفسه أمام نيقولا في سيفولودوفتش. فتنحى له هذا ليفسح له مجال المرور. فصغّر الكابتن جسمه تصغيراً شديداً، ولبث واقفاً كالمتجمد، محدقاً إلى الشاب بعينين ساكتين، كأرنب أمام أفعوان ضخّم. انتظر نيقولا في سيفولودوفتش لحظة، ثم أبعده بحركة خفيفة من يده، ودخل الصالون.

7

كان مرحاً وهادئاً كل الهدوء. لعل شيئاً ممتعاً جداً كان قد حدث له ولم يدر في خلدنا نحن. مهما يكن من أمر، فقد كان يبدو مرتاحاً كل الارتياح، راضياً أشد الرضى.

قالت فرفارا بتروفنا تسأله نافذة الصبر:

- هل ستغفر لي يا نيقولا في؟

ونهضت تلقاه بحركة نشيطة.

لكن نيقولا في انفجر ضاحكاً. وهتف يقول ببساطة وطيبة:

- قدّرت هذا. توقعته. ولقد كنت أقول لنفسي وأنا في العربة: كان ينبغي

لي أن أروي لهم قصة قصيرة، فليس حسناً أنني انصرفت على ذلك النحو... ولكنني حين تذكرت أن بطرس ستيفانوفتش قد بقي عندكم، لم أهتم بعد ذلك.

وكان وهو يتكلم يتفحص وجوهنا بسرعة.

هتفت فرفارا بتروفنا تقول بحماسة:

- لقد قصّ علينا بطرس ستيفانوفتش قصة بطرسبرجية قديمة عن فترة

من حياة شاب جامع الخيال عجيب الطبع طائش النزوات، لكنه يظل نبيل

العواطف ذا مشاعر فروسية...

- فروسية؟ هل وصلت إلى هذا الحد؟ على كل حال، أنا أشكر للسيد بطرس ستيفانوفتش تعجله وتسرع هذه المرة.

قال ذلك وبادل بطرس نظرة سريعة، ثم تابع كلامه يقول:

- يجب أن تعلمي يا ماما أن بطرس ستيفانوفتش يصلح دائماً بين جميع الناس: ذلك دوره، ذلك مرضه، ذلك جنونه، وأنا أنصحك نصحاً خاصاً في هذا المجال. إنني أتخيل ما لا بد أن يكون قد رواه لكم وقصه عليكم مسهباً مطبناً! ذلك أنه يسهب ويطنب حين يروي أمراً من الأمور. إن رأسه أرشيف زاخر. لاحظي أنه، بصفته واقعياً، لا يستطيع أن يكذب، وأن الحقيقة أغلى عنده من النجاح... باستثناء بعض الحالات الخاصة طبعاً، ففي تلك الحالات الخاصة يكون النجاح عنده أثمن من الحقيقة.

كان نيقولا فيسيفولودوفتش وهو يقول هذا الكلام لا ينفك ينظر حواليه. وتابع حديثه يقول:

- فهذا أنت ذي ترين بوضوح يا ماما أنك لست أنت التي يجب تستغفريني، وأن التبعة تقع على عاتقي أنا إذا كان قد ارتكب عمل جنوني ما. وهذا يدل في آخر حساب على أنني مجنون فعلاً... يجب عليّ حقاً أن أؤيد السمعة التي شاعت عني هنا...

قال ذلك وقبّل أمه برقة وحنان. ثم أضاف يقول بصوت ترن فيه نغمة جديدة، قاسية، خشنة:

- على كل حال، انتهت القضية الآن. لقد رويت القصة، فأصبح لا يمكننا أن نعود إليها.

وقد سمعت فرفارا بتروفا تلك النغمة الجديدة في صوت ابنها، لكن حماستها لم تهبط. بالعكس.

قالت:

- ما كنت أنتظر وصولك قبل شهر آخر.

- سأشرح لك كل شيء يا ماما طبعاً. أمّا الآن...

واتجه نحو براسكوفيا إيفانوفنا.

لكن براسكوفيا إيفانوفنا لم تكد تلتفت رأسها نحو نيقولا في سيفولودوفتش. ومع ذلك كان ظهوره قبل نصف ساعة قد صعقها صعقاً كاملاً. غير أن هناك أسباباً أخرى لا اضطرابها الآن. ففي اللحظة التي وجد فيها الكابتن نفسه أمام نيقولا في سيفولودوفتش وجهاً لوجه، كانت ليزا قد أخذت تضحك، ضحكاً بدأ صامتاً ثم ما انفك يشتد شيئاً بعد شيء، وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة. إن التضاد بين هذا المرح وبين تجهم وجهها منذ حين كان تضاداً يخطف البصر ويفجأ الانتباه. وبينما كان نيقولا في سيفولودوفتش يتحدث مع فرفارا بتروفنا، أهابت ليزا مرتين بصاحبها مافريكي نيقولايفتش أن يدنو منها كأنها تريد أن تقول له شيئاً بصوت خافت. ولكن ما يكاد مافريكي نيقولايفتش يميل نحوها حتى تنطلق في ضحك صاخب مجلجل، حتى ليتمكن أن يظن أنها إنما تضحك من المسكين مافريكي نيقولايفتش. وكان واضحاً من جهة أخرى أنها تبذل جهوداً في سبيل أن تخلق ضحكها، وما تنفك تحمل منديلها إلى شفيتها.

وحياًها نيقولا في سيفولودوفتش بهيئة بريئة صريحة. فأسرعت تجيبه: - اغفر لي. أرجوك. إنك... إنك قد رأيت مافريكي نيقولايفتش ولا شك. آه... إنه ليس مباحاً للمرأة أن يكون طويلاً هذا الطول كله يا مافريكي نيقولايفتش!

وظفقت تضحك. ولقد كان مافريكي نيقولايفتش طويل القامة فعلاً، لكن طوله ليس مفرطاً البتة.

ودمدت تقول وهي تحاول أن تسيطر على نفسها:

- هل وصلت منذ مدة طويلة؟

كانت تبدو خجلى مشوشة، لكن عينيها تسطعان.

أجابها نيقولا في سيفولودوفتش وهو ينظر إليها بانتباه:

- منذ ساعتين تقريباً.

يجب أن أذكر أن وضعه كان يتسم بأقصى التهذيب والتحفظ، ولكن إذا

غضضنا النظر عن هذا التهذيب، وجب أن نلاحظ أن وجهه كان يعبر عن عدم الاكتراث بل وعن عدم الشعور.

- أين ستسكن؟

- هنا.

وكانت فر فارا بترونا تنظر أيضاً إلى ليزا بانتباه، غير أن فكرة قد راودتها بغتة. فسألت ابنها:

— فأين كنت إذن يا نيقولا؟ أين قضيت هاتين الساعتين؟ إن القطار يصل في الساعة العاشرة.

- أولاً أوصلت بطرس ستيفانوفتش إلى عند كيريلوف. وكنت قد التقيت به في ماتفايفو (على مسافة ثلاث محطات من هنا)، فترافقنا في عربة واحدة من القطار.

تدخل بطرس ستيفانوفتش فوراً يقول:

- كنت أنتظر في ماتفايفو منذ الفجر. كانت العربات الأخيرة من القطار قد خرجت عن السكة الحديدية ليلاً، ولولا قليل لتكسرت سيقاننا. هتفت ليزا صائحة:

- لتكسرت سيقانكم؟ ماما، ماما، ألم نكن نريد أن نذهب نحن إلى ماتفايفو في الأسبوع الأخير؟ لو ذهبنا لتكسرت سيقاننا!... قالت براسكوفيا إيفانوفنا وهي ترسم إشارة الصليب:

- يا لطيف!

- ماما، ماما، ماما العزيزة! لا ترتاعي إذا تكسرت ساقاي. قد يحدث لي هذا بسهولة، مادمت تقولين أنت نفسك أنني أعدو بحصاني عدواً سريعاً كمجنون. يا مافريكي نيقولايفتش، هل ستظل تصحبني حين تتكسر ساقاي؟ وعادت تضحك من جديد. ثم تابعت كلامها تقول:

- إذا حدث لي هذا، فلن أسمح لأحد غيرك أن يصحبني، ثقب بذلك. لتتصور أن ساقاً واحدة من ساقَي كُسرت... هيّا، كن لطيفاً، قل لي أنك ستعد ذلك سعادة.

قال مافريكي نيقولايفتش بهيئة جادة:

- يا لها من سعادة أن تُكسر ساق المرأة!

- في مقابل ذلك، ستقودني دائماً، أنت وحدك، ولا أحد سواك!

- حتى في هذه الحالة ستظلمين أنت التي تقوديني يا ليزا فتنا نيقولايفنا.

هتفت ليزا تقول مرتاعة:

يا إلهي! أراد أن يلعب بالألفاظ! مافريكي نيقولايفتش، إنني أحظر عليك أن تندفع في هذا الطريق. ما أشد أنايتك! ومع ذلك فأنا مقتنعة، وهذا يشرفك، بأنك تدم نفسك عامداً. بالعكس: حين أفقد أنا إحدى ساقَي فلن تكف أنت عن أن تؤكد لي أنني أصبحت بذلك أحلى وألذ. ولست أجد ثمة إلا صعوبة واحدة هي أنك مسرف في الطول، وأنا حين سأفقد إحدى ساقَي سأكون قصيرة جداً. فكيف يمكنك والحال هذه أن تقودني من ذراعي؟ ستكون صحبتنا مضحكة.

قالت ذلك وهزتها ضحكة عصبية. لقد كانت مزحاتها وتلميحاتها باهتة، ولكن كان واضحاً أنها لا يخطر ببالها أن تحدث في من يسمعونها أثراً كبيراً. همس بطرس ستيفانوفتش يقول لي:

- هذه نوبة عصبية. إليّ بكأس ماء. بسرعة.

ولقد صدق تقديره. فما هي إلا دقيقة واحدة حتى اضطرب الجميع. وجيء بالماء. وشدت ليزا أمها إلى حضنها، وغمرت وجهها بالقبل، وطفقت تبكي على كتفها، ثم ارتدت إلى وراء وتأملتها من أمام، وعادت تضحك. وأخذت براسكوفيا إيفانوفنا تبكي قليلاً هي أيضاً. وأسرعت فراراً بتروفا تقتادهما كليتهما إلى شقتها الخاصة من الباب الصغير الذي دخلت منه داريا بافلوفنا. ولكن غيابهن لم يدم طويلاً، فقد عدن إلينا بعد بضع دقائق...

أحاول أن أستحضر الآن جميع تفاصيل نهاية ذلك الصباح الذي لا يُنسى. فأذكر أننا حين صرنا وحدنا بغير سيدات (إلا داريا بافلوفنا التي لم تترك مكانها)، طاف نيقولايفتس فسيولودوفتش على جمعنا، وصافح كل واحد منا، باستثناء شاتوف الذي ظل جالساً في ركنه يطرق إلى الأرض

مزیداً من الإطراق شيئاً بعد شيء. وشرع ستيفان تروفيموفتش في حديث فكه جداً مع نيقولاي فسيفولودوفتش، ولكن نيقولاي أسرع يتركه ليتجه نحو داريا بافلوفنا. لكنه ما إن صار في منتصف الطريق حتى استوقفه بطرس ستيفانوفتش، وجرة نحو النافذة بالقوة تقريباً وأخذ يكلمه بصوت خافت. لعل الحديث كان يدور على شيء هام جداً، إذا صدق ما عبّر عنه وجه بطرس ستيفانوفتش وعبرت عنه حركاته وإشاراته. وكان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي إليه ذاهل الهيئة عديم الشعور، مبتسماً ابتسامةً مصنوعة. ثم حرك يده بإشارة تململ، وظهر عليه أنه يريد التخلص من محدّثه. حتى إذا عادت السيدات ابتعد عن النافذة. جلست ليزا في مكانها من جديد، وأصرت فرفارا بتروفا على البقاء نحو عشر دقائق قبل الخروج، لأن الهواء في الخارج أقوى من أن تحتمله أعصابها المريضة. وكانت فرفارا بتروفا تسعى حول الفتاة بمداواة ظاهرة ورعاية واضحة، ثم جلست إلى جانبها. وسرعان ما هرع بطرس ستيفانوفتش قرب فرفارا بتروفا وجعل يحدثها حديثاً زائحاً بالحرارة. وعندئذ إنما اتجه نيقولاي فسيفولودوفتش أخيراً نحو داريا بافلوفنا بخطى هادئة، فلما رأته داريا يقترب منها اضطربت في كرسيها ثم نهضت وقد استولى عليها ارتباك واضح واشتعل خذاها احمراراً.

قال وقد طاف بوجهه تعبير غريب:

- أظن أن في الإمكان تهنتك... أم أن الآوان لم يحن بعد؟

فأجابته داشا ببضع كلمات لم أستطع أن أميزها.

وتابع نيقولاي كلامه فقال وهو يرفع صوته:

- اغفري لي قلة تكتمي. ولكنني قد أبلغت بالأمر صراحة. هل تعلمين

ذلك؟

قالت: - نعم أعلم.

قال ضاحكاً: - أرجو مع ذلك أن لا تفسد عليك تهنثاتي شيئاً، وإذا كان

ستيفان تروفيموفتش...

فقاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً على حين فجأة:

- لماذا هذه التهنتات؟ بأي شيء يهنتك يا داريا بافلوفنا؟ هه... أتراها تهنتات بخطبتك؟ إن حمرة وجهك تدل على أنني حزرت. وفعلاً، بماذا عسى يهنئ المرء أنساتنا الجميلات الفاضلات إن لم يهنتهن بالخطبة؟ طيب... اقبلي إذن تهنتاتي أنا أيضاً، إذا كنت قد حزرت، وادفعي الرهان: تذكرني أنك راهتني حين كنت في سويسرا على أنك لن تتزوجي أبداً... آ.. نعم.. بمناسبة سويسرا... ماذا خطر ببالي؟ أوه... ها أنذا كدت أنسى الأمر مع أنه أحد أسباب رحلتي...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك والتفت نحو أبيه بحركة سريعة وقال يسأله: - وأنت، متى تسافر إلى سويسرا؟

- أنا... إلى سويسرا؟

كذلك صاح ستيفان تروفيموفتش مدهوشاً مرتبكاً.
فقال له ابنه:

- كيف؟ ألا تسافر؟ ولكنك تتزوج... ألم تكتب لي ذلك؟
هتف ستيفان تروفيموفتش يقول:

- بطرس!...

- ماذا؟ ماذا تريد من بطرس؟ لقد جئت خصيصاً لأعلن لك أنني لا أعارض هذا الزواج، مادمت حريصاً ذلك الحرص كله على أن تعرف رأيي بأقصى سرعة ممكنة. وإذا كان يجب "إنقاذك" (كذلك تابع كلامه متعجباً) كما كتبت إليّ ذلك متوسلاً أن أسارع لإغاثتك ونجدة في خدمتك. هل صحيح أنه سيتزوج يا فرفارا بتروفنا؟ (كذلك سأل فرفارا بتروفنا وهو يلتفت إليها بسرعة). أرجو أن لا أكون قليل الکتمان فاشياً للأسرار. لقد كتب يقول لي هو نفسه أن المدينة كلها على علم بالأمر، وإن الناس يهنتونه من كل حذب وصوب، حتى إنه من أجل أن يتحاشى التهنتات أصبح لا يخرج من البيت إلا في الليل. إن رسالته في جيبي. ولكن هل تصدقين يا فرفارا بتروفنا؟ أنني من جهتي لم أفهم من الأمر شيئاً. قل لي نقطة واحدة يا ستيفان تروفيموفتش: أيجب مثلاً أن أهنتك أم أن "أنقذك"؟ لن تصدقي يا فرفارا

بتروفا! فهو تارةً يبدو مفتوناً، ثم إذا هو بعد سطرين يهوي إلى قاع الكمد واليأس. في البداية يأخذ يستغفرني. صحيح أنهم جميعاً هكذا... ومع ذلك يجب أن أقول هذه الحقيقة: إنه طوال حياته - تصوري! - لم يرني إلا مرتين، وبالمصادفة! وها هو ذا يراني الآن مرةً ثالثة عشية زواجه. إنه يخاف أن يقصّر فيما لا أدري من واجبات تقع على عاتقه، فيضرع إليّ من على بعد ألف فرسخ أن لا أزعل وأن أمنّ عليه بموافقتي. لا تنزعج يا ستيفان تروفيموفتش، أرجوك. إنك تنتمي إلى عصرك، وإن لي فكراً واسعاً، فلست أحكم عليك، حتى أن هذا يشرفك، إلخ. ولكن الأمر الأساسي هو أنني لا أفهم جوهر القضية، إنك تلمّح في رسالتك إلى ما لا أدري من "خطايا وآثام ارتكبت في سويسرا". لقد كتبت إليّ تقول: "سوف تتزوج بسبب خطايا أو من أجل خطايا غيري"... لا أتذكر العبارة تماماً. المهم أن هناك كلاماً عن خطايا. إنه يقول: "إن الفتاة جوهرة، لؤلؤة"، وإنه "لا يستحقها" طبعاً. ذلك هو أسلوب جيله. ولكنه بسبب ما لا أدري من آثام أو ظروف مضطر أن يضع على رأسه إكليل الزواج وأن يسافر إلى سويسرا"... فهلّمّ "اترك كل شيء وأسرع إلى انقاذي". هل تفهمون شيئاً من هذا كله؟ ولكن... ولكنني أرى وأنا أنظر إلى ما تعبر عنه وجوهكم (قال ذلك وكان ينظر إلى من حوله مبتسماً ابتسامة بريئة، والرسالة في يده)... إنني على عادتي قد ارتكبت غلطة... بسبب صراحتي الحمقاء أو بسبب تسرعي كما يقول نيقولا في سيفولودوفتش. لقد كنت أحسب أننا هنا بين أصدقاء، أقصد بين أصدقائك يا ستيفان تروفيموفتش، بين أصدقائك... ذلك أنني أنا غريب عنكم... وإنني لأرى... إنني لأرى أنكم تعرفون شيئاً، وأنني لا أعرف أنا هذا الشيء...

وظل ينظر حواليه.

سألته فرفارا بتروفا وهي تتقدم نحوه:

- هل كتب إليك ستيفان تروفيموفتش بالنص أنه يتزوج ليغطي خطايا

غيره، خطايا ارتكبت في سويسرا، وإن عليك أن "تنقذه"؟

كان وجه فرفارا بتروفاً أصفر، وكانت شفتاها تختلجان.

قال بطرس ستيغانوفتش بسرعة ما تنفك تشتد، متظاهراً بأنه قد تنبّه إلى خطورة الموقف:

- أقصد... إذا كان هناك شيء لم أفهمه حق فهمه، فالذنب ذنبه هو طبعاً. لماذا يكتب بهذه الطريقة؟ إليك الرسالة. إن رسائله طويلة طويلاً لا ينتهي يا فرفارا بتروفا، وهو لا يكل من الكتابة ولا ينقطع عنها. إنني منذ شهرين أو ثلاثة أشهر أتلقى منه الرسالة تلو الرسالة، وأعترف بأنني كنت أحياناً أن لا أقرأها حتى نهايتها. اغفر لي هذا الاعتراف يا ستيغان تروفيموفتش، ولكن يجب أن تسلّم لي بأن هذه الرسائل رغم أنها موجّهة إليّ إنما كتبها للأجيال المقبلة، بحيث لا بد أن تستوي عندك الأمور... هيّأ، هيّأ، لا تزعل، لا داعي إلى أن يكون بيننا حرج. ولكن تلك الرسالة يا فرفارا بتروفا، تلك الرسالة إنما قرأتها إلى آخرها. فهذه "الخطايا"، "خطايا الغير" هذه، لا شك أنها خطايانا الصغيرة نحن، وهي خطايا صغيرة جداً. أراهن على ذلك. لكننا بنينا منها قصة كاملة أتاحت لنا أن نستغيث بأنبل العواطف، بل إن هذا بعينه هو الذي حضنا على بنائها، على بناء تلك القصة. ذلك أن هناك في حساباتنا شيئاً لا يستقيم، شيئاً غير سليم. يجب أن نعرف بذلك. إننا نحب ورق اللعب كثيراً، كما تعلمين... ولكن هذا الكلام زائد لا محل له، نعم زائد لا محل له، معذرة، إنني ثرثار مكثار، ولكنني أحلف لك أنه أخافني يا فرفارا بتروفا، وإنني تأهبت "لإنقاذه". حتى لقد شعرت في النهاية بأنني مذنب. ولكن أنا أضع له السكين على العنق؟ أنا دائن لا يرحم؟ وهو يتكلم في رسالته أيضاً عن مهر ما. ولكن... عجيب!... هل ستتزوج حقاً يا ستيغان تروفيموفتش؟ جائز أيضاً أن لا يكون هذا كله إلا جملاً منمقة. وذلك من طبيعته أيضاً... أه... فرفارا بتروفا، أنا واثق بأنك ترين فيّ الآن رأياً سيئاً، بسبب طريقتي في الكلام خاصة...

فقال فرفارا بتروفا بلهجة حانقة:

- بالعكس، بالعكس، إنني أرى أنك إنما تتكلم لأن صبرك قد نفذ، ولا شك أن هناك أسباباً تدعوك إلى الكلام.

كانت فر فارا بتروفا قد أصغت بفرح خبيث إلى الثرثرة "الساذجة" التي استرسل فيها بطرس ستيفانوفتش الذي كان واضحاً أنه يمثل دوراً. (أمّا ما هو ذلك الدور، فإنني لم أكن قد عرفته بعد، ولكن كان واضحاً أنه يمثل، تمثيلاً فيه كثير من المبالغة).

وتابعت فر فارا بتروفا كلامها فقالت:

- بالعكس، إنني ممتنة كثيراً لأنك تكلمت. فلولاك لما عرفت شيئاً. لقد تفتحت عينايا لأول مرة منذ عشرين سنة. يا نيقولايا فيسولودوفتش، لقد قلت منذ برهة أنك قد أبلغت أنت أيضاً نبأ عن الزواج صراحة. فهل كتب إليه ستيفان تروفيموفتش بهذا الأسلوب نفسه؟

- تلقيت منه رسالة بريئة.. و.. و.. هي... رسالة نبيلة جداً.

- أرى أنك تتردد، وأنت تتخير تعابيرك. هذا كافٍ.

والتفتت فر فارا بتروفا نحو ستيفان تروفيموفتش فجأة وقد أخذت عيناها تقدح شرراً، وقالت له:

- يا ستيفان تروفيموفتش، إنني أسألك خدمة كبيرة جداً. أرجو أن تتركنا حالاً، وأن لا تضع قدميك على عتبة هذا الباب يوماً بعد الآن.

أرجو من القارئ أن يتذكر "حميّاها" الأخيرة التي لم تكن قد تبددت بعد. ويجب أن نقول أيضاً أن ستيفان تروفيموفتش كان مذنباً بالفعل. غير أن الشيء الذي أذهلني أكثر من كل ما عداه هو وقار وضعه ورصانة موقفه سواء تجاه ما كشف عنه بتروشا الذي لم يحاول حتى أن يقاطعه، أو تجاه "اللعة" التي صبتها عليه فر فارا بتروفا. من أين أتى بقوة النفس هذه؟ لكنني أدركت أنه قد جرح جرحاً بالغاً عميقاً منذ اللحظة الأولى التي استقبل فيها بتروشا، ولا سيما من طريقة بتروشا في التخلص من عناقه. كان الألم في قلبه هذه المرة عميقاً "حقيقياً"، في نظره هو على الأقل، غير أن ذلك الألم قد انضاف إليه ألم آخر: شعوره بأنه تصرف تصرفاً فيه جبن وحقارة. لقد اعترف لي بذلك فيما بعد بصراحة تامة. والألم "الحقيقي"، المؤكد، يمكن أن يبيث الشجاعة في أكثر الناس خفة وطيشاً، ولو إلى حين. بل أكثر من ذلك إن الألم الحقيقي يمكن

أن يهب ذكاءً لغبي، إلى حين طبعاً. تلك واحدة من مميزات الألم. فإذا صدق هذا ففي وسعكم أن تتخليلوا التبدلات التي لا بد أنها حدثت في نفس إنسان مثل ستيفان تروفيموفتش. إن التبدل يكون عندئذ تحولاً كاملاً، لكنه مؤقت بطبيعة الحال.

انحنى ستيفان تروفيموفتش أمام فر فارا بتروفا بوقار دون أن ينطق بكلمة واحدة، (وهل كان يمكنه أن يفعل غير هذا على كل حال)، واتجه نحو الباب، لكنه لم يملك أن يمنع نفسه من التوقف أمام داريا بافلوفنا. ويظهر أن داريا بافلوفنا كانت تتوقع ذلك، فهي هي ذي ترتاع أشد الارتياح، وتقول له مادةً إليه يدها كأنها تريد الإسراع في تحذيره:

- أرجوك يا ستيفان تروفيموفتش، لا تقل شيئاً (وكان وجهها يعبر عن الألم)... كن على ثقة بأنني ما زلت أضمر لك نفس الاحترام... وإنني أقدرك كما كنت أقدرك من قبل... واحتفظ برأيي حسنٍ فيَّ يا ستيفان تروفيموفتش، فإنني أحرص على هذا كثيراً.

فانحنى ستيفان تروفيموفتش يحييها تحيةً عميقة.

قالت فر فارا بتروفا تختم الحديث بلهجة فيها أبهة:

- أنت حرة يا داشا. إنك تعلمين أن اتخاذ القرار في هذا الأمر هو من شأنك أنت. لقد كنت دائماً حرة، وما تزالين حرة، وستبقين إلى الأبد حرة.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يلطم جبينه:

- أف... الآن فهمت كل شيء. ما أسوأ وضعي إذن! معذرة يا داريا بافلوفنا. أرجو أن تغفري لي...

وأضاف يقول وهو يلتفت نحو أبيه ستيفان تروفيموفتش:

- انظر إلى أي وضع دفعته، وعلى أي فعل حملتني!

قال ستيفان تروفيموفتش بألم كبير:

- بطرس، في إمكانك أن تكلمني بغير هذه الطريقة. ألا ترى معي هذا

الرأي يا صديقي؟

قال بطرس وهو يحرك ذراعيه:

- لا تصرخ، أرجوك. صدّق أن مردّد ذلك إلى أعصابك الهرمة المريضة، وليس بجديدك الصراخ شيئاً. كان عليك أن تدرك أنني سأتكلم في هذا الموضوع فوراً، فلماذا لم تنبهني؟ لماذا لم تحذّرني؟
ألقي عليه ستيفان تروفيموفتش نظرة حادة نافذة، وقال له:
- بطرس، هل يُعقل، وأنت المطلّع هذا الاطلاع كله على مايجري هنا، أن لا تكون قد علمت شيئاً ولا سمعت شيئاً عن هذه القضية؟
- انظروا إلى هؤلاء البشر! لست إذن ابنه فحسب، بل أنا أيضاً ابنه السيء الخبيث! هل تسمعين ما يقوله يا فرفاراً بتروفا؟
وأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد معاً. ولكن في تلك اللحظة إنما حدث حادث لا شك في أن أحداً لا يمكن أن يكون قد توقعه.

8

يجب أن أقول قبل كل شيء إن ليزافتا نيقولايفنا قد بدا عليها منذ دقيقتين أو ثلاث دقائق أن اضطرابها عاد إليها واستبد بها. فهي تبادل أمها ومامفريكي نيقولايفتش كلماتٍ سريعة بصوت خافت. إن وجهها ينم عن قلق وحزم في آن واحد. وها هي ذي أخيراً تنهض متعجلة الانصراف، وتومئ بإشارة تدل على نفاد الصبر، لأُمها التي هبّ مافريكي نيقولايفتش يساعدها على ترك مقعدها. ولكن كان مقرراً أن لا تنصرفا قبل أن ترى كل شيء حتى النهاية.
إن شاتوف الذي كان قد نُسي تماماً في ركنه (قرب ليزافتا نيقولايفنا جداً)، والذي لعله كان هو نفسه لا يعرف لماذا بقي هناك ولماذا لا ينصرف، قد نهض على حين فجأة، فاجتاز الغرفة كلها بخطى بطيئة لكنها ثابتة، واتجه نحو نيقولايفسي فولودوفتش وهو ينظر إليه وجهاً لوجه.
رآه نيقولايفسي ستيفانوفتش يدنو منه من بعيد فابتسم ابتسامة خفيفة. ولكن حين وصل شاتوف إلى قربه كفّ عن الابتسام.
حتى إذا وقف شاتوف أمامه وهو ما يزال صامتاً دون أن يحوّل عنه عينيه، أدرك الجميع أن شيئاً يحدث، وصمتوا، حتى بطرس ستيفانوفتش.

ووقفت ليزا وأمها في وسط الصالون جامدتين. وانقضت على هذه الحال بضع ثوان. وها هي ذي الدهشة المزدرية التي يعبر عنها وجه نيقولا في سيفولودوفتش يحل محلها غضب، وها هو ذا يقطب حاجبيه، ثم فجأة... ثم فجأة يرفع شاتوف يده الطويلة الثقيلة ويهوي بها على وجه نيقولا في سيفولودوفتش بكل ما أوتي من قوة، فيترنح ستافروجين من قوة الضربة. ولقد هوى شاتوف بضربته على نحو خاص، لا كما يصفع أحد أحداً على وجهه (إذا جاز استعمال هذا التعبير): أي لم يضربه براحة اليد بل باليد مقبوضة مشدودة. وكانت يده ضخمة ثقيلة قوية العظام مغطاة بشعر أحمر وبقع حمراء. فلو سقطت هذه الضربة على الأنف لهشمته حتماً، لكن شاتوف أنزل ضربته على الخد، وانزلت الضربة على الطرف الأيسر من الشفتين وعلى الأسنان العليا فسرعان ما نزع الفم دماً.

دوّت صرخة أطلققتها فراراً بتروفنا، إذا لم يخطئ ظني. لست أتذكر على وجه الدقة، إذ لم يلبث الصمت أن ساد الجو من جديد: لقد أصبحنا كالمتجمدين من الدهشة. والمشهد كله لم يدم إلا نحو عشر ثوان على كل حال.

غير أن أشياء كثيرة جداً قد حدثت خلال هذه الثواني.

يجب أن أذكر القارئ بأن نيقولا في سيفولودوفتش له طبيعة من تلك الطباع التي لا تعرف الخوف. إنه قادر، في مبارزة مثلاً، على أن يواجه رصاص خصمه بهدوء كامل ليسدد إليه بعد ذلك فيقتله بهدوء وحشي ضار. ولو صفعه أحد فما أظن أنه يطلب المعتدي إلى المبارزة، وإنما يقتله على الفور. نعم إن له طبيعة من تلك الطباع التي ترتكب القتل مدركةً فعلتها، لا منقادةً لعمارة الغضب. بل إنني لأعتقد أنه لم يعرف في حياته اندفاعات الحقن الشديد تلك التي تحرمننا من إمكان أي تفكير أو تأمل. ففي نوبات السخط التي كانت تستولي عليه أحياناً كان يستطيع دائماً أن يبقى مسيطراً على إرادته، وكان يدرك إذن أنه حين يقتل رجلاً في غير مبارزة فهو لا يستطيع أن يفلت من عقوبة السجن غير أن هذه الفكرة ما كان لها بأية حال

من الأحوال أن تمنعه من قتل الرجل الذي يكون قد أهانه، بغير أي تردد. لقد درست طبع نيقولاي فسيفولودوفتش في هذه الآونة الأخيرة كثيراً، فأصبحت بفضل تضايف ظروف خاصة أعرف عنه وقائع كثيرة في هذه الساعة التي أكتب فيها عنه. إنني أشبّه ببعض شخصيات الزمان الماضي التي ما تزال ذكرها الأسطورية باقية بيننا حتى الآن. يُحكى مثلاً أن الديسمبري "ل... ن"⁽¹⁾ كان طوال حياته يبحث عن الخطر، وأنه كان يتلذذ بهذا الإحساس الذي أصبح لديه احتياجاً حقيقياً. فحين كان شاباً كان يقتل في مبارزة لكلمة نعم أو كلمة لا. وفي سيبيريا كان يصطاد الدب بغير سلاح إلا سكيناً، وكان يتسلّى بأن يطارد في الغابات السجناء الهاريين الذين يجب أن نصفهم - عابرين - بأنهم أشد خطراً على الحياة من الدببة. مما لا شك فيه أن أولئك الأشخاص الأسطوريين كانوا يعرفون الخوف، بل ولعلمهم كانوا يحسونه بقوة خاصة، وإلا لعاشوا حياة أكثر مسالمة وهدوءاً وموادعة، ولما قلبوا الإحساس بالخطر إلى حاجة طبيعية فيهم. وواضح أن الشيء الذي كان يثير حماسهم وحمياهم إنما هو الانتصار على ذلك الخوف. إن فرحهم بالظفر والإحساس بقوتهم ليس لهما حدود. ذلكم ما كان يفتنهم ويخلب ألبابهم. إن "ل... ن" ذاك نفسه، قد عرف الجوع قبل نفيه إلى سيبيريا، وعرف الحاجة إلى جنّي خبزه بعرق جبينه، لا لشيء إلا لأنه رفض الخضوع للمطالب التي كان يريد أبوه الغني أن يفرضها عليه وكان هو يعدّها ظالمة غير عادلة. كان إذن قد تصور كفاح الحياة في صور شتى، وكان قد عرف قوة مقاومته وقوة شكيمة لا في صيد الدب وفي المبارزات فحسب.

(1) هو ميشيل لونين (1845-1787) الضابط الذي كان أحد متمردي ديسمبر 1825. وقد نفي إلى سيبيريا ومات فيها. لقد قام ديسمبري آخر هو فسفونوف بوصف طبع لونين. وذلك حين عاد من سيبيريا سنة 1856، ولا شك أن دوستوفسكي قد اطلع على مذكرات هذا الديسمبري التي أودعت في "الأرشيف الروسي" عام 1871. يجب أن نشير هنا إلى اسم الديسمبرين كان يطلق على أعضاء جمعيات سرية تشكلت في روسيا في نحو نهاية حكم الكسندر الأول. فلما مات العاهل حاولوا في 14 ديسمبر 1825 تحريك جيش سان بطرسبرج. ولكن نيقولا الأول الذي خلف الاسكندر الأول استطاع أن يسحق الثورة. شق خمسة منهم، ونفي الباقون إلى سيبيريا.

لكن ذلك كله كان يجري في زمان بعيد جداً، والطبيعة العصبية، المعنية المختلفة، التي يتصف بها رجال اليوم، لا تشعر حتى بالحاجة إلى هذه الإحساسات البسيطة القوية التي كان يبحث عنها ويسعى إليها الرجال المتحركون الفعالون الذين عرفهم الزمان القديم. لعل نيقولا فيسيفولودوفتش أن ينظر إلى "ل... ن" ذاك نظرة متعالية، بل متعالية، بل لعله يعده رجلاً متنفخاً وديكاً مشاكساً يحب القتال، لكنه لا يقول هذا إلا بينه وبين نفسه دون أن يعلن هذا الحكم جهاراً. إن نيقولا فيسيفولودوفتش قد يقتل خصماً في مبارزة، وقد يجابه دُباً عند الحاجة، وقد يقاتل قاطع طريق إذا تعرض له، وهو يحقق في هذا كله انتصارات لا تقل عن انتصارات "ل... ن" ويبرهن على شجاعة لا تقل عن شجاعة "ل... ن" ولكن دون أن يجني من ذلك ليلة لذة، وإنما يقوم بهذه الأعمال كلها برخاوة وتواتر وكسل بل وضجر، كمن يمثل لضرورة مزعجة لا بد منها. ومع ذلك فقد كان نيقولا فيسيفولودوفتش أشد قسوة وأعمق شراً من "ل... ن". لكن شره فاتر بارد هادئ، بل هو شر "عاقِل" إن صح التعبير، وهو إذن شر أدعى إلى الإشمئزاز وأبعث على الشعور بالهول من أي شر آخر. أكرر مرة أخرى: لقد عدته حينذاك، وما زلت أعده الآن (بعد أن أنتهى كل شيء على وجه الإجمال) رجلاً قادراً، إذا هو تلقى صفة أو إهانة مماثلة، أن يقتل المعتدي عليه في الحال دون أن يطلبه إلى مبارزة.

ومع ذلك فقد تصرف عندئذ تصرفاً مختلفاً كل الاختلاف، جَمَدْنَا من الدهشة جميعاً.

فما إن نصب قامته بعد أن انحنى انحناء مخجلاً بتأثير الضربة، ما إن انقطع صوت اللكمة الفظيعة الرهيبة - إن صح التعبير - عن التراجع في آذاننا، حتى أمسك نيقولا فيسيفولودوفتش صاحبنا شاتوف من كتفيه بيديه. ولكنه سرعان ما عاد يسحب يديه في نفس اللحظة تقريباً، ويضعهما وراء ظهره. كان صامتاً ينظر إلى شاتوف وقد شحب لونه حتى صارت صفرتة أشبه ببياض. ولكن ما أعجب ما لاحظناه: لكأن نظرتة أخذت تنطفئ حداثتها

شيئاً بعد شيء، فما انقضت عشر ثوان حتى كانت عيناه باردتين، هادتين. لست أكذب. إنني متأكد مما أقول. كل ما هنالك أن لون وجهه أصبح شاحباً شحوباً رهيباً. إنني أجهل ما حدث في نفسه طبعاً: فأنا لم أر منه إلا الظاهر. يخيل إليّ أنه إذا أوتي إنسان أن يقبض على قضيب من حديد محمر من النار وأن يظل ممسكاً به ليمتحن قدرته على الاحتمال، وإذا تمكن هذا الإنسان أن يحقق النصر بعد أن قاوم الألم الرهيب خلال عشر ثوان، فإن ما يعانیه يكون شبيهاً بما تحمّله نيقولا في سيفولودوفتش أثناء تلك الثواني العشر.

وكان شاتوف أول من خفض بصره. وكان واضحاً أنه إنما خفض بصره لأنه اضطر إلى ذلك اضطراراً. ثم استدار بهدوء، واتجه نحو الباب، ولكن بخطوة مختلفة عن خطواته التي سار بها من قبل. انصرف بغير جلبة، مقوَّس الظهر، داساً رأسه في كتفيه، كأنه يفكر تفكيراً عميقاً. حتى أنني أعتقد أنه دمدم يقول بضع كلمات. كان يتقدم محاذراً، محاولاً أن لا يصدم شيئاً، وأن لا يقلب شيئاً. حتى إذا وصل إلى الباب شقّه شقاً صغيراً بحيث اضطر أن يخرج موارباً حتى يستطيع أن ينسل منه. وفيما كان يخرج لاحظت كتلة الشعر التي كانت منقوشة على جمجمته، لاحظتها خاصة.

وعندئذ دوت صرخة رهيبة سبقت جميع الصرخات. رأيت ليزافتا نيقولا يفنا تمسك أمها من كتفها، وتمسك مافريكي نيقولا يفتش من ذراعه وتبذل جهوداً كبيرة عنيفة لتجرهما وراءها إلى خارج الغرفة، ولكنها أطلقت من صدرها صرخة قوية على حين فجأة، وسقطت على الأرض مستلقية مغشياً عليها. يبدو لي أنني ما أزال أسمع اصطدام قفا رأسها بالسجادة.

الجزء الثاني

الفصل الأول

الليل

1

انقضى أسبوع. الآن وقد انتهى كل شيء، في الساعة التي أكتب فيها هذه القصة، أصبحنا نعرف الحقيقة. أمّا في ذلك الحين فقد كنا نجهلها. لذلك كانت أشياء كثيرة تبدو لنا عجيبة جداً. في الآونة الأولى لزمننا البيت أنا وستيفان تروفيموفتش، مكتفين بملاحظة الأحداث من بعد، بشيء من الخشية. ومع ذلك كنت أخرج من حين إلى حين، وأنقل إلى صديقي كما كنت أفعل في الماضي، ما أستطيع أن أصل إلى جمعه من معلومات ما كان له أن يستغني عنها.

من نافل القول أن أذكر أن أغرب الشائعات قد سرت في المدينة بشأن الصفعة، وإغماء ليزا، والأحداث الأخرى التي وقعت في ذلك اليوم الذي لا يُنسى، يوم الأحد. وقد أدهشنا ذلك كثيراً: فكيف أمكن أن تُعرف هذه الوقائع بمثل تلك السرعة، حتى في أيسر تفاصيلها؟ لا أحد من الذين شهدوا تلك الأحداث يمكن أن يجني فائدة من إشاعتها وإذاعتها بين الناس فيما يبدو. أمّا الخدم فإنهم لم يروا شيئاً. لبيادكين وحده كان يمكن أن يتكلم، لا عن خبث وشر (فقد كان مرتاعاً، والارتياح يقتل الكره) بل تلذذاً بالثرثرة فحسب. ولكن لبيادكين وأخته كانا قد اختفيا منذ الغد دون أن يتركا أثراً يدل على المكان الذي رحلا إليه: لقد تركا منزل فيلييوف ولا يعرف أحد أين هما. لقد حاولت أن أسأل شاتوف عن ماريا تيموفيتشنا، لكن شاتوف كان

قد سجن نفسه في بيته. وأظن أنه لم يخرج من مسكنه مرة واحدة خلال ذلك الأسبوع، متنازلاً عن كل مشاغله بالمدينة. وهو على كل حال لم يشأ أن يستقبلني. لقد صعدت إلى بيته يوم الثلاثاء، وقرعت بابه، فلما لم أحصل على جواب، وإذا تأكدت أنه موجود في البيت، قرعت الباب مرة أخرى. فسمعت عندئذ صوت حركة هي حركة من يشب عن سريره إلى الأرض، وها هو ذا يقترب من الباب بخطى ثقيلة ويصرخ: "شاتوف ليس بالبيت". فلم يبق عليّ إلا أن أمضي.

وقد انتهينا أنا وستيفان تروفيموفتش أخيراً إلى التسليم بأن مروج الشائعات التي كانت تسري في المدينة (وذلك افتراض روعنا ما فيه من جرأة وتهور، ولكن كلاً منا شجّع صاحبه على قبوله) لا يمكن أن يكون أحداً غير بطرس ستيفانوفتش. ومع ذلك فقد أكد بطرس ستيفانوفتش لأبيه بعد مدة قصيرة أنه مدهوش جداً من أن الحكاية كلها قد انتقلت من فم إلى فم على الفور في المدينة كلها، وخاصة في النادي، وأن الحاكم وامرأته يعرفانها بكل تفاصيلها. ولكن الأغرب من ذلك إنني علمت حين لقيت ليويتين مساء يوم الإثنين أنه كان منذ ذلك الحين على علم كامل بكل ما جرى. فمعنى هذا أنه كان من أوائل من اطلعوا على الأمر.

إن كثيراً من السيدات (وبينهن سيدات من أبرز أعضاء المجتمع الراقي) قد حيرهن أشد الحيرة أمر تلك "العرجاء اللغز". كذلك كنَّ يلقبها. حتى أن بعضهن قد تمنين أن يعرفنها. معنى ذلك أن الذين أسرعوا يخفون لبيادكين وأخته قد فعلوا ما يجب فعله في الوقت المناسب جداً. على أن إغماء ليزافتا نيقولايفنا هو الذي كان يشغل الأذهان خاصة. ألم يكن هذا الحادث يخص جوليا ميخائيلوفنا، امرأة الحاكم، وقرينة الفتاة وحاميتها؟ ما أكثر ما قالوا! ثم إن هذه الثرثرات كان يسهلها ويشجعها ما يحيط بها من سر: لقد بقي المنزلان مغلقين. كان يقال على وجه التأكيد أن ليزافتا نيقولايفنا مصابة بحمى حارة، ومثل هذا كان يُقال عن نيقولايفسي فولودوفتش، بالإضافة إلى اختراع تفاصيل أخرى كثيرة منفردة، منها أن أسنانه تكسرت، وأن وجهه

تشوه، وهلم جرأً، وكانوا يرددون، تحت طابع السر، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد، فليس ستافروجين رجلاً يمكن أن يغفر إهانة كهذه، وأنه سيقتل شاتوف حتماً، ولكن بطريقة خفية سرية، كما يحدث في أعمال الثأر المعروفة في جزيرة كورسيكا. وكانت هذه الفكرة تخب الألباب. ولكن أكثر شباننا الأتقيين كانوا يصغون إلى هذه الأقاويل بازدرء خال من الاهتمام والإكتراث، وذلك أمر كانوا يصطنعونه اصطناعاً بطبيعة الحال. وعلى وجه العموم، فإن العداوة القديمة التي حملها مجتمعنا في الماضي لنيقولا في سيفولودوفتش قد ظهرت الآن من جديد عنيفة كل العنف، قوية كل القوة، فحتى الأفراد الجادون قد أخذوا يتهمون، دون أن يعرفوا لماذا على وجه الدقة. كان الناس يتهايمسون بأنه لطح شرف ليزافتا نيقولا يفنا بالعار، وأن هناك مغامرة قد وقعت بينهما في سويسرا. صحيح أن الحكماء من الأفراد كانوا يتحفظون، ولكنهم كانوا يصغون إلى هؤلاء الثرارين متلذذين. وقد راجت شائعات أخرى أيضاً. غير أن الشائعات الأخرى كان الناس لا يرددونها إلا في خلوة وعلى حذر. ولست أذكر هذه الشائعات إلا لأنبه القارئ، وأهيته للاطلاع على الأحداث التي أعقبت ذلك كله. كان بعضهم يؤكدون وهم يصطنعون هيئة الجد والوقار (الله وحده يعلم من أين استمدوا هذه الأنباء!) أن نيقولا في سيفولودوفتش مكلف بمهمة خاصة، وأنه بواسطة الكونت ك... قد أصبح على صلة بشخصيات هامة جداً في بطرسبرج، بل وأنه يشغل منصباً عالياً. فكان الأفراد الجادون المتحفظون يتسممون حين يسمعون هذه الأحاديث، مشيرين بحق إلى أن رجلاً يثير فضائح ويتلقى صفقة منذ بداية إقامته عندنا، لا يشبه موظفاً كبيراً في شيء، فكان الآخرون يجيبونهم قائلين إن ستافروجين لا يشغل مركزاً رسمياً، بل منصباً سرياً بمعنى من المعاني، وإن مهمته تقتضي منه والحالة هذه أن لا يشبه موظفاً من الموظفين إلا أقل شبيه ممكن. وقد أحدثت هذه الملاحظة أثراً ما: كان الناس لا يجهلون أن زمزتوف⁽¹⁾ مقاطعتنا

(1) "زمزتوف المقاطعة" أو هو مجلس للإدارة المحلية في الإقليم. وكثيراً ما كانت هذه المجالس تبدي في مناقشتها آراء لبرالية. وذلك ما لفت نظر وزارة الداخلية.

كان قد لفت انتباه العاصمة مراراً وتكراراً، على أن هذه الشائعات لم تستمر. بل تبددت منذ عاد نيقولا في سيفولودوفتش إلى الظهور بيننا. لكنني أحرص على أن أذكر أن هذه الأقاويل كلها إنما يرجع أصلها إلى بضع جمل كارهة مبغضة، لكنها غير صريحة جداً، قذفها ذات يوم في النادي آرتميمي بافلوفتش جاجانوف، الكابتن المتقاعد من ضباط الحرس. إن جاجانوف هذا، قد وصل من بطرسبرج منذ مدة قصيرة، وهو من كبار ملاكي الأطيان بمقاطعتنا، كما أنه رجل من رجال المجتمع الراقي، إنه ابن المرحوم بافل بافلوفتش جاجانوف الذي كان نيقولا في سيفولودوفتش قد عامله منذ أربع سنين تلك المعاملة الفظة الغليظة، كما رويت ذلك في بداية قصتي.

عرفت المدينة كلها أن جوليا ميخائيلوفنا قد ذهبت إلى منزل فرفاراً بتروفنا، فأرسلت فرفاراً من يبلغها أنها لا تستطيع استقبالها لتوعك صحتها. وقد علم أيضاً أن جوليا ميخائيلوفنا قد بعثت بعد ذلك بيومين رسولاً يسأل عن أبناء السيدة ستافروجين، وأنها كانت من جهة أخرى تأخذ على عاتقها عبء "الدفاع" عنها. ويجب أن نفهم كلمة "الدفاع" هذه بأرفع معانيها طبعاً، أي بأغمض معانيها. لقد استقبلت بعبوس وفور التلميحات الأولى التي أسرع الناس يسوقونها لها عن أحداث يوم الأحد. لذلك أصبح لا يجرؤ أحد أن يدير الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك بحضورها. وانتهى الناس إلى أن يسلّموا بأن جوليا ميخائيلوفنا ليست على علم بالقصة كلها فحسب، بل وتعرف معناها الخفي وسرها المكتوم وتعرف أصغر تفاصيلها، بل هي مشاركةٌ فيها بعض المشاركة. يجب أن أذكر بهذه المناسبة أن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد أخذت تتمتع بيننا منذ ذلك الحين بذلك النفوذ الذي تتوق إليه، وكانت ترى نفسها منذ ذلك الحين "محاطة" كثيراً. إن قسماً كبيراً من المجتمع قد أصبح يعترف لها بذكاء عملي وكياسة وحسن تصرف... وسنرجع إلى الكلام عن هذا في ما بعد. وإلى حمايتها ورعايتها إنما يرجع أكبر الفضل فيما حققه بطرس ستيفانوفتش من نجاح سريع، وهو نجاح أدهش ستيفان تروفيموافتش إدهاشاً قوياً.

جائز أننا، أنا وستيفان تروفيموفتش، قد ضخمنا في خيالنا ذلك النجاح. مهما يكن من أمر، فإن بطرس ستيفانوفتش قد تعرف على جميع الناس في الأيام الأربعة الأولى التي أعقبت وصوله. كان قد وصل إلى مدينتنا يوم الأحد، فلما جاء يوم الثلاثاء رأيته يمر راكباً العربّة التي يملكها آرتمي بافلوفتش جاجانوف، وهو رجل متعجرف مزهو بنفسه حاد الطبع شرس مغرور، رغم ما يصطنعه من آداب راقية، فهو إذن امرؤ ليس التفاهم معه بالأمر السهل. وكذلك استقبل بطرس ستيفانوفتش عند الحاكم وامراته استقبالاً حسناً جداً، حتى إنه سرعان ما أصبح من أصدقائهما الحميمين، وسرعان ما أصبح الولد المدلل في منزلهما، إن صح التعبير. لقد أصبح يتغذى كل يوم تقريباً عند جوليا ميخائيلوفنا، التي سبق أن عرفها في سويسرا على كل حال.

ومع ذلك فإن الدور الذي يلعبه في ذلك المنزل كان يبدو دوراً غريباً. فلقد كان هذا الشاب يوصف في الماضي بأنه ثوري. لا أدري صحيح أم لا! ولكن كان يُقال على وجه التأكيد إنه في الخارج قد اشترك في عدة مؤتمرات وساهم في إصدار بعض النشرات الهدّامة، "حتى ليتمكن البرهان على ذلك بالرجوع إلى صحف ذلك الزمان"، كما قال لي ذلك، في غيظ وحنق، ألبوشا تلياتيكوف الذي هو اليوم - وأسفاه! - موظف صغير محال على التقاعد، لكنه كان قبل ذلك أثير الحاكم السابق. ومع ذلك فهناك واقع قائم: هو أن هذا الثوري السابق لم يلق عند عودته إلى البلاد أية عقبة. حتى لقد استقبل فيها استقبالاً يشتمل على كثير من اللطف والمودة. ألا يمكن أن نستخلص من ذلك أن الشائعات التي راجت في حقه كانت باطلة؟ لقد همس لبيوتين في أذني يوماً أن بطرس ستيفانوفتش قد أدلى باعترافات كاملة، على ما يُقال، ونال عفواً بعد أن وشى بأسماء شتى، وإذ كُفّر بذلك عن ذنوبه وعد بأن يستمر على السير في الطريق القويم. وقد نقلت هذه الجملة المسموعة إلى ستيفان تروفيموفتش، فإذا هو يصبح شارد الذهن، مع أنه كان في تلك الآونة عاجزاً عن استجماع أفكاره. وقد علّم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش كان

مزوداً عند وصوله إلينا برسائل توصية وتزكية، ممهورة بأسماء محترمة ذات شأن كبير، وأن إحدى هذه الرسائل كانت موجهة إلى جوليا ميخائيلوفنا من عرابتها، وهي سيدة عجوز يُعد زوجها من أعلى شخصيات العاصمة مقاماً وأسماهم منزلةً. لقد كتبت هذه السيدة إلى جوليا ميخائيلوفنا أن الكونت ك...، وقد تعرف إلى بطرس ستيفانوفتش بواسطة ستافروجين، قد استقبله بترحيب، وأنه يعدّه "شاباً مليئاً بالسجايا الممتازة رغم أخطائه السابقة". وكانت جوليا ميخائيلوفنا تحرص حرصاً عظيماً على العلاقات النادرة التي عقدتها مع أصحاب الشأن الرفيع بجهود كثيرة. لذلك سرّتها رسالة السيدة العجوز سروراً كبيراً. ومع ذلك كان موقفها من بطرس ستيفانوفتش يبدو لنا على جانب كبير من الغرابة. ألم تكن تسمح له بأن يعامل زوجها معاملة خالية من الكلفة، وذلك أمر كان فون لمبكه يشكو منه مرّ الشكوى؟... على أنني سأعود إلى هذه النقطة فيما بعد. ويجب أن أضيف أيضاً، من باب الذكرى، أن كارمازينوف الشهير قد رَحَّب أكبر الترحيب، هو أيضاً، ببطرس ستيفانوفتش، ودعاه أن يزوره. إن هذه الحفاوة من جانب رجل يتصف بما يتصف به كارمازينوف من زهو وغرور قد جرح ستيفان تروفيموفتش أكثر مما جرحه أي شيء آخر. ولكنني فسّرت هذا الأمر لنفسني بسهولة: لقد تودد كارمازينوف إلى هذا الرجل الذي يدين بالمذهب العدمي، لما له من صلوات بالشبيبة الثورية في العاصمة. لقد كان هذا الكاتب الشهير يخاف من هذه الشبيبة خوفاً مرضياً، ويتخيل من جهله أنها قابضة بأيديها على مستقبل روسيا. لذلك كان يتملّقها في كثير من الهوان والصغار، لا سيما أنها كانت لا تحفل به ولا توليه أي اهتمام.

2

جاء بطرس ستيفانوفتش إلى أبيه مرتين. ومما أسفت له أسفاً كبيراً أنه جاء إليه أثناء غيابي عنه. فأماً المرة الأولى فبعد لقائهما عند فرفارا بتروفنا بأربعة أيام، ولم يكن لزيارته هذه من هدف إلا تصفية الحسابات المتعلقة بأرض

بطرس ستيفانوفتش. وقد انتهت هذه القضية بغير ضجة أو جلبة: تكفلت فرفارا بتروفتنا بكل شيء. دفعت المال للشاب، لكنها تملك الأرض طبعاً، واكتفت بأن أبلغت ستيفان تروفيموفتش أن المسألة قد سُويت تسوية نهائية. لقد حمل إليه خادمها الذي تثق به، وهو ألكسي إيجوروفتش، حمل إليه ورقة عليه أن يمهرها بتوقيعه، فوقّعها ستيفان تروفيموفتش صامتاً، بوقار شديد. يجب أن أقول بصدد الوقار أو الرصانة أو الكرامة أنني أصبحت لا أتعرف صاحبي القديم ستيفان تروفيموفتش: إن وضعه الآن يختلف عن وضعه السابق اختلافاً كبيراً. لقد أصبح شديد الصمت، وهو منذ يوم الأحد لم يكتب إلى فرفارا بتروفتنا رسالةً واحدة، وذلك أمر لو حدث في الماضي لعدده معجزة من المعجزات. غير أن الشيء الذي أدهشني أكثر من كل ما عده، إنما هو هدوءه. كان ستيفان تروفيموفتش قد اتخذ قراراً حاسماً وثبت عليه ثباتاً عنيداً. وهذا هو مصدر هدوئه. إنه الآن يضمّر فكرة، وينتظر الأحداث. على أنه قد شعر في البداية بأنه مريض. ففي يوم الإثنين اعترته نوبة إسهال يشبه أن يكون إسهال الكوليرا. ويجب أن أقول أيضاً أنه ظل لا يستطيع الاستغناء عن الأنباء التي كنت أنقلها إليه. ولكنه ما إن أترك الوقائع وأواجه جوهر المسألة وأجازف فأتصور بعض الافتراضات، حتى يومئ مهيباً بي أن أسكت.

ومع ذلك فإن اللقاءين اللذين تمّا بينه وبين ابنه قد تركا فيه أثراً أليماً موجعاً، لكنهما لم يثنياه عن عزمه. فما يكاد بطرس ستيفانوفتش يتركه حتى يستلقي على ديوانه ملفعاً رأسه بمنشفة مبلولة بالخل، محتفظاً مع ذلك بوضع هادئ وقور كريم.

وكان مع هذا يسمح لي أن أتكلم بعض الأحيان. حتى لقد كان يبدو لي عندئذ أن القرار السري الذي عقد عليه عزمه قد أخذ يضعف، وأن أفكاراً أخرى أخذت تفتنه وتغويه. وكان هذا التردد لا يدوم إلا لحظَةً، ولكنني أحرص على الإشارة إليه. أظن أنه كان في تلك اللحظات يشتهي أن يخرج من عزلته وأن يتحدّى وأن يخوض معركة أخيرة.

أفلت من لسانه في مساء يوم الخميس، بعد زيارة بطرس ستيفانوفتش الثانية:

- يا عزيزي، إنني أستطيع أن أبدهم جميعاً!...
كان ممتدداً على ديوانه، ملفعاً رأسه بمنشفة، ولم يكن قد وجّه إليّ كلمة واحدة طوال النهار. وتابع يقول:

- "ابني، العزيز"، وهلم جراً... أوافق على أن جميع هذه التعابير سخيفة فنية تليق بطباخة. أعترف بهذا أنا نفسي الآن. إنني لم أعطه شرباً ولا طعاماً. ولم يكن إلّا طفلاً رضيعاً حين شحنته من برلين بالبريد إلى ولاية ف... وهكذا! إنني أسلم بذلك. لقد قال لي: "أنت لم تُعنَ بها ولم تهتم بأمرى، وشحنتني بالبريد كما تُشحن صرة، وزدت على ذلك فنهبتني هنا". صرخت أقول له: "ولكنني أيها الشقي، رغم أنني شحنتك بالبريد، لم ينقطع قلبي عن أن ينزف دماً من الألم لك والحسرة عليك!". فضحك! لكنني أسلم... أسلم نعم... بالبريد شحنته.

بهذا ختم كلامه كمن يهذي.

وعاد يتكلم بعد خمس دقائق فقال:

- "دعنا" (بالفرنسية). إنني لا أفهم تورجنيف. إن بازاروف⁽¹⁾ في روايته شخصية وهمية لم توجد في يوم من الأيام. ألم يكونوا أول من نبذوه معلنين أنه يشبه شيئاً؟ إن بازاروف هذا خليط غير مفهوم من نوزدريوف⁽²⁾ ومن بايرون. "هذه الكلمة!" (بالفرنسية). انظر إليهم كيف يتدحرجون على الأرض مطلقين زعقات فرح، ككلاب صغيرة في الشمس! إنهم سعداء. إنهم ينتصرون. ما شأنهم وبايرون؟ ويا لها من تفاهة لا مذاق لها فوق ذلك! ويا له من غرور عامي سريع الاحتياج! ويا لها من حطة تزخر بها حاجة المرء هذه إلى "إحداث ضجة كبيرة حول اسمه" (بالفرنسية) دون أن يلاحظ أن "اسمه"

(1) "بازاروف": نموذج عديم وصفه تورجنيف في كتابه "الآباء والأبناء".

(2) "نوزدريوف": أحد شخوص كتاب جوجول "النفوس الميتة". هو شخص كذاب مدع متبجح.

(بالفرنسية)... رباها! يا لها من رسوم كاركاتورية! لقد صرخت أقول له: "هل يُعقل أن تطمع، وأنت ما أنت، في أن تقدم نفسك للناس بديلاً للمسيح؟".
"فضحك. إنه يضحك كثيراً." إنه يسرف في الضحك" (بالفرنسية) إن له ابتسامة غريبة. لم تكن أمه تبتسم تلك الابتسامة. "إنه يضحك دائماً" (بالفرنسية).

وساد الصمت من جديد.

ثم عاد يتكلم فقال:

- إنهم ماكرون. لقد تواطؤوا يوم الأحد.

فهتفت أقول متلقفاً الكرة بوثة:

- حتماً! لا شك في ذلك! لقد كانوا على اتفاق وتواطؤ. لقد نسجوا

مسرحيتهم نسجاً ثم أساءوا تمثيلها جداً.

- لا أقصد هذا. هل تعلم أنهم تعمدوا أن لا يجيدوا تمثيلها بغية أن يراها

أولئك الذين يجب أن يروها؟ هل تفهم؟

- "أفضل. دعنا." (بالفرنسية).

- "فلماذا ناقشته يا ستيفان تروفيموفتش؟

- "أردت أن أغيّر عقيدتي." (بالفرنسية). اضحك مني! "لسوف تسمع

هذه العمة أشياء كثيرة جميلة!". آه يا صديقي، هل تصدّق أنني شعرت منذ

قليل بأنني وطني؟ على كل حال، لقد كنت أحس دائماً أنني روسي!...

إن الروسي الحقيقي هو أنت، هو أنا. "إن ههنا شيئاً فيه عماوة، شيئاً مريباً"

(بالفرنسية).

- قطعاً.

- يا صديقي، إن الحقيقة الصادقة تكون دائماً غير قابلة لأن تصدّق. هل

تعلم ذلك؟ فإن شئت أن تجعل الحقيقة قابلة لأن تصدق عليك أن تضيف

إليها شيئاً من كذب حتماً. وذلك ما فعله الناس دائماً. ربما كان في ذلك كله

شيء لا نفهمه. ما رأيك؟ ألا يمكن أن يكون في زعقات الانتصار هذه شيء

لا نفهمه؟ أتمنى أن يكون الأمر كذلك. نعم أتمنى كثيراً.

لم أجبه. ولزم الصمت مدةً طويلة.

ثم دمدم يقول كأن به حمى:

- يقال إن المسؤول هو الفكر الفرنسي. كذبٌ ذلك. لقد كنا دائماً هكذا.

لماذا نتجنّى على الفكر الفرنسي؟ إنه كسلنا الروسي وحده، إنه عجزنا المهين المشين عن أن نخلق فكرة، إنها طفيليتنا الكريهة المنفّرة! "هؤلاء كسالى لا أكثر" (بالفرنسية). لا شأن للفكر الفرنسي بهذا. آه... يجب أن يُبادَ الروس لتحقيق خير الإنسانية لأنهم طفيليات ضارة. ليس هذا ما كنا نصبو إليه نحن، لا ليس هذا البتة! إنني لا أفهم شيئاً على الإطلاق. أصبحت لا أفهم. قلت له: هل تعلم أنك إذا جعلت القول الفصل للمقصلة، وبهذه الحماسة كلها أيضاً، فلا يكون ذلك إلّا لأن قطع الرقاب أسهل شيء، ولأنه لا شيء أصعب من أن يكون للمرء أفكار... "أنتم كسالى! رايتكم خرق بالية، شعاركم عجز..." (بالفرنسية). تلك العربات... أو ماذا يقولون؟... "جريان العربات التي تنقل الخبز الضروري للإنسانية" أنفع من مادونا كنيسة سيستو... "سخافة من هذا النوع" (بالفرنسية). صرخت أقول له، ألا تفهم، ألا تفهم أن الإنسان لا يحتاج إلى السعادة فحسب، يحتاج كذلك إلى الشقاء، ويحتاج إلى الشقاء كاحتياجه إلى السعادة سواء بسواء؟ فضحك. وقال: "أنت راقدهنا على ديوان من مخمل تلذذ بقول كلام منمّق" (حتى لقد استعمل تعابير أشد فظاظاً)... لاحظ أيضاً هذا التخاطب بصيغة المفرد بين أب وابنه. لقد كان يمكن التسامح في هذا لو كان ثمة وفاق، ولكن كيف يمكن التسامح فيه والأمر أمر شجار؟...

لزمنا الصمت لحظة.

ثم قال لي وهو ينتصب على حين بغتة:

- هل تعلم يا عزيزي أن هذا الأمر سينتهي حتماً بطريقة أو بأخرى؟

- لا شك في ذلك!

- "إنك لا تفهم. دعنا". العادة أن لا ينتهي شيء في هذا العالم. ولكن في

هذه الحالة سيكون ثمة نهاية، هذا مؤكد، مؤكداً قطعاً.

ونهبض، ومشى في الغرفة بضع خطوات مضطرباً أشد الاضطراب، ثم عاد إلى قرب الديوان فتهالك عليه مهدود القوى منهكاً.

في صباح يوم السبت ذهب بطرس ستيفانوفتش إلى مكان في المقاطعة لا أدري أين يقع. ثم لم يعد إلا مساء الإثنين. إن ليويتين هو الذي أنبأني بذلك. وروى لي أيضاً أن لبيادكين وأخته قد أقاما في مكان ما على الضفة الأخرى بضاحية مصانع الفخار. وأضاف يقول: أنا الذي توليت نقلهما إلى هناك. وترك هذا الموضوع بعد ذلك فأبلغني أن ليزافتا تقولايينا ستتزوج مافريكي تقولايفتش: ليس الأمر رسمياً بعد، ولكن الخطوبة حدثت وتم الأمر. وقد قابلت الآنسة في الغداة راكبة حصانها، يصحبها مافريكي تقولايفتش. هذه أول مرة تخرج فيها بعد مرضها. التمعت عيناها حين رأنتي، وابتسمت لي، وأومأت إليّ برأسها محيية تحيةً ودية لطيفة. نقلت هذا كله إلى ستيفان تروفيموفتش، فلم يكثر بالأنباء المتعلقة بلبيادكين وأخته أي اكتراث ولم ينتبه إليها أي انتباه.

والآن وقد وصفت الوضع المضطرب المشوش الذي تخبطنا فيه خلال ذلك الأسبوع، حين كنا لا نعرف بعد شيئاً، استأنف سرد قصتي عالمأ بحقائقها، فأعرض الأحداث كما تبدو لنا اليوم، بعد أن اتضح كل شيء، وبعد أن عرفنا أخيراً بواطن الأمور. سأبدأ باليوم الثامن الذي تلا ذلك الأحد المحتوم، أي بمساء يوم الإثنين، لأن ذلك المساء هو في الواقع بداية "القصة الجديدة".

3

هي الساعة السابعة من المساء. إن تقولاي فيسيفولودوفتش معتزل في حجرة مكتبه، الحجرة الأثيرة عنده. هي حجرة عالية السقف، تغطي أرضها سجادة، ويزينها أثاث ثقيل قليلاً، قديم الطراز. إنه جالس على ديوان، مرتد ثيابه كأنما ليخرج، ولكن لا شيء في وضعه يدل على أن في نيته أن يغادر الغرفة. وعلى المائدة الموجودة أمامه، مصباحٌ يتوجّه طربوش يسقط النور

إلى تحت. أمّا أركان الغرفة الواسعة وجدرانها فهي غارقة في الظل. كانت نظرة الشاب مركزة مهمومة. وكان وجهه الذي نحل قليلاً ينم عن تعب. وكانت خده متورمة بالفعل، لكن الناس قد بالغوا حين زعموا أن شاتوف كسر له أحد أسنانه: إن السن لم تزد على أن تخلّعت قليلاً، ثم ثبتت وعادت إليها صلابتها. وكذلك الشفة العليا التي شقتها لكمة قبضة اليد، فقد كانت تبدو ملتئمة التئاماً كاملاً، أمّا التورم المتقرح فقد استمر أسبوعاً كاملاً، لأن المريض رفض أن يعود الطبيب الذي كان يمكن أن يفصد القرحة، وآثر أن ينتظر انفتاحها من تلقاء ذاتها. وكان لا يكاد يقبل أن تزوره أمه مرةً في اليوم إلّا بكثير من العناد، على شرط أن لا تطول زيارتها أكثر من بضع دقائق، عند هبوط المساء قبل إشعال المصباح. ورفض أيضاً أن يستقبل بطرس ستيفانوفتش الذي جاء مع ذلك إلى فرفاراً بتروفنا مرتين أو ثلاث مرات قبل سفره إلى الريف. وحين عاد بطرس ستيفانوفتش من سفرته قام بزيارات كثيرة، وتعشى عند جوليا ميخائيلوفنا، وذهب في المساء إلى فرفاراً بتروفنا التي كانت تنتظره نافذة الصبر: لقد رُفع الحظر أخيراً، وأصبح نيقولاي فسيفولودوفتش يستقبل الزائرين.

تولت فرفاراً بتروفنا بنفسها اصطحاب الزائر إلى باب حجرة مكتب ابنها. لقد كانت تحرص على لقاءهما حرصاً شديداً، واستقطعت بطرس ستيفانوفتش عهداً على نفسه أن يمرّ بها حين خروجه من عند نيقولاي فسيفولودوفتش ليقصّ عليها ما جرى بينهما. فقرت الباب في خجل ووجل، وإذا لم تسمع جواباً سمحت لنفسها بأن تشق الباب شقاً خفيفاً، وقالت تسأل ابنها بصوت خافت وهي تحاول أن تبين تعبير وجهه وراء المصباح:

- نيقولاي، هل يمكنني أن أدخل عليك بطرس ستيفانوفتش؟

فهتف بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً في مرح:

- طبعاً، طبعاً...

وفتح الباب ودخل.

إن النقرات الخفيفة على الباب لم تكن قد لفتت انتباه نيقولاي

فسيفولودوفتش. وهو لم يسمع إلا السؤال الذي ألغته عليه أمه فر فاراً بتر وفنا. ولكن بطرس ستيفانوفتش دخل قبل أن يتاح لصاحبنا نيقولاى أن يجيب عن ذلك السؤال. وكان في تلك اللحظة يمسك رسالةً أنهى قراءتها منذ هنيهة، فأغرقته في تأملات عميقة. فيما سمع كلمات بطرس ستيفانوفتش ارتعش، وأسرع يخبئ الرسالة تحت كيس أوراق، ولكنه لم يفلح في إخفائها تماماً، فإن طرفاً من الرسالة ظل ظاهراً مرئياً مع ظرفها.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول مسرعاً بسداجة مدهشة:
- لقد تعمدت أن أصرخ بصوت عالٍ هذا العلو كله لأهب لك فرصة الاستعداد والتهيؤ.

وهرع نحو المائدة ونظر في طرف الرسالة بانتباه.
قال نيقولاى فسيفولودوفتش بهدوء دون أن يتحرك من مكانه:
- وقد اتسع وقتك طبعاً لأن ترى أنني أخفيت رسالة تحت مكبس الأوراق.

فصاح الزائر يقول: - رسالة؟ ما شأني أنا بالرسالة؟
ثم أضاف يقول خافضاً صوته ملتفتاً نحو الباب الذي كانت فر فاراً بتر وفنا قد أغلقته:

- ولكن... ولكن الشيء الرئيسي...
فقاطعه نيقولاى فسيفولودوفتش يقول له مطمئناً في برود:
- إنها لا تنتصت وراء الأبواب أبداً.
- هبها تنتصت... ليس لي أي اعتراض على هذا...
كذلك أسرع يجيب بطرس ستيفانوفتش في مرح، وهو يجلس على مقعد. ثم أضاف يقول:

- على أنني هُرعت إليك في هذه المرة لأكلمك على انفراد... أخيراً أراك! ولكن قل لي قبل كل شيء كيف حالك الآن؟ حسنة جداً فيما أرى. ولعلك تخرج غداً، هه؟

- ربما.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة مضحكة وهو يحرك يديه:
- هذّثهم أخيراً وخلصني! ليتك تعرف كل ما اضطررت أن أقوله لهم!
على أنك تعرف...
وانفجر ضاحكاً.

قال نيقولا ي فسي فولودوفتش:

- لا، لا أعرف شيئاً كثيراً. لكنني علمت من أمي أنك سعت وتحركت كثيراً...

فأجاب بطرس ستيفانوفتش محتجاً بقوة كأنما ليدفع عن نفسه اتهاماً رهيباً:

- لا، أنا لم أذكر أي شيء معيّن واضح. لقد تكلمت عن امرأة شاتوف، أعني عن الشائعات التي راجت عن علاقاتكما بباريس، وذلك أمر يمكن أن يفسر الحادث الذي وقع يوم الأحد... ألسنت غاضباً؟
- أنا واثق بأنك أرهقت نفسك كثيراً.

- ذلك ما كنت أخشاه. ولكن ماذا تعني هذه الجملة: "أرهقت نفسك كثيراً"؟ هذا لوم وتقريع. على كل حال فأنت تمضي إلى الموضوع رأساً. إن ما كنت أخشاه وأنا آتٍ إلى هنا، هو أن ترفض المضي إلى الموضوع مباشرة.
أجاب نيقولا ي فسي فولودوفتش بشيء من السخط:
- لا يخطر ببالي قط أن أمضي إلى الموضوع رأساً.
ولكنه سرعان ما ابتسم ابتسامة خفيفة.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يهز ذراعيه:

- لست أقصد هذا، لست أقصد هذا البتة. لا يخطئ ظنك!
وكان يتكلم بسرعة ما تنفك تزداد ويبدو كأنه سعيد جداً بحقن محدّثه، وتابع كلامه:

- لن أضايقك بقضيتنا "نحن"، خاصة في ظرفك الراهن. وإنما هُرعت إليك لأكلمك عن حادث يوم الأحد، وبالقدر الضروري فقط، ذلك أنه

يستحيل ترك الأمور على هذه الحال. لقد جئت لأقدم إليك إيضاحات صريحة. لست أنت المحتاج إلى هذه الإيضاحات بل أنا المحتاج إليها. أقول هذا إرضاء لك، ولكنه هو الحقيقة على كل حال. لقد جئت لأكون بعد اليوم صادقاً معك كل الصدق، صريحاً كل الصراحة.

- هل يعني هذا أنك لم تكن صريحاً من قبل؟

- تعرف ذلك أنت نفسك. كم مرة مكرت بك!... لكنني أراك تبتسم، وهذا يسعدني كثيراً، لأنه يتيح لي ذريعة للإيضاح. لقد تعمدت أن أستعمل كلمة "المكر" لأغضبك: كيف أبحت لنفسني أن أظن أن في إمكاني أن أمكر معك! إن هذا يهيب لي على الفور إمكان تقديم إيضاح. انظر كم أصبحت صادقاً! هل تريد أن تصغي إليّ؟

رغم ما كان واضحاً من أن الزائر يريد إثارة حنق ستافروجين بوقاحته وبسذاجاته المصنوعة المهيأة المحضّرة، فإن وجهه نيقولا فيسيفولودوفتش ظل هادئاً هدوء الاحتقار والازدراء بل والسخرية. ولكنه حين سمع الكلمات الأخيرة من أقوال بطرس ستيفانوفتش ظهر عليه شيء من حب الاطلاع بل وشيء من القلق.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك مزيداً من التحرك:

- أصغ إذن إليّ. حين وصلتُ إلى هنا، أقصد حين وصلت إلى هذه المدينة، منذ نحو عشرة أيام، كنت قد عزمت أمري طبعاً على أن أمثّل دور شخصية ما. ولعله كان من الأفضل أن لا أمثّل أي دور، وأن أكون أنا نفسي، ألا ترى هذا الرأي؟ لا شيء يساوي وجهك الخاص لأن أحداً لا يصدقه. أعترف لك بأنني كنت أنوي أن أمثّل دور الأهل، لأن تمثيل دور الأهل أسهل على المرء من إظهار وجهه الخاص. ولكن ولما كان الهبل مبالغاً سرعان ما تثير حب الاطلاع، فقد قررت أخيراً أن أظهر بوجهي الخاص. فماذا أنا على وجه الإجمال؟ أنا شخص عادي لست بالغبي ولا بالذكي، ولا أملك موهبة من المواهب، أي رجل من القمر كما يقول عقلاء الناس هنا، ليس هذا صحيحاً؟

أجاب ستافروجين وهو يتسم ابتسامة خفيفة:

-ربما!

-... ها أنت ذا توافقني على رأيي! إنني سعيد بذلك سعادة عظيمة كنت أعلم سلفاً أنك تفكر هذا التفكير وترى هذا الرأي... لا تقلق، لا تقلق، لست زعلناً. ولئن قلت هذا الكلام في حق نفسي، فإنني لم أفعل ذلك لأحملك على الإنكار والاحتجاج ولتقول لي: "بل أنت رجل ذو موهبة، وأنت رجل ذكي". آ... ها أنت ذا تبسم من جديد!... ها أنا ذا أضبط مرةً أخرى!... إنك لم يخطر ببالك أن تقول لي "بل أنت ذكي". إنني أقبل هذا، أقبله. "دعنا" (بالفرنسية)، على حد تعبير أبي. وإنني لأضيف إلى هذا مستطرداً بين قوسين: "لا يسوءك هذري. وفي هذه المناسبة، إليك مثلاً ممتازاً: إنني أكثر من الكلام دائماً، ورغم إكثاري هذا لا أصل إلى قول ما أريد قوله. ولماذا أستعمل كلمات كثيرة ثم لا أصل إلى أهدافي؟ لأنني لا أجيد الكلام. إن الذين يجيدون الكلام يتكلمون بإيجاز. ذلك يبرهن على أنني لست بذئ موهبة، أليس هذا صحيحاً؟ ولكن لما كان فقدان الموهبة عندي هبةً طبيعية فلماذا يكون عليّ أن لا أستعملها؟ إن الأفضل أن أستعملها. وذلك بعينه هو ما أفعله. صحيح أنني إذ وصلت إلى هنا كنت قد قررت في أول الأمر أن أصمت. ولكن الصمت يحتاج إلى موهبة كبيرة. فذلك إذن لا يناسبني. ثم إن الصمت خطر على كل حال. لهذا قررت أن الأفضل أن أتكلم، ولكن أن أتكلم بحماقة، أي أن أتكلم كثيراً، كثيراً، وأن أراكم جميع أدلتي وبراهيني وحججي بأقصى سرعة ممكنة فإذا أنا في آخر الأمر أخلط الحابل بالنابل بغية أن يتركني محدثي دون أن يصغي إلى النهاية، رافعاً منكبيه من الحيرة، أو حتى باصفاً على الأرض من الغضب. وهكذا تكون أولاً قد توصلت إلى إقناعه بصدقك، وتكون ثانياً قد جعلته يملّ منك، وتكون ثالثاً قد أعجزته عن فهمك. جميع المزايا في آن واحد. فمن ذا الذي يستطيع بعد هذا أن يظن فيك إخفاء أهداف سرية وأغراض خبيثة؟ لسوف يشعر كل إنسان بأنه أهين شخصياً إذا قيل له إن لي نيات خفية ومرامي مستترة. زد على ذلك أنني

أضحكهم من حين إلى حين، وذلك أمر له قيمة ثمينة. فإذا لاحظوا بذلك أن الرجل الخطر الذي كان يصدر في الخارج لا أدري أيّ نشرات ثورية، هو أغبى منهم، غفروا له كل شيء، لهذا السبب وحده. أليس ذلك صحيحاً؟ أقدر من ابتسامتك أنك توافقني على رأيي.

ولكن نيقولا يفسيفولودوفتش لم يكن يتسم البتة، بل كان على نقيض ذلك متجههم الوجه لا يخلو من تملل ونفاد صبر. - هيه؟ ماذا؟ أتقول "هذا لا يهم"!

كذلك استأنف بطرس ستيفانوفتش سائلاً بحرارة، مع أن نيقولا يفسيفولودوفتش لم يكن قد فتح فمه بكلمة واحدة. وتابع بطرس ستيفانوفتش يقول:

- أؤكد لك، نعم أؤكد لك أنني لا أقول هذا كله بغية تعريضك للإساءة إلى سمعتك بمصاحبتي. ولكن هل تعلم أنك اليوم شديد الاحتياج إلى حد رهيب؟ ما كان أغباني حين هرعت إليك سعيد النفس مفتوح القلب! ثم إذا أنت تشبه في كل كلمة من كلماتي. أؤكد لك أنني لن ألامس اليوم أي موضوع حساس حرج. لك عليّ عهد الشرف أن لا أفعل، وإنني أذعن سلفاً لجميع شروطك.

ظل نيقولا يفسيفولودوفتش ملتزماً الصمت في عناد.

- هيه؟ ماذا؟ هل قلت شيئاً؟ أرى أنني ارتكبت غلطة من جديد: إنك لم تفرض عليّ أيّ شرط. أصدقك! أطمئن بالاً أنا نفسي أعرف أنه لا حاجة إلى فرض شروط. أليس كذلك؟ ها أنت ذا ترى أنني أجيب عن كل أسئلتني نيابة عنك. وأنا أتصرف هذا التصرف لأنني غير ذي موهبة طبعاً. إن الموهبة تعوزني تماماً... أتضحك؟ كيف؟

قال نيقولا يفسيفولودوفتش أخيراً وهو يتسم:

- لا قيمة لهذا! لقد تذكرت أنني وصفتك فعلاً في ذات يوم بأنك غير ذي موهبة طبعاً. لكن ذلك كان في غيابي. أنقلوا إليك إذن هذا الكلام؟... أرجوك أن تنتقل إلى الموضوع بأقصى سرعة.

- ولكنني في قلب الموضوع. إنني أتكلم عما حدث يوم الأحد...
هكذا استأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه بمزيد من النشاط. وتابع كلامه فقال:

- كيف كان تصرفي يوم الأحد في رأيك؟ لا شك أنه كان تصرف شخص رجل غبي عاجز، وذلك ما أتاح لي أن أستولي على الحديث. لكنهم غفروا لي كل شيء، أولاً لأنني هابط من القمر، فهذا شيء يجمع الناس عليه هنا فيما أعتقد. وثانياً لأنني رويت قصة صغيرة جميلة، فأخرجتكم جميعاً من الارتباك والحرَج. أليس هذا ما حدث؟

- نعم، لكنك رويتها على نحو يدعو لبعض الشكوك أن تبقى، ويوهم بأن ثمة اتفاقاً وتواطؤاً بيننا، مع أنه لم يكن بيننا أي اتفاق أو تواطؤ، وأنني لم أكلّفك بأن تتدخل أبداً.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول مفتتاً كل الافتتان:

- تماماً، تماماً. لقد تصرفت على نحو يمكّنكم من أن تتروا جميع الخيوط. ومن أجلك أنت خاصة إنما أخذت أمثلاً، لأنني أردت أن أضبطك وأن أربكك. وأردت على وجه الخصوص أن أدرك مدى ما كان يعمل في نفسك من خوف.

- وددت لو أعرف أسباب صراحتك الآن!

- لا تغضب، لا تغضب، لا تنظر إليّ بعينين ساطعتين (على أنهما لا تسطعان)! تود لو تعرف لماذا أصبحت صريحاً هذه الصراحة كلها؟ ألا فاعلم إذن أنني إنما أصبحت كذلك لأن كل شيء قد تغير الآن، فالماضي قد انتهى، الماضي قد دُفن. غيّرت رأيي فيك فجأة. قطعت الصلة بمناهجي القديمة. لن أعرضك للارتباك بعد اليوم بطرائقي القديمة. إنني أسير في طريق جديدة.

- هل غيرت أسلوبك؟

- ليس الأمر أمر أسلوب. أنت الآن حر في أن تتصرف التصرف الذي يروق لك، أن تقول "نعم" أو أن تقول "لا". ذلك هو أسلوبي الجديد أمّا

"قضيتنا"، فإنني لن أتكلم عنها إلا حين تأمرني بذلك. أتضحك؟ على رسلك! أنا أيضاً أضحك. لكنني أتكلم الآن جاداً، جاداً، وإن يكن الرجل الذي يتسرع بوصف دائماً بأنه خال من كل موهبة! ولكن ليس يعني أن أكون ذا موهبة أو أن لا أكون ذا موهبة. إنني أتكلم جاداً، جاداً كل الجد.

لقد كان يتكلم جاداً بالفعل، كان يتكلم بلهجة مختلفة كل الاختلاف، وكان يبدو فريسةً لانفعال غريب عجيب، حتى أن نيقولا يفسيفولودوفتش ألقى عليه نظرة فيها كثير من الاستطلاع والدهشة.

- تقول إنك غيرت رأيك في؟

- نعم لقد تغيرت آرائي لحظةً عقدتَ يدك وراء ظهرك بعد صفقة شاتوف. ولكن كفى كفى، أرجوك. لا تسألني، فلن أقول شيئاً.

ونهض وهو يحرك ذراعيه كأنما ليدفع عنه أسئلة محدّته، ولكن لم يلق عليه محدّته أي سؤال، ولما كان بطرس ستيفانوفيتش لا يريد الانصراف بعد، فقد عاد يتهالك على مقعده هادئاً بعض الهدوء.

وسرعان ما عاد يتكلم فقال:

- بالمناسبة، يزعم بعضهم أنك سوف تقتله. حتى لقد قامت مراهنات حول هذا الموضوع. فخطر ببال السيدة لمبكه أن تبلغ الشرطة للتدخل في الأمر، غير أن جوليا ميخائيلوفنا منعتها من ذلك... ولكن كفى، كفى كلاماً عن هذا!... إن ما قلته الآن ليس إلا من باب المعلومات. هناك في هذه المناسبة شيء آخر: لقد رحّلتُ لبيادكين وأخته في ذلك اليوم نفسه. هل تعلم ذلك؟ هل تلقيت رسالتي مع عنوانها الجديد؟

- نعم.

- وذلك شيء لم أفعله إلا من باب "الحماقة". غير أنني فعلته لأسرّك، أقول هذا صادقاً كل الصدق. فلئن ارتكبت حماقة، لقد كانت نيتي مخلصه صادقة.

قال نيقولا يفسيفولودوفتش شارد الذهن:

- لعل ذلك كان ضرورياً... ولكن لا تبعث إليّ بعد الآن رسائل، أرجوك.

- كان يستحيل أن لا أفعل ما فعلت. وهذه آخر مرة.

- هل لبيوتين على علم بالأمر إذن؟

- كان لا بد أن أطلعته. ولكنك تعلم أنت نفسك حق العلم أن لبيوتين

لا يجرؤ... بالمناسبة: يجب أن نذهب إلى "جماعتنا"، أقصد "إليهم"، إلى "جماعتنا"، فلو قلتُ إلى "جماعتنا" لعدت تشاكسني وتناكدني. ولكن اطمئن بالآ. ليس اليوم. بل فيما بعد. في يوم من الأيام. السماء تمطر الآن، سوف أنبئهم، فيجتمعون فمضي نراهم في ذات مساء. إنهم هناك ينتظروننا فاتحين مناقيرهم كأفراخ غربان في أعشاشها، ليروا ما عسى نجيتهم به أو نحمله إليهم من عجائب المفاجآت. ما أشد حماسهم! إنهم يهثون كتبهم، ويستعدون للمناقشة. إن فرجنسكي من أشياع المذهب الإنساني. وإن لبيوتين من أنصار فورييه مع ميل قوي إلى الأساليب البوليسية. يجب أن أقول إنه رجل ثمين من بعض النواحي، ولكن يجب أن يراقب. ثم هناك الرجل الطويل الأذنين: إن هذا يُعدُّ نفسه لأن يشرح لنا مذهبه الخاص. وهم متضايقون من أنني أعاملهم معاملة طلبة بغير تحرج، وأنني أصب على حماسهم ماءً بارداً. هيء هيء! ولكن سيكون علينا أن نذهب إليهم قطعاً.

قال نيقولا فيسيفولودوفتش بإهمال وقلة اكتراث:

- لا شك أنك حدثتهم عني حديثك عن زعيم!

فألقي عليه بطرس ستيفانوفتش نظرة سريعة، ثم قال متظاهراً بأنه لم

يسمع السؤال، منتقلاً إلى موضوع آخر على الفور:

- بالمناسبة، لعلك تعلم أنني ذهبت إلى فرفاراً بتروفنا مرتين أو ثلاث

مرات، وإنني اضطررت أن أحكي لها أموراً كثيرة.

- أتخيل هذا.

- لا، لا، لا تخيل شيئاً. كل ما قلته هو أنك لن تقتل شاتوف، وقلت لها

أشياء أخرى من هذا النوع. ولكن هل تتصور أنها منذ الغداة كانت تعلم أنني

أسكنت ماريا تيموفيتفنا وراء النهر. أنت الذي ذكرت لها هذا؟

- لم يخطر ببالي أن أفعل.

- قدّرت ذلك. ولكن من عساه قال لها هذا الأمر؟

- ليويتين طبعاً.

- لا، ليس ليويتين.

كذلك دمدم يقول بطرس ستيفانوفتش وقد ظهرت في وجهه علائم
انشغال الفكر على حين فجأة. وتابع يقول:

- ولكنني سأعرف من الذي قال لها ذلك. لعله شاتوف!... على كل حال،
دعنا من هذه السخافات... ولكن الأمر خطير إلى أبعد حدود الخطورة مع
ذلك!... بالمناسبة: كنت أنتظر طول الوقت أن تلقي عليك أمك السؤال
الرئيسي فجأة... نعم!... لقد كانت تبدو في جميع هذه الأيام الأخيرة
مهمومة البال مظلمة الوجه، فماذا وجدت حين وصلت إليها اليوم؟ رأيته
مشركة المحيا منبسطة الأسارير. ما معنى هذا؟

- مرد ذلك إلى أنني وعدتها اليوم بأن أخطب ليزافتا نيقولايفنا بعد خمسة
أيام.

هذا ما أفلت من لسان نيقولايف فيسيفولودوفتش بصراحة لم تكن متوقعة.

تمتم بطرس ستيفانوفتش يقول متلعثماً كالمرتبك:

- آ... نعم... في هذه الحالة مهم حتماً.. هل تعلم أن الناس يتحدثون
اليوم عن خطوبته؟ ولكنك على حق. لسوف تترك الآخر عند أول نداء منك،
حتى ولو كانت في تلك اللحظة بالكنيسة أمام الكاهن الذي يعقد قرانها على
الآخر. ألسنت مستاء مني لأنني أقول هذا الكلام؟
- لا.

- ألاحظ أن إغضابك اليوم أمر صعب جداً، لقد بدأت أخاف منك. لشدة

ما يشوقني أن أعرف ما هو الوضع الذي ستتخذه غداً حين تظهر.

لا بد أنك هيأت منذ الآن حيلاً كبيرة. هل تزعل من كلامي بهذه الطريقة؟

لم يجب نيقولايف فيسيفولودوفتش، فكان من شأن ذلك أن رفع حق

بطرس ستيفانوفتش إلى ذروته. قال:

- بالمناسبة: هل جدّ ما قلته لأملك في موضوع ليزافتا نيقولايفنا؟

فحدّق إليه نيقولاي فسيفولودوفتش بنظرة باردة.

- آ... فهمت. أنت لم تقل لها ذلك إلا لتهديتها.

- فماذا لو كان ما قلته جداً لا هزلاً؟

كذلك سأله نيقولاي فسيفولودوفتش بلهجة قاطعة.

قال بطرس:

- طيب. سأقول لك: كان الله في عونك، على حد التعبير الشائع. إن هذا

لن يلحق ضرراً بالقضية (ها أنت ذا ترى أنني لا أقول "بقضيتنا"، فأنت لا

تحب هذا الضمير "نا").. أمّا أنا... فإنني... فإنني.. في خدمتك... تحت

أمرك.. كما تعلم...

- أتظن؟

- لا أظن شيئاً، لا أظن شيئاً على الإطلاق...

كذلك أسرع يقول بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً. وتابع كلامه يقول:

- لأنني أعلم أنك تتبأ بجميع تفاصيل شؤونك الشخصية، وأن كل شيء

عندك معيّن محدّد. لكنني أريد أن أقول لك إنني تحت أمرك، صادقاً مخلصاً،

في كل وقت وفي كل مكان، وفي جميع الظروف، والمناسبات، نعم، جميع

الظروف والمناسبات، هل تفهم؟

تثاءب نيقولاي فسيفولودوفتش.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض بغتة:

- ضجرت مني.

وتناول قبعته المدوّرة، الجديدة كل الجدة، كأنما لينصرف. لكنه لم

ينصرف وظل يتكلم بغير توقف. وكان من حين إلى حين يمشي في الغرفة

بضع خطوات، لا طمأ ركبته بقبعته.

وهتف يقول مرحاً:

- كنت أنوي أيضاً أن أروي لك بعض النواذر المضحكة عن أسرة لمبكه.

- لا، أرجئ هذا إلى مرة أخرى. ولكن بالمناسبة: كيف صحة جوليا

ميخائيلوفنا؟

- ما أغرب العادات الاجتماعية الراقية؟ فيم تهملك صحة جوليا ميخائيلوفنا؟ وها أنت ذا مع ذلك تسأل عنها. يعجبني هذا. إن صحتها حسنة، وهي تحمل لك احتراماً يمضي إلى حد الإيمان بالخرافات. إنها تنتظر منك أموراً عظيمة جليلة! أما عمّا حدث يوم الأحد، فهي لا تقول كلمة واحدة، لاقتناعها بأنه يكفيك أن تظهر للناس حتى تنتصر على جميع أعدائك. يميناً إنها لتتخيل قدرتك غير ذات حدود. ثم إن شخصيتك أصبحت الآن أكثر إيغالا في السر وأقرب إلى عالم الخيال والروايات مما كانت في الماضي أيضاً. ظرف ملائم جداً. جميع الناس ينتظرون وقد نفذ صبرهم إلى حد الجنون. كانت أذهانهم ملتهبة متأججة حين تركتهم. وهي الآن أكثر التهاباً وتأججاً. بالمناسبة: شكراً على الرسالة، مرة أخرى. إنهم جميعاً يرهبون الكونت ك... رهبة فظيعة. هل تعلم أنهم ينظرون إليك، فيما أظن، نظرهم إلى جاسوس؟ وأنا أشجعهم على هذا الظن. هل يسوءك هذا مني؟

- لا.

- هذا هام جداً للمستقبل. إن لهم هنا أفكارهم. وأنا أشجعهم عليها طبعاً. في طبيعتهم جوليا ميخائيلوفنا. ثم جاجانوف... أتضحك؟ إن لي خطتي وأسلوب، إن لي "تكتيكي": أتكلم، وأتكلم، ثم أقذف بفكرة ذكية فجأة، في اللحظة التي يتوقعونها جميعاً. فيحتشدون حولي، وأستأنف ثرثرتي وهذري. لذلك لا يكرهني أحد الآن. هم يقولون: "هذا شاب موهوب، لكنه هابط من القمر، لمبكه يقترح عليّ أن أتوظف، ليصلح حالي. ليتك تعلم كيف أعامله! إنني أعرضه للمشاكل فيشده شدهاً شديداً حتى ليصعق صعقاً. أمّا جوليا ميخائيلوفنا فإنها تشجعني. بالمناسبة: جاجانوف حاقد عليك جداً. أمس، في دوخوفو، قال لي عنك كلاماً سيئاً جداً. فشرحت له الحقيقة كلها فوراً، أقصد: جزءاً من الحقيقة طبعاً، قضيت عنده يوماً كاملاً. أطيان رائعة، منزل جميل!

- كيف؟ أما يزال إذن في دوخوفو؟

كذلك سأل نيقولا في سيفولودوفتش وهو ينتصب على ديوانه فجأة بحركة قوية.

أجاب بطرس ستيفانوفتش بإهمال، متظاهراً بأنه لم يلاحظ الانفعال المفاجئ الذي اعترى ستافروجين:

- لا، عاد بي هذا الصباح. رجعنا معاً. هه. أسقطت كتاباً.

وانحنى على الأرض ليتناول الكتاب. وأردف:

- كتاب "النساء"، تأليف بالزك، مع صور.

وفتح الكتاب قائلاً:

- لم أقرأ هذا الكتاب. إن لمبكه يكتب روايات أيضاً.

سأله نيقوي فسيفولودوفتش كأن الأمر يهمه:

- حقاً؟

- بالروسية؟ وخفيةً طبعاً. ثم إن جوليا ميخائيلوفنا تعرف ذلك وتسمح له

به. يا للرجل العاجز! غير أن له مظهراً قوياً: إنها عادة السلطة. ما أشد حرص

هؤلاء الناس على مهابة التقاليد. ما أقوى تقيدهم بالقواعد ومراعاتهم

للأشكال! ذلك ما ينقصنا نحن.

- أتتغنى بمدح رجال الحكم؟

- هذا هو الشيء الوحيد المتقن في روسيا.

وأسرع يهتف:

- لكنني لن أضيف كلمة أخرى، لن أضيف كلمة أخرى، لن أقول كلمة

واحدة في هذه الأمور الحرجة الشائكة!... وأنا منصرف على كل حال. ما

هذا التجهّم في هيئتكم؟

- بي حمّى.

- ظاهر هذا عليك. يجب أن ترقد. بالمناسبة: يوجد في المقاطعة أناس من

"ملة الخصيان"⁽¹⁾ إن أمرهم لعجيب جداً. سوف أحدثك عنهم فيما بعد. ولكن

هناك حكاية أخرى صغيرة. غير بعيد من هنا، يوجد لواء مدفعية. ويوم الجمعة،

في ب...، سكرنا مع الضباط، إن بينهم ثلاثة من أصدقائنا، هل تفهم؟ تكلمنا

(1) "ملة الخصيان": ملة صوفية يسمى أصحابها بالروسية "سكوتزي"، وهم يارسون خصي أنفسهم نشداناً للكمال الأخلاقي.

في الإلحاد، فأجهزنا على الله طبعاً. بالمناسبة: يؤكد شاتوف أننا إذا أردنا أن نقوم ثورة في روسيا، فيجب أن نبدأ حتماً بالإلحاد. ربما كان هذا صحيحاً. كان هناك كابتن أشيب الشعر، جندي قديم عجوز، لم يكن يقول شيئاً. فها هو ذا ينهض فجأة، ويقف في وسط الغرفة كعمود، ويأخذ يقول كمن يخاطب نفسه، "إذا كان الله غير موجود، فما معنى رتبة الكابتن التي أحملها؟". وها هو ذا بعد ذلك يأخذ قبعته، ويرفع منكبيه متحيراً، ويخرج.

قال نيقولا في سيفولودوفتش وهو يتثاءب للمرة الثالثة:

- لقد عثر بذلك على فكرة صحيحة.

- حقاً؟ إنني لم أفهم وقد أردت أن أسألك. ماذا أحكي لك أيضاً؟ آ... نعم... إن مصنع آل شيبجولين هام جداً. إن فيه كما تعلم خمسمائة عامل. هو بؤرة كوليرا. إنه لم ينظف منذ خمسة عشر عاماً، وإن أصحابه، وهم من ذوي الملايين، يسرقون من أجور العمال. أؤكد لك أن بعض هؤلاء العمال عندهم فكرة عن "الأممية"⁽¹⁾ لماذا تبسم؟ سوف ترى. أمهلني بعض الوقت فقط، بعض الوقت. سبق أن طلبت منك مهلة. وإنني لأطلب منك مهلة ثانية، وعندئذ... معذرة على كل حال. ها أناذا أصمت. ها أناذا أصمت، لا تقطّب حاجبيك. وها أناذا أنصرف أيضاً. ولكن...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو يعود أدراجه، وتابع كلامه:

- نسيت الشيء الأساسي: لقد أبلغت منذ قليل أن صندوقنا وصل من بطرسبرج.

سأله نيقولا في سيفولودوفتش مدهوشاً:

- صندوقنا؟

- أقصد صندوقك مع أمتعتك وثيابك وسراويلك وملابسك الداخلية.

- هل وصل؟

- نعم، قيل لي ذلك منذ قليل.

(1) هل من حاجة إلى التذكير بأن "الرابطة الأممية للعمال" ("الأممية الأولى")، إنها أسسها كارل ماركس بلندن سنة 1864؟

- ألا يمكننا والحالة هذه...

- أسأل الكسي.

- إذن في الغد، أليس كذلك؟ إن بين أمتعتك سترة ورداء وثلاثة بنطلونات

صنعها لي شارموف وفقاً لطلبك. هل تذكر ذلك؟

قال نيقولا في سيفولودوفتش مبتسماً:

- سمعت أنك تتألق هنا وتتبع الموضة. هل صحيح أنك تريد أن تأخذ

دروساً في ركوب الخيل؟

فتقلصت شفتا بطرس ستيفانوفتش ابتسامة. ودمدم يقول بصوت متقطع

مختلج:

- اسمع يا نيقولا في سيفولودوفتش، لا نصطنعُ هنا أوضاع شخصيات.

لنتفق على هذا مرة واحدة إلى الأبد، هه؟ في وسعك أن تحتقني ما شئت ما

ظل ذلك يسرُّك ويسلِّيك، ولكن من الأفضل أن ندع هنا أدوار الشخصيات،

ولو إلى حين على الأقل، أليس كذلك؟

أجابه نيقولا في سيفولودوفتش بقوله:

- طيب. لن أفعل هذا بعد الآن.

فابتسم بطرس ستيفانوفتش ابتسامة صغيرة. ولطم ركبته بقعته، ومشى

بضع خطوات، واسترد هيئته المعهودة.

- يذهب بعضهم حتى إلى اعتباري منافساً لك على ليزافتا نيقولايفنا.

فكيف تريد مني أن لا أعنى بحسن هندامي؟

كذلك قال بطرس ضاحكاً ثم أضاف يسأل:

- ولكن من ذا الذي يأتيك بهذه الأخبار؟ هم... إن الساعة قد بلغت الثامنة

تماماً. هياً! أنا ذاهب. لقد وعدت فرفاراً بتروفا بأن ألقاها. ولكنني أعدل

الآن عن ذلك. وأنت، يجب عليك أن ترقد. ستتحسن غداً. الجو مظلم في

الخارج، والسماء تمطر. ولكن عندي عربة. الطرقات في الليل غير مأمونة.

آ... بالمناسبة: يحوم هنا حول المدينة رجل يقال له فدكا، هو سجين محكوم

عليه بالأشغال الشاقة، هرب من سيبيريا. إنه أحد أقناني القداماء. تصور أن

أبي احتاج يوماً إلى مال فباعه جندياً منذ خمس عشرة سنة. شخص نادر حقاً.
سأل نيقولا في سيفولودوفتش زائرته وهو يرفع نحو عينيه:
- هل ... هل كلمته؟

- نعم. إنه لا يختبئ عني. وهو مستعد لكل شيء، لكل شيء، في
سبيل المال طبعاً. غير أن له اقتناعاته كذلك، على طريقته الخاصة بطبيعة
الحال! ... نعم ... بالمناسبة: إذا كان ما قلته منذ قليل عن مشاريعك
المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا جَدّاً، لا هزلاً، فإنني أذكرك مرة أخرى بأنني أيضاً
مستعد لكل شيء في سبيلك، في جميع الظروف والمناسبات، على النحو
الذي تتصوره وتريده. أنا في خدمتك ... ماذا بك؟ أتبحث عن عصاك؟ ...
لا ... تصوّر أنني ظننت أنك تبحث عن عصاك.

لم يكن نيقولا في سيفولودوفتش يبحث عن شيء ولا كان يقول كلمة
واحدة، لكنه قد انتصب فجأة، وظهر في وجهه تعبير غريب.
قال بطرس ستيفانوفتش وهو يشير بغير تحرّج إلى الرسالة والظرف
اللذين كانا تحت مكبس الورق:

- وإذا احتجت أيضاً إلى مساعدتي في مسألة جاجانوف، فأنا أنبئك بأنني
أستطيع أن أرتب الأمور، وفي تقديري أنك ستستعين بي.
قال هذه الكلمات وخرج دون أن ينتظر جواب ستافروجين، ولكنه لم
يلبث أطل برأسه من الباب المشقوق وصرخ يقول متعجباً:
- أقول لك هذا لأن شاتوف لم يكن من حقه كذلك أن يجازف بحياته يوم
الأحد حين اقترب منك، أليس كذلك؟ أحب أن تحفظ هذا جيداً.
وغاب.

4

لعل فرخوفنسكي كان يتخيل حين خرج أن نيقولا في سيفولودوفتش متى
خلا إلى نفسه، سيدمر كل شيء من حوله. ولعله تمنى أن يشهد نوبة الحقن
المسعور هذه. لأن ظنه قد خاب: فإن نيقولا في سيفولودوفتش ظل هادئاً.

وقد لبث واقفاً قرب المائدة دقيقة أو دقيقتين، على وضعه نفسه لم يغيّره،
شارد اللب ذاهل الهيئة. ثم تقلصت شفتاه بابتسامة جهمة باردة. وجلس على
الديوان بهدوء، في ذلك المكان نفسه من ركن الغرفة وأغمض عينيه كأنه
يشعر بتعب. وكانت الرسالة ما تزال تظهر من تحت مكبس الورق، لكنه لم
يقم بأية حركة لإخفائها.
ولم يلبث أن غفا.

لم تستطع فر فارا بتروفا التي كان يرهقها القلق منذ عدة أيام، لم تستطع
أن تقاوم الرغبة في رؤية ابنها، فلما علمت أن بطرس ستيفانوفتش قد انصرف
رغم الوعد الذي قطعه لها بأن يجيء، قررت أن تأتي لرؤية ابنها، رغم أن
الوقت غير مناسب، فلعله يكلمها أخيراً بوضوح وحسم. فقررت على بابه
وجلّى، كما فعلت من قبل، فلما تفز بجواب، دخلت، فرأت ابنها جامداً
جموداً غريباً، فاقتربت منه واجفة القلب بخطى خفيفة. إن الشيء الذي
أدهشها هو أنه نام بمثل هذه السرعة بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش، وأنه
استطاع أن ينام على وضع غير مريح، منتصب الجذع، ساكناً سكوناً تاماً،
إن أنفاسه لا تكاد تُسمع، وإن وجهه شاحب قاس كأنه متجمّد، وإن حاجبيه
مقطبان تقطيباً خفيفاً. لقد كان في تلك اللحظة يشبه وجهاً من الشمع لا حياة
فيه حقاً.

لبثت الأم مائلة على ابنها هكذا بضع لحظات، حابسةً أنفاسها، ثم إذا هي
تشعر فجأة بخوف. فابتعدت سائرة على رؤوس الأصابع، لكنها توقفت عند
العتبة، والتفتت صوبه، ورسمت على النائم إشارة الصليب بسرعة، وتركت
الغرفة مثقلة القلب بغم جديد.

ظل نيقولا في سيفولودوفتش غارقاً في هذا الغفو أكثر من ساعة. ما
من عضلة في وجهه ارتجفت، ما من خلجة في جسمه ظهرت. وحافظ
وجهه على عبوسه وقسوته. فلو بقيت فر فارا بتروفا بضع دقائق أخرى
لما استطاعت حتماً أن تحتل هذا الشعور الساحق بأن ابنها جامد جموداً
الإغماء، ولأيقظته حتماً.

وها هو ذا يفتح عينيه من تلقاء نفسه، ولكنه يظل جامداً نحو عشر دقائق أخرى، محدّقاً ببصره، في عناد وإصرار، إلى ركن من الغرفة كأنه يتبين فيه شيئاً غريباً ما، مع أنه ليس في ذلك المكان أي شيء يلفت النظر. وأخيراً انطلقت ساعة الحائط الضخمة تدق بصوتها الرقيق العميق. فلفت نيقولا في سيفولودوفتش رأسه إليها بشيء من القلق، ولكن الباب الذي يفضي إلى الدهليز انفتح في تلك اللحظة نفسها ودخل منه رئيس الخدم ألكسي إيجورتش. كان يحمل على ذراعه اليسرى معطفاً وشالاً وقبعة، ويمسك باليد اليمنى صينية من الفضة عليها رسالة. قال ألكسي إيجورتش بصوت خافت وهو يضع الملابس على كرسي: - الساعة هي التاسعة والنصف.

وقدّم لمولاه رسالة غير مغلقة، لا تضم إلا سطرين مكتوبين بالقلم الرصاص.

فلما قرأ نيقولا في سيفولودوفتش الرسالة، تناول من على المائدة قلم رصاص، وخطّ بضع كلمات في أسفل الرسالة ووضع الرسالة على الصينية، وقال لخادمه وهو ينهض عن ديوانه:

- سلّمها بعد خروجي فوراً. والآن ساعدني في ارتداء ملابسي. وإذا لاحظ أنه يرتدي سترة خفيفة من مخمل، فكّر لحظة، ثم أمر أن يؤتى بردنجوت من جوخ كان يرتديه ليخرج إلى المدينة في المساء. حتى إذا انتهى من العناية بزينتته وهندامه، وضع على رأسه قبعته، وأغلق بالمفتاح الباب الذي كانت قد دخلت منه أمه، واستلّ الرسالة التي كان قد خبأها تحت مكبس الورق، وخرج إلى الدهليز صامتاً، يتبعه ألكسي إيجورتش. وعن طريق سلّم حجري ضيق، وصلا إلى مخرج يفضي رأساً إلى الحديقة وقد أعدّ فيه مصباح ومظلة كبيرة.

قال ألكسي إيجورفتش محاولاً بذلك، مرةً أخيرة، أن يثني عزم مولاه عن القيام بالرحلة التي كان يزعم القيام بها: - لقد هطلت الأمطار غزيرة حتى ليكاد يستحيل المرور في الشوارع.

ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش نشر مظلمته دون أن يجيب، ومشى في الحديقة العتيقة المظلمة كأنها كهف. وكانت الريح تصفر، وتهز رؤوس الأشجار التي كادت تعرى من أوراقها منذ ذلك الحين. والممرات الضيقة المفروشة بالرمال متزلقة لزجة.

وتبع ألكسي إيجورفتش مولاه ينير له الطريق، سائراً وراءه بثلاث خطوات، لابساً رداء الفراك، عاري الرأس، كما دخل عليه منذ برهة. قال نيقولاى فسيفولودوفتش يسأل:

- لا يمكن أن تُرى؟

- يستحيل أن يُرى من النوافذ شيء. ثم إن جميع الاحتياطات قد اتخذت. كذلك أجاب الخادم بصوت هادئ ولهجة موزونة.

قال نيقولاى:

- هل نامت أمي؟

فأجاب الخادم:

- اعتصمت بغرفتها في الساعة التاسعة تماماً، على عاداتها منذ أيام.

ثم أضاف يسأل مولاه متجرباً:

- في أي ساعة يجب أن أنتظر عودتك؟

- الواحدة، الواحدة والنصف، الثانية في أكثر تقدير...

- أمرك مطاع.

فبعد أن قطعاً الحديقة كلها تقريباً بطرق متعرجة يعرفانها كلاهما معرفة جيدة، وصلاً إلى السور الحجري، ووجدوا الباب الذي يفضي إلى شارع صغير مظلم ضيق، وهو باب يظل مقفلاً بالمفتاح في جميع الأحيان ولكن هذا المفتاح موجود الآن في يدي ألكسي إيجورتش.

قال نيقولاى فسيفولودوفتش:

- آمل أن لا يُسمع للباب صرير.

فأجابه ألكسي إيجورتش بأنه قد زَيَّته أمس، و"زَيَّته اليوم أيضاً"، فهو مبتل بالزيت ابتلاً تاماً، فلا يمكن أن يكون له صرير. حتى إذا فتح ألكسي

الباب بالمفتاح، مدّه إلى نيقولا في سيفولودوفتش الذي أخذه منه.

- إذا كان مولاي يتتوي الذهاب إلى مكان بعيد، فإنني أسمح لنفسى بأن ألقت نظر مولاي إلى الناس هنا لا يؤمن شرهم كثيراً، ولا سيما أولئك الذين يحومون في الشوارع الصغيرة النائية، وعلى الشاطئ الآخر من النهر خاصة. كذلك قال الخادم وقد عجز عن الامتناع عن إبداء هذه الملاحظة. إنه خادم عجوز كان قد حمل نيقولا في سيفولودوفتش على ذراعيه، وهو إنسان كثير الجد، بل هو أميل إلى الصرامة، ولا ينفك يقرأ الكتب المقدسة.

أجابه نيقولا في سيفولودوفتش قائلاً:

- لا تقلق يا ألكسي إيجورتش!

- باركك الله يا سيدي، على شرط أن تفعل خيراً.

- كيف؟

كذلك قال نيقولا في سيفولودوفتش متوقفاً على حين فجأة بعد أن اجتاز العتبة.

فكر ألكسي إيجورتش كلامه بصوت ثابت، متمنياً له أن يباركه الله على شرط أن يفعل خيراً. لم يجرؤ ألكسي إيجورتش في يوم من الأيام قبل الآن أن يتمنى لمولاه أن يباركه الله، بعبارة كهذه العبارة.

أغلق نيقولا في سيفولودوفتش الباب، ودسّ المفتاح في جيبه، وسار متعشراً بالوحل في شارع صغير أفضى به إلى شارع طويل خال مقفر لكنه مرصوف. كان ستافروجين يعرف المدينة معرفة جيدة، غير أن شارع أيفانا بعيد عن منزله كثيراً، لذلك كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين وقف أخيراً أمام بوابة منزل فيلييوف، المغلقة في تلك الساعة من الوقت. إن الطابق الأرضي غير مسكون منذ رحيل لبيادكين وأخته، ولقد سُدَّتْ نوافذه بألواح من خشب، غير أن المسكن الذي يقع تحت السقف، وهو المسكن الذي يقيم فيه شاتوف، كان مضاءً. وإذا لم يكن ثمة جرس فقد قرع نيقولا في سيفولودوفتش الباب بقبضة يده عدة قرعات، ففتحت طاقة صغيرة أطل منها شاتوف محاولاً أن يتعرف الزائر. ولكن الظلمات كانت أكثف من أن

يستطيع شاتوف رؤية شيء. فقال بعد دقيقة يسأل:

- أهذا أنت؟

فأجابه الزائر غير المنتظر:

- نعم، أنا!

فأغلق شاتوف الطاقة، ونزل، وفتح الباب.

اجتاز نيقولا في سيفولودوفتش العتبة، ومراً صامتاً أمام شاتوف، واتجه رأساً نحو الجناح الصغير الذي كان يشغله كيريلوف.

5

كل الأبواب هنا مفتوحة على آخر مداها. حجرة المدخل والغرفتان الأوليان مظلمتان، لكن الغرفة الأخيرة التي يسكنها كيريلوف، والتي يحتسي فيها الشاي الآن، كانت مضاءة، وكانت تخرج منها ضحكات وصيحات عجيبة. مضى نيقولا في سيفولودوفتش نحو النور، ولكنه توقف على العتبة. كان الشاي مصبوباً في الفناجين. وفي وسط الغرفة كانت تقف امرأة عجوز هي قريبة فيلييوف. إنها حاسرة الرأس، عارية القدمين في حذاءيها، لا ترتدي إلا تنورة وصديرة من جلد الأرنب، وعلى ذراعيها طفل في نحو الشهر الثامن عشر من عمره، يلبس قميصاً لكنه عاري الساقين. خداه حمراوان قرمزيان، وشعره الأشقر منفوش مشعث فكأنه رُفع الآن من مهده. لا بد أنه بكى كثيراً، فإن دموعاً صغيرة ما تزال تتلألأ على أهدابه. ولكنه في هذه اللحظة يحرك يديه الصغيرتين ويضحك ضحك الأطفال الصغار حتى ليكاد يختنق من شدة الضحك. ذلك أن كيريلوف كان واقفاً أمام الطفل يرمي على أرض الغرفة كرة كبيرة حمراء، فتنت الكرة إلى السقف، وتعود لتسقط على الأرض، فيصيح الطفل "بَه.. بَه!" فيلتقط كيريلوف ال "بَه"، ويناولها الطفل فيرميها الطفل بيديه الصغيرتين الخرقاوين، فيركض كيريلوف وراءها، ويلتقطها، حتى إذا تسلت الكرة مرة تحت الخزانة، أخذ الطفل يصيح "بَه.. بَه"، فانبطح كيريلوف على بطنه ومطاً جسمه محاولاً التقاط الكرة، وعندئذ

دخل نيقولا في سيفولودوفتش إلى الغرفة، فإذا الطفل يطفق منتحباً حين رآه، وإذا هو يندسّ في صدر العجوز التي أسرع تنصرف به.

قال كيريلوف وهو ينهض عن الأرض والكرة بيده، دون أن يبدو عليه أي دهش لهذه الزيارة غير المتوقعة:

- ستافروجين؟ هل تريد شايًا؟.

- لا أرفض، ولا سيما إذا لم يكن بارداً. إنني مبتل بالماء كل الابتلال.

قال كيريلوف بسعادة واضحة لا تخفى على الناظر:

- الشاي ساخن، بل هو محرق. اجلس. لقد حملت إلينا وحلاً. ولكن لا ضير. سأنظفه بخارقة مبلولة.

جلس نيقولا في سيفولودوفتش، وشرب الشاي الذي صبّه له كيريلوف، شربه جرعة واحدة تقريباً.

سأله كيريلوف:

- هل لك بمزيد؟

- شكراً.

كان كيريلوف قد ظل حتى ذلك الحين واقفاً، فجلس عندئذ أمام الزائر وسأله:

- ماذا جاء بك؟

- جئت لشأن. اقرأ هذه الرسالة. لقد بعثها إليّ جاجانوف. هل تتذكر؟ لقد

سبق أن حدثتك عن هذا في بطرسبرج.

تناول كيريلوف الرسالة وقرأها ثم وضعها على المائدة ونظر إلى

ستافروجين نظرة استفهام.

بدأ نيقولا في سيفولودوفتش يتكلم فقال:

- تعلم أنني رأيت هذا الرجل أول مرة في بطرسبرج منذ شهر تقريباً. ثم

التقينا في المجتمع مرتين أو ثلاث مرات. ولم نتعارف، ولم يوجه إليّ كلمة

واحدة في يوم من الأيام، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون وقحاً معي. ذكرتُ

لك هذا في حينه. لكنك لا تعرف التهمة. فحين بارح بطرسبرج قبلي بمدة

قصيرة بعث إليّ رسالة إن كانت أقل فظاظة من هذه فإنها شرسة جداً على كل حال، وقد أدهشتني كثيراً لا سيما وأنتي حاولت أن أعثر فيها على الأسباب التي دفعتك إلى كتابتها إليّ فلم أظفر بباطل. وسرعان ما أجبتك فأكدت له صادقاً كل الصدق أنه إذا كان الأمر كذلك الحادث الذي وقع بيني وبين أبيه في النادي منذ أربع سنين، كما افترض ذلك، فإنني مستعد لأن أقدم إليه جميع اعتذاراتي، خاصة وأن فعلي لم يكن مقصوداً وأنتي كنت في ذلك العهد مريضاً، وطلبت منه أن يُدخل في حسابه هذه الظروف. ولم يجنبي وسافر. ثم ها أنذا أجده الآن هنا وقد جُنَّ جنونه حقداً عليّ وكرهاً لي. وقد نُقل إلي أنه قذفني مراراً بشتائم مقدعة على مسمع من الناس، واتهمني بأمور لا يصدقها العقل. وأخيراً حُملت إليّ اليوم هذه الرسالة. ما أظن أن أحداً تلقى في حياته رسالة كهذه الرسالة. إنها رسالة ملأى بالشتائم والإهانات، كقوله مثلاً: "يا صاحب البوز الذي لا يصلح لغير الصفع واللکم". وقد جئت إليك آملاً أن لا ترفض أن تكون شاهدي في المباراة التي سأطلبه إليها.

قال كيريلوف:

- تقول إنه ما من أحد تلقى في حياته رسالة كهذه الرسالة؟ أنت مخطئ. ذلك يحدث في نوبة من نوبات غضب شديد. ذلك يحدث كثيراً. إن بوشكين قد كتب إلى هكرن⁽¹⁾. طيب. سأذهب إليه. ماذا يجب أن أقول له؟

طلب نيقولا في سيفولودوفتش من كيريلوف أن يمضي غداً إلى جاجانوف، فيبدأ كلامه معه بأن يكرر اعتذارات ستافروجين، وأن يقول له إن ستافروجين مستعد حتى لأن يكتب إليه رسالة ثانية زاخرة بالاعتذارات، ولكن على شرط أن يقطع جاجانوف على نفسه عهداً من جهته بأن لا يبعث إليه بعد الآن رسائل سب وشتم. أمّا الرسالة الأخيرة التي بعثها جاجانوف

(1) إن البارون هكرن، سفير هولاند في روسيا، قد بنى شارل دانتيس الذي كان يغازل زوجة بوشكين. ففي 26 كانون الثاني (يناير) 1837، كتب الشاعر إلى البارون رسالة مهينة تشتمل على سب وشتم، وتتهم البارون بتهم بشعة عن علاقته بابنه المتبنى، وفي تلك الرسالة طلب بوشكين البارون إلى المباراة. وقد أناب السفير عنه في المباراة ابنه المتبنى دانتيس الذي أصاب بوشكين بجرح قاتل كما هو معلوم.

فتعتبر في هذه الحالة كأنها لم تكن، وتعد ملغاة.

قال كيريلوف:

- هذه تنازلات كبيرة. لن يقبل.

- أريد أن أعرف أولاً أنت مستعد لأن تنقل إليه هذه الشروط؟

- سأنقلها إليه. هذا شأنك أنت. لكنه لن يقبل.

- أعرف.

- إنه يريد أن ينتهي كل شيء غداً هذا هو الأمر الأساسي. ستكون عنده في الساعة التاسعة. وسيصغي إلى كلامك، سيرفض اقتراحاتك، ولكنه سيجعلك على صلة بشاهده، في الساعة الحادية عشرة مثلاً. فنتفق مع شاهده على أن نكون جميعاً في مكان المباراة في نحو الساعة الواحدة أو الثانية. حاول، أرجوك، أن ترتب الأمور على النحو الذي أطلبه منك. سيكون السلاح هو المسدس طبعاً. وأنا أحرص على الشروط التالية: تكون المسافة بين الحاجزين عشر أقدام، وتوليان أنتما وقف كل منا على مسافة عشر أقدام من حاجزه. فإذا انطلقت الإشارة المتفق عليها، مضى كل منا نحو الآخر، وكان عليه أن يسير إلى الحاجز، ولكن يحق له أن يطلق النار قبل أن يبلغه شيئاً. ذلك كل شيء كما أظن.

قال كيريلوف:

- عشر أقدام بين الحاجزين؟ هذا قليل.

- فلتكن المسافة بين الحاجزين اثنتي عشر قدماً، ولكن لا أكثر. أنت

تدرك أنه يريد لها مباراة جدّ لا هزل. هل تعرف كيف تحشو المسدسات.

- نعم. عندي مسدسات. وسوف أحلف يمين الشرف على أنك لم

تستعملها في يوم من الأيام. وسيحلف شاهده هذه اليمين أيضاً بالنسبة إلى

مسدساته. سيكون هناك أربعة مسدسات، اثنان لكل واحد. وسيعين مسدسا

كل متقاتل بالقرعة.

- هل تريد أن ترى مسدساتي؟

- أتمنى.

جشا كيريلوف أمام حقيقته التي لم يكن قد فضّها بعد، وإنما كان يُخرج منها ما هو في حاجة إليه، متاعاً بعد متاع. فما هي إلا برهة حتى أخرج منها علبة من خشب النخيل مزدانة في الداخل بنسيج من المخمل. كانت العلبة تضم مسدسين ممتازين لا بد أنهما غاليا الثمن.

- عندي كل ما يجب: بارود، رصاصات، خرطوشات. ثم إن عندي كذلك مسدساً يحمل عدة رصاصات. انتظر! وأخذ ينبش في حقيقته من جديد، إلى أن أخرج منها مسدساً أمريكياً ذا ستّ طلقات في ظرفه.

- عندك أسلحة كثيرة، أسلحة غالية الثمن.

- نعم، غالية الثمن جداً، باهظة الثمن كثيراً.

كان واضحاً أن كيريلوف الفقير، المعدم، الذي كان لا يلاحظ فقره على كل حال، يعتز اعتزازاً كبيراً بأسلحته الجميلة التي لا شك أنه اشتراها بتضحيات ثقيلة.

سأله ستافروجين بعد صمت قصير، وبشيء من تردد:

- ألا تزال على رأيك؟

- نعم.

كذلك أجاب كيريلوف وقد أدرك فوراً، من لهجة الزائر، ماذا كان يقصد. وجعل يرتب أسلحته.

فسأله ستافروجين بعد صمت آخر بمزيد من التردد والحذر:

- ومتى؟

كان كيريلوف قد أرجع العلبة والصندوق إلى الحقيبة، وعاد إلى مكانه.

فقال:

- ذلك لا يتعلق بي أنا كما تعلم. عندما يُطلب مني.

كذلك تتمم يقول كأن السؤال يخرجه قليلاً وكان واضحاً مع هذا أنه مستعد للإجابة عن جميع الأسئلة التي قد تتلو ذلك السؤال. وحدّق إلى ستافروجين بعينه السوداوين اللتين ليس فيهما بريق، وكانت نظرتة هادئة، ولكنها رقيقة لطيفة بشوش.

وساد صمت طويل، ثم استأنف ستافروجين كلامه فقال حالم الهيئة:
- إنني أفهم هذا جيداً... الانتحار...

كان وجهه قد تجهم واكفهر، وتابع كلامه يقول:

- كثيراً ما فكرت في هذا الأمر. ولكن كانت توافيني عندئذ فكرة جديدة:
لو ارتكب المرء جريمة أو قل عملاً مشيناً أو دناءة حقيرة أو سفالة جبانة
سخيفة، أي شيئاً يظلل الناس يذكرونه خلال قرون ويظل يشير اشمئزازهم
ألف عام... حتى إذا فرغ من ارتكاب ذلك العمل "أطلق رصاصة على رأسه،
فزال كل شيء ولم يبق شيء" ما قيمة أقوال البشر عندئذ وما قيمة بصقاتهم؟
أليس هذا صحيحاً؟

- وأنت تسمي هذا فكرة جديدة؟

كذلك سأله كيريلوف بعد لحظة تأمل وتفكير.

أنا... لا أقول إنها فكرة جديدة، ولكنني أحسستها جديدة حين بدت لي.
ألح كيريلوف يسأله:

- "أحسست" الفكرة؟ طيب. ما أكثر الأفكار التي وُجدت دائماً، ثم إذا
هي تبدو جديدة على حين فجأة! ذلك صحيح. أشياء كثيرة أراها الآن كما لو
كنت أراها أول مرة.

قال ستافروجين دون أن يصغي إليه، مستمراً في شرح فكرته:

- لنفترض أنك عشت في القمر، فارتكبت هناك عملاً من تلك الأعمال
الحقيرة الخسيسة المضحكة. إنك وأنت تعيش الآن هنا تعلم حق العلم أن
الناس سيضحكون عليك هنالك وأنهم سيلطخونك بالوحل خلال قرون،
إلى الأبد، ما بقي القمر. ولكنك على الأرض، ومن الأرض إنما تنظر إلى
القمر: فهل تعنيك عندئذ جميع القذارات التي اقترفتها هناك على القمر وهل
يهمك أن يصبق عليك سكان القمر خلال قرون؟ أليس ما أقوله صحيحاً؟
أجاب كيريلوف:

- لا أدري.

ثم أضاف يقول دون أية نية ساخرة، بل لإثبات واقع لا أكثر:

- أنا لم أعش في القمر.

- لمن هذا الطفل؟

- لحماية العجوز... بل أقصد لامرأة ابنها... سيّان! لقد وصلت أمه منذ ثلاثة أيام. وهي مريضة. في السرير. الطفل يصرخ كثيراً في الليل. آلام في البطن. أمه نائمة. جاءتني به العجوز. أخذت أرمي أمامه الكرة. إنها كرة من هامبورج. اشتريتها من هامبورج لأرميها وأتلفها: هذا يقوي الظهر. والطفل بنت لا صبي.

سأل ستافروجين:

- هل تحب الأطفال؟

فأجاب كيريلوف، ولكن بلهجة ليس فيها اكتراث كثير:
- نعم.

قال نيقولا في سيفولودوفتش ستافروجين:

- فأنت إذن تحب الحياة أيضاً؟

- نعم. أحب الحياة... لماذا؟

- ولكنك عازم على الانتحار.

- وما العلاقة بين الأمرين؟ الحياة شيء، والموت شيء آخر. الحياة موجودة والموت غير موجود.

- أنت تؤمن إذن بالحياة الآخرة الأبدية؟

- لا، ليس بالحياة الآخرة الأبدية، بل بالحياة الأبدية هنا على هذه الأرض. هناك لحظات... إن المرء يصل إلى لحظات يتوقف فيها الزمان فجأة، فيصبح الحاضر أبدية.

- هل تأمل أن تتوصل إلى هذه اللحظة؟

قال نيقولا في سيفولودوفتش، بدون سخرية من جهته هو أيضاً:

- لا أظن أن هذا ممكن في زماننا. في رؤيا يوحنا يحلف الملاك أن الزمان

لن يوجد بعدئذ⁽¹⁾.

كان يتكلم ببطء، مستغرق الفكر.

قال كيريلوف:

- أعلم ذلك. وهذا صحيح. قيل بوضوح ودقة. حين يكون الإنسان بكامله قد بلغ السعادة، فإن الزمان لن يوجد بعدئذ، لأنه لن يكون ضرورياً بعد ذلك.
- أين عساه يختفي في أي مكان، ليس الزمان شيئاً له حيّز، بل هو فكرة ستنتفي.

- ما هذه إلا أقوال فلسفية مبتذلة معادة مكرورة، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون.

كذلك دمدم يقول ستافروجين بنوع من أسف يمازجه ازدراء.
فهتف كيريلوف يقول وقد التمعت عيناه فجأة، كأن هذه الفكرة وحدها ضمانه للنصر:

- نعم، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون، ولكن لن يكون هناك غيرها...
- إنك تبدو سعيداً جداً يا كيريلوف، هه؟
أجاب كيريلوف، وكأنه ينطق بكلمات عادية جداً:
- نعم، سعيد جداً.

- لكنك كنت معتكر المزاج منذ قليل، وكنت حانقاً على ليبوتين.
- هم... الآن لست كذلك. لم أكن أعرف عندئذ أنني سعيد. هل رأيت ورقة، ورقة شجرة؟
- طبعاً.

- رأيت ورقة شجرة في الآونة الأخيرة، ورقة مصفرة، ما يزال فيها شيء من اخضرار، وكانت حواشيها قد تفسّخت. وكانت الريح تطردها. في العاشرة من عمري، أثناء الشتاء، كنت أغمض عينيّ عامداً، وأتخيل ورقة

(1) من المعروف أن دوستوفسكي قد تأثر كثيراً بهذه العبارة الواردة في رؤيا القديس يوحنا. وقد تحدث عنها في كتابه "الأبله"

خضراء، متألفة بعروقها الملتمة تحت أشعة الشمس. حتى إذا فتحت عيني لم أصدق الواقع. إن ما رأيته كان جميلاً جداً. وكنت أعود أغمض عيني...
- أهذا رمز؟

- لا... لماذا؟ ليس هذا رمزاً. إنها ورقة لا أكثر. ورقة. شيء حسن. كل شيء حسن.

- كل شيء؟

- كل شيء.. الإنسان شقي لأنه لا يعرف أنه سعيد. لا شيء غير هذا. ذلك سر الأمر كله، كله على الإطلاق. فمن عرفه لم يلبث أن يصبح سعيداً، على الفور. امرأة الابن ستموت. والطفلة ستعيش. كل شيء حسن. كل شيء بديع. اكتشفت هذه الحقيقة فجأة.

- وإذا مات المرء من الجوع، وإذا أوديت بنت صغيرة، إذا لطح شرفها بالعار، فهل هذا حسن أيضاً، هل هذا بديع أيضاً؟

- نعم. وإذا كسر أحدٌ جمجمة الشخص الذي ألحق أذى بالبنت الصغيرة فهذا حسن أيضاً. وإذا لم يكسر أحد جمجمته، فهذا حسن كذلك. كل شيء حسن، كل شيء بديع، كل شيء. وهم سعداء أولئك الذين يعرفون أن كل شيء حسن بديع. فإذا عرفوا أنهم سعداء. كانوا سعداء. لكنهم لا يكونون سعداء ما ظلوا يجهلون أنهم سعداء. تلك هي الفكرة كلها، الفكرة كاملة، وليس هناك فكرة غيرها.

- متى اكتشفت أنك سعيد؟

- في هذا الأسبوع، يوم الثلاثاء، لا بل يوم الأربعاء، لأن الوقت كان في الهزيع الأخير من الليل.

- بأية مناسبة؟

- لا أذكر. كنت أمشي في الغرفة طويلاً وعرضاً... لا قيمة لهذا... المهم أنني وقفت ساعتی. كانت تشير إلى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة.
- فعلت هذا إشارةً إلى أن الزمان سيتوقف.

لم يجب كيريلوف.

ثم استأنف كلامه فجأة فقال:

- هم ليسوا طبيين لأنهم لا يعرفون أنهم طبيون. فمتى عرفوا ذلك في المستقبل، فسيصبحون طبيين، ولن يغتصبوا عفاف البنت الصغيرة. يجب أن يعرفوا أنهم طبيون، فإذا هم يصبحون طبيين على الفور، جميعهم، إلى آخر واحد منهم.

- طيب. أنت الآن تعرف أنك طيب، فهل أنت إذن طيب؟

- نعم أنا طيب.

فدمدم ستافروجين يقول مكفهر الوجه:

- على هذا أوافقك.

قال كيريلوف:

- والذي سيعلم الناس أنهم جميعاً طبيون أخيار، فذلك سوف يختم تاريخ العالم.

- إن الذي علم الناس ذلك قد صُلب.

- سوف يجيء، وسيكون اسمه الإله الإنسان.

- الإنسان الإله؟

- بل الإله الإنسان. ذلك هو الفرق كله.

- أترأى أنت الذي أشعلت السراج أمام الأيقونة؟

- نعم، أنا.

- أتؤمن الآن؟

- العجوز تحب السراج... ولم يتسع وقتها اليوم.

كذلك دمدم كيريلوف.

- أنت، ألا تصلي بعد؟

- أصلي دائماً. انظر إلى هذا العنكبوت الذي يتسلق الجدار! إنني أنظر

إليه فأشكره لأنه هنا.

وسقطت عيناه من جديد، وحدّق إلى ستافروجين بنظرة فيها عزة وشمم،

نظرة لا تنصاع أو تنثني. فكان ستافروجين يتأمله بنوع من الاشمئزاز، ولكن
 دون أية سخرية. ثم قال وهو ينهض ويتناول قبعته:
 - أراهن على أنك ستكون قد آمنت بالله حين أجيئك في مرة قادمة.
 سأله كيريلوف: - لماذا؟
 فأجاب ستافروجين وهو يضحك ساخراً:
 - إذا كنت تعرف أنك مؤمن بالله، فسوف تؤمن به، ولكنك لا تؤمن الآن
 لأنك لمّا تعرف بعد أنك مؤمن.
 أجاب كيريلوف بعد لحظة تفكير:
 - ليس هذا هو الأمر البتة. أنت قلبت فكرتي. ما كلامك هذا إلا مزاح
 رجل من المجتمع الراقي. تذكر، يا ستافروجين، المنزل التي لك في نفسي،
 تذكر ماذا كنت لي.
 - أستودعك الله يا كيريلوف.
 - ارجع إليّ ليلاً. متى؟
 - أترأك نسيت قضيتنا غداً؟
 - آ... نعم... نسيت. اطمئن بالآ، لن أتأخر عن الموعد. في الساعة
 التاسعة. إنني أستطيع أن أستيقظ في الوقت الذي أشاء. أنا قائلاً لنفسي:
 سوف أستيقظ في الساعة السابعة، فإذا أنا أستيقظ في الساعة السابعة، وإذا
 قلت إنني سأستيقظ في الساعة العاشرة، استيقظت في الساعة العاشرة.
 قال نيقولا في سيفولودوفتش وهو ينظر إلى وجه كيريلوف الشاحب:
 - تلك موهبة ثمينة جداً.
 - سأفتح لك البوابة.
 - لا ترزعج نفسك. سوف يفتحها لي شاتوف.
 - آ... شاتوف... طيب... أستودعك الله.

إن المنزل المقفر الذي يسكنه شاتوف لم يكن مغلقاً. ولكن حين دخل

ستافروجين، وجد نفسه في ظلام حالك، واضطر أن يتلمس السلم الذي يفضي إلى مسكن شاتوف تلمساً. وفجأة فُتح باب هذا المسكن الذي يقع تحت سطح المنزل، فُتح على مصراعيه، وأضيء السلم. ولكن شاتوف لم يخرج من غرفته. فلما بلغ ستافروجين الفسحة الأخيرة من فسحات السلم رأى شاتوف واقفاً في ركن من الغرفة قرب المائدة ينتظره.

فسأله وهو يقف على عتبة الباب:

- هل ترضى أن تستقبلني لعمل؟

فأجابه شاتوف:

- ادخل واجلس. أغلق الباب. لا بل انتظر. سأغلقه أنا.

وأففل شاتوف الباب بالمفتاح وجلس قبالة نيقولاي فسيغولودوفتش، وراء المائدة. كان قد نحل خلال هذا الأسبوع، وكان كأنه يعاني من حُمى.

قال بصوت أجش وهو يخفض عينيه:

- لشد ما عذبتني! لماذا لم تجئ إليّ؟

- أكنت واثقاً هذه الثقة كلها بأنني سأجيء؟

- انتظر... لقد أصابني حُمى فكنت أهذي... ولعلني ما زلت أهذي...

ونهض، وتناول شيئاً كان موجوداً على حافة الرف الثالث من خزانة كتبه.

إنه مسدس. ثم قال:

- حلمت ذات لية أنك ستجيء تقتلني، حتى إذا استيقظت في الغد أعطيت

ذلك الوغد ليامشين آخر ما كنت أملك من قروش، ثمناً لهذا المسدس. لقد

أردت أن أدافع عن نفسي. وبقي المسدس على هذا الرف منذ ذلك الحين.

وفتح طاقة النافذة.

فقال نيقولاي فسيغولودوفتش:

- لا ترمه. علام ترميه؟ إنه باهظ الثمن، وغداً يقول الناس إنهم وجدوا

مسدساً تحت نوافذ شاتوف. أعدّه إلى مكانه. نعم، هكذا، اجلس الآن. قل

لي: لماذا يبدو عليك أنك تعتذر عن أنه خطر ببالك أنني سأجيء أقتلك؟ لا

يذهبن بك الظن إلى أنني جئت أصالحك. ولكن قل لي أولاً: أليست علاقتي

بزوجتك هي التي دفعتك إلى صفعي؟

أجاب شاتوف وهو يخفض عينيه من جديد:

- أنت تعلم حق العلم أن السبب ليس هذا!

- ولا كانت الشائعات الغبية التي راجت عن داريا إيفانوفنا هي السبب؟

- لا، لا، حتماً لا... يا لها من شائعات سخيفة! لقد قالت لي أختي فوراً...

كذلك صاح شاتوف بلهجة جافية تدل على نفاذ الصبر، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه.

فتابع ستافروجين كلامه يقول بلهجة هادئة:

- إذن حررتُ أنا وحررت أنت: نعم، إن ماريا تيموفيتشنا هي زوجتي

الشرعية. لقد تزوجنا ببطرسبرج منذ أربع سنين. وبسببها قمت تضربني،

أليس كذلك؟

فدمدم شاتوف يقول أخيراً وهو يتأمل ستافروجين بهيئة غريبة:

- كنت قد حررت ذلك، ولكنني كنت لا أريد أن أصدق الأمر.

- ومع هذا ضربتني...

احمرّ وجه شاتوف، وغمغم يقول متلعثماً بصوت متقطع:

- بسبب... صغارك وتديك... بسبب كذبك. ثم إنني لم أقرب منك

لأعاقبك... حين اتجهت إليك... ولم أكن أعرف أنني سأضربك... ولئن

ضربتك، فلأنك لعبت دوراً كبيراً جداً في حياتي.

- فهمت، فهمت. يكفي هذا. من المؤسف أن بك حمى. إن أموراً هامة

يجب أن أبلغك إياها.

فهتف شاتوف وهو ينهض عن مكانه مرتعشاً كل الإرتعاش من نفاذ

الصبر:

- إنني أنتظرك منذ مدة طويلة. قل قضيتك... وسوف أتكلم أنا أيضاً...

بعدك...

وعاد يجلس.

بدأ نيقولا في سيفولودوفتش يتكلم فقال وهو يتوسّمه مستطعاً:

- هذه القضية من نوع آخر تماماً. لقد اضطرت بسبب الظروف أن أجيئك

هذه الساعة لأبلغك أن من الممكن أن تُقتل.

نظر إليه شاتوف بوحشية. ثم قال ببطء:

- أنا أعلم أن حياتي ربما في خطر، ولكن كيف تستطيع أنت أن تعرف

هذا؟

- لأنني واحد من الجماعة، مثلك تماماً، لأنني عضو في جمعيتهم، مثلك

تماماً.

- أنت... أنت عضو في جمعيتهم؟

قال نيقولا في سيفلودوفتش وهو يتسم ابتسامة خفيفة:

- أرى من عينيك أنك كنت تتوقع مني كل شيء إلا هذا. ولكن اسمح لي:

أأنت تعرف إذن أنهم ضاقوا بك وأنهم يعتزمون قتلك؟

- لم يخطر ببالي هذا في يوم من الأيام، لا ولا أطيق أن أصدق أنه حتى في

هذه اللحظة بعد أقوالك... رغم أن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً بشيء أو

متأكداً من شيء في تعامله مع هؤلاء الأغبياء!...

كذلك صاح شاتوف في سورة مفاجئة من غضب شديد وهو يضرب

المائدة بقبضة يده. وتابع كلامه يقول:

- لقد قطعت الصلة بهم. وجاءني واحد منهم أربع مرات فقال إن في

إمكانني أن...

لكن شاتوف أمسك عن الكلام فجأة ونظر إلى ستافروجين وسأله:

- ولكن ما الذي تعلمه أنت على وجه الدقة؟

استأنف ستافروجين كلامه فقال ببرود امرئ يكتفي بالقيام بواجب:

- اطمئن. لا تخف. إنني لا أخدعك. هل تريد أن تعرف ماذا أعلم؟ إنني

أعلم أنك دخلت في هذه الجمعية في الخارج منذ سنتين، حتى قبل إعادة

تنظيمها، وذلك قبيل سفرك إلى أمريكا، وبُعِد حديثنا الذي كتبت إليّ فيه

من أمريكا بإفاضة وإسهاب، فيما أظن. بالمناسبة: اغفر لي إنني لم أجبك

برسالة، واقتصرت على...

- ... أن ترسل إليّ المال. انتظر...

قال شاتوف ذلك، وأسرع يفتح دُرجاً في مائدته، فاستلَّ من تحت أوراق فيه، ورقة نقدية بمائة روبل. وقال لستافروجين:

- إليك المال الذي أرسلته إليَّ حينذاك. خذه. لولاك لهلكت هناك. وما كان لي أن أستطيع رده إليك إلّا بعد مدة طويلة لولا تدخل أمك: فمئذ تسعة أشهر، بعد مرضي، علمت بما أنا فيه من شقاء وعوز وبؤس، فأهدت إليَّ هذه المائة روبل. ولكن أكمل كلامك، أرجوك.

كان شاتوف كمن يخشع.

- وفي أمريكا تغيرت آراؤك، حتى إذا عدت إلى سويسرا أردت أن تترك الجمعية. ولم يجيبوك، ولكنهم كلفوك بأن تستلم في روسيا آلة طباعة وأن تحتفظ بها هنا إلى أن يأتيك شخص موفد منهم ليطلب منك أخذها. لست على علم بجميع التفاصيل، ولكنني أظن أن الأمر كان كذلك على وجه الإجمال. أهذا صحيح؟ أمّا أنت، فقد قبلت هذا مؤملاً أو مشروطاً أن تكون هذه المهمة آخر مطلب لهم عندك، وأن يدعوك بعد ذلك وشأنك. هذا كله لم أعرفه منهم هم، وإنما عرفته بمصادفة محضة. هناك شيء لا أظن أنك تعرفه بعد: هو أن هؤلاء السادة لا يتوون الانفصال عنك أبداً.

صاح شاتوف يقول:

- مستحيل. لقد أعلنت لهم صادقاً أننا مختلفون من جميع النواحي، وهذا حقي. هذا حق ضميري وفكري!... لن أقبل... ما من قوة سوف تستطيع أن...

قاطعه ستافروجين يقول بهيئة رصينة:

- لا تصرخ. من الممكن أن يكون فرخوفنسكي ذاك متجسساً علينا الآن في الممر بنفسه أو بموفاٍ منه. حتى ذلك السكير لبيادكين قد كلفوه بمراقبتك كما كلفوك أنت بمراقبته، أليس صحيحاً ما أقول؟ قل لي أولاً هل سلّم فرخوفنسكي بأدلتك وحججك أم هو لم يسلم بها؟

- سلّم بها. وقال لي إن في وسعي أن أتركهم، فهذا من حقي...

- فاعلم إذن أنه يخدعك ويضللك. إنني أعلم أن كيريلوف نفسه، وهو

الذي لا يكاد يجمع بينهم وبينه أي شبه، قد أمدهم بمعلومات عنك. إن لهم عملاء كثيرين. حتى إن بعض هؤلاء العملاء يجهلون أنهم يعملون للجمعية. إنهم لم يكفوا عن مراقبتك في يوم من الأيام. ولقد جاء بطرس فرخوفسكي إلى هنا بقصد البت في أمور كثيرة منها تقرير مصيرك تقريراً حاسماً. لقد حُوِّل سلطات تامة لإزالتك في اللحظة التي يراها مناسبة، لأنك تعرف أشياء كثيرة، فمن الممكن أن تشي بالجمعية. أكرر لك أن هذه هي الحقيقة. واسمح لي أن أضيف أنهم مقتنعون اقتناعاً مطلقاً - لا أدري لماذا - بأنك جاسوس، وبأنك إن لم تكن قد خنتهم حتى الآن فسوف تخونهم في المستقبل. أليس هذا صحيحاً؟

حين سمع شاتوف هذا السؤال يطرحه نيقولا في سيفولودوفتش ستافروجين بهذه اللهجة العادية، ابتسم ابتسامة مصنوعة، وقال غاضباً دون أن يجيب إجابة مباشرة:

- هبني جاسوساً، فلمن أشي بهم؟
ثم صاح عائداً إلى جملة من الجمل التي قالها محدّثه فشدهته شدها أكبر كثيراً من شدهه للنبا القائل بأن حياته معرّضة للخطر، صاح يقول:
- ولكن دعنا من الكلام عني أنا. فلأذهب أنا إلى جهنم. وإنما أريد أن أعرف: كيف أمكنك أنت، أنت ستافروجين، أن تحشر نفسك في هذه الزمرة من الخدم الأغبياء الحقيرين؟ أأنت تدخل عضواً في جمعيتهم؟ أهذا عمل لامع يليق بنيقولا في ستافروجين؟

كذلك هتف شاتوف وقد استولى عليه كمد شديد وحزن هائل.
حتى لقد صفق يديه إحداهما بالأخرى، كأنه ليس هناك شيء أدعى إلى المرارة، وأبعث على الأسف من هذا الاكتشاف.

قال ستافروجين بدهشة غير مفتعلة:
- معذرة. ولكن يخيل إليّ أنك تعذني كوكباً متألقاً ما أنت بجانبه إلا حشرة مسكينة. لقد سبق أن لاحظت ذلك عند قراءتي الرسالة التي بعثتها إليّ من أمريكا.

- إنك... إنك تعلم... ولكن كفى حديثاً عني... كفى!
كذلك قال شاتوف يقطع كلامه حاسماً. وأضاف:

- إذا كنت تستطيع أن تمدني بإيضاحات... عن سؤالي، فافعل.

- بسرور. تسألني كيف أمكنتني أن أزج نفسي في مثل هذه القضية
الوسخة؟ إنني بعد أن أبلغتك ما أبلغتك أجد نفسي مضطراً أن كون صريحاً
معك، إلى حد من الحدود. الحق أنني لا أنتمي إلى هذه الجمعية، ولا
انتميت إليها في يوم من الأيام. فأنا إذن أحق منك بأن أتركها لأنني لم أدخل
فيها على وجه الإجمال. حتى لقد أعلنت لهم منذ البداية أنني لا أعمل معهم
في قضية مشتركة، ولئن اتفق أن ساعدتهم في بعض المناسبات، فإن ذلك
لم يكن مني إلا هواية، إذا لم أجد هواية أفضل. ومع ذلك فقد شاركت في
إعادة تنظيم الجمعية على أسس جديدة. ذلك كل شيء. لكنهم غيرَوا رأيهم
الآن، وقرروا فيما بينهم أن من الخطر أن يتركوني: وأعتقد أنهم حكموا عليّ
بالإعدام أنا أيضاً.

- أوه! إنهم لا يعرفون إلا هذا: عقوبة الإعدام... مع حكم مطابق
للأصول، على ورق ممهور بأختام رسمية وثلاثة توابع. وهل تظن أنهم
قادرين على أن ينفذوا؟

تابع ستافروجين كلامه يقول بتلك اللهجة نفسها التي تشتمل على قلة
الاكتراث ولا يكاد يكون فيها انفعال:

- إنك على بعض الحق، ولكن على بعض الحق فقط. لا شك فيه أن
هذا كله يتضمن إسرافاً في الخيال: إنهم يضخمون قوتهم وخطورة شأنهم.
وإذا أردت أن تعرف رأيي، فإن الزمرة كلها تتجمع في شخص بطرس
فرخوفنسكي، وبترس فرخوفنسكي هذا يكون متواضعاً جداً حين لا يعد
نفسه إلا عميلاً للجمعية. على أن مبدأ تنظيمهم ليس أسخف من مبدأ
تنظيمات أخرى من هذا النوع. إنهم على صلات بـ "الأمية". إن لهم عملاء
في روسيا. حتى لقد ابتدعوا أساليب جديدة أصيلة... على الصعيد النظري
طبعاً. أمّا عن نياتهم هنا، فإن عمل التنظيمات الروسية التي من هذا النوع تبلغ

من الغموض وتبلغ من البعد عن التوقع أن كل شيء ممكن عندنا. لاحظ أن فرخوفنسكي يملك إرادة.

- هذه القملة، هذا الجاهل، هذا الحيوان الذي لا يفهم من روسيا شيئاً؟
كذلك صرخ شاتوف حانقاً أشد الحنق. فقال له نيقولا يفسيفولودوفتش:
- إنك لا تعرفه حق معرفته. صحيح أنهم لا يفهمون من روسيا شيئاً كبيراً
على وجه العموم، ولكنهم ليسوا أجهل منا بها إلا قليلاً. ثم إن فرخوفنسكي
ذو حماسة.

- فرخوفنسكي ذو حماسة؟

- نعم، إنه في ما وراء بعض الحدود يكف عن التمثيل والتهريج... ويصبح
نصف مجنون. تذكر أحد تعابيرك نفسها: "هل تعلم مدى ما يمكن أن يملكه
إنسان وحيد من قوة؟" لا تضحك، أرجوك. إنك قادر كل القدرة على إطلاق
رصاصة. وهم مقتنعون بأنني أنا أيضاً جاسوس. إنهم إذ يعجزون عن تعريف
قضيتهم مستعدون لأن يتهموا الآخرين بالجاسوسية.

- ومع ذاك فلست خائفاً أنت منهم، أليس صحيحاً؟

- لا، لست خائفاً كثيراً. ولكن وضعك مختلف تماماً. وإنما نهتك من
أجل أن تحتاط. في رأيي أنه ليس أمراً مزعجاً مثيراً أن يهدد المرء أناس
سخفاء أغبياء. ولكن الأمر ليس أمر ذكائهم، وقد اتفق أن رفعوا أيديهم على
آخرين غيري وغيرك. ولكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة والرابع...

قال ستافروجين ذلك وهو ينظر في ساعته. ونهض. ثم قال:

- أريد أن ألقى عليك سؤالاً عن موضوع غير هذا تماماً.

فصاح شاتوف يقول وهو ينهض فجأة:

- ناشدتك الله!

فسأله ستافروجين مدهوشاً:

- ماذا تعني؟

- اسأل! ألق سؤالك، ناشدتك الله!

كذلك كرر شاتوف وهو فريسة انفعال لا سبيل إلى مغالته. وتابع يقول:

- ولكن على شرط أن أستطيع أنا أيضاً أن ألقى عليك سؤالاً.
أتوسل إليك... إذا سمحت... أصبحت لا أطيق صبراً... اسأل...
انتظر ستافروجين لحظة. ثم بدأ يتكلم فقال:
- سمعت أن لك بعض التأثير في ماريا تيموفيتشنا، وأنها تحب أن تراك،
وأن تسمع كلامك. هل هذا صحيح؟
- نعم... إنها تصغي إليّ أحياناً...
وظهر الاضطراب على شاتوف.
قال ستافروجين:
- أنوي أن أعلن زواجنا على الناس في الأيام القليلة القادمة.
فدمدم شاتوف يقول مرتاعاً:
- ولكن... مستحيل!
- بأي معنى هو مستحيل؟ لا يمكن أن يكون هناك أية صعوبة. شهود
الزواج هنا. لقد تمّ كل شيء في بطرسبرج، على نحو شرعي جداً، بهدوء
كامل وسلام تام. ولئن ظل الأمر سراً مكتوماً حتى هذا اليوم، فلأن شهود
الزواج، وهم كيريلوف وبطرس فرخوفنسكي وكذلك لبيادكين (الذي يسرني
أن يكون الآن قريبي) قد قطعوا على أنفسهم عهداً، هم الثلاثة، بأن يصمتوا.
- لست أقصد هذا... إنك تتكلم بهدوء... ولكن أكمل حديثك. قل لي:
لم يجبرك أحد على هذا الزواج، هه؟
أجاب نيقولا فيسيفولودوفتش يقول مبتسماً من حرارة شاتوف المندفعة
النافذة الصبر:
- لا، لم يجبرني أحد؟
فتابع شاتوف كلامه يقول بما يشبه الحمى:
- وما ذلك الطفل الذي تتكلم هي عنه؟
- الطفل؟ أي طفل؟ عجيب! هذه أول مرة أسمع فيها كلاماً عن طفل! إنها
لم تلد طفلاً أبداً، ولم يكن ممكناً أن تلد: إن ماريا تيموفيتشنا قد ظلت عذراء.
- آ... ذلك ما كنت أقدّره... اسمع!

- ما بك يا شاتوف؟

لقد غطى شاتوف وجهه بيديه وأشاح رأسه ثم أمسك ستافروجين من كتفيه فجأة، وقال صارخاً:

- تعرف على الأقل، نعم، هل تعرف على الأقل لماذا فعلت هذا الأمر، ولماذا ترتضي هذا القصاص الآن؟

- هذا سؤال ذكي وبل وغازل. لكنني سوف أدهشك: نعم، إنني أعلم تقريباً لماذا تزوجت، ولماذا قررت الآن أن أرتضي هذا "القصاص" على حد تعبيرك.

- لتترك هذا... ستكلم عنه فيما بعد. انتظر! لننتقل إلى الشيء الجوهري، إلى الشيء الجوهري: إنني أنتظرك منذ ستين!
- حقاً؟

- أنتظرك منذ مدة طويلة جداً. لم أنقطع عن التفكير فيك يوماً. إنك الإنسان الذي تستطيع أن... لقد سبق أن كتبت إليك في هذا الموضوع من أمريكا.

- أذكر رسالتك الطويلة تذكر كاملاً.

- لعلها كانت أطول من أن تُقرأ، هه؟ صحيح! ست صفحات كاملة. اسكت. اسكت. قل لي: هل تستطيع أن تهب لي من وقتك عشر دقائق أخرى، الآن، فوراً؟... إنني أنتظرك منذ مدة طويلة...
- أهب لك نصف ساعة، ولكن لا أكثر من ذلك. آمل أن يكفيك هذا.

قال شاتوف خارجاً عن طوره:

- ولكن على شرط... أن تغير لهجتك. هل سمعت؟ إنني أطالبك مطالبةً بأن تغير لهجتك، بينما كان يجب عليّ أن أضرع إليك... هل تعرف ما معنى أن يطالب المرء مطالبة، بينما كان ينبغي له أن يتوسل ويتضرع؟...

- أفهم أنك بهذه الطريقة تتحلل من القواعد والأصول، وتضع نفسك في خارجها، في سبيل هدف أعلى وغاية أسمى.

بهذا أجابه ستافروجين وهو يتسم ابتسامة خفيفة. وأردف:

- لكنني ألاحظ متألماً أن بك حمى.

- إنني أطلب الاحترام، بل أقضيه، لا لشخصي - فليس لشخصي من قيمة - ليذهب شخصي إلى الشيطان، ولكنني أقضي الاحترام باسم شيء آخر، وفي هذه اللحظة فقط، لهذه الكلمات القليلة. نحن هنا شخصان يلتقيان وجهاً لوجه في اللانهاية... ربما لآخر مرة. اترك لهجتك، تكلم بلهجة إنسانية. تكلم إنسانياً، ولو مرة واحدة في حياتك. لا أقول هذا من أجل نفسي، بل من أجلك. هل تدرك أن عليك أن تغفر لي تلك الصفة التي هويت بها عليك لا شيء إلا لأنني هيأت لك فرصة معرفة قوتك الكبيرة؟... ها أنت ذا تبسم مرة أخرى ابتسامة الازدراء تلك التي تعودتها، ابتسامة الازدراء تلك التي يتسمها أبناء المجتمع الراقي. آه... متى تستطيع أن تفهمني أخيراً؟ تَباً لمالك الأطيان العظيم! تَباً للسيد الكبير! أفهم أنني أطالب بالاحترام، نعم، أطلب به وأقضيه، وإلا فلن أتكلم بحال من الأحوال!

كاد اندفاعه أن يبلغ حد الهذيان. فقطب نيقولا فيسفلودفتش حاجبيه، وأصبح أكثر تحفظاً. ثم قال بلهجة رصينة وهو يزن كل كلمة من كلماته:
- إذا بقيت نصف ساعة أيضاً مع أن وقتي ثمين جداً، فثق أنني إنما أفعل ذلك لأنني أنتوي أن أصغي إلى كلامك باهتمام على الأقل. وأنا واثق بأنك ستعلمني أشياء كثيرة جديدة عليّ.

صاح شاتوف يقول:

- اجلس.

- وتهالك هو على كرسيه.

واستأنف ستافروجين كلامه فقال:

- اسمح لي أن أذكرك مع ذلك بأنني بدأت أكلّمك عن ماريا تيموفيتشنا وإني كنت أريد أن أتوجه إليك برجاء هام جداً في شأنها، من أجلها هي على الأقل...

- هيه؟

كذلك قال شاتوف نافد الصبر كإنسان قاطعته في منتصف حديثه، ولم يدرك السؤال الذي ألقته عليه مع استمراره في النظر إليك. أضاف نيقولا في سيفولودوفتش يقول مبتسماً:
 - ولكنك لم تدع لي فرصة إتمام الكلام الذي شرعت فيه...
 فصاح شاتوف يقول وهو يهز منكبيه بعد أن فهم المقصود:
 - هذه سخافات. ستكلم عنها فيما بعد.
 وسرعان ما رجع إلى فكرته.

7

قال بلهجة تكاد تكون تهديداً وهو يميل على ستافروجين ملتمع العينين رافعاً سبابة يده (إنه لم يلاحظ ذلك حتماً)، قال:
 - هل تعرف من هو الآن على وجه الأرض الشعب "الحامل للرب"
 الوحيد، الشعب الذي سيجدد العالم وينقذه باسم إله جديد، الشعب الوحيد الذي بيده مفاتيح الحياة والكلمة الجديدة...؟ هل تعرف من هو هذا الشعب وما اسمه؟

- أستنتج من وضعك، بغير تأخر، أنه الشعب الروسي...
 هتف شاتوف يقول وهو يضطرب في كرسيه:
 - ها أنت ذا تضحك منذ الآن! آه من هذا الصنف، من البشر!
 - هدىء نفسك، أرجوك. لقد كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل.
 - كنت تتوقع شيئاً من هذا القبيل؟ ولكن ألا تذكرك هذه الأقوال بشيء؟
 - بلى. وإني لأرى رؤية واضحة ما الذي تقصده، وإلى أين تريد أن تصل من هذا. إن عبارتك الطويلة، وحتى هذا التعبير: الشعب "الحامل للرب"، ليس إلا النتيجة التي تُستخرج من الحديث الذي جرى بيننا منذ أكثر من سنتين في الخارج قبيل سفرك إلى أمريكا... على الأقل إذا صدقت ذاكرتي الآن.

- إن تلك الجملة هي لك، لك أنت. أنت الذي قلتها. هذه أقوالك ذاتها،

وليس نتيجة التي تستخرج من "الحديث" الذي جرى بيننا، كان هناك معلّم ينادي بأفكار كبيرة، وكان هناك تلميذ ينبعث من بين الموتى. فأما التلميذ فأنا، وأما المعلّم فأنت.

- ولكن إذا صدقت ذاكرتي، فإنك بعد أقوالي تلك إنما دخلت في جمعيتهم ثم سافرت إلى أمريكا.

- نعم، وقد كتبت إليك عن هذا من أمريكا. لقد حدثتك في تلك الرسالة عن كل شيء. نعم، لم أستطع أن أنتزع نفسي دفعةً واحدة من كل ما كان قوام حياتي منذ طفولتي، من كل ما كان معقدًا مالي وموضوع حماساتي، من كل ما جعلني أسكب دموعاً تفيض بالكره والبغض... إنه لمن الصعب على المرء أن يغير آلهته. لم أصدق أقوالك حينذاك، لأنني كنت لا أريد أن أصدقها، فرميت نفسي في تلك الهوة الملائى بالقذارات. غير أن البذرة في نفسي بقيت ثم نبتت. قل لي، ولكن بصدق: هل قرأت رسالتي التي بعثتها إليك من أمريكا، إلى نهايتها؟ لعلك لم تقرأها البتة؟

- قرأت منها ثلاث صفحات، الصفحتين الأولين والصفحة الأخيرة، وتصفححت الباقي تصفحاً ولكنني كنت أنوي دائماً أن...

قال شاتوف يقاطعه وهو يجري يده بإشارة ازدراء:

- غير مهم، غير مهم! ولكن إذا كنت تعدل عن أقوالك التي قلتها في الماضي عن الشعب الروسي، فكيف أمكنك أن تقولها حينذاك؟ ذلك ما يعذبني اليوم ويسحقني سحقاً.

قال ستافروجين:

- لم أكن مازحاً يومئذ. وحين حاولت أن أقنعك في ذلك الأوان فلعلني كنت أفكر في نفسي أكثر مما أفكر فيك. كلام يشبه أن يكون لغزاً أو أحجية. فأجابه شاتوف:

- لم تكن مازحاً؟ لقد بقيت في أمريكا ثلاثة أشهر راقداً على القش بجانب إنسان شقي، فعلمت منه أنك بينما كنت تغرس في نفسي فكرة الله والوطن،

كنت في الوقت نفسه تسم قلب ذلك الشقي، ذلك المهووس كيريلوف...
لقد سكبت فيه الكذب والنفي، وألقيت بعقله إلى الجنون سريعاً. انظر إليه
الآن، تأمل ماذا صنعت به! لقد رأيته على كل حال.

- أحب أن ألفت نظرك أولاً إلى أن كيريلوف قد قال لي هو نفسه منذ برهة
أنه سعيد وأنه طيب الحال تماماً. إن افترضك أن الأحاديث التي أجريتها
معه قد تمت في ذلك الوقت نفسه الذي قام فيه الحديث بيني وبينك، هذا
الافتراض صحيح تقريباً. ولكن على أي شيء يدل ذلك؟ أعود، فأقول لك:
إنني لم أخدعكما، لا أنت ولا هو.

- أنت الآن ملحد، أليس كذلك؟

- نعم.

- وفي ذلك الوقت؟

- كما أنا الآن تماماً.

دمدم شاتوف يقول مستاءً:

- لكن طالبتك بالاحترام في بداية محادثتنا هذه، فإنني لم أفعل ذلك من
أجل نفسي. ولقد كان ينبغي لك، وأنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء،
أن تدرك ذلك.

- إنني لم أنهض حين بدأت تتكلم، ولا قطعت حديثنا، ولا انصرفت، بل
بقيت جالساً أمامك أجيء عن أسئلتك وعن صرخاتك وزعقاتك طبعاً...
فمعنى ذلك أنني لم أغضض من قدرك ولا قصّرت في احترامك...

قاطعه شاتوف بحركة من يده. وقال يسأله:

- هل تذكر أقوالك: "ما من ملحد يمكن أن يكون روسياً"، هل تذكر

هذا؟

قال ستافروجين بلهجة فيها شيء من الشك:

- أقلتُ هذا؟

- أسألك هل قلت هذا؟ أنسيت أنك قلته؟ ألا إنك مع ذلك قد أدركت

عندئذ سمةً من سمات الفكر الروسي والروح الروسية. يستحيل أن تكون

قد نسيت أنك قلتَ هذا. حتى لقد أضفت يومئذ قولك: "ما من أحد غير أرثوذكسي يمكن أن يكون روسياً".

- افترض أن هذه الفكرة هي من أفكار دعاة السلافية.

- لا، إن دعاة السلافية المعاصرين يبنذونها. لقد أصبحوا أذكى. ولكنك مضيت إلى أبعد من ذلك، فقلت إن الكاثوليكية الرومانية لم تعد هي الديانة المسيحية. لقد أكدت أن المسيح الذي تنادي به روما قد وقع في الغواية الثالثة من غوايات إبليس⁽¹⁾، وإن الكاثوليكية إذ أعلنت للعالم كله أن المسيح لا يمكن أن ينتصر في هذه الأرض ما لم يملك مملكة الأرض إنما نادى بما يخالف روح المسيح، وهي بذلك تقود العالم الغربي كله إلى الهلاك. وقد أشرت إلى أن فرنسا إذا كانت تتألم وتتعذب، فإنما مردُّ ذلك إلى الكاثوليكية، لأنها إن كفرت بالإله الروماني المتعفن، لم تظهر بالاقتداء إلى إله آخر. ذلك ما كنت لا تتحرج من قوله حينذاك. إنني أتذكر أحاديثنا تذكراً كاملاً.

قال ستافروجين جاداً كل الجد:

- لو كنت أملك الإيمان لكررت هذه الأقوال نفسها حتماً. إنني لم أكن أكذب حينذاك حين تكلمت كما يتكلم مؤمن. ولكنني أؤكد لك أنه يزعجني جداً أن أسمع ترديد أفكارى القديمة. ألا تطبق أن تمسك عن الكلام؟

صاح شاتوف يسأله دون أن ينتبه أي انتباه إلى ما طُلب منه:

- لو كنت تملك الإيمان؟ ولكن ألسنت أنت الذي قلتَ لي إنك إذا برهنوا لك برهاناً رياضياً على أن المسيح ضلال وأن الحقيقة شيء والمسيح شيء آخر، لآثرت المسيح على الحقيقة؟⁽²⁾ ألم تقل لي ذلك؟ أجب!

قال ستافروجين رافعاً صوته:

- ولكن اسمح لي أن أسألك بدوري، ما الداعي إلى هذا الامتحان الكارهِ المبغض، وإلى ماذا يؤدي هذا الاستجواب الغاضب الخبيث؟

(1) في إنجيل متى (الإصحاح الرابع، 9) أن الشيطان عرض على المسيح أن يكون له سلطان على مملكة هذا العالم. إشارة إلى السلطة الزمنية للبابا الكاثوليكي بروما.

(2) هذه العبارة نفسها وردت في رسالة بعثها دوستوفسكي إلى السيدة فونفيزينا من أومسك بعد خروجه من السجن في شهر شباط (فبراير) 1854

- سينتهي هذا الامتحان، وسينقضي إلى الأبد، فلن تُذكر به بعد الآن.

- أما زلت عند رأيك من أننا في خارج المكان والزمان؟...

قال شاتوف غاضباً على حين فجأة.

- اسكت. إنني غبي أخرق. ولكن فيم يهمني أن يصبح اسمي مثاراً

للضحك والسخرية! هل تسمح لي أن أذكرك بفكرتك الأساسية؟... أوه...

عشرة أسطر فقط! النتيجة وحدها لا أكثر...

- أتمنى أن تقتصر على النتيجة.

قال ستافروجين ذلك، وهمّ أن ينظر في ساعته، ولكنه أمسك في الوقت

المناسب.

ومال شاتوف إلى أمام مرة أخرى، ورفع سبابة يده، ولكن لحظة قصيرة

فحسب، وقال كمن يقرأ في كتاب وهو يحدّق إلى ستافروجين بنظرة تهديد:

- ما من شعب، ما من شعب استطاع يوماً أن ينظم نفسه في الأرض على

أسس علمية وعقلية، ما من شعب أفلح في ذلك، أو لعل شعباً من الشعوب

قد أفلح في ذلك مدة قصيرة عن حماقة. إن الاشتراكية في جوهرها ملحدة،

لأنها نادت منذ البداية بأنها تستهدف بناء المجتمع على أساس العلم والعقل

فحسب. في كل مكان وفي كل زمان، منذ بدء الأعصر، لم يمثل العلم

والعقل في حياة الشعوب إلّا دوراً ثانوياً لخدمة الحياة. وسيظل الأمر كذلك

إلى نهاية العصور، فإنما تتكوّن الشعوب وتنمو بدافع قوة مختلفة عن هذا كل

الاختلاف، بدافع قوة عليا مهيمنة يظل أصلها مجهولاً ولا يمكن تفسيره.

هذه القوة هي الرغبة المتأججة في الوصول إلى نهاية، وإنكار هذه النهاية

في الوقت نفسه، هي تأكيد الحياة تأكيداً مستمراً لا يتعب، وإنكار الموت.

هي روح الحياة، كما يقول الكتاب المقدس، هي "ينابيع المياه الدافقة" التي

تهددنا رؤيا القديس يوحنا بأنها ستغيض ذات يوم⁽¹⁾، هي مبدأ الجمال، على

تعبير الفلاسفة، أو هي مبدأ الأخلاق على حد تعبيرهم أيضاً. أمّا أنا فأسميها

(1) راجع رؤيا القديس يوحنا (الإصحاح الثاني والعشرين، 1).

ببساطة أكبر: البحث عن الله. إن هدف كل شعب، في كل حقبة من تاريخه، هو البحث عن الله فقط، عن إلهه، عن إلهه هو الذي يؤمن به على أنه هو الإله الوحيد الحق. إن الإله هو الحقيقة المركبة من الشعب كله، منذ وجوده إلى نهايته. في كل زمان وفي كل مكان، كان لكل شعب إلهه الخاص، ولم يحدث حتى الآن أبداً أن كان لكل الشعب أو لعدة شعوب إله واحد، مشترك بينها جميعاً. وحين تأخذ الشعوب بأن يصبح لها آلهة مشتركة، فذلك علامة موت لهذه الشعوب، وحين تصبح الآلهة مشتركة بين عدة شعوب، فإن الآلهة تموت، كما تموت الشعوب ويموت إيمانها. ولم يحدث حتى الآن أبداً أن وُجد شعب بغير دين، أي بغير فكرة عن الخير والشر. إن لكل شعب تصويره الخاص للخير والشر، شعب خيره الخاص به، وشره الخاص به. حتى إذا تشاركت عدة شعوب في تصوراتها للخير والشر، فإن هذه الشعوب تنحدر عندئذ، حتى إن التفريق بين الخير والشر يمحى حينذاك ويزول. لم يقدر العقل يوماً، ولن يقدر، أن يحدد الخير والشر، بل ولا على أن يفصل الشر عن الخير ولو فصلاً تقريبياً. بالعكس: كان العقل على الدوام مشوشاً تشويشاً مخجلاً يدعو إلى الأسف. أمّا العلم فإنه لم يُمدّننا إلا بحلول مبنية على القوة الوحشية، ولا سيما "نصف العلم" الذي كان أفضع الأوثنة التي أصابت الإنسانية، وكان أسوأ من الطاعون والمجاعات والحروب، والذي لم يظهر إلا في هذا القرن من الزمان. إن "نصف العلم" طاغية لم تر له مثيلاً من أقدم العصور إلى هذه الأيام، طاغية له كهنته وعبيده، يسجد أمامه الناس بحب غامر وإيمان خرافي، ويرتجف أمامه العلم نفسه، ولكنه يُهين هو العلم إهانةً مخجلة. هذا الكلام كله هو أقوالك ياستافروجين، إلا جملتي الأخيرة عن "نصف العلم": فهذه الجملة لي أنا، لأنني من أهل "نصف العلم"، ولذلك أكرهه كرهاً خاصاً. أمّا أفكارك أنت، أمّا تعابيرك أنت، فإنني لم أُغيّر فيها شيئاً، ولم أبدل منها حرفاً.

· قال ستافروجين متروياً:

ـ ما أظن أنك لم تغير شيئاً. لقد التقطت أفكاري بهوى مشتعل فشوّها

هذا الهوى المتأجج، دون أن تشعر أنت بذلك. يكفي للرهان على هذا التشويه أنك أنزلت الله إلى حيث جعلته صفةً للشعب لا أكثر. إن ستافروجين يتابع الآن شاتوف بانتباه خاص، ولكنه لا يتابع أقواله بقدر ما يتابع وضعه وحركاته وإشاراته.

صاح شاتوف يقول:

- أنا أنزل الله إلى حيث أجعله صفةً للشعب؟ لا بل إنني أرفع الشعب إلى حيث أصل به إلى الله. وهل كان الأمر غير هذا في يوم من الأيام على كل حال؟ إن الشعب هو جسم الله. كل شعب لا يكون شعباً ما لم يكن له إلهه الخاص، إلهه الخاص به هو، وما لم يكفر دون أي استعداد للتنازل أو التشويه، بجميع الآلهة الأخرى، وما لم يؤمن أنه بفضل إلهه سينتصر على جميع الآلهة الأخرى وسيطردها. ذلك كان إيمان جميع الشعوب الكبيرة، أو على الأقل جميع الشعوب التي كان لها دور في التاريخ، والتي سارت في طليعة الإنسانية. يستحيل على المرء أن يغالب الوقائع. إن اليهود لم يعيشوا إلا ليتنظروا الإله الحق ولقد أورثوا العالم فكرة الإله الحق. والإغريق قد ألّهُوا الطبيعة، وأورثوا العالم ديانتهم، أي الفلسفة والعلم. وروما ألّهِت الشعب متجسداً في "الدولة"، وأورثت الإنسانية "الدولة". وفرنسا، التي تجسد الإله الروماني، لم تزد طوال تاريخها على أن تنمّي فكرة الإله الروماني، وإذا كانت قد أسقطته أخيراً وانحدرت هي نفسها إلى هوة الإلحاد الذي يطلق عليه هناك، مؤقتاً، اسم الاشتراكية، فما ذلك إلا لأن الإلحاد هو رغم كل شيء أسلم من الكاثوليكية الرومانية. ومتى انقطع شعب كبير عن الاعتقاد بأنه الوحيد الذي يقدر بفضل حقيقته أن يجدد الإنسانية وأن ينقذ الشعوب الأخرى، فإنه سرعان ما ينقطع عن أن يكون شعباً كبيراً، ثم إذا هو يصبح مادة بشرية لا أكثر. إن الشعب، إذا كان عظيماً بالفعل لن يقتصر أبداً على أن يقوم بدور ثانوي في حياة الإنسانية، ولا بد أن يقوم بدور من الطبقة الأولى، فإنما هو يريد أن يكون له المكان الأول تماماً، وأن يقوم بالدور الوحيد. إن الشعب الذي يفقد هذا الإيمان لا يبقى شعباً. ومع ذلك فإن الحقيقة واحدة،

ومعنى هذا أن شعباً واحداً من جميع الشعوب هو صاحب الإله الحق، مهما تكن آلهة الشعوب الأخرى قوية. إن الشعب الوحيد و"الحامل للرب" إنما هو الشعب الروسي...

وصاح شاتوف يقول محموماً على حين فجأة :

- و... و... هل يمكن يا ستافروجين أن تعدّني غيباً لا أدرك؟ هل هذه الآراء هي ثمرات نساء عجائز عجنّتها في موسكو، خلال سنين، معاجن دعاة السلافية، أم هي أقوال جديدة كل الجدة، أقوال فريدة، أقوال هي كلمة الخلاص والبعث الوحيدة؟ ... و... فيم يهمني ضحكك الآن! فيم يهمني أن لا تفهم شيئاً مما قلت، أن لا تفهم كلمة واحدة، أن لا تفهم حرفاً واحداً! ... آه... لشد ما أكره ضحكك المتعطرس ونظرتك في هذه اللحظة.

قال شاتوف ذلك ونهض بوثة واحدة، حتى لقد كان فمه مزبداً.

قال ستافروجين بجذ غريب، دون أن يتحرك من مكانه:

- بالعكس يا شاتوف، بالعكس. إن أقوالك الحارة أيقظت في نفسي ذكريات كثيرة. إنني أعثر في أقوالك هذه على الحالة الروحية التي كنت أنا فيها من سنتين. وفي هذه المرة، لن أقول كما قلت منذ قليل إنك قد ضحّمت الأفكار التي عبّرت أنا عنها في الماضي. حتى ليبدو لي أن أفكارك تلك كانت تتصف بقطع أكبر وجزم أشد واندفاع أعظم. وإنني لأؤكد لك مرة ثالثة أنني أتمنى كثيراً لو أكرر اليوم ما قلته أنت كلمة كلمة ولكن...

- ولكن يعوزك الأرنب؟

- ماذا؟

قال شاتوف وهو يضحك ضحكاً خبيثاً:

- هذا التعبير المنحط هو من تعابيرك أنت. "من أجل أن يطبخ المرء طاجن أرنب، يحتاج إلى وجود أرنب، ومن أجل أن يؤمن بإله يحتاج إلى وجود إله". يقال إنك أنت الذي كررت هذه الجملة في بطرسبرج، كما فعل نوزدريوف الذي أراد أن يقبض على الأرنب من خلف.

- كان نوزدريوف، على خلاف ذلك، يتباهى بأنه قبض على الأرنب.

بالمناسبة: اسمح لي أن ألقى عليك سؤالاً، لا سيما وأن هذا من حقي الآن فيما يبدو لي. قل لي: هل أرنبك صار في قبضة يدك أم ما يزال يجري؟
فصاح شاتوف:

- أمتنعك من إلقاء هذا السؤال بهذه الألفاظ. اسألني بأسلوب آخر،
بأسلوب آخر!

فقال نيقولا في سيفولودوفتش ستافروجين وهو ينظر إليه مرَبِّدَ الهيئة:
- أنا مستعد. كل ما أردته هو أن أعرف أأنت مؤمن بالله أم لا؟
- أنا مؤمن بروسيا، أنا مؤمن بالأرثوذكسية... مؤمن بجسم المسيح...
مؤمن بأن ظهور المسيح ثانية سيتم في روسيا... مؤمن...
تمتم شاتوف خارجاً عن طوره.

قال ستافروجين ملحاً:

- وبالله؟ بالله؟

- بالله... سوف... سوف أؤمن.

لم تختلج عضلة واحدة في وجه ستافروجين. وكان شاتوف يتحداه
بنظرته الحارة العنيفة. وهتف أخيراً يقول:

- أنا لم أزعم على كل حال أنني لا أؤمن بالله. ولكنني أريد أن أفهمك
أنني لست إلا كاتباً حزيناً مملاً، لا أكثر من ذلك، ولكن مؤقتاً فقط، مؤقتاً!
على كل حال، فليهلك اسمي! إنما الأمر أمرك أنت لا أمري أنا. أنا لا أملك
أية موهبة، ولا أستطيع أن أقدم إلا دمي لا شيء غير ذلك، كأني شخص
عادي تافه. أنا أهب دمي. غير أنني أعلم أنك أنت. لقد انتظرتك سنتين.
ومن أجلك إنما أرقص هنا منذ نصف ساعة عارياً كل العري. إنك الإنسان
الوحيد، نعم، الوحيد الذي يستطيع أن يرفع هذه الراية...

وانقطع عن الكلام، وأسند كوعيه إلى المائدة، وأخفى رأسه في يديه
كمن اعتراه يأس شديد.

- إنني ألاحظ، وهذا أمر عجيب حقاً، أن الجميع يريدون أن يضعوا بين
يدي لا أدري أية راية. بطرس فرخوفنسكي، هو أيضاً، مقتنع بأنني أستطيع

أن "أرفع رايتهم". هذا ما نُمي إليّ على الأقل. في ذهنه أنني أستطيع أن أقوم بدور كدور ستنكا رازين⁽¹⁾، بفضل ما أتمتع به من "قدرة خارقة على الجريمة". تلك أقواله بنصها.

- ماذا؟ بفضل قدرتك الخارقة على الجريمة؟

- نعم.

- هم...

كذلك همهم شاتوف. ثم سأل وهو يتسم ابتسامة خبيثة:

- هل صحيح أنك انتسبت في بطرسبرج إلى جمعية سرية كانت تسترسل في دعاة حيوانية؟ هل صحيح أنك ربما كنت تتفوق على المركيز دي ساد؟ هل صحيح أنك كنت تجتذب إلى بيتك الأطفال لتدسّهم؟ تكلم! لا تكذب! كذلك صاح شاتوف مهتاجاً. وأردف يقول:

- إن نيقولا يفسيفولودوفتش ستافروجين لا يمكن أن يكذب أمام شاتوف الذي صفعه على وجهه قل كل شيء، فإذا صدق هذا كله، قتلتك على الفور، في الحال.

نطق ستافروجين بعد صمت طويل فقال:

- تكلمت عن هذه الأشياء. لكنني لم أدسّ أطفالاً.

واصفر وجهه، والتمعت عيناه.

فتابع شاتوف كلامه ولكن دون أن يحوّل عنه نظره المشتعلة:

- لكنك تكلمت عن هذا، أليس كذلك؟ أحد صحيح أنك زعمت أنك لا ترى أي فرق بين دناءة شهوانية حيوانية وبين عمل عظيم كتضحية المرء بنفسه في سبيل الإنسانية؟ أصبح أنك تجد في هذين الضدين لذة واحدة وأنت تكتشف فيهما جمالاً واحداً؟

دمدم ستافروجين يقول، وكان يمكنه أن ينهض وينصرف، لكنه ظل جالساً ولم يعض، دمدم يقول:

(1) "ستنكا رازين": زعيم عصبة قوقازية أثار الفلاحين في شرق روسيا وجنوبها من سنة 1667 إلى سنة 1671، وفي سنة 1671 خانه أنصاره فأعدم.

- تستحيل الإجابة عن أسئلة كهذه الأسئلة... لا أريد أن أجيب.

تابع شاتوف كلامه يقول مرتعشاً ارتعاشاً شديداً.

- أنا أيضاً لا أدري لماذا أرى الشر دميماً، وأرى الخير جميلاً، ولكنني أعلم كيف يَمَحِي الإحساس بهذا الفرق ويزول لدى أمثال ستافروجين. هل تعرف لماذا تزوجت هذا الزوج السخيف الحقيق؟ إنك إنما فعلت ذلك لأن العار والسخافة تمضيان هنا إلى حد العبقرية! لا، إنك لا تحوم حول ضفاف الهوة، بل تلقي نفسك فيها بجسارة منكس الرأس. إنك تزوجت حباً بالألم، وميلاً إلى عذاب الضمير، واحتياجاً إلى مباحج روحية. إن في عملك هذا نوعاً من الغيظ العصبي. إن تحديقك هذا للحس العام قد أغراك إغراء لم تستطع مغالبتة ومقاومته. ستافروجين والمتسولة العرجاء المسكينة التي هي نصف بلهاء! حين عضضت أذن الحاكم، ألم تشعر بإحساس لذيذ؟ ألم تعان ذلك الإحساس، أيها الأرستقراطي العاقل الخالي؟

قال ستافروجين وقد ازداد اصفرار وجهه شيئاً بعد شيء:

- إنك عالم بالنفس الإنسانية. ومع ذلك فقد أخطأت قليلاً في شرح أسباب زواجي...

ثم أضاف يقول وهو يتسم ابتسامة يُكره عليها نفسه إكراها:

- ولكن من أمذك بهذه المعلومات؟ أثراه كيريلوف؟... غير أنه لم يشارك...

قال شاتوف: - أبيضّر لونك؟

فإذا ستافروجين يرفع صوته فجأة:

- ولكن ماذا تريد أخيراً؟ إنني هنا أحتمل ضربات سوطك منذ نصف ساعة... إن في وسعك على الأقل أن تدعني أنصرف، بلطف وأدب، اللهم إلا أن يكون هناك دافع معقول يحضك على هذا الأسلوب في المعاملة؟

- دافع معقول؟

- حتماً. إن من واجبك أن تشرح لي هدفك على الأقل. انتظرت أن تشرح

لي هذا الهدف. لكنني لم أجد فيك إلا غيظاً مسعوراً وكرهاً شديداً. أرجوك، افتح لي بوابة المنزل.

ونهب. فهجم عليه شاتوف بوحشية، وصاح يقول له وهو يمسكه من كتفه:

- قبل الأرض⁽¹⁾. اروها بدموعك. استغفرها.

قال ستافروجين خافض العينين، بلهجة توشك أن يخالطها ألم:

- أنا لم أقتلك مع هذا، في ذلك اليوم... بل عقدت ذراعاً وراء ظهري.

- أكمل كلامك، قل ما يجول في خاطرك ويعتمل في نفسك. لقد جئت

تنبهي إلى خطر يحدق بي، وتركنتي أتكلم... وغداً تعلن زواجك!... ألا

أرى في وجهك أنك فريسة فكرة جديدة، فكرة رهيبة تقاومها! ستافروجين،

لماذا حُكم عليّ أن أؤمن بك دائماً؟ هل كان يمكنني أن أتكلم بهذه الطريقة

مع إنسان آخر؟ إنني أشعر بحياء من عواطف، ومع ذلك لم أخجل من عربي

أمامك، لأنني كنت أكلّم ستافروجين. لم أخش أن أحيل فكرة عظيمة إلى

ثورة سخيقة بلمسها، وذلك لأن ستافروجين هو الذي كان يصغي إليّ!...

ألن أقبّل موطىء أقدامك حين ستخرج؟ إنني لا أستطيع أن أنتزعك من قلبي

يا نيقولا ي ستافروجين!

قال نيقولا ي فيسفلودوفتش بيرود:

- أمّا أنا فيؤسفني أنني لا أستطيع أن أحبك يا شاتوف.

- أعلم ذلك. أعلم أنك لا تكذب في هذا الذي تقوله. اسمع: ما يزال في

وسعي أن أدبّر كل شيء. سأمدك بالأرب.

لزم ستافروجين الصمت.

قال شاتوف: - أنت ملحد، لأنك أرستقراطي، لأنك سيد. لقد أصبحت

لا تستطيع أن تميز الخير من الشر، لأنك أصبحت لا تفهم شعبك... لكن

جيلاً جديداً يسير، يخرج من قلب الشعب، ولن تتعرفه أبداً، لأنك ولا أمثال

(1) يعد الشعب الروسي الأرض أمّا. وفي رواية "الجريمة والعقاب" نرى صوفيا تنصح راسكولنيكوف بتقبل الأرض تعبيراً عن التوبة والتكفير.

فرخوفنسكي، الأب أو ابنه، ولا أنا، لأنني أنا أيضاً سيد، نعم أنا، ابن قنك، ابن خادمك باشكا⁽¹⁾. اسمع! توصل إلى الله بالعمل: هذا سر الأمر كله. فإن لم تفعل زلت كما تزول الطفيليات. توصل إلى الله بالعمل. احصل على الله بالعمل! - بالعمل؟ أي عمل؟

- بعمل الفلاح. امض. اترك ثرواتك... آه... إنك تضحك، إنك تخشى أن يستخفك الناس؟

ولكن ستافروجين لم يكن يضحك. وعاد يقول بعد لحظة تفكير كأنما هو قد سمع قولاً جديداً هاماً يستحق الدرس:

- أعتقد أن الحصول على الله ممكن بعمل الفلاح؟

ثم أضاف يقول منتقلاً إلى موضوع آخر على حين فجأة:

- بالمناسبة: هل تعلم أنني لم أعد غنياً، وأنني لا أملك ثروة كبيرة فأهجرها؟ إنني لا أكاد أملك ما يمكنني من تأمين مستقبل ماريّا تيموفيتشنا... ولكن ها أنذا أو شكت أن أنسى ما جئت إليك من أجله: لقد جئت إليك لأغراض منها أن أوصيك خيراً بماريّا تيموفيتشنا وأن أسألك الاستمرار في العناية بها واليقظة عليها إذا أمكنتك ذلك، لأنك الشخص الوحيد الذي له شيء من تأثير في عقلها المسكين... أقول هذا احتياطاً لكل طارئ.

قال شاتوف بلهجة من نفد صبره، وهو ممسك شمعة:

- طيب طيب. سأفعل. طبعاً. اسمع. حاول أن تزور تيخون.

- من؟

- تيخون. أسقف قديم أحيل إلى التقاعد بسبب اعتلال صحته. إنه يقيم هنا في دير القديس أوتيم.

- وعلام أزوره؟

- هكذا. إنه يستقبل الكثير من الناس. اذهب إليه. لن تخسر شيئاً اذهب إليه.

(1) تصغير اسم بافل على سبيل التحقير.

- لم أسمع عنه أبداً، ولا رأيت في حياتي شخصاً من هذا النوع من الناس.
أشكرك. سأذهب.

قال شاتوف وهو يضيء السلم: - من هنا.
حتى إذا وصل إلى تحت، فتح بوابة المنزل.
دمدم ستافروجين يقول وهو يجتاز العتبة:
- لن أجيء إليك بعد الآن يا شاتوف.

وكان الليل ما يزال حالكاً، وكانت السماء ما تزال ممطرة.

الفصل الثاني

الليل

(تتمة)

1

سَلَكَ شارع ايفانبا كله، ثم هبط منحدرًا قويًا، فكانت قدماه تغوصان في الوحل. وفجأة لمح مكانًا فسيحًا خاليًا لونه أشهب: إنه النهر. هنا لا عمارات بل أكواب حقيرة تتعرج بينها شوارع صغيرة وطرق مسدودة.

سار نيقولا في سيفولودوفتش بمحاذاة الأسيجة ولكن دون أن يتبعد عن الضفة. كان يبدو واثقًا من الطريق، بل كان لا يلوح عليه أنه يتنبه إليه أي انتباه. إن أفكاراً أخرى وهموماً أخرى تملأ رأسه وتشغل باله. فما كان أشد دهشته حين نظر حواله فرأى، وقد خرج من تأمله فجأة، أنه في وسط جسرنا الطويل المبتل المكوّن من مراكب. ما من إنسان في ذلك المكان. ولذلك شُده حين سمع صوتاً يناديه من قرب، صوتاً أليفاً لطيفاً من تلك الأصوات المتعاذبة المترققة التي يصطنعها الشبان الذين يعملون في محالّ تجارية وقد جمّلوا شعرهم بتجعيده.

- ألا تسمح لي يا سيدي أن أنتفع بمظلتك؟

قال الشخص ذلك واندس فعلاً أو همّ أن يندس تحت المظلة، وسار إلى جانبه ملاصقاً بكوعه كوعه تقريباً. فأبطأ نيقولا في سيفولودوفتش في خطوه ومال على الرجل لينعم النظر إليه والتفرس فيه، بقدر ما يسمح له الظلام

بذلك. إنه متوسط طول القامة، رث الثياب فيما يبدو، أشبه بعامل ثمل قليلاً. إن قبعة من الجوخ، منزوعة الحافة إلى النصف تقريباً، تغطي شعره القصير الأجدد الذي لا بد أنه أنه أكحل اللون. وهو نحيل أسمر الوجه، ولا شك أن عينيه سوداوان جداً، ساطعتان جداً، مصطبغتان بصفرة كأعين الغجر. إن المرء يحزر ذلك رغم الظلام الدامس. ولعله في الأربعين من العمر. ولم يكن سكراناً.

سأله نيقولا في سيفولودوفتش:

- أتعرفني؟

فأجاب الرجل:

- السيد ستافروجين، نيقولا في سيفولودوفتش ستافروجين. لقد دُللت عليك، يوم الأحد الأخير، منذ وقف القطار. ثم إننا قد سبق أن سمعنا عنك.

- دَلَّك عليَّ بطرس ستيفانوفتش؟ أنت... أنت فدكا السجين؟

- اسمنا الذي سُمِّونا به في التعميد هو فيدوروفتش⁽¹⁾. وما تزال أمانة حية، تقيم في هذه المنطقة. عجوز طيبة من خلق الله، لن تلبث أن توارى التراب، وهي ما تفك تصلي لله من أجلنا في الليل والنهار، حتى تكون شيخوختها نافعة.

- وقد فررت من السجن؟

... غيرت مهنتي في الحياة... فتخلصت من أثقالهم كلها.. ذلك أنني كنت محكوماً بالسجن إلى آخر الحياة. رأيت المدة طويلة جداً.

- ماذا تصنع هنا؟

- لا شيء يستحق الذكر. الأيام تنقضي سريعة. مات عمنا هنا في الأسبوع الأخير في السجن. للأمر علاقة بتزييف نقود. فأحييت ذكراه بأن رميت الكلاب ببضع عشرات من الحجارة. ذلك كل ما فعلناه حتى الآن. لكن بطرس ستيفانوفتش قد وعدني بأن أحصل على جواز سفر، بل على جواز

(1) يتحدث أبناء الشعب عن أنفسهم أحياناً بصيغة الجمع من باب التأدب.

سفر تاجر، كيما أستطيع أن أتجول في روسيا كلها، فأنا أنتظر أن يمنَّ عليَّ بتحقيق وعده. هو يقول: "إن أبي قد ضاع منك ثلاثة روبلات أثناء لعبك بالورق بالنادي الإنجليزي، وأنا أرى هذا عملاً ظالماً، عملاً غير إنساني"⁽¹⁾ هلاً تفضلت يا سيدي فأعطيني ثلاثة روبلات فأشرب كأساً فأندفأ.

- إذن كنت تترقب مروري! أنا لا أحب هذا... مَنْ أمرك به؟

- لم يأمرني أحد. لكنني أعرف عواطفك الطيبة. جميع الناس يتكلمون عن ذلك. أنت نفسك تعرف ما مواردنا نحن: حزمة علف أو ضربة شوكة في الكليتين. يوم الجمعة أكلت فطائر حتى أتخمت، وبعد ذلك بقيت يوماً بغير طعام، وفي اليوم التالي انتظرت، وفي اليوم الثالث شددت على بطني الحزام. غير أن النهر فيه ماء كثير، لذلك أربِّي أسماكاً... هذا كل شيء! أملي كله معقود إذن عليك. عرَّابتي تنتظر هنا. ولكن لا فائدة من المثل أمامها بغير شيء من المال.

- بماذا وعدك بطرس ستيفانوفتش مني؟

- الحق أنه لم يعدني بشيء، لكنه قال لي مصادفة أنني قد أستطيع أن أنفع سيادتكم، إذا واثت الظروف. أمّا عن هذه الظروف فإنه لم يتحدث حديثاً واضحاً. إن بطرس ستيفانوفتش يريد أن يمتحن صبري. إنه لا يوليني أية ثقة. لماذا؟

- بطرس ستيفانوفتش منجّم. يعرف جميع كواكب ربنا. ومع ذلك فإنه هو أيضاً غير خالص من العيوب. أنا هنا أمامك كأنني أمام العلي الأعلى، لأن سمعتك تجري في الشوارع. إن بطرس ستيفانوفتش هو بطرس ستيفانوفتش، أمّا أنت يا سيدي ففي رأي أنك شيء آخر. هو، إذا قال عن شخص إنه وغد، فقد قال كل شيء، ولا يحب أن يعرف شيئاً آخر عنه. وإذا قال عن شخص إنه أبله فقد انتهى الأمر، فليس هذا الشخص في نظره إلا أبله، على حين أن من الممكن، فيما يتعلق بي أنا أن أكون في أيام الثلاثاء وأيام الأربعاء أبلهاً،

(1) في عهد القنّانة كان يجوز بيع الخدم عبيداً أو التنازل عن امتلاكهم سداً لدين.

ثم أكون في أيام الخميس والجمعة ذكياً، بل أن أكون أذكى منه. هو يعلم الآن أنني أحترق رغبةً في الحصول على جواز سفر - لأن المرء في روسيا لا يستطيع أن يسير خطوة بغير جواز سفر - لذلك فهو يتخيل أنه وضع يده على روجي. أقول لك يا سيدي إنه من السهل عليه جداً أن يعيش في هذا العالم، لأنه يرى الناس على نحو ما يتخيلهم، فبين أولئك الناس الذين تخيلهم تخيلاً إنما يعيش. ثم إنه بخيل بخلاً فاحشاً. هو يتصور أنني لن أجرؤ أن أتعرف لك فأزعجك هذا الازعاج إلا بأذن منه. ولكنني أقول لك صادقاً كمن يقول لله نفسه: هذه هي الليلة الرابعة التي أنتظر في هذا الجسر، لأبرهن على أنني أستطيع الاستغناء عنه، وأن أجد طريقي وحدي. قلت لنفسى: لئن أنحني أمام الحذاء الجديد خير من أن أنحني أمام الخف المهترئ.

- فمن قال لك أنني سأعبر الجسر ليلاً؟

- أتعرف أنني عرفت هذا مصادفةً، أو قل بفضل غباوة الكابتن لبيادكين، ذلك أنه عاجز إطلاقاً عن كتمان سر.. والروبلات الثلاثة التي أطلبها إنما هي أجر انتظاري هنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، إنما هي ثواب ما تحملت من عناء. أمّا ثيابي المبتلة فلن نتكلم عنها حتى لا أسيء إليك.

- أتجه أنا يسرةً، وتتجه أنت يمناً. هنا نحن قد بلغنا آخر الجسر واسمع يا فيدور، إنني أحب أن أفهم منذ الكلمة الأولى مرةً إلى الأبد: لن تنال مني كوبكاً واحداً. ولست في حاجة إليك، ولن أكون في حاجة إليك يوماً، ولا تعترض طريقي، لا على هذا الجسر ولا في أي مكان آخر. فإذا عصيت أمري هذا أو ثقتك، وقدتك إلى الشرطة.

- ولكن عليك أن تعطيني شيئاً، على الأقل لأنني رافقتك. إن صحبة الطريق أمتع رغم كل شيء...

- امض!

- ولكن هل تعرف الطريق؟ هنا شوارع صغيرة!... في وسعي أن أكون دليلاً لك. ذلك أن هذه المدينة تشبه أن يكون الشيطان قد حملها في سلة مثقوبة، فتناثرت على الدرب تناثراً هنا وهناك...

- حذار!

- لاحظ يا سيدي أنني يتيم لا يملك ما يدافع به عن نفسه.

- بل أنت واثق بنفسك ثقة كبيرة.

- لا ياسيدي، لست واثقاً بنفسي إلى هذه الدرجة. إنما أنا واثق بك أنت.

- قلت لك إنني لست في حاجة إليك.

- ولكنني أنا في حاجة إليك. هذه هي المسألة. سأنتظرك في عودتك،

مهما يحدث!..

- يميناً لأوثقنك إذا وجدتك هنا.

- إذن سأمضي أهياً لك حبلاً توثقني به. أتمنى لك رحلة موفقة يا سيدي،

فقد ارتضيت على الأقل أن تحمي من المطر بمظلتك يتيماً مسكيناً. وحسبي

هذا حتى أظل شاكرًا لك صنيعك إلى أن أوارى في القبر.

قال الرجل هذا وغاب في الظلام. وتابع نيقولاي فسيفولودوفتش طريقه

مهموماً أشد المهم. إن هذا المخلوق الذي هبط عليه من السماء مقتنع اقتناعاً

تاماً بأن نيقولاي محتاج إليه، وأنه لن يستطيع الاستغناء عنه، حتى لقد أعلن

له ذلك بغير حياء. ولكن من الجائز أيضاً أن يكون هذا المتشرد كاذب، وأنه

عرض عليه خدماته بمبادرة منه هو، بدون علم بطرس ستيفانوفتش. فإذا

صحَّ هذا فإن وضعه يكون أدعى إلي المزيد من الاستغراب.

2

إن البيت الذي كان نيقولاي فسيفولودوفتش ذاهباً إليه يقع في آخر طرف

المدينة، في طريق مسدودة مقفرة بين سياجين تمتد وراءهما بسايتين خضار.

إنه بيت صغير منعزل خشبي قد بُني منذ برهة وجيزة، فجدرانه المكوّنة من

حطبات مدوّرة لم تُكسَّ بعدُ بألواح.

لقد تُرك مصراعاً إحدى النوافذ مفتوحاً عن عمد، وأشعلت في الداخل

شمعة فُصد منها أن تكون منارة يستهديها الزائر المتأخر المنتظر قدومه في

تلك الليلة.

وكان ستافروجين ما يزال على مسافة نحو ثلاثين خطوة من المسكن الصغير حين لاح له على درجات المدخل رجل طويل القامة، لعله رب البيت يرتقب وصول الزائر.

قال الرجل بصوت يدل على نفاد الصبر وعلى الخشية معاً: - أهذا أنت؟ فأجابه نيقولا في سيفولودوفتش حين وصل إلى درجات المدخل وطوى مظلته: - نعم، أنا!

فقال الكاتب لبياديكين (فهو الذي كان ينظر على الباب): - أخيراً!

ثم أضاف يقول بصوت فرح متعجل:

- هات المظلة، من فضلك! يا له من جو فظيع! سأفتح المظله هنا في ركن. ادخل، أرجوك، ادخل!...

وكان باب الغرفة التي تضيئها شمعتان مفتوحاً على مداه كله.

قال لبياديكين:

- لولا أنك وعدتني وعداً قاطعاً بأن تزورنا اليوم لكففت عن انتظارك.

قال نيقولا في سيفولودوفتش وهو ينظر في ساعته:

- هي الساعة الواحدة إلا رباعاً.

ودخل الغرفة.

قال لبياديكين:

- وفوق ذلك، هذا المطر الغزير! والمسافة بعيدة جداً. ليس عندي ساعة.

ولسنا نرى من نوافذنا إلا مزارع الخضار هذه... فلا نعلم بما يحدث ولا

نعرف ماذا يجري. لا أقول هذا من باب التشكي، فأنا لا أبيع لنفسي، لا

أبيع لنفسي... ولكنني أقوله لسبب واحد هو أن نفاد الصبر يأكلني أكلاً منذ

أسبوع كامل... أريد أخيراً أن أعرف...

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أريد أن أعرف مصيري يا نيقولا في سيفولودوفتش، اجلس، أرجوك.

قال لبياديكين ذلك وانحنى أمام زائره مشيراً له إلى مكان على الديوان

وراء المائدة.

نظر نيقولا في سيفولودوفتش حواليه. الغرفة صغيرة واطىء سقفها، لا تضم من الأثاث إلا ما لا غنى عنه: ديواناً وكراسي من خشب عارٍ بغير وسائل، ومائدتين من خشب الزيزفون قد وُضعت إحداهما أمام الكنبه ووضعت الأخرى في ركن. وهذه المائدة الأخيرة تتراكم فوقها أشياء شتى قد غُطيت بمنشفة نظيفة. ثم أن الغرفة كلها تبدو معتنى بها. إن الكابتن لبيادكين لم يسكر منذ ثمانية أيام. وقد اصطبغ وجهه المحتقن بلون ضارب إلى الصفرة. وهو يلقي على ستافروجين نظرات مستطلعة قلقه حيرى، وكان واضحاً أنه لا يدري بأيّ لهجة يتكلم ولا يعرف ما هو الوضع الذي يمكن أن يفيد أكثر من غيره.

قال وهو يشير إلى الأشياء التي تحيط به:

- هكذا أعيش كما يعيش زوسيم⁽¹⁾. زهد، وعزلة، وفقر، وفق الأمنيات الثلاث التي كان يتغنى بها الفرسان القدامى.

- هل تعتقد أن الفرسان القدامى كانوا يتغنون بأمنيات من هذا النوع؟
- لعل الأمور قد اختلطت عليّ. واحزنه! إنني امرؤ تعوزه الثقافة. لقد أفسدت على نفسي كل شيء. هل تصدق يا نيقولا في سيفولودوفتش؟ هنا إنما تخلصت لأول مرة من أهوائي المشينة وعيوبي المخجلة! لا كأس، بل ولا قطرة! أخيراً صار لي ركن، وأصبحت منذ ستة أيام أحس بالأفراح والمباهج التي يحس بها قلب نقي طاهر. الجدران نفسها يفوح منها شذى أشجار الصنوبر وتذكرني بالطبيعة. ماذا كنتُ حتى الآن؟ وماذا كان وضعي؟
في الليل بلا مأوى أعدو
ولساني متدل طول النهار⁽²⁾

على حد التعبير العبقرى الذي جرى به لسان الشاعر... ولكن.. ولكنك

(1) زوسيا هو اسم الراهب الذي أنشأ دير زولوفكي في الجزر المقفرة الخالية بالبحر الأبيض في القرن الخامس عشر.

(2) يروي لبيادكين هنا بيتين من قصيدة للأمير ب. آ. فيازمسيكي، وهما في سياقها لها معنى مختلف كل الاختلاف، فالأمر هنالك أمر عربية ترويكاً على الطرق الروسية.

مبتل تماماً... ألا تريد فنجاناً من الشاي؟

- لا تزعج نفسك.

- كان السماور يغلي ماؤه منذ ثماني ساعات... ولكنه انطفأ... كجميع الأشياء في هذا العالم. يقال إن الشمس ستنطفئ هي أيضاً ذات يوم... على كل حال، سأدبر الأمر إذا لزم. إن آجافيا لم تنم.

- قل لي: هل ماريا تيموفيثنا...

فأسرع لبيادكين يجيبه بصوت خافت:

- هي هنا. هي هنا. هل تريد أن تلقى نظرة؟

وأشار إلى الباب المغلق الذي يؤدي إلى الغرفة المجاورة.

- أهـي نائمة؟

- لا، لا، ما هذا الذي تقول؟ إنها تنتظرك منذ غروب الشمس. وهي منذ

علمت بالنبا عُنيت بزيبتها واهتمت بمظهرها.

وهمَّ لبيادكين أن يتسم، ولكنه أمسك.

سأله ستافروجين مقطباً حاجبيه:

- كيف حالها على وجه الإجمال؟

- على وجه الإجمال؟ تعرف أنت نفسك...

ورفع منكبيه واصطنع مظهر من اعترته شفقة، وأضاف:

- هي الآن تسحب أوراقاً من أوراق اللعب...

- طيب. سوف نرى هذا فيما بعد. يجب أولاً أن نفرغ منك أنت.

قال نيقولا في سيفولودوفتش ذلك وجلس على كرسي.

ولم يجرؤ الكابتن أن يجلس على الديوان فجلس على كرسي آخر

وانحنى إلى أمام ليحسن الإصغاء، قلقاً مهتماً أشد الاهتمام بما سيقوله له

نيقولا في سيفولودوفتش..

قال نيقولا في سيفولودوفتش وهو يلقي نظرة على المائدة:

- ماذا يوجد هناك تحت المنشفة؟

فالتفت لبيادكين إلى وراء بحركة قوية وقال:

- هذا؟ هذا كله من خيراتك وهباتك. للاحتفال بإقامتنا هنا. ثم إنني قدّرت أن الطريق طويل وأنت ستصل منهك القوة حتماً...
قال ذلك وهو يتسّم متحناً مترقّقاً. ثم نهض واتجه نحو المائدة سائراً على رؤوس الأصابع ورفع المنشقة باحترام واحتياط. كان على المائدة عشاء بارد كامل: شرائح من لحم الخنزير، ومن لحم العجل، وأسماك سردين، وجبن، وإبريق أخضر، وقنينة طويلة العنق لا شك أنها من خمرة بوردو. وكان ذلك كله حسن التنسيق يدل على أن يدا خبيرة قد أعدّته.
- أنت الذي هيأت هذا كله؟

- بنفسي. كان كل شيء جاهزاً منذ أمس. أردت أن أحتفي بك أنت. أنت تعلم أن ماريا تيموفيتشنا لا تكثر بهذه الأمور. ولكن الشيء الرئيسي هو أنني نلت ذلك كله من فضلك وكرمك. ذلك كله منك أنت. أنت هنا رب الدار، أمّا أنا فلست على وجه الإجمال إلا أجيراً لك بمعنى من المعاني، ذلك أنني يا نيقولا فيسولودوفتش احتفظ باستقلال الروس الروحي رغم كل شيء، رغم كل شيء. فلا تحرمني من هذه النعمة الأخيرة!
كذلك ختم الكابتن لبيادكين كلامه متحمساً.
قال ستافروجين:

- هم... ولكن هلاًّ عدت تجلس!..
- إنني أحمل لك أعظم الامتنان، ولكنني احتفظ باستقلالي!
وعاد يجلس متابعاً كلامه بقوله:

- آه يا نيقولا فيسولودوفتش! ما أكثر الأشياء التي تراكمت في هذا القلب!... لقد أرهقت من انتظارك. سوف تقرر مصيري الآن ومصير... هذه المسكينة الشقية، ثم بعد ذلك... بعد ذلك... كما كنت أفعل في الماضي، سأسكب أمامك كل ما يفيض به قلبي، كما كنت أفعل منذ أربع سنين. ذلك أنني كنت تتنازل فترضى أن تصغي إليّ حينذاك، وكنت تقرأ أشعاري... ماذا يهمني أنني لُقيت بلقب فالستاف! لقد لعبت في حياتي دوراً كبيراً!... وأنا أشعر اليوم بمخاوف كبيرة، ومنك وحدك إنما أنتظر الغوث والنجدة، لأنك

أنت ضيائي. إن بطرس ستيفانوفتش يعاملني بقسوة بالغة.

كان نيقولا يفسيفولودوفتش يصغي إليه باهتمام، محدقاً إليه بنظرة ثابتة متنبهة... ورغم أن الكابتن كان قد انقطع عن السكر، فإنه لم يكن قد استرد انسجامه النفسي وتوازنه الروحي. إن المدمنين على الشراب ينتهي بهم الأمر في العادة إلى أن يصبحوا لا يستطيعون الخروج عن حالة الاضطراب والتشوش التي تتاخم الجنون، ولكنها لا تمنعهم من أن يخدعوا ويضللوا ويمكروا كغيرهم سواء بسواء، إذا اقتضى الحال.

قال نيقولا يفسيفولودوفتش بلهجة أصبحت أرق:

- أرى يا كابتن أنك لم تتغير أي تغير منذ أربع سنين. صدق الذين زعموا إذن أن النصف الثاني من عمر الإنسان إنما تحدده العادات التي يكون قد اكتسبها خلال النصف الأول.

هتف الكابتن يقول بحماسة كلها تظاهر، لأنه كان من المولعين بالعبارات الجميلة:

- أقوال رائعة! حُلْ لغزُ الحياة! من أحاديثك كلها يا نيقولا يفسيفولودوفتش ما أزال أحتفظ خاصةً بتلك الجملة التي نطقت بها في بطرسبرج: "لا بد أن يكون الإنسان عظيماً كل العظمة حقاً حتى يستطيع أن يقاوم العقل".

- أو أن يكون أحق كل الحماسة.

- ممكن، إذا شئت. إنك لم تنقطع يوماً عن نشر مثل هذه الومضات الفكرية الحلوة، أمّا هم... فليحاول ليبتوتين أو بطرس ستيفانوفتش معي!

- ولكن كيف كان سلوكك أنت يا كابتن؟

- كان الذنب في ذلك ذنب السكر وكثرة الأعداء. أمّا الآن فقد انتهى هذا كله، وسوف أغير نفسي كما تغير الحية جلدها. هل تعلم يا نيقولا يفسيفولودوفتش أنني أكتب وصيتي، بل إنني كتبته؟

- هذا شائق جداً. ماذا تورث، ومن تورث؟

- أورث وطني، أورث الإنسانية، أورث الطلبة. نيقولا يفسيفولودوفتش،

لقد قرأت في الصحف قصة حياة أمريكي. لقد أوصى بثروته لطلبة الأكاديمية بالمنطقة، وأوصى بأن يُجعل جلده طبول يُقرع عليه النشيد الأمريكي ليلاً نهاراً. واأسفاه! ما نحن إلا أقزام معتوهون بالقياس إلى الأمريكيين، وبالقياس إلى جسارة تفكيرهم. إن روسيا طيبة لا فكر. فلو حاولت أن أوصي بجلدي ليُصنع منه طبلٌ يُهدى إلى جيش أخمولنسك⁽¹⁾ الذي شرفت بالخدمة فيه أول أمري، من أجل أن يُعزف عليه النشيد الوطني الروسي أمام الجنود مجتمعين، لأُتهمت باللبرية، ولصودر جلدي... لذلك اكتفيت بأن أورث الطلبة. أريد أن أوصي بعظامي لأكاديمية العلوم، ولكن على شرط أن يلصق فوق جمجمتي وريقة تكتب عليها هذه العبارة: "جمجمة ملحد تاب وأناب".

كان الكابتن قد انتعش وتحمس. إن فكرة المليونير الأمريكي قد بثت فيه حماسة صادقة. ولكن لما كان من جهة أخرى ماکراً فقد أراد كذلك أن يضحك ستافروجين الذي طالما قام لديه بدور المهرج. غير أن نيقولا ي فسي فولودوفتش لم يتسم. بالعكس: ها هو ذا يسأل مشتبهاً مرتاباً:

- أنتوي إذن أن تنشر وصيتك أثناء حياتك فتتال مكافأة؟

- هب هذا يا نيقولا ي فسي فولودوفتش! ماذا لو كانت هذه هي نيتي فعلاً؟

كذلك سأل لبيادكين متروياً محاذراً، وأضاف يقول:

- انظر إلى أين وصلت الآن! لقد انقطعت حتى عن نظم الشعر. وكنت أنت مع ذلك تجد متعة في قراءة قصائدي الصغيرة يا نيقولا ي فسي فولودوفتش بينما أنت تُفرغ زجاجة من خمرة طيبة... هل تتذكر؟ لكنني هجرت قلمي. لم أكتب بعد ذلك إلا قصيدة واحدة، شيئاً من نوع "القصة الأخيرة" التي كتبها جوجول وفيها يعلن لروسيا أنه قد انتزع هذا العمل من صدره⁽²⁾ أنا أيضاً

(1) أخمولنسك مدينة صغيرة في سيبيريا الغربية.

(2) يتحدث جوجول في وصيته (راجع الفصل الأول من رسائله إلى أصدقائه، 1847) عن "قصة وداعه" يصفها بأنها أغنية نابعة من القلب، ويجب أن لا تنشر إلا بعد موته. ولكن أحداً لم ير هذه القصة يوماً، وأغلب الظن أنها لم تكتب أبداً.

نظمت أغنيتي الأخيرة. انتهى!

- ما هذه القصيدة؟

- عنوانها: "إذا كُسرت ساقها".

- كيف؟

لم يكن الكاتب ينتظر إلا أن يلقي عليه هذا السؤال. كان يقدر أشعاره قدرًا كبيراً. لكنه بحكم ازدواج نفسه كان يسعدده كذلك أن يضحك ستافروجين الذي كان في الماضي يضحك إلى حد التلوي أثناء الاستماع إليه. فبذلك كان كلا الشاعر والمهرج يجدان ضالتهما. على أن الكاتب كان في هذه المرة يرمي إلى هدف آخر، هدف دقيق حرج: كان يريد من إنشاد أشعاره أن يبرئ نفسه في أمر كان يخشاه كثيراً، وكان يشعر فيه بأنه مذنب آثم.

- "إذا كُسرت ساقها"، أي أثناء ركوبها الخيل. ما هذا إلا نزوة خيال يا نيقولا في سيفولودوفتش، ما هو إلا حلم، لكنه حلم شاعر: في ذات يوم، صادفت في الشارع سيدة تلبس ثوب الأمازون الذي تلبسه الفاراسات، فخطف منظرها بصري، فألقيت على نفسي عندئذ هذا السؤال: "ماذا يحدث إذا...". أي إذا... إن الجواب واضح. سترجع جميع المعجبين، جميع المؤلهين بها، الطامحين إليها... صباح الخير، مساء الخير. ولا يبقى إلا الشاعر". يا نيقولا في سيفولودوفتش، إن الحب مباح، حتى لأحقر حقير، حتى لقمل... ما من قانون يستطيع أن يمنع ذكر القمل أن يحب. ومع ذلك انزعجت السيدة من رسالتي وأشعاري، ويظهر أنك أنت أيضاً قد غضبت. فإذا صدق هذا فهو أمر مؤسف جداً. حتى لقد رفضت أن أصدقته. من ذا الذي يمكن أن تُلحق به أخيلتي أذى؟ ثم إنني أحلف لك أن الذنب في هذا ذنب لبيوتين: لقد ظل يلح عليّ قائلاً: "اكتب إليها، اكتب إليها، كل إنسان يحق له أن يكتب رسائل". وهكذا أرسلت إليها أشعاري.

- بل أعتقد أنك طمحت إلى التزواج منها، أليس هذا صحيحاً؟

- هذه تخرّصات أعدائي. إنني محاط بأعداء لا حصر لهم.

قاطعته ستافروجين قائلاً بخشونة:

- اقرأ أشعارك.

فقال لبيادكين:

- ما هي إلا حلم، إلا نزوة خيال، لا أكثر من ذلك...

ومع ذلك نصب جذعه، ورفع يده، وأخذ ينشد:

حلوة الحلوات فقدت ساقاً

فإذا هي أحلى مرتين

وإذا الذي كان يحبها كثيراً

أصبح مولهاً بها ضعفين.

قال ستافروجين وهو يحرك يده بإشارة نفاذ الصبر:

- كفى!

فإذا بالكابتن لبيادكين يقفز فوراً إلى موضوع آخر، كأن الحديث لم يكن عن أشعاره أبداً، فيقول:

- إنني لا أنقطع عن الحلم ببطرسبرج. إنني أتطلع إلى بعث نفسي أيها المحسن إليّ، هل يمكنني أن أوصل أن لا تضن عليّ بما أحتاج إليه للقيام بهذه الرحلة إلى بطرسبرج؟ لقد انتظرتك طوال هذا الأسبوع، كما تُنتظر الشمس.

- لا، لا، لا تعوّل على هذا. لم يكذب يبقّى معي شيء من مال، ثم علام أعطيك مالاً؟

كذلك قال ستافروجين وقد ثار حنقه فجأة.

وأخذ يعدّد جميع الأخطاء التي ارتكبها الكابتن: أكاذيبه، إدمانه على السكر، تبديده المال الموقوف على ماريّا تيموفيتشنا التي أخرجت من الدير، الرسائل الوقحة، التهديدات بالكشف عن أمر الزواج، الشائعات الكافية عن داريا بافلوفنا، إلخ. فكان الكابتن يضطرب على كرسيه، ويُجري حركات وإشارات عريضة، ويحاول أن يحتج، ولكن نيقولا يفسيفولودوفتش ستافروجين كان يوقفه بشدة وصرامة. وقال له أخيراً:

- إنك تتكلم طول الوقت عن "عار لحق بأسرتك". فأني عار يلحق بك إذا

كانت أختك هي زوجة ستافروجين الشرعية؟

قال لبيادكين:

- ولكن الزواج بقي مكتوماً يا نيقولا ي فسيقولودوفتش، بقي مكتوماً. هذا سر محتوم. إنني أتلقى منك مالاً فأسأل: "لماذا يبعث إليك هذا المال؟". وأنا متقيد بما عاهدت عليه، فلا أستطيع أن أجيب، وبذلك أسيء إلى أختي، وأسيء إلى شرف الأسرة.

كان الكابتن قد رفع صوته. ذلك موضوع كان يؤثر فيه تأثيراً خاصاً، وكان هو يعوّل على استغلاله لمصلحته. لم يوجس المسكين ما كان ينتظره. وها هو ذا نيقولا ي فسيقولودوفتش ينبئه بلهجة هادئة، كأنه يسوّي مسألة منزلية، بأنه سوف يذيع على الملأ في خلال الأيام القليلة القادمة، وربما غداً أو بعد غد، نبأ زواجه، وأنه "سُعلم به الشرطة والمجتمع"، وأن قصة "العار الذي لحق بالأسرة" ستسوّى حينذاك، وكذلك مسألة المساعدات.

حملق الكابتن بعينه. حتى إنه لم يفهم، فاضطر ستافروجين أن يمدّه بإيضاحات دقيقة.

قال لبيادكين:

- ولكنها... نصف مجنونة...

- سأدبر أموري وأتخذ إجراءاتي.

- ولكن... ما عسى تقول أمك؟

- لتُقلّ ما تشاء!

- ولكن سيكون عليك أن تدخل زوجتك إلى منزلك...

- ربما. على كل حال، هذا ليس شأنك، ولا علاقة لك به البتة!

صاح الكابتن يقول:

- كيف؟ وأنا ماذا أصير في هذه الحالة؟

- لن تدخل بيتي طبعاً.

- لكنني أخوها.

- الأخوة الذين يكونون مثلك يُبعدون. اقض في الأمر أنت نفسك: لماذا

ينبغي لي أن أعطيك مالا إذا أذعت زواجي في الملاء؟

- نيقولا في سيفولودوفتش، نيقولا في سيفولودوفتش! هذا غير ممكن!
فكر مزيداً من التفكير! إنك لن تريد أن تضيع نفسك... ما عسى يظن الناس
فيك؟ ما عسى يقولون عنك؟

- يستوي عندي كل شيء. لقد تزوجت حين استبدت بي هذه النزوة من
نزوات الخيال بعد عشاء كثرت خموره، من أجل أن أريح بضع زجاجات من
الخمرة راهنوا عليها ضدي... والآن سوف أعلن هذا الزواج إذا كان ذلك
يسليني ويضحكني.

قذف ستافروجين هذه الجملة الأخيرة بلهجة حانقة حنقاً شديداً روع
الكابتن فجعل يأخذ كلامه مأخذ الجد.

- ولكن أنا؟ ماذا أصير أنا في هذه الحالة؟... ذلك هو السؤال الأساسي!
أترك تمزح يا نيقولا في سيفولودوفتش؟
- لا، لا أمزح.

- قل ما تشاء يا نيقولا في سيفولودوفتش. إنني لا أصدقك... سأتجه إلى
المحاكم.

قال ستافروجين:

- أنت غبي غباءً خارقاً يا كابتن.

فدمدم لبيادكين يقول:

- جائز. ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله. في الماضي،
حين كانت تعمل للناس ببطرسبرج، كنت ما أزال أستطيع أن أجِد لي مأوى
هنا أو هناك. ولكن ما الذي أصير إليه إذا أنت تركتني؟

- كنت أظن أنك ذاهب إلى بطرسبرج لتغير طراز حياتك. بالمناسبة: لقد
سمعت أنك تستعد للوشاية بجميع الآخرين، أملاً في الحصول على عفو
عنك. هل هذا صحيح؟

لبث الكابتن فاغر الفم محملق العينين.

فبدأ ستافروجين يتكلم بجذور صانة ووقار، مائلاً على ضيفه، قائلاً له:

- اسمعني يا كابتن...

كان ستافروجين قد تكلم حتى ذلك الحين بطريقة ملتبسة بحيث أن لبيادكين الذي اعتاد أن يمثل دور المهرج كان ما يزال يراوده شيء من شك، فكان يتساءل: تُرى هل مولاه غاضب منه حقاً أم هو يضحك عليه؟ أهو يفكر في إذاعة نبأ زواجه على الملأ فعلاً أم أنه يسخر منه ويتسلى به؟ غير أن ما اتخذه وجه نيقولا في سيفولودوفتش من قسوة وجهامة قد ذهب بآخر شك عند لبيادكين فيما يظهر، فسرت في ظهر الكابتن قشعريرة باردة.

تابع ستافروجين كلامه يقول:

- تسمعني يا كابتن جيداً وقل لي الحقيقة كلها، هل وشيت بالآخرين أم أنت لم تش بهم؟ أشرعت في شيء أم لا؟ ألم ترتكب حماقة فترسل رسالة ما؟

- لا، لم أفعل بعد... بل إنني لم يخطر هذا ببالي أبداً.

بذلك أجاب لبيادكين ثابت النظر.

قال له ستافروجين:

- أنت تكذب. إن ذلك يخطر ببالك. إنك تفكر فيه. بل إن الغاية الوحيدة التي تستهدفها من السفر إلى بطرسبرج هي هذا الأمر. إذا كنت لم تكتب بعد، أفلم تثرثر على الأقل؟ قل الحقيقة: لقد سمعت أشياء عن هذا! تتم الكابتن المسكين يقول:

- قلت بضع كلمات لليوتين وأنا سكران. إن ليوتين خائن. لقد فتحت له قلبي.

- ليست المسألة مسألة قلبك، وإنما المسألة أن لا يكون المرء غيباً أحمقاً. إذا كانت هذه الفكرة قد خطرت ببالك فلقد كان ينبغي لك على الأقل أن تحتفظ بها لنفسك سرّاً مكتوماً لا تفضي به إلى أحد. الأذكيا يعلمون اليوم أن الصمت خير من الكلام.

صاح الكابتن يقول مرتعشاً:

نيقولاى فسيفولودوفتش، ولكنك أنت لم تشارك في شيء، ولست أنت من وشيت به...

- طبعاً، لم يخطر ببالك في يوم من الأيام أن تشي ببقرتك الحلوب!
- نيقولاى فسيفولودوفتش، أترك لك أن تقضي في الأمر بنفسك، أن تقضي في الأمر بنفسك!...

قال لبيادكين ذلك وهو يبكي يائساً، وطفق يروي بصوت لاهث قصة حياته خلال هذه السنين الأربع الأخيرة. إنها قصة بلهاء لرجل أحرق، أقحم نفسه في قضية لا شأن له بها البتة، وظل إلى آخر لحظة لا يفهم خطورة هذه القضية، لانشغاله بالسكر والقصف واللهو.

روى لبيادكين أنه حين كان لا يزال ببطرسبرج قد انجرف في بداية الأمر من باب الصداقة، "من حيث هو طالب مع أنه لم يكن طالباً"، فأخذ - وهو لا يدري ماذا يفعل - يرمي نشرات تحريضية في سلال المنازل، ويدس منها عشرات تحت الأبواب وفي صناديق البريد، ويحمل منها إلى المسرح فيضعها في قبعات المشاهدين وجيوبهم. وصار في النهاية يقبل أن يتقاضى مالاً "فأنت تعرف مواردتي، تعرفها، أليس كذلك؟". ثم وزع أنواعاً شتى من المنشورات في ولايتين. "آه يا نيقولاى فسيفولودوفتش، إن ما كان يثيرني أكثر من كل ما عداه هو أن ذلك جميعه كان مخالفاً للقوانين المدنية مخالفة مطلقة، ولا سيما لقوانين الوطن!" كذلك صاح يقول الكابتن، وأضاف شارحاً: "من ذلك مثلاً قولهم أن على الفلاحين أن يتسلحوا بفؤوسهم، فإذا الذين يخرجون في الصباح فقراء، يعودون في المساء أغنياء. فكّر في هذا الكلام! لقد كنت أرتعش هولاً، ومع ذلك استمرت في توزيع هذه الأوراق! أو ربما كان المنشور⁽¹⁾ نداءً يتألف من خمسة أسطر أو ستة، موجهاً إلى روسيا كلها: "أغلقوا الكنائس بأقصى سرعة، اعدموا الله، ألغوا الزواج، أزيلوا الإرث، تسلحوا بسكاكين!" وأشياء من هذا النوع لا يعلم بها إلا

(1) المنشور المقصود هنا هو النداء المعروف الذي وزع سراً بعنوان "روسيا الفتاة".

الشیطان!... وحين كنت أوزع هذه الورقة إنما أوشكت ذات مرة أن أعتقل. ولكن ضربني الضباط في الكتفة ضرباً مبرحاً، ثم أطلقوا سراحى... بارك الله في كرمهم وسماحتهم! ثم، في السنة الأخيرة، كدت أن يقبض عليّ حين أعطيت كارافاييف ورقة بخمسين روبلاً من صنع فرنسا. ولكن أحمد الله على أن كارافاييف الذي كان سكران قد غرق في غدير فخرجت أنا من المأزق. وهنا، عند فرجنسكي، ناديت بحق المرأة في الحب. وفي شهر حزيران (يونيه) طفقت أوزع نشرات في مقاطعة س... من جديد. ويبدو أنهم يريدون إجباري على الاستمرار في القيام بهذا العمل. لقد أبلغني بطرس ستيفانوفتش أن عليّ أن أطيع: إنه يهددني منذ مدة طويلة. آه... ليتك تعلم كيف عاملني يوم الأحد الماضي! نيقولاى فسيفلودوفتش، إنني عبد، إنني دودة من دود الأرض. ولكنني لست إلهاً، وبهذا إنما أختلف عن دريافين⁽¹⁾. غير أنك تعرف مواردى!

كان نيقولاى فسيفلودوفتش يصغى إليه باهتمام. فقال:

- علمت أشياء لم أكن أعرفها. طبعاً لا شيء مستحيل على رجل مثلك. ثم أضاف بعد لحظة تفكير يقول:

- اسمع، إن شئت قل له، قل للذي تعرفه منهم إن ليوتين قد كذب، وإنك لم تشأ إلا أن تخيفني مهدداً بالوشاية بي، لافتراضك أنني أنا أيضاً معرض للخطر، وذلك بغية أن تطلب مني مزيداً من المال... هل فهمت؟ - نيقولاى فسيفلودوفتش، هل تعتقد حقاً أنني مهدد بخطر؟ لقد انتظرتك مدة طويلة لأسألك النصيح.

ابتسم نيقولاى فسيفلودوفتش ابتسامة ساخرة. وقال له:

- هبني أعطيتك مالاً فإنهم لن يدعوك تسافر... ولكن آن لي أن أذهب إلى ماريا تيموفيتشنا.

(1) هو جبريل دريافين (1816-1743): شاعر مشهور له قصيدة ذاع صيتها كثيراً عنوانها "رب"، وفيها هذا البيت الذي أصبح كلاسيكياً: أنا ملك، أنا عبد... أنا دود، أنا رب

ونهض.

قال لبيادكين:

- نيقولاي فسيفولودوفتش؟ وما مصير ماريا تيموفيفنا؟

- قلت لك.

- هل يعقل أنك كنت تتكلم جاداً؟

- أمازلت لا تصدقني؟

- هل يُعقل أن ترميني كما يُرمى حذاء مهترى؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكاً:

- سوف أرى. هيّا. دع لي أن أمرّ!

- ألا تريد أن أبقى على درجات المدخل حتى لا أتعرّض لأن أسمع، رغم

إرادتي؟... إن الغرف صغيرة جداً.

- فكرة حسنة. اخرج إلى درجات الباب. ولكن خذ مظلتني.

- مظلة... مظلتك؟ أنا أستحق هذا الشرف؟

بذلك تتمم الكابتن وهو يبالغ في المذلة.

قال ستافروجين:

- كل إنسان جدير بمظلة.

فأجاب لبيادكين:

- بهذه الجملة عيّنت "الحد الأدنى" للحقوق الإنسانية دفعة واحدة...

لكن لبيادكين كان يتكلم آلياً. لقد صعقته الأنباء التي سمعها فهو لا

يستطيع أن يثوب إلى رشده وأن يسيطر على نفسه؟

ومع ذلك فإنه ما إن أصبح على درجات المدخل ونشر المظلة، حتى

أخذت ترتسم في ذهنه الطائر الماكر فكرة مهدئة ومألوفة. قال لنفسه: لا

شك أنه قد أريدَ خداعه، وتخويفه، فليس عليه هو أن يخاف.

وقال يحدث نفسه: "إذا كان يمكر ويكذب، فذلك دليل على أن ثمة شيئاً

يريد إخفاءه." لم يستطع لبيادكين أن يصدّق ما قاله له ستافروجين من أنه

سيذيع نبأ الزواج على الملأ، هذا مستحيل. "صحيح أن في وسع المرء أن

يتوقع من مثل هذا الرجل كل شيء. فهو لا يحيا إلا ليسيء إلى البشر. ولكن لعله خائف مني منذ فضيحة يوم الأحد، لعله خائف مني الآن أكثر مما كان خائفاً في أي يوم من الأيام... لعله إنما أسرع يؤكد لي أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ خشية أن أسبقه أنا إلى ذلك. دعك من السخافات يا لبيادكين! إذا لم يكن خائفاً من رأي الناس فلماذا جاء في الليل، مختبئاً كاختباء لص؟ وإذا كان خائفاً، فهو إذن خائف مما سيحدث الآن، في غضون الأيام التالية... كن على حذر يا لبيادكين! كن يقظاً!...

"إنه يريد أن يخيفني ببطرس ستيفانوفتش. وهذا مخيف حقاً... ما كان أغباني حين تحدثت إلى لبيوتين. الشيطان وحده يعرف ماذا يهيء هؤلاء الأبالسة. إنني لم أفهم من أمرهم شيئاً في يوم من الأيام. ها هم أولاء يتحركون ويسعون هنا وهناك كما كانوا يفعلون منذ خمسة أعوام. ولكن لمن كان يمكن أن أشي بهم؟" ألم ترتكب حماقة فتكتب إلى أحد؟". هم... معنى هذا أن من الممكن أن يكتب المرء متظاهراً بالحماقة والبلاهة. "من أجل هذا إنما تريد أن تسافر إلى بطرسبرج". يا للوغد! أنا إنما راودني هذا حلماً من الأحلام، فكيف أمكنه أن يضبطني متلبساً بالحلم نفسه. لكأنه يريد أن يدفعني هو نفسه إلى القيام بهذه الرحلة. هناك حالتان يجب النظر فيهما. حالتان لا ثالث لهما، فإما أنه خائف لأنه ارتكب عملاً طائشاً ما، وإما أنه ليس خائفاً من شيء فهو يريد أن يدفعني إلى الوشاية بالآخرين!... آه... لبيادكين... إياك أن تقع في الفخ!...". وبلغ لبيادكين من الاسترسال في خواطره هذه أنه نسي حتى أن يصيخ سمعه إلى ما كان يجري في الغرفة الثانية. ولكن كان يصعب أن يسمع شيئاً ما، فالباب سميك، والحديث يجري بصوت خافت.

وإذ لم يستطع الكابتن لبيادكين أن يسمع إلا بضعة أصوات غير متميزة، بصق من شدة الغضب، وعاد يصفر على درجات المدخل شارد الذهن.

إن غرفة ماريا تيموفيتشنا، المزدانة بسجادة رائعة، أوسع من غرفة الكابتن مرتين. ولكن الأثاث الذي فيها أثاث بسيط كل البساطة أيضاً مصنوع صناعة غليظة كذلك. على أن غطاء زاهي الألوان كان يغطي المائدة الموضوعة أمام الديوان وفوقها مصباح مُشتعل. وهناك ستارة منشورة على طول الغرفة، تخفي السرير عن الأنظار. وعلى مقربة من المائدة يوجد أيضاً مقعد منجد ظهره، غير أن ماريا تيموفيتشنا لا تجلس عليه أبداً. وثمة فنديل صغير كان يشتعل أمام أيقونة في أحد الأركان. وعلى مائدة ماريا تيموفيتشنا صُفَّت جميع الأشياء التي هي بحاجة

إليها: ورق لعب، مرآة صغيرة، كتاب أغان، ورغيف خبز باللبن، وكذلك كتابان مصوران أحدهما يضم قصص رحلات مما يقرؤه الشباب، والثاني يضم أساطير من القرون الوسطى.

كانت ماريا تيموفيتشنا تنتظر الزائر، كما قال الكابتن. ولكن حين دخل نيقولاي فسيفولودوفتش وجدها نائمة وقد اضطجعت نصف اضطجاع على الديوان مسندة رأسها إلى وسادة. فأغلق ستافروجين الباب بغير ضوضاء وأخذ يتأمل النائمة دون أن يتحرك من مكانه.

كذب لبيادكين: لم تكن ماريا تيموفيتشنا قد أبدلت هندامها وعُنت بزيبتها. إنها ترتدي ذلك الثوب القاتم نفسه الذي كانت ترتديه يوم الأحد الماضي عند فر فارا بتروفا. وما يزال شعرها معقوداً خلف عنقها كبة صغيرة. وكانت عنقها الطويلة الجافة عارية. أمّا الشال الأسود الذي كانت فر فارا بتروفا قد أهدهت إليها فقد كان إلى جانبها مطويّاً بعناية كبيرة على الديوان. وكان وجهها مثقلاً بالمساحيق والأصباغ على عاداتها.

وما كادت تنقضي على دخول نيقولاي فسيفولودوفتش دقيقة واحدة حتى استيقظت ماريا تيموفيتشنا بغتة، كأنما هي قد أحسّت نظرتة، ففتحت عينيها وانتصب جذعها بحركة قوية. ولكن كأن شيئاً غريباً كان يجري في

ذهن الزائر: ظل جامداً قرب الباب يحدّق إلى وجه العرجاء تحديقاً عنيداً بنظرة نافذة. ولعل هذه النظرة قد بدت للمرأة قاسية، أو لعل المرأة قرأت فيها الاشمئزاز، أو لعل المرأة توهمت توهماً لا أكثر، ولكن مهما يكن من أمر، فإن تعبيراً عن الارتياح الشديد والذعر القوي يشنّج وجه الفتاة المسكينة بعد انتظار بضع لحظات، ثم إذا هي ترفع ذراعيها فجأة كأنما لتحمي نفسها، وإذا هي تجهش باكية منتحبة، تماماً كما يفعل طفل خاف. فلو انقضت لحظة أخرى، لأخذت تصرخ مستغيثة. ولكن الزائر صحا من شروده وثاب إلى نفسه، فبدلت هيئته حالاً، واقترب من المائدة وهو يتسم ابتسامة لطيفة ودوداً. وقال للفتاة وهو يمد إليها يده:

- سامحيني يا ماريّا تيمو فيئفنا! لقد روعتك إذ دخلت عليك فجأة بغير استئذان.

فسرعان ما فعلت هذه الكلمات اللطيفة فعلها في نفس الفتاة. فزال رعبها، لكنها ما برحت تنفرس في ستافروجين، بشيء من القلق، وكان واضحاً أنها تبذل جهداً من أجل أن تفهم ما يحدث. ومدت إليه يدها خجلى وخجلى، ثم ظهرت على شفيتها في آخر الأمر ابتسامة.

دمدمت تقول وهي تلقي عليه نظرة غريبة:

- نعمت صباحاً يا أمير.

فقال الأمير مبتسماً بمزيد من المودة والبشاشة:

- أغلب الظن أنك كنت ترين حلماً ثقيلاً.

- ولكن كيف عرفت أنني حلمت "بهذا".

ثم عادت ترتجف فجأة، وارتدت إلى وراء، رافعةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها، وبدا عليها أنها توشك أن تعود إلى البكاء. فقال لها ستافروجين ملحاً:

- هلاً رجعت إلى رشذك! مم أنت خائفة؟ هل يُعقل أن لا تكوني قد عرفتني؟

ولكنها لم تهدأ في هذه المرة إلا بعد برهة طويلة. كانت تنظر إليه صامتة، وقد استبد بها قلق أليم. كان واضحاً أنها تحاول أن تستجلي فكرة تعذبها فلا

تستطيع إلى ذلك سبيلاً. فهي تارة تخفض عينيها وتارة تلقي على ستافروجين نظرة سريعة. وفجأة بدا عليها أنها اتخذت قراراً رغم أنها لمّا تسترد هدوءها بعدُ كاملاً.

قالت له بصوت ثابت جازم:

- اجلس إلى جانبي، أرجوك، حتى أستطيع أن أراك من قرب فيما بعد.

واضح أنها اهتدت الآن إلى الفكرة التي كانت تبحث عنها.

وتابعت كلامها تقول:

- لن أنظر إليك حالاً، بل سأخفض عينيّ. وأنت أيضاً لا تنظر إليّ، إلى أن

أرجوك أن تفعل.

ثم ألحت قائلة بشيء من التملل:

- ما بالك لا تجلس! هلاً جلست!

كان واضحاً أن هناك فكرة جديدة تتضح لها شيئاً بعد شيء.

فجلس ستافروجين وانتظر. وساد صمت طويل. ثم دمدمت تقول أخيراً

بما يشبه الاشمئزاز:

- هم... ذلك كله يبدو لي قريباً جداً. إن أحلاماً سيئة تطاردني، ولكن

لماذا رأيتك أنت في الحلم منذ هنيهة، كما أنت الآن تماماً؟

قال ستافروجين متذمراً وهو يلتفت إليها رغم حظرها عليه ذلك:

- لنترك الأحلام.

وظهر في وجهه ذلك التعبير نفسه الذي ألمّ بقسماته سريعاً منذ قليل.

وكان يرى أن ماريّا تيموفيتشنا ترغب رغبة قوية في أن ترفع بصرها نحوه،

ولكنها تحجم عن ذلك، مستمرة على النظر إلى أرض الغرفة بعناد.

قالت وهي ترفع صوتها فجأة:

- اسمع يا أمير، اسمع يا أمير...

فهتف ستافروجين يسألها فاقداً صبره:

- لماذا تشيحين؟ لماذا لا تنظرين إليّ؟ ما هذه المسرحية؟

ولكن بدا كأنها لم تسمعه. وكررت تقول للمرة الثالثة بلهجة جازمة وقد

اتخذ وجهها تعبيراً عن الهمّ والعداء:

- اسمع يا أمير. حين قلت لي في العربة ستذيع نبأ الزواج على الملأ أخافني أن أعلم أن السر سينكشف. لا أدري ماذا أصنع! لقد فكّرت طويلاً، وإني لأرى الآن رؤية واضحة أنني لا أناسبك البتة. صحيح أنني سأعرف كيف أتزين، وقد أحسن أيضاً استقبال الناس: إن تقديم فئجان من الشاي ليس بالأمر الصعب كثيراً، لا سيما حين يكون للمرء خدم. ولكن، رغم كل شيء، ما عسى يقول الغرباء؟... لقد أدركت يوم الأحد كثيراً من الأمور في ذلك المنزل. كانت الأنسة الجميلة لا تنفك تنظر إليّ، ولا سيما بعد دخولك. أنت الذي دخلت عندئذ؟ ألسنت أنت الذي دخلت؟ أمّا أمها فما هي إلّا امرأة مضحكة من نساء المجتمع. وكذلك كان لبيادكين مضحكاً. حتى لقد أخذت أنظر إلى السقف طول الوقت من أجل أن لا أضحك. كان دهانه جميلاً، ذلك السقف. وأما أمه "هو"، فقد خلقت لتكون رئيسة دير. إني أخاف منها. لقد أعطتني مع ذلك شالاً أسود. لا شك أنهم جميعاً قد قالوا في حقي سوءاً. ولكنني لا أحقد عليهم. قلت لنفسني في ذلك اليوم: أنا لا أصلح أن أكون قريبة لهؤلاء الناس. صحيح أن الكونتيسة لا تطلب منها إلّا مزايا نفسية، لأن لديها خدماً كثيرين يقومون بأعمال المنزل. وإنما ينبغي لها في أكثر تقدير أن تكون على شيء من "الغندرة"، حتى تستطيع أن تحسن وفادة المسافرين الأجانب. ومع ذلك فإنهن جميعاً كن ينظرن إليّ يوم الأحد ذاك وقد لاح في وجوههن كرب ويأس. داشا وحدها ملاك. إني أخشى كثيراً أن يؤلموه "هو" بإبداء ملاحظة متسرعة في حقي.

قال نيقولا فيسيفولودوفتش غاضباً:

- لا تخشي شيئاً، ولا تقلقي!

- وهبه أحس بشيء من العار، فلن يغضبني ذلك، لأن الشعور بالشفقة يغلب على الشعور بالعار، وإن كان ذلك يختلف باختلاف الناس طبعاً. وإني لأعلم أنهم أحق بشفقتي مني بشفقتهم.

- أظن أنهم جرحوك جرحاً عميقاً يا ماريا، أليس كذلك؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة بريئة:

- جرحوني؟ أنا؟ لا. أبداً! كنت أنظر إليكم جميعاً: فأراكم تغضبون وتشتجرون. إنكم لا تعرفون حتى كيف تضحكون ضحكاً صادراً عن القلب حين تجتمعون. ثروات كبيرة، وفرح ضئيل!... ذلك كله يبعث على الاشمئزاز. مهما يكن من أمر، فإنني الآن لا أحس بشفقة على أحد. وإنما أنا أشعر بشفقة على نفسي.

- سمعت أن أخاك قد جعل حياتك قاسية في غيبتني، فهل هذا صحيح؟
- من قال لك ذلك؟ ترهات! بالعكس: الأمر الآن أسوأ. الآن أرى أحلاماً سيئة، أرى أحلاماً سيئة لأنك جئت. إنني أتساءل: لماذا جئت؟ لماذا؟ قل لي: لماذا جئت؟

- ألا تريدان أن تعودني إلى الدير؟
- تنبأت بهذا! هاهم أولاء يعرضون عليّ أن أرجع إلى الدير! لقد شبت من رؤيته، ديرك هذا! ما عساني فاعلة هناك؟ أنا الآن وحيدة وحدة تامة. فات أو ان استئناف حياة تالفة.

- يبدو عليك الغيظ والحنق. أثراك خائفة أن يكون حبي لك قد زال؟
ضحكت ماريا تيموفيفنا ضحكة احتقار وقالت:

- أنا لا أهتم بك البتة. وإنما أنا خائفة على نفسي، خائفة أن يزول حبي لشخص ما في يوم قريب. لعلني قد أذنبت في حقه بارتكاب خطيئة كبيرة جداً. أضافت ماريا هذه الجملة الأخيرة فجأة كأنها تكلم نفسها. وتابعت تقول:

-... لكنني أجهل الذنب الذي اقترفته. وهذا هو شقائي كله. دائماً، دائماً، في الليل وفي النهار، منذ خمس سنين، لم تنقطع هذه الفكرة عن تعذبي، وهي أنني مذنب في حقه... ما هو ذنبي؟ إنني أصلي لله، وأفكر بغير انقطاع في الخطيئة الكبرى التي ارتكبتها والآن يتضح أن ذلك كان صحيحاً. - ما الذي كان صحيحاً؟

كذلك سألها ستافروجين، غير أنها تابعت كلامها تقول دون أن تجيب

عن سؤاله وربما دون أن تسمع سؤاله:

- وإني لأتساءل مع ذلك ألم يكن له "هو" دخل في الأمر. ولكن كيف أمكنه أن يرتبط بمثل هؤلاء الأشرار؟ إن الكونتيسة يطيب لها طبعاً أن تلتهمني كوحش كاسر، وإن تكن قد أركبتني عربتها. الجميع اشتركوا في المؤامرة؟ هل يُعقل أن يكون قد اشتراك فيها هو أيضاً؟ هل يُعقل أن يكون قد خانني؟ (هنا أخذت ذقنها وشفاتها ترتعش). اسمع، أنت: هل تعرف قصة جريشكا أوتريبيف الذي أعلنت الكنيسة طرده؟⁽¹⁾

لم يجب نيقولا ي فسيفلودوفتش.

قالت وقد عزمت أمرها فجأة:

- على كل حال، سألتفت الآن وأنظر إليك. فالتفت أنت إلى جهتي وانظر إليّ، ولكن أنعم النظر بانتباه. أريد أن أراك لآخر مرة...
- إنني أنظر إليك منذ مدة طويلة.

قالت ماريا تيموفيتفنا وهي تتأمله متببهة:

- هم... لقد سمعت كثيراً.

وأرادت أن تضيف شيئاً آخر ولكن الرعب شنج وجهها فجأة من جديد، وارتدت إلى وراء رافعة ذراعيها كأنما لتحمي نفسها.

فصاح نيقولا ي فسيفلودوفتش يسألها بما يشبه الحق:

- ماذا بك؟ ماذا أصابك؟

لكن رعبها لم يدم إلا لحظة، وها هي ذي ابتسامة غريبة تعقف وجهها، ابتسامة ريابة شكاكة، منقّرة مزعجة. وقالت فجأة بصوت حازم ملح:

- أرجوك يا أمير، انهض وادخل!

- أدخل؟ أدخل إلى أين؟

(1) جريشكا أوتريبيف، هو مغامر استطاع أن يقنع الناس بأنه دم تري، آخر أبناء القيصر يوحنا الرابع الذي قتل سنة 1591، واستطاع أن يحظى بعرش روسيا سنة 1605، وحين قتل الشعب في السنة التالية استنكاراً لميوله الكاثوليكية أعلنت الكنيسة طرده، وكان هذا الطرد يتكرر كل سنة في الأحد الثالث من الصيام الكبير في جميع أنحاء روسيا.

- لبثتُ خمس سنين أتخيل دائماً كيف ستدخل عليّ. انهض، واذهب إلى الغرفة الأخرى. وسأبقى أنا جالسةً هنا كأنني أنتظر أحداً وسأتناول كتاباً. ثم تدخل أنت كأنك عائد بعد غيبة خمس سنين. أريد أن أرى كيف سيتم هذا. صرّ نيقولا ي فسيقولودوفتش على أسنانه، وجمجم بيضعة أقوال غير مفهومة، ثم ضرب المائدة براحة يده صائحاً:

- كفى! أرجوك أن تسمعيني يا ماريا تيموفيتشنا. أرجوك، أن تستجمعي كل انتباهك إذا استطعت. ما أنت مجنونة تماماً على كل حال. كذلك أفلتت من لسانه هذه الجملة. ولكنه تابع كلامه فقال:

- غداً سوف أذيع زواجنا في الملأ. لن تسكني قصرأ منيفاً في يوم من الأيام. اطردني هذه الفكرة من ذهنك. هل تريد أن تقضي حياتك كلها معي، ولكن في مكان بعيد عن هنا؟ في الجبال، بسويسرا... إنني أعرف مكاناً هناك... لا تقلقي: لن أهجرك ولن أضعك في مستشفى للمجانين. عندي من المال ما يكفي لأن نعيش دون أن نسأل أحداً شيئاً. سيكون لك خادمة، فلن تُضطري إلى القيام بأي عمل في البيت. وكل ما تشتهيئه سأهيئه لك وأزودك به في حدود الإمكان. سيكون في إمكانك أن تصلي، وأن تذهبي إلى حيث تريد، وأن تفعلي ماتشائين. ولن ألمسك. وأنا أيضاً لن أتحرك، من ذلك المكان. وإذا شئت، فلن أخاطبك بكلمة واحدة، وإذا أردت، فسوف تقصّين عليّ حكاياتك الصغيرة كما كنت تفعلين في الماضي بيطرسبرج. وسوف أقرأ لك إذا كان ذلك يسرك. ولكننا، في مقابل هذا، سنقضي حياتنا كلها في ذلك المكان. وذلك المكان جهنم مقفر. هل تريد أن أعزّمين أمرك على هذا؟ ألا تندمين في المستقبل؟ ألن ترهقيني بدموعك ولعناتك؟

أصغت إليه باستطلاع شديد. فلما أنهى كلامه، فكرت ملياً، ثم قالت أخيراً بلهجة فيها سخرية واحتقار:

- ذلك كله يبدو غير ممكن. فلربما وجب عليّ أن أعيش هكذا أربعين سنة في الجبال. وانفجرت تضحك مقهقهة.

أجاب نيقولاى ستافروجين:

- نعم، سنعيش هنالك أربعين سنة إذا وجب الأمر.
وقطب حاجبيه.

- هم... لن أقبل هذا بحال من الأحوال.

- ولكن معي أنا؟

- ومن أنت حتى أسافر معك هكذا؟ انظروا يا ناس! يريد أن أبقي أربعين سنة معلقة في جبل! إن أهل هذا الزمان أصبحوا على جانب عظيم من الصبر! لا، لن يستطيع بوم أن يكون صقراً! إن أميرى ليس هكذا.

هكذا صاحت بلهجة الانتصار وهي ترفع رأسها معتزة مفتخرة. فرأى ستافروجين الأمر بوضوح فجأة. فأسرع يسألها:

- لماذا تلقينني أميراً... و... من تظنيني؟

- كيف؟ أأست أميراً إذن؟

- لم أكن أميراً في يوم من الأيام.

- كيف؟ أأنت نفسك تعترف لي بهذا وجهاً لوجه؟

- أكرر أنني لم أكن أميراً في يوم من الأيام.

فصاحت وهي تضم يديها إحداها إلى الأخرى:

- يا إلهي! كنت أتوقع من أعدائه كل شيء، إلا هذه الوقاحة... هذه الوقاحة لم أتوقعها منهم يوماً!

ثم صرخت تقول خارجة عن طورها وهي تهرع نحو ستافروجين:

- ولكن أهو حي على الأقل؟ هل قتلته؟ اعترف...

قال وهو ينهض فجأة وقد انقلبت سحته:

- من تظنيني؟

ولكنها أصبحت الآن غير خائفة، بل مزهوة منتصرة، قالت:

- من ذا الذي يعرف من أنت، ومن أين خرجت؟ لقد أوجس قلبي ذلك

دائماً منذ خمس سنين. لقد حزر قلبي كل مكيدتهم! وتساءلت أنا: من ترى

تكون هذه البومة العمياء التي دخلت إلى غرفتي؟ لا يا صاحبي، أنت ممثل لا

يجيد التمثيل، أنت أسوأ حتى من لبيادكين. سلّم لي على الأميرة، وقل لها أن تبعث إليّ بشخص أمهر منك قليلاً. هل دفعت لك مالاً كثيراً في سبيل قيامك بهذه المهمة؟ أهل تعولك في مطبخها من باب البر والإحسان؟ لقد اكتشفت جميع أكاذيبكم. إنني أعرفكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم! فأمسك ستافروجين ذراعيها بقوة، فوق الكوع قليلاً، لكنها انفجرت تضحك في وجهه ضحكاً مجلجلاً. ثم قالت له:

- أمّا أنك تشبهه كثيراً فهذا صحيح. لكن صاحبي أمير. إنه صقر نبيل⁽¹⁾. ولست كذلك أنت، فما إلّا بومة، ما أنت إلّا بائع في دكان! صاحبي يسجد لله إذا شاء، ولا يسجد إذا أرادت له نزوة من النزوات أن لا يسجد. وأنت قد صفعك شاتوشكا (عزيزي الطيب شاتوشكا). لقد حكى لي لبيادكين ذلك. ممّ كنت خائفاً حين دخلت؟ من ذا الذي روّعك؟ إنني منذ رأيت وجهك الكريه حين وقعتُ فأنهضتني، أحسست كأن دودة قد نفذت في قلبي. وسرعان ما قلت لنفسني: لا، ليس "هو"، ما هذا "هو" ما كان لصقري أبداً أن يشعر بالعار مني أمام آنسة من آنسات المجتمع الراقي! يا إلهي! إن تلك الصورة التي كانت تملأ خيالي، وهي أن فارسي يطير محلّقاً هناك، وراء الجبال، يتأمل الشمس، هذه الصورة كافية لتغمرنني بالسعادة خلال هذه السنين الخمس!... تكلم أيها الغشاش الدجال. هل دُفع لك أجر كبير؟ هل قبضت مبلغاً ضخماً من أجل أن تكذب؟ أمّا أنا فما كان لي أن أعطيك قرشاً واحداً!... ها ها ها!...

دمدم نيقولا في سيفولودوفتش يقول من بين أسنانه وهو ما يزال يمسكها من ذراعها فوق الكوع:

- آه... معتوهة!

فصاحت تقول بكبرياء وزهو:

- أنزل يديك أيها الغشاش الدجال. أنا امرأة أمير، ولست أخشى سكينك!

(1) في الأغاني الروسية الشعبية، كثيراً ما تقع عل تشبيه الشاب بصقر نبيل.

- سكينى؟

- نعم، سكينك. إنك تخفي سكيناً في جيبك. كنت تظن أنني نائمة، لكنني رأيت كل شيء: فحين دخلت كنت قد استللت سكينك.

- ما هذا الذي تقولين أيتها الشقية؟ أية أحلام ترين؟

هكذا قال نيقولاى فسيفولودوفتش، ودفعها عنه بعنف بلغ من القوة، أنها صدمت الديوان برأسها وكتفها. وأسرع يخرج من الغرفة. ولكنها لم تلبث أن قامت، وطارده متوهمة عارجه.

وعلى درجات المدخل قبض عليها ليأدكين بكل ما أوتي من قوة، ولكنها أعولت ترسل إلى نيقولاى هذه الكلمات وهي تضحك ضحك امرأة معتوهة:

- جريشكا أوترييف! مطرود من الكنيسة!

4

مشى ستافروجين في برك الماء والوحل دون أن ينتبه إلى الطريق وهو يردد: "سكين... سكين!" صحيح أنه في بعض اللحظات رغب رغبة رهيبة في أن يضحك، أن يضحك ضحكاً عالياً مدوياً، كمجنون، لكنه أمسك عن الضحك وسيطر على نفسه دون أن يدري هو نفسه لماذا. ولم يثب إلى وعيه إلا حين صار على الجسر، في ذلك المكان نفسه الذي لقي فيه فدكا. وكان فدكا هناك ينتظره مرة أخرى. فلما رأى فدكا صاحبنا نيقولاى فسيفولودوفتش خلع قبعته، وابتسم ابتسامة فرحة كاشفاً عن جميع أسنانه، ثم سرعان ما أخذ يثرثر. مرَّ ستافروجين أمامه دون أن يتوقف، وحتى دون أن ينتبه أي انتباه إلى أقوال هذا المتشرد الذي أخذ يتبعه من جديد. فما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه نسي وجود فدكا نسياناً تاماً، وإن يكن قد ظل يردد في سره بغير انقطاع: "سكين... سكين" والتفت فجأة، فقبض على المتشرد من ياقته وجندله على الأرض، بكل القوة التي كانت قد تجمعت في نفسه من شدة العنف. وخطر ببال فدكا لحظة أن يدافع عن نفسه، ولكنه أدرك فوراً أنه

أمام خصم كهذا الخصم لا تُعدُّ قوته شيئاً مذكوراً، لذلك أذعن ولم يُبدِ أية مقاومة، وظل راکعاً على ركبتيه متجهاً بوجهه إلى الأرض، ينتظر ختام هذه المغامرة، مقتنعاً بأنه غير معرّض لأي خطر.

ولم يخطئ ظنه. كان نيقولا يفسيفولودوفتش قد حل عن عنقه المنديل الذي كان يحيط به وأخذ يوثق به يدي سجينه، ولكنه سرعان ما عدل عن رأيه ودفع فدكا عنه فسرعان ما انتصب فدكا على قدميه، وإذا بسكين عريضة قصيرة تلتصق بيده، لا يدري أحد من أين أخرجها!...

فما كان من نيقولا يفسيفولودوفتش إلّا أن "أمره" بحركة تدل على نفاذ الصبر:

- اخفض السكين! واخفها!

فإذا بالسكين تختفي بسرعة مثلما ظهرت بسرعة.

واستأنف نيقولا يفسيفولودوفتش سيره صامتاً دون أن يلتفت بعد ذلك إلى وراء. ولكن الشخص العنيد ظل يتبعه، ولكنه يتبعه الآن باحترام، على مسافة خطوة منه، دون أن يكلمه البتة. وهكذا عبرا الجسر، ثم نزلا إلى ضفة النهر المنحدرة، ولكنهما دارا في هذه المرة يسرةً، وسارا في شارع ضيق طويل مقفر أفضى بهما إلى وسط المدينة بسرعة، فلو أنهما سلكا شارع اييفانيا الذي سلكه ستافروجين في الذهاب لما وصلا إلى وسط المدينة بمثل هذه السرعة.

قال نيقولا يفسيفولودوفتش يسأل فدكا:

- يقال إنك سطوت في هذه الأيام الأخيرة على كنيسة بمقاطعتنا. فهل هذا صحيح؟

فأجابه المتشرد برصانة وأدب وتهذيب، كأن شيئاً لم يحدث، بل أجابه ليس برصانة فحسب، وإنما بوقار أيضاً:

- الحق أنني دخلت الكنيسة أولاً لأصلي...

لم يُبدِ فدكا شيئاً من رفع الكلفة واصطناع "الصدقة" كما فعل من قبل، وإنما هو يتكلم الآن كلام إنسان جاد، إنسان عملي إن كان قد أسىء إليه فإنه

سرعان ما ينسى الإساءات. وتابع كلامه يقول:

- فحين دخلت قلت لنفسى: إن نعمة الله هي التي قادت خطاي إلى هنا... وقد فعلت فعلتي ياسيدي لأننا في مثل وضعنا ندبر أمرنا كما نستطيع... إننا لا نطبق الاستغناء عن معونة الآخرين. ولكن صدق يا سيدي أنني لم أجن من ذلك أي فائدة. لقد عاقبني الله على آثامي. فالمبخرة وحلة الشماس لم أستطع أن أبيعهما بأكثر من اثني عشر روبلاً. أمّا طوق القديس نيقولا وهو من فضة فقد زعموا أنه ليس من فضة فلم أقبض ثمنه إلا مبلغاً زهيداً لا يُذكر. - وذبحت الحارس؟

- لقد نظفنا الكنيسة مشتركين، وكنا تشاجرنا في الصباح قرب النهر، لأننا اختلفنا حول هذه المسألة: من الذي يحمل الكيس؟ وعندئذ ارتكبت ذلك الذنب، إذ أرحت رفيقي!

- استمر في القتل، استمر في السرقة.

- ذلك ما يقوله لي أيضاً بطرس ستيفانوفتش، كلمة كلمة، تماماً! ذلك أنه فيما يتعلق بإغاثته الناس ومساعدتهم رجل قاس القلب بخيل. وهو لا يكتفي بأن لا يؤمن بالخالق الذي أخرجنا من طين الأرض وأن يقول إن الطبيعة صنعت كل شيء، بل هو أيضاً لا يريد أن يدرك أننا معشر الفقراء لا يمكننا أن نعيش دون أن يكون لنا أحد يحسن إلينا وينعم علينا وينجدنا. فإذا أخذت تشرح له هذا نظر إليك نظرة خروف، فلا تملك إلا أن تُشده، هل تصدق يا سيدي؟ في مسكن ذلك الكابتن لبيادكين الذي زرته أنت هذه الليلة، في مسكنه أيام كان يقيم بعمارة فيليبوف، كان الباب يظل طوال الليل مفتوحاً على سعتة كلها. وكان هو، عدا ذلك، ينام نوم الموتى من فرط السكر، وكان المال يخرج من جميع جيوبه. رأيت ذلك بعيني رأسي. ذلك أننا في وضعنا يستحيل علينا إطلاقاً أن نستغني عن مساعدة الآخرين...

- رأيته بعيني رأسك؟ إذن دخلت عليه ليلاً؟

- ربما، لكن أحداً لا يعرف ذلك.

- فلماذا لم تذبحه؟

- زنتُ الأمر، ما له وما عليه فرأيت أن أعدل عن ذبحه. كنت أعلم أن في إمكاني دائماً أن أجنبي منه مائة وخمسين روبلاً، ولكن علام التسرع ما دمت أستطيع أن أجنبي ألفاً وخمسمائة روبل على الأقل، إذا أنا انتظرت قليلاً؟ ذلك أن الكابتن لبيادكين يعتمد عليك أعظم الاعتماد في حالة السكر (سمعته بأذني)، ما من حانة هنا ولا من خمارة إلّا سمع فيها يتكلم عن هذا الأمر أثناء سكره. فلما سمعت هذا من جهات مختلفة، عقدت أنا أيضاً كل آمالي على "معاليك" يا سيدي. فأنا أتوجه إليك يا سيدي كما يتوجه ابنٌ إلى أبيه أو أخٌ إلى أخيه. ولن يعرف بطرس ستيفانوفتش عن ذلك شيئاً، ولن يعرف أحد شيئاً. هل يريد صاحب السعادة أن يعطيني ثلاثة روبلات. إنني أريد أن أعرف الحقيقة، وأن أعرف ما الذي يجب عليّ أن أفعله، ذلك أننا في وضعنا ياسيدي، يستحيل علينا أن نعيش مستغنين عن مساعدة الآخرين. انفجر نيقولا ي فسي فولودوفتش ضاحكاً، واستل من جيبه محفظة نقوده التي تضم خمسين روبلاً، أوراقاً صغيرة، فرمى إليه من هذه الأوراق واحدة فثانية فثالثة فرابعة. فكانت الأوراق تسقط في الوحل. وكان فدكا يركض وراءها ويحاول إمساكها طائراً وهو يطلق صرخات قصيرة: "آه... آه...". وأخيراً رمى إليه نيقولا ي فسي فولودوفتش حزمة الأوراق كلها، وهو ما يزال يضحك ضحكاً مجلجلاً، واستأنف سيره، ولكنه استأنفه في هذه المرة وحيداً. كان المتشرد جاثماً على ركبتيه في الوحل، ما يزال يبحث عن الأوراق التي بعثرتها الرياح فسقطت في البرك. وظلت صرخاته الصغيرة: "آه... آه... " تترجع في الظلمات مدة طويلة.

الفصل الثالث

المبارزة

1

تمت المبارزة في الغد، في الساعة الثانية بعد الظهر. إن رغبة القتال العنيفة التي كانت تتأرجح نارها في قلب آرتمي بافلوفتش وتدفعه إلى المبارزة مهما كلف الأمر قد عجلت الأحداث. وهو لم يستطع أن يفهم سلوك خصمه فكان خارجاً عن طوره وكان الغضب يستعر في كل نفسه. إنه يهين خصمه بغير داع منذ شهر، ثم لا يتوصل إلى إفقاده صبره. فكان لا بد له حتماً من أن يطلبه نيقولا في سيفلودوفتش إلى المبارزة، لأنه كان لا يملك أي حجة أو ذريعة لأن يطلبه هو إلى المبارزة. وكان من جهة أخرى يستحي أن يعترف بالبواعث الخفية التي تحضه على هذا السلوك، أعني الكره الفظيع الرهيب الذي كان يحمله لستافروجين بسبب ما ألحقه ستافروجين بشرف الأسرة من إهانة. كان يدرك هو نفسه أنه لا يستطيع أن يذكر هذا الباعث، لا سيما منذ أن قدم إليه ستافروجين اعتذارات بلغت غاية المذلة، مرتين. وكان جاجانوف قد اعتقد في قرارة نفسه أن نيقولا في سيفلودوفتش ليس إلا جباناً. إنه لم يستطع أن يدرك لماذا لم يثار نيقولا في سيفلودوفتش ستافروجين للصفعة التي تلقاها من شاتوف. وفي ذلك الحين إنما عزم أمره أخيراً على أن يكتب إليه تلك الرسالة التي اشتملت على فظاظة لا مثيل لها، فاضطر ستافروجين عندئذ أن يطلبه إلى المبارزة. كان جاجانوف، بعد أن بعث رسالته، ينتظر الجواب محمواً من شدة نفاد صبره، معدداً احتمالات النجاح كالمريض، منتقلاً من الأمل إلى اليأس ومن اليأس إلى الأمل بغير انقطاع. ومن أجل

أن يتهياً لكل احتمال رجا مافريكي نيقولا يفتش سلفاً أن يكون شاهده: إن مافريكي رفيق طفولته، وهو يقدره قدراً عظيماً. وهكذا، فإن كيريلوف حين ذهب في صباح الغد إلى جاجانوف، وجد الأرض ممهدة إن صح التعبير. رفض جاجانوف جميع الاعتذارات والتنازلات الكثيرة التي حملها إليه كيريلوف من عند ستافروجين، رفضها منذ أول كلمة، رفضاً قوياً قاطعاً. وقد شُده مافريكي نيقولا يفتش الذي لم يكن يعرف تفاصيل الأمر إلا أمس، شُده كثيراً حين سمع تلك العروض التي يعرضها ستافروجين وأراد أن يلخ من أجل حل المسألة حلاً ودياً، لكنه لم يسعه إلا أن يصمت حين رأى وضع جاجانوف الذي حزر ما كان ينتويه مافريكي فكان يضطرب على كرسيه اضطراباً عصبياً قوياً. لولا أن مافريكي كان قد وعد جاجانوف بمساعدته في هذا الأمر، لانصرف فوراً، لكنه بقي آملاً أن يتدخل فيما بعد، بطريقة أو بأخرى، لتحاشي وقوع كارثة.

نقل كيريلوف الشروط التي يعرضها ستافروجين للمبارزة، فقبلها جاجانوف جميعها دون أي اعتراض، ولكنه طلب إضافة بند آخر إليها، بند قاس من جهة أخرى، وهو أنه إذا انطلقت الرصاصتان الأوليان فلم تقع إصابة حاسمة، كان على المتبارزين أن يطلقا مرة ثانية، فإذا لم تفلح المرة الثانية، أطلقت النار مرة ثالثة. والحق أن كيريلوف قد استاء من هذه المرة الثالثة، وأصر في أول الأمر على أن تعد المبارزة منتهية بعد الإطلاق الثاني لكنه اضطر أن يرضخ أخيراً، ملحاً مع ذلك "على أنه لا مجال لإطلاق رابع حتماً". فتم الاتفاق على هذه النقطة.

هكذا أمكن أن تتم المبارزة في الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم نفسه، في قرية بريكوفو، عند غابة تقع بين أملاك سكفورشنيكي ومصنع شيبجولين. كان المطر قد انقطع عن الهطول تماماً، ولكن الجور رطب، والأرض مبتلة، وكانت ريح قوية تطرد السحب الواطئة الشهباء المتقطعة التي تتلاحق سريعة في السماء الباردة. وكانت الأشجار تحني هاماتها للريح وكان لأوراقها حفيف قوي وصرير صاخب. إنه نهار حزين كئيب.

وصل جاجانوف ومافريكي نيقولا يفتش إلى المكان في عربة أنيقة ذات مقاعد طويلة، وكانت العربة يجرها حصانان يقودهما جاجانوف بنفسه. وكان يصحب الرجلين خادم. ولحق بهما ستافروجين وكيريلوف على مسافة قريبة، ممتطين صهوتي حصانين، وكان يصحبهما خادم هما أيضاً. ولم يكن كيريلوف قد ركب حصاناً قبل الآن، فكان جالساً على السرج كأنه الوند جموداً وتصلباً، ولكن على جسارة وشجاعة. إنه يمسك بيده اليمنى الصندوق الثقيل الذي يضم المسدسين ولم يشأ أن يعهد به إلى الخادم، ويشد بيده اليسرى على لحام الحصان من قلة الخبرة، لذلك كان حصانه يهز رأسه، ويهم أن يشب في كل لحظة، لكن ذلك لم يكن يروّع الفارس فيما يظهر.

إن جاجانوف رجل سريع التأذي حاد المزاج عارم الغضب، لذلك عدّ ركوب الحصان للوصول إلى مكان المباراة إهانة جديدة له: فكأن خصمه واثق إذن من انتصاره ثقة تامة ما دام لم يرَ ضرورة لإعداد عربة ثقّله إذا جرح. فنزل جاجانوف من عربته أصفر اللون من شدة الحنق. وكانت يدها ترتعشان، وسرعان ما أطلع مافريكي نيقولا يفتش على ذلك. وحيّاه ستافروجين من بعيد فأشاح وجهه ولم يرد على التحية. وتولى الشاهدان سحب القرعة لتوزيع المسدسات، فكان مسدسا كيريلوف من نصيب ستافروجين. وعدت الخطوات، وحدّد الموضعان اللذان يجب أن يقف فيهما الخصمان.

يؤسفني أن ضرورات القصة تضطرنني أن أغفل كثيراً من التفاصيل مع أن بعضها خليق بأن يذكر. كان مافريكي نيقولا يفتش يبدو حزينا مهموماً. ولا كذلك كيريلوف، فقد كان يبدو هادئاً كل الهدوء، غير مكترث البتة. إنه ينفذ الواجبات التي أخذها على عاتقه تنفيذاً دقيقاً، ولكن دون أي اضطراب، حتى لكانه لا يبالي كثيراً بالنتيجة التي سيسفر عنها هذا اللقاء. وكان نيقولا يفسيفولودوفتش أكثر شحوباً مما يكون شاحباً في العادة. وهو يرتدي معطفاً خفيفاً ويضع على رأسه قبعة بيضاء من قماش الكستور. كان يبدو عليه التعب والإرهاق، وكان يقطب حاجبيه بين الفينة والفينة لأنه لا يرى أن من

الضروري أن يخفي اعتكار مزاجه. غير أن منظر آرتمي بافلوفتش كان هو المنظر الغريب في تلك اللحظة. هل يعقل ألا أقول بضع كلمات عن هذا الشخص؟

2

لم تتح لي حتى الآن فرصة وصف مظهره الخارجي. إنه رجل طويل القامة، بدين، قد أحسنت تغذيته، على حد التعبير الشعبي، أبيض اللون، أشقر الشعر قليله، أميل إلى ملاحظة الوجه، في نحو الثالثة والثلاثين من العمر. كان هذا الرجل قد طلب إحالته على التقاعد وهو برتبة كولونيل، فلو أنه بلغ رتبة جنرال لاكتست هيئته مزيداً من المهابة أيضاً. ولعله يكون عندئذ جنرالاً ممتازاً.

وتجدر الإشارة هنا، من أجل إبراز الصفات التي تميز بها آرتمي بلوفتش، إلى أن السبب الأساسي الذي حضه على الاستقالة إنما هو تلك الفكرة الأليمة، الماثلة في ذهنه دائماً، وهي فكرة العار الذي لحق باسمه في أعقاب الإهانة التي أنزلها ستافروجين بأبيه. فلقد اعتقد صادقاً أنه ليس من الشرف في شيء أن يستمر في عمله بالجيش، واعتقد أن وجوده يلوث شرف فرقته ورفاقه، مع أن أحداً من هؤلاء لم يكن قد سمع شيئاً عن ذلك الحادث الذي وقع لأبيه. على أن آرتمي بافلوفتش كان قد أوشك أن يستقيل حتى قبل الإهانة التي ألحقها ستافروجين بأبيه، قبلها بمدة طويلة، ولكنه عدل عن ذلك في آخر لحظة. ومهما يبدو لكم الأمر غريباً، فالواقع أن بيان 19 شباط (فبراير) القاضي بإلغاء الرق هو الذي حضه يومئذ على ترك الجيش. إن آرتمي بافلوفتش، وهو من أثرياء أترياء السادة في مقاطعتنا، لا يدمر بيان 19 شباط ثراءه، حتى إن آرتمي بافلوفتش قادر على أن يقدر الطابع الإنساني الذي يتسم به ذلك الإجراء، وعلى أن يفهم منافعه الاقتصادية تقريباً، ولكن آرتمي بافلوفتش أحس فجأة بأن صدور هذا القرار يكاد يكون شتماً له هو. لم يكن هذا إلّا نوعاً من عاطفة لا شعورية، ولكن كون العاطفة لا شعورية هو

الذي يهب لها القوة والشدة. ولم يعزم أمره ولا خطا خطوة حاسمة ما ظل أبوه حياً. لكن "نبالة" آرائه قد احترمها وقدرها عدد من الشخصيات ذات الشأن، التي كانت له بها علاقات وثيقة. كان رجلاً منطقياً على نفسه مغلقاً. يجب أن نذكر أيضاً هذا: لقد كان ينتمي إلى ذلك الصنف من السادة الذين ما نزال نلقاهم في روسيا، والذين يقيمون وزناً كبيراً لعراقة محتدم ونقاء سلالتهم، ويهتمون بذلك اهتماماً فيه غلو. وكان في الوقت نفسه يكره التاريخ الروسي، ويرى العادات الروسية على وجه العموم مثيرة للاشمئزاز بعض الشيء. وهو منذ طفولته، في تلك المدرسة العسكرية الخاصة⁽¹⁾ الموقوفة على التلاميذ النبلاء الأثرياء، التي شُرف ببدء وإنهاء دراسته فيها، قد تعلق ببعض الأفكار التي كانت تبدو له شعرية: فكان يحب القلاع والقصور وحياة القرون الوسطى، وجانبها الزخرفي، والفروسية. كان منذ ذلك الحين يكاد يبكي من شدة الشعور بالعار حين يتصور أن القياصرة الموسكوبيين القدماء كانوا ينزلون في النبلاء الروس عقوبات جسدية، وكانت المقارنات التي تفرض نفسها عليه بهذا الصدد تجعله يحمرّ خجلاً وحياء. إن هذا الرجل الصلب القاسي الذي كان يعرف مهام وظيفته معرفة رائعة، ويقوم بواجباته على أكمل نحو، كانت نفسه نفس إنسان حالم على وجه العموم. ويقال إنه كان يمكنه أن يلعب دوراً في المجالس، لأنه كان يملك موهبة الخطابة ومع ذلك كان صموتاً طوال حياته، وكان في مظهره تكبر واستعلاء حتى في المجتمع البطربرجي العالي الذي أخذ يتردد عليه في هذه السنين الأخيرة. ولقد كاد التقاؤه، في بطرسبرج، بنيقولا في سيفولودوفتش ستافروجين، أن يجعله مجنوناً. وهو الآن، إذ يجد نفسه في مواجهته على الجانب الآخر من الحاجز، يشعر بقلق فظيع. كان يخيل إليه طوال الوقت أن حادثاً سيحدث

(1) "تلك المدرسة العسكرية الخاصة": هي مدرسة الحرس الامبراطوري ببترسبرج التي كان لا يقبل فيها إلا أبناء أو أحفاد جنرالات. إن تلاميذ هذه المدرسة يقومون بدور الحرس الغلمان في احتفالات البلاط الامبراطوري، ويتخرجون من المدرسة ضباطاً في الحرس. وقد تحدث "الفوضوي الأمير" عن هذه المدرسة في مذكراته.

فيحول دون قيام المباراة، فكان أيسر إبطاء يجعله يرتجف ارتجافاً من شدة نفاذ صبره. لذلك تقبض وجهه تقبضاً أليماً حين أخذ كيريلوف فجأة يتكلم، بدلا من إطلاق إشارة بدء القتال، فيقول من باب التقيد بالشكل، كما أعلن ذلك هو نفسه:

- الآن وقد تسلحتما ولم يبق عليّ إلّا أن أطلق إشارة القتال، فإنني أعرض عليكما لآخر مرة أن تتصالحا. إنني لا أتكلم إلّا من باب التقيد بالشكل. فهذا واجبي بصفتي شاهداً.

وهذا هو مافريكي نيقولا يفتش الذي لزم الصمت حتى ذلك الحين، ولكنه لم يكفّ عن لوم نفسه على ضعفه منذ أمس، يتدخل فوراً، بمصادفة تشبه العمد، فيقول مؤيداً اقتراح كيريلوف:

- إنني أثني على أقوال السيد كيريلوف، وأضم صوتي إلى صوته. وليست الفكرة القائلة بأن المصالحة لا تتم على أرض القتال إلّا وهماً من الأوهام الاجتماعية الباطلة التي تصلح للفرنسيين في أكثر تقدير!... على كل حال، لكما ما تشاءان، غير أنني لا أرى أن هناك إساءة قد وقعت، أو أن هناك إهانة قد لحقت أحداً!... لقد وددت لو أقول هذا الكلام منذ مدة طويلة... ما دام ثمة استعداد لتقديم كل الاعتذارات الممكنة.. أليس هذا صحيحاً؟ قال مافريكي ذلك واحمرّ احمرراً شديداً. إنه قلما قال كلاماً طويلاً هذا الطول كله، وبمثل هذا الاندفاع كله!

وهنا أسرع نيقولا في سيفلولدوفتش ستافروجين يتدخل قائلاً:
- إنني أؤكد مرة أخرى ما سبق أن عرضته من تقديم كل الاعتذارات الممكنة.

فصاح جاجانوف يقول خارجاً عن طوره، ملتفتاً نحو مافريكي نيقولا يفتش، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه من شدة غضبه:
- مستحيل! قل لهذا السيد يا مافريكي نيقولا يفتش، ما دمت شاهدي لا عدوي، قل لهذا السيد (وأوماً بطرف مسدسه إلى ستافروجين) أن ما يعرضه من تنازلات لا يزيد على أن يفاقم الإهانة. فهو يرى أن الإهانات التي تصدر

عني أنا لا تناله هو بأذى ولا تلحق به خزيًا! إنه يرى أنه لا عار عليه إذا هو
تهرب مني!... فماذا يظنني إذن؟ ثم إنه قد قال كلامه أمامك، فلم تغضب
لكرامتي التي تهان، فكيف تكون شاهدي؟ إنك لا تريد على أن تثير غيظي
حتى لا أصيبه.

قال ذلك وضرب الأرض بقدمه مرة أخرى، وكان الزبد يخرج من فمه.
صرخ كيريلوف قائلاً بكل ما أوتي من قوة:
- انتهى التفاوض. واحد! اثنان! ثلاثة!

فلما قال "ثلاثة"، اتجه الخصمان أحدهما نحو الآخر. وسرعان ما رفع
جاجانوف مسدسه بعد خمس أو ست خطوات، وأطلق. ووقف لحظة، فلما
لاحظ أنه لم يصب ستافروجين أسرع نحو الحاجز. فسار ستافروجين إلى
لقائه ورفع مسدسه، لكنه تعمد أن يرفعه أكثر مما يجب، بحيث لا تصيب
الرصاصة هدفها، وأطلق دون أن يصوّب تقريباً. فعل ذلك ثم أخرج منديله
ولفّ به إصبع يده اليمنى. وعندئذ فقط إنما رأى آرتمي بافلوفتش أنه لم
يخطئ، خصمه تماماً، ولكن رصاصته انزلت على طول إصبعه دون أن تبلغ
منها العظم، فلم تزد الإصابة على أن تكون خدشاً. وأسرع كيريلوف يقول إن
المبارزة ستستمر إذا لم يكف الخصمان بهذا اللقاء الأول.

قال جاجانوف بصوت مختنق (وكان حلقه جافاً)، قال وهو يلتفت نحو
مافريكي نيقولايفتش من جديد:

- إنني أعلن أن هذا الرجل (وأوماً إلى ستافروجين مرة أخرى) قد تعمد
أن يطلق رصاصة في الهواء... نعم، تعمد ذلك بإرادته. فهذه إهانة جديدة،
هذه مسبة أخرى يوجهها إلي... إنه يريد أن يجعل المبارزة مستحيلة.

قال نيقولايف فيسولودوفتش جازماً:

- من حقي أن أطلق كما أريد، شريطة ألا أخلّ بالقواعد المقررة.

فأجاب جاجانوف صارخاً:

- لا، ليس من حقه. قل له هذا! ما بالك لا تقول له!

تدخل كيريلوف فقال:

- إنني أشارك نيقولا في سيفولودوفتش رأيته كل المشاركة.
وتابع جاجانوف صراخه يقول دون أن يصغي إلى أحد:
- لماذا يتجنب أن يصيبي. إنني أحترق سماعته هذه... إنني أبصق على...
إنني...

فأجابه ستافروجين وقد نفذ صبره:
- أقسم لك بشرفي أنني لم أشأ إهانتك البتة. وإنما أنا أطلقت في الهواء
لأنني أصبحت لا أريد أن أقتل أحداً، لا أنت ولا أي شخص آخر. الأمر لا
يتناولك. صحيح أنني لا أرى أنني أهان، ويؤسفني كثيراً أن هذا قد أغضبك.
ولكنني لن أسمح لأحد بأن يحرمني من استعمال حقي.
أعول جاجانوف يقول متوجهاً بكلامه إلى مافريكي نيقولا يفتش أيضاً:
- إذا كان يخشى سفح الدم إلى هذه الدرجة من الخشية، فاسأله لماذا
طلبني إلى المباراة؟
قال كيريلوف:

- كيف كان يمكنه أن لا يطلبك إلى المباراة؟ إنك لم تشأ أن تسمع شيئاً.
فلم يكن هناك وسيلة للتخلص منك غير هذه الوسيلة!
قال مافريكي نيقولا يفتش بجهد ظاهر، وقد ألمه مجرى هذه القضية
كثيراً:

- أحب أن ألفت النظر إلى أن المباراة لا يمكن أن تستمر بالفعل إذا أعلن
أحد الخصمين أنه سيطلق في الهواء... وذلك لأسباب دقيقة.. وواضحة...
فصاح ستافروجين يقول وقد ذهب عنه كل صبره:
- أنا لم أعلن بتاتاً أنني سأطلق في الهواء في كل مرة. إنك لا تعرف ما هي
نياتي التي أضمرها، ولا تعرف كيف سأطلق النار في المرة التالية... إنني لا
أضع أي عائق يحول دون إتمام المباراة.
قال مافريكي نيقولا يفتش لجاجانوف:
- إذا كان الأمر كذلك فالمباراة تستمر.
وهتف كيريلوف آمراً:

- ليقف كل منكما في مكانه أيها السيدان!

وعاد الخصمان يتجه كل منهما نحو الآخر من جديد. ومرة أخرى أخطأ جاجانوف خصمه نيقولا في سيفلودوفتش الذي أطلق النار في الهواء هذه المرة. غير أن طلقتي نيقولا في سيفلودوفتش يمكن أن تكونا محل مناقشة، ولولا أنه اعترف هو نفسه بأنه أطلق في الهواء عامداً لكان في إمكانه أن يدعي أنه صوب فأحسن التصويب، لأنه في الواقع لم يسدّد سلاحه نحو السماء أو نحو قمة شجرة، وإنما كان يسدّده إلى ما فوق قبعة خصمه قليلاً. حتى أن تسديده في المرة الثانية كان أخفض من تسديده في المرة الأولى، كأنما ليبرهن على صدق إرادته. ولكن تهدة جاجانوف أصبحت الآن مستحيلة. قال جاجانوف وقد كزت أسنانه:

- أيضاً. ولكن لا فرق عندي! لقد دُعيت إلى المباراة فلي أن أستعمل حقي. أريد أن أطلق مرة ثالثة... مهما كلف الأمر! قال كيريلوف موافقاً على كلامه بلهجة جافة:

- هذا حقك.

ولزم مافريكي نيقولا يفتش الصمت. وعاد الخصمان إلى موقعيهما مرة ثالثة أخيرة، وسارا أحدهما نحو الآخر بأمر من كيريلوف. فتقدم جاجانوف حتى وصل إلى الحاجز، فلما صار هناك، على مسافة اثنتي عشرة خطوة، صوب إلى ستافروجين. ولكن يديه كانت ترتعشان ارتعاشاً يبلغ من القوة أنه كان يستحيل عليه أن يحسن التسديد. ووقف نيقولا في سيفلودوفتش جامداً خافضاً مسدسه ينتظر طلقة عدوه.

صرخ كيريلوف بصرامة وعنف:

- أطلقت... أطلقت التسديد كثيراً! أطلق، أطلق بسرعة!

وانطلقت الرصاصة، فإذا بقبعة الكستور الأبيض التي كانت على رأس نيقولا في سيفلودوفتش، تندرج على الأرض. لقد ثقت القبعة في موضع منخفض، فلو جاءت الطلقة أخفض بمقدار سنتيمتر واحد، لانتهى كل شيء. تناول كيريلوف القبعة من الأرض، ومدها إلى نيقولا في سيفلودوفتش.

صرخ مافريكى نيقولا يفتش يقول وقد رأى ستافروجين كمن نسي جاجانوف، وأخذ يدقق النظر في القبة مع كيريلوف، صرخ يقول ستافروجين بانفعال شديد:

- أطلق! لا تجعل خصمك ينتظر طويلاً!

فارتعش ستافروجين، ونظر إلى جاجانوف، ثم أشاح بوجهه عنه. ودون أن يكلف نفسه هذه المرة حتى عناء التظاهر، أفرغ مسدسه باتجاه الغابة. وانتهت المباراة.

لبث جاجانوف واقفاً كالمتجمد. واقترب منه مافريكى نيقولا يفتش، فقال له بضع كلمات. ولكن لم يبدُ على جاجانوف أنه سمعها. وحين انصرف كيريلوف رفع قبعته محياً مافريكى نيقولا يفتش. أما ستافروجين، المهذب في العادة، فإنه لم يلتفت نحو خصمه بعد أن أطلق رصاصته في اتجاه الغابة، وإنما مدّ مسدسه إلى كيريلوف بحركة مفاجئة، واتجه مسرعاً إلى المكان الذي ربطت فيه الخيول. كان وجهه قد اكتسى تعبيراً خبيثاً. وكان صامتاً. وكان كيريلوف صامتاً كذلك. وركبا حصانيهما، ومضيا خبيّاً.

3

صاح ستافروجين يسأل كيريلوف بنفاذ صبر:

- ما بالك تصمت ولا تتكلم؟

وكانا قد أصبحا غير بعيدين عن البيت. فأجابه كيريلوف:

- ماذا تريد أن أقول لك؟

وشب حصان كيريلوف فأوشك كيريلوف أن يسقط.

سيطر ستافروجين على نفسه. وقال بصوت خافت:

- كنت لا أريد أن أهين ذلك.. الغبي، ومع ذلك أراني قد أهنته مرة أخرى.

فقال كيريلوف بلهجة قاطعة:

- نعم أهنته مرة أخرى. ثم إنه ليس غيباً.

- فعلت مع ذلك كل ما استطعت أن أفعله.

- لا.

- ماذا كان يجب علي أن أفعل؟

- كان يجب ألا تدعوه إلى المبارزة.

- أأسمح إذن بأن أصفع مرة أخرى؟

- نعم.

- أصبحت لا أفهم شيئاً.

كذلك قال ستافروجين غاضباً واستطرد يقول:

- لماذا ينتظر مني جميع الناس ما لا ينتظرونه من أحد غيري؟ لماذا علي

أن أحتمل ما لا يحتمله أحد، وأن أقبل من الأثقال ما لا يطيق أحد حمله؟

- كنت أظن أنك أنت نفسك تبحث عن هذه الأثقال.

- أنا؟ أبحث عن أثقال؟

- نعم.

- أهو ظاهر ملحوظ إلى هذا الحد؟

- نعم.

ولبثا صامتين بضع لحظات. كان ستافروجين يبدو مهموماً، بل مضطرباً

أشد الاضطراب. واستأنف كلامه فقال قلقاً، كأنما هو يحاول أن يرر سلوكه:

- لم أسدد إليه لأنني لم أشأ أن أقتل أحداً. هذا هو السبب الوحيد. أوكد

لك.

- ما كان ينبغي لك أن تهينه.

- فماذا كان يجب أن أفعل إذن؟

- كان يجب أن تقتله.

- أيؤسفك أنني لم أقتله؟

- لست آسفاً على شيء. لقد ظننت أنك كنت تريد حقاً أن تقتله. إنك لا

تعرف أنت نفسك ما الذي تسعى إليه وتبحث عنه.

قال ستافروجين ضاحكاً:

- أبحث عن أثقال.

فسأله كيريلوف:

- إذا كنت لا تريد سفح الدم، فلماذا أتحت له فرصة القتل؟

- لو لم أطلبه للمبارزة لقتلني بغير مبارزة.

- هذا ليس شأنك. لعله ما كان يقتلك.

- كان يمكن أن يكتفي بصفعي مثلاً؟

- هذا ليس شأنك. احمل أثقالك. وإلا فلا ميزة ولا فضل، ولا جدارة ولا

استحقاق!

- إنني أبصق على هذا كله، ولا أسعى للحصول على أي ميزة أو فضل أو

جدارة أو استحقاق.

- كنت أظن أنك تبحث عن ذلك وتسعى إليه.

هكذا ختم كيريلوف الحديث بهدوء يثير الغيظ.

واقترح عليه ستافروجين أن يدخل معه، قائلاً له:

- هل لك أن تجيء معي إلى البيت؟

فرد عليه كيريلوف:

- بل أنا عائد إلى مسكني. أستودعك الله.

ونزل عن الحصان، وتأبط صندوق المسدسات.

سأله ستافروجين وهو يمد إليه يده ليصافحه:

- ولكن أرجو أن تكون أنت على الأقل غير حاقد علي، هه؟

فأجابه كيريلوف عائداً إليه ليصافحه:

- لا، بتاتاً! إن أثقالتي خفيفة، لأن هذا من طبيعتي، أما أثقالك أنت فهي

أكبر، وذلك يتعلق بطبيعتك. ما يجب أن يستحي المرء من هذا كثيراً بل قليلاً.

- أنا أعلم أن لي طبيعة ضعيفة، لذلك ليس لي أي مطمع في القوة.

- تحسن صنعاً. ما أنت بالقوي. تعال زرني، فنشرب الشاي.

ودخل نيقولا في سيفولودوفتش بيته مضطرباً اضطراباً شديداً.

وسرعان ما أبلغه ألكسي إيجورتش أن فرارا بتروفنا، وقد أسعدها كثيراً أن يخرج ابنها في نزهة على الحصان - هذه أول نزهة له بعد ثمانية أيام قضاها مريضاً - قد أمرت بإعداد عربتها وخرجت، كما كانت تفعل في الماضي، لتستشق قليلاً من الهواء الطري، لأنها بعد هذه الأيام الثمانية قد نسيت ما هواء الشارع.

قاطعها ستافروجين فجأة يسأله:

- أخرجت وحدها أم مع داريا بافلوفنا؟

واكفهر وجهه حين علم أن داريا بافلوفنا، لشعورها بتوعلك صحتها، قد رفضت أن تصحب فرارا بتروفنا، وأنها الآن في شقتها.

قال له ستافروجين وكأنه اتخذ قراراً حاسماً على حين فجأة:

- اسمع. راقبها اليوم طوال النهار، فإذا لاحظت أنها آتية إلى عندي، أوقفها فوراً وقل لها أنني لا أستطيع استقبالها، على الأقل خلال بضعة... وأنني أنا الذي أرجوها هذا الرجاء... وأنني سأستدعيها متى آن الأوان. هل تسمع؟

أجابه إيجورتش بصوت مضطرب وهو يخفض عينيه:
- سأقول لها ذلك.

- ولكن لا تقله لها إلا إذا رأيت أنها تريد المجيء إلي.

- اطمئن بالاً، لن يحدث خطأ. فبواسطتي أنا إنما تمت المقابلات حتى الآن. إنها تتجه دائماً إلي.

- أعلم. ومع هذا، لا تتدخل أنت إلا في آخر لحظة.

ولكن ما كاد يخرج الخادم العجوز حتى فتح الباب الذي كان قد أغلقه، فإذا داريا بافلوفنا تظهر في العتبة. كانت نظراتها هادئة، ولكن وجهها كان أكثر شحوباً مما عهد فيه من شحوب.
هتف ستافروجين يسأله:

- من أين جئت؟

- كنت وراء الباب أنتظر أن يخرج حتى أدخل. وسمعت ما قلته له، فلما خرج اختبئت في زاوية على اليمين فلم يبصرني.

- إنني أريد، منذ مدة طويلة، يا داشا، أن أقطع علاقتنا... إلى حين. لم أستطع أن أستقبلك هذه الليلة رغم رسالتك. وقد أردت أن أكتب إليك أنا نفسي، لكنني لا أعرف ماذا أكتب... أضاف هذه الجملة الأخيرة بغضب يكاد يمازجه اشمئزاز.

قالت داريا بافلوفنا:

- أنا أيضاً كنت أرى أن نقطع علاقتنا. إن شبهات قوية تقوم في نفس فرفارا بتروفا.

- فلتظن ما يشاء لها هواها أن تظن.

- ما ينبغي لها أن تقلق. وإذن لم يبق علينا إلا أن ننتظر النهاية.

- أما تزالين واثقة بأن سيكون ثمة نهاية حتماً؟

- نعم، أنا واثقة.

- لا شيء ينتهي في هذا العالم.

- ولكن في هذا الأمر سيكون ثمة نهاية. نادني عندئذ فأجبي. والآن

أستودعك الله.

سألها وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- وما عسى تكون تلك النهاية؟

فسألته دون أن تجيب على سؤاله:

- ألم تجرح؟ ... و... ألم تسفح دماً؟

- جرى كل شيء مجرى غيباً أحمقاً. لم أقتل أحداً، لا تخافي. على كل

حال، ستعرفين التفاصيل في هذا اليوم نفسه. سيتكلم عنها جميع الناس. لا أشعر بأن صحتي حسنة.

- أنا ذاهبة.

ثم أضافت تسأله بتردد:

- هل اليوم تعلن الزواج؟
- لا، لا اليوم، ولا غداً. بعد غد... لست أدري. قد نموت جميعاً. وهذا أفضل. دعيني، دعيني أخيراً!
- هل تكون سبباً في ضياع الأخرى... الملتائة العقل؟
- لن أهلك المجنونات... لا هذه المجنونة ولا تلك... ولكنني أعتقد أنني سأضيع العاقلة الحكيمة: أنا أبلغ من الحقارة والدناءة والخسة يا داشا أنني ربما ناديتك أنت "في آخر الأمر"، كما تقولين، فإذا بك تهرعين ملبية النداء، رغم كل ما تتصفين به من عقل وحكمة. لماذا تضيعين نفسك؟
- أنا أعلم أنني في النهاية سأبقى وحدي معك. و... أنا أنتظر تلك اللحظة!
- وإذا لم أنادك في النهاية، بل هربت؟
- هذا لن يكون. ستناديني.
- إن ما تقولينه يشتمل على كثير من الاحتقار.
- أنت تعلم أن الأمر ليس أمر احتقار فحسب.
- معنى هذا أن فيه شيئاً من الاحتقار على كل حال؟
- أسأت أنا التعبير. يشهد الله أنني أتمنى أن لا تحتاج إليّ في يوم من الأيام.
- أبدلت جملة بجملة تعادلها. أنا أيضاً أتمنى أن لا أكون سبباً في ضياعك.
- لن تستطيع يوماً، بحال من الأحوال، أن تضيعيني. وإنك لتعرف ذلك خيراً مما أعرفه.
- كذلك أجابت داريا بافلونا بحرارة ولهجة قاطعة. واستطردت تقول:
- إذا لم أجيء إلى قربك، سأصير راهبة من راهبات المحبة، أعطني بالمرضى، أو أصبح بائعة متجولة أبيع الأناجيل في القرى. لقد عزمت أمري واتخذت قراري. لا أستطيع أن أتزوج، ولا أستطيع أن أعيش في منازل كهذه. ما أريده شيء آخر... إنك تعرف كل شيء.
- لا، لم أستطع في يوم من الأيام أن أعرف ما تريد. يبدو لي أنك تهتمين بي قليلاً كبعض الممرضات العجائز اللواتي يعتنين بواحدة من مريضاتهن

أكثر من سائر المريضات - لا يدري أحد لماذا - أو كبعض تلك العجائز اللواتي يحبين دفن الموتى ويرين أن هذه الجثة أجمل من تلك الأخرى. ما بالك تنظرين إلي بهيئة غريبة عجيبة إلى هذا الحد؟

سألته بلهجة فيها كثير من الشفقة وهي تنظر إليه بانتباه خاص:

- أنت مريض جداً؟ رباه كيف يريد هذا الرجل أن يستغني عني؟

- اسمعي يا داشا، إنني الآن تظهر لي أشباح دائماً. فبالأمس مثلاً ظهر لي شيطان صغير على الجسر، وعرض علي أن يقطع عنق لبيادكين وماريا تيموفيتشنا، فأنتهى من زواجي الشرعي، ولا يتحدث عنه أحد بعد ذلك أبداً. وسألني الشيطان الصغير أن أدفع له عربوناً قدره ثلاثة روبلات، لكنه أفهمني بوضوح أن العملية كلها لن تكلفني أقل من ألف وخمسمائة روبل. هذا شيطان يجيد الحساب. إنه حيسوب! ها ها ها!.

- أنت واثق بأن ذلك لم يكن إلا شبحاً؟

- لا، لم يكن شبحاً، وإنما هو فدكا قاطع الطريق، الهارب من سجن الأشغال الشاقة. ولكن ليس الأمر هذا. هل تعرفين ماذا فعلت؟ لقد أعطيته كل ما كان في محفظتي من مال، وهو الآن مقتنع بأنني دفعت له عربوناً. - لقيته ليلاً، وعرض عليك ذلك العرض؟ ولكن ألسنت ترى إذن أنك قد

وقعت في شباكهم وانتهى الأمر؟

- ليكن ما يكون!

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

- ولكنني أرى هناك على طرف لسانك سؤالاً تريد أن تلقيه!

خافت داشا.

- أي سؤال؟ ليس ثمة سؤال البتة. ليس عندي أي سر شك. اسكت.

كذلك صاحت مضطربة أشد الاضطراب، كأنها أرادت أن تدفع عن نفسها ذاك السؤال.

- أنت واثقة بأنني لن أستعين بفدكا، ولن أذهب إلى دكانه؟

قالت داريا بافلوفنا وهي تضم يديها إحداها إلى الأخرى:

- رياه! لماذا يعذبني هذا التعذيب؟

- اغفري لي هذه المزحة السخيفة! لعلمي سَرَت إليّ عدوى عاداتهم السيئة! هل تعلمين أنني، منذ ليلة البارحة، تستبد بي رغبة رهيبية في الضحك، في الضحك بلا توقف، مدة طويلة، دائماً... لكأنني مصاب بمرض الضحك. انتبهي! هذه أُمي تصل. عرفت ضجة مركبتها واقفة أمام درجات المدخل. أمسكت داشا يده.

- أسأل الله أن يحميك من شيطانك! ... نادني... نادني بأقصى سرعة. - شيطاني؟ ما هو إلا شيطان صغير مصدور، مزكوم، فاشل. ولكن ها أنت ذي مرة أخرى لا تجسرين أن تعبري عن فكرتك يا داشا! أَلَقْتُ عليه داشا نظرة مثقلة بالألم والعتب، واتجهت نحو الباب. فهتف يقول لها، وهو يبتسم ابتامة متشنجة، ابتسامة خبيثة:

- اسمعي يا داشا! إذا... الخلاصة... "إذا"... هل فهمت؟ "إذا" أنا استعنت بفدكا وذهبت إلى دكانه، ثم ناديتك بعد ذلك، فهل تجيئين، هل تجيئين حتى بعد ذهابي إلى دكانه؟ خرجت داريا بافلوفنا دون أن تلتفت، ودون أن تجيب، مخفية وجهها بين يديها.

ودمدم نيقولا في سيفولودوفتش يقول بعد لحظة من تفكير، وقد ألم بوجهه تعبير عن احتقار واشمئزاز:

- نعم، ستهرع إلي، حتى بعد ذهابي إلى دكان فدكا. ممرضة! هم...! على كل حال، ربما كان هذا بعينه هو ما أنا بحاجة إليه.

الفصل الرابع

الجميع ينتظرون

1

انتشرت حكاية المباراة بسرعة، وأحدثت في النفوس تأثيراً قوياً وأسرع جميع الناس ينحازون إلى صف نيقولا في سيفولودوفتش. إن عدداً كبيراً ممن كانوا أعدائه حتى ذلك الحين قد أصبحوا الآن أصدقاء له. وكان مرد هذا الانقلاب في الرأي العام، هذا الانقلاب غير المتوقع، كان مرّده في جلّه إلى تدخل شخصية ظلت متحفظة خلال مدة طويلة، ولكنها قالت في الوقت المناسب كلمات محكمة اجتذبت إجماع رأي جميع الناس، إذ أضفت على الحادث معنى جديداً شائناً. إليكم كيف حدث هذا:

في غداة يوم المباراة، كان المجتمع كله محتشداً عند زوجة عميد النبالة التي كانت تحتفل بعيد ميلادها. وقد حضرت جوليا ميخائيلوفنا هذا الاجتماع، بل قد ترأسته. وقد وصلت إلى الحفلة مع ليزافتا نيقولايفنا التي كانت مشرقة الجمال مرحلة المزاج خاصة، وذلك أمر بدا لكثير من سيداتنا منذ الوهلة الأولى محل شبهة وريب. يجب أن أقول في هذه المناسبة إن خطوبتها مع مافريكي نيقولايفتش أصبحت لا تحتمل الشك. فلقد قالت جوليا ميخائيلوفنا، مجيبة عن سؤال ألقاه عليها جنرال محال على التقاعد، وهو شخص خطير الشأن سأتكلم عنه بعد قليل، قالت إن ليزافتا نيقولايفنا مخطوبة. ومع ذلك لم تقبل واحدة من هاته السيدات أن تصدق النبأ. فهن جميعاً مصرات إصراراً عنيداً على تخيل لا أدري أية قصة، لا أدري أية حكاية

عجيبة ملغزة يقال إنها حدثت في سويسرا ويقال إن جوليا ميخائيلوفنا داخلة فيها لا أدري كيف! إنه ليصعب على المرء أن يقول كيف صدق الناس هذه الشائعات بل هذه التخيلات إلى هذا الحد من التصديق، ولماذا يحرصون هذا الحرص المطلق على إقحام اسم جوليا ميخائيلوفنا فيها. فما إن دخلت حتى التفت نحوها جميع الناس بنظرات مثقلة استطلاعاً. ويحسن أن نشير إلى أن الناس كانوا في تلك السهرة لا يتحدثون عن المباراة إلا محاذرين، بصوت خافت، وذلك بسبب حداثتها وبسبب ظروف خاصة صاحبها. يضاف إلى ذلك أنهم يجهلون ما عسى يكون موقف السلطات. على أنهم كانوا يعرفون أن الخصمين المتبارزين لم تتعرض لهم الشرطة بأي إقلاق، وأن جاجانوف قد استطاع أن يرجع صباحاً إلى منزله في دوخوفو. وكان جميع الناس ينتظرون بفارغ الصبر طبعاً أن ينبري أحد للكلام عن الحادث بصوت عال، فيفتح الباب بذلك لحب الاطلاع الذي كان يغلي في جميع الصدور. وكانت آمال الحشود معقودة بخاصة على الجنرال الذي أشرت إليه منذ برهة. ولم يخب ظنهم.

كان الجنرال، وهو واحد من أبرز أعضاء نادينا، رجلاً من مالكي الأراضي ليس على جانب كبير من الغنى والثراء، لكنه متوقد الذهن محكم الآراء، يحب التودد إلى الأنسات والتلطف معهن، ويهوى خاصة أن يتكلم في المجتمع جهاراً بكل ما تهبه له رتبة الجنرال من سلطة وسطوة، أن يتكلم عن أمور لا يسمح الناس لأنفسهم أن يتكلموا فيها إلا همساً بعد، في الأركان والزوايا النائية. وذلك كان دوره بينما إن صح التعبير. ثم إنه يتكلم بصوت يتصنع العذوبة، ماطاً كلماته، ولعله اكتسب هذه العادة من معايشرة الروس الذين يسافرون إلى الخارج أو من معايشرة السراة القدامى الذين دمر ثرواتهم تحرير الفلاحين. حتى أن ستيفان تروفيموفتش قد ذكر ذات يوم أن المالك من مالكي الأراضي يكون صوته أقرب إلى اصطناع العذوبة ويكون في كلامه أميل إلى مط الألفاظ، على قدر ما تكون قوانين الإصلاح الزراعي قد نالت ثراءه بأذى أكبر. على أن ستيفان تروفيموفتش كان هو نفسه يجعل

صوته حلواً ممطوطاً، ولكن دون أن يلاحظ ذلك بتاتاً.

ولقد تكلم الجنرال كلام رجل مختص خبير: إنه وهو يمت إلى جاجانوف بقربى بعيدة، كانت علاقاته به سيئة، بل لقد كان بينهما دعاوى تنظر فيها المحاكم. يضاف إلى ذلك أن قام في الماضي بمبارزتين حتى إن إحدى هاتين المبارزتين قد كلفته ثمناً باهظاً، هو أنه أرسل إلى القوقاز جندياً بسيطاً⁽¹⁾.

أشار أحد الحضور إلى فر فارا بتروفا التي بدأت تخرج بعد مرضها، بل إنه لم يشر إلى فر فارا بتروفا نفسها وإنما أشار إلى مركبتها الفخمة التي تجرها أربعة أفراس شهباء من حظيرة التهجين التي يملكها آل ستافروجين. فإذا بالجنرال يقول فجأة أنه قد التقى هذا الصباح "بالفتى ستافروجين" راكباً حصاناً. فسرعان ما صمت الجميع. وحرك الجنرال شفتيه مغمغماً، ثم قال وهو يقلب بين يديه علبة ذهبية للتبغ هي هدية امبراطورية:

- يؤسفني أنني لم أكن هنا، منذ بضع سنين خلت. كنت أيامئذ في كارلسباد... هم... إن هذا الشاب الذي يسري بين الناس كلام كثير عنه يشوقني أمره جداً... هم... أصبح أنه مجنون؟ لقد قيل ذلك في الماضي. وها أنذا أعلم أنه وقد أهين أمام قريباته ذات يوم قد مضى يختبئ تحت مائدة. وأمس قال لي ستيفان فرخوفنسكي إن ستافروجين قد اقتتل في مبارزة مع ذلك... الذي يسمى جاجانوف، لا شيء إلا لتحقيق غاية من غايات الفروسية هي أن يقدم جبينه هدفاً يرميه بالرصاص رجل حائق مسعور، تخلصاً منه لا أكثر. هم... ألا إن هذا هو نوع ضباط حرس سنة 1820. من ذا يعاشر هنا؟

وصمت الجنرال كأنه ينتظر جواباً. وبذلك فتح الباب لما كان يضطرم في نفوس أفراد مجتمعنا من نفاذ الصبر.

(1) كانت المبارزات شائعة جداً في روسيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رغم أنها ممنوعة قانوناً، فكان الضباط الذين يقومون بمبارزات يُجَرَّدون من رتبهم العسكرية ويرسلون إلى القوقاز جنوداً لا أكثر.

فلذا بصوت جوليا ميخائيلوفنا التي أحقها أن تشعر فجأة أنها محل أنظار الجميع، إذا بصوتها يعلو قائلاً على حين بغتة:

- أي شيء أبسط من هذا؟ لماذا يدهشنا أن يقتل ستافروجين في مبارزة مع جاجانوف، وأن يزدرى إهانة طالب؟ ما كان له على كل حال أن يقاتل رجلاً كان في الماضي قنا من أقنانه!

كلمات من سحر! إن هذه الفكرة البسيطة لم تكن قد دارت في خلد أحد بعد. وكان لهذه الجملة التي قالتها جوليا ميخائيلوفنا نتائج خارقة. زال جو الفضيحة. جميع التقولات والنمائم والأقاصيص التي كان يتناقلها الناس غابت في الظل. اكتسبت القضية كلها معنى جديداً. إن شخصية جديدة قد انكشفت لنا، شخصية كنا قد أخطأنا في معرفتها، شخصية بطل صلب يمثل أرفع التقاليد. إنه وقد نالته إهانة قاتلة من طالب، أي من شاب متعلم ليس الآن قنا، قد ازدري الإهانة لأن الشخص الذي أهانه كان في الماضي عبداً له. ويضطرب الناس وتجري النمائم والتخرصات في طريقها، ويلطخ الناس بالوحل ذلك الرجل الذي صفع. ولكن الرجل لا يكثر برأي هؤلاء الناس الذين لم يرتفعوا بعد إلى مستوى فهم الأمور فهماً صحيحاً صادقاً، ويخبطون في آرائهم خبط عشواء.

هتف عضو عجوز من أعضاء النادي يخاطب جاره بحرارة نبيلة قائلاً:
- ما كان أغبانا، أنا وأنت، يا إيفان ألكسندروفتش، حين رحنا نتناقش في المبادئ الصادقة الصحيحة!

فأجابه صاحبه موافقاً في فرح:

- نعم يا بطرس ميخائيلوفتش. ما رأيك في جيل الشباب؟

وتدخل ثالث فقال:

- ليس الأمر أمر جيل الشباب يا إيفان ألكسندروفتش. يجب أن لا تخلط بين الأمور: إن ستافروجين هذا نجم، إنه حالة فذة فريدة، وليس يمثل جيل الشباب. هكذا يجب أن ننظر إلى الأمور.

- وإلى رجال من هذا المعدن إنما نحن بحاجة. يعوزنا رجال من هذا النوع.

على أن الشيء الأساسي هو أن "الرجل الجديد" الذي انكشف "سيداً حقيقياً" قد كان عداً ذلك أغنى مالك في مقاطعتنا، فكان يمكن إذن أن يقوم بدور كبير في الشؤون العامة، وأن يكون نافعاً كل النفع. لقد سبق لي أن قلت كلمة عن الحالة النفسية التي كان عليها مالكو الأراضي عندنا.

وأخذت الرؤوس تزداد حرارة وحماسة.

قال أحدهم: - إنه لم يحتقر إهانة الطالب فحسب، بل عقد يديه وراء ظهره، لاحظوا هذا، انتبهوا إلى هذه البادرة.

فأضاف آخر: - ولم يجز الطالب إلى المحاكم الجديدة.

وتدخل ثالث فقال: - رغم أن هذه المحاكم الجديدة كان يمكن أن تحكم له بخمسة عشر روبلاً، تعويضاً عما نال شرفه من إهانة وهو سيد من السادة! ... هي هي هي! ...

وصرخ صوت غاضب يقول:

- بل سأكشف لكم أنا عن سر المحاكم الجديدة⁽¹⁾. إذا كان أحد مقتنعاً بأنه ارتكب جريمة سرقة أو احتيال، فإن خير ما يفعله هو أن يركض إلى بيته قبل فوات الأوان وأن يقتل أمه، فبذلك يضمن لنفسه البراءة فوراً، وتأخذ سيدات المحاكم بتحريك مناديلها. هذه هي الحقيقة صافية.

- نعم، هذا صحيح كل الصحة.

وجرت الأحاديث في طريقها. تذكر الناس العلاقات التي كانت قائمة بين نيقولاي فسيغولودوفتش والكونت "ك...". لقد كان معروفاً أن الكونت "ك..." مستقل الرأي وأنه يعادي الإصلاحات الأخيرة. وكان معروفاً كذلك أن له نشاطاً في الحياة العامة، وإن يكن هذا النشاط قد تباطأ قليلاً في الآونة الأخيرة. وهما هم أولاء يذكرون على حين فجأة نقلاً عن مصدر مطلع جدير بالثقة والتصديق، رغم أنه ما من واقعة تؤكد هذه الشائعة، أن نيقولاي فسيغولودوفتش قد خطب إحدى بنات الكونت. أما ما لعله قد حدث في

(1) أنشئت المحاكم الجديدة سنة 1864 فكانت محل هجوم الرجعيين عليها، وتندرهم بها.

سويسرا بين ليزافنا نيقولايفنا وستافروجين، فلم يتحدث أحد عنه بعد ذلك. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن أسرة دروزدوف كانت قد فرغت من إتمام جولة زياراتها التي أهملتها حتى ذلك الحين. وأجمعت السيدات على أن ليزافنا نيقولايفنا فتاة كسائر الفتيات، باستثناء أنها تتكلف الظهور بمظهر شخص مريض الأعصاب، وتستمد من ذلك زهواً بنفسها. وقالوا إن الإغماء الذي أصابها يوم وصول نيقولايف فيسيفلودوفتش لم يكن له من سبب غير ذعرها من السلوك المشين الذي صدر عن الطالب. حتى لقد أصبحوا الآن يبالغون في التلطف من قيمة الأمور التي كانوا يسبغون عليها من خيالهم قبل ذلك ألواناً هائلة فإذا هي أشبه بالغاز يحار في فهمها العقل. أما العرجاء فقد نُسيت تماماً. حتى لقد أصبح الناس ينزعجون من الإتيان على ذكرها. "هب أنه كان في حياته مائة عرجاء! من منا لم يكن شاباً؟". وأخذوا يشيدون بموقف الاحترام الذي يقفه نيقولايف فيسيفلودوفتش من أمه، ويرعون في وصفه بأنواع الفضائل، ويمتدحون ما حصل من معارف واسعة وثقافة غزيرة خلال السنين الأربع التي قضاها طالباً في الجامعات الألمانية. أما سلوك جاجانوف فقد أجمعوا على نعته بأنه قد أعوزته اللياقة والكياسة، فما كان لجاجانوف أن يتهجم على رجل من طبقة. وأما جوليا ميخائيلوفنا فقد اعترفوا لها بنفاذ البصيرة وسداد الحكم وحصافة الرأي.

لذلك فإن الناس، حين ظهر نيقولايف فيسيفلودوفتش أخيراً، استقبلوه استقبالاً فيه جدٌ يبلغ غاية السذاجة، محدّقين إليه بنظرات تفيض حبّ استطلاع ونفاد صبر. وسرعان ما حبس نفسه في صمت كامل مطلق، فأرضى صمته الناس أكثر مما كان يرضيهم أن يلقي خطاباً طويلة. الخلاصة: أصبح كل شيء فيه محبباً مناسباً، وجرى سلوكه مجرى "الموضة". والمرء في الريف متى ظهر في المجتمع أصبح يستحيل عليه أن يختبئ. وعاد نيقولايف فيسيفلودوفتش يراعى جميع آداب الريف مراعاة دقيقة تمضي إلى حد الإتقان المرهف. وكان الناس يرون أنه غير مرح فيقولون: "لقد تألم كثيراً. إنه إنسان غير عادي. من حقه أن يكون مهموماً". حتى زهوه وحتى تعاليه

اللذان استاء منهما الناس استياءً كبيراً قبل أربع سنين، أصبحت الآن يثيران الاحترام والإعجاب.

وكانت فرفارا بتروفا هي المنتصرة أكثر من أي شخص آخر. لا أدري هل أسفت كثيراً على انهيار آمالها المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا. لكنها على كل حال قد وجدت في زهوها قوةً تشد أزرها. والأمر الغريب أنها بين عشية وضحاها اقتنعت اقتناعاً جازماً بأن ابنها نيقولايف قد اختار عروساً لنفسه إحدى بنات الكونت "ك...". والأغرب من ذلك أن هذا الاقتناع كان لا يقوم، عندها هي أيضاً، إلا على شائعات تسري في المدينة. ولقد كانت تمنى أن تسأل ابنها عن هذا الأمر، ولكنها لم تجرؤ. ومع ذلك عجزت عن السيطرة على نفسها مرتين أو ثلاث مرات فلامت ابنها، وهي تصطنع المرح، على أنه أصبح لا يصارحها بشئونه كما كان يفعل من قبل. فكان نيقولايف سيفولودوفتش بيتسم، ولكنه يلتزم الصمت، فكانت هي ترى في هذا علامة موافقة. ورغم ذلك، رغم ذلك كله، لم تفلح في نسيان العرجاء. كانت ذكرى العرجاء تثقل على قلبها كصخرة. إنها كابوس رهيب يعذبها ويوقظ في نفسها إحساسات تنبؤ غريبة، بينما كانت مؤمنة إيماناً قاطعاً بأن ابنها خطب إحدى بنات الكونت "ك...". لكننا ستتكلم عن هذا كله مرة أخرى فيما بعد. وحسبنا أن نذكر الآن أن فرفارا بتروفا قد وجدت نفسها طبعاً، من جديد، محل احترام وتقدير، وحفاوة وترحيب، في المجتمع كله، غير أنها لم تستفد من هذا كثيراً، لأنها لا تخرج إلا نادراً.

مع ذلك فقد زارت جوليا ميخائيلوفنا زيارة فخمة. يجب أن نشير إلى أن أحداً لم تؤثر في نفسه الكلمات البليغة التي نطقت بها جوليا ميخائيلوفنا في حفلة عيد ميلاد عميدة النبالة كما أثرت في نفس فرفارا بتروفا: لقد أزاحت تلك الكلمات عن قلبها حملاً ثقيلاً، وبددت من نفسها شيئاً من الشكوك التي ظلت تعذبها منذ يوم الأحد ذاك. حتى لقد قالت صراحة: "إنني لم أكن أفهم تلك المرأة". وبادفعاها المعهود فيها، المألوف عندها، قالت لجوليا ميخائيلوفنا حين زارتها: "إنني آتية "لأشكرك". فسرت زوجة الحاكم سروراً

عظيماً، ولكنها حافظت على وضع الرصانة والاستقلال، وأخذت ترى في خطورة شأنها وعلو قدرها رأياً عظيماً، حتى لقد غالت في هذا بعض المغالاة في أغلب الظن. من ذلك أنها أعلنت أثناء الحديث أنها لم تسمع أبداً عن الأعمال العلمية التي قام بها ستيفان تروفيموفتش.

- إنني أستقبل طبعاً الشاب فرخوفنسكي، وأعامله معاملة لطيفة. صحيح أنه طائش، ولكنه ما يزال فتى. ثم إنه على جانب من الثقافة. هو على كل حال ليس كناقذ قديم فات أوانه وولى زمانه.

فأسرعت فر فارا بتروفا تعلن لجوليا ميخائيلوفنا أن ستيفان تروفيموفتش لم يكن ناقداً في يوم من الأيام، وأنه قد عاش عندها دائماً، وأنه اشتهر "بأحداث يعرفها الناس كافة" وقعت له في بداية حياته العلمية، كما اشتهر في الآونة الأخيرة بأعماله التي تتناول تاريخ إسبانيا. وهو يهيء الآن كتاباً عن وضع الجامعات الألمانية، كما يهيء دراسةً عن "مادونا" درسدن فيما تعتقد. الخلاصة: لقد رفضت فر فارا بتروفا أن تترك صديقها للسان جوليا ميخائيلوفنا.

- عن "مادونا" درسدن؟ عن مادونا سيستو؟⁽¹⁾ يا عزيزتي فر فارا بتروفا، لقد وقفت ساعتين أتأمل هذه اللوحة، ثم انصرفت عنها خائبة الأمل. ما كان أشد دهشتي حين لم أفهم منها شيئاً. كارمازينوف يقول هو أيضاً أن فهمها عسير. ما من أحد يرى فيها اليوم شيئاً خارقاً، لا الروس ولا الإنجليز. إن الشيوخ هم الذين خلقوا مجدها.

- أهذه موضة جديدة؟

- أنا من جهتي أرى أن لا ننظر إلى شبابنا نظرة تعالٍ. الناس في كل مكان يصيرون قائلين: هؤلاء شيوخيون، ولكن في رأيي أن علينا أن نجتذبهم وأن نحميمهم من أنفسهم. إنني أقرأ كل ما ينشر الآن: المجلات، المؤلفات التي تتكلم عن الشيوعية، كتب العلوم الطبيعية. إنني أتلقى جميع المطبوعات

(1) كان دوستوفسكي شديد الإعجاب ببادونا سيستو التي رسمها رافائيل والتي كانت في معرض درسدن.

الجديدة، لأن على المرء أن يعرف زمانه، وأن يعرف الناس الذين يعيشون في عصره. لا يستطيع المرء على كل حال أن يقضي حياته كلها فوق ذرى الخيال. والنتيجة التي أخلص إليها هي أن علينا أن نستميل الشباب وأن نمنعهم من السقوط في الهوة. تلك قاعدتي في السلوك. وصدّقي يا فرارا بتروفاً أننا وحدنا، أبناء المجتمع، نستطيع بتأثيرنا الحسن وموقفنا الودود خاصة أن نمسكهم على حافة الهوة التي يدفعهم إليها ما يتصف به جميع هؤلاء الشيوخ الطييون من تعصب وتزمت وعدم تسامح. ثم إنني سعيدة جداً بما قلته لي عن ستيفان تروفيموفتش. لقد أوحيت إليّ بفكرة: إنه قد يفيدنا كثيراً في الصبيحة الأدبية. تعلمين أنني أنظم حفلة كبرى لمعونة المعلّّّّات الفقيرات اللواتي يرجع أصلهن إلى إقليمنا. إن ستّاً منهن قد وُلدن في مقاطعتنا، وتبعثرن في أنحاء روسيا، وبينهن اثنتان مستخدمتان في مصلحة التلغراف، واثنتان طالبتان. ومنهن أيضاً من يردن دخول الجامعة، لكنهن لا يملكن من المال ما يمكنهن من ذلك. إن حظ المرأة الروسية فظيع يا فرارا بتروفاً. إن مسألة الدراسة العليا هي مشكلتهن الآن. حتى لقد اضطر "مجلس الامبراطورية"⁽¹⁾ نفسه أن يعالج هذه المشكلة في الآونة الأخيرة. يستطيع المرء في بلادنا العجيبة هذه روسيا أن يفعل ما يريد. لكنني أعود فأكرر أن المجتمع لن يتوصل إلى توجيه هذا العمل الجليل في الطريق القويم إلا إذا التزم في معاملة الجيل الجديد موقفاً يفيض بشاشة وترحيباً وحفاوة وتعاطفاً نشيطاً. إن الصفوة من الناس ليست كبيرة العدد وأأسفاه! صحيح أن هناك أناساً يُعدّون صفوة، لكنهم مبعثرون. فلتتحد إذن فنكون أقوىاء. الخلاصة: ستقام عندي صبيحة أدبية، يعقبها غداء خفيف، ثم تتبع الغداء فترة استراحة، وفي المساء تُقام حفلة راقصة. ولقد كنا ننتوي تدشين الحفلة بلوحات حية، لكنني أعتقد أن النفقات تكون عندئذ باهظة، لذلك سنكتفي بأن نقدم للجمهور رقصتين أو ثلاثاً من رقصات الكادريل المقنعة التنكرية، ممثلة

(1) تشكل "مجلس الامبراطورية" سنة 1811 كمجلس استشاري، وكان يناقش مشاريع القوانين مرتبطاً بالامبراطور.

الاتجاهات الأدبية الرئيسية. إن هذه الفكرة التي تشتمل على فكاهة إنما اقترحها كارمازينوف الذي يساعدني كثيراً من جهة أخرى. وسوف يقرأ علينا في الصبيحة الأدبية آخر عمل أدبي له، وهو عمل لم يطلع عليه أحد بعد. إن كارمازينوف يهجر القلم، ولن يكتب بعد اليوم. وفي هذه الصفحات يودّع الجمهور، عمل رائع عنوانه: "شكراً". وقد جعل العنوان بالفرنسية. هو يرى أن ذلك أحلى والطف وأرهف. وأنا أشاطره هذا الرأي. بل أنا التي اقترحت عليه هذا الاقتراح. أظن أن ستيفان تروفيموفتش يستطيع، هو أيضاً، أن يقرأ لنا شيئاً، شريطة أن لا يكون طويلاً... وأن لا يكون فيه تعالم كثير!... أعتقد أن بطرس ستيفانوفتش سيجيبني إليك، ويطلعك على البرنامج، أو اسمحي لي أن أحمله إليك بنفسي.

- واسمحي لي من جهتك بأن أضع اسمي في قائمة المتبرعين. وسوف أنقل اقتراحك إلى ستيفان تروفيموفتش، وسوف ألحّ عليه أن يقبل.
عادت فرفاراً بتروفا مفتتنَةً بجوليا ميخائيلوفنا أشد الافتتان. وقد سندتها بعد ذلك ودعمتها بكل ما تملك من قوة. ولكن حنقها على ستيفان تروفيموفتش قد اشتد مزيداً من الاشتداد في الوقت نفسه، لا ندري لماذا! وكان المسكين لا يخطر بباله شيء من ذلك بتاتاً.
قالت فرفاراً بتروفا لنيقولا في سيفولودوفتش وبطرس ستيفانوفتش وقد جاء إليها في السهرة:
- إنني هائمة بحبها حقاً. ولست أدري كيف أمكن أن أخطئ في معرفة هذه المرأة.

قال بطرس ستيفانوفتش:
- عليك مع ذلك أن تصالحي العجوز. إنه يائس. إنك تعاملينه معاملة مسرفة في الشدة. أمس التقى بمركبتك فحيّاك، ولكنك أشحت وجهك عنه. نريد أن ندفعه إلى أمام. إن لي أملاً فيه. وما يزال في وسعه أن يفيدنا.
- آ... أنا واثقة بأنه سيقراً.
- ليس الأمر هو هذا فحسب. كنت أريد أن أذهب إليه اليوم، فهل أبلغه شيئاً من جهتك.

قالت فر فارا بترو فنا بشيء من التردد:
 - إذا شئت. ولكنني لا أدري كيف ستدبر الأمر. كنت أنتوي أن أتولى
 بنفسي شرح ما أريد شرحه، فأحدّد له موعداً...
 وقطّبت حاجبيها. فقال بطرس ستيفانوفتش:
 - موعداً؟ لا يستحق الأمر كلّ هذا. يكفي أن أنقل إليه ما تريدين أن أنقله
 إليه...

فقال فر فارا بترو فنا:

- ولكن قل له إنني سأبلغه موعد لقائنا، باليوم والساعة. لا تنسَ هذا.
 خرج بطرس ستيفانوفتش وعلى شفّيته ابتسامة ساخرة. يمكنني أن أقول
 - إذا صدقت ذاكرتي - إنه كان في ذلك الأوان كثير الغضب، وإنه كان يعامل
 جميع الناس تقريباً معاملة فيها شيء من حدة المزاج. والغريب في الأمر أن
 الناس كانوا يغفرون له هذا. لقد سلموا بأن من حقّه أن ينعم بحظوة خاصة.
 وينبغي أن أذكر أن مبارزة نيقولا في سيفولودوفتش قد أثارَت حنقه كثيراً.
 لقد فوجئ بنبأ الحادث. فحين رُويت له القصة اخضرّ لونه من شدة الغضب.
 هل جرح ذلك كبرياءه؟ إنه لم يعلم بالأمر إلّا في الغد، أي بعد أن أصبحت
 المدينة كلها على علم به.

فلما لقي ستافروجين مصادفة في النادي بعد ذلك بخمسة أيام قال له:
 - لم يكن من حقلك أن تبارز.

يجب أن نلاحظ أنهما لم يكونا قد التقيا بعد المباراة، رغم أن بطرس
 ستيفانوفتش كان يأتي إلى فر فارا بترو فنا كل يوم.

نظر إليه نيقولا في سيفولودوفتش صامتاً، ذاهل الهيئة، حتى وكأنه لم
 يفهم ماذا كان يريد منه الآخر، ومضى دون أن يتوقف، واجتاز الصالة الكبرى
 متجهاً نحو البوفيه. فما كان من بطرس إلّا أن ركض وراءه، حتى إذا وصل
 إليه وأضاف:

- وقد ذهبت أيضاً إلى شاتوف... وتريد أن تعلن على الملأ زواجك
 بماريا تيموفيئنا...

وأمسكه من كتفه عن دھول.

فانتزع نيقولاي فسيفولودوفتش نفسه منه بحركة مفاجئة، والتفت إليه بوجه يعبر عن التهديد بغتة. فنظر إليه بطرس ستيفانوفتش، وتقبضت شفتاه بابتسامة صفراء. ولم يدم ذلك كله إلا لحظة. ومضى نيقولاي فسيفولودوفتش.

2

ترك بطرس ستيفانوفتش بيت فر فارا بتروفنا وذهب إلى أبيه رأساً. كان يغذ الخطو من شدة شوقه إلى إفراغ غضبه وإلى الثأر لنفسه من إهانة كنت ما أزال أجهلها. يجب أن أقول أن ستيفان تروفيموفتش، أثناء آخر لقاء تم بينه وبين ابنه يوم الخميس من الأسبوع الماضي، قد انتهى إلى طرد ابنه طرداً إلى الباب مهدداً إياه بعصاه. وكان الأب هو الذي بادر إلى المشاجرة في الواقع. وقد كتم عني وقوع هذا الحادث بينه وبين ابنه. ولكن حين وصل بطرس ستيفانوفتش راكضاً وهو يتسم ابتسامته المستمرة التي تتكلف تواضعاً ساذجاً، وينظر نظراته المتفحصة المستكشفة التي تثير في النفس انزعاجاً كريهاً، فقد أسرع ستيفان يومئ مهيباً أن لا أترك الغرفة. فكذلك أمكنني أن أعرف علاقاتهما، لأنني شهدت حديثهما كله في هذه المرة.

كان ستيفان تروفيموفتش مضطجعاً على ديوانه. وكان قد نحل جسمه واصفر لونه بعد يوم الخميس الماضي.

جلس بطرس ستيفانوفتش إلى جانبه بدون كلفة، وجعل ساقيه تحته بغير أي تحرّج، فاحتل من الديوان مكاناً أكبر مما يجيزه احترام الابن لأبيه. فابتعد ستيفان تروفيموفتش بوقار، ملتزماً الصمت.

كان على المائدة كتاب مفتوح هو رواية عنوانها: "ما العمل؟"⁽¹⁾. يؤسفني

(1) الرواية الاشتراكية التي كتبها تشيرنيتشفسكي، ونشرت سنة 1864 وحظيت بشهرة واسعة وإعجاب كبير لدى الشبيبة الراديكالية. وقد هاجمها دوستيفسكي بشدة في قصته "في قبوي".

أن عليّ أن أكشف الآن عن الضعف الغريب في صديقي: إن فكرة الخروج من العزلة وخوض معركة أخيرة كانت لا تفكك تتجسد في خياله الذي تفتنه الأحلام. فحزرت أنه كان "يدرس" هذه الرواية لأشياء إلا أن يهيء نفسه لتلك المعركة المحتومة مع أولئك "الزاعقين": يعرف أسلحتهم وأدلتهم وحججهم من عقيدتهم نفسها، ثم يربكهم ويحرجهم ويفهمهم على مرأى منها "هي" ذاتها. ولكن لكم كان يعذبه ذلك الكتاب! كان في بعض الأحيان يرميه على الأرض، ويأخذ يسير في الغرفة كالخارج عن طوره.

وكان يقول لي بصوت محموم رهيب:

- إنني أسلم بأن الفكرة الأساسية التي يقول بها الكاتب صحيحة صادقة. إنها فكرتنا، فكرتنا بعينها. نحن الذين زرناها، ونحن الذين تعهدناها بالشرح! وما عساهم يقولون بعد الذي قلناه نحن على كل حال؟ ولكن رباه! لكم شوّهوها، وبتروها، وأسأوا التعبير عنها. أهذه هي الأهداف التي سعيها إلى بلوغها؟ من ذا الذي يستطيع أن يتبين هنا فكرتنا الأصلية نحن؟

كذلك كان يقول هذه الجملة الأخيرة وهو ينقر على الكتاب بإصبعه.

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قرأ عنوان الكتاب بعد أن تناوله من على المائدة، سأله وهو يضحك ضحكاً ساخراً:

- أثقف نفسك؟ أن الأوان حقاً. إن شئت جئتكم بما هو خير من هذا أيضاً.

ظل ستيفان تروفيموفتش صامتاً وقوراً. وكنت جالساً على الديوان. شرح بطرس ستيفانوفتش الغرض من زيارته بكلمات قليلة. فكان طبيعياً أن شُده ستيفان تروفيموفتش شدها كبيراً. وكان يصغي إلى ابنه بقلق يمازجه استياء واستنكار.

- هكذا إذن. إن جوليا ميخائيلوفنا تأمل أن أجيء لأقرأ عندها!

- ليس الدافع إلى دعوتك أنها بحاجة إليك حقاً. لكنها أرادت من ذلك أن تسر فرحاً بترونا وأن تداريها لا أكثر. وطبعي أنك لن تجرؤ أن ترفض. ثم أضاف يقول وهو يتسم ابتسامة ساخرة:

- وأنا واثق من جهة أخرى بأنك تمنى أن تقرأ... إنكم جميعاً، معشر العجائز، مغرورون بأنفسكم، محبوبون للظهور. ولكن اسمع: يجب أن لا يكون ما ستقرؤه مملاً إملالاً شديداً. ماذا تكتب في هذه الأيام؟ أما زلت مشغولاً بكتابة تاريخ إسبانيا؟ أعطني ورقتك قبل موعد الصبيحة الأدبية بثلاثة أيام، لألقي عليها نظرة، لأن من الجائز أن تيمنا جميعاً من فرط الضجر.

كان واضحاً أن الفظاظة الصريحة في هذه الأقوال المهينة، بل وكذلك تعجل بطرس ستيفانوفتش في كلامه، إنما كانا مقصودين متعمدين، حتى ليفهم المرء من طريقة حديثه أن مخاطبة ستيفان تروفيموفتش بلغة أطف، أمر مستحيل في رأي بطرس ستيفانوفتش. ومع ذلك أصرّ صديقي على تجاهل الإهانات. لكن الأنباء التي سمعها قد بثت في نفسه اضطراباً شديداً. سأله وقد اصفر لونه:

- ولكن هل "هي" هي نفسها، تبلغني هذا الكلام بواسطتك "أنت"؟
- أقصد... أنها تريد أن تضرب لك موعداً لتمكننا من التصارع: ذلك أثرٌ أخير من آثار تكلفكما العاطفي. لقد تغنجت عليها خلال عشرين عاماً، فعوّدتها على هذه الأساليب المضحكة السخيفة. ولكن لا تقلق: انتهى الأمر الآن. هي نفسها لا تنفك تكرر أنها الآن فقط إنما أخذت "تري رؤية واضحة". لقد قلت لها بصراحة تامة إن صداقتكما تقوم عند كل منكما على أن يفرغ أحدهما أمام الآخر مياحه الوسخة. ما أكثر ما قالته لي يا صاحبي! هه! ما كان أحلاه من دور، ذلك الدور الذي قمت به تجاهها خلال هذا الوقت كله، وهو دور خادم! لقد احمرّ وجهي خجلاً وحياء عنك!...

- أنا قمت بدور خادم، أتقول ذلك عني أنا؟
كذلك صاح يقول ستيفان تروفيموفتش، عاجزاً عن السيطرة على نفسه. فأجابه ابنه قائلاً:

- بل كنت أسوأ من ذلك، كنت طفيلياً، أي خادماً لا يعمل. نحن أكسل من أن نعمل، لكن لنا أسناناً طويلة. هي نفسها تدرك هذا الآن. ولكن ما أفظع

ما روته لي عنك! لشدّ ما ضحكت يا صاحبي من الرسائل التي كنت تكتبها وتبعثها إليها! هذا مخجل، هذا مقزز. ألا إنك لمنحط انحطاطاً عميقاً! إن في البر والإحسان شيئاً يفسد الشخص الذي يقبلهما إفساداً يبقى إلى الأبد ولا يزول: إنك مثال على ذلك واضح.

- أطلعتك على رسائلي؟

- كلها. يستحيل على المرء طبعاً أن يقرأ هذا كله! ما أكثر الصفحات التي سوّدت! يخيل إليّ أن هناك أكثر من ألفي رسالة. ولكن هل تعلم يا صاحبي أنها في لحظة من اللحظات كانت مستعدة لأن تزوجك فيما أظن؟ لقد ضيعت على نفسك بالغباء فرصة عظيمة! أنا أتكلم هنا من وجهة نظرك أنت طبعاً! ومهما يكن من أمر، فلو تزوجتها لكان ذلك أفضل من أن تقبل الزواج "لتغطية آثام الغير طمعاً في المال" فتكون مهرجاً تضحك عليه المدينة كلها.

- طمعاً في المال؟ أهي التي قالت هذا؟

كذلك هتف يقول ستيفان تروفيموفتش متألماً. فأجابه ابنه قائلاً:

- ما عسى يكون الباعث إذن؟ لماذا تتخبط هذا التخبط؟ لقد دافعت أنا عنك بهذه الحجة نفسها. وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تملكها لتبرر سلوكك. هي نفسها أدركت أنك كنت في حاجة إلى مال، كسائر الناس، وأنك من هذه الناحية ربما كنت على حق. لقد برهنت لها برهاناً رياضياً على أن كلاً منكما يستفيد من هذه العلاقات التي بينكما: هي رأسمالية، وأنت مهرج عاطفي! ثم إنها لا تأخذ عليك شيئاً من ناحية المال هذه، وإن تكن قد اتخذتها بقرّة حلوباً. ولكن ما يحقها هو أنها وثقت بك خلال عشرين عاماً، وأنها خدعت بعواطفك الجميلة التي كانت تضطرها إلى الكذب بمعنى من المعاني. إنها لن ترضى أن تعترف بأكاذيبها هي طبعاً، ولكنها ستجعلك تدفع ثمن أكاذيبك أنت غالباً. لا أدري حقاً كيف لم تتنبأ بأنك ستدفع الثمن باهظاً في يوم من الأيام، مع أنك تملك شيئاً من الحس السليم. لقد نصحتها بأن تضعك في ملجأ، في ملجأ مناسب، فاطمن. لن يكون في هذا إذلال لك. وهذا ما ستفعله فيما أظن. هل تتذكر آخر رسالة بعثتها إليّ وأنا في س...، منذ ثلاثة أسابيع؟

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل ابنه:
- هل يعقل أن تكون قد أطلعتها على تلك الرسالة؟
فأجابه ابنه:

- كيف لا؟ فوراً! إنها تلك الرسالة التي ذكرت لي فيها أنها تستغلك وأنها
غيورة من مواهبك. ثم حدثني فيها عن "خطايا الغير". بالمناسبة يا صاحبي،
إن لك غروراً وأناية لا مثيل لهما! لشد ما ضحكت! إن رسائلك مزعجة
مرهقة على وجه العموم، فأسلوبك فظيع كريه. كان يتفق لي أحياناً أن لا أقرأ
الرسائل التي تصلني منك. منها واحدة ملقاة في مكان، لم أفضضها قط. في
إمكانني أن أردّها إليك غداً إذا شئت. ولكن تلك الرسالة الأخيرة كانت هي
الذروة. لشد ما ضحكت. يا إلهي! لشد ما ضحكت!

قال ستيفان تروفيموفتش:

- ما أنت بإنسان، ما أنت بإنسان! أنت وحش، أنت غول!
- لا سبيل إلى التحدث معك. ها أنت ذا تغضب من جديد، مثلما غضبت
يوم الخميس الأخير.

نهض ستيفان تروفيموفتش مهدداً يسأل ابنه:

- كيف تسمح لنفسك بأن تكلمني هكذا؟
- ماذا؟ إنني أكلّمك بوضوح وبساطة.
- أأنت ابني أم لا، أيها الوحش؟
- لا بد أنك تعرف هذا خيراً مما أعرفه أنا. والآباء ميّالون طبعاً إلى تصديق
الأوهام في هذا الشأن...
- اسكت، اسكت!

كذلك قاطعه ستيفان تروفيموفتش وهو يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص
قدميه!

قال الابن:

- إنك تصرخ وتشتمني، كما فعلت في المرة الأخيرة حين أردت أن
تضربني. فاعلم أنني وضعت يدي على الوثيقة بعد أن قضيت الليل كله في

نبش صندوقي. ولكن دع للعزاء سبيلاً إلى نفسك. لا شيء واضح دقيق. ما هي إلا رسالة صغيرة أرسلتها إلى ذلك البولندي الصغير. فإذا حكمنا على الأمر من خلال اللهجة...

- إذا قلت كلمة واحدة أخرى، فلأصفعك!

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت إليّ فجأة:

- كذلك هم الناس. إن الأمر مستمر بيننا على هذا النحو منذ يوم الخميس الماضي. يسعدني أنك اليوم هنا، ففي إمكانك أن تكون قاضياً لنا. أحب قبل كل شيء أن أسجل هذه الواقعة: هو يأخذ عليّ أنني أقول عن أمي هذا الكلام، ولكن أليس هو الذي دفعني إلى ذلك دفعاً؟ حين كنت طفلاً في بترسبرج، ألم يكن يوقظني مرتين في الليل ليقبّلني ويكي فوقي كما تبكي امرأة عجوز؟ وهل تعلم ماذا كان يروي لي في ذلك الحين؟ لقد كان يقصّ عليّ هذه الحكايات نفسها عن أمي. فمنه هو إنما عرفت هذه الحكايات.

- أوه! لقد كان لأقوالي معنى آخر تماماً، معنى رفيع! إنك لم تفهم. إنك لم تفهم شيئاً، لم تفهم شيئاً البتة!

- أعترف مع ذلك أن هذه الحكايات كانت في فمك أدناً وأخط. على كل حال، هذا كله لا أكثرث به! وإنما أضع نفسي في الموضع الذي تنظر منه أنت إلى الأشياء. أما من الموضع الذي أنظر أنا منه إلى الأمور، فلا تقلق. إنني لا ألوم أمي. فيم يهمني أن تكون أبي أو أن لا تكون؟ سيان عندي. أنا لست مسؤولاً عما جرى بينكما في برلين. وهل كان في وسعكما أن تتصرفا تصرفاً يتصف بالتعقل والحكمة؟ ألا تدرك إلى أي حد كنتما سخيّين مضحكين؟ ومهما يكن من أمر، فيم يهمك أن أكون ابنك أو ابن ذلك البولندي؟

والتفت بطرس ستيفانوفتش نحوي من جديد وقال:

- اسمع! إنه لم ينفق عليّ قرشاً واحداً في يوم من الأيام، ولم يرني إلا حين بلغت السادسة عشرة من عمري. وبعد ذلك، أثناء وجوده هنا، نهبني نهباً. ثم ها هو ذا الآن يصرخ قائلاً إنه ظل طوال حياته يتألم في سبيلي، وها هو ذا يمثل أمامي تمثيلاً لا يخفي كذبه. أنا لست فرفاراً بتروفاً، فاعفني من هذا التمثيل!...

ونهمض وتناول قبعته.

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة وجه الأموات، ومدّ يده نحو ابنه:

- إنني ألعنك، ألعنك!

قال بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً:

- هل يُعقل أن ينطق امرؤ بسخافات كهذه السخافات. هيا. أستودعك الله يا صاحبي. لن أعود بعد اليوم. لا تنس أن ترسل إليّ مقالاتك، وأن لا تكثر فيها من الحماقات إذا أمكن، هه؟ وقائع، ووقائع، ووقائع، لا أكثر. وعليك بالإيجاز خاصة.

3

كانت هناك أسباب تدعو بطرس ستيفانوفتش إلى أن يتصرف مع أبيه كما تصرف: في رأيي أنه يريد أن يغرق العجوز في اليأس ويضطره بذلك إلى ارتكاب عمل من الأعمال الفاضحة الصاخبة التي ستفيد الابن في تحقيق أهداف بعيدة سوف نتكلم عنها فيما بعد. إن طائفة كبيرة من المشاريع والخطط، وهي كلها تقريباً مشاريع رهيبة، كانت تشغل في ذلك الأوان ذهن الشاب الذي كان يستهدف كذلك ضحايا أخرى غير ستيفان تروفيموفتش. غير أن هناك واحدة من هذه الضحايا كان يعول عليها تعويلاً خاصاً: هي السيد فون لمبكه نفسه.

- إن أندره أنطونوفتش فون لمبكه ينتمى إلى ذلك الشعب الذي أنعم عليه الحظ⁽¹⁾، ويُعدّ ممثلوه في روسيا ببضعة مئات من الآلاف، ويؤلفون - ربما على غير علم منهم - عصابةً منظمةً أكمل تنظيم. ليست هذه العصابة مخلوقاً اصطناعياً. وإنما هي نشأت من تلقاء نفسها على نحو طبيعي، فهي لم تقم

(1) كان بين الألمان في روسيا عدد غفير من كبار العسكريين وكبار الموظفين، لا سيما في عهد نيقولا الأول "مولاي، اجعلني بالترقية ألمانيا" كذلك قال الجنرال آ. إيرمولوف للقيصر نيقولا الأول الذي كان يريد أن يكافئه.

على عقد مبرم، بل على التزام أدبي. إن هدف هذه العصبة هو دعم ومساعدة جميع ممثلي هذا الشعب، في كل وقت، وفي كل مكان، وفي جميع الظروف وقد نال آندره أنطونوفتش شرف الدراسة في واحدة من تلك المدارس العليا التي لا يتردد إليها إلا أولاد أسر غنية أو ذات نفوذ. حتى إذا أتمت تلاميذ هذه المدارس دراستهم، أُسندت إليهم على الفور تقريباً وظائف هامة في إدارات الدولة. لقد كان أحد أعمام آندره أنطونوفتش ليوتنان كولونيل في سلاح الهندسة، وكان عمه الآخر صاحب مخبز. غير أن آندره أنطونوفتش، إذ ظفر بدخول تلك المدرسة الأرستقراطية، قد وجد هنالك عدداً كبيراً من ممثلي الشعب الذي يرجع أصله إليه. وكان مرح الطبع خفيف الظل فكان رفاقه يحبونه كثيراً، ولكنه لم يكن مجتهداً في دراسته. وبينما كان أكثر الشبان في الصفوف العليا، ولا سيما الروس، يناقشون منذ ذلك الحين مشكلات كبرى من مشكلات الساعة، حتى لكأن حل هذه المشكلات لا ينتظر إلا منهم، كان فون لمبكه ما يزال يسترسل في أمازيحه البريئة كما يفعل تلميذ صغير. وكانت تهريجاته البسيطة، الساخرة أحياناً، تضحك الجميع، وذلك ما كان يريده. فتارة يلقي عليه الأستاذ سؤالاً في الصف فإذا هو يتمخط يتمخطاً يبلغ من الغلظة أن الجميع ينفجرون ضاحكين ومعهم الأستاذ نفسه، وتارة يمثل في المهجع لوحة حية ذات طابع مستهتر، فيصفق له رفاقه فرحين، وتارة يعزف بمجرد قرص أنفه افتتاحية "فرا ديافولو"⁽¹⁾. وكان يتميز كذلك بنوع من الإهمال المقصود كان يعده فكهاً باعثاً على الضحك. وفي أواخر أيام إقامته بالمدرسة، أخذ ينظم شعراً باللغة الروسية، ذلك أنه، على غرار كثير من أبناء جنسه، كان لا يعرف لغته الأم إلا معرفة ناقصة جداً. فكان أن قرّبه هذا الميل إلى الشعر من رفيق له هو ابن جنرال روسي ألفت به مصائب. إن هذا الفتى المكتئب النفس الحاد المزاج كان رفاقه في المدرسة يرون أنه سيكون في المستقبل أحد أمجاد أدبنا. وقد أنعم هذا الفتى على آندره

(1) "فرا ديافولو" الأوبرا الكوميدية التي وضعها دانييل فرانسوا أوبير (1782-1871)، وكانت واسعة الشهرة والانتشار في ذلك الأوان.

أنطونوفتش بحمايته. وبعد ثلاث سنين كان ذلك الفتى المكتتب قد ترك الوظيفة وفرغ للأدب، فكان إذن ينتعل حذاء مهترئاً، ويرتجف من شدة البرد تحت معطف صيف. وإنه كذلك في ذات يوم من أيام الخريف إذ هو يرى على جسر أنتشكوف رفيقه القديم الذي كان قد شمله هو بحمايته، "لمبكا"، كما كانوا يسمونه في المدرسة، فلم يتعرفه في أول وهلة، ووقف مبهوراً. لقد وجد نفسه أمام شاب يرتدي أحسن حلة، له في العارضين لحيتان أحسن قصّهما، ضاربة شقرتهما إلى حمرة، وعلى إحدى عينيه نظارة. حذاءان ملمعان، قفازان زاهيان نضران، معطفه على آخر موضوعة، يمسك تحت ذراعه محفظة أوراق.

أظهر لمبكه كثيراً من اللطف والمودة، وذكر لصاحبه عنوانه، ودعاء أن يزوره. إن اسمه الآن ليس "لمبكه" فقط، بل فون لمبكه. ومع ذلك زاره رفيقه القديم، ربما لا يدفعه إلى هذا إلا الغيظ وإلا الحرص على أن يسخر منه ويضحك عليه. استقبله على السلم - وما هو بالسلم الفخم بتاتاً لكنه مفروش بسجادة حمراء - استقبله سويسري شدّ جبل جرس يدق في الطابق الأعلى. وكان الزائر ينتظر أن يدخل شقة رائعة، فإذا هو يرى صاحبه "لمبكه" مقيماً في غرفة صغيرة مظلمة مخزّبة، مشطورة شطرين بستارة لونها أخضر قاتم. والأثاث مريح مناسب بعض الشيء، لكنه عتيق جداً. والنوافذ العالية الضيقة مزوّدة بستائر خضر داكنة. إن فون لمبكه يقطن عند شخص يمت إليه بقرابة بعيدة، هو جنرال شمله برعايته ومنّ عليه بحمايته.

استقبل فون لمبكه الزائر بمودة، مع احتفاظه بمظهر وقور. وتحدث عن الأدب فيما تحدث، ولكن دون أن يتعرض لأية مشكلة حادة. وجاء خادم له رباط عنق أبيض، فقدّم للضيف شاياً أصفر وبسكويتاً جافاً. ولكن الرفيق سارع يطلب كأساً من ماء سلتس لا لشيء إلا أن يزعج صاحب البيت. فجيء إليه بالماء بعد شيء من الانتظار، وبدأ على فون لمبكه شيء من الارتباك لإزعاج الخادم مرة أخرى. ومع ذلك اقترح على الزائر أن يبقى للعشاء، فما كان أوضح سروره حين رفض الزائر هذا الاقتراح وانصرف.

في ذلك الأوان كان آندره أنطونوفتش مولها بحب البنت الخامسة من بنات الجنرال، ويدو أنها كانت تبادله عاطفة بعاطفة. لكن ذلك لم يمنع أن تزوجت آماليا، بعد ذلك بمدة قصيرة، ألمانياً من رجال الصناعة كان رفيق الجنرال العجوز في الماضي.

لم يشعر آندره أنطونوفتش من ذلك بحزن مسرف في الشدة، وأخذ يعمل في صنع مسرح من الكرتون: تُرفع الستارة، فيخرج الممثلون إلى المسرح يلوحون بأيديهم ويُجرون إشارات شتى، والشرفات مملأى بالمشاهدين، وموسيقو الأوركسترا يحركهم جهاز فيزلقون أقواس آلات الكمان على أوتارها، بينما قائد الأوركسترا يضبط الإيقاع بحركات عصاه بين تصفيق الضباط والشبان الأنيقين الذين يجلسون على كراسي أرض الصالة. إن هذا كله، حتى أدق تفاصيله، قد صنعه فون لمبكه نفسه، واقفاً على إنجاز هذا العمل ستة أشهر كاملة. حتى إذا فرغ منه أقام الجنرال العجوز حفلة ضمت خاصته: البنات الخمس وبينهن العروس وزوجها، وسيدات وأنسات كثيرات يصحبهن أزواجهن وآباؤهن. رأى المشاهدون المسرح وأنعموا النظر فيه فأعجبوا به أيما إعجاب. ثم قاموا إلى الرقص. وكان لمبكه راضياً أعظم الرضا، فسرعان ما تعزى.

السنون تنقضي وفون لمبكه ينجح في عمله: ينال مناصب مرموقة على الدوام، مع رؤساء أصلهم ألماني في جميع الأحيان. فكذلك وصل إلى رتبة تُعد عالية جداً بالقياس إلى سنته. وكان منذ مدة طويلة يتمنى أن يتزوج، فهو يترصد فرصة مواتية مناسبة. وعلى غير علم من رؤسائه أرسل إلى إحدى الصحف قصة كتبها فلم يقيض لها أن تُنشر. لكنه، في مقابل ذلك، أخذ يصنع بالكرتون محطة سكة حديدية، فكان هذا العمل الذي أنجزه عملاً ناجحاً كل النجاح مرة أخرى: المسافرين يخرجون إلى رصيف المحطة مثقلين بحقائبهم وأكياسهم ومعهم كلابهم وأولادهم، فيركبون عربات القطار التي يضطرب من حولها سائقون وحمالون، ثم تُقرع إشارة فيتحرك القطار. لقد اقتضاه إنجاز هذا العمل البارع سنة من شغل دائم. ومع ذلك كان ينبغي له أن

يتزوج. إن حلقة معارفه واسعة. وهو يخالط أبناء جنسه خاصة. ولكنه يتردد إلى الأوساط الروسية أيضاً بطبيعة الحال. وأخيراً بينا هو يدخل السنة التاسعة والثلاثين من عمره، نزل عليه ميراث: إن عمه صاحب المخبز قد أوصى له في وصيته بمبلغ قدره ثلاثة عشر ألف روبل. فلم يبق عليه إلا أن ينال منصباً ممتازاً. إن السيد فون لمبكه، رغم رتبته الكبيرة، كان رجلاً متواضعاً. كان يمكن أن يرضيه كل الإرضاء أن يحظى بمركز مستقل مريح يضمن له بعض الموارد الإضافية، كان هذا يمكن أن يكفيه إلى آخر أيام حياته. لكنه بدلاً من مينا أو أرنستين التي كان ينتظر أن يتزوجها، وقع على جوليا ميخائيلوفنا. فإذا بحياته في العمل تبلغ على الفور مدى آخر وتتسع اتساعاً ليس في الحساب. لقد أحس فون لمبكه المتواضع الذي يتقيد بالمواعيد ويواظب على العمل أن من حقه هو أيضاً أن يكون طموحاً.

كانت جوليا ميخائيلوفنا تملك أرضاً تُقدّر في المقاييس القديمة بمائتي نفس، وعدا ذلك جاءت إلى أنطونوفتش بصلات لها نفوذ وسلطان. ومن جهة أخرى كان لمبكه فتى جميلاً، بينما تجاوزت هي الأربعين من العمر. شيء غريب: كان لمبكه يزداد ولهاً بها كلما ازداد شعوراً بوضعه كخطيب لها. حتى لقد أرسل إليها في صباح يوم الزواج أشعاراً. وذلك كله، مع الأشعار، كان يعجب جوليا ميخائيلوفنا كثيراً. أربعون عاماً! ما هذا بقليل!... وبعد الزواج بمدة قصيرة، مُنح الرجل وساماً ونال رتبة أعلى، ثم سُمي حاكماً لإقليمنا.

وقد عنيت جوليا ميخائيلوفنا منذ البداية بترويض زوجها أشد العناية: هو في رأيها رجل لا تعوزه الكفاءات. فهو يحسن تمثيل وظيفته، يعرف كيف يجلس وكيف يصغي مهيباً، وكيف يلتزم الصمت إذا وجب الصمت، ولكنه قادر أيضاً على أن يلقي خطاباً، حتى إنه يملك شذرات أفكار، وقد اكتسب طلاء من اللبرالية لا غنى عنه في هذا الزمان. غير أن الشيء الذي كان يقلق جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك هو أن زوجها بعد أن قضى عمره كله ساعياً وراء الوظائف يبدو الآن قليل الطموح، ويميل إلى الراحة. إنه، بينما كانت تحاول

أن تبث فيه نشاطها، قد شرع في صنع معبد بروتستانتى: القس يصعد إلى المنبر ويلقي موعظة، المؤمنون يصغون إليه بتقى وخشوع ضامين أيديهم، سيدة تجفف دموعها بمنديلها، رجل عجوز يتمخط، ثم يُسمع صوت أرغن صغير طلبه فون لمبكه من سويسرا خصيصاً رغم أنه كلف ثمناً غالياً. رُوعت جوليا ميخائيلوفنا، فما كان منها إلا أن صادرت هذا العمل الجميل منذ علمت بوجوده، وسجنته في خزانة من أثاث المنزل. ومن أجل أن يتعزى عن ذلك، استأذن فون لمبكه امرأته في أن يكتب رواية، فأذنت له بذلك، ولكن على غير علم من أحد. ومنذ ذلك الحين أصبحت جوليا ميخائيلوفنا لا تعتمد إلا على نفسها. ومن سوء الحظ أنها امرأة يعوزها القصد والاعتدال، وأنها تنقاد كثيراً للخيال. فليس من باب الصدفة أنها ظلت عانساً خلال مدة طويلة ذلك الطول كله. إن الأفكار يطارد بعضها بعضاً في ذهنها الطموح، المهتاج. وإذا كانت تغذي في نفسها بعض الأهداف وتريد أن تحكم الإقليم، فقد اختارت نوعاً من اتجاه سياسي، مقتنعة بأنها ستفلح في الجمع بين الناس وقيادة العقول. حتى لقد قلق فون لمبكه من ذلك بعض القلق في أول الأمر، ولكنه بما يملك من حس الموظف سرعان ما أدرك أن وظيفة حاكم في إقليم ليست بالأمر الرهيب على وجه الإجمال. وفعلاً، سارت الأمور في الشهرين الأولين أو في الأشهر الثلاثة الأولى سيراً مرضياً جداً. ولكن بطرس ستيفانوفتش خرج له من جوف الأرض بعد ذلك، فجرت الأحوال مجرى غريباً.

يجب أن نقول إن الشاب فرخوفنسكي قد أخذ يعامل آندره أنطونوفتش، منذ أول لحظة، معاملة خالية من أي تحرّج، ووهب لنفسه حقوقاً عليه خاصة ولم تشأ جوليا ميخائيلوفنا رغم حرصها الشديد على مهابة زوجها، أن تلاحظ وضع بطرس ستيفانوفتش، أو قل على الأقل إنها لم توله أي اهتمام ولم تقم له أي وزن. لقد جعلت من الشاب صديقها الأثير. فكان يتناول وجبات طعامه عندها، حتى ليكاد ينام في منزلها. وقد حاول فون لمبكه أن يدافع عن نفسه فكان يخاطبه أمام الناس بقوله: "يا فتى"، وكان يربت على كتفه مصطنعاً

وضع من يرعاه ويحميه، ولكنه لم يظفر بشيء: فإن بطرس ستيفانوفتش ما يزال يبدو عليه أنه يتواقع معه، حتى حين كان يخاطبه بلهجة فيها كثير من الجدل، وكان يوجه إليه أمام الناس أقوالاً غريبة بحضور آخرين. وفي ذات يوم دخل فون لمبكه حجرة عمله فوجد بطرس ستيفانوفتش بسبيل أن ينام على الديوان. فقال الفتى للحاكم إنه لم يجد في البيت أحداً، فانتهاز الفرصة ليغفو "غفوة قصيرة". فشعر الحاكم بأنه أهين إهانة كبيرة، وشكا أمره إلى امرأته مرة أخرى، لكن امرأته سخرت من فرط تأذيه، وأخذت عليه أنه لا يعرف كيف يجعل الناس على مسافة منه: فإن "هذا الفتى" لا يسمح لنفسه بأن يرفع الكلفة بينه وبينها على هذا النحو. "ثم إنه ساذج بسيط، وإنما تعوزه الخبرة في مخالطة المجتمع". فزعل فون لمبكه قليلاً، ثم أذعن لإلحاح زوجته، فانتهى إلى مصالحة بطرس ستيفانوفتش. ولم يعتذر بطرس عن فعلته مع ذلك، حتى لقد تخلص من الموقف بمزحة صغيرة أخرى كان يمكن أن تُعد إهانة أخرى جديدة، ولكنها قُبِلت على أنها علامة ندم. ومن سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه كان قد كشف للشباب عن نقطة ضعفه، وأطلعه على أنه يكتب رواية. وإذا ظنّ فيه طبيعة حارة شعرية، وإذا كان يبحث منذ مدة عن مستمع يقرأ له ما يكتب، فقد قرأ له فصلين من مخطوطة الرواية في ذات مساء، فكان بطرس ستيفانوفتش يصغي إليه دون أن يخفي ضجره، حتى لقد ثئاب صراحة، ولم يشنّ على المؤلف أي ثناء. ولكنه حين همّ بالانصراف طلب منه المخطوطة ليعيد قراءتها في البيت، كما قال، فيرى فيها رأياً أوضح، ويحكم عليها حكماً أصح، فأعطاه آندره أنطونوفتش المخطوطة. ومنذ ذلك اليوم لم يفلح آندره أنطونوفتش في استردادها. كان بطرس ستيفانوفتش يجيء كل يوم، ولكنه كلما طُلبت منه المخطوطة اكتفى بأن يضحك، ثم أعلن أنه أضاعها في المساء نفسه الذي حملها فيه. فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالنبأ، لامّت إلى زوجها لوماً شديداً، وهتفت تقول له قلقاً أشد القلق: أمل على الأقل أن لا تكون قد حدثته عن المعبد البروتستانتي الذي أخذت تصنعه من الكرتون! أصبح آندره أنطونوفتش مهموم البال، وذلك أمر رأى الأطباء أنه يسيء

كثيراً إلى صحته. فإلى جانب الهموم والمصاعب الإدارية، والتي سنعود إلى الكلام عنها فيما بعد، أصبح يشعر بعذاب في قلبه، لا كحاكم، بل كفرد فحسب. إن أندره أنظونوفتش لم يتصور حين تزوج أن الشقاق يمكن أن يحدث في بيته. حتى أن هذه الفكرة لم تكن تدور في خلدّه لحظة حين كان يحلم أن يتزوج مينا أو أرنستين. لقد أدرك أنه عاجز عجزاً مطلقاً عن مغالبة الزوابع المنزلية. وأخيراً صارحته جوليا ميخائيلوفنا فقالت له:

- لا يجوز لك أن تزعل لأمر تافه هذه التفاهة، أولاً لأنك أعقل منه كثيراً، وثانياً لأنك أعلى منه مقاماً في السلم الاجتماعي. إن هذا الفتى لم يتخلص بعد تخلصاً تاماً من عقلية الثورية. وفي رأبي أن تصرفاته لا تعدو أن تكون تصرفات صبيان. لكننا لا نملك أن نبذله دفعة واحدة، وإنما ينبغي أن نسير إلى هذا الهدف خطوة خطوة. إن علينا أن نفهم الجيل الجديد. أنا مثلاً أؤثر فيهم باللين والرفق وأعاملهم بالحسنى، فأمسكهم على حافة الهاوية قبل أن يتردوا فيها.

أجابها فون لمبكه قائلاً:

- لكنه يقول أشياء فظيعة. إنني لا أطيق أن يزعم بحضوري على مسمع من الناس أن الحكومة تشجع الإدمان على السكر لتخيل الشعب وتمنع من التمرد. تخيلي موقفني حين يكون علي أن اسمع أقوالاً كهذه الأقوال!

قال الحاكم هذا الكلام متأثراً بالحديث الذي جرى في الأونة الأخيرة بينه وبين بطرس ستيفانوفتش. إنه وقد أراد أن يفّل سلاح خصمه بميله اللبرالي قد أطلعه على مجموعته من المنشورات الثورية التي ظهرت في روسيا وفي الخارج منذ سنة 1859، والتي كان قد جمعها لا بدافع حب الاطلاع وحده، بل بدافع المنفعة أيضاً. وإذ أدرك الشاب نيته أعلن له بفظاظة أن سطرّاً واحداً من بعض هذه المنشورات أزخر بالمعاني من جميع قراطيس أي دائرة من دوائر الحكومة، "بما في ذلك دائرتك حتماً".

فصعّر لمبكه وجهه، ثم قال بصوت يكاد يكون ضارِعاً وهو يشير إلى المنشورات:

- ولكن هذا سابق لأوانه.

فأجابه بطرس ستيفانو فتش:

- لا، ليس سابقاً لأوانه. إنكم تخافون منه وهذا دليل على أنه ليس سابقاً لأوانه.

- ولكنهم يدعون الشعب إلى تهديم الكنائس...

- ولم لا؟ أنت رجل ذكي، وأنت إذن غير مؤمن، وأنت تدرك حق الإدراك

أن الدين إنما يفيدكم في تخيل عقول الشعب. إن الحقيقة أشرف من الكذب.

- طيب طيب، لنسلم بأن ما تقوله صحيح. ولكن هذا سابق لأوانه.

كذلك قال فون لمبكه ملحاً. فأجابه الشاب:

- إذا كنت موافقاً على تدمير الكنائس، وعلى الزحف إلى بترسبرج

بهرافات، إذا كانت المسألة في نظرك مسألة توقيت، فكيف يمكنك أن تكون

موظفاً في الدولة؟

هتف فون لمبكه يقول بلهجة حانقة، منزعاً أشد الانزعاج من أنه انقاد

للولوع في فخ يبلغ هذا المبلغ من الغلظة:

- ليس الأمر هذا، ليس الأمر هذا بتاتاً. أنت مخطئ لأنك ماتزال شاباً

تجهل أهدافك ومراميك. تقول إننا موظفون في الحكومة؟ موظفون

مستقلون؟ هذا صحيح. ولكن اسمح لي: ما هو عملنا الذي نقوم به؟ إن

علينا مسؤوليات، ولكننا في الحساب الأخير إنما نخدم القضية العامة

مثلكم. نحن لا نزيد عن أن نبقي ما تزعمونه أنتم، وهو ما سينهار في يوم من

الأيام. نحن لسنا أعداءكم، أبداً. نحن نقول لكم: "امضوا إلى أمام، تقدموا،

بل وزعزعوا، أعني زعزعوا كل ما هو عتيق بال، كل ما يجب أن يتغير. ولكننا

سنبقيكم في الحدود المعقولة متى لزم ذلك، فنحملك بهذا من أنفسكم،

لأنكم إذا لم نوجد نحن، لن تزيدوا على أن تقلبوا روسيا عاليها سافلها، فلا

يبقى لها وجه إنساني. إن هدفنا إنما هو الإبقاء على هذا الوجه الإنساني. ألا

فافهموا أنكم في حاجة إلينا، كما أننا في حاجة إليكم. في إنجلترا أيضاً، لا

غنى لحزب الأحرار عن حزب المحافظين، ولا غنى لحزب المحافظين عن

حزب الأحرار فنحن المحافظون وأنتم الأحرار. هكذا أرى أنا الوضع. أصبح أندره أنطونوفتش فصيحاً بليغاً. إنه منذ كان في بطرسبرج كان يحب أن يعبر عن أفكار ذات طابع لبرالي. وهو في هذه المرة قد استرسل مزيداً من الاسترسال في هذا لأن أحداً لا يتجسس عليه. وكان بطرس ستيفانوفتش صامتاً، وكان يلتزم موقفاً أقرب إلى الجد مما عهد فيه، فكان ذلك يحرض الخطيب مزيداً من التحريض على الكلام.

استأنف كلامه قائلاً وهو يمشي في حجرة مكتبه طويلاً وعرضاً:
- هل تعلم أنني وأنا "رئيس" هذا الإقليم إن صح التعبير تقع على عاتقي واجبات تبلغ من الكثرة أنني أعجز عن أداء واحدة منها، ولكنني من جهة أخرى أستطيع أن أقول أيضاً أنني ليس لي عمل أقوم به. والسرف في هذا هو أن كل شيء مرهون في حقيقة الأمر بما تستهدفه الحكومة. لنفرض أن الحكومة، في سبيل تهدئة الخواطر والنفوس، أو لأسباب سياسية معينة، أقامت نظاماً جمهورياً، ولكنها في الوقت نفسه عززت سلطات حكام الأقاليم. أؤكد أننا معشر حكام الأقاليم سنرتضي الجمهورية عندئذ، بل سنرتضي ماشئت، أنا شخصياً، على كل حال، أشعر بأنني أستطيع ذلك... الخلاصة: لنفرض أن الحكومة أرسلت البرقية التالية:

"عليكم بنشاط جبار"، إنني سأندفع عندئذ في القيام "بنشاط جبار". أعلنت ذلك هنا أمام جميع الناس: "أيها السادة، من أجل تحقيق التوازن والازدهار للمؤسسات الإقليمية، لا بد حتماً من تعزيز سلطات حاكم الإقليم". يجب على هذه المؤسسات أن تعيش حياة مزدوجة إن صح التعبير، فهي من جهة أولى ينبغي أن تبقى وتستمر (أنا أسلم بأن هذا ضروري لا غنى عنه)، ولكن يجب من جهة أخرى أن لا توجد، وذلك وفقاً لما تستهدفه الحكومة. فإذا بدا لها فجأة أن هذه المؤسسات ضرورية، كانت هذه المؤسسات تحت تصرفي. وإذا أصبحت غير ضرورية لم يعثر أحد على أثر لها. هكذا أفهم "النشاط الجبار"، ولكن يستحيل تحقيق ذلك بدون تعزيز سلطات حاكم الإقليم. نحن نتكلم هنا أنا وأنت على انفراد. ولقد أبلغت

بطرس سبرج أن من الواجب حتماً أن يوضع على باب الحاكم خفير. وما زلت أنتظر الجواب.

قال بطرس ستيفانوفتش:

- بل أنت تحتاج إلى خفيرين اثنين.

سأله فون لمبكه متحيراً:

- لماذا أحتاج إلى اثنين؟

- قد لا يكفيك واحد ليفرض الاحترام. إنك تحتاج إلى اثنين.

- آه منك يا بطرس ستيفانوفتش! إنك تجيز لنفسك معي ما لا يعلم إلا

الله!... تستغل طبييتي فتلكزني لكزات قوية!

جمجم بطرس ستيفانوفتش قائلاً:

- لك ما تشاء! مهما يكن من أمر، فإنك تشق لنا الطريق، وتهيء لنا النجاح.

- ماذا تريد أن تقول؟ أي نجاح تقصد؟ من أنتم الذين أشق "لكم" الطريق؟

حين علمت جوليا ميخائيلوفنا بأمر هذه المحادثة، استاءت استياء شديداً.

فقال أندره أنطونوفتش محاولاً تبرير سلوكه:

- ما كان لي على كل حال أن أعامل أثيرك كما أعامل شخصاً هو دوني

مقاماً، ولا سيما حين نتحدث على انفراد. لقد انقذت للرغبة في الكلام...

وهذا ذنب قلبي الطيب.

- بل قل قلبك الطيب أكثر مما يجب. ما كنت أعرف أنك تجمع منشورات.

أرني هذه المنشورات، من فضلك!

- لكنه... طلب أن يستعيرها يوماً واحداً.

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله:

- وأعطيته إياها؟ ما أقل براعتك.

- سوف أطلبه بردها إليّ حالاً.

- لن يردها.

- سأصر على استردادها. من هو ومن أنا حتى نخشاه، وحتى لا أجرؤ أن

أفعل شيئاً؟

كذلك صاح فون لمبكه غاضباً ونهض. فقالت له جوليا ميخائيلوفنا وهي توقفه بإشارة:

- اجلس وهدئ نفسك. سوف أجيئك الآن عن سؤالك الأول: هذا شاب زُكي لي تزكية حارة، وأوصيت به خيراً، إن له مواهب طيعية، وكثيراً ما يقول أشياء تبلغ غاية الذكاء. ويؤكد لي كارمازينوف أن له صلوات بجميع الأوساط، وإن له تأثيراً كبيراً ونفوذاً قوياً على الشبيبة بالعاصمة. فإذا استطعت أن أجتذب هؤلاء الشبان، وأن أجمعهم حولي، أمكنني أن أجنيهم الكارثة بتحديد هدف لطموحهم. إنه مخلص لي إخلاصاً صادراً من كل نفسه، وهو يطيعني في كل شيء.

- ولكن... بينما نحن نتملقهم... يستطيعون هم أن يفعلوا ما الله به أعلم!... هذه فكرة طبعاً.

- لكن... لكن سمعت منذ برهة أن هناك منشورات توزع في إقليم "ف..." كذلك تتم فون لمبكة وهو ما يزال يحاول الدفاع عن نفسه بغموض. ثم أردف:

- سبق أن سرت هذه الشائعات في الصيف الماضي، فتحدث الناس عن نداءات وأوراق نقدية مزيفة، وأشياء من هذا القبيل. ومع ذلك لم يُعثر على شيء حتى الآن. من قال لك هذا؟ - فون بلومر.

- ناشدتك الله دعني من صاحبك فون بلومر هذا، ولا تكلمني عنه قط! واضطرت جوليا ميخائيلوفنا أن تصمت لحظة لتسترد هدوءها. لقد كانت تكره فون بلومر، الموظف في ديوان الحاكم. وسنعود إلى هذا الأمر فيما بعد.

- أرجوك أن لا تصدّع رأسك بمسألة فرخوفنسكي. فلو كان يشارك في أعمال صبيانية كهذه، لما تكلم كما يتكلم معك ومع غيرك. إن الذين يكثرون من الكلام لا يكونون خطرين. بل إنني لأقول لك: إذا حدث شيء من ذلك فساكون أول من يطلع عليه منه. إنه مخلص لي إخلاصاً متعصباً، نعم متعصباً...

يجب أن أذكر في هذه المناسبة، مستبقة الأحداث، أنه لولا طموح جوليا ميخائيلوفنا وثقتها بنفسها، لكان من الممكن أن لا يستطيع أولئك الأشخاص الأدياء الصغار أن يفعلوا عندنا من الشر ما فعلوا، وهكذا يقع على عاتق جوليا ميخائيلوفنا جزء كبير من تبعة هذا الشر.

الفصل الخامس

قبل الحفلة

1

إن الحفلة التي كانت تُعدها جوليا ميخائيلوفنا لصالح معلّّات إقليمنا، قد أُرجئت عدة مرات، فمن بين الذين كانوا يسعون ويتحركون حول امرأة الحاكم ويساعدونها في ما تهينه وتحضّره نستطيع أن نذكر، عدا بطرس ستيفانوفتش، هؤلاء الأشخاص: ليامشين، الموظف الصغير الذي كان في الماضي يتردد على ستيفان تروفيموفتش ثم استطاع الآن بموهبته في العزف على البيانو أن ينال حظوة لدى جوليا ميخائيلوفنا، وليبوتين الذي كانت جوليا ميخائيلوفنا تنوي أن تجعله رئيساً للجريدة المستقلة التي أرادت أن تنشئها في إقليمنا، وأخيراً كارمازينوف، الذي لم يكن شديد التحمس كالآخرين، ولكنه أعلن مع ذلك راضياً مرتاحاً أنه يهيء مفاجأة ممتعة، وأن "رقصة الأدب" ستكون مشهداً خلاّباً. وقد تكاثرت التبرعات والهبات. فإن جميع أفراد الصفوة المختارة في مجتمعنا أرادت أن تشارك في الحفلة. هذا عدا أن أشخاصاً من عامة الناس قد قبلوا أيضاً على شرط أن تكون مساهماتهم كبيرة. لقد صرّحت جوليا ميخائيلوفنا أن التقريب بين الطبقات وخلط بعضها ببعض من الأمور اللازمة أحياناً: "إذا لم نقم نحن بثقيف هؤلاء المساكين وتنوير عقولهم، فمن ذا الذي يجب أن يفعل ذلك؟". وقد شكلت جوليا ميخائيلوفنا من خلصائها نوعاً من لجنة إدارية قررت أن تتخذ الحفلة طابعاً ديموقراطياً. وكانت ضخامة التبرعات تحض على الإنفاق:

لقد أريد أن تكون الحفلة شيئاً خارقاً لا عهد بمثله من قبل. فذلك هو السبب في أن موعد الحفلة قد أرجى مراراً. وكانوا لا يعرفون بعد أين ستقام حفلة الرقص: أنقام في منزل عميدة النبالة وهو منزل واسع، أم تقام عند فرفاراً بترفنا في سكفور شنيكي؟ إن سكفور شنيكي بعيدة قليلاً، غير أن عدداً من أعضاء اللجنة قالوا إن المرء يحس هناك "بحرية أكبر". وكانت فرفاراً بترفنا نفسها تود أن تُقام الحفلة عندها. إنه ليصعب علينا أن نفهم لماذا كانت هذه المرأة تسعى ذلك السعي كله إلى نيل الحظوة لدى جوليا ميخائيلوفنا! لعلها قد سرّها أن ترى أن جوليا ميخائيلوفنا كانت من جهتها تقف من نيقولا في سيفولودوفتش موقف العبادة، وتعامله كما لا تعامل أحداً قط. أعود فأكرر مرة أخرى: إن بطرس ستيفانوفتش كان لا ينفك يهمس في أذنها أن لنيقولا في سيفولودوفتش صلات قوية بجهة سرية، وأنه مكلف بمهمة خاصة حتماً.

وما كان أغرب حالة النفوس في ذلك الأوان! كانت حالة غريبة عجيبة حقاً! فبين السيدات خاصة كانت تسيطر حالة من قلة المبالاة، والخفة، لا يدري المرء من أين انبجستا فجأة. إن أشدّ الأفكار أصبحت تُقبل بحماسة. لكان ريحاً من جنون ومرح قد عصفت بالناس جميعاً. غير أن مشهد هذا المرح لم يكن بالمشهد الممتع دائماً. أصبحت الفوضى هي الموضة... فيما بعد، حين انتهى كل شيء، أُلقيت تبعة ذلك على جوليا ميخائيلوفنا، والمحيطين بها، وتأثيرها. ولكن لا شك أن جوليا ميخائيلوفنا لم تكن المسؤول الوحيد. لقد كان كثير من الناس في البداية يتغنون بمدح امرأة الحاكم الجديد التي استطاعت أن تجمع الناس وأن تجعل الحياة في الريف أمتع. حتى لقد وقعت حوادث فاضحة لا يمكن أن تُعدّ جوليا ميخائيلوفنا مسؤولة عنها بحال من الأحوال، حوادث لم يزد الناس على أن ضحكوا منها، ولم يوجد من يضع لها حداً، ويضع الأمور في نصابها. على أن بعض الناس قد قاوموا هذا التيار، وظلوا مبتعدين، محتفظين برأيهم. لكنهم لم يحتجوا واكتفوا بالتبسم.

أذكر أنه تكونت في تلك الأيام جماعة يجب أن نعترف بأنها اتخذت صالون جوليا ميخائيلوفنا مركزاً لها. فكان من المسلّم به في داخل هذه الحلقة أن الشبان يحق لهم، بل ويجب عليهم، أن يسترسلوا في مهازل شتى منها ما كان يبلغ حداً كبيراً من الجرأة والمجون. وكانت هذه الحلقة تضم بين أعضائها عدة سيدات منهن من كن بارعات الجمال. كان هؤلاء الشباب يقومون برحلات، وينظمون سهرات، حتى لقد كانوا في بعض الأحيان يتجولون على ظهور الخيل أو في العربات موكباً في الشوارع، ويبحثون عن المغامرات ويسعون إليها، أو يستثيرونها أو يلقفونها عند اللزوم، لا لشيء إلا أن يستطيعوا بعد ذلك قصّ حكايات مضحكة ونوادر مسلية. فكانت مدينتنا تُعامل معاملة مدينة محتلة تقريباً. كان هؤلاء "الهازلون"، كما سمّاهم الناس عندنا، لا يتحرجون من شيء ولا يصدّهم شيء.

من ذلك أن امرأة ضابط برتبة ملازم، وهي امرأة سمراء ما تزال شابة لكن حياتها الصعبة مع زوجها قد أهرمتها قبل الأوان، قد ارتكبت حماقة الجلوس إلى مائدة القمار في سهرة من السهرات آملّة أن تربح ما تشتري به لنفسها خماراً، ولكنها بدلاً من أن تربح ثمن الخمار خسرت خمسة عشر روبلاً. وإذا لم تكن تملك ما يمكنها من دفع هذه الخسارة، وإذا خافت أن يلومها زوجها، فقد استجمعت كل شجاعتها وقررت أن تقترض المبلغ من ابن عمّتنا، وهو صبي داعر لم يكتف بأن رفض إقراضها المال، بل أسرع يحكي القصة لزوجها وهو يضحك في قهقهة مجلجلة. وكان الملازم المسكين لا يملك لمعيشته إلا راتبه الضئيل، فما إن عاد بامرأته إلى البيت حتى انهال عليها يضربها ضرباً موجعاً رغم صرخاتها ودموعها ورغم أنها جثت على ركبتيها تستغفره عن ذنبها. إن هذه القصة الأليمة لم تثر عندنا إلا الضحك والمزاح. ولم تكن المرأة الشقية تنتمي إلى مجتمع جوليا ميخائيلوفنا، لكن إحدى سيدات هذه الحلقة وهي امرأة شاذة الأطوار جريئة وقحة، كانت تعرف امرأة الملازم، فمرّت بها وأخذتها إلى بيتها، فسرعان ما اجتمع عليها فتياننا المتحللون الفاسدون، فدللوها وأغرقوها بالهدايا

وتسلوا بها أربعة أيام قضتها كلها عند السيدة الجريئة، فكانت تنزل معها إلى المدينة، وتشارك في المسرات وتشهد حفلات الرقص. وكانوا يحضونها على ملاحقة زوجها أمام المحاكم، فتثير بذلك فضيحة، باذلين لها الوعود بمساعدتها والشهادة لها على زوجها. ولبث الزوج ساكناً صامتاً، يخشى دخول المعركة. وارتأت المرأة الشابة أخيراً أنها قد أخطأت الطريق، فلما جاء مساء اليوم الرابع تركت حاميتها ورجعت إلى بيتها شبه ميتة من شدة الخوف. لا يدري أحد ماذا جرى بين الزوجين. ولكن نوافذ الجناح الخشبي الصغير الذي يسكنه الملازم قد ظلت مغلقة مدة خمسة عشر يوماً لم تُفتح مرة واحدة. فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالأمر أظهرت استياءً شديداً من تدخل السيدة الشاذة الأطوار التي كانت مع ذلك قد عرّفتها بامرأة الملازم منذ الأيام الأولى. ومهما يكن من أمر، فإن هذا كله سرعان ما طواه النسيان. وبعد ذلك بزمن قصير وقعت فضيحة أخرى. إن موظفاً صغيراً يتمتع بسمعة حسنة كانت له ابنةٌ تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً مشتهرة في المدينة كلها بأنها بارعة الحسن فاتنة الجمال، فزوجها شاباً هو موظف صغير أيضاً. وما لبث الناس أن علموا أن الزوج الشاب قد تصرف مع عروسه تصرفاً سيئاً جداً في ليلة الزفاف نفسها، انتقاماً لشرفه الملتطخ. وقد شهد ليامشين الحادث تقريباً، ذلك لأنه وقد سكر في الوليمة قد قضى الليلة في بيت العروسين. لذلك ما إن طلع النهار حتى ركض ينشر القصة الطريفة في كل مكان. فسرعان ما تكونت جماعة من نحو عشرة أشخاص انضم إليها بطرس ستيفانوفتش وليبوتين الذي كان رغم شعره الأشيب يشارك في جميع المهازل التي ينظمها فتياننا المتحللون. ركب الجميع أفراساً، حتى إذا مضى العروسان في عربة يقومان بجولة الزيارات التي توجبها التقاليد على العروسين غداة زفافهما، أحاط فرساننا بالعربة يضحكون ضحكاً مرحاً، وظلوا يرافقون الزوجين طوال النهار في المدينة. وكانوا لا يدخلون البيوت في أثرهما بل ينتظرون على الباب في كل مرة ممتطين صهوات خيولهم. يجب أن نقول أيضاً إنهم قد امتنعوا عن إهانة الزوجين صراحةً، لكن هذا

لا ينفي أنهم أثاروا فضيحة تحدثت عنها المدينة كلها. غير أن فون لمبكة غضب في هذه المرة، وقامت بينه وبين امرأته مناقشة حامية. وقد استاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً كذلك، فقررت أن توصل باب منزلها في وجه هؤلاء الفاسدين. ولكنها لم تلبث أن غفرت لهم استجابةً لإلحاح بطرس ستيفانوفتش الذي دعمه وأيده كارمازينوف. لقد رأى كارمازينوف أن "المزحة" فكهة لطيفة. فقال:

- هذا من تقاليد البلاد. ومهما يكن من أمر فللقصة لون جميل.. وفيها جراءة محبة. ثم إن جميع الناس يضحكون منها ويتفكهون بها وأنت وحدك غاضبة.

غير أن هناك مهازل أخرى، مهازل لا تطاق فعلاً، مهازل لها طابع خاص جداً.

وفدت إلى مدينتنا بائعة متجولة تباع الأناجيل. إنها امرأة فقيرة الحال، لكنها في الوقت نفسه محترمة جداً. وقد اهتم الناس بها لأن الجرائد كانت في تلك الآونة قد خصّت البائعين المتجولين بعدد من المقالات. فهذا هو الوغد ليامشين يتظاهر بأنه يريد شراء كتب من المرأة الطيبة، فيدسُّ لها، بمساعدة طالب عاطل كان يضرب في الشوارع بانتظار أن يُعين معلماً، يدس لها في رزمة كتبها حزمة صور خليعة كان قد زوّد بها (كما علمنا ذلك فيما بعد) رجل عجوز محترم كان يحمل وساماً (لكنني سأكتفِ اسمه)، وكان يحب "الضحك البريء والمزاح الطيب". فلما وصلت بائعة الكتب إلى السوق وأخذت تفك رزمتها تبعثرت الصور الفوتوغرافية الخليعة على الأرض، فأخذ الناس يضحكون، ثم أخذوا يدمدمون ويهمهمون، ثم تحلق حول المرأة المسكينة حشد راح يكيل لها الشتائم جزافاً، وكان يمكن أن يلحقوا بها أذى لولا أن تدخلت الشرطة فاقطعت بائعة الكتب إلى القسم، ثم لم تفرج عنها إلا في المساء بفضل إلحاح مافريكي نيقولايفتش الذي علم بتفاصيل هذه القضية الدنيئة كلها فاستاء أشد الاستياء. وقد غضبت جوليا ميخائيلوفنا غضباً شديداً وقررت أن تطرد ليامشين. ولكن أصحابنا

"الهازلين" أخذوه إليها في ذلك المساء نفسه فما زالوا يضرعون إليها أن تسمع مرة واحدة، لا أكثر، المزحة الموسيقية الجديدة التي فرغ ليامشين من تأليفها منذ قليل، حتى أذعنت وخضعت. واتفق أن كانت هذه الفانتازيا الموسيقية التي عنوانها: "الحرب الفرنسية الألمانية"⁽¹⁾، مضحكة بالفعل. تبدأ القطعة الموسيقية بنوع من نشيد "المارسييز" البطولي الذي يضم قول الشاعر:

بدم الأعداء الفاسد فلنسق أخاديد أرضنا
إن المطلع كله زاحر بالكبرياء ونشوة الانتصارات المقبلة. ولكن ها نحن أولاء على حين فجأة، أثناء توسع لحن النشيد المجيد، ها نحن نسمع في موضع ما، في ركن ما يزال غير متميز، لكنه قريب غير بعيد، اللازمة الصغيرة البديئة من أغنية "حبيبي أوغسطين" (بالألمانية). إن نشيد المارسييز لا يحفل بهذه اللازمة، وإنما يسترسل في الحماسة لانتصاره المقبل. ولكن أغنية "أوغسطين" تكبر، وتقوى، وما تنفك تغدو أكثر جرأة ووقاحة، وها هو ذا لحنها يدخل في نشيد المارسييز نفسه دخولاً ليس بالمتوقع. ويأخذ نشيد المارسييز بالغضب، ويلاحظ أخيراً تسلسل أغنية أوغسطين، فيريد أن يتخلص منها وأن يطردها كما تُطرد ذبابة مزعجة، ولكن أغنية "حبيبي أوغسطين" تقاوم وتثبت. إنها مرحلة ملأى بالثقة، زاحرة بالوقاحة. ويطيش صواب نشيد المارسييز: فلا يُخفي بعدئذ حنقه وسخطه. وها هي ذي صرخات الاستياء والاستنكار، وها هي ذي الدموع الغزيرة، وها هي ذي الأيمان المغلظة ترقى مع الأذرع المرفوعة إلى السماء منادية:

لا شبر من أرضنا، لا حجر من قلاعنا
ولكن نشيد المارسييز كان قد اضطر أن يساير أغنية "حبيبي أوغسطين"،

(1) إن الحرب الفرنسية الألمانية التي قامت بين 1870-1871 تصورها هذه القطعة الموسيقية القصيرة في صورة صراع بين نشيد "المارسييز" وبين أغنية ألمانية عنوانها "حبيبي أوغسطين". وقد سبق أن أشار دوستوفسكي إلى هذه الأغنية في بداية روايته "مذلون مهانون"، وهي تنتهي بهذه الجملة "أوغسطين راقد في الوحل".

وأن يجاري إيقاعها، حتى ليختلط لحنه بلحنها اختلاطاً أبه، ثم إذا هو يرضخ وينطفئ. ومع ذلك نظل نسمع من هنا ومن هناك: "بدم الأعداء الفاسد... بدم الأعداء الفاسد..."، ولكن الجملة سرعان ما تنتهي لتساير أغنية الفالس البذيئة الخليعة. لقد خضع نشيد المارسييز: إنه جول فافريكي في صديرة بسمارك، ويترك كل شيء، كل شيء... ولكن أغنية أوغسطين تنتفخ عندئذ وتصبح حانقة معرّبة: إنها براميل البيرة التي شُربت، إنه النصر يزدهي بنفسه متغطرساً، إنها المطالبة بتعويضات تبلغ مليارات، إنها الأوامر بإحضار فاخر السيجار ومعقّ النبيذ، انه أخذ الرهائن. لسنا الآن أمام أغنية "حبيبي أوغسطين" بل نحن إزاء زئير ينطلق وحشياً. انتهت الحرب الفرنسية الألمانية. صفق المستمعون. وقالت جوليا ميخائيلوفنا مبتسمة: "ويستحيل طرده!". وتمّ الصلح. لقد كان الوغد ينعم بشيء من الموهبة حقاً. لقد أكّد لي ستيفان تروفيموفتش ذات يوم أن أكبر الفنانين يمكن أن يكونوا أوغاداً فظيعين، فهذا لا ينفي ذلك. وسرت إشاعة بعد ذلك بقليل تقول إن ليامشين إنما سرق هذه الفانتازيا الموسيقية من فتى موهوب لكنه متواضع، عرفه مصادفةً ولم يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك، أقول ذلك عابراً. وإنما يجب الآن أن أذكر أن ليامشين الذي كان في الماضي يسعى حول ستيفان تروفيموفتش فيمثل، متى طُلب منه ذلك، يهوديين يتشاجران⁽¹⁾ أو اعتراف امرأة صماء، أو صرخات أم تلد، أصبح الآن عند جوليا ميخائيلوفنا يقلد ستيفان تروفيموفتش نفسه في بعض الأحيان تقليداً كاريكاتورياً، تحت عنوان: "لبرالي من سنوات الأربعينات". لقد بلغ من النجاح أن أحداً لا يخطر بباله أن يطرده: لقد عرف كيف يجعل من نفسه إنساناً لا غنى عنه. ثم إنه بما يجيده من التملق قد نال حظوةً لدى بطرس ستيفانوفتش الذي كان قد أصبح له في ذلك الأوان سلطان كبير على جوليا ميخائيلوفنا.

ما كان لي أن أفيض في الكلام على هذا الشقي الذي لا يستحق أن أتكلّم

(1) كانت الموسيقى الواقعية رائجة في تلك السنين. وقد ألف موسجورسكي سنة 1868 مجموعة قطع موسيقية بعنوان "لوحات من معرض". وكانت إحدى هذه القطع تمثل يهوديين يتشاجران.

عنه لولا أن وقع حادث مثير يؤكد الناس أنه قد شارك فيه ولا يمكنني أن أصمت عنه.

ففي ذات صباح، انتشر في المدينة كلها نبأ حدوث حادث يخرق المقدسات.

وعند مدخل الميدان الواسع الذي يقوم فيه السوق، ترتفع الكنيسة القديمة، كنيسة "ولادة العذراء" وهي من أجمل المباني التاريخية في مدينتنا العريقة. وتحت الباب الذي في جدار صحن الكنيسة توجد منذ زمان قديم أيقونة موضوعة في واجهة مصنوعة من قضبان حديد وزجاج، هي أيقونة كبيرة تمثل العذراء. ففي ذات صباح من الأصباح وُجدت الأيقونة منهوبة: الزجاج قد حُطّم، وقضبان الحديد قد فُكّت، ولآلئ كبيرة وأحجار كريمة (لا أعرف قيمتها) قد انتزعت من الإكليل والإطار. غير أن الأخطر من ذلك، أن الجناة لم يكتفوا بارتكاب فعل السرقة بل زادوا عليه فاقتروا عملاً ينافي الشعور الديني، عملاً حقيراً دنيئاً: فوراء الزجاج المحطّم وُجدت فأرة حية في ما يقال.

اليوم، بعد انقضاء أربعة أشهر على وقوع هذا الحادث، لا يشك أحد من الناس في أن هذه الجريمة إنما ارتكبتها فدكا الهارب من سجن الأشغال الشاقة، ولكن الناس يضيفون إلى ذلك أن ليامشين ساعده في ارتكابها. لم يتكلم أحد عن ليامشين حينذاك، ولم يشتبه فيه أحد. لكن الجميع يؤكدون اليوم أنه هو الذي أدخل الفأرة وراء الزجاج. أذكر أن السلطات فقدت صوابها قليلاً يومذاك. ومنذ الصباح أصبح الوقوف أمام مكان الجريمة لا ينقطع. على أن الجمهور لم يكن ضخماً. لعله نحو مائة شخص. فبعض يأتي وبعض ينصرف. والآتون يرسمون على أنفسهم إشارة الصليب ويقبّلون الأيقونة. وظهر راهب يحمل صينية وجعل يجمع العطايا. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، ارتأت السلطات أخيراً أن تمنع التجمع وأصدرت أمراً إلى الذين انتهوا من تقبيل الأيقونة ووضع عطاياهم بأن ينصرفوا. ويظهر أن هذا الحادث المؤسف قد أحدث في نفس فون لمبكة أثراً سيئاً، وجعله في حالة اكتئاب شديد. حتى لقد صرّحت جوليا ميخائيلوفنا، إذا صدق ما سمعته

عنها، أنها في ذلك اليوم بعينه إنما أخذت تلاحظ على زوجها ذلك الانهيار الغريب الذي لم يبارحه إلى حين مغادرته مدينتنا، والذي ما يزال يلازمه، على ما يقال، حتى الآن بسويسرا، حيث يرتاح بعد إقامته القصيرة في إقليمنا.

أذكر أنني مررت بميدان السوق في نحو الساعة الواحدة. كان الجمهور صامتاً، وكانت الوجوه مكفهرة مظلمة. رأيت عربية من عربات الدرويكي يصل عليها تاجر بدين أصفر، فيسجد أمام الأيقونة، ويقبّلها ويضع روبراً في الصينية، ثم يركب عربية ثانية وهو يزفر زفرات قوية، وينصرف. ثم وصلت مركبة فيها سيدتين يصحبهما اثنان من شبابنا المستهترين. نزل الشابان من المركبة (وكان أحدهما قد تقدم في السن قليلاً على كل حال) واقتربا من الأيقونة وهما يشقان لهما طريقاً بين الجمهور بقسوة ووحشية. لم ينزع أحد منهما قبعته احتراماً، حتى أن أحدهما وضع على عينيه نظارة. وانطلقت من الناس دمدمات وهمهمات إن تكن خافطة فقد كان واضحاً أنها مستنكرة ساخطة. وهذا هو الذي يضع على عينيه نظارة، يخرج محفظة نقود محشوة بالأوراق المالية، فيتناول منها كوبكاً ويلقيه في الصينية. ثم يضحك الاثنان كلاهما، ويتكلمان بصوت عال، ويعودان إلى السيدتين. وفي تلك البرهة ظهرت ليزافتا نيقولايفنا على صهوة حصانها، يخفرها مافريكي نيقولايفتش كما جرت بذلك العادة دائماً. قفزت الفتاة عن فرسها، ورمت اللجام إلى رفيقها الذي بقي على حصانه تنفيذاً لأمرها، واقتربت من الأيقونة لحظة كان الشاب يلقي الكوبك في الصينية. احمرّ خدّ الفتاة استياءً. ونزعت قبعتها المدوّرة، وخلعت قفازيها وانحنت على الأرض ثلاث مرات في تقى وخشوع، ثم أخرجت محفظة نقودها، ولكنها حين لم تجد في المحفظة إلا نقوداً فضية صغيرة، أسرعت تنتزع قرطي أذنيها المزدانين بالماس ووضعتهما في الصينية سائلة الراهب وهي منفعة أشد الانفعال:

- هل يمكنني؟ يمكنني، أليس كذلك؟ هذا لزيّنة الأيقونة.

فأجابها الراهب قائلاً:

- نعم، هذا مباح، كل هبة فهي حسنة.

وكان الناس صامتين لا يظهرون لالوماً ولا تحبيذاً. وعادت ليزافتا
نيقولايافنا تتركب حصانها ملطخة بالوحل، وانصرفت عدواً.

2

بعد ذلك الحادث بيومين، لقيتها مع صحب كثير تركب ثلاث عربات
محاطة بعدد من الفرسان. فدعنتني بإشارة من يديها، وأوقفت العربات
وألحّت أن أنضم إليهم. فوجدوا لي مكاناً صغيراً في مركبتها، وقدمتني،
ضاحكة، إلى السيدات الأنيقات جداً اللواتي كن يصحبنها، وذكرت لي
أنهم ماضون في رحلة شائقة جداً. كانت تضحك طول الوقت، حتى لقد
كانت تبدو مريحة مرحاً عجباً. إن فيض نشاطها يكاد يتجاوز حدود الاعتدال
في هذه الآونة الأخيرة. وكانت الرحلة التي يقومون بها شائقة بالفعل: إنهم
ذهبون إلى الجهة الأخرى من النهر، إلى منزل التاجر سيفاستيانوف. إن هذا
الرجل يؤوي عنده منذ عشر سنين، في جناح خشبي بصحن الدار، رجلاً يقال
له سيميون ياكوفلفتش⁽¹⁾، وهو "مجنوب" يحكى أنه أوتي القدرة على التنبؤ
بالمستقبل فهو يعيش عند صاحب البيت حياة فراغ وهدوء وبحبوبة. كانت
شهرة هذا الشخص القديس قد انتشرت وذاعت حتى في الأقاليم المجاورة،
بل لقد وصلت هذه الشهرة إلى العاصمتين. فكان الناس يؤمنونه من أقاصي
البلاد، يرونه ويسمعونه، ويحمل إليه كل منهم عطية. وكانت هذه العطايا أو
الهبات، وهي ضخمة في بعض الأحيان، تُنقل إلى الكنائس المحلية (إلا أن
يأمر سيميون ياكوفلفتش بغير ذلك) أو تُرسل خاصة إلى دير "ولادة العذراء"
الذي أوفد إلى "الجنوب" مندوباً مقيماً يستلم العطايا والهبات.

كانت الجماعة كلها تتوقع من هذه الرحلة تسلية كثيرة، لا سيما وأن أحداً
مننا لم يكن قد رأى، بعدُ، سيميون ياكوفلفتش، باستثناء ليامشين الذي كان

(1) إن شخصية جد سيميون ياكوفلفتش هذه تذكر بشخصية واقعية هي إيفان كوريشا (1861-1780)، وهو رجل متبجح دجال كان له بموسكو معجبات.

قد جاء إليه مرةً والذي كان يؤكد لنا الآن أن الرجل القديس قد أمر بطرده بضربات مكنسة وأنه رماه هو نفسه ببطاطستين ضخمتين مسلوقتين ساختين. وبين الفرسان الذي يحيطون بالعربات، رأيت بطرس ستيفانوفتش الذي استأجر لهذه المناسبة حصاناً قوزاقياً كان لا يحسن ركوبه، ورأيت نيقولا في سيفولودوفتش الذي كان يشارك دائماً في أمثال هذه الرحلات المرحية، مع بقاءه قليل الكلام. ولقد كان وجهه ينم يومئذ عن ابتهاج وانتعاش.

لما عبرنا الجسر فأصبحنا أمام فندق من أهم فنادق المدينة قال أحدهم فجأة إنه قد عُثر في هذا الفندق منذ برهة على جثة مسافر أطلق على نفسه رصاص مسدس، فهل لكم في رؤية المنتحر؟ فاستحسن الجميع هذه الفكرة وحذوها: فإنه لم يسبق لسيداتنا أن رأين منتحراً قبل اليوم. وأذكر أن إحداهن قالت بصوت عالٍ: "لقد سئمنا من التسلية العادية فلا داعي لأن نزعج أنفسنا بهذه التسلية الجديدة، اللهم إلا أن تكون شائقة". ولم يمتنع عن الدخول إلا بضعة أشخاص ظلوا ينتظرون عند مدخل الفندق. أما الآخرون ومنهم ليزافتا نيقولايفنا. وهذا ما أدهشني كثيراً. فقد أسرعوا يلجون الدهليز القذر المعتم. كانت غرفة المنتحر مفتوحة: كان يُنتظر وصول الشرطة، ولكن لم يجرو أحد أن يمنعنا من الدخول طبعاً. إنه فتى يبلغ التاسعة عشرة من عمره في أكثر تقدير، جميل الوجه، أشقر الشعر غزيره كثيفه، حلو القسمات، صافي الجبين جداً. كان الجسم قد تجمد. إن الوجه الشاحب يبدو كأنه من مرمر. لقد ترك الفتى على المائدة بطاقة مكتوبة بخط يده يعلن فيها أنه أطلق على نفسه الرصاص لأنه "التهم" أربعمئة روبل. وكانت كلمة "التهم" بارزة في الرسالة القصيرة التي ضُمَّت ثلاثة أخطاء إملائية في أربعة أسطر.

كان واقفاً أمام الجثة رجل ضخم يزفر زفرات عميقة هو واحد من مالكي الأراضى ينزل في الفندق نفسه. فعلمنا منه أن الفتى قد أوفدته أمه الأرملة وخالاته ليتولى، بإشراف قريبة لهن، شراء جهاز أخت له أكبر منه ستتزوج قريباً، ومن أجل شراء هذا الجهاز عهد إليه بأربعمئة روبل جمعت خلال عشرات السنين بفضل أنواع من الحرمان القاسي. وقد سافر الفتى مودعاً

بaldmوع ومثسيعاً بإشارات الصليب، وتوصيات ملحة ونصائح كثيرة وأدعية متصلة. وكان سلوك الفتى إلى ذلك الحين سلوكاً ممتازاً والحق يقال. فيما وصل إلى المدينة منذ ثلاثة أيام لم يذهب إلى قريته، بل استأجر غرفة في الفندق، ثم مضى إلى النادي توأ، على أمل أن يربح مبلغاً ضخماً من المال في ركن ناءٍ من مقامر عابر. لكنه لم يجد أحداً من هذا النوع. فلما عاد إلى الفندق في منتصف الليل أمر لنفسه بشمبانيا وسيجار فاخر وعشاء يتألف من ستة أطباق أو سبعة. لكن الشمبانيا أدارت رأسه، والسيجار أورثه غثياناً، فلم يستطع أن يمس أي طبق من أطباق الطعام ونام كالمغشي عليه. ثم استيقظ في صباح اليوم التالي نضراً كتفاحة، وذهب فوراً إلى نوع من كاباريه يقوم على إدارته غجر، ويقع على الضفة الأخرى من النهر، كان الفتى قد سمع عنه في الليلة البارحة بالنادي، ولم يرجع إلى الفندق إلا في اليوم الثالث، في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر، وقد رجع سكران كل السكر، فرقد فوراً، ولبت نائماً حتى الساعة العاشرة من المساء. حتى إذا أفاق أمر بشريحة لحم، وزجاجة خمر، وعنب وورق وحبر، وطلب فاتورة الحساب. لم يلاحظ أحد في وضعه شيئاً خاصاً يلفت النظر: فلقد كان يبدو هادئاً لطيفاً. ولعله قد انتحر في نحو منتصف الليل. لكن الشيء الغريب هو أن أحداً لم يسمع صوت طلقة المسدس، لا من الجيران ولا من العاملين بالفندق. وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر فقط إنما قرع باب الخادم، فلما لم يسمع جواباً اقتحم الغرفة. كانت قنينة الخمر فارغاً نصفها، وكان قد بقي من العنب بضعة عناقيد. وكانت الرصاصة قد أطلقت على القلب رأساً، وكان المسدس، ذي الطلقات الثلاث، الصغير الحجم، قد سقط من يدي الفتى على السجادة. وكان الجسم الذي لم ينزف منه إلا قليل جداً من الدم موجوداً الآن على ديوان في ركن من الغرفة. لا بد أن الموت قد تم فوراً. فالوجه ليس فيه أثر من آثار ألم: إنه يعبر عن الهدوء بل وعما يشبه السعادة. حتى لكانه يوشك أن يُبعث حياً.

شاهد أصحابنا المنظر بفضول شره. إن كل مصيبة تنزل بأحد من البشر

تتضمن دائماً على شيء يفرحنا. وقد نظرت سيداتنا إلى الشاب المنتحر صامتات. أمّا الرجال وقد حافظوا على حضور بديهتهم فقد كانوا يحاولون أن يلمعوا بملاحظة لطيفة أو قولة فكهة. فقال أحدهم إن الفتى ما كان في وسعه أن يتخيّل حلاً أفضل، وإنه تصرف تصرفاً فيه كثير من الذكاء. وقال آخر: لئن كانت حياته قصيرة، قد كانت ملأى زاخرة. وتساءل ثالث على حين فجأة: لماذا تكثر حوادث الانتحار ببلادنا هذه الكثرة كلها في الآونة الأخيرة، كأن الناس يحسون بأنهم لا جذور لهم تشدهم إلى الحياة، ولا أقدام لهم تقف على أرض. فلم يتلق المتسائل أي جواب غير نظرات خالية من اللطافة. وفي مقابل ذلك رأيت ليامشين، الذي يحرص على أن يكون له شرف تمثيل دور المهرّج، رأيته يأخذ من الطبق عنقود عنب، فقلده في ذلك شخص آخر. حتى إذا مدّ ثالث يده إلى قنينة الخمرة دخل مفوض الشرطة إلى الغرفة، وأخرج منها الجميع. وإذا كانوا قد رأوا ما أرادوا أن يروه، فقد انسحبوا دون أي اعتراض، إلّا ليامشين الذي شاء أن يحتج، فما كان من هذه الفكاهة إلّا أن زادت مرح الجماعة وأنعشت نشاطها، وتابع الركب الفرح طريقه وسط سيل من الضحك والكلام.

وصلنا إلى عند سيميون ياكوفلفتش في الساعة الواحدة تماماً. كانت بوابة منزل التاجر الكبير مفتوحة على سعتها. وكان كل من يريد الدخول إلى جناح "المجذوب" يستطيع أن يدخل. وعلمنا أن سيميون ياكوفلفتش يتغدى، ولكنه مع ذلك يستقبل. فدخلنا جميعنا دفعةً واحدة. إن الغرفة التي يأكل فيها "المجذوب" ويستقبل، لها ثلاث نوافذ. وهي واسعة سعة كافية، وثمة حاجز من قضبان خشب، علوه متر تقريباً، يقسمها إلى جزأين يمتد من جدار إلى آخر، ويقسم الغرفة قسمين متساوين. فأما الزوار العاديون فإنهم يقبعون وراء الحاجز، وأمّا الزوار الذين يخصهم الرجل القديس بامتياز خاص فإنه يأمر بإدخالهم إلى الجهة التي هو فيها، من باب في السور خاص به، ويجلسهم، إذا بدا له ذلك، على مقاعد عتيقة من جلد، أو على ديوان. أمّا هو فإنه متربع فوق مقعد كبير ذي مسند عال، وهو مقعد مهترئ

كل الاهتراء. الرجل في نحو الخمسين من العمر، طويل القامة، أصفر اللون، متورم الوجه، حليق اللحية تماماً، قليل شعر الرأس. إن خده اليمنى منتفخة، وإن فمه موارب قليلاً، وله ثؤلول ضخمة بقرب منخره الأيسر، وله عينان صغيرتان هادئتان. وهو يرتدي ثياباً على الزي الأوروبي، ولكن لا صديرة ولا ربطة عنق تحت رذنجوته الأسود. قميصه من قماش خشن، لكنه ناصع البياض. وقدماه، المريضان فيما أظن، ينتعلان خفين مما يُتعل في البيت. يقال إنه كان في الماضي موظفاً وكانت له رتبة. لقد فرغ الآن من تناول حساء خفيف بالسّمك، وشرع في أكل الطبق الثاني وهو بطاطس مسلوقة بغير تقشير ومرشوشة بملح. إنه لا يأكل في حياته شيئاً آخر قط، ولكنه يكثر من شرب الشاي، فهو يهوى الشاي كثيراً. إن خدماً ثلاثة يقفون حوله، والتاجر هو الذي يدفع لهم أجورهم. فأحدهم يرتدي بزة رسمية، والثاني يشبه أن يكون مستخدماً في محل تجاري، والثالث شبيه بخادم كنيسة. وهناك عدا هؤلاء فتى في السادسة عشرة من عمره، كثير الحيوية والنشاط، وراهب شائب الشعر، مهيب المظهر، وإن يكن سميناً بعض السمنة، يحمل بيده علبة مغلقة للعطايا والهبات. وعلى مائدة يغلى سماور توجد إلى جانبه صينية عليها نحو دستتين من الكؤوس. وعلى مائدة أخرى مقابلة قد صُفّت الهدايا: أرغفة خبز، وصرر سكر، ورطلان من الشاي، وخفّان مطرّزان، ومنديل تلف به العنق، وقطعة جوخ لصنع رداء، وقطعة نسيج مما تخاط منه القمصان... أمّا العطايا المالية فيذهب بها الراهب إلى الكنيسة في العلبة المغلقة، دائماً على وجه التقريب. وكان عدد الزائرين نحو اثني عشر زائراً، اثنان منهما كانا جالسين قرب سيميون ياكوفلفتش، فأماً أحدهما فهو حاج من "عامة الناس" وأمّا الثاني فهو راهب قصير نحيل كان ماراً بمدينتنا، وقد جلس متواضعاً خافض العينين. وكان باقي الزوار وراء الحاجز. إن أكثرهم أناس من الشعب، باستثناء تاجر سمين ذي لحية وصل إلى المدينة من القرية المجاورة، وهو يرتدي لباساً على الزي الروسي، لكنه معروف بأنه عظيم الثراء، وباستثناء رجل آخر من مالكي الأراضي، وامرأة عجوز نبيلة فقيرة.

كان الجميع ينتظرون، لا يجسرون أن ينطقوا بكلمة واحدة قبل أن يتجه إليهم الرجل القديس بالكلام. إن أربعة منهم راكعون. ومالك الأرض، الرجل السمين، الذي يبلغ من العمر نحو خمسة وأربعين عاماً، هو الذي يلفت الانتباه خاصة: كان راكعاً أمام الحاجز، يراه كل من الغرفة، ينتظر بكثير من الخشوع أن يمن عليه سيميون ياكوفلفتش بنظرة أو كلمة طيبة. إنه هنا منذ ساعة، ولكن الرجل القديس لا يوليه أيّ انتباه.

تكدست سيداتنا على الحاجز وهن يُطلقن ضحكات صغيرة ويتبادلن همسات فرحة، فيدفعن الزوار الآخرين ويحجبهن، إلّا المالك الذي حافظ على مكانه في عناد، متشبهاً بقضبان الحاجز بكلتا يديه. وسرعان ما أصبح سيميون ياكوفلفتش محط هذه الأنظار الضاحكة المستطلعة. وتسليح عدد منا بنظارات تُمسك باليد، أو توضع على الأنف، حتى أن ليامشين أخذ يتأمل القديس مستعملاً نظارتين مقرّبتين من النظارات التي يُستعان بها في المسرح. وألقى علينا سيميون ياكوفلفتش نظرة هادئة كسولة من نظرات عينيه الصغيرتين.

ثم قال بصوت خفيض أبخّ قليلاً:

- نظرات لطيفة!

فانفجرت جماعتنا كلها ضاحكة: مامعنى هذا القول: "نظرات لطيفة"؟ ولكن سيميون ياكوفلفتش عاد إلى صمته الكامل. وأتى على طبق البطاطس الذي كان يأكله، ومسح شفثيه بمنشفة، ثم حُمل إليه الشاي. إنه في العادة لا يشرب الشاي وحيداً، وإنما يقدّم منه إلى زواره، أو قل إلى عدد من زواره يصطفيهم. وكان هذا الاصطفاء من بين الزوار يفجأ الناس دائماً بما فيه من أمور غير متوقعة. فهو تارةً يهمل الأغنياء والشخصيات الهامة فيأمر بالشاي لفلاح أو لامرأة عجوز من الشعب، وهو تارةً أخرى يحتقر الفقراء فيأمر بالشاي لتاجر سمين من التجار مليء الجيب بالمال. هذا عدا أنه لا يعامل جميع الذين يختارهم معاملة واحدة: فواحد يأمر له بشاي محلى بالسكر، وآخر يأمر له بشاي مع قطعة من السكر عليه أن يمصها مصاً أثناء احتساء

الشاي، وثالث لا يأمر له مع الشاي بسكر بتاتاً. ففي هذه المرة وقع اختيار سيميون ياكوفلفتش على الراهب الغريب القصير، فأمر له بشاي محلّى، وعلى الحاج العجوز فأمر له بشاي من غير سكر. أمّا الراهب السمين الآتي من ديرنا فإنه لم يأمر له بشيء، رغم أنه كان ينال كأسه دائماً.

- سيميون ياكوفلفتش، قل لي شيئاً! إنني منذ زمن طويل أحب أن أعرفك. بذلك صدح صوت مغرّد مغناج هو صوت تلك السيدة الأنيقة التي قالت منذ برهة إن على المرء أن لا يكون متشدداً في شؤون التسلّيات شريطة أن يكون الأمر شائناً.

فلم يرض سيميون ياكوفلفتش حتى أن ينظر إليها. وزفر مالك الأراضي، الراكع أمام الحاجز، زفرة صاخبة، كأن أحداً قد نفخ في صفارة قوية. قال "الرجل التقى"، وهو يشير بإصبعه إلى التاجر الغني: - هاتوه بشاي محلّى بسكر.

فاقترب التاجر الغني وركع إلى جانب المالك. وقال سيميون ياكوفلفتش حين صُبَّ الشاي: - مزيداً من السكر.

فضاعفوا له مقدار السكر. فقال: - مزيداً، مزيداً!

فضاعف الخادم السكر مرة ثانية، ثم ضاعفه مرة ثالثة، فكان مقدار السكر الذي وُضع في الشاي أربعة أضعاف المقدار العادي. فأخذ التاجر يشرب شرابه طيَّعاً خاضعاً. وهمس الناس وهم يرسمون إشارة الصليب: - يارب!

وزفر المالك من جديد. وارتفع صوتُ سيدة فقيرة كانت جماعتنا قد دفعتها إلى الحائط، ارتفع على حين فجأة أليماً موجعاً، لكنه يبلغ من الحدة أن جميع الحضور دُهِشوا، ارتفع يقول:

- سيميون ياكوفلفتش، أبتاه! إنني هنا منذ ساعة أرتقب أن تلقي عليّ نظرتك الحنون. كلّمني. قل لي، ماذا يجب أن أفعل، أنا اليتيمة المسكينة!

فقال سيمون ياكوفلفتش للخادم الذي يشبه خادم كنيسة:
- اسألها!

فدنا الخادم من الحاجز، وسأل الأرملة بصوت رقيق بطيء:

- هل فعلت ما أمرك به سيمون ياكوفلفتش آخر مرة؟

- آتني لي أن أستطيع فعل ما أمرني به أيها الأب العزيز! هؤلاء أناس

من أكلة لحوم البشر حقاً! لقد شكّوني إلى المحاكم، وهم يهددونني بأن

يجروني إلى أمام مجلس الشيوخ، أنا أهمهم!

قال سيمون ياكوفلفتش للخادم وهو يشير إلى كتلة سكر:

- أعطها هذا!

فأسرع الفتى نحو المائدة، وتناول الكتلة، ومدّها إلى الأرملة.

فهتفت الأرملة تقول:

- أوه! أبتاه! عظيمة طيبتك! ما عساني فاعلة بهذا كله؟

فأردف سيمون ياكوفلفتش يقول متابعاً كلامه:

- مزيداً! مزيداً!

فجيئت المرأة بكتلة أخرى. فألح سيمون ياكوفلفتش مكرراً:

- مزيداً!

فجيئت بثالثة، فرابعة، فرأت نفسها محاطة بسكر من كل جهة.

- زفر الراهب السمين: إن هذا كله كان ينبغي أن يُرسل إلى الدير كالعادة.

وتندّعت الأرملة قائلة بمذلة:

- ولكن ما عساني صانعة بهذا كله؟ إنه يكاد يثير الغثيان... أم تُرى هذا

نبوءة؟

دمدم واحدٌ من الجمهور يقول:

- هو نبوءة طبعاً.

- أعطوها رطلاً آخر.

كذلك قال سيمون ياكوفلفتش.

كانت قد بقيت على المائدة حزمة كاملة. ولكن الرجل المقدس أمر بأن

تعطى رطلاً واحداً فأطيع.

قال الناس متنهدين وهم يرسمون على أنفسهم إشارة الصليب:

- يارب! يارب! واضح أنها نبوءة.

وتصدَّى الراهب السمين الذي أغضبه أن يرى أنه نُسي، وأن عليه أن يستغني عن كأس الشاي الذي اعتاد أن يؤمر له به، تصدَّى للتعليق على هذا فقال للمرأة برصانة:

- عليك أولاً أن تجعلي قلبك حلوّاً بالطيبة والغفران فيما كان ذلك هو معنى هذا الرمز!

فهتفت المرأة تقول وقد غضبت فجأة:

- ما هذا الذي تقول يا أبت! لقد أرادوا أن يلقوني في النار حين شب حريق في منزل أسرة فرخيشيف. وقد رموا في صندوقي قطة فاطسة، إنهم لا يتورعون عن شيء...

صاح سيميون ياكوفلفتش يقول محرراً ذراعيه:

- اطردها! اطردها!

فوثب خادم الكنيسة والخادم الشاب إلى الجهة الأخرى من الحاجز، فأمسك خادم الكنيسة بالأرملة تحت ذراعيه، فسرعان ما عادت ذليلة متواضعة وانقادت سائرة نحو الباب، دون أن يفوتها أن تلقي نظرة على كتل السكر التي حملها الصبي وراءها.

قال سيميون ياكوفلفتش يأمر الخادم الذي يشبه أن يكون مستخدماً في محل تجاري والذي كان يقف بقرب مقعده:

- استرد منها كتلة من السكر.

فركض الخادم وراء الأرملة، فما هي إلا لحظة حتى رجع الخدم الثلاثة بكتلة السكر التي أعطيت للأرملة ثم استردت منها، لكن المرأة انصرفت بثلاث كتل.

قال صوت قريب جداً من الباب:

- سيميون ياكوفلفتش، رأيتُ في الحلم طائراً. إنه زاغ صعد من الماء ومضى يرتمي في النار. فما معنى هذا الحلم؟

قال الرجل "التقي":

- نذير برد.

وعادت السيدة الأنيقة تسأله:

- سيميون ياكوفلفتش، لماذا لا تجيبي؟ إنني منذ مدة طويلة أهتم بك

ويشوقني أمرك.

- أسأله.

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش لراهب ديرنا مشيراً إلى مالك الأرض

الذي ما يزال راکعاً، دون أن يتبه إلى السيدة الأنيقة التي وجّهت إليه ذلك

السؤال.

- ماذا كان ذنبك؟ هل سبق أن أمرت بشيء؟

فأجاب الرجل بصوت أجش:

- أمرت بأن لا أقتل مع الناس، أمرت بأن أسيطر على نفسي.

- فهل أطعت الأوامر؟

- لا أستطيع، يستحيل عليّ أن أتحكم بسلوكي وأسيطر على نفسي.

- اطرده! اطرده! بالمكسة!

كذلك صاح سيميون ياكوفلفتش محرّكاً ذراعيه من جديد. فإذا بالمالك

يلوذ بالفرار قبل أن يُنقذ فيه هذا التهديد.

قال الراهب وهو يلتقط من الأرض قطعة ذهبية بعشرة روبلات:

- ترك قطعة ذهبية.

- فقال سيميون ياكوفلفتش وهو يشير إلى التاجر الثري:

- أعطها هذا.

فلم يجرؤ التاجر الثري أن يرفضها. ولم يملك الراهب إلا أن يعلق على

ذلك بقوله:

- الذهب يجذب الذهب!

- وأعط هذا شاياً بالسكر.

قال سيميون ياكوفلفتش ذلك وهو يشير إلى مافريكي نيقولايفتش.

فملاً خادم كأساً، ولكنه أخطأ قدمه إلى الشاب الأنيق ذي النظارة. فصيح سيميون ياكوفلفتش خطأه قائلاً:

- بل لهذا! الطويل، الطويل!

فتناول مافريكي نيقولايفتش الكأس، وقام بتحية عسكرية سريعة وأخذ يشرب الشاي. فلا أدري لماذا أخذ جميع صحننا يضحكون!
وقالت ليزا فجأة:

- مافريكي نيقولايفتش، إن السيد الذي كان راكعاً قد انصرف، فاركع أنت في مكانه. فنظر إليها مافريكي نيقولايفتش مبهوراً.
- أرجوك. سترني بهذا سروراً عظيماً.

ثم تابعت تقول مسرعة بلهجة ضاغطة مندفعة:

- اسمع يا مافريكي نيقولايفتش! يجب، يجب حتماً أن أراك راكعاً. فإذا لم تركع فلن تجيئني بعد اليوم. أريد... أريد...

لا أدري ماذا كان معنى هذا. لكنها أصرت على رأيها إصراراً عنيداً، وتكلمت بلهجة حاسمة قاطعة، وكأنها تعاني نوبة عصبية. ولقد كان مافريكي نيقولايفتش، كما سئرى ذلك فيما بعد، يعزو هذه النزوات الغريبة التي تزداد يوماً بعد يوم، إلى البغض الأعمى الذي تحمله له الفتاة. ولكنها كانت تضمّر له مع ذلك اعتباراً واحتراماً وعاطفة، وكان هو يعرف ذلك. على أن هذا لا ينفي أنها كانت تحمل له عداوة لا شعورية لم تفلح الفتاة في أن تنتصر عليها. لم يقل مافريكي نيقولايفتش كلمة واحدة، وإنما التفت إلى عجوز كانت وراءه فأعطاه الكأس، وفتح باب الحاجز ودخل دون استئذان إلى الجزء الموقوف على سيميون ياكوفلفتش من الغرفة، وركع في وسطه. أظن أن رقة إحساسه وبساطة قلبه قد روّعتهما هذه الإهانة الفظة التي أنزلتها فيه ليزا بحضور المجتمع كله. لعله قال لنفسه إنها لا بد أن تخجل من سلوكها حين ترى هذا الذل الذي أكرهته عليه. نعم، لا بد أن يكون مافريكي نيقولايفتش رجلاً من نوع مافريكي نيقولايفتش حتى يحاول أن يؤثر في امرأة بوسائل تبلغ هذا المبلغ من السذاجة، وتبلغ هذا المبلغ من قلة التبصر. وكان منظر

هذا الرجل الطويل المتخلع الراكع الذي ظل وجهه رصيناً لم يضطرب، كان منظرأ مضحكاً كل الإضحاك. غير أن أحداً لم يضحك حينذاك: إن هذا المشهد الغريب قد أثار شعوراً بالضيق والانزعاج. واتجهت الأنظار كلها إلى ليزا.

غمغم سيميون ياكوفلفتش قائلاً:

- منتهى الرقة! منتهى الرقة!

فاصفرت ليزا فجأة، وأطلقت صرخة، واندفعت إلى الجهة الأخرى من الحاحز، وأخذت تشد مافريكي نيقولايفتش لتنهضه وكأنها خرجت عن طورها، وتصرخ زائغة الهيئة قائلة:

- قم! فوراً! كيف جرؤت على أن تفعل هذا؟

فقام مافريكي نيقولايفتش. وأمسكت بذراعيه تحت كوعيهما، وحدّقت إلى عينيه بنظرة مرتاعة.

وكرر سيميون ياكوفلفتش:

- نظرات لطيفة، نظرات لطيفة!...

ورجعت إلينا بمافريكي نيقولايفتش أخيراً، كانت جماعتنا كلها مضطربة أشد الاضطراب، وأرادت السيدة الأنيقة أن تسريّ عنا في أغلب الظن، فاتجهت تخاطب سيميون ياكوفلفتش مرة ثالثة، قائلة له بصوتها الحاد وهي تبتسم ابتسامة غنج ودلال:

- هيه... سيميون ياكوفلفتش، هلا تنازلت فقلت لي شيئاً؟ لطالما عوّلت

عليك!...

- ابحثي لنفسك عمن... ابحثي لنفسك عمن...!...

كذلك صاح "وليّ الله" غاضباً وهو يلتفت إليها. وقد نطق "القديس" بهذه العبارة البذيئة بوضوح مروع. فما سمعته سيداتنا يقول هذا الكلام حتى لذن بالفرار وهنّ يطلقن صرخات صغيرة مرتاعة، بينما انفجر مرافقوهن الفرسان يضحكون ضحكاً هو مزيّياً. هكذا انتهت زيارتنا لسيميون ياكوفلفتش.

غير أن حادثاً غريباً قد وقع أيضاً قبل ذلك، وإنني لأعترف لكم بأنني من

أجل الوصول إلى هذا الحادث خاصةً إنما سردت التفاصيل كلها عن رحلتنا. قيل إن ليزا التي كان يسندها مافريكي يقول لا يفتش قد اصطدمت فجأة، أثناء هروب الجميع إلى خارج غرفة سيمون ياكوفلفتش، قد اصطدمت قرب الباب بنيقولا ي فسي فولودوفتش. يجب أن أقول إنهما، منذ مشهد يوم الأحد وإغماء ليزا، لم يتعرض أحد منهما لصاحبه، ولا كلمه، رغم أنهما يلتقيان في المجتمع. لقد رأيتهما قريبين أحدهما من الآخر عند الباب، وبدائي خلال لحظة أنهما توقفا كلاهما وألقى كل منهما على الآخر نظرة غريبة. لكن الازدحام كان شديداً فمن الجائز أنني أخطأت. غير أن ما أكدته الآخرون هو أن ليزا رفعت يدها إلى مستوى وجه نيقولا ي فسي فولودوفتش، وأنها كانت ستصفعه حتماً لولا أنه تنحى في الوقت المناسب. فلعل ليزا أحست، ولا سيما بعد المشهد الذي وقع مع مافريكي نيقولا يفتش، أن نظرة ستافروجين أو ابتسامته تجرحان شعورها. أعترف بأنني من جهتي لم ألاحظ شيئاً. لكن الجميع قد أكدوا أنهم رأوا هذه الحركة. ومهما يكن من أمر، فإذا كان قد حدث شيء فإن الذين استطاعوا من بيننا أن يروه قليل، وذلك بسبب الازدحام والفوضى. ولقد رفضت في ذلك الوقت أن أصدق ما قالوه. ولكنني أذكر أن وجه نيقولا ي فسي فولودوفتش كان يبدو أثناء العودة شاحباً بعض الشحوب.

3

في ذلك اليوم نفسه، وفي تلك الساعة نفسها تقريباً، تمّ اللقاء الذي كانت فرفارا بتروفنا قد قررت منذ مدة طويلة أن تحدده لستيفان تروفيموفتش، ولكنها أرجأته حتى ذلك الحين، لا أدري لماذا! ولقد تمّ هذا اللقاء في سكفور شنيكي.

وصلت فرفارا بتروفنا إلى منزلها الريفي مشغولة جداً: كان قد تقرر في الليلة البارحة نهائياً أن تقام الحفلة في منزل عميدة النبالة. ولكن فرفارا بتروفنا، بما تتميز به من تعجل، سرعان ما قررت أن لا يمنعها شيء بعد تلك

الحفلة من إقامة حفلة أخرى بمنزلها في سكفور شنيكي، تدعو إليها المدينة كلها. فسوف يرى الناس حينذاك أن منزلها هو الأجمل، وسوف يرون أن الاستقبال فيه أليق، وأن الحفلة فيه ستمتاز بدوق اللف. نستطيع أن نقول على وجه العموم أن فرارا بترفنا قد تغيرت حتى أصبحت لا تكاد تُعرف. لقد طرأ عليها تحول كامل، فصارت "السيدة العظيمة" ذات الكبرياء (كما كان يلقبها ستيفان تروفيموفتش) امرأة عادية من نساء المجتمع التافه، خفيفة ذات نزوات.

ما إن وصلت فرارا بترفنا إلى منزلها الريفى حتى قامت بجولة سريعة فيه، يصحبها العجوز الأمين ألكسي إيجورتش فاموشكا⁽¹⁾ الاختصاصى الواسع الخبرة فى شؤون تزيين المنازل. ودارت المناقشة: ما الأشياء وما اللوحات التى يجب إحضارها من منزل فرارا بترفنا بالمدينة؟ أين يجب وضع هذه الأشياء واللوحات هنا! كيف تُرتَّب الأزهار؟ كيف يمكن الاستفادة من أشجار البرتقال؟ أين توضع مجموعة الطنافس الجديدة؟ والبوفيه، أين يكون؟ وهل يقام بوفيه واحد أم اثنان؟ إلخ إلخ...

وبينما كانت فرارا بترفنا مشغولة بمناقشة هذه الأمور، إذ خطر ببالها فجأة أن ترسل عربتها لتجيئها بستيفان تروفيموفتش.

وكان ستيفان تروفيموفتش متهيئاً. لقد أبلغ منذ مدة طويلة أن فرارا بترفنا ستحدد له موعداً، وكان ينتظر فعلاً أن تدعوه دعوة مفاجئة من هذا النوع. فحين ركب العربة رسم على نفسه إشارة الصليب: لأنه كان يحس أن مصيره سيتقرر أخيراً.

وجد صديقه فى الصالة الكبرى. إنها جالسة على كنبه صغيرة أمام منضدة من مرمر تكتب، كان فاموشكا وهو يحمل بيده مترأ، يقيس علو المنصات والنوافذ، ويملي الأرقام على فرارا بترفنا فتسجلها.

لم تقطع فرارا بترفنا عملها حين وصل ستيفان تروفيموفتش وإنما

(1) "فاموشكا": تصغير اسم فوما تخبياً.

أومات له بحركة من رأسها، حتى إذا عبّر لها عن تحياته واحترامه متمتماً، مدت إليه يدها بسرعة تصافحه من دون أن تنظر إليه، وعينت له مكاناً إلى جانبها يجلس عليه.

وقد حكى لي ما جرى، فيما بعد، فقال: "جلست وانتظرت خمس دقائق أو ست دقائق كاملة، ضاغطاً قلبي. إن المرأة التي أراها أمامي ليست هي تلك التي أعرفها منذ عشرين عاماً. فكان من شأن اقتناعي المطلق بأن كل شيء بيننا قد انتهى أن ملأني بقوة دُهِشت منها هي نفسها. أحلف لك أنها بُهتت من ثبات جناني وصلابة إرادتي في تلك الساعة الأخيرة." وفجأة وضعت فرفاراً بتر وفنا قلمها على المنضدة والتفتت إلى ستيفان تروفيموفتش بحركة مفاجئة وقالت له:

- يا ستيفان تروفيموفتش، هناك أمور يجب أن نصفها. أنا واثقة بأنك قد هيأت عبارات جميلة وألفاظاً عاطفية وصيحات مؤثرة، ولكن أليس الأفضل أن نمضي إلى الوقائع رأساً؟

انتفض ستيفان تروفيموفتش. قال لنفسه: إذا أسرعْتُ إلى اتخاذ هذه اللهجة منذ البداية فما عسى تكون التتمة والنهاية.

- انتظر! اسكت! دعني أتكلم! ستتكلّم أنت بعد ذلك، رغم أنني لا أعرف حقاً بماذا يمكن أن تجيبني!

كانت تندفق في الكلام، وتابعت كلامها من دون أن تنتظر أجوبة: - فيما يتعلق براتبك الذي يبلغ ألفاً ومائتي روبل، فإنني أرى أنه واجب مقدس عليّ أن أستمّر في تقديمه إليك حتى آخر حياتك. ولكن علام الكلام عن "واجب مقدس"؟ هذا اتفاق لا أكثر ولا أقل. بذلك نكون أقرب إلى الواقع، أليس كذلك؟ وإذا شئت سجّلناه كتابةً. وإذا اتفق أن متُّ قبلك، فقد اتخذت إجراءات خاصة لهذه الحالة. وبالإضافة إلى ذلك تقع على عاتقي أجرة المسكن ونفقات الخادمة والمعيشة. فإذا ترجمنا هذه المصاريف إلى مال، كان المبلغ اللازم ألفاً وخمسمائة روبل، أليس كذلك؟ وإنني لأضيف إلى هذا ثلاثمائة روبل للنفقات الخارقة، فيكون المجموع كله ثلاثة آلاف

روبل في السنة. ألا يكفيك هذا المبلغ؟ أظن أنه ليس بالمبلغ الضئيل. والآن خذ المال، وردّ إليّ خدمي، وعش كما يحلو لك أن تعيش، في المكان الذي تريد: بطرسبرج، أو موسكو، أو الخارج، أو حتى هنا، ولكن ليس عندي، هل تفهم؟

قال ستيفان تروفيموفتش ببطء وكآبة وأسى:

- منذ مدة غير طويلة سمعت من هذا الفم نفسه مطلباً آخر يبلغ هذا المبلغ نفسه من القطع والجزم والإلحاح. وخضعت للمطلب... رقصت الرقصة القوزاقية لأسرك... "نعم، هذا التشبيه مباح. لقد كنت مثل قوزاقي صغير من الدون يرقص على قبره... والآن..." (بالفرنسية).

- قف يا ستيفان تروفيموفتش. أنت تثرار إلى درجة فظيعة. إنك لم ترقص، وإنما جئت إليّ متزيناً بربطة عنق جديدة، لابساً قميصاً نضراً ناصع البياض، داساً يديك في قفازين جميلين، متدهناً متعطراً. أوكد لك أنك كنت راغباً في الزواج أشد الرغبة. كان ذلك يُقرأ في وجهك. وصدّقني إذا قلت لك إنه لم يكن جميلاً منك. ولئن لم أبد هذه الملاحظة حينذاك، فلقد كان من جانبي ذوقاً وأدباً ولطفاً. لكنك كنت راغباً، نعم كنت راغباً في أن تتزوج، رغم كل الأشياء الدنيئة التي كتبتها عني وعن خطيبتك خفية. والأمر الآن يختلف عن ذلك تماماً. ما شأن "قوزاقي الدون والقبر" هنا؟... إنني لا أفهم هذا التشبيه. بالعكس: لا تمت، بل عش أطول عمرٍ ممكن، وسيسعدني هذا كثيراً.

- أعيش في ملجأ؟

- في ملجأ؟ لا يذهب المرء إلى ملجأ حين يكون له دخل قدره ثلاثة آلاف روبل. آ... نعم... نعم تذكرت الآن. إن بطرس ستيفانوفتش قد قال، فعلاً، في ذات مرة، على سبيل المزاح، أنه سيضعك في ملجأ. على أن الملجأ الذي كان يعنيه ملجأ من نوع خاص جداً، ينبغي أن تفكر في هذا حقاً. إنه ملجأ لا يُستقبل فيه إلا أشخاص محترمون جداً، رجال برتبة كولونيل مثلاً، حتى أن بين المرشحين لدخوله شخصاً برتبة جنرال. فإذا دخلته بما تملك من مال وجدت فيه الراحة والرخاء وخدمة ممتازة. فتستطيع أن تنصرف فيه

إلى العلم وأن تلعب لعبة الورق التي تلعبها كل يوم...
- "طيب... دعينا من هذا الكلام" (بالفرنسية).
- "دعينا من هذا الكلام"؟ (بالفرنسية).

قالت فر فارا بتروفنا ذلك وهي تحرك يدها بإشارة تنم عن التملل ونفاد الصبر. وأضافت:

- إذا كان الأمر كذلك فهذا كل شيء. ها أنا ذا قد أبلغتك ما عقدت عليه نيتي. بعد الآن، سيعيش كل منا مستقلاً عن الآخر، سيسير كل منا في طريقه...
- هذا كل شيء؟ هذا كل ما بقي لنا من السنين العشرين التي أنفقناها معاً؟
أهذا وداعنا الأخير؟

- إن لك ولعاً شديداً بالصيحات العاطفية المؤثرة يا ستيفان تروفيموفتش! لقد انقضت هذه الموضة وأصبحت بالية! الناس يتكلمون الآن بخشونة ولكن ببساطة. إنك ما تنفك تتكلم عن هذه السنين العشرين. نعم، إنها عشرون سنة من الأنانية! الرسائل التي بعثتها إليّ إنما كُتبت للأجيال القادمة، لا لي أنا، ما أنت بصديق. وإنما أنت منشئ ينمّق أسلوبه ويزوِّق كتابته. والصدقة على كل حال كلمة ضخمة لا تعني على وجه الإجمال إلّا أن يتساكب اثنان مياهاً وسخة...

- رباه! هذه كلها كلمات ليست لك! إنك تكررين درساً حفظته عن ظهر القلب. هل ألسوك أنت أيضاً زيّهم؟ "عزيزتي، عزيزتي، (بالفرنسية)... بأي طبق من عدس بعثهم حريتك؟
قالت فر فارا بتروفنا غاضبة:

- لست ببيغاء أكرر أقوال الآخرين. ثق أن قلبي مثقل بأشياء تكفيني من أجل أن أجد الكلمات التي تناسبني. ماذا فعلت في سبيلي أثناء هذه السنين العشرين؟ منعني عني حتى الكتب التي كنت أستقدمها لك والتي ما كان لها أن تُقصّ لولا أنني كنت أمر بتجليدها. ماذا كنت تعطيني للقراءة حين كنتُ

"في السنين الأولى أطلب منك توجيه مطالعاتي؟ كابفيج⁽¹⁾، ولا شيء إلا كابفيج، كنت تغار من تطور فكري ونمو ثقافتني، فكنت تتخذ إجراءك للحيلولة دونهما. ومع ذلك فمَنك أنت إنما يضحك الآن جميع الناس. أعترف بأنني لم أكن أرى فيك على الدوام إلا ناقداً أدبياً لا أكثر. إنك ناقد أدبي لا أكثر. وحين سافرت إلى بطرسبرج وقلت لك إن في نيتي أن أنشئ مجلةً وأن أقف عليها حياتي كلها أسرعتنظر إليّ ساخراً وتتخذ مني موقف استعلاء وغطرسة.

- لم يكن الأمر هذا... لم يكن هذا بتاتاً... وإنما كنا يومئذ نخشى الملاحظات...

- لا، لم يكن الأمر كذلك. أمّا عن الملاحظات فلم يكن لك أن تخشاها في بطرسبرج. وبعد ذلك، في شهر شباط (فبراير) حين سرت بعض الشائعات، هرعت إليّ مذعوراً، وطلبت مني أن أعطيك شهادة في صورة رسالة تثبت أن المجلة المزمع إصدارها لا شأن لك بها بتاتاً، وأن الشبان يترددون عليّ أنا لا عليك أنت، وأنتك لست إلا مربياً يعيش عندي لأنني ما أزال مدينةً له بمال. هل تتذكر؟ لقد كان لك طوال حياتك موقف خاص يا ستيفان تروفيموفيتش! صاح ستيفان تروفيموفيتش يقول مكروباً يائساً:

- إنها لحظة ضعف، لم يكن إلا كلاماً جرى بيني وبينك على انفراد. ولكن هل يُعقل، هل يُعقل قطع كل صلة بسبب حوادث طارئة صغيرة من هذا النوع؟ هل يُعقل أن لا يبقى بيننا شيء بعد هذه السنين كلها؟

- إنك حيسوب إلى درجة رهيبة: تصرُّ بكل ما أوتيت من قوة على أن أبقى مدينةً لك. حين عدت من الخارج، كنت تنظر إليّ من عل، ولا تدعني أقول كلمة واحدة. وحين سافرت أنا بدوري وأردت أن أقص عليك انطباعاتي عن "مادونا سستين" لم تتنازل حتى أن تستمع لحديثي إلى نهايته، واكتفيت بالتبسم متعالياً متكبراً كأنني عاجزة حتى عن الشعور بأي شيء.

(1) هو بنجامان كايفيج: مؤرخ فرنسي ملكي الاتجاه.

- لم يكن الأمر كذلك... لعل الأمر كان يتعلق بشيء آخر... "نسيت" (بالفرنسية).

- بل كان الأمر كما وصفت. ولم يكن مع ذلك ثمة داع إلى اصطناع الاستعلاء والتكبر. كل ما كنت تحكيه لي عن تلك اللوحة لم يكن إلا سخفاً وحماقة ومحض خيال من جهتك. ما من أحد يشعر الآن بنشوة تجاه هذه المادونا، أو يضيّع وقته في تأملها، باستثناء شيوخ سدّج بسطاء. وذلك أمر مؤكد مبرهن عليه.

- مبرهن عليه؟

- إنها لا تفيد في شيء على الإطلاق. هذه الجرة مفيدة لأننا نستطيع أن نملأها ماءً، وهذا القلم نافع لأنه يتيح لي أن أسجل ما أريد تسجيله. أمّا تلك اللوحة فما هي إلا وجه امرأة أسوأ من الوجوه التي نلقاها في الشارع. إذا رسمتُ تفاحةً ووضعت إلى جانبها تفاحة حقيقية، فأيتها تختار؟⁽¹⁾ إنك لن تخطيء الاختيار. أنا موقنة من هذا. ذلك ما يبقى اليوم من جميع نظرياتك متى سلّطنا عليها أول شعاع من حرية النظر.

- طيب... طيب...

- إنك تبتسم ساخراً. ماذا كنت تقول لي عن الصدقة؟ والحقيقة أن اللذة التي يهيئها لنا التصديق لذّة أنانية لا أخلاقية. إنها تتيح للغني أن يبتهج بغناه وسلطاته إذ يقارنهما بضعف الفقير. والصدقة تفسد المعطي والآخر كليهما. وهي فوق ذلك لا تبلغ غايتها ولا تحقق هدفها، لأنها تكاثر البؤس. فالكسالى الذين لا يريدون أن يعملوا يتزاحمون حول أولئك الذين يعطون، كالمقامرين الذين يتحلّقون حول المائدة الخضراء أملّافاً في أن يربحوا. والدريهمات القليلة التي يرمونها إليهم لا تخفف جزءاً من مائة جزء من آلامهم. كم من المال وزّعت طوال حياتك؟ ثمانين كوبكاً في أكثر تقدير. تذكر هذا. حاول

(1) يتهكم دوستوفسكي هنا على الرأي الذي ذهب إليه تشيرنيسكي القائل بأن "آثار الفن أقل قيمة من الجبال الواقعي"، وهو الرأي الذي يدافع عنه تشيرنيسكي في كتابه "العلاقات الجبلية بين الفن والواقع".

أن تذكر متى تصدقت آخر مرة. ربما منذ سنتين أو حتى منذ أربع سنين. إنك لا تزيد على أن تتكلم فتعرقل عمل الآخرين. إن من الواجب، حتى في المجتمع الحالي، إصدار قانون يحظر الصدقة. أمّا المجتمع الجديد فلن يكون فيه فقراء قط.

- أوه! سيل من الأقوال العجيبة! المجتمع الجديد! إذن قد وصلت إلى هنا؟ مسكينة! كان الله في عونك!

- نعم، وصلت إلى هنا يا ستيفان تروفيموفتش. كنت تحرص على أن تخفي عني جميع الأفكار الجديدة التي يعرفها الناس كافةً منذ الآن. ولم تفعل ذلك إلّا بدافع الغيرة، فقد كنت تريد أن تحتفظ بسلطانك عليّ والآن أرى امرأة يقال لها جوليا تسبقني مائة فرسخ! إنما أصبحت أرى بوضوح أخيراً. لقد دافعت عنك ما وسعني أن أدافع يا ستيفان تروفيموفتش. ولكن جميع الناس يدينونك.

قال وهو ينهض فجأة:

- كفى! لا أملك إلّا أن أتمنى لك الندامة وأدعو لك بالتوبة!

- عد إلى الجلوس دقيقة أخرى يا ستيفان تروفيموفتش. لم أختتم كلامي بعد. لقد طُلب منك أن تقرأ شيئاً في الصبيحة الأدبية. أنا ربت ذلك. فماذا تنوي أن تقرأ؟

- لأقرأ بضع صفحات عن ملكة الملكات تلك، عن المثل الأعلى للإنسانية، عن تلك "المادونا" التي لا تساوي في رأيك كأساً أو قلماً! صاحت فر فاراً بتروفا تسأله خائبة الآمال:

- إذن لن تقرأ قصة تاريخية! لن يصغي إليك أحد. أتصرّ على هذه "المادونا"؟ إنني لا أرى ما هي اللذة التي تجنيها من إنامة المستمعين. ثق يا ستيفان تروفيموفتش أنني لا أقول هذا الكلام إلّا في سبيل مصلحتك. خير لك أن تختار قصة قصيرة أو حكاية خفيفة عن حياة البلاط بإسبانيا في القرون الماضية مضيئاً إليها بضع تأملات فكهة من ابتكارك. فخامة البلاط، السيدات الجميلات، حوادث القتل بالسم، ذلك كله شائق! كارمازينوف

يقول إنه ليكون أمراً غريباً جداً أن لا تجد في تاريخ إسبانيا موضوعاً شائقاً تتكلم عنه.

- كارمازينوف، هذا الأحمق الأجوف، يبحث عن موضوعات لي أنا؟
- إن كارمازينوف يكاد يملك ذكاء رجل دولة. لسانك وقح سليط جداً يا ستيفان تروفيموفتش.

- صاحبك كارمازينوف أشبه بعجوز نمامة شريرة غبية! عزيزتي! عزيزتي!
إنك خاضعة لتأثيره كل الخضوع! رباه!

- إنني أكره فيه اصطناعه علو الشأن، ولكنني أنصف ذكاهه. أعود فأقول
إنني دافعت عنك بكل ما أوتيت من قوة، ما وسعني أن أدافع. علام يظهر
المرء بمظهر سخيف مضحك مضجر؟ بالعكس: اصعد إلى المنصة مبتسماً،
كرجل يمثل عصرًا مضى وانقضى، واقصص عليهم حكايتين أو ثلاثاً مما لا
يستطيع أن يضارعه فيه أحياناً خفة ظل وروح فكاهة. هل يضيرك أن تكون
شيخاً، أن تمثل عصرًا آخر، وأن تبقى متخلفاً في وراء! اعترف أنت نفسك
بهذا، مبتسماً في مستهل خطابك، فيرى الجميع عندئذ أنك بقية باقية من
عصر تصرّم حقاً، ولكنك بقية لطيفة محبة حلوة فكهة... رجل من الزمان
القديم فعلاً، ولكنه يملك من الذكاء ما يمكنه من إدراك سخافة الآراء التي
ظل متعلقاً بها حتى الآن. هيّا، حقق لي هذه المسرة، أرجوك!

- "عزيزتي" (بالفرنسية)! كفى! لا تلحّي! يستحيل عليّ هذا. سوف أتكلم
عن "المادونا" وسوف أثير زوبعة تسحقهم أو لا تنال أحداً غيري.

- ستكون أنت الضحية حتماً يا ستيفان تروفيموفتش.

- ذلك قدّري. سأتكلم عن ذلك العبد الحقير الجبان، عن ذلك الخادم
الشرير العفن الذي سيصعد أول الصاعدين على سلم، ممسكاً بيديه مقصاً،
ويأخذ يمزق ذلك الوجه الإلهي، ذلك المثل الأعلى، باسم المساواة،
والحسد... والهضم! فلترجع أصداء لعنتي أولاً، ثم، ثم...

- ثم مستشفى المجانين؟

- ربما. ولكن سواء أخرجت غالباً أم خرجت مغلوباً، فلأحملن في ذلك

المساء نفسه كيس متسوّل، تاركاً جميع أشيائي وأمتعتي، جميع عطايك وهباتك، جميع مرتباتك وعودك، ماضياً على قدميٍّ أختِم حياتي عند تاجر من التجار كمرَبٍّ لأولاده، أو أموت جوعاً تحت سياج. "تقرر المصير فليكن ما يكون" (باللاتينية).

ونَهَض من جديد.

ونَهَضت فر فاراً بتروفنا أيضاً، مشتتلة العينين من الغضب! وصاحت تقول:

- كنت من هذا على يقين! كنت أعلم منذ سنين أنك لا تنتظر إلا اللحظة التي تلتطخني فيها بالعار، أنا وبيتي، بما ستذيعه من افتراءات وتشره من تخرّصات! ما حكاية أن تصبح مريباً أو تموت تحت سياج؟ ليس هذا إلا شرّاً ونية إساءة وعزماً على النيمة!

- لقد احتقرتني دائماً، لكنني سأنهي حياتي كفارس ظل وفيّاً لسيدته. إذ لا شيء كان أغلى عندي من رأيك في يوم من الأيام. منذ هذه اللحظة، لن أقبل منك أية عطية، بل أمجّدك تمجيداً مبرّاً من كل منفعة! - سخف!

- لم تحترميني يوماً. لعلني أنصف بأنواع كثيرة من الضعف. نعم، لقد كنت طفيلياً عليك. إنني أتكلّم الآن لغة المذهب العدمي. ولكن حياة الطفيلي لم تكن المبدأ الأعلى الذي أستمد منه أفعالي في يوم من الأيام. وإنما حدث ذلك عرضاً من تلقاء نفسه، لا أدري كيف... كنت أظن دائماً أن بيننا شيئاً يفوق الشراب والطعام، ولم أكن حقيراً في يوم أبداً... أبداً... والآن، سرّاً ستيفان تروفيموفتش في طريقك لتصلح أخطأك! الوقت متأخر، الخريف قد تقدّم، البرية غارقة في الضباب، قطرات الماء المتجلدة تملأ طريق شيخوختي، وفي زئير الرياح أسمع نداء الموت... ولكن هيّا سر في الدرب... إن سكة جديدة تنفتح أمامي ملأى بحب نقى وفيّة للأحلام⁽¹⁾.

(1) بيتان من الشعر للشاعر بوشكين في قصيدته "الفارس الفقير"

أوه! وداعاً يا أحلامي! يا عشرين عاماً! "تقرر المصير، فليكن ما يكون"
(باللاتينية).

كذلك ختم ستيفان تروفيموفتش كلامه، وابتل وجهه بالدموع.
وتناول قبعته.

قالت فر فارا بتروفا مغالبةً انفعالها:

- لا أفهم اللغة اللاتينية!

من يدري؟ لعلها أرادت هي أيضاً أن تبكي. ولكن الغضب والكبرياء
غلباها مرةً أخرى. قالت:

- لا أعرف إلا شيئاً واحداً، هو أن هذا كله أمور صبيانية منك. لن تكون
في يوم من الأيام قادراً قدرة كافية على تنفيذ تهديداتك الأنانية. لن تمضي
إلى مكان. لن تذهب إلى أي تاجر من التجار، وستظل بين ذراعيّ، مستمراً
على قبض مرتبك وعلى استقبال أصدقائك الذين لا يُطاقون، كلّ ثلاثاء.
أستودعك الله يا ستيفان تروفيموفتش.

- "تقرر المصير، فليكن ما يكون" (باللاتينية).

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك، وحيّاه بانحناء شديدة، وعاد إلى داره
وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

الفصل السادس

بطرس ستيفانوفتش يسعى

1

عُيِّنَ موعد الحفلة نهائياً، ولكن فون لمبكه كان يزداد اكتئاباً وهمماً. إنه يوجس تنبؤات غريبة مشؤومة، فكان ذلك يقلق جوليا ميخائيلوفنا كثيراً. والحق أن الأمور كانت لا تجري على ما يرام على الحاكم القديم، وهو رجل حلیم مفرط في الحلم، قد أدخل في الإدارة شيئاً من الفوضى. ومن جهة أخرى كانت الكوليرا تهدد إقليمنا الذي كانت بعض مناطقه قد اجتاحتها أوبئة ذهب بماشيتها عدا ذلك. وطوال الصيف كله عانت المدينة والأرياف كثيراً من حرائق قالت شائعة سخيفة لكنها شائعة كانت تزداد انتشاراً في الشعب يوماً بعد يوم، أنها من صنع يد مجرمة. وقد تضاعف عدد السرقات في الآونة الأخيرة. وكان ذلك كله يمكن أن لا يُعتبر خطيراً لولا أن هموماً ومشاعل أخرى قد أُضيفت إليه فعكرت هدوء أندره أنطونوفتش الذي حالفه الحظ والتوفيق إلى ذلك الحين.

إن الشيء الذي فجأ جوليا ميخائيلوفنا أكثر من كل ما عدها هو أن زوجها قد ازداد صمته وتكتمه شيئاً بعد شيء. ذلك أمر غريب. هل هناك ما يوجب التكتّم حقاً؟ صحيح أنه لا يناقشها ولا يعارضها إلا نادراً، وأنه في أكثر الأحيان يطيعها طاعة مطلقة. وقد اتخذ فون لمبكه، خضوعاً للإلحاح زوجته، إجراءات أو ثلاثة إجراءات تشتمل على مجازفة وتكاد تكون غير شرعية، بغية تعزيز سلطة الحاكم. ولهذا الغرض نفسه ارتكبت مظالم

صارخة: من ذلك أن أناساً يستحقون أن يُحالوا إلى القضاء وأن يُنفوا إلى سيبيريا قد أعطوا جوائز لا لسبب غير تدخل جوليا ميخائيلوفنا وشفاعتها، ومن ذلك أن شكاوى ومطالب كثيرة قد تقرر أن لا يجاب عنها. هذا كله لم يظهر إلّا فيما بعد. ولم يكن فون لمبكة يوقّع على كل شيء فحسب، بل كان لا يدهشه أيضاً تدخل امرأته في واجبات عمله وشؤون وظيفته. وفي مقابل ذلك كان يتفق له أن يغتاز ويحتد فجأةً لأمر "تافهة"، فكان هذا يدهش جوليا ميخائيلوفنا أشد الدهشة. واضح أنه كان يشعر بالحاجة إلى تدارك أيام الطاعة بدقائق تمرد. غير أن من المؤسف أن جوليا ميخائيلوفنا رغم كل ما تتمتع به من ذكاء لم تستطع أن تدرك هذه الرهافة عند رجل مرهف بطبيعته. لقد كان لها، وأسفاه، هموم أخرى تملأ رأسها! نشأ عن ذلك كثير من سوء التفاهم!

على أن هذه الأمور ليست من شأني، وليس في وسعي أن أجيد الحديث عنها، ولو أردت ذلك. لست أنا من يجب أن يحكم على الأخطاء التي لعلها ارتكبت في الإدارة. فلأدع الشؤون الإدارية إذن في جانب. لقد كان هدفي حين شرعت في سرد هذه الأحداث غير هذا الهدف تماماً. يُضاف إلى ذلك أن التحقيق الذي يُجرى الآن في إقليمنا سيكشف عن وقائع أخرى أيضاً. يكفي أن ننتظر قليلاً. ومع ذلك يستحيل عليّ أن أتجنب بعض الإيضاحات. فها أنا ذا أستمّر في الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا. لقد كان في وسع هذه السيدة المسكينة (إنني أرثي لحالها كثيراً) أن تحصل على كل ما كانت ترغب في الحصول عليه وعلى كل ما كان يجتذبها (من مجيد وغيره) دون أن تلجأ إلى تلك المكائد الغريبة التي عادت إليها منذ خطواتها الأولى عندنا. غير أنها، سواء أكان ذلك راجعاً إلى فرط خيالها أم كان راجعاً إلى ما لقيت في شبابها من خيبة الآمال، ما إن ابتسم لها الحظ حتى اعتقدت أنها مدعوة إلى تحقيق أمور عظيمة، وحتى شعرت أنها هي السيدة "المختارة المصطفاة" بين جميع السيدات. وطبيعي أن أولئك الذين تملقوا أوهاهما - وما أكثرهم! - كانوا ينالون منها كل ما يريدون فإذا المرأة المسكينة التي كانت تظن في نفسها

استقلال الرأي وأصالة الفكر العوبة تتقاذفها شتى المكائد والمؤامرات. إن كثيراً من الناس البارعين قد استطاعوا باستغلال سذاجتها أن يدبّروا أمورهم الصغيرة في أيام حكمها القصير. ولقد كانت أفكار متعارضة أكبر التعارض متناقضة أشد التناقض تضطرب في رأسها فوضى، مصطبغةً بصبغة الحرية. كانت تبدو، في آن واحد، من أشياع الملكية الكبيرة، والمبادئ الأرستقراطية، وتعزيز السلطات الإدارية، والمثل العليا الديموقراطية، والمؤسسات الجديدة، والنظام، وحرية التفكير، والاشتراكية، وشدة التقيد بآداب الصالونات الأرستقراطية وفرط الإهمال العامي الذي يلاحظ في الشباب المحيطين بها. كانت تحلم بتحقيق سعادة الجميع، والمصالحة بين من لا سبيل إلى المصالحة بينهم، أو قل كانت تحلم بأن تجمع الناس كافة على حب شخصها. وكان لها أتىرون تفضّلهم على غيرهم، وكان بطرس ستيفانوس الذي يؤثر فيها ويتسلط عليها بالتملق المفضوح والمصانعة الكاذبة وغير ذلك من أساليب، يحظى بإعجابها كثيراً. ولكنها كانت تحرص عليه لسبب آخر أيضاً، سبب مضحك، يبرز ملامح شخصية هذه المرأة المسكينة: لقد كان يلزمها أمل قوي بأن هذا الشاب سيكشف لها عن مؤامرة هامة ستدبر للدولة. كذلك كانت تتصور مهما بيد لكم هذا غريباً. أنها تتخيل، لا أدري لماذا، أن ثمة مؤامرة لا بد أنها تحاك ضد الدولة في إقليمنا، وكان بطرس ستيفانوفتش يساهم في ترسيخ هذه الفكرة الغريبة في ذهنها، تارةً بصمته المليء بالسر، وتارةً بتلميحات متحفظة متكئة. كانت تتصور أن له علاقات بجميع الثوريين، ولكنه من جهة أخرى مخلص لها إخلاصاً يبلغ حدّ العبادة. فاكشف المؤامرة، وامتنان دوائر بطرسبرج العليا، والمناصب العظيمة التي سيستلمها زوجها، وما سوف تحدثه هي نفسها من تأثير في الشبية لوقفها عند حافة الهاوية، ذلك كله كان راسخ الجذور في رأسها المشوّش المضطرب. فما دامت قد أفلحت في إنقاذ بطرس ستيفانوفتش وإخضاعه (لقد كانت مقتنعة بهذا اقتناعاً مطلقاً)، فلتلحن أيضاً في إنقاذ الآخرين. لن يهلك أحد منهم. لسوف تعرف كيف تعرض الأمور ببطرسبرج

عرضاً من شأنه أن ينقذ الجميع. لن تنقاد إلا للشعور السامي بالعدالة. وعندئذ سيبارك التاريخ اسمها أخيراً، وقد تباركه اللبرالية الروسية نفسها. وتكون المؤامرة مع ذلك قد كُشفت. فلتتحقق جميع الفوائد وتُجنى جميع المنافع في آن واحد.

ولكن ينبغي حتماً، في الحفلة على الأقل، أن يبدي أندره أنطونوفتش وجهاً هادئاً مطمئناً. فلا بد إذن من تهدئته وتسليته. ومن أجل ذلك أسرع ترسل إليه بطرس ستيفانوفتش أَمَلَةً أن يُذهب عنه ما يحسه من إرهاق، وذلك بأن يروي له، على سبيل المثال، أنباء جديدة عن المؤامرة. واعتمدت في هذا على الشاب اعتماداً كاملاً.

كان بطرس ستيفانوفتش قد كفَّ منذ مدة طويلة عن دخول مكتب فون لمبكة. وما هو ذا يدخل الآن على "المريض" وهو في أسوأ حالات اعتكار المزاج.

2

كانت قد وقعت أحداث لم يتوصل السيد فون لمبكه إلى توضيحها لنفسه. من ذلك أن ملازماً ثانياً (في تلك الناحية نفسها التي أقام فيها بطرس ستيفانوفتش حفلةً منذ مدة قصيرة جداً) قد وجَّه إليه رئيسه نوعاً من اللوم بحضور جنود. والملازم شاب صغير نُقل من بطرسبرج إلى هنا منذ فترة وجيزة، وهو صموت عابس متعاطم رغم أنه قصير سمين أحمر الخدَّين. فما كان منه حين لأمه رئيسه إلا أن استشاط غيظاً فهجم على رئيسه خافض الرأس وهو يصرخ صرخةً حادة دُهل لها جميع أفراد الفصيلة، ثم صفع الرئيس وعَضَّه في كتفه عضَّةً بلغت من القوة أنه لم يمكن تخليص كتف الرئيس من بين أسنانه إلا بعد عناء كبير. لقد فقد عقله. فذلك أمر لا سبيل إلى الشك فيه. وكانت قد لوحظت عليه في الآونة الأخيرة أمور شاذة كثيرة في الواقع، من ذلك أنه رمى من بيته أيقونتين تملكهما صاحبة الدار، حتى

لقد هُشِّمَ إحداهما بفأس. ومن ذلك أنه رُتِّبَ على بعض المناضد مؤلفات فوجت ومولشوف وبوشنر⁽¹⁾، فكان في كل مساء يوقد شموعاً أمام هذه الأنواع من مناضد الكنائس التي توضع عليها كتب الصلوات. ولا بد أنه كان رجلاً مثقفاً إذا قضينا في ذلك برأي على أساس عدد الكتب التي وُجِدَت عنده. ولو ملك خمسين ألف فرنك إذن لربما أبحر مسافراً إلى جزر ماركيز، كما فعل ذلك الفتى الذي يحدثنا عنه هرتسن في أحد كتبه بكثير من الفكاهة⁽²⁾. وحين اعتقل عُثِرَ في جيوبه وفي مسكنه على منشورات تدعو إلى التمرد والعصيان والثورة.

الحق أن هذه المنشورات ليس لها في ذاتها شأن، وهي في رأيي لا تستحق أن نتوقف عندها. فما أكثر ما رأينا من منشورات تشبهها! ثم إن المنشورات لم تكن جديدة. فهي نفسها، كما علمنا فيما بعد، كانت قد انتشرت في إقليم س... في الأونة الأخيرة. وقد أكد ليوتين الذي كان قد سافر إلى الإقليم المجاور قبل ذلك بستة أسابيع، أن هذه الوريقات يتناقلها الناس هنالك. غير أن ما فجأ أندره أنطونوفتش خاصة هو أن مدير مصنع شبيجولين كان منذ برهة حمل إلى الشرطة حزميتين أو ثلاث حزم من هذه المنشورات، ضُبِطَت في المصنع وهي مماثلة تماماً للمنشورات التي عثر عليها عند الملازم الثاني. وكانت الحزم ما تزال مربوطة لم تفضَّ، وما من أحد من العمال كان قد اتسع وقته للاطلاع على هذه الوريقات. والأمر ليس خطيراً على وجه الإجمال. غير أن أندره أنطونوفتش غرق في تأملات أليمة: لقد بدت له المسألة معقدة تعقيداً مزعجاً.

(1) هؤلاء هم المثلثون الثلاثة، للمذهب المادي العامي في ذلك الأوان. فكتاب "رسائل فزيولوجية" (فوجت 1895-1817) وكتاب "القوة والمادة" (لودفيج بوشنر 1899-1824) قد ساهما مساهمة كبيرة في نشر المادية والإلحاد في روسيا بين 1860-1870 وسوف يصف انجلز هؤلاء الكتاب بأنهم "باعة مادية رخيصة".

(2) يحدثنا هرتسن في "مذكراته" أنه قد زاره في لندن سنة 1858 فتى كان مسافراً إلى جزر ماركيز وهو يحمل ثلاثين ألف فرنك لينشئ هنالك رابطة اشتراكية. والشاب إنها هو في الواقع سيد اسمه بولس باخثيف سافر فعلاً إلى نيوزيلانده، ولم يعرف أحد ما صار إليه.

ذلك أن مصنع شبيجولين⁽¹⁾ كان منذ برهة قصيرة مسرحاً لما أُسمي "فضيحة شبيجولين" التي أحدثت في إقليمنا ضجة كبيرة، وأثارت صحف العاصمة جلبةً شديدة حولها كذلك. فمئذ ثلاثة أسابيع مات أحد عمال المصنع بالكوليرا، ثم أعقبت وفاته عدة وفيات أخرى. فانتشر الرعب بين الناس لا سيما وأن الكوليرا قد ظهرت في الولايات المجاورة. يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن السلطات كانت قد سارعت إلى اتخاذ الإجراءات الصحية اللازمة. ومع ذلك فإن مصنع آل شبيجولين، وهم أناس أغنياء لهم علاقات كبيرة، لم يكن قد زاره أحد المفتشين. لهذا أسرع الناس في المدينة يصيحون أن المصنع موبوء، وأن الأماكن التي يسكنها العمال خاصةً تسودها منذ سنين قذارة تبلغ من الشدة أن الكوليرا حتى إذا لم تكن قد وفدت من الأقاليم المجاورة فمن الجائز جداً أن تكون قد انطلقت من تلقاء ذاتها من مصنع شبيجولين. وقد اتخذت السلطات طبعاً الإجراءات اللازمة، وأشرف أندره أنطونوفتش بنفسه على تنفيذها فوراً. وتُظف المصنع في غضون ثلاثة أسابيع. ولكن آل شبيجولين لم يلبثوا أن أغلقوه لا ندري لماذا! كان أحد الأخوين شبيجولين يعيش دائماً ببطرسبرج، وسافر الأخ الثاني إلى موسكو فور صدور الأمر بتنظيف المصنع وتطهيره. وقام مدير المصنع بدفع أجور العمال، ولكنه بلغ من قلة الأمانة وكثرة الغش في سداد حقوقهم أن العمال أخذوا يدمدمون متذمرين، مطالبين بأن يحاسبوا حساباً أعدل. وقد ارتكبوا هذه الخرافة: وهي أنهم ذهبوا إلى الشرطة متجمهرين، دون صخب على كل حال، لأنهم لم يكونوا في حالة احتياج. وفي تلك الآونة إنما نقل المدير إلى أندره أنطونوفتش المنشورات التي عُثر عليها في المصنع.

دخل بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة عمل الحاكم دون استئذان، بصفته

(1) هذه القصة مستوحاة من واقعة حدثت فعلاً: وهي الإضراب الذي قام به عمال مصنع النسيج (ستيجلس) في بطرسبرج سنة 1870، إن نحو ثمانمائة عامل قد أعلنوا هنالك الإضراب لأن إدارة المصانع احتجزت جزءاً من أجورهم بينما كانوا يطالبونهم بزيادة الأجور. وقد قدموا عريضة لرئيس الشرطة فزار المصنع، فأحيل ثلاثة وستون عاملاً إلى المحاكمة في شهر حزيران (يونيه). إن هذا "الإضراب الأول" الذي انطلق في روسيا قد أحدث أثراً عميقاً ودوياً كبيراً.

صديقاً للمنزل، ولأن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد حملته عدا ذلك رسالةً إلى زوجها. فلما رأى فون لمبكة صاحبنا الشاب قطب حاجبيه ووقف أمام مكتبه عابس الوجه. إنه حتى تلك اللحظة لم يزد على أن يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، متناقشاً مع سكرتيره فون بلومر وهو ألماني أخرق متجهم، كان فون لمبكة قد أتى به من بطرسبرج رغم ما أبدته جوليا ميخائيلوفنا من معارضة شديدة.

- آ... ها أنا أقع عليك مع ذلك، يارئيس المدينة الذي لا يراه أحد. كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً، وهو يضع يده على منشور مبسوط فوق المائدة. وأضاف يقول:

- هذا سيثري المجموعة التي تملكها، هه؟

احمرّ أندره أنطونوفتش. وتقلّص وجهه فجأة. وصاح يقول وهو يرتجف غضباً:

- اترك! اترك هذا كله فوراً. ولا تحسبن يا سيد...
- ماذا دهاك؟ أرى أنك غاضب، هه؟
- اسمح لي أن ألفت نظرك، يا سيد، أنني بعد الآن لن أتسامح بتاتاً في هذا الذي تبيحه لنفسك من "رفع الكلفة" (بالفرنسية)، وأرجوك أن تتذكر...
- ياسلام! إنه يتكلم جاداً!
- اسكت، اسكت! ولا تحسبن...

كذلك صرخ فون لمبكة وهو يقرع الأرض بقدمه.
لا يدري إلا الله إلى أين كان يمكن أن يمضي هذا! من المؤسف أن هناك، عدا كل ما مرّ ذكره، أمراً كان بطرس ستيفانوفتش يجهله كل الجهل، وكانت تجهله حتى جوليا ميخائيلوفنا. كان أندره أنطونوفتش المسكين قد بلغ من الاضطراب والبلبل أنه في الأونة الأخيرة قد تسرّب إلى نفسه، خفيةً، شيء من الغيرة على امرأته من بطرس ستيفانوفتش. فكان في وحدته، ولا سيما ليلاً، يقضي ساعات شاقة إلى أبعد الحدود.

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من الوقار والرصانة:

- ما كان أغباني حين ظننت أن رجلاً يقرأ لي روايته في خلوة، خلال يومين متتاليين، إلى ما بعد منتصف الليل، ويسألني رأيي، إنما يكون قد تنازل عن "الرسميات" معي!... ثم إن جوليا ميخائيلوفنا تستقبلني كما تستقبل صديق حميم... فكيف تريد مني أن لا أحتار؟

ثم أضاف يقول وهو يضع على المائدة دفترًا كبيرًا ثقیلاً ملفوفاً على شكل أسطوانة، ومغلفاً تغليفاً كاملاً بورق أزرق:

- بالمناسبة، إليك روايتك...

احمرّ وجه فون لمبكة. وسأله متثدًا، يفيض من فرح كان عاجزاً عن كظمه ولكنه حاول كظمه بكل ما أوتي من قوة:

- أين وجدته؟

- تصور!... وجدته ملفوفاً كما هو وقد انزلق وراء منضدة. لا بد أنني حين وصلت إلى البيت قد ألقيته على المنضدة بحركة خرقاء. ولم نجده إلا أمس الأول، أثناء غسل أرض الغرفة. وما أكثر ما شُغلت به...

خفض فون لمبكة عينيه قاسي الهيئة. وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه:

- لم يغمض لي جفن خلال ليلتين بسببك. لقد عثروا عليه أمس الأول، لكنني لم أجثك به، وذلك لأتمكن من قراءته كله. وإذ إنني مشغول في النهار، فقد كنت أقرأ ليلاً. فهل تريد أن تعرف رأيي؟ إنني غير راض عن الفكرة. على أن ذلك لا يهمني، فأنا لم أكن ناقدًا في يوم من الأيام. المهم أنني لم أستطع انتزاع نفسي من الكتاب، رغم استيائي منه!... الفصلين الرابع والخامس هما.. هما.. لا أدري بماذا أصفهما! شيء مدهش... وما أكثر ما دسست فيهما من روح الفكاهة والسخرية... لقد ضحكت ضحكاً مجلجلاً.

ما أبرعك في التهكم، "دون أن يظهر ذلك" (بالفرنسية)!... أمّا الفصلين التاسع والعاشر، فليس فيهما إلا غرام... وهذا لا شأن لي به... غير أن الكتابة مؤثرة... فرسالة أجرييف كادت تبكي، رغم أنك صغتها بأسلوب مرهف غاية الرهافة!... مؤثرة... مؤثرة حقاً! وكأنك مع ذلك قد أردت أن تظهرها

بمظهر الزيف، أليس كذلك؟ أحزرت أم لا؟ أما عن النهاية فلا أملك إلا أن أقول إنك تستحق عليها أن أضربك.

فما الذي تنادي به وتدعو إليه في الواقع؟ إنها لا تزيد على أن تكون ذلك التمجيد القديم للسعادة العامة، وكثرة الأولاد، وسعة الرزق. إنهم يعيشون سعداء ويجمعون أموالاً. سوف تسحر القارئ بهذا الكلام، فأنا نفسي لم أستطع أن أبرأ من التأثير به، ولم أستطع أن أنتزع نفسي من قراءته، فكيف بغيري!... ذلك خطير! إن القراء بسطاء أغبياء. وعلى الأذكاء أن يخرجوهم من حذرهم... أما أنت... ولكن دعنا من هذا الموضوع الآن. إلى اللقاء. أكرر قلبي: لا تغضب. لقد جئت لأقول لك كلمتين قد تهمانك، ولكنك الآن مهتاج حائق...

كان آندره أنطونوفتش، في أثناء ذلك، قد أخذ روايته، ووضعها في مكتبة من خشب السنديان أحكم إغلاقها بالمفتاح، وأشار لسكرتيه بلومر أن يخرج. فترك بلومر الغرفة حزين الهيئة مستطيل الوجه.

قال فون لمبكة مدمماً مظلم الوجه:

- لست حانقاً. غير أن هناك مزعجات تنصبّ عليّ من كل جهة..

ولكن غضبه كان قد هبط. وجلس أمام مكتبه. وأضاف يقول:

- اجلس، وقل لي ما تريد أن تقوله. إنني لم أرك منذ مدة طويلة يا بطرس ستيفانوفتش. ولكن يجب عليك بعد الآن أن لا تدخل إلى هنا بهذه الطريقة... تقتحم الغرفة اقتحاماً وتدخلها كهبوب الريح. حين يكون المرء بسبيل القيام بعمل من الأعمال، فإنه أحياناً...

- هذه آدابي لم تتغير، وليس لي آداب غيرها...

- أعرف. وأنا على يقين من أنك لا تفعل هذا بسوء نية، ولكن حين يكون للمرء هموم كثيرة... اجلس، اجلس.

تهالك بطرس ستيفانوفتش على الديوان، وتربّع فوراً.

- قال بطرس ستيفانوفتش وهو يومئ إلى المنشور بحركة من رأسه:
- ما تلك الهموم؟ ألعلمها هذه السفاسف؟ إنني قادر على أن أحمل إليك من هذه الوريقات ما شئت. وقد اطلعت عليها أيضاً في إقليم س...
- أي أثناء إقامتك في ذلك الإقليم؟
- طبعاً. أأطلع عليها إذن أثناء غيابي؟ هناك منشور رُسمت في أعلاه كرمه وفأس. اسمع لي (وتناول المنشور). نعم، توجد هنا فأس أيضاً. هو ذلك المنشور نفسه، تماماً.
- فماذا؟ لماذا الفأس تخيفك؟
- ليست هي الفأس. ولست خائفاً. ولكن هذه القضية... إن لهذه القضية شأنًا... هناك ظروف...
- ما هي تلك الظروف؟ الآن المناشير قد جيء بها من المصنع؟ هي هي! ولكن هل تعلم أن العمال في هذا المصنع لن يلبثوا أن يكتبوا بأنفسهم منشورات؟
- سأله فون لمبكة وهو يلقي عليه نظرة قاسية:
- كيف هذا؟
- هكذا! ما عليك إلا أن تراقبهم. إنك مسرف في اللين يا آندره أنطونوفتش. أنت تكتب روايات، بينما عليك أن تعتمد إلى الطريقة القديمة.
- ما هي الطريقة القديمة؟ ما هذه النصائح؟ لقد نظفنا المصنع. أمرت بتنظيف المصنع فتمّ تنظيفه.
- والعمال يتحركون ويعصون. يجب جلدتهم بالسوط فينتهي كل شيء.
- يتحركون ويعصون؟ مستحيل: لقد أمرت بتنظيف المصنع فتمّ تنظيفه وتطهيره.
- هيه يا آندره أنطونوفتش. إنك رجل لئِن!
- قال فون لمبكة حائقاً من جديد:
- أولاً لست باللين إلى الحد الذي تصور، وثانياً...

كان فون لمبكة يتحدث إلى الشاب في عناء، مستطلعاً، لعل الشاب أن يقول له شيئاً جديداً.

قاطعها بطرس ستيفانوفتش وهو يصوّب نظره إلى ورقة أخرى تحت كباسة الورق، وهي نوع من منشور أيضاً، كان من الواضح أنه طُبِع في الخارج، لكنه صيغ شعراً لا نثراً.

- ها... هذا منشور آخر مما سبق لي أن اطلعت عليه بل حفظته: "بطل يثير الحمية"⁽¹⁾. أرني قليلاً. أليس هو ذلك المنشور نفسه "بطل يثير الحمية"؟ إنني أعرف هذا المنشور مذ كنت في الخارج. أين عثرت عليه؟
سأله فون لمبكة مصيخاً بسمعه:

- تقول إنك اطلعت عليه في الخارج؟

- طبعاً. منذ أربعة أشهر بل خمسة.

قال فون لمبكة وهو ينظر إليه نظرة مرهقة:

- ما أكثر الأشياء التي رأيتها في الخارج!

لم يُصغ بطرس ستيفانوفتش إلى كلام فون لمبكة، بل فُضَّ الورقة وأخذ ينشد هذه الأبيات بصوت عال:

لم يكن نبيلاً ولا غنياً

بل كان ابناً من أبناء الشعب

طارده انتقام القيصر

واضطهاد أعوانه

لم يخش أن يتعرض للسجن والموت.

ومضى ينادي في الشعب:

حرية، مساواة، أخوة.

(1) "بطل يثير الحمية": معارضة لقصيدة نظمها مهاجر اسمه نيقولا أوجاريوف (صديق هر تسن) وأهداها إلى الشاب نتشايف وطبعت بمدينة جنيف سنة 1870 على ورقة مستقلة وأعاد نتشايف طبعاها في العدد الثاني من جريدة "عدالة الشعب" الصادرة في جنيف أيضاً، وقد وزعت أثناء محاكمة في موسكو.

بذلك هيأ الثورة
ثم فر إلى الخارج
مفلتاً من زنانات القيصر
هارباً من سياط الجلاد
واستعد الشعب للثورة
لتحطيم القيد القاتل
من سمولنسك إلى طشقند
وأخذ ينتظر عودة الطالب، نابضاً بالحماسة.
انتظره نافد الصبر
ليمضي بعد ذلك بغير تردد
يحطم أعوان السلطان
ويدمر الامبراطورية الروسية كلها
فيجعل الرزق مشاعاً
ويلغي إلى الأبد
الكنائس والزواج
وسائر هذه الشرور المعطلة.

سأل بطرس ستيفانوفتش:

- لا شك أنهم وقعوا على هذا عند الضابط، هه؟
- غريب! أتعرف أيضاً ذلك الضابط؟
- أظن. لقد قصصنا ولهونا معاً خلال يومين. كان نصف مجنون منذ ذلك
الحين.

- من يدري؟ قد لا يكون مجنوناً البتة!
- أتقول هذا لأنه يعضُّ الناس؟
- ولكن اسمح لي: إذا كنت قد رأيت أبيات الشعر هذه في الخارج، ثم إذا
بنا نكتشفها هنا عند ذلك الضابط...
- ماذا؟ ماذا تريد أن تقول؟ أهذا استجواب يا أندره انطونوفتش؟

وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه قائلاً بلهجة وقورة فجأة:

- اسمع يا أندره أنطونوفتش: إنني منذ عودتي من الخارج قد قدّمت إيضاحاتي إلى من يجب تقديمها إليه، وقد عدّدت تلك الإيضاحات كافية بطبيعة الحال، ما دامت هذه المدينة قد سعدت بأن تعدّني بين سكانها. فأنا أرى إذن أن تلك الفترة من حياتي قد ختمت، وأن أحداً لا يملك أن يحاسبني بعد اليوم. وأنا كنت قد أنهيت ذلك كله، فلأنني لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك. ولكنني لست خائناً. إن الذين زوّدوني برسائل تزكية إلى جوليا ميخائيلوفنا يعرفون ماضيّ وقد شهدوا لي بأنني رجل شريف. على كل حال، فليذهب هذا كله إلى الشيطان! فأنا إنما جئت لأحدثك في أمر عام، ولقد أحسنت صنعاً إذ صرفت صاحبك بلومر. هو أمر على جانب كبير من الخطورة عندي يا أندره أنطونوفتش: لي مطلب عندك، ورجاء لديك.

- مطلب عندي، ورجاء إليّ؟ تكلم. إنني أصغي إليك، بل ثق أنني أصغي إليك باهتمام. وعلى وجه العموم، يجب أن أقول لك يا بطرس ستيفانوفتش إنك تدهشني كثيراً.

ظهر على فون لمبكه شيء من الانفعال. واعتدل بطرس ستيفانوفتش في جلسته، مدلياً ساقيه من تحته، وبدأ يتكلم فقال:

- في بطرسبرج تكلمت بصراحة عن أشياء كثيرة. لكنني كتبت بعض الأمور. ومن الأمور التي كتبتها هذه القصيدة (قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى قصيدة "البطل"). كتبت أمر هذه القصيدة أولاً لأنها لا تستحق الاهتمام بها والكلام عليها، وثانياً لأنني اكتفيت بالإجابة عن الأسئلة التي ألقيت عليّ. إنني أكره فرط إظهار التحمس في مثل هذه الحالة: وذلك هو في رأيي الفرق بين الخائن وبين الإنسان الشريف الذي تجبره الظروف. على كل حال، دعنا من هذا... المهم أنني الآن... الآن وقد افترض أمر هؤلاء الأغبياء، وأصبح كل شيء واضحاً، وصاروا بين يديك، وبتُّ أرى أنه لا يمكن إخفاء أمر من الأمور عنك - لأنك رجل ذكي نافذ البصيرة رغم ما يبدو عليك من ذهول - وما داموا مستمرين في.. فإنني.. فإنني.. الخلاصة... إنني جئت لأتوسل

إليك أن تنقذ واحداً منهم... غيباً مثلهم... وربما كان مجنوناً.. أن تنقذه
رحمةً بشبابه الغض، ورأفة بما لقي من صنوف الشقاء، واستلهامه لأفكارك
الإنسانية... إنني أمل أن لا تكون إنسانياً في رواياتك فحسب...

بهذه الجملة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه بلهجة أصبحت ساخرة على
حين فجأة، وكأنه يتعجل الانتهاء من حديثه لفرط نفاد صبره.

كانت هيئته هيئة إنسان صادق لكنه أخرج محروم من الحس العملي، إنسان
طيب مسرف في الطيبة، مرهف مسرف في الرهافة، إنسان يمكن أن يوصف
خاصةً بأنه غير ذكي، كما أسرع فون لمبة يقول لنفسه ذلك بما عهد فيه من
نفاد البصر وسداد الرأي، وكما سبق له أن قدّر هذا منذ مدة طويلة ولا سيما في
الأسبوع الأخير، حين خلا إلى نفسه في الليل فأخذ يكيل للشباب أنواع الشتائم
متحيراً من ذلك النجاح الذي أصابه الشاب مع زوجته جوليا ميخائيلوفنا.

سأله بفخامة وهو يحاول إخفاء استطلاعه:

- من الذي تشفع له، وما معنى هذا كله؟

- هو... هو... أو! أهى خطيئتي إذا كنت أثق بك؟ أهى خطيئتي إذا كنت
أعدك إنساناً نبيلاً أكمل النبل، وإذا كنت أعدك على وجه الخصوص ذكياً...
قادراً... قادراً على أن.. تفهم! أوه!

كان واضحاً أن الشاب المسكين مرتبك لا يعرف كيف يخرج من المأزق
الذي تورط فيه!

- إنني إذا سميته لك فقد فضحته وختته، أليس كذلك؟ هه؟

- ولكن كيف يمكنني أن أعرفه إذا لم تذكر لي اسمه؟

- صحيح، صحيح. إنك بمنطقتك تفهم كل مجادل، وترد دائماً على كل
سؤال. هوه! طيب... إن ذلك "البطل"، ذلك "الطالب" هو شاتوف. ها قد
عرفت الآن كل شيء!

- شاتوف؟ ماذا تقصد؟

- إن الطالب الذي جاءت القصيدة على ذكره هو شاتوف. إنه يقيم هنا. إنه
قن قديم. هو ذلك الذي صفع ستافروجين.

قال لمبكة:

- أعرف، أعرف. ولكن اسمع لي: ما تهمة، وما هو رجاؤك بشأنه؟
- أريد إنقاذه، ألا تفهم؟ إنني أعرفه منذ ثمانين سنين.. ولعلني كنت صديقه!

ثم أضاف: - ليس عليّ أن أقدم إليك تقريراً عن حياتي الماضية. كل ذلك لا قيمة له، ولا شأن له ولا خطر. كانوا ثلاثة لا أكثر. وإذا حسبت شركاءهم في الخارج لم يتجاوز عددهم العشرة. ليس الأمر هذا. وإنما المهم أنني أثق بعواطفك الطيبة، وأثق بذكائك المتوقع. فافهم الموقف كما هو، وانقله إلى من ينبغي نقله إليه على حقيقته، ولا تخلق منه قصة ضخمة، ذلك أن الأمر كله لا يعدو أن يكون حلم فتى فاقد صوابه... فتى شقي لاحقاً سوء الحظ، وحالفه الشقاء. ليست القضية قضية مؤامرة على أمن الدولة...
كان بطرس ستيفانوفتش كمن يختنق.

قال فون لمبكة بلهجة يكاد يكون فيها فخامة وجلال:

- هم... أرى أن له علاقة بقضية المنشورات التحريضية! ولكن اسمح لي: لو كان يعمل وحيداً لما استطاع أن ينشرها هنا، وفي الضواحي وحتى في إقليم س...!... ثم، وهذا هو الأمر الأساسي، من أين أخذ هذه المنشورات؟
- أحقاً لا تعرف؟

- كيف يمكنني أن أعرف؟

- أنت تعرف مع ذلك أن شاتوف واحد من أفراد العصابة.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يُجري بيده حركة تعبر عن نفاد الصبر كأنه يحاول الإفلات مما يتصف به محدثه من براعة وذكاء:

- هو! طيب... اسمع... سأقول لك الحقيقة كلها. إنني لا أعرف شيئاً عن المناشير التحريضية، لا أعرف شيئاً البتة... شيطان يأخذني... هل تفهم معنى هذه الجملة: لا أعرف شيئاً البتة؟ طبعاً... هناك ذلك الملازم الثاني، وربما كان هناك شخص آخر... ثم شخص ثالث هنا... وهناك أخيراً

شاتوف، ربما... وذلك كله غبار... ذلك كله عدم... لكنني جئت متشفعاً لشاتوف. يجب إنقاذه. لأن تلك الأشعار هو التي نظمها، وبعنايته إنما طُبعت في الخارج. ذلك ما أنا موقن منه واثق به. أما المنشورات التحريضية، فإنني أجهل كل شيء عنها.

- إذا كانت الأشعار له، فالمنشورات له أيضاً. ولكن ما هي الأسباب التي تدعو إلى الاشتباه في السيد شاتوف؟

ما إن سمع بطرس ستيفانوفتش هذا السؤال حتى ظهر عليه ما يظهر على المرء من فقدان الصبر فقداناً كاملاً، ثم إذا هو يخرج محفظة أوراقه من جيبه، ويخرج من المحفظة ورقة مكتوبة، ويصرخ قائلاً وهو يرمي الورقة على المائدة:

- إليك الأسباب!

فَضَّ فون لمبكة الورقة المكتوبة منذ ستة أشهر، والمرسلة إلى الخارج، فلم تكن تضم إلا سطرين:

"لا أستطيع أن أطبع هنا لا قصيدة "البطل" ولا أي شيء آخر فاطبعوا في الخارج."

رفع فون لمبكة عينيه إلى بطرس ستيفانوفتش وحدَّق إليه بنظرة ثابتة. صَدَقَتْ فر فارا بتروفا: ان أندره أنطونوفتش له في بعض الأحيان نظرة كنظرة خروف.

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال:

- سأشرح لك. لقد نظم هذه الأبيات هنا منذ ستة أشهر، ولكنه لم يستطع أن يطبعها سراً. فأرسل يطلب طبعها في الخارج. هذا واضح، هه؟
- كل الموضوع. ولكن إلى من كتب رسالته القصيرة هذه؟ ذلك غير واضح بعد.

كذلك سأل فون لمبكة بملاحظة مرهفة. فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

- إلى كيريلوف طبعاً. الرسالة بُعثت إلى كيريلوف، في الخارج. ألم تكن تعلم ذلك؟ المزعج في حقيقة الأمر أنك تعبت بي الآن عبثاً. فأنت مطلع

على هذه القصيدة منذ مدة، وأنت عارف إذن بسائر الأمور الأخرى. ماذا جاء بها هنا إلى مكتبك؟ لقد استطعت إذن أن تضع يدك عليها. فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تعذبني هذا التعذيب؟

قال ذلك وجعل يجفف بمنديله عرق جبينه بحركة عصبية.
فقال له فون لمبكة موافقاً، متحاشياً أن يجيب عن السؤال الذي ألغاه عليه بطرس ستيفانوفتش:

- فعلاً... أعرف بعض الأشياء... ولكن من هو كيريلوف هذا؟
- هو ذلك المهندس الذي وصل إلى هنا في الآونة الأخيرة، وكان شاهد ستافروجين في المبارزة. شخص مهووس، مجنون! لعل صاحبك الملازم الثاني إنما أصابته نوبة حمى حارة لا أكثر، أما الآخر، كيريلوف، فهو مجنون حقاً، مجنون تماماً. ذلك أمر أضمنه لك. آه يا أندره أنطونوفتش، لو عرفت الحكومة ما هؤلاء الناس في الواقع لما رفعت يدها عليهم. إنهم جميعاً مؤهلون لدخول دار المجانين. لقد استطعت، في سويسرا، أثناء انعقاد مؤتمرهم أن ألاحظهم على مهل.
- هل هناك يختبئ قادة الحركة؟

- قادة الحركة؟ ثلاثة أشخاص في أكثر تقدير. منظر يهلك المرء منه ضجراً وسأماً. وما هذه الحركة؟ وما تلك المناشير التحريضية؟ ومن الشركاء؟
لنتكلم عنهم! ملازمون أولون، وطلاب! إنني أسألك وأنت رجل ذكي كيف لم يستطيعوا أن يضموا ولو شخصية هامة واحدة؟ لماذا يضطرون دائماً إلى الاكتفاء بطلاب وفتيان في العشرين من أعمارهم؟ ثم هل هم كثيرون؟ لقد أرسلوا في ملاحظتهم ألوف الكلاب، فما عدد الذين تم اكتشافهم؟ سبعة أشخاص فقط! قلت لك: منظر يهلك الإنسان منه ضجراً وسأماً!
كان لمبكة يصغي إليه بانتباه. ولكن هيئته كانت كأنها تقول:
"لا يمكنك أن تغذي بلبلاً بأفاصيص"⁽¹⁾.

(1) مثل روسي معناه: كفى كلاماً ولنتنقل إلى العمل.

قال آندره أنطونوفتش:

- اسمح لي: إنك تزعم أن الرسالة قد بُعثت إلى الخارج. ولكنني أرى أنها لا تحمل أي اسم. فكيف أمكنك أن تعرف أنها أرسلت إلى كيريلوف في الخارج، و... و... أن شاتوف هو كاتبها فعلاً؟

- الأمر سهل. احصل على بضعة أسطر من شاتوف، وقارن بين ذلك الخط وخط هذه الرسالة. لا بد أن مكاتبك تضم توقيع شاتوف في ذيل ورقة ما. أمّا سؤالك عن كيريلوف، فإن كيريلوف هو الذي أطلعني على الرسالة بنفسه.

- وإذن فأنت نفسك...

- نعم، أنا نفسي، أنا نفسي... كنت أطلع على أشياء كثيرة في الخارج. أمّا تلك الأشعار، فظهر أن المرحوم هرتسن⁽¹⁾ هو الذي نظمها لشاتوف، بينما كان شاتوف يطوف في الخارج، نظمها ذكرى للقائهما، أو تكريماً لشاتوف، أو نوعاً من التزكية له والتوصية به... أين لي أن أعرف! على كل حال، فإن شاتوف هو الذي نشرها في الناس كأنما ليقول: "انظروا إلى رأي هرتسن في".

قال لمبكه وقد تخيل أخيراً أنه أخذ يرى الأمر رؤية واضحة:

- هاه! قلت لنفسني: المناشير، يفهم المرء أمرها... ولكن هذه الأشعار، مامعناها؟

- كيف يمكن أن لا تدرك هذا؟ لا أدري لماذا ثرثرت هذه الثرثرة كلها. اسمع. اترك لي شاتوف، وليأخذ الشيطان سائر الآخرين، ومنهم كيريلوف الذي يختبئ عند فيليوف حيث يختبئ شاتوف أيضاً. إنهم غاضبون عليّ، لأنني رجعت... ولكن اترك لي شاتوف، وسأقدمهم إليك جميعاً على طبق واحد. إن في وسعي أن أفيدك يا آندره أنطونوفتش. رأيي أن عصبتهم التعيسة الصغيرة لا يزيد عددها على تسعة أفراد أو عشرة. إنني أطاردهم لمصلحتي

(1) المرحوم هرتسن: معروف أن ألكسندر هرتسن قد مات بباريس في 21 كانون الثاني (يناير) 1870.

الشخصية. نحن نعرف منهم حتى الآن ثلاثة: شاتوف، وكيريلوف، وذلك الملازم الثاني. أمّا الباقيون فإنني "أفحصهم" من قرب. ولست حسير البصر تماماً. الأمر كما في اقليم س... لقد قبضوا هنالك أثناء توزيع المناشير على طالبين، وتلميذ في مدرسة ثانوية، وولدين لأسرة من الأسر، ومعلم مدرسة، وميجر محال على التقاعد كان الإدمان على السكر قد أصابه بخبال في عقله. ذلك كل شيء. صدّقني. حتى لقد دُهِشوا هنالك كثيراً. ولكنني أحْتَاج إلى ستة أيام. لقد أجريت حساباتي، فانتهيت إلى أنني محتاج إلى ستة أيام، لا تقل يوماً واحداً. فإذا أردت أن تحصل على نتيجة فلا تفعل شيئاً قبل ستة أيام، ولسوف أُسَلِّمك إياهم في كيس واحد. أما إذا تدخلت قبل ذلك، طارت العصافير فوجدت العش خالياً. ولكن اترك لي شاتوف. أنا أَدافع عن شاتوف. ولعل الأفضل أن يُستدعى إلى هنا سرّاً فيُستقبل في هذه الحجرة كما يُستقبل صديق، ويستجوب ببراعة وحذق، فترفع أمام عينيه جميع الحجب، فإذا هو يهودي على قدميك باكباً. أنا من هذا على يقين. إنه رجل عصبي، بائس. امرأته تلهو مع ستافروجين. استقبله استقبلاً حسناً. أكرم وفادته، فيكشف لك عن كل شيء... ولكن يجب عليك أن تنتظر ستة أيام. وإياك خاصة أن تقول كلمة واحدة لجوليا ميخائيلوفنا. التزم الكتمان الكامل. احفظ السر حفظاً تاماً. أنتستطيع أن تكتُم سرّاً؟

- ماذا؟ ألم تقل أنت شيئاً لجوليا ميخائيلوفنا؟

كذلك صاح لمبكة متعجباً محملاً. فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

- لها هي؟ وقاني الله شرّاً هذا! آه يا أندره أنطونوفتش! إنني أحرص كثيراً على صداقتها وأضمر لها احتراماً عظيماً... وما شئت... ولكنني سأعرف دائماً كيف أصون نفسي من ارتكاب هذه الغلطة. إنني لا أعارضها، وأنت نفسك تعلم أن معارضتها خطر كبير. لعلي قد دسست في حديثي لها إشارة ما، لأنها تحب ذلك كثيراً. أمّا أن أسمّي لها أشخاصاً بأعينهم، كما أفعل معك أنت، أو أن أنقاد لشيء من هذا القبيل، فاللهم لا!... لماذا أتجه إليك أنت الآن؟ لأنك رجل رغم كل شيء، رجل جاد يملك خبرة واسعة أكسبته

إياها المهنة. إنك قد رأيت في حياتك كثيراً وأحسب أنك في هذه الأنواع من الأمور تستطيع أن تتنبأ بكل خطوة من خطواتك على غرار الأمثلة التي وقعت تحت بصرك في بطرسبرج. أمّا إذا ذكرت هذين الاسمين لها هي، أسرعت تزيعهما في كل مكان قبل كل شيء! ذلك أنها من هنا إنما تريد أن تثير دهشة بطرسبرج. لا، لا، إنها مسرفة في الانقياد لحرارة الحماسة! دمدم أندره أنطونوفتش يقول بشيء من الرضى، على استيائه من أن يتجرأ هذا الشاب الطائش فيقول مثل هذا الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا:

- نعم، إنها تتصف بشيء من هذا الاندفاع العام...

ولكن لعل بطرس ستيفانوفتش قد أحسّ أنه لم يقل ما فيه الكفاية فأراد أن يزيد في تملق لمبكة ليستولي عليه استيلاء أكمل، فقال:

- نعم، تماماً، إنها تتصف بكثير من هذا الاندفاع العام. قد تكون امرأة عبقرية، وامرأة مثقفة، لكنها إذا تدخلت في الأمر أطارت العصافير من عشها. لن تستطيع أن تصمد لإغراء الكلام ستة أيام ولا ست ساعات. آ... يا أندره أنطونوفتش، لا تطلب من امرأة من النساء أن تنتظر ستة أيام. أمل أن تعترف بأن لي شيئاً من الخبرة، في مثل هذه الأمور على الأقل. إنني أعرف بعض الأشياء، وأنت لا تجهل أنني قادر على أن أعرف بعض الأشياء. وإذا كنت أستهلك ستة أيام، فليس ذلك نزوة مني، بل إجراء يقتضيه الموقف وتحجبه الظروف.

بدأ فون لمبكة يتكلم فقال بغير تردد:

- سمعت أنك حين عدت من الخارج قد أعربت لمن يجب أن تعرب له عن ذلك، أقول أعربت له عن... ندمك وتوبتك إن صح التعبير.

- ما شأن التصريحات التي أدليت بها حينذاك؟

- أنا لا أحب التدخل طبعاً. ولكن كان يبدو لي دائماً أنك تتكلم هنا بلهجة أخرى مختلفة كل الاختلاف، عن الدين مثلاً، وعن المؤسسات الاجتماعية، وعن الحكومة أخيراً...

- أي ضير في هذا؟ إنني ما زلت أفكر هذا التفكير نفسه. غير أن هذه الآراء

يجب تطبيقها على غير النحو الذي يتصوره أصحابنا الأغبياء هؤلاء. تلك هي المسألة كلها. ما قيمة أن أعرض رجلاً في كتفه؟ أنت نفسك قد وافقتني على آرائي، ولكنك قلت إن الألوان لم يثن بعد.

- كان الموضوع عندئذ غير هذا تماماً.

قال بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً:

- هي هي!... أرى أنك رجل حذر متروّ يزن كل كلمة من كلماته. اسمع يا عزيزي. لقد كان عليّ أن أعرفك معرفة أدق وأكمل، ومن أجل ذلك كنت أكلّمك بتلك اللهجة. ولست الإنسان الوحيد الذي تعلمت كيف أعرفه بهذه الطريقة. لعلني أردت أن أعرف طبعك!

- ما حاجتك إلى معرفة طبعي؟

- أين لي أن أعرف!!...!

وعاد بطرس ستيفانوفتش يضحك. واستطرد يقول:

- اسمع يا عزيزي المحترم جداً آندره أنطونوفتش. إنك رجل ماكر، ولكن ليس هذا موضوع اهتمامي بعد، وقد لا أصل إليه يوماً. هل تفهم؟ لعلك قد فهمت! صحيح أنني حين عدت إلى بطرسبرج قدمت معلومات وإيضاحات إلى الجهة التي يجب أن تُقدّم إليها تلك المعلومات والإيضاحات. ولست أدري حقاً لماذا لا يجوز لإنسان له اقتناعات صادقة أن يفعل ما فعلت، خدمة لاقتناعاته هذه. ومع ذلك فما من أحد "هناك" قد كلفني بأن أدرس طبعك، وأنا على وجه العموم لم أكلف نفسي حتى الآن بمهام من هذا النوع. انظر في الأمر بنفسك: إن هذين الاسمين اللذين كشفت لك عنهما، كان في وسعي أن لا أذكرهما لك أنت أولاً، وإنما أبعث بهما إلى "هناك" رأساً، أي إلى الجهة التي قدمت إليها المعلومات والإيضاحات الأولى. ولو كنت أسعى إلى نيل مكافأة أو جني نفع مادي لعمدت إلى ذلك حتماً، أمّا الآن فإن بطرسبرج ستوجه شكرها وامتنانها إليك أنت. ولكنني إنما أتدخل من أجل شاتوف (كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بنبل)، من أجله وحده، وفاء

لذكرى صداقتنا القديمة... على أنك إذا أمسكت بالقلم لتكتب إلى "هناك" فلك أن تكيل لي المديح إن شئت، فلا اعتراض لي على هذا. هئ هئ!... أستودعك الله! لقد استهلكك من وقتك مدة طويلة. ما كان ينبغي لي أن أثرثر هذه الثرثرة كلها...

بذلك ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه وهو يتسم ابتسامة رضى، وينهض عن الكنبه. فأجابه فون لمبكه بمودة، ناهضاً هو أيضاً:
- بالعكس. لقد سَرَّني كثيراً أن الأمور اتضحت.

كان واضحاً أن الكلمات الأخيرة التي قالها محدّثه قد أحدثت في نفسه أثراً حسناً. وأردف يقول:

- إنني أقبل خدماتك شاكراً ممتناً. وثق أن كل ما يقع على عاتقي من إشارة إلى همتك ونشاطك وحماسك سوف...

- ستة أيام فقط. أمهلني ستة أيام. وحذار أن تتحرك في أثناء هذه المدة. ذلك كل ما يجب.

- حسن جداً.

- إنني لا أكْبَلُ يديك طبعاً، وما كان لي أن أسمح لنفسي بهذا. إنك لا تستطيع العدول عن القيام بما تقوم به من بحث وتقصي. ولكن كل ما أطلبه منك هو أن لا تروّعهم قبل الموعد المناسب. إنني أعتد في هذا على ذكائك وخبرتك. آه... لا بد أن عندك كلاباً من كل نوع! هئ هئ!...

هكذا أنهى بطرس ستيفانوفتش كلامه بمرح ظاهر ولهجة هي لهجة شاب قليل المبالاة. فأجابه فون لمبكه متحفظاً ولكن على لطف ومودة:

- ليس الأمر كذلك تماماً. إن للشيبه آراء مغالية في هذا الموضوع... ولكن بالمناسبة، هناك أمر آخر: إذا كان ستافروجين قد استعان بكيريلوف شاهداً في المباراة، فمعنى ذلك أن ستافروجين، هو أيضاً...
- ماذا؟

- صديقين حميمين؟

- أوه! لا، لا، لا! هنا ترتكب خطأ جسيماً، رغم كل ما تتصف به من حذق

ومكر، بل إنك لتدهشني. كنت أظن أنك مطلع على مايتعلق بهذا الأمر...
هم... إن ستافروجين هو النقيض، تماماً.
قال لمبكة غير مصدق:

- أهذا ممكن؟ أهذا ممكن؟ لقد قالت لي جوليا ميخائيلوفنا إن المعلومات
التي وصلت إليها من بطرسبرج تفيد أن ستافروجين قد يكون مكلفاً بنوع من
مهمة...

- لا أعرف شيئاً! لا أعرف شيئاً البتة! لا أعرف شيئاً على الإطلاق!
أستودعك الله!

كذلك قطع بطرس ستيفانوفتش الحديث على حين فجأة، رغباً رغبةً
واضحة في الاكتفاء بهذا الحد. وركض نحو الباب.
فصرخ الحاكم يناديه قائلاً:

- لحظة يا بطرس ستيفانوفتش، لحظة أخرى! هناك مسألة صغيرة، ثم
أدعك تنصرف.

فتح فون لمبكة درجاً، وأخرج منه ظرفاً. ومدَّ الظرف إلى بطرس
ستيفانوفتش قائلاً له:

- إليك عيّنة من هذا النوع نفسه. إنني إذ أطلعك على ذلك أبرهن لك على
ثقتي بك. خذ. قل لي رأيك.

كان الظرف يضم رسالة، غريبة جداً، غير مذيلة بتوقيع، موجهة إلى فون
لمبكة الذي استلمها أمس.

فقرأ بطرس ستيفانوفتش الأسطر التالية ممتعضاً أشد الامتعاض:
"صاحب المعالي،

"مادام هذا لقبك. أنهي إلى علمك في رسالتي هذه أنه يتهيأ الآن تأمر
على حياة شخصيات كبيرة وعلى الوطن. كل شيء يتجه إلى هذه الغاية.
أنا نفسي وزعت منشورات تحرّض على الثورة خلال سنين، وتحض
على الزندقة. هناك فتنة تُحضّر. ألوف المنشورات التحريضية يكفي كل
واحد منها لإثارة مئات من الأفراد الذين سيركضون لاهئين إذا لم تتدخل

السلطات سلفاً. ذلك أن هناك مكافآت ضخمة موعوداً بها. والشعب غبي. وهناك الخمرة أيضاً. ولخوفي من هؤلاء وأولئك على السواء، فإنني نادماً على أخطاء لست مسؤولاً عنها في الواقع، لأن الذنب ذنب الظروف. فإذا كنت تريد أن أشي لك بالأمر حفاظاً على الوطن، وعلى الكنائس والأيقونات أيضاً، فإنني الشخص الوحيد القادر على ذلك بشرط أن ترسل إليّ الشعبة الثالثة⁽¹⁾ برقية سريعة تبلغني فيها العفو عني، ولكن عني وحدي. أمّا الآخرون فيجب أن يحالوا إلى المحاكم. فإذا كنت موافقاً على هذا فلتكن الإشارة المتفق عليها بيننا هي التالية: ضع في الساعة السابعة من كل مساء شمعة مشتعلة على نافذة البواب. فمتى اطمأنت نفسي لرؤيتها جئت أقبل اليد الرحيمة التي ستمدها إليّ بطرسبرج. ولكن على شرط أن يُخصّص لي راتب، وإلا فكيف أعيش؟ ولن تندم على هذا، لأنك ستنال وساماً. ولكن عليك بالصمت وإلا دقوا عنقي! إنني أرتمى على قدمي معاليك.

"الزنديق اليائس التائب: مجهول"

وذكر فون لمبكة أن الرسالة وُجدت في شرفة البواب، وكانت قد وضعت فيها أثناء غيابه.

فقال بطرس ستيفانوفتش يسأله بغلظة:

- فما رأيك؟

- يخيل إليّ أن كاتب الرسالة رجل أراد أن يسخر مني.

- قد يكون الأمر كذلك. أنت رجل لا تُخدع!

- ومما يقوى ظني هذا أن في الأمر غباء شديداً بالفعل.

- هل سبق أن تلقيت رسائل من هذا النوع؟

- واحدة أو اثنتين، بدون اسم المرسل أيضاً.

- طبعاً. لا يذكر المرسل اسمه. وهل الأسلوب والخط واحدان في هذه

الرسائل جميعاً!

(1) "الشعبة الثالثة" من مكاتب الامبراطور هي الدائرة التي تهتم بالشؤون السياسية وتلاحق الثوريين.

- لا . إنها تختلف أسلوباً وخطاً .

- وهل هي سخيقة كهذه؟

- نعم، سخيقة... وحقيرة.

- إذا كانت من نوع واحد، فمن الجائز أن تكون الأخيرة صادرة عن نفس

المصدر.

- لا سيما وأن فيها غباءً مفراطاً. أولئك رجال أذكىء لا يمكن أن يكتبوا

ترهات كهذه حتماً.

- طبعاً.

- ولكن ماذا لو كان الأمر أمر وشاية فعلاً؟

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة خشنة:

- هذا بعيد عن الاحتمال. وإلا فما تلك البرقية المطلوبة من الشعبة

الثالثة؟ وما ذلك الراتب؟ واضح أن الأمر تهريج!...

قال لمبكة وهو يشعر بالخجل من هذه الشبهات التي راودته:

- إنك على حق.

- اسمع. أعطني الرسالة فأكتشف لك كاتبها حتى قبل أن أسلمك

الآخرين.

قال فون لمبكة موافقاً بشيء من تردد:

- خذها.

- هل أطلعت عليها أحداً؟

- لا، لا، إطلاقاً!

- أقصد هل أطلعت عليها جوليا ميخائيلوفنا؟

- وقاني الله شر هذا! ثم إنني أستحلفك أن لا تطلع عليها أحداً.

كذلك صاح الحاكم يقول مرتاعاً. وأردف:

- لو أطلعتها عليها لاضطربت اضطراباً شديداً، ولغضبت مني غضباً

رهيباً...

- نعم، لو اطلعت عليها لآخذتك أنت أولاً، ولقالت إن الذنب ذنبك حين يتجرأ أحد فيسمح لنفسه أن يكتب إليك بهذه الطريقة. منطق النساء معروف. طيب. أستودعك الله. قد أعلمك اسم كاتب هذه الرسالة في غضون ثلاثة أيام. تذكر ما اتفقنا عليه.

4

قد لا يكون بطرس ستيفانوفتش غيباً أحمقاً، ولكن صدق السجين فدكا حين قال عنه "إنه يرى الناس في الصورة التي يرسمها عنهم خياله، ومع هؤلاء الناس إنما يعيش".

ولقد ترك الآن فون لمبكة وهو مقتنع اقتناعاً جازماً بأن فون لمبكة قد هدأ ستة أيام على الأقل، وهي المهلة التي كان في حاجة إليها. والحق أن هذه الفكرة خطأ، ولا تقوم إلا على الصورة التي رسمها خيال الشاب عن أندره أنطونوفتش والتي تصوّره أنه رجل أهبل.

الواقع أن أندره أنطونوفتش، كسائر الرجال الوجليين الريّابين قد امتلأ في أول الأمر ثقةً بهذا الذي أخرجه من الشك، وفرح فرحاً كبيراً، وبدأ له الموقف، بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش، في صورة مُطمئنة رغم التعقيدات والمتاعب التي قد تنشأ عنه لاحقاً. مهما يكن من أمر، فقد تبدّد ما كان يراوده من شكوك وما كان يساوره من أنواع القلق والتردد. وإلى الراحة إنما كانت تتوق نفسه خاصةً، لأنه يشعر منذ بضعة أيام بأنه متعب مرهق منهك القوى. ولكن طمأنينته لم تطل وأأسفاه! إن إقامته الطويلة ببطرسبرج قد تركت في نفسه آثاراً لا تمحى. لقد كان يعرف التاريخ الرسمي بل والسري "للجيل الجديد"، لأنه كان رجلاً طُلعةً، وكان يجمع المناشير التحريضية غير أنه لم يفهم منها شيئاً في يوم من الأيام. وهو يحس الآن أنه ضائع تماماً. إن غريزته توحى إليه أن إيضاحات بطرس ستيفانوفتش تشتمل على شيء بعيد عن الاحتمال، شيء مناقض لجميع الأشكال والأعراف. وكان يحدث نفسه قائلاً في حيرة وارتباك: "مع ذلك فإن الشيطان وحده

يعرف ما يمكن أن يحدث في هذا "الجيل الجديد"، والشيطان وحده يعرف كيف تجري الأمور!".

وإنه لغارق في هذه التأملات والأحلام إذ أطل عليه رأس بلومر من ثقب الباب. إن بلومر لم يترك الغرفة المجاورة طوال مدة زيارة بطرس ستيفانوفتش. يجب أن نذكر أن بلومر هذا يمت بقرابة إلى أندره أنطونوفتش، قرابة بعيدة طبعاً حرص فون لمبكة طوال حياته على أن يكتم أمرها ويسكت عنها وجلاً. وإني لأستميح القارئ عذراً إذا أنا قلت كلمات عن هذه الشخصية التافهة. إن بلومر واحد من تلك الفئة الغريبة من الألمان "العائري الحظ"، لا بسبب عجزه الخارق، بل بدون سبب ظاهر على وجه الإجمال.

إن الألمان "العائري الحظ" ليسوا خرافة: إنهم يوجدون فعلاً حتى في روسيا، ويؤلفون جنساً على حدة. ولقد عطف فون لمبكة دائماً على بلومر عطفاً كبيراً، وكان يشد أزره ويدعمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً أثناء ارتقائه على سلم المجتمع، محاولاً أن يجد له وظيفة صغيرة في مكتب من مكاتبه. ولكن بلومر كان قليل الحظ. فتارةً تلغى وظيفته فجأة، وتارةً يتغير رؤساؤه، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يُحال إلى القضاء مع موظفين آخرين. وهو موظف مخلص لعمله دؤوب مجتهد، غير أن وجهه المتجهم دائماً كان يسيء إليه أكبر الإساءة. إنه طويل القامة محدودب الظهر أحمر اللون، حزين النفس بل وعاطفي الطبع، وهو رغم مذلة عنيده عناد بغل، معارض دائماً. وكان هو وامرأته وذريته الغفيرة يحملون لآندره أنطونوفتش شعوراً بالشكر يبلغ حدّ العبادة. وما من أحد أحبه في يوم من الأيام إلّا فون لمبكة. وقد كرهته جوليا ميخائيلوفنا منذ اللحظة الأولى، لكنها لم تستطع أن تحطم مقاومة زوجها. كانت تلك أول مشاجرة بين الزوجين. حدث هذا بعد الزواج على الفور تقريباً، أثناء الأيام الأولى من شهر العسل. لقد اكتشفت جوليا ميخائيلوفنا وجود بلومر فجأة، وكان مختلفاً حتى ذلك الحين واكتشفت في الوقت نفسه ذلك السر المخجل وهو أن بينه وبين زوجها صلة قرابة. وقد استغفرها أندره

أنطونوفتش متوسلاً ضارحاً ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى، وقصَّ عليها بطريقة عاطفية مؤثرة قصة بلومر كلها وقصة صداقتهما التي ترجع إلى عهد الطفولة، لكن جوليا ميخائيلوفنا رأت أن شرفها قد تلتطخ بالعار إلى الأبد، حتى عمدت إلى الإغماء مرةً بعد مرة. ومع ذلك ثبت فون لمبكة ولم يتزحزح عن موقفه، وأعلن لزوجته أن لا شيء يمكن أن يحمله على هجر بلومر، فلم تملك الزوجة رغم دهشتها الشديدة واستغرابها القوي إلا أن ترضخ للأمر الواقع وأن تقبل بلومر. ولكن تم الاتفاق بين الزوجين على أن تظل القرابة سرّاً مكتوماً، وأن يُكتفى من اسمه باسم بلومر، وهو اسم أسرته، أما اسمه واسم نسبته إلى أبيه فلا يجيء أحد عليهما بذكر، إذ شاءت المصادفة أن يكون اسمه واسم نسبته إلى أبيه هما آندره أنطونوفتش أيضاً. وحين وصل بلومر إلى مدينتنا لم يزر أحداً، ولم يعاشر إلا صديقاً ألمانياً، وعاش حياة ضيقة منزوية. وكان منذ مدة طويلة على علم بعيوب لمبكة المتعلقة بميله إلى الأدب، حتى لقد أصغى إليه وهو يقرأ عليه روايته في خلوة، فكان بلومر أثناء تلك الجلسات التي ربما دامت في بعض الأحيان ست ساعات متتالية، كان يبقى جالساً جامداً متصلباً كأنه وتد مغروز في الأرض، يتصبب عرقه قطرات كبيرة، ويبدل جهوداً مستميتة في سبيل أن لا ينام، وفي سبيل أن يحافظ على هيئة اللطف والمودة. حتى إذا رجع إلى البيت أخذ يكي مع زوجته، وهي امرأة طويلة يابسة، تألماً على هذا الإنسان المحسن إليهما كيف يُشغف بالأدب الروسي هذا الشغف المشؤوم.

ألقى آندره أنطونوفتش على بلومر نظرة نقيض بالألم، وقال له متعجبلاً رافضاً رفضاً واضحاً أن يستأنف الحديث الذي قطعه عليهما وصول بطرس ستيفانوفتش منذ حين:

- دعني هادئاً يا بلومر، دعني وشأني، أرجوك.

فقال بلومر مصرّاً بعناد فيه احترام:

- إن الأمر يمكن أن يتم على نحو خفي مرهف. ألسنت تتمتع بسلطات

كاملة؟

- إنك تبلغ من الإخلاص لي والاستعداد لخدمتي أنني لا يسعني إلا أن أخاف منك كلما نظرت إليك.

- أنت دائماً تقول أشياء ذكية ثم تنام بعد ذلك هادئ البال راضياً عن أقوالك، ولكن هذا بعينه ما يلحق بك الضرر ويسيء إليك.

- لقد أدركت منذ هنيهة أن الأمر ليس ذاك، ليس ذاك قط.

- أ تكون شكوكك قد نشأت عن تصديقك هذا الشاب الكاذب المنحط؟

لقد استولى عليك بامتداح موهبتك الأدبية.

- إنك لا تفهم شيئاً. مشروءك سخيف. أقول لك إن مشروءك سخيف. لن نعثر على شيء، ولكن الفضيحة ستكون رهيبية. سيسخر منا الناس وسيضحكون علينا. ثم إن جوليا ميخائيلوفنا...

- سنعثر حتماً على كل ما نبحث عنه وسنجد كل ما نسعى إليه.

كذلك أجاب بلومر وهو يضع يده اليمنى على قلبه، ويقترّب من فون لمبكه مزيداً من الاقتراب. واستطرد يقول:

- سوف نقوم بالتفتيش فجأة، في ساعة مبكرة من الصباح، ملتزمين أكبر لطف ورقة في معاملة الشخص الذي أعنيه، ولكننا نطبق القانون أيضاً تطبيقاً صارماً. إن هناك شباباً - مثل ليامشين وتليانينكوف - يؤكدون أننا سنضع أيدينا على كل ما نحن باحثون عنه. لقد ذهبوا إلى السيد فرخوفنسكي مراراً كثيرة. ما من أحد يقيم للسيد فرخوفنسكي أي وزن. إن السيدة ستافروجين قد حجبت عنه حمايتها، وحرمة من أية حظوة لديها، وإن كل إنسان شريف، إذا كان بين سكان هذه المدينة الأفظاظ الغلاظ إنسان شريف، مقتنع اقناعاً تاماً بأن الزندقة والاشتراكية إنما منبعهما هناك. إن السيد فرخوفنسكي يحتفظ في بيته بجميع الكتب المحظورة، مثل "أفكار" ريلاي⁽¹⁾، وهو يملك مؤلفات هرتسن الكاملة... وقعت مصادفة على قائمة كاملة تقريباً...

- هه! هذه الكتب موجودة لدى جميع الناس! ما أشد سذاجتك يا عزيزي

(1) كان كوندراي ريلاي شاعراً ذا موهبة كبيرة، وقد نشر سنة 1825 ديواناً من الشعر يضم قصائد تاريخية، بعنوان "أفكار" وهي قصائد تستلهم روحاً وطنية ليبرالية. وبعد إعدام ريلاي سنة 1826، بصفته أحد قادة ثورة ديسمبر، إنها منعت الرقابة آثاره.

المسكين بلومر!

تابع بلومر كلامه دون أن ينتبه أي انتباه إلى هذه الملاحظة فقال:

- وعدداً كبيراً من المنشورات التحريضية. سوف نهتدي في آخر الأمر حتماً إلى المصدر الذي تصدر عنه هذه المنشورات المتداولة هنا. إن اشتباهي في هذا الشاب فرخوفنسكي قد قوي واشتد!

- أنت تخلط بين الأب والابن. إنهما على غير وفاق. العلاقات بينهما سيئة. الابن يتهمك على أبيه ويسخر منه علانية.

- ما هذا إلا تمثيل!

- أترك آليت على نفسك أن تميتني! هلاً فكرت قليلاً. إن فرخوفنسكي شخصية هامة هنا. ولقد كان أستاذاً. هو رجل معروف. سوف نثيرها فضيحة. ستهزأ بنا المدينة كلها. وسوف يُفَلت منا الآخرون جميعاً... ثم هلاً فكرت فيما سوف تقوله جوليا ميخائيلوفنا!

غير أن بلومر ظل يصرف في عناد، ولا يريد أن يسمع شيئاً وأن يفهم شيئاً. قال وهو يلطم صدره بيده:

- لم يكن أستاذاً، وإنما كان مكلفاً بإلقاء دروس. لم يكن إلا في رتبة معيد. ولم يظفر بأي لقب فخري. وقد طُرد من الوظيفة لأن السلطات اشتبهت فيه واتهمته بالتحريض على الثورة. وهو منذ ذلك الحين تراقبه الشرطة سراً. ولما كانت تُهيأ هنا اضطرابات فإن من واجبك أن تتدخل. ولكنك تفوت الفرصة فتحرم نفسك من التميز باكتشاف المجرم الحق.

- هذه جوليا ميخائيلوفنا آتية! امضِ يا بلومر، امضِ!

كذلك صاح أندره أنطونوفتش حين سمع صوت امرأته في الغرفة المجاورة على حين فجأة.

ارتعش بلومر، ولكنه لم يستسلم. قال ملحاً وهو يضغط على صدره بكلتا يديه مزيداً من الضغط:

- دع لي أن أتصرف. دع لي أن أتصرف.

- امضِ! امضِ! افعل ما شئت... فيما بعد! هوه!

كذلك كرر فون لمبكة بصوت صافر.

وفُتح الباب وظهرت جوليا ميخائيلوفنا في العتبة. فلما رأت بلومر توقفت في فخامة وجلال، ورشقتها بنظرة فيها احتقار وفيها غضب، كأن مجرد وجود هذا الشخص إهانة لها. فحيّاها بلومر بصمت، منحنيًا انحناء شديدًا حتى كاد ينثني نصفين من شدة الاحترام، ثم اتجه نحو الباب سائرًا على رؤوس الأصابع مباعداً ذراعيه قليلاً.

سواء أكان بلومر قد فهم من صيحة آندره أنطونوفتش الحانقة أنه أجاز له أن يتصرف كما يشاع، أم كان قد قرر أن لا يحفل برأي صاحبه هذا المحسن إليه، وذلك في سبيل مصلحة صاحبه نفسها ولاقتناعه بأن النجاح سوف يبرر الجرأة، فالمهم أن هذه الحادثة بين الحاكم ومرووسه قد كانت لها، كما سنرى فيما بعد، نتيجةٌ لم تدر في خلد أحد ولا توقعها أحد، نتيجة سلّت كثيراً من الناس، وأحدثت ضجة كبيرة، وأحنقت جوليا ميخائيلوفنا، وبلبلت أفكار آندره أنطونوفتش إذ هوت به في أخرج لحظة إلى شلل في الإرادة يرثى له.

5

كان ذلك اليوم من أيام بطرس ستيفانوفتش حافلاً بأعمال كثيرة يجب عليه أن يقوم بها. إنه حين خرج من عند فون لمبكة أسرع يسير إلى شارع أبيفانا راكضاً، ولكنه حين مرّ أمام المنزل الذي يقيم فيه كارمازينوف بشارع "الأبقار"، توقف فجأة، وابتسم ودخل، فقال له الخادم إن "مولاه ينتظره"، فذهش من ذلك دهشة كبيرة، لأنه لم يكن قد أنبأ كارمازينوف بأنه سيزوره. ولكن الكاتب الكبير كان ينتظره فعلاً منذ أمس، بل منذ أمس الأول. لقد أعطى بطرس ستيفانوفتش، قبل ثلاثة أيام، مخطوطة قصيدته "شكراً" (التي كان يتأهب لإلقائها في الصبيحة الأدبية التي تحضرها جوليا ميخائيلوفنا). وهو إذ أعطاه إياها قد اعتقد أنه يتلطف معه، لاقتناعه بأنه إذ يتيح لهذا الشاب أن يطلع قبل سائر الناس على عمل أدبي يبلغ هذا المبلغ من علو الشأن إنما

يرضي غرور الشاب. وكان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذه الشخصية الكبيرة المعجبة بنفسها، المحبة للظهور، التي أغرقها الناس بمدح وتعظيم لا يحلم بمثلهما بشر عاديون، أقول كان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ أن هذه الشخصية الكبيرة أو هذا "الفكر الجبار" إنما كان يتودد إليه لا أكثر، بل ويتودد إليه بكثير من الشراهة. وقد حزر الشاب أخيراً، فيما يخيل إليّ، أن كارمازينوف كان يتصور أن هذا الشاب إن لم يكن هو رئيس الحركة الثورية الروسية كلها، فهو على الأقل واحد من أحسن الناس اطلاعاً على هذه الحركة، وله على الشبيبة سلطان كبير ونفوذ لا سبيل إلى جحوده.

إن الحالة النفسية والفكرية التي كان عليها هذا الكاتب الكبير الذي هو "أذكى رجل في روسيا" كانت تهم بطرس ستيفانوفتش كثيراً، ولكنه لبعض الأسباب كان قد تحاشى حتى ذلك الحين أن يلتمس لها إيضاحاً.

كان الكاتب الكبير يقيم عند أخته المتزوجة ضابطاً في البلاط، يملك أرضاً في إقليمنا. وكانت الأخت وزوجها يشعران نحو قريبهما الشهير بحب يبلغ درجة العبادة. ولكنهما الآن - وما كان أشد أسفهما لهذا! - قد اضطرا إلى البقاء بموسكو، فوق شرف استقبال الضيف العظيم على سيدة عجوز فقيرة تمت إلى ضابط البلاط بقرابة بعيدة، وهي تعيش في منزله منذ مدة طويلة، وتتولى خدمة البيت. إن الجميع في هذا المنزل يمشون الآن على رؤوس الأصابع منذ وصول السيد كارمازينوف. وكانت السيدة العجوز تكتب إلى موسكو كل يوم تقريباً لتقول لأصحاب المنزل كيف نام الضيف الشهير وماذا تنازل فأكل. حتى إنها في إحدى المرات قد أرسلت برقية لتذكر أنه بعد عشاء راقص في منزل رئيس البلدية قد اضطرا أن يتجرع ملعقة دواء. وكانت لا تجرؤ أن تدخل عليه إلا لماماً. ولكنه كان كيّساً في معاملتها، وإن كان لا يكلمها إلا عند الضرورة القصوى، وإذا يكلمها فإنه يكلمها بلهجة باردة.

حين دخل عليه بطرس ستيفانوفتش وجده يأكل ضلع اللحم الذي اعتاد أن يأكله، ومعه نصف كأس من نبيذ أحمر. لقد سبق لبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي أن جاءه مراراً، فكان في كل مرة يجده جالساً إلى ضلع اللحم

هذا يأكله، ويستمر في أكله بحضوره دون أن يقدم له أي شيء في مرة من المرات، حتى إذا فرغ من ضلع اللحم أتبعه بفنجان صغير من القهوة. وكان الخادم الذي يخدمه يلبس يديه قفازين دائماً، ويرتدي رداء "فراك"، ويتعل حذاءين مرنين ليس لوقعهما على الأرض صوت.

قال كارمازينوف وهو ينهض عن الكنبه:

- ها...

ومسح فمه بمنشفة، وتقدم نحو زائرته مشرق الهيئة ليقبله وفقاً لعادة الروس الذين أصبحت لهم شهرة كبيرة. ولكن بطرس ستيفانوفتش كان يعلم بالتجربة أن كارمازينوف يتظاهر بتقيل الناس مع أنه لا يزيد على أن يمد إليهم خده. وهذا ما فعله في هذه المرة فالتقت الخدان. وعاد كارمازينوف يجلس على الكنبه دون أن يظهر أنه لاحظ ذلك. وبحركة ودود أوماً للشاب إلى مقعد قبالة ليجلس عليه. فجلس بطرس ستيفانوفتش على المقعد جلسة مريحة.

سأله الكاتب مغيراً عاداته في هذه المرة:

- لا شك أنك.. ألا تريد أن تتغدى؟

وكان واضحاً في هيئته أنه يطلب جواباً سلبياً. ولكن بطرس ستيفانوفتش أسرع يقول إنه يسره أن يتغدى. فإذا بالدهش والاستياء يليقان ظلهم على كارمازينوف، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة قصيرة. ثم قرع الجرس ينادي الخادم بعصبية، فلما جاء الخادم أمره بغداء ثانٍ، فكان في صوته رغم حسن أدبه ولطف كياسته، حنق لا يخفى. وقال يسأل ضيفه:

- ماذا تريد؟ أضلع لحم أم شيئاً من قهوة؟

- ضلعاً وقهوة. وأمر لي أيضاً بنبيد. فأنا جائع.

كذلك أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يتأمل رداء الكاتب العظيم بانتباه شديد. كان السيد كارمازينوف يرتدي نوعاً من سترة مبطنة بقطن، لها أزرار لامعة كالصدف، تشبه أن تكون جاكيتة، ولكنها قصيرة قليلاً، فلا تناسب كرشه الناتئ ولا تناسب ذلك التدوير في ذلك الجزء من الجسم الذي يبدأ

عند الفخذان. غير أن لكل إنسان ذوقه الخاص به. ورغم أن جَوَّ الغرفة كان حاراً، فقد غطى ركبتيه بغطاء صوفي ذي مربعات يتدلى على الأرض.
سأله بطرس ستيفانوفتش:

- أنت مريض؟

فأجاب الكاتب الروائي بصوته الحاد، مقطعاً كلماته برهافة ورقة، منغماً لهجته على الطريقة الأرستقراطية:

- لا، ولكنني أخشى أن أصبح مريضاً في هذا الجو. لقد انتظرتك أمس.

- لماذا انتظرتني؟ أنا لم أبلغك أنني آت.

- صحيح... ولكن مخطوطتي عندك.. هل قرأتها؟

- مخطوطتك؟ أية مخطوطة؟

قال له كارمازينوف مشدوهاً:

- أمل أن تكون المخطوطة معك!

وبلغ من القلق أنه أهمل قهوته ونظر إلى بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً مذعوراً.

قال بطرس ستيفانوفتش:

- آ... تقصد "مرحباً".

- بل "شكراً".

- سيان. لقد نسيتها نسياناً تاماً، ولم أقرأها. ليس في الوقت متسع. لا أدري حقاً ماذا صنعت بها. ليست في جيوبي... لا بد أنني تركتها على مائدتي. لا تقلق. سوف أجدها.

- بل أفضل أن نبعث أحداً يبحث عنها في الحال. قد تضيع. قد تُسرق.

- ما عسى يصنع بها من يخطر بباله أن يسرقها؟ ثم، ما بالك تقلق؟ إن جوليا ميخائيلوفنا تؤكد أنك تستنسخ دائماً عدة نسخ: نسخة تودعها عند الكاتب بالعدل في الخارج، وثانية تدعها في بطرسبرج، وثالثة تتركها بموسكو، ويظهر أنك ترسل نسخة رابعة إلى صاحب البنك الذي تودع عنده أموالك.

- لكن موسكو قد تُحرق، فتحرق معها مخطوطتي "لا" إنني أفضل أن نرسل أحداً يبحث عنها في الحال.

- انتظر. هي ذي مخطوطتك.

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يخرج من إحدى جيوبه الخلفية حزمة من أوراق الرسائل. إنها مجمّعة مهترئة قليلاً. واستطرد يقول:

- تصور أنني، حين أعطيتي إياها، قد دسستها في هذا الجيب الخلفي مع منديل، ثم بقيت فيه. نسيتهها تماماً.

استولى كارمازينوف على مخطوطته بشراهة، وفحصها بعناية، وعدّ أوراقها، ثم وضعها بكثير من الاحترام على منضدة صغيرة في جانب، بحيث لا تغيب عن بصره.

قال بصوت صافر، عاجزاً عن كبح غيظه:

- لعلك لا تقرأ كثيراً.

- نعم، لا أقرأ كثيراً.

- ومن الأدب الروسي، ألا تقرأ شيئاً؟

- من الأدب الروسي، لحظة... لقد قرأت شيئاً ما... "على الطريق"... أو "في الطريق"... أو "عند تقاطع الطرق"... لا أدري على وجه الدقة. قرأت ذلك منذ مدة طويلة... منذ خمس سنين تقريباً.. لا وقت لدي.

وخيم صمت.

قال كارمازينوف:

- حين وصلتُ إلى هنا أكدت لجميع الناس أنك رجل تحظى بذكاء نادر، ويخيّل إليّ أنهم مفتونون بك الآن.

أجاب بطرس ستيفانوفتش ببساطة يقول:

- شكراً.

وجيء بالغداء. فهجم الشاب على ضلع اللحم هجمة نهمة، وأتى عليه، وشرب كأساً من نبيذ، وابتلع قهوته.

حدّث كارمازينوف نفسه قائلاً وهو يتفحص الشاب بطرف عينيه أثناء

ابتلاعه آخر جرعة: "لعل هذا القليل الأدب قد لاحظ سخرية جملتي الأخيرة... إني لعل ثقة بأنه ما من شيء كان أشدّ لجاجةً وإلحاحاً عليه من قراءة مخطوطتي بسرعة. هو يكذب. إنه يبيّن فكرة. لعله لا يكذب مع ذلك، وإنما هو غبي لا أكثر! إني أحب لعقري أن يكون على شيء من غباء. ألن يكون عبقرياً بينهم؟ على كل حال، فليذهب إلى الشيطان!..."

ونهض وأخذ يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً، وذلك ما كان يفعله بعد كل وجبة تشييطاً لجسمه.

قال بطرس ستيفانوفتش يسأله وهو جالسٌ يشعل سيجارة:

- أنت مسافر قريباً؟

- لقد جئت لأبيع أرضي، وسفري مرهون بوكيلي.

- يظهر أنك عدت إلى روسيا لأنك خشيت الأوبئة التي تهدد بالانتشار

في أعقاب الحرب، هه؟

-... لا! ليس الأمر هذا تماماً!

كذلك أجاب السيد كارمازينوف مقطعاً كلامه. وكان كلما وقف واستدار

ليستأنف مشيه في الغرفة يحرك ساقه اليمنى قليلاً. واستطرد يقول وهو

يبتسم بشيء من السخرية:

- لكنني أنتوي فعلاً أن أحيأ أطول مدة ممكنة. إن النبالة الروسية تنحل

بسرعة خارقة من جميع النواحي. ومن جهتي أحب أن أؤخر انحلالي أطول

تأخير ممكن. لذلك أريد أن أستقر في الخارج إلى الأبد: المناخ هنالك

أصح، والبنیان الاجتماعي أقوى، وكل شيء متين مبني بحجر. ما رأيك؟

- هم... إذا انهارت بابل وأوروبا فستكون تلك كارثة كبرى فعلاً (أنا أوافقك

على رأيك في هذه النقطة، وإن كنت أقدر أنها باقية ما بقيت) أما عندنا في

روسيا فلا يرى المرء ما الذي يمكن أن ينهار على وجه الإجمال. لن نشهد

حجارة تتساقط، وإنما سيتداعى كل شيء وحلاً. إن روسيا المقدسة عاجزة

عجزاً مطلقاً عن إبداء أية مقاومة لأي شيء. وبفضل الإله الروسي ما يزال

الشعب الروسي هادئاً بعض الهدوء. ولكن المعلومات الأخيرة تدل أن الإله

الروسي لم يبق له كثير من قوة، وأن إلغاء الرق قد أوشك أن يُسقطه، وهو قد هزّه هزاً قوياً على كل حال. ثم، هناك السكك الحديدية، وهناك أنتم... إنني، فيما يتعلق بالإله الروسي، أصبحت لا أؤمن به بتاتاً.
- والإله الأوروبي!

- إنني لا أؤمن بأي إله. لقد افتروا عليّ عند الشيبة الروسية. إن قلبي كان دائماً معها. وقد اطلعت على المنشورات التحريضية التي تنتشر هنا. إنها تدع الناس مبلبين حيارى، لأن لهجتها تروّع عقولهم، ولكن الجميع مقتنعون، حتى من دون أن يدركوا ذلك، بأن لها تأثيراً قوياً. إن كل شيء يتدحرج إلى الهوة منذ مدة طويلة، والناس يعلمون منذ مدة طويلة أيضاً أنهم لا يستطيعون أن يتشبثوا بشيء. ومما يزيد يقيني بنجاح هذه الدعاية السرية أن روسيا هي الآن بين سائر بلاد العالم البلد الذي يمكن أن يحدث فيه كل شيء دون أن تعترضه أية مقاومة مهما تكن يسيرة. إنني أفهم كل الفهم لماذا كان الروس الذين يملكون ثروة ما، يجتازون الحدود متزايدين سنةً بعد سنة. إن الغريزة هي التي توجههم وتقود خطاهم. حين توشك سفينة على الغرق فإن الفئران أول من يتركها. إن روسيا المقدسة بلد البيوت الخشبية، إنها بلد بائس شقي... خطر، إنها بلد شحاذين، مغرورين في الطبقات العليا، لكن سوادهم الأعظم يعيش في أكواخ مترنحة الجدران. فهم يسعدهم أن يجدوا أي مخرج، ويكفى أن يدلهم أحد على أي مخرج. الحكومة وحدها ما تزال تريد أن تقاوم، ولكنها تلوّح بهراوتها في الظلام وتهوي بها هنا وهناك خبط عشواء، وتصيب الموالين. هنا كل شيء محكوم عليه، مقضي عليه. روسيا ليس لها مستقبل. أنا أصبحت ألمانياً، وإنني لأعترّ بهذا.

- لقد بدأت كلامك بالحديث عن المنشورات التحريضية. فما رأيك فيها؟

- جميع الناس خائفون منها. معنى هذا أنها تؤثر تأثيراً كبيراً قوياً. إنها تفضح الكذب فضحاً صريحاً، وتبيّن أن لا شيء عندنا يمكن التعلق به والاستناد إليه والاعتماد عليه. إنها ترفع صوتها عالياً بينما يصمت الجميع.

أمجد شيء فيها رغم شكلها إنما هو الجرأة الخارقة في النظر إلى الحقيقة وجهاً لوجه. إن هذه القدرة لا يتصف بها إلا الجيل الروسي الحالي. لا، الناس في أوروبا ليس لهم هذه الجسارة بعد: البنيان الأوروبي من حجر، وما يزال المرء هناك يجد ما يتعلق به ويستند إليه. إذا صدقت رؤيتي وإذا صدق حكمي، فإن الفكرة الثورية الروسية تقوم أساساً على نفي الشرف. يعجبني أن أرى هذا معبراً عنه بمثل هذه الشجاعة ومثل هذه الجسارة. لا، في أوروبا ما يزال الناس لا يفهمون هذه الفكرة، وليس الأمر كذلك عندنا، فإلى هذه الفكرة بعينها إنما سيهرع الناس. ليس الشرف في نظر الروسي إلا حملاً لا فائدة منه، والأمر على هذا النحو في جميع الأزمان على امتداد تاريخ الروس كله. لذلك سيكون من اليسير إغراؤه وجره بالمناداة "بحق التخلي عن الشرف" صراحةً، إنني أنتمي إلى الجيل القديم، وأعترف أنني ما أزال أعتق فكرة الشرف. ولكن ذلك ليس إلا عادة. ما زلت متمسكاً بالأشكال القديمة. لنسلم بأن هذا ضعف. إنه لجدير بالمرء أن يموت مع المبادئ التي تعلق بها طوال حياته...

قطع كارمازينوف كلامه فجأة. وحدث نفسه يقول: "إنني أتكلم وأتكلم. ويبقى هو صامتاً يراقبني. لقد جاء لألقي عليه سؤالاً محدداً. فلسوف ألقى عليه ذلك السؤال".

سأله بطرس ستيفانوفتش فجأة:

- لقد رجتني جوليا ميخائيلوفنا أن أسألك ببراعة عن موضوع المفاجأة التي تهيئها للحفلة الراقصة بعد غد، فما هي هذه المفاجأة؟
- نعم، ستكون مفاجأة حقاً. وسأدهش جميع الناس... لكنني لن أكشف لك عن سري.

بذلك أجاب كارمازينوف متعاضماً. فلم يلح بطرس ستيفانوفتش كثيراً.
- قال الكاتب العظيم:

- يوجد هنا رجل اسمه شاتوف. هل تتصور أنني لم أراه بعد؟
- هو شخص ممتاز. وبعد؟

- لا شيء خاصاً. لكن الناس يتكلمون عنه كثيراً. أليس هو الذي صفع ستافروجين؟

- نعم هو الذي صفع ستافروجين.

- ما رأيك في ستافروجين؟

- الحق أنني لا أدري ما هو بين أصناف الرجال. أحسب أنه نوع من دون جوان.

كان كارمازينوف يكره ستافروجين، لأن ستافروجين اعتاد أن لا يلتفت إليه وأن لا يكثر به.

قال وهو يضحك ساخراً:

- إذا تحقق عندنا ما تنادي به المنشورات التحريضية، في يوم من الأيام، فسوف يكون زير النساء هذا أول من يجب شنقه.

فقال بطرس ستيفانوفتش:

- قد يُشنق قبل ذلك.

فقال كارمازينوف محبذاً مؤيداً، دون أن يضحك في هذه المرة، وكانت لهجته جادة:

- لعل ذلك أن يكون خيراً.

- سبق أن قلت هذا. واعلم أنني نقلت كلامك إليه.

- حقاً؟ فعلت هذا؟

كذلك سأل كارمازينوف وانفجر ضاحكاً. فقال بطرس ستيفانوفتش:

- وقد أجب بأنه إذا سُنق هو، فيكفيك أنت أن تُجلد جلدًا، لا على سبيل

المزاح، بل جلدًا صارماً، كما يُجلد الفلاحون.

وتناول بطرس ستيفانوفتش قبعته ونهض. فمدَّ إليه كارمازينوف كلتا يديه. وقال يسأله بصوته المتلطف المرائي الذي اصطنع نبرة جديدة على

حين فجأة، مع استمرار الكاتب العظيم في إمساك يدي الشاب بيديه:

- قل لي: إذا كانت مشروعاتكم ستتحقق... فمتى... متى يمكن أن

يحدث هذا؟

فأجابه بطرس ستيفانوفتش بفضاظة:

- ما يدريني!

ونظر كل من الرجلين في عيني صاحبه.

فألح كارمازينوف سائلاً بصوت فيه مزيد من العذوبة واللفظ.

- تقريباً؟ على وجه التقريب؟

فجمعهم بطرس ستيفانوفتش يقول بمزيد من الفضاظة:

- لديك متسع من الوقت لبيع أرضك، ولديك متسع من الوقت لتفر

بجلدك. وكان الرجلان ما يزال كل منهما ينظر في عيني الآخر.

وساد الصمت لبعض الوقت.

وقال بطرس ستيفانوفتش أخيراً:

- سيبدأ الأمر في شهر أيار (مايو)، فلا يأتي عيد "الشفاعة" إلا ويكون كل

شيء قد انتهى.

قال كارمازينوف بلهجة مؤثرة وهو يشد على يدي زائره:

- أشكرك أصدق الشكر.

وحذث الشاب نفسه قائلاً بعد أن ترك كارمازينوف: "لديك متسع من

الوقت، يا أيها الفأر، لترك السفينة قبل غرقها. ولكن إذا كان هذا الذي يشبه

أن يكون رجل دولة يسألني بهذا الجد كله عن تاريخ البدء يوماً وساعة،

ويشكرني بهذه الحرارة على المعلومات التي زوّدت بها فلا يجوز أن نشك

في أنفسنا بعد هذا (قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ساخراً). هم...

حقاً إنه ليس غيباً، و... ما هو إلا فأر يهاجر. مثله لا يشي."

وأسرع إلى منزل فيلييوف، شارع أيففانيا.

6

دخل بطرس ستيفانوفتش أولاً إلى مسكن كيريلوف. كان كيريلوف

وحيداً على عادته، وكان يقوم ببعض التمارين الرياضية وسط الغرفة. لقد

باعد ساقيه وجعل يُدير ذراعيه فوق رأسه. وكانت كرة من الكاوتشوك ملقاة على أرض الغرفة. ولم يكن شاي الصباح قد رُفع عن المائدة بعد أن أصبح بارداً.

وقف بطرس ستيفانوفتش على العتبة لحظة. ثم قال مرحباً بصوت رنان وهو يلج الغرفة:

- أرى أنك تعنى بصحتك عناية كبيرة رغم كل شيء. يا لها من كرة جميلة! ما أحلى توابها! أهى أيضاً للقيام بتمارين رياضية؟ ارتدى كيريلوف ردنجوته. وقال بخشونة:

- نعم، إنني أعتنى بصحتي. اجلس.

- لقد جئت لأمكث لحظة قصيرة. على كل حال، ها أنا ذا أجلس. الصحة شيء ممتاز، ولكنني أتيت لأذكرك بما تمّ عليه الاتفاق بيننا. إن الأوان يقترب. بعض الاقتراب".

بهذه الجملة الأخيرة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه مازحاً.

- أي اتفاق؟

- تسألني أي اتفاق؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وانتفض مرتاعاً.

فقال كيريلوف:

- ليس بيننا اتفاق ولا التزام. أنا لا أشعر بأنني مرتبط. إنك مخطئ.

فصاح بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو ينهض على حين فجأة:

- ما هذا الذي تقول؟

- إنني أنفذ مشيئتي. إنني أحقق رغبتني.

- أية رغبة؟

- رغبتني تلك نفسها.

- كيف يجب أن أفهم هذا الكلام؟ هل معناه أنك ما تزال مصمماً على ما

عقدت النية عليه؟

- نعم، ولكن الأمر ليس أمر اتفاق، فما كان ثمة اتفاق قط، ولست بمرتبط.

وإنما هي مشيئتي وحدها، كانت وما تزال مشيئتي وحدها.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعود إلى الجلوس راضياً مرتاحاً:

- طيب، طيب، أسلم بأنها مشيئتك الحرة، وإنما المهم أن لا تكون مشيئتك هذه قد تغيرت. إنك تندفع وتحمس من أجل كلمة. لقد أصبحت سريع الاحتياج في هذه الآونة الأخيرة. لذلك صرت لا أزورك. على أنني كنت أعرف أنك لن تخون.

- إنني لا أحبك البتة. ولكن في وسعك أن تعتمد عليّ، رغم أنني لا أقبل تعبير الخيانة هذا.

قال بطرس ستيفانوفتش وقد عاد إليه قلقه:

- إن علينا مع ذلك أن نتكلم بوضوح حتى لا نتعرض للبلبلّة. إن هذه القضية تتطلب دقة ووضوحاً. وأقوالك هذه تقلقني كثيراً. هل تعدني بأن تتكلم؟

قال كيريلوف بخشونة وهو يحدق إلى زاوية من الغرفة:

- تكلم!

- لقد قررت منذ مدة طويلة أن تنتحر... أقصد أن هذه الفكرة قد قامت في نفسك. هل وُفقت في التعبير؟ ألم أرتكب خطأ ما؟
- وهذه الفكرة ما زالت قائمة في نفسي.

- عظيم. لاحظ أن أحداً لم يجبرك عليها إجباراً.

- نعم. ما أغبى تعبيرك عن فكرك!

- طيب، طيب. لقد عبّرت عن فكري بغباء وحماسة. لا شك أبداً في أن الكلام على الإجبار هنا حماسة. والآن أتابع: إنك كنتَ عضواً في الجمعية منذ إنشائها وقد كاشفت أحد أعضائها بمشاريعك.

- لم أكاشف أحداً بشيء، وإنما قلت ببساطة ما أريد أن أفعله.

- طيب. صحيح. الكلام على "المكاشفة" هنا سخف. لم يكن ذلك منك اعترافاً. وإنما أنت قلت ما قلته ببساطة. كلام عظيم.

- ليس هذا كلاماً عظيماً. إنك تتردد وتلتوى في أقوالك ولا تلتزم

الصراحة. لست مضطراً إلى أن أشرح لك كل شيء، وما أنت بقادر على أن تفهم أفكارى. لقد قررت أن أنهى حياتي لأن هذه فكرتي، لأنني أريد أن أنتصر على الرعب من الموت... لأن... ولكن ليس عليك أن تعرف لماذا. ماذا تريد؟ شايًا؟ الشاي بارد. انتظر سأتيك بكأس أخرى.

كان بطرس ستيفانوفتش قد أمسك إبريق الشاي فعلاً، وكان يبحث ببصره عن كأس فارغة. فمضى كيريلوف إلى الخزانة، وتناول منها كأساً نظيفة. ثم قال:

- لقد تغديت عند كارمازينوف، وأصغيت إلى حديثه، فعرفت، ثم ركضت لأجيء إلى هنا فتصبب عرقي مزيداً من التصبب، فأنا الآن ميت ظمأً! - أشرب! الشاي بارد! ذلك ممتاز.

عاد كيريلوف يجلس، وحدّق بعينه مرةً أخرى إلى زاوية من الغرفة. واستطرد يقول بتلك اللهجة نفسها:

- لقد قدّروا، في الجمعية، أنني بانتحاري أستطيع أن أخدمهم: فإذا قمتم هنا بعمل شيء ما، فأخذت السلطات تبحث عن الفاعلين، أطلقت أنا على رأسي رصاصة تاركاً رسالةً أذكر فيها أنني أنا الذي فعلت كل شيء. فبذلك تفلتون من الشبهات خلال سنة بكاملها.

- بل تكفيننا بضعة أيام، بل قد يفيدنا يوم واحد أكبر الفائدة.

- حسن. فطلبوا مني أن أنتظر. فأجبت بأنني سأنتظر إلى أن تنبئني الجمعية بأن أفعل، فأفعل، لأن الأمور عندي سواء.

- نعم، ولكن تذكر أنك تعهّدت بتحرير هذه الرسالة معي، وبأن تصبح متى وصلت إلى روسيا... أن تصبح رهن إشارتي، لهذا الأمر وحده طبعاً، أمّا في كل ما عدا ذلك فأنت حر.

كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بلهجة تشبه أن تشتمل على تودد وتحبب.

- لم أتعهد بشيء. وإنما أنا قبلت لأن الأمور عندي سواء...

- طيب... طيب... ليس في نيتي قط أن أجرح كرامتك، ولكن...

- ليست المسألة مسألة كرامة.
- تذكّر مع ذلك أنك أعطيت مبلغاً من المال لتتمكن من السفر. فقد تقاضيت إذن مالا.
- صرخ كيريلوف يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:
- هذا خطأ! أنا لا أعمل من أجل مال.
- بلى، أحياناً.
- أنت تكذب. لقد كتبت من بطرسبرج عارضاً جميع الإيضاحات اللازمة، وقد رددت في بطرسبرج مبلغ المال، رددته بنفسى... فالمال رُدَّ إذن، اللهم إلا أن تكون قد احتفظت به لنفسك.
- طيب طيب. موافق. لقد رُدَّ المال. وإنما المهم أن تكون مازال مستعداً لما كنت مستعداً له من قبل.
- نعم، ما أزال مستعداً. فمتى أتيت فقلت لي: "آن الأوان"، فعلت ما وعدت به. هل الموعد قريب؟
- بعد بضعة أيام... ولكن لا تنس أن علينا أن نحرّر الرسالة معاً في تلك الليلة.
- وحتى قبلها بليلة إن شئت. لقد قلت إن عليّ أن أضع على عاتقي تبعة المنشورات التحريضية.
- نعم، وأشياء أخرى أيضاً.
- لن أحمل نفسي كل شيء.
- سأله بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً من جديد:
- ما الذي ترفض أن تحمّله نفسك؟
- ما لا أريد. وكفى هذا! أصبحت لا أطيق الكلام في هذا الموضوع!
- سيطر بطرس ستيفانوفتش على نفسه وغير مجرى الحديث. قال:
- هناك الآن شيء آخر: هل تجيء الليلة إلى عند أصحابنا؟ اليوم عيد فرجنسكي، وسوف نجتمع متعللين بهذه الحجة.
- لا أريد.

- بل تعال، أرجوك. يجب أن تجيء. يجب أن نفرض عليهم مهابتنا بعددنا ومظهرنا... إن لك وجهاً... وجهاً لا تُقاوم له جاذبية.
قال كيريلوف ضاحكاً:

- أهذا رأيك؟ طيب. سأجيء. ولكنني لن أجيء من أجل أن تفرض عليهم مهابتنا بوجهي. في أية ساعة يكون الاجتماع؟
- في وقت غير متأخر، في الساعة السادسة والنصف. وتستطيع أن تدخل فتجلس ولا تكلم أحداً، مهما يكن العدد كبيراً. ولكن لا تنس أن تحمل قلماً وبضعة أوراق.

- لماذا القلم والأوراق؟
- بالنسبة إليك لا قيمة لهذا، أمّا بالنسبة إليّ فإن له قيمة كبيرة. ستمكث هناك جالساً لا تقول كلمة، بل تصغي وتتظاهر من حين إلى حين بأنك تدوّن شيئاً. لك أن ترسم إذا كان يحلو لك ذلك.
ما هذه السخافات؟ ما الغرض من هذا كله؟
- أليست الأمور عندك سواء. إنك ما تنفك تردد بأن جميع الأشياء عندك سواء.

- بل قل لي لماذا!
- طيب. اسمع: إن العضو الذي ننتظره، وهو المفتش، كما تعلم، لم يستطع أن يغادر موسكو. وأنا قد أبلغت عدداً من الأعضاء أن مفتشنا سيحضر الاجتماع. فسوف يظنون إذن أنك المفتش، وسيدهشون دهشة كبيرة لا سيما وأنك هنا منذ ثلاثة أسابيع.

- هذه كلها ترهات! ليس لكم مفتش بموسكو.
- طيب. لنسلم بذلك. لنا مفتش. سحَقاً للمفتش. ولكن هل يزعجك ما أطلبه منك؟ هل يؤذيكَ أو يسيء إليك؟ أنت أيضاً عضو في الجمعية.
- قل لهم إنني مفتش. سأبقى جالساً لا أنطق بكلمة. ولكنني لا أريد قلماً ولا ورقاً.

- ولكن لماذا؟

- لا أريد!

صار وجه بطرس ستيفانوفتش ضارباً إلى الخضرة من شدة الغضب، ولكنه كظم غيظه وسيطر على نفسه من جديد، ونهض وتناول قبعته. وقال يسأل بصوت خافت:

- هل "الآخر" عندك؟

- نعم.

- طيب سأخلّصك منه قريباً. اطمئن بالاً ولا تقلق.

- لست قلقاً البتة. إنه لا يجرى إلّا في الليل. المرأة العجوز في المستشفى، وامرأة ابنها ماتت، وأنا وحيد منذ يومين. وقد دلّته على اللوح الخشبي الذي يمكن تحريكه بسهولة في الحاجز، فيستطيع أن يدخل دون أن يُرى.
- سأخلّصك منه قريباً.

- هو يكذب. إنه ملاحق مطارد. وهم إلى الآن لا يشتبهون في وجوده هنا. هل تتحدث معه مصادفة؟

- نعم، طوال الليل. إنه لا يكف عن شتمك. قرأت عليه رؤيا يوحنا في الليلة الماضية، وشربنا شاياً. أصغى بانتباه شديد، بل شديد جداً، طول الليل.
- لسوف تهديه إلى الإيمان بالمسيحية!

- إنه مسيحي. ولكن اطمئن: سوف يقتل. من تريد أن يقتله لك؟

- لا، لست في حاجة إليه من أجل أن يقتل، بل من أجل شيء آخر... هل شاتوف على علم بأمر فدكا؟

- نحن لا نتخاطب أبداً. أنا وشاتوف لا يرى أحد منا الآخر.

- أأنتما متخاصمان؟

- لا، لسنا متخاصمين، ولكن كلاً منا يتحاشى الآخر. لقد اضطجعنا في أمريكا جنباً إلى جنب مدة مسرفة في الطول.

- سأصعد إليه.

- افعل ما تشاء.

- قد نجيئك أنا وستافروجين بعد الخروج من السهرة في نحو الساعة العاشرة.

- تعالا.

- هناك أشياء هامة يجب أن أكلمه فيها. اسمع: أعطني كرتك هل أنت في حاجة إليها الآن؟ أنا أيضاً سأقوم بتمارين رياضية. سأدفع لك ثمنها إن شئت.

- خذها. إنني أهبها لك.

وضع بطرس ستيفانوفتش الكرة في الجيب الخلفي من ردنجوته.

دمدم كيريلوف يقول فجأة وهو يشيخ زائرته إلى الباب:

- لن أعينك على ستافروجين في شيء.

فنظر إليه الزائر مدهوشاً، ولكنه لم يجب.

إن هذه الكلمات الأخيرة التي قالها كيريلوف قد بثت في نفس بطرس ستيفانوفتش اضطراباً عميقاً. ولكن وقته لم يتسع للتفكير في الأمر، لأنه تذكر وهو يصعد سلم شاتوف أن عليه أن يسبغ على وجهه الحانق هيئة اللطف. كان شاتوف في بيته، راقداً على سريره وهو مرتد كل ثيابه: كان يشعر بأن حالته الصحية ليست حسنة تماماً.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو في العتبة:

- يا لسوء الحظ! أنت مريض حقاً؟

واختفى عن وجهه قناع اللطف فجأة، ولم يعينيه لهيب خبيث.

قال شاتوف وهو ينهض:

- لا أبداً، لست مريضاً البتة. ولكن رأسي...

كان زائع الهيئة: إن ظهور بطرس ستيفانوفتش على هذا النحو المبالغ قد روعه حقاً.

بدأ بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال بلهجة فيها إيجاز، وفيها ما يشبه أن يكون أمراً:

- أنا إنما جئت لأحدثك في أمر يتطلب أن تكون في صحة جيدة. اسمح لي أن أجلس.

قال ذلك وجلس ثم أردف يقول:

- وأنت عُدْ فاجلس على سريرك. نعم. هكذا. في هذا المساء، سيعقد بعض أصحابنا اجتماعاً عند فرجنسكي، متعللين بحجة عيد ميلاده. وسأجيء أنا مع ستافروجين. وإذ إنني عالم بما أنت عليه الآن من حالة نفسية خاصة، فما كان لي أن أجركَ حتماً إلى هذه السهرة... تحاشياً لتعذيبك بطبيعة الحال، لا خوفاً من وشاية منك. ولكن الظرف يوجب أن تحضر الاجتماع قطعاً. ستجد هناك أشخاصاً نتفق معهم اتفاقاً نهائياً على الطريقة التي يجب أن تخرج بها من الجمعية، وتعطيهم الأشياء المختلفة المودعة عندك. سنرتب الأمر خفيةً. أقودك إلى ركن من الأركان، وهناك يتم كل شيء، لأن عدد الحضور سيكون كبيراً، ولا داعي لأن يطلع الجميع على المسألة. لا أكتمك أنني تعبت كثيراً في الدفاع عنك. ولكنهم الآن موافقون فيما يبدو لي. على شرط أن ترد المطبعة وجميع الأوراق طبعاً. وبعد ذلك تكون حراً طليقاً، وتمضي إلى حيث تشاء.

كان شاتوف يصغي إليه مغتاض الهيئة مقطب الحاجبين. إن خوفه العصبي الذي رأيناه فيه منذ قليل قد بارحه الآن تماماً. قال شاتوف بلهجة قاطعة:
- أنا لا أعد نفسي ملزماً بتقديم حساب لأي شيطان! لست في حاجة لأن تُردَّ إليَّ حرיתי، فأنا حر.

- لا تملك كل الحرية. لقد عهد إليك بأشياء كثيرة. وليس من حقك أن تترك دون أن تبلغ أحداً ما عزمت عليه. ثم إنك لم تفصح عما بنفسك إفصاحاً واضحاً حول هذا الموضوع في يوم من الأيام، فجعلتنا في حيرة من أمرنا.
- منذ وصولي بعثت رسالة واضحة كل الوضوح.

أجابه بطرس ستيفانوفتش بهدوء:

- لا، لم تكن رسالة واضحة البتة. مثال ذلك أنني بعثت إليك قصيدة "البطل" لتطبعها هنا، ولتحتفظ بالنسخ إلى أن تُطلب منك، وكذلك بعثت

إليك نشرتين ثورتين. فرددت هذا كله مع رسالة مشتبهة لا تعني شيئاً على وجه الإجمال.

- بل أعلنت صراحة أنني أرفض أن أطع.

- نعم، ولكن جوابك لم يكن واضحاً. لقد كتبت تقول: "لا أستطيع" وهذا لا يعني أبداً: "لا أريد". لقد أمكننا أن نفترض أنك ترفض بسبب بعض الظروف المادية. هكذا فهم جوابك، واستنتج منه أنك ما تزال عضواً في الجمعية. لقد عهدوا إليك بأشياء، فأصبحوا بذلك معرضين للخطر. هم يقولون هنا إنك إنما أردت أن تخدعهم لتحصل على بعض المعلومات الهامة ثم تشي بهم. وقد دافعت عنك بكل ما أوتيت من قوة، وأطعتهم على جوابك الذي يتألف من سطرين، كوثيقة تبرئك. ولكنني إذ أعدت قراءة هذه الرسالة اضطررت أن أعترف أنا نفسي بأنها لم تكن واضحة، وبأنها يمكن أن توقع في الخطأ.

- هل حرصت إذن على الاحتفاظ برسالتني؟

- فيم يضيرك هذا؟ إنها ما تزال معي.

صاح شاتوف غاضباً:

- هنيئاً لكم بها! ليكن ما يكون! إذا كان أصحابك الأغبياء هؤلاء يتصورون أنني وشيت بهم، فليس يهمني ما يتخيلون! وددت لو أعرف ما الذي يمكنكم أن تصنعوه بي!

- يمكن أن تُراقب، وأن تشنق عند أول نجاح تحقّقه الثورة.

- أي حين تستولون على السلطة وتسيطرون على روسيا؟

- لا تضحك. أعود فأقول لك إنني دافعت عنك. مهما يكن من أمر، فإنني أنصحك بأن تأتي هذا المساء. علام هذه الأقوال التي لا طائل تحتها، وفي هذا الزهو الزائف والعجب الباطل؟ أليس الأفضل أن تنفصل على مودة وصداقة؟ ينبغي لك على كل حال أن ترد إليهم المطبعة والأحرف، وكذلك الأوراق القديمة. على هذا إنما سنتفق.

جممجم شاتوف قائلاً:

- سأجيء.

كان خافض الرأس، شارد الذهن، حالم الهيئة. وكان بطرس ستيفانوفتش يتفحصه من مكانه خلصة.

وقال شاتوف فجأة يسأل وهو يرفع رأسه:

- هل سيحضر ستافروجين؟

- نعم، قطعاً.

- هيه، هيه!...

وصمت الرجلان من جديد. وابتسم شاتوف ابتسامة فيها مرارة واشمئزاز.

- وهل طُبعَت أخيراً قصيدتك الدنيئة "البطل" التي رفضت أن أطبعها؟

- نعم.

- وهل يؤكدون لطلاب المدارس الثانوية أن هرتسن نفسه هو الذي كتبها

في دفترك.

- نعم، هرتسن نفسه.

ساد صمت جديد دام ثلاث دقائق. ونهض شاتوف أخيراً وقال:

- اخرج من هنا. لا أريد أن أبقى معك.

فسرعان ما نهض بطرس ستيفانوفتش وقال بما يشبه المرح:

- ها أنا ذا أنصرف. كلمة أخيرة: هل كيريلوف وحيد تماماً في جناحه الآن

بغير خادمة؟

- نعم، وحيد تماماً. هيّا انصرف. إنني لا أطيق أن أبقى معك في غرفة

واحدة.

حدّث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً حين أصبح في الشارع: "ها أنت ذا

في أحسن حالة. وفي هذا المساء ستكون على ما أحب لك أن تكون. ما كان

يمكن أن أتمنى خيراً من هذا. نعم، ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا. إن

الإله الروسي نفسه قد أرسلك عوناً لي".

7

لا شك أنه تحرك كثيراً في ذلك اليوم، ولا شك أن مساعيه لم تخل من

نجاح إذا صدق ما كان يعبر عنه وجهه من بهجة منتشرة على أساريره حين

وصل إلى عند ستافروجين في الساعة السادسة تماماً من المساء. إلا أنهم لم يدخلوه على الشاب فوراً، فستافروجين كان منذ برهة قصيرة قد خلا إلى مافريكى نيقولايفتش في حجرة عمله. ولقد سبَّب هذا النبأ لبطرس ستيفانوفتش شيئاً من انشغال البال. وها هو ذا يجلس قرب باب الحجرة منتظراً خروج الزائر. كان يسمع الحديث ولكنه لا يميز الأقوال. ولم تدم زيارة مافريكى نيقولايفتش مدة طويلة. فإن فرخوفنسكى لم يلبث أن سمع صيحات قوية، ثم سرعان ما فُتح الباب وخرج الضابط شاحب الوجه ممتقع اللون، حتى إنه لم يلاحظ بطرس ستيفانوفتش، ومراً مسرعاً. فهرع بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة ستافروجين فوراً.

لا أملك أن أعفي نفسي من أن أصف هنا، على وجه التفصيل، اللقاء الذي تم بين "الخصمين المتنافسين"، وهو لقاء بدا أنه لا بد أن يكون مستحيلاً بسبب الظروف القائمة، ولكنه تم مع ذلك.

إليك كيف جرت الأمور: كان نيقولاى فسيفولودوفتش غافياً غفواً خفيفاً على ديوانه بعد الغداء، حين جاء ألكسى إيجورتش يعلن له عن زيارة مافريكى نيقولايفتش. فلما سمع ستافروجين هذا الاسم هبّ واقفاً على حين فجأة، وكأنه لم يصدّق أذنيه. غير أن ابتساماً لم تلبث أن ظهرت على شفتيه، ابتساماً فيها معنى الزهو بالانتصار، ولكن فيها معنى الدهشة المرتابة في آن واحد. ولا شك أن مافريكى نيقولايفتش الذي دخل في تلك اللحظة، قد خطفت تلك الابتسامه بصره، لأنه توقف في وسط الغرفة فجأة، وكأنه كان يتساءل أليس الأفضل أن يرجع أدراجه. ولكن ستافروجين قد أسرع بيدل تعبير وجهه أثناء ذلك، وها هو ذا يتقدم بضع خطوات للقاء الزائر ويمد إليه يده، وفي هيئته دهشة صادقة. غير أن مافريكى نيقولايفتش لم يتناول اليد الممدودة، وأسرع يأخذ كرسيّاً بحركة خرقاء، ويجلس أمام رب الدار دون أن يقول كلمة، ودون أن ينتظر أن يدعوه رب الدار إلى الجلوس.

جلس نيقولاى فسيفولودوفتش على الديوان موارباً، ونظر إلى الزائر بانتباه، وانتظر صامتاً.

قال مافريكي نيقولايفتش فجأة:

- تزوج ليزافتا نيقولايفنا إذا شئت.

وأغرب ما في الأمر أنه كان يستحيل على المرء أن يدرك من لهجته هل عبارته تلك رجاء أم هي نصيحة، أم هي تنازل، أم أمرٌ يأمره به.

لبث نيقولايفتش يفسفولودوفتش صامتاً. لكن الزائر وقد عبّر تعبيراً واضحاً عن الهدف من زيارته كان يحدق إليه بنظرة ثابتة، وينتظر جوابه.

قال ستافروجين أخيراً:

- إذا لم أخطئ، وما أنا بمخطئ حتماً، فإن ليزافتا نيقولايفنا خطيبتك.

أجاب الزائر مؤيداً بصوت واضح ثابت:

- نعم، نحن مخطوبان رسمياً.

- هل... تشاجرتما؟ معذرة يا مافريكي نيقولايفتش.

- لا! إنها "تحبني"، وهي "تقدرني". هذه أقوالها هي نفسها. وأقوالها

أثمن شيء عندي.

- طبعاً.

- ألا فاعلم مع ذلك أنها إذا ناديتها أنت أثناء قيام الكاهن بمراسم زواجنا

في الكنيسة أمام الهيكل وهي واضعة حجابها على وجهها، فسوف تبادر إلى

تركي أنا والآخريين في سبيل أن تلبّي نداءك وتتبع خطاك!

- حتى في لحظة الزواج؟

- حتى في لحظة الزواج.

- ألسنت تخطئ الظن والتقدير؟

- لا. إنها تحت الكره المستمر الصادق العميق الذي تحمله لك ينفجر في

قلبها الحب في كل لحظة... وينفجر الجنون... أصدق الحب وأوسع...

والجنون! وبالعكس: تحت الحب الذي تحمله لي ينفجر الكره، ينفجر

كره فظيع رهيب. ما كان لي أن أتخيل في يوم من الأيام قبل الآن حدوث

تحولات كهذه التحولات... أو انقلابات كهذه الانقلابات!...

- يدهشني مع ذلك أنك خطيب ليزافتا نيقولايفنا والحال ما وصفت! هل

لك حق في ذلك؟ هل أجازته هي لك؟

اكفهر وجه مافريكي نيقولا يفتش وخفض رأسه.
وقال أخيراً:

- إنك تنطق بأقوال لا داعي إليها ولا جدوى فيها. إنك تنتقم وتنتصر.
أنا على يقين من أنك تقرأ بين السطور. هل هنا مجال لزهو كهذا الزهو؟
ألست راضياً كل الرضى، مرتاحاً كل الارتياح؟ هل يُعقل أن أظل مضطراً إلى
وضع النقاط على الحروف؟ أن أكون ما أزال محتاجاً إلى توضيح الأمور؟
طيب! لكن! سوف أضع النقاط على الحروف إذا كنت تريد إذلالى. ليس
لي أي حق، ولم أحصل على أية إجازة. إن ليزافنا نيقولا يفنا ليست على علم
بشيء، وقد فقد خطيبها كل شعاع من عقل وأصبح مهياً لدخول مستشفى
من مستشفيات المجانين. وأعجب ما في الأمر أنه يجيئك هو نفسه ليعلن
لك ذلك. إنك الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يجعلها سعيدة، في هذا العالم،
وليس هناك إلا رجل واحد يستطيع أن يجعلها شقية: وهذا الرجل هو أنا. إنك
تكافح في سبيل الظفر بها، وتعذبها وتضطهدها، ولكنك - وهذا ما لا أدري
سببه - لا تتزوجها. إذا كان الأمر بينكما لا يعدو أن يكون أمر اختصاص حبيبين
قام بينهما في الخارج، وإذا كان يجب عليّ في سبيل إنهاء هذا الاختصاص أن
أضحّي بنفسي فأنا مستعد للقيام بهذه التضحية. ليست أقوالى هذه إجازة ولا
أمراً. فما ينبغي أن يُجرح من هذا شعورك، ولا أن تُمسّ كبرياؤك. إذا أردت
أن تحل محلي أمام الهيكل في الكنيسة ففي وسعك أن تفعل ذلك ولا تحتاج
لأن أجيّزه لك، وما كانت بي حاجة طبعاً إلى أن أعرض جنوني. لا سيما وأن
زواجنا، بعد هذه الخطوة التي قمت بها، قد أصبح مستحيلاً. لا أستطيع الآن
أن آخذها إلى الكنيسة للزواج: فوجودي هنا، وكوني جئت متنازلاً لك عن
خطيبتى، جئت أنت عدوّها، هما في نظري دناءة لن أستطيع احتمالها طبعاً.
- هل تتحر حين نزوج؟

- لا! ولكن أنتحر بعد مدة طويلة. لا أريد أن ألطخ بدمي ثوب زفافها.
وقد لا أنتحر لا الآن ولا في المستقبل.

- أغلب الظن أنك تقول هذا الكلام لتهدئني.
- لأهدئك؟ وهل يعينك قليل من الدم زيادة أو نقصاناً؟

كان شاحب الوجه، وكانت عيناه تسطعان. واران الصمت دقيقة.

استأنف ستافروجين كلامه فقال:

- اعذرني إذا أنا سألتك. إن هناك أسئلة لا يحق لي حتى أن ألقها عليك. غير أن بين تلك الأسئلة سؤالاً يخيل إليّ أنه يجوز لي إلقاؤه. قل لي: ما الذي حُصِّلَ على الاعتقاد بعواطفني نحو ليزافتا نيقولايفنا؟ على أي أساس أقمت هذا اليقين الذي أتاح لك أن تجيء إليّ وتصارحني بما صارحتني به... وأن تجازف فتعرض عليّ هذا العرض؟

قال مافريكي نيقولايفتش وهو ينتفض دهشة:

- كيف؟ ألم تحاول أن تخطبها؟ ألا تطمع في زواجها؟ ألا تفكر أنت نفسك في هذا؟

- إنني على وجه العموم لا أستطيع أن أكلم أي إنسان عن عواطفني نحو امرأة. معذرة. هذه سمة شاذة من سمات طبيعتي. ولكنني في مقابل ذلك سأقول لك الحقيقة كلها فيما يتعلق بالباقي: إنني متزوج، ويستحيل عليّ إذن أن أتزوج امرأة أخرى، أو أن أحاول "طلب يد امرأة أخرى".

بلغ مافريكي نيقولايفتش من الذهول أنه ارتمى إلى وراء، وحدّق إلى وجه ستافروجين بنظرة متجمدة. ثم دمدم يقول بعد برهة:

- تصور أنني لم أكن أتوقع أي شيء من هذا القبيل بتاتاً. لقد قلت منذ حين أنك لست متزوجاً... فصدّقت أنا أنك لست متزوجاً...

واصفر وجهه اصفراراً رهيباً. وها هو ذا يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية على حين فجأة، ويقول:

- بعد اعتراف كهذا الاعتراف، إن لم تدع ليزافتا نيقولايفنا وشأنها هادئة البال فإنك تشقيها، ولأضربك عندئذ بالعصا كما يُضرب كلب.

قال ذلك ونهض واثباً وأسرع يخرج من الغرفة.

وهُرع بطرس ستيفانوفتش يدخل على رب الدار، فوجده في حالة نفسية لم يكن يدور في خلد أن يجده عليها.

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً يبدو أن دخول بطرس ستيفانوفتش متعجلاً مستطلعاً عجيب الهيئة هو الذي أطلقه فيه:

- آ.. هذا أنت! أكنت تنصت على الباب؟ انتظر! لماذا كان عليك أن تجيء؟ أظن أنني كنت قد وعدتك بشيء ما... آ... نعم... تذكرت: سنذهب إلى "جماعتنا"! أنا سعيد بوصولك! لا تستطيع أن تتخيل شيئاً جاء في محله كوصولك الآن.

وتناول قبعته، وانصرف فوراً.

قال بطرس ستيفانوفتش مرحباً:

- إنك تضحك سلفاً من فكرة رؤية "جماعتنا".

وكان بطرس ستيفانوفتش يحاول تارة أن يمشي إلى جانب رفيقه على رصيف الأجر الضيق، وتارة يركض على وحل أرض الشارع، لأن ستافروجين لم يلاحظ البتة أنه كان يسير في وسط الرصيف فيملؤه كله.

أجاب ستافروجين يقول بصوت رنان فرح:

- أنا لا أضحك بتاتاً بالعكس: إنني مقتنع بأنهم جميعاً أناس جادون.

- ما هم إلا "أغبياء متجهّمون"، كما تفضلت فوصفتهم بهذا في يوم من

الأيام.

- لا شيء أدعى إلى التسلية أحياناً من رؤية "أغبياء متجهّمين"!

قال بطرس ستيفانوفتش:

- آ... لا شك أنك تفكر في ما فيكي نيقولايفتش. أنا واثق بأنه جاء يعرض

عليك أن يتنازل لك عن خطيبته، هه؟ تصور أنني أنا الذي حضضته على هذا

حضاً غير مباشر! وإذا رفض أن يتنازل عنها، فسأخذها منه أخذاً، هه؟

كان بطرس ستيفانوفتش يعرف حتماً ما يخاطر به حين يتكلم بهذه

اللهجة. ولكنه حين يكون في حالة من الالتهاب الشديد يؤثر أن يجازف بكل

شيء على أن يظل في حالة بلبلة ليس فيها يقين.

اكتفى ستافروجين بأن ضحك. وسأله:

- أما تزال متتوياً أن تساعدني؟

- نعم، إذا ناديتني، ولكن هل تعلم أن هناك وسيلة أخرى، أفضل كثيراً؟

- أعرف هذه الوسيلة.

- لا. إن الأمر ما يزال سراً. ولكن لا تنس أن هذا السر يكلف مالاً.

- أعرّف مبلغ المال اللازم!

كذلك قال ستافروجين، ولكنه سيطر على نفسه وصمت.

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قلق فجأة:

- كم؟ ماذا قلت؟

- قلت: اذهب إلى الشيطان، أنت وسرُّك! الأفضل أن تقول لي الآن: من

هم الذين سنلقاهم هناك؟ أنا أعلم أن الأمر أمر احتفال بعيد فرجنسكي،

ولكن من هم المدعوون إلى الحفلة؟

- أنواع شتى! وسيكون هناك كيريلوف أيضاً.

- جميع أعضاء فئتك؟

- هو! أرى أنك متعجل كثيراً. إننا لم نكوّن هنا فئة واحدة حتى الآن!

- فماذا فعلت إذن حتى استطعت أن توزع ذلك العدد الكبير كله من

النشرات التحريضية؟

- في المكان الذي نذهب إليه لا يوجد إلا أربعة أعضاء منتسبون. أمّا

الآخرون فإنهم ينتظرون متجسسين بعضهم على بعض، وينقلون إليّ كل

شيء. أناس مضمونون. تلك كلها مواد يجب تنظيمها، ثم تجري الأمور.

ثم إنك أنت الذي وضعت النظم التي يجب اتباعها، فما حاجتي إلى شرح

هذا لك؟

- والأمر لا تجري؟

- بل تجري! لا يمكن أن تجري خيراً من ذلك! سوف أضحكك: إن أحسن

وسيلة للتأثير إنما هي الزي الرسمي الموحد. لا شيء أقوى أثراً من الزي

الرسمي الموحد. لذلك أوجدت طائفة كبيرة من الألقاب والوظائف: إنني

أنشئ سكرتيرين، ومفوضين سرّيين، وأمناء صندوق، ورؤساء، ومسجلين،

ومساعدين للمسجلين. ذلك كله يرضي كثيراً، ويحدث في النفوس أثراً

كبيراً. ثم هنالك الناحية العاطفية طبعاً. إن الفضل في نجاح الاشتراكية يرجع

أكثره إلى الناحية العاطفية. وإنما البلاء أن المرء يقع أحياناً على ضباط صغار

حائقين مسعورين ما يلبثون أن يعضوا. وهناك أيضاً أناس ليسوا إلا أوغاداً.

هم رجال شجعان على وجه الإجمال، رجال يمكن الانتفاع بهم كثيراً. غير

أن المرء يضيع معهم وقتاً طويلاً، لأن عليه أن يراقبهم عن كثب. والقوة الرئيسية أخيراً، أو قل الأسمنت الذي يربط كل شيء ويشد بعضه إلى بعض، إنما هو الخوف من رأي الآخرين. هذه قوة حقاً! إنني لأتساءل أحياناً عمن يجب أن نشكر له أنه برع تلك البراعة كلها في أنه جعل الناس لا يملك واحد عنهم فكرة شخصية. لكنهم يستحبون أن يفكروا لأنفسهم بأنفسهم.

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحمّل نفسك هذا العناء كله؟

- كيف لا تستفيد من هذا الظرف؟ كيف لا تستولي على من يمد إليك ذراعيه؟ أنت لا تؤمن حقاً بالنجاح؟ الإيمان موجود، لكن ما نفتقر إليه إنما هو إرادة العمل. ومع أمثال هؤلاء الناس إنما يكون النجاح ممكناً. أقول لك: إنهم مستعدون لأن يلقوا أنفسهم في النار إذا لزم الأمر. يكفيني من أجل ذلك أن آخذ عليهم فتور اعتقاداتهم. إن البلهاء يعيرون عليّ أنني خدعت جميع الناس حين تكلمت عن اللجنة المركزية، و"تشعباتها التي لا نهاية لها". أنت نفسك لمتني على هذا في ذات يوم. والواقع إنني لم أخدع أحداً: إن اللجنة المركزية هي أنت وأنا. وأما تشعباتها فسوف يكون لنا منها القدر الذي نشاء.

- ولا أحد غير الرعاع؟

- هؤلاء مواد. سوف يكونون نافعين في شيء ما.

- وما تزال تعتمد عليّ؟

- أنت زعيم. أنت قوة. أنا أفف في ظلك. أنا سكرتيرك.

إننا نبحر على ظهر سفينة، مجاديفها من قيقب، وأشرعتها من حرير، وفي مؤخرتها تتربع ليزافتا نيقولايفنا الجميلة⁽¹⁾... أوه! نسيت الأغنية!...

قال ستافروجين ضاحكاً:

- ها هو ذا ينسى بقية القصة. سأحكي لك حكاية أخرى. لقد أتيت منذ هنية على تعداد القوى التي تملكها وتتصرف فيها. صحيح أن الوظيفية والعاطفية هما إسمنت ممتاز حقاً. غير أن هناك ما هو خير من هذا: ادفع أربعة من أعضاء فئتك إلى قتل خامسهم بحجة أنه يخونهم أو يتجسس

(1) هذا تذكّر لأغنية شعبية تصور زعيم ثورة 1667، ستيفان رازين، مبحراً في نهر الفولجا مع فتاة جميلة جالسة على حافة سفينته.

عليهم أو يشي بهم، فإن هؤلاء الأربعة ما إن يشتركوا معاً في سفك دم حتى يرتبطوا ارتباطاً قوياً، فيصبحوا عبيداً لك، لن يجسروا بعد ذلك أن يتمرّدوا، أو أن يحاسبوا. ها ها ها...!

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه: "أنت... أنت ستدفع ثمن هذا. بل ستدفعه في هذا المساء نفسه. إنك تجيز لنفسك أشياء كثيرة مرنة في الكثرة!..."

في هذا أو في ما يشبهه إنما فكر بطرس ستيفانوفتش. وكانا قد اقتربا من دار فرجنسكي.

سأله ستافروجين قائلاً:

- أغلب الظن أنك قدمتي بصفتي عضواً في اللجنة المركزية آتياً من بطرسبرج، أو مفتشاً على صلة بالأُممية⁽¹⁾، أليس كذلك؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش بقوله:

- لا، لم أقدمك مفتشاً. لست أنت المفتش. وإنما أنت أحد الأعضاء المؤسسين، وأنت على علم بأهم أسرار التنظيم. ذلك هو دورك. سوف نتحدث حتماً، أليس كذلك؟

- من زعم لك هذا؟

- أنت الآن ملزم بالتحدث.

وقف ستافروجين مدهوشاً في وسط الشارع، غير بعيد عن أحد المصاييح. ولبث بطرس ستيفانوفتش ينظر إليه وفي وجهه تحدٍ. فبصق ستافروجين وتابع طريقه. ثم سأل صاحبه:

- وأنت هل ستحدث؟

- لا بل أكتفي بالإصغاء إليك.

- شيطان يأخذك! ولكن اسمع... إنك توحى إليّ في الواقع بفكرة...

أسرع بطرس ستيفانوفتش يسأله:

- ما هي هذه الفكرة؟

(1) "الأمية" أو "الانترناسيونال": معروف أنه كان في ذلك الأوان أُميتان اثنتان إحداهما هي "الرابطه الأمية للعمال" التي أسسها كارل ماركس في لندن سنة 1864، والثانية هي "الرابطه الديموقراطية الاشتراكية" التي أنشأها باكونين في جنيف. ولقد كان تشايف على صلة بالثانية.

- جائر جداً أن أتحدث هناك. ثم أهوي عليك بضرب مبرّح!
 - بالمناسبة، لقد نقلت إلى كارمازينوف منذ قليل أنك قلت إن من الواجب أن يُجلد... لا جلدًا شكلياً فحسب، بل جلدًا حقيقياً كما يُجلد فلاح!
 - لكنني لم أقل هذا الكلام في لحظة من اللحظات.
 - سيان... "إذا لم يكن هذا واقعاً، فهو خيال جميل".⁽¹⁾ (باللاتينية).
 - طيب... شكراً! أنا ممتن أعظم الامتنان.
 - هل تعرف ماذا يقول كارمازينوف؟ يقول إن عقيدتنا في الواقع تنفي الشرف، وإن خير وسيلة لإغراء الروس وجرّهم إنما هي الدعوة الصريحة إلى حق المرء في إنكار الشرف.
 صاح ستافروجين قائلاً:
 - كلمات رائعة! كلمات من ذهب! لقد وضع إصبعه على الحقيقة!
 الحق في إنكار الشرف! جميع الناس سيجيئون إلينا. لن يشاء أحد أن يبقى في الخلف! ولكن ألا يمكن أن تكون فرداً من أفراد من الشرطة السرية يا فرخوفنسكي؟
 - حين يكون في رأس المرء أفكار كهذه، فإنه يحاذر أن يعلنها...
 - صحيح. ولكننا نتكلم الآن على انفراد لا نسمعنا أحد.
 - لا، لست من الشرطة السرية بعد. ولكن كفى! لقد وصلنا. اصطنع السحنة المناسبة للظروف يا ستافروجين. إنني دائماً أفتعل هيئة خاصة حين أدخل عليهم. يكفي أن تتخذ هيئة مظلمة. ذلك كل شيء، ليس الأمر أصعب من هذا.

(1) "إذا لم يكن هذا واقعاً فهو خيال جميل": من الأمثال السائرة الإيطالية.

شخصيات الرواية

أركل

ضابط، عضو في الجمعية السرية الثورية

آرينا بروخورفنا

راجع اسم فرجنسكي

ألكسي إيجورتش أو إيجوروفتش

خادم فرفارا بتروفنا، ومحل ثقتها

ألكسي نيليتش

راجع اسم كيريلوف

ليزافنا نيقولايفنا

راجع اسم لوشين

آندره أنطونوفتش

راجع اسم لمبكة

إيفان أوسيبوفتش

حاكم المقاطعة السابقة. قريب فرفارا بتروفنا ستافروجين.

باشكا

تصغير اسم بافل فيدوروفتش

بتروشكا

تصغير اسم بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي

براسكوفيا إيفانوفنا

راجع اسم دروزدوف.

بطرس ستيفانوفتش

ويرد اسمها مصغراً: بتروشكا

راجع اسم فرخوفنسكي

بلومر (فون بلومر)

سكرتير الحاكم آندره انطونوفتش فون لمبكة، ومحل ثقته.

تلياتنيكوف (أليوشا تلياتنيكوف)

سكرتير الحاكم السابق إيفان أوسيوفتش

توشين

هي إلزافتا أو إلزافتا نيقولايفنا توشين. ويرد اسمها مصغراً إيزا، ولدت

لبراسكوفيا إيفانوفنا من زوجها الأول الكابتن لوشين. خطيبة مافريكي

نيقولايفتش.

تولكاتشنكو

مستخدم في السكك الحديدية. عضو الجمعية السرية الثورية.

تيخون

أسقف معتزل في دير. يتلقى اعتراف نيقولاي فسيفولودوفتش

ستافروجين.

جاجانوف (آرتيمي بافلوفتش جاجانوف).

كابتن متقاعد. ابن بافل بافلوفتش جاجانوف، رجل عجوز ممن يحيطون

بستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

ج... ف (أنطون لافرنيتيفتش)

القاص. صديق ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

جوليا ميخائيلوفنا

راجع اسم لمبكة

داريا بافلوفنا

ويرد اسمها مصغراً: داشا، داشكا

راجع اسم شاتوف.

داشا، داشكا

تصغير اسم داريا بافلوفنا

دروزدوف (براسكوفيا إيفانوفنا دروزدوف)

أرملة الكابتن توشين، ثم الجنرال إيفان إيفانوفتش دروزدوف، صديقة آل ستافروجين. أم إيزافتا نيقولايفنا توشين.

ستازيا

تصغير اسم ناستاسيا

ستافروجين (فرفار بتروفنا ستافروجين)

مالكة أطيان، غنية، أرملة الجنرال. أم نيقولاي فسيفولودفتش (نيقولنكا)، الضابط سابقاً، المنتمي إلى الجماعة الثورية. متزوج سرّاً من تيموفتينا لبيادكين.

ستيفان تروفيموفتش

راجع اسم فرخوفنسكي

سيميون إيجورفتش

راجع اسم كارمازينوف

سيميون ياكوفلفتش

"مجنذوب" ينسبون إليه مواهب نبوءة.

شاتوف (إيفان شاتوف)

طالب، عضو سابق في الجمعية السرية الثورية. ابن القن بافل فيدوروفتش (باشكا) الذي كان خادم آل ستافروجين. زوج ماريّا أجنايتفنا، وأخو داريا بافلوفنا (داشا، داشكا). ربيب فرفار بتروفنا ستافروجين.

شيجاليوف

أخو آرينا بروخورفنا فرجنسكي. عضو في الجمعية السرية الثورية.

صوفيا ماتفييفنا أوليتينا

بائعة متجولة، رفيقة سفر ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

فرجنسكي

دوستوفسكي الشياطين

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟

الشیطان یجّرنا هنا وهناك

ویدیرنا إلى كل الجهات

بهذه الآيات من بوشكين، وبمقطع من انجيل لوقا عن الشياطين التي دخلت في الخنازير يفتتح دوستوفسكي روايته التي يعطيها عنوان "الشياطين".

أما الشياطين فهم أولئك الذين يتصارعون على روسيا وليس من أجلها.

في العام 1871 نشر دوستوفسكي الجزء الأول من روايته هذه، وتلك المرحلة كانت مرحلة الانقسامات والأفكار المتصارعة، حيث تنمو أفكار الاشتراكية، والأفكار التي تدعو إلى التحرر من سلطة الكنيسة، وحيث سلطة الدولة تبدو أضعف، وروسيا ترى نفسها أقل من ألمانيا وبقية أوروبا.

عبر نماذج يختارها دوستوفسكي بعناية، من المجتمع الروسي، وهي نماذج لشخصيات حقيقية في جزء كبير منها، يقدم لنا صورة عن المجتمع الروسي في تلك الأيام، وعن النقاشات الواسعة التي كانت تدور حول الأفكار الجديدة، وحول رغبة رؤية روسيا في مصاف الدول الأكثر تحضراً، وحول حياة الشعب الروسي. وتشكل المناقشات حول القضايا الأدبية وحول الدين والإيمان، وحول الخير والشر، والارستقراطية، والديمقراطية، وحرية التفكير، والصراع بين العلم والدين... الخلفية التي يبني عليها دوستوفسكي نماذج شخصياته.

ISBN 978-9938-886-52-8



9 789938 886528

الشروق
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس